تفسير

مقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد علي الحائري الطهراني

المعروف بالمفسر

الناشر

الشيخ محمد الآخوندي

صاحب

دار الكتب الإسلامية

بازار سلطاني - طهران

الجزء التاسع

من كتاب التفسير

المسمى بمقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد علي الحائري الطهراني

اعلى الله مقامه

المعروف بالمفسر

الناشر

الشيخ محمد الآخوندي

مدير

دار الكتب الإسلامية

بازار سلطاني - طهران

مطبعة الحيدري بطهران

١٣٣٨ هـ ش

Shiabooks.net

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نزل القرآن نوراً وسراجاً وقمراً منيرا . و الصلاة والسلام على رسوله الذى انزل عليه الكتاب بيانا للناس و هدى و موعظة للمتقين ، وعلى آله الطيبين ثانى الثقلين . ولعنة الله على أعدائهم أجمعين .

و بعد فقد بذل علماء الاسلام قديماً و حديثاً جهدهم فى تفسير علوم القرآن وتبيين لغاته ومشكلاته ، ففريق فسروا ألفاظه و بينوا حقائقه من مجازه ، وجمع جمعوا أحكامه و بينوا حلاله وحرامه ، وطائفة كشفوا عن تأويلاته قناعه ؛ وكيفماكان ماوصلوا الا الى مبلغ علمهم و منتهى هممهم ، وأنى لهم الوصول الى حقائق التنزيل و دقائق التأويل ، لان القرآن هو النور الذى أنزل الله على قلب حبيبه محمد صلى الله عليه و آله . الا أن المتمسكين بولاء أهل بيت الوحى المستضيئين بنورعلمهم المامورين بالتمسك بهم فى حديث الثقلين قداغترفوا من بحارعلوم أهل بيت النبى غرفاًوغاصوا فيها واقتنوامنهادرراً .

وهاهى المقتنيات الدرر ، قد اقتناها علم من الاعلام ثمرة الشجرة الطيبة والنخبة من السلالة الطاهرة : « الحاج الميرسيد على الحائرى » تغمده الله بغفرانه ، واوتى كتابه هذا بيمينه . قداقتنى من الدرر أغلاها و من الغرر أسناها فحقيق أن يتنافس المتنافسون فى الاستفادة منها .

وقد وفق الله تلميذه المستضىء بنورعلمه المقتفى أثره : الحاج ميرزا عبدالحسين المعروف بمحسنيان لبذل الجهد باحياء هذا السفرالجليل القيم .

هذا ومن الله سبحانه على عبده الزاكى صاحب الهمة القعساء وارومة الفضل : الحاج محمود الكاشانى ؛ فأنعم عليه وشرفه باعطاء نفقة طبع الكتاب خدمة للدين واتحافاً للطيفة والده السعيد الحاج محمد حسين الكاشانى طيب الله رمسه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ونشكرجميل مساعى الشاب الفاضل الاريب السيد الكاظم الموسوى المياموى حيث بذل جل أوقاته لمقابلة اجزاء الكتاب مع نسخة الاصل و تخريج الايات المنثورة فى ثناياه و اسناد مايهم من رواياته و بعض الاصلاح فيه . ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتمامه بمحمد وآله .

لجنة التحقيق والتصحيح لدارالكتب الاسلاميه

اعوذ بالله من الشيطان الرجيم

سورة سبأ

(مكية)

أُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : من قرأ سورة سبأ لم يبق نبيّ ولا رسول إلّا كان له يوم القيامة رفيقاً ومسافحاً .

وروى ابن اُذينة عن الصادق عليه السلام قال : من قرأ الحمدين جميعاً : سبأ و فاطر في ليلة لم يزل ليلته في حفظ الله و كلاءته ومن قرأهما في نهاره لم يصبه في نهاره مكروه واُعطي من خير الدنيا وخير الآخرة مالم يخطر على قلبه ولم يبلغ منتهاه .

التفسير : لمّا ختم الله سورة الأحزاب ببيان الغرض في التكليف وأنّه يجازي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته افتتح هذه السورة بالحمد له على نعمته و كمال قدرته :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى له مافى السموات ومافى الارض وله الحمد فى الاخرة وهو الحكيم الخبير (١) يعلم مايلج فى الارض ومايخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها وهو الرحيم الغفور (٢) وقال الذين كفروا لاتاتينا الساعة قل بلى وربى لتأتينكم عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الارض ولا اصغر من ذلك ولا اكبر الا فى كتاب مبين (٣) ليجزى الذين آمنوا و عملوا الصالحات اولئك لهم مغفرة ورزق كريم (٤) والذين سعوا فى آياتنا معاجزين اولئك لهم عذاب من رجز اليم (٥) .

الحمد هو الوصف بالجميل على جهة التعظيم ونقيضه الذمّ وهوالوصف بالقبيح على جهة التحقير ثمّ ينقسم فمنه ماهو أعلى ومنه ماهو أدنى والأعلى مايقع على وجه العبادة ولايستحقّها إلّا الله لأنّ إحسان الله لايوازيه إحسان أحدٍ من المخلوقين ويستحقّ سبحانه الحمد على الإحسان والإنعام والسور المفتتحة بالحمد خمس سور : الفاتحة والأنعام والكهف وسبأ وفاطر .

ومن المعلوم أنّ نعم الله مع كثرتها غير مقدور على الإحصاء لكنّها واضحة في قسمين نعمة الإيجاد ونعمة الإبقاء قلنا : في هاتين النعمتين حالتان الابتداء والإعادة وفي كلّ من الحالتين له علينا منّة و يقتضي أن نقوم بشكرها و حمده فأشار سبحانه بنعمة الإيجاد بقوله : [الحمد لله الّذي له ما في السماوات وما في الأرض]وبنعمة الإبقاء والإعادة بقوله : [وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير] الحكيم الفاعل الّذي فعله على وفق العلم والمصلحة و الخبير هو الّذي يعلم عواقب الأمور و بدؤها .

[يعلم مايلج في الأرض] أي مايدخل في الأرض من مطرٍ أوميّتٍ أو كنزٍ أوحبّة [وما يخرج منها] من الأشجار و السنابل [وما ينزل من السماء] من أنواع

رحمته ومنها المطر والملائكة والوحي والقرآن [وما يعرج فيها] منها الكلم الطيّب لقوله : « إليه يصعد الكلم الطيّب(١) » ومنها الأرواح ومنها الأعمال الصالحة لقوله : «والعمل الصالح يرفعه»و قدّم مايلج في الأرض على غيره لأنّ الحبّة تبذر ثمّ تسقى وهو تعالى يدبّر كلّ هذه الأمور بعلمه وحكمته [وهو الرحيم الغفور] أي هو الرحيم بعباده مع علمه بالمعاصي منهم فلا يعاجلهم بالعقوبة ويمهلهم للتوبة و غفور و ساتر عليهم ذنوبهم في الدنيا و متجاوز عنها في العقبى [وقال الّذين كفروا] أي منكروا البعث [لاتأتينا الساعة] يعني يوم القيامة فردّ سبحانه عليهم بقوله : [قل بلى وربّي لتأتينّكم] وأكّد إتيانها باليمين .

فلو قيل : كيف يتأكّد باليمين مع أنّهم مشركون و المسألة الأصوليّة لاتثبت باليمين ؟

فالجواب أنّه سبحانه لم يقتصر على اليمين بل ذكر الدليل وهو قوله : « ليجزي الّذين آمنوا » وبيان كونه دليلاً هو أنّ المسيء قد يبقى في الدنيا مدّة مديدة في اللّذات العاجلة ويموت عليها والمحسن قد يدوم في دار الدنيا في الآلام الشديدة مدّة مديدة و يموت عليها فلولا دار يكون الجزاء فيها لكان الأمر في نهاية الظلم وعلى خلاف الحكمة والدين.

هو [عالم الغيب لايعزب عنه مثقال ذرّة في السماوات و لا في الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلّا في كتاب مبين] أي في اللوح المحفوظ يقدر على جمعها فالساعة ممكنة القيام وقد أخبر عنها الصادق فتكون واقعة و قوله : « في السماوات » إشارة إلى علمه بالأرواح « وفي الأرض » إشارة إلى علمه في الأجسام والإنسان روح و جسم ولا يستبعد معاده والإعادة للجزاء .

فقال : [ليجزي الّذين آمنوا وعملوا الصالحات] أي ليكافيهم بما يستحقّونه من الثواب على صالح أعمالهم [أُولئك لهم مغفرة ورزق كريم] ستر لذنوبهم ولهم مع ذلك رزق هيّيء لاتنقيص فيه ولاتكدير، و قيل : معنى الرزق الكريم الجنّة . والرزق الكريم مايأتي من غير طلب .

(١) فاطر : ١٠ .

وعن محمّد بن إسماعيل البخاري أنّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يخرج من النار من قال : لاإله إلّا الله وفي قلبه وزن ذرّة من الإيمان. ووصف الرزق بقوله : « كريم » ولم يصف المغفرة لأنّ المغفرة واحدة و هي للمؤمنين والرزق منه شجرة الزقّوم و الحميم ومنه الفواكه والشراب الطهور فميّز الرزق لحصول الانقسام فيه ولم يميّز المغفرة لعدم الانقسام فيها .

ثمّ قال سبحانه : [والّذين سعوا في آياتنا معاجزين] أي الّذين سعوا في إبطال حججنا وفي تزهيد الناس عن قبولها مقدّرين إعجاز ربّهم بزعمهم وظانّين أنّهم يفوتونه و يسعون في ترويج كذبهم و باطلهم [لهم] في مقابلة الرزق الكريم [عذاب] من جنس سوء العذاب شديد الإيلام و الزجر سوء العذاب كأنّه قال : عذاب مولم من أسوء العذاب .

قوله تعالى : ويرى الذين اوتوا العلم الذى انزل اليك من ربك هو الحق و يهدى الى صراط العزيز الحميد (٦) و قال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم اذا مزقتم كل ممزق انكم لفى خلق جديد (٧) افترى على الله كذباً ام به جنة بل الذين لا يؤمنون بالاخرة فى العذاب و الضلال البعيد (٨) افلم يروا الى ما بين ايديهم و ما خلفهم من السماء والارض ان نشأ نخسف بهم الارض او نسقط عليهم كسفا من السماء ان فى ذلك لاية لكل عبد منيب (٩) .

قوله : [و يرى الّذين] يجوز أن يكون منصوباً عطفاً على « ليجزي » و يجوز أن يكون مرفوعاً على الاستيناف أي و يعلم الّذين اُعطوا العلم و المعرفة بوحدانيّة الله و هم أصحاب محمّد صلى الله عليه وآله وسلم عن قتادة وقيل : و هم المؤمنون من أهل الكتاب عن الضحّاك . وقيل : هم كلّ من اُوتي العلم بالدين و هذا أولى لعمومه .

[الّذي اُنزل إليك من ربّك هو الحقّ] يعني القرآن لأنّهم يتدبّرون ويتفكّرون فيه فيعلمون أنّه ليس من قبل البشر وهو أي القرآن [يهدي إلى صراط العزيز الحميد] أي دين الله القادر الّذي لا يغالب وهو المحمود في جميع أفعاله وفي الآية دلالة على فضل العلم وفضيلة العلماء .

ثمّ عاد سبحانه إلى الحكاية عن الكفّار و قال : [الّذين كفروا] بعضهم لبعض أو القادة للأتباع على وجه الاستبعاد والتعجّب [هل ندلّكم على رجل] يعنون محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم [ينبّئكم إذا مزّقتم كلّ ممزّق أنّكم لفي خلق جديد] أي يزعم أنّكم تبعثون بعد أن تكونوا عظاماً ورفاتاً وتراباً أي إذا تفرّقت أو صالكم وقطعتم كلّ تقطيع وأكلتكم الأرض أو السباع والطيور ، و المراد بالجديد المستأنف المعاد أي كيف يتجدّد خلقكم بأن تنشروا و تبعثوا [أفترى على الله كذباً] أي هل كذب على الله متعمّداً حين زعم أنّا نبعث بعد الموت و هو استفهام تعجّب منهم و إنكار [أم به جنّة] أي أو به جنون فهو يتكلّم بما لا يعلم .

ثمّ ردّ سبحانه عليهم قولهم : فقال : ليس الأمر على ما قالوا من الافتراء والجنون [بل الّذين لا يؤمنون بالآخرة] أي هؤلاء المنكرون للبعث والجزاء [في العذاب و الضلال البعيد] من الحقّ .

ثمّ وعظهم سبحانه فقال : [أفلم يروا إلى ما بين أيديهم] أي أفلم ينظر هؤلاء الكفّار إلى ما بين أيديهم [و ما خلفهم من السماء و الأرض] كيف أحاطت بهم و ذلك لأنّ الإنسان حين نظر رأى السماء والأرض قدّامه و خلفه و عن يمينه و عن شماله ولا يقدر على الخروج منها فيستدلّ بهما على قدرة الله و يعرفون أنّا قادرون على إهلاكهم .

فقال : [إن نشأ نخسف بهم الأرض] كما خسفنا بأقوام و كما خسفنا بقارون [أو نسقط عليهم كسفاً من السماء] أي قطعة من السماء نوقعها عليهم ونغطّيهم و نهلكهم [إنّ في ذلك] أي فيما ترون من السماء و الأرض و القدرة [لآية لكلّ عبد منيب] لدلالة لكلّ عبد رجع عن معصيته إلى طاعته فلمَ لا يرتدعون هؤلاء من التكذيب و الكفر ؟

قوله تعالى : و لقد آتينا داود منا فضلا يا جبال اوبى معه و الطير و ألناله الحديد (١٠) ان اعمل سابغات و قدر فى السردوا عملوا صالحاً انى بما تعملون بصير (١١) و لسليمان الريح غدوها شهر و رواحها شهر وأسلناله عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه باذن ربه ومن يزغ منهم عن امرنا نذقه من عذاب السعير (١٢) يعملون له ما يشاء من محاريب و تماثيل

و جفان كالجواب و قدور راسيات اعملوا آل داود شكرا و قليل من عبادى الشكور (١٣) فلما قضينا عليه الموت مادلهم على موته الادابة الارض تاكل منسأته فلما خر تبينت الجن ان لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين (١٤) .

لمّا تقدّم ذكر عباد الله المنيبين إليه ذكر منهم من أناب و أصاب فقال سبحانه : [و لقد آتينا داود منّا فضلاً] أي أعطينا داود منّا نعمة و إحساناً و فضّلناه على غيره بما أعطيناه من النبوّة و الكتاب و فصل الخطاب .

ثمّ فصّل سبحانه ما أعطاه فقال : [يا جبال أوّبي معه و الطير] أي قلنا للجبال : يا جبال سبّحي معه إذا سبّح ، و أمر الله الجبال أن تسبّح معه إذا سبّح فسبّحت معه ، و تأويله : ارجعي معه التسبيح من آب يؤوب ، و يجوز أن يكون سبحانه فعل في الجبال ما يأتي به منها التسبيح معجزاً له و أمّا الطير فيجوز أن يسبّح و يحصل له من التمييز ما يتأتّى منه ذلك بأن يزيد الله في فطنته فيفهم ذلك . و قيل : المعنى : يا جبال سيري معه فكانت الجبال و الطير تسير معه أينما سار و كان ذلك معجزاً له و التأويب السير بالنهار . و قيل : معناه ارجعي إلى مراد داود فيما يريده من استنباط عين و استخراج معدن و وضع طريق .

القمّي قال : كان داود إذا مرّ بالبراري يقرأ الزبور تسبّح الجبال والطير والوحوش معه و ألان الله الحديد بيده كالشمع حتّى كان يتّخذ منه ما أراد و قال : أُعطي داود و سليمان ما لم يعط أحداً من الأنبياء من الآيات علّمهما منطق الطير وألان لهما الحديد و الصفر من غير نار و مطرقة و جعلت الجبال أن يسبّحن مع داود .

[أن اعمل سابغات] أي قلنا له : أن اعمل من الحديد دروعاً تامّات . و إنّما ألان الله الحديد لداود لأنّه أحبّ أن يأكل من كسب يده فألان له الحديد و أمره بصنعة الدرع وكان أوّل من اتّخذها و كان يبيعها ويأكل من ثمنها ويطعم عياله ويتصدّق منه .

قال الصادق عليه السلام : وذلك لأنّ الله أوحى إليه ياداود نعم العبد أنت إلّا أنّك تأكل من بيت المال فبكى داود أربعين صباحاً فألان الله له الحديد فكان يعمل في كلّ يوم درعاً

و يبيعها بألف درهم فاستغنى عن بيت المال .

قوله : [و قدّر في السرد] أي عدّل في نسج الدروع و منه قيل لصانعها : سرّاد و زرّاد ،المعنى : لا تجعل الحلق دقاقاًفتكسر الحلق ولاغلاظاًفتثقل . و قيل : معناه اجعله و اصنعه بقدر الحاجة .

حكي أنّ لقمان حضر داود عند أوّل درع عملها فجعل يتفكّر فيها و لا يدري ما يريد أن يصنع داود و لكن لم يسأله حتّى فرغ داود منها ثمّ قام فلبسها و قال : نعم جنّة الحرب هذه فقال لقمان عند ذلك : الصمت حكمة و قليل فاعله .

[و اعملوا صالحاً] أي وقلنا : اعمل أنت وأهلك الصالحات و هي الطاعات شكراً لله على عظيم نعمه [إنّي بما تعملون بصير] أي أنا عالم بما تفعلونه لا يخفى عليّ شيء ممّا تفعلونه من أفعالكم .

ثمّ ذكر سبحانه ما آتى سليمان وأعطاه من الفضل والكرامة فقال : [ولسليمان الريح] أي و سخّرنا لسليمان الريح [غدوّها شهر و رواحها شهر] أي مسير الريح في النهار إلى الظهر مسيرة شهر و من الظهر إلى العشاء مسيرة شهر فكانت تسير في تمام اليوم مسيرة شهرين للراكب . قيل : كان يغدو من دمشق فيقيل بإصطخر فارس و بينهما مسيرة شهر للمسرع و يروح من إصطخر و يبيت بكابل وبينهما مسيرة شهر تحمله الريح مع جنوده أعطاه الله الريح بدلاً من الصافنات الجياد .

[و أسلناله عين القطر] أي أذبناله عين النحاس و أظهرناها له قالوا : اُجريت له عين الصفر ثلاثة أيّام بلياليهنّ جعلها الله له كالماء .

[و من الجنّ من يعمل بين يديه بإذن ربّه] أي و سخّرنا له من الجنّ من يعمل له بحضرته وأمام عينه ما يأمرهم به من الأعمال كما يعمل الآدميّ بين يدي الآدميّ بإذن الله و كان عَلَيْهِ السَّلَامُ يكلّفهم الأعمال مثل عمل الطين . قال ابن عبّاس : سخّرهم الله لسليمان و أمرهم بطاعته فيما يأمرهم به و في الآية دلالة على أنّه قد كان من الجنّ من هو غير مسخّر له .

قوله : [و من يزغ منهم عن أمرنا] منهم من المسخّرين [نذقه من عذاب السعير] أي

و من يعدل من هؤلاء الجنّ المسخّرين نذقه عذاب النار في الآخرة و في الآية دلالة على أنّهم قدكانوا مكلّفين . و قيل : معناه نذقه عذاب النار في الدنيا وأنّ الله سبحانه و كّل بهم ملكاً بيده سوط من نار فمن زاغ منهم عن طاعة سليمان ضربه ضربة أحرقته .

قوله : [يعملون له ما يشاء من محاريب] و هي بيوت العبادة أو البيوت الشريفة العالية و كان ممّا عملوه بيت المقدس و قد كان الله عزّ وجلّ سلّط على بني إسرائيل الطاعون فهلك خلق كثير في يوم واحد فأمرهم داود أن يغتسلوا و يبرزوا إلى الصعيد بالذراريّ و الأهلين و يتضرّعوا إلى الله لعلّه يرحمهم و ذلك صعيد بيت المقدس قبل بناء المسجد و ارتفع داود فوق الصخرة فخرّ ساجداً يبتهل إلى الله وسجدوا معه فلم يرفعوا رؤوسهم حتّى كشف الله عنهم الطاعون .

فلمّا أن شفّع الله داود في بني إسرائيل جمعهم داود بعد ثلاث و قال لهم : إنّ الله قد منّ عليكم و رحمكم فجدّدوا له شكراً بأن تتّخذوا من هذا الصعيد الّذي رحمكم الله فيه مسجداً ففعلوا و أخذوا في بناء بيت المقدس و كان داود ينقل الحجارة لهم على عاتقه و كذلك خيار بني إسرائيل حتّى رفعوه قامة ولداود يومئذ سبع وعشرون و مائة سنة فأوحى الله إلى داود أنّ تمام بنائه تكون على يدي ابنه سليمان .

فلمّا صار داود ابن أربعين و مائة سنة توفّاه الله و استخلف سليمان فأحبّ إتمام بيت المقدس فجمع الجنّ و الشياطين و قسّم عليهم الأعمال يخصّ كلّ طائفة منهم بعمل فأرسل الجنّ و الشياطين في تحصيل الرخام والمها (١) الأبيض الصافي من معادنه و أمر ببناء المدينة من الرخام و الصفائح و جعلها اثني عشر ربضاً وأنزل كلّ ربض منها سبطاً من الأسباط .

ولمّا فرغ من بناء المدينة ابتدأ في تتميم المسجد فوجّه الشياطين فرقاً فرقاً يستخرجون الذهب و اليواقيت من معادنها و فرقة يقلعون الجواهر و الأحجار من أماكنها و فرقة يأتون بالمسك و العنبر و سائر الطيب و فرقة يأتونه بالدرّ من البحار فاُوتي بشيء من

---

(١) الرخام : المرمر و المها جمع المهاة مثل لها جمع لهات : البلور ، و الصفائح جمع الصفحية : الحجر العريض ، والربض : مسكن القوم او ما حول المدينة من بيوت و مساكن او هو سور المدينة .

ذلك لا يحصيه إلّا الله ثمّ أحضر الصنّاع و أمرهم بنحت تلك الأحجار حتّى صيّروها ألواحاً و معالجة تلك الجواهر و اللآلي قال : و بنى سليمان المسجد بالرخام الأبيض و الأصفر و الأخضر و عمّده بأساطين المها الصافي و سقّفه بألواح الجواهر و فضّض سقوفه و حيطانه باللآلي و اليواقيت و الجواهر و بسط أرضه بألواح الفيروزج فلم يكن في الأرض بيت أبهى و لا أنور من ذلك المسجد كان يضيء في الظلمة كالقمر ليلة البدر .

فلمّا فرغ منه جمع إليه أخبار بني إسرائيل فأعلمهم أنّه بناه لله فاتّخذوا ذلك اليوم عيداً .

فلم يزل بيت المقدس على ما بناه سليمان حتّى غزا بخت نصّر بني إسرائيل وخرب المدينة وهدمها و نقض المسجد و أخذ ما في سقوفه و حيطانه من الذهب و الفضّة و الدرّ و الجواهر فحملها إلى دار مملكته من أرض العراق .

قال سعيد بن المسيّب : لمّا فرغ سليمان من بناء بيت المقدس تغلّقت أبوابه فعالجها سليمان فلم تنفتح حتّى قال في دعائه : بصلوات أبي داود إلّا فتحت الأبواب فتفتحت ففرغ له سليمان عشرة آلاف من قرّاء بني إسرائيل خمسة آلاف بالليل و خمسة آلاف بالنهار فلا يأتي ساعة من ليل و لا نهار إلّا و يعبد الله فيها فهذا معنى قوله : « يعملون له ما يشاء من محاريب و تماثيل » إشارة إلى الأبنية الرفيعة و « التماثيل » ما يكون فيها من النقوش أي صوراً من نحاس و شبه (١) و رخام و زجاج كانت الجنّ تعملها ثمّ اختلفوا فقال بعضهم : كانت صوراً للحيوانات و قال آخرون : كانوا يعملون صور السباع و البهائم على كرسيّه ليكون أهيب له فذكروا أنّهم صوّروا أسدين أسفل كرسيّه و نسرين فوق عمودي كرسيّه فكان إذا أراد أن يصعد الكرسيّ بسط الأسدان ذراعيهما وإذا علا على الكرسيّ نشر النسران أجنحتهما فظلّلاه . ويقال : إنّ ذلك كان ممّا لا يعرفه أحد من الناس فلمّا حاول بخت نصر صعود الكرسيّ بعد سليمان حين غلب على بني إسرائيل لم يعرف كيف كان يصعد سليمان فرفع الأسد ذراعيه فضرب ساقه فقدّها فخرّ مغشيّاً عليه فما جسر أحد بعده أن يصعد ذلك الكرسيّ .

---

(١) الشبه : النحاس الاصفر .

و قالوا : و لم تكن ذلك اليوم التصاوير محرّمة و هي محظورة في شريعة نبيّنا فإنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال : لعن الله المصوّرين و يمكن أن يكره ذلك في زمن دون زمن كما أنّ المسيح كان يصوّر بأمر الله من الطين كهيئة الطير . و قال ابن عبّاس : كانوا يعملون صور الأنبياء و العبّاد في المساجد ليقتدى بهم و روي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : و الله ماهي تماثيل النساء و الرجال ولكنّها الشجر و ما أشبهه و التماثيل واحدها تمثال و أصلها من المثول و هو القيام كأنّه نصب قائماً . و منه الحديث : من سرّه أن يمثّل له الناس فليتبوّء مقعده من النار .

قوله تعالى : [وجفان كالجواب] أي يعملون له صحافاً في الكبر كالجابية و هي الحياض الّتي يجمع و يجبى فيها الماء و كان سليمان يطعم جنده و يصلح طعام جيشه في مثل هذه الجفان فإنّه لم يمكنه أن يطعمهم في مثل قصاع الناس لكثرتهم و كان يجمع على كلّ جفنته ألف رجل يأكلون بين يديه [و قدور راسيات] أي مراجل ثابتات لا يزلن عن أمكنتهنّ لعظمهنّ و كانت باليمن . وقيل : كانت كالجبال عظيمة يحملونها مع أنفسهم .

ثمّ خاطب سبحانه آل داود و أمرهم بالشكر فقال : [اعملوا آل داود شكراً] أي اعملوا بطاعة الله شكراً له و فيه دلالة على وجوب شكر النعمة وأنّ الشكر طاعة تعظيم للمنعم و خصّ الأمر بآل داود فإنّ لقرابة الأنبياء أثراً في القرب . قوله [و قليل من عبادي الشكور] و الشكور من تكرّر منه الشكر لأنّه المبالغة في الشاكر و في هذا دلالة على أنّ المؤمن الشاكر يقلّ في كلّ عصر .

قوله : [فلمّا قضينا عليه الموت] فلمّا حكمنا على سليمان بالموت [ما دلّهم على موته إلّا دابّة الأرض تأكل منسأته] أي مطرده ، آلة الطرد ، من نسأت البعير إذا طردته . أي ما دلّ على موته إلّا الأرضة و لم يعلموا بموته حتّى أكلت عصاه فسقط فعلموا أنّه ميّت و ذلك لأنّ سليمان كان يعتكف في مسجد بيت المقدس الشهر و الشهرين و السنة و السنتين و اليوم و اليومين يقف للعبادة منتصباً و إذا عجز عن القيام في العبادة يتّكىء على عصاه و يتعبّد ولا يخرج من معبده و يدخل فيه طعامه وشرابه .

و كان آصف يدبّر أمره في الملك فلمّا كان في المرّة الّتي مات فيها ولم يكن يصبح يوماً إلّا و تنبت شجرة كان يسأله سليمان فتخبره عن اسمها و نفعها و ضرّها فرأى يوماً نبتاً فقال : ما اسمك ؟ قال : الخرنوب قال : لأيّ شيء أنت ؟ قال : للخراب فعلم أنّه سيموت فقال : اللّهمّ عمّ (١) على الجنّ موتي ليعلم الإنس أنّهم لا يعلمون الغيب و كان قد بقي من بنائه سنة و قال لأهله : لا تخبروا الجنّ موتي حتّى يفرغوا من بنائه و دخل محرابه و قام و اتّكأ على عصاه فمات و بقي سنة و تمّ البناء ثمّ سلّط الله على منسأته الأرضة حتّى أكلتها فخرّ ميّتاً فعرف الجنّ موته و كانوا يحسبونه حيّاً لمّا كانوا يشاهدون طول قيامه قبل ذلك .

و كان في إماتته قائماً و بقائه كذلك أغراض : منها إتمام البناء ، و منها أن يعلم الإنس أنّ الجنّ لا يعلم الغيب و أنّهم في ادّعاء ذلك كاذبون و منها أن يعلم أنّ من حضر أجله فلا يتأخّر إذ لم يؤخّر سليمان مع جلالة شأنه .

و روي أنّه اطّلعه الله على حضور وفاته فاغتسل و تحنّط و تكفّن و الجنّ في عملهم.

و روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : إنّ سليمان أمر الشياطين فعملوا له قبّة من قوارير فبينا هو قائم متّكىء على عصاه في القبّة ينظر إلى الجنّ كيف يعملون و هم ينظرون إليه و لا يصلون إليه إذا رجل معه في القبّة فقال : من أنت فقال : أنا الّذي لا أقبل الرشى ولا أهاب الملوك فقبضه و هو قائم متّكىء على عصاه في القبّة قال : فمكثوا سنة يعملون له حتّى بعث الله الأرضة فأكلت منسأته و قد تمّ البناء .

[فلمّا خرّ] سليمان ميّتاً [تبيّنت الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين] تبيّنت الشيء إذا علمته بعد التباسه عليك أي علمت الجنّ علماً بيّناً بعد التباس الأمر عليهم أن لو كانوا يعلمون الغيب كما يزعمون لعلموا موته و لم يلبثوا بعده حولاً في تسخيره .

و في قوله : «تبيّنت الجن» أقوال : قيل : ظهر أنّ الجنّ لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا فحينئذ قوله : «أن لو كانوا يعلمون» بدل اشتمال من الجنّ وقرىء «تبيّنت الجنّ» على البناء

(١) امر من عمى يعمى تعمية .

للمفعول (١) على أنّ المتبيّن في الحقيقة هو «أن» وما في حيّزها لأنّه بدل والتقدير قال أبو عليّ: فلمّا خرّ تبيّن أمر الجنّ أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب فالتبيّن حصل للإنس أنّ الجنّ لا يعلمون الغيب وانكشف هذا الأمر للإنس وذلك لأنّ الجنّ ما ادّعوا علم الغيب ولكنّ الإنس اعتقدت فيهم أنّهم يعلمون الغيب فأبطل الله عقيدتهم وهذا المعنى يؤيّد قراءة ابن عبّاس و الضحّاك حيث أنّهما قرءا « تبيّنت الإنس » و هو قراءة عليّ بن الحسين و أبي عبد الله عليهما السلام و هكذا هو في قراءة عبد الله بن مسعود و مصحفه فقراءة يعقوب على البناء للمجهول يؤول إلى قراءة على بن الحسين و الصادق عليهما السلام .

و ذكر أهل التاريخ أنّ عمر سليمان عليه السلام كان ثلاثاً و خمسين سنة مدّة ملكه منها أربعون سنة ، و ملك يوم ملك و هو ابن ثلاث عشر سنة و ابتدأ في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضين من ملكه .

و أمّا الوجه في عمل الجنّ تلك الأعمال العظيمة فهو أنّ الله تعالى زاد في أجسامهم و قوّتهم و غيّر خلقهم عن خلق الجنّ الّذين لا يرون للطافتهم ورقّة أجسامهم على سبيل الإعجاز الدالّ على نبوّة سليمان فكانوا بمنزلة الاُسراء في يده فلمّا مات عليه السلام جعل الله خلقهم على ما كانوا عليه فلا يتهيّأ لهم في هذا الزمان شيء من ذلك .

و في العلل والعيون عن الرضا عليه السلام عن آبائه أنّ سليمان قال ذات يوم لأصحابه : إنّ الله وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي سخّر لي الريح و الإنس و الجنّ والطير و الوحوش و علّمني منطق الطير و آتاني من كلّ شيء و مع جميع ما اُتيت ما تمّ لي سرور يوم إلى الليل و قد أحببت أن أدخل قصري في غد فأصعد أعلاه و أنظر إلى ممالكي ولا تأذنوا لأحد عليّ لئلّا يرد عليّ ما ينغّض عليّ يومي قالوا : نعم فلمّا كان من الغد أخذ عصاه بيده و صعد إلى أعلى موضع من قصره و وقف متّكئاً على عصاه ينظر إلى ممالكه مسروراً ممّا اُوتي فرحاً بما اُعطي إذ نظر إلى شابّ حسن الوجه و اللباس قد خرج عليه من بعض زوايا قصره فلمّا بصر به سليمان قال له : من أدخلك إلى هذا القصر و قد أردت أن

(١) اى على قراءة يعقوب و هو ضم التاء و الباء و كسر الياء من تبينت و لا فرق فان لفظ تبين ههنا لازم غير متعد . انظر مجمع البيان ج ٤ ص ٣٨١ .

أخلو فيه هذا اليوم فبإذن من دخلت ؟ قال الشابّ : أدخلني هذا القصر ربّه و بإذنه دخلت فقال : ربّه أحقّ به منّي فمن أنت ؟ قال : أنا ملك الموت قال : و فيماجئت ؟ قال : جئت لأقبض روحك قال : امض لما اُمرت به فهذا يوم سروري و أبى الله عزّ و جلّ أن يكون لي سروري دون لقائه فقبض ملك الموت روحه و هو متّكىء على عصاه .

فبقي سليمان متّكئاً على عصاه وهوميّت ماشاءالله والناس ينظرون إليه وهم يقدّرون أنّه حيّ فافتتنوا فيه واختلفوا فمنهم من قال : قدبقي سليمان متّكئاً على عصاه هذه الأيّام الكثيرة ولم يتعب ولم ينم ولم يأكل ولم يشرب إنّه لربّنا الّذي يجب علينا أن نعبده ، وقال قوم : إنّ سليمان ساحر يرينا أنّه واقف متّكىء على عصاه سحر أعيننا وليس كذلك وقال المؤمنون : إنّ سليمان هو عبد الله ونبيّه يدبّر الله أمره بما يشاء . فلمّا اختلفوا بعث الله الأرضة فدبّت في عصاه فلمّا أكلت انكسرت العصا وخرّ سليمان من قصره على وجهه فشكرت الجنّ الأرضة صنيعها فلأجل ذلك لايوجد في مكان إلّا و عندها ماء وطين .

وفي الإكمال عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : عاش سليمان بن داود سبعمائة واثني عشر سنة .

قوله تعالى : لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور (١٥) فاعرضوا فارسلنا عليهم سيل العرم و بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى اكل خمط واثل وشىء من سدر قليل (١٦) ذلك جزيناهم بما كفروا و هل نجازى الاالكفور (١٧) وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى واياماً آمنين (١٨) فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا انفسهم فجعلناهم احاديث ومزقناهم كل ممزق ان فى ذلك لايات لكل صبار شكور (١٩) .

[لقد كان لسبأ] ثمّ بيّن عن قصّة سبأ بما دلّ على حسن عاقبة الشكور مثل داود وسوء عاقبة الكفور مثل سبأ ، وسبأ أبوعرب اليمن كلّها وقد سمّي به القبيلة وفي الحديث عن فروة بن مسيك أنّه قال : سألت رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن سبأ أرجلٌ هو أم امرأة ؟

فقال : هو رجل من العرب ولد عشرة تيامن منهم ستّة وتشاءم منهم أربعة فأمّا الّذين تيامنوا فالأزدو كندة ومذحج والأشعرون و أنمار و حمير فقال رجل من القوم : ماأنمار قال : الّذين منهم خثعم وبجيلة وأمّا الّذين تشاء موا فعاملة وجذام و لخم وغسّان فالمراد بسبأ ههنا القبيلة الّذين هم أولاد سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان بن هود وأظنّ أنّ سبأ لقب واسمه عبد شمس وإنّما لقّب بهذا اللقب لأنّه أوّل من سبى و غار .

[في مسكنهم] وقرىء «في مساكنهم» وفقاً للمعنى و « في مسكنهم » على المصدريّة والتقدير : في مواضع سكنّاهم فلمّا جعل المسكن كالسكنى والسكون أفرد كما يفرد المصادر [آية] أي علامة وحجّة على معرفة الله وقدرته .

ثمّ فسّر الآيه فقال : [جنّتان عن يمين وشمال] أي بستانان عن يمين البلد وشماله لمن أتى البلدة والمراد جماعتان من البساطين والجماعتان في تقاربهما و تضامّهما كأنّهما جنّة واحدة و لم يرد جنّتين اثنين و المعنى أنّها متّصلة بعضها ببعض و كان من كثرة النعم أنّ المرأة كانت تمشي والمكتل على رأسها فيمتلىء بالفواكه من غير أن تمسّ و تقطف بيدها شيئاً ولم يكن في قريتهم بعوضة ولاذباب ولا برغوث ولا عقرب ولا حيّة وكان الغريب إذا دخل بلدهم وفي ثيابه قمّل ودوابّ ماتت والمراد بالآية قيل : هذه الأُمور و قيل : الآية كانت ثلاث عشرة قرية في كلّ قرية نبيّ يدعوهم إلى الله .

[كلوا من رزق ربّكم] أي كان الأنبياء يقولون لهم : كلوا من هذه النعم [واشكروا له] يزدكم من نعمه واستغفروه يغفر لكم [بلدة طيّبة] أي كلّ نبيّ قرية يقول لأهلها : هذه بلدة مخضّبة نزهة عذبة وليست بسبخة ، طاهرة عن المؤذيات حتّى الوباء والأمراض وماكان فيها حرّ يؤذي في القيظ ولابرد يؤذي في الشتاء [وربّ غفور] كثير المغفرة للذنوب [فأعرضوا] عن الحقّ ولم يشكروا ولم يقبلوا ممّن دعاهم إلي الله من أنبيائه [فأرسلنا عليهم سيل العرم] وذلك أنّ الماء كان يأتي أرض سبأ من أودية اليمن وكان هناك جبلان يجتمع ماء المطر والسيول بينهما فسدّوا بين الجبلين فاذا احتاجوا إلى الماء نقّبوا السدّ بقدر الحاجة ويسقون زروعهم وبساتينهم فلمّا كذّبوا رسلهم وتركوا

أمر الله فبعث الله في الردم جرذاً نقبت ذلك الردم وفاض الماء عليهم فأغرقهم . قال ابن الأعرابي : « العرم » السيل الّذي لايطاق و قصّة كهانة طريفه الكاهنة وعمرو بن عامر المزيقياء معروفة لاحاجة لذكرها (١) .

[وبدّلناهم بجنّتيهم] اللتين فيهما أنواع الفواكه [جنّتين] اُخراوين ، سمّاهما جنّتين لازدواج الكلام كما قال : « ومكروا ومكر الله » (٢) و « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه » (٣) [ذواتي اُكلٍ خمط و أثل] أي صاحبتي اُكلٍ وهو اسم للثمر من كلّ شجر قال ابن عبّاس : « الخمط » الأراك وثمر الخمط البرير . وقيل : الخمط شجر الغضا . وقيل : هو كلّ شجر له شوك و «الأثل» الطرفاء . وقيل : هو السمر [وشيء من سدرٍ قليل] يعني إنّ الأثل والخمط كانا أكثر فيهما من سدر وهو النبق وكان شجرهم خير شجر فصيّره الله شرّ شجر بسوء أعمالهم .

[ذلك جزيناهم بما كفروا] أي ذلك الّذي فعلنا بهم بسبب كُفرهم [وهل نجازي] بهذا الجزاء [إلّا الكفور] الّذي يكفر نعم الله .

وقد استدلّ الخوارج بهذا على أنّ مرتكب الكبيرة كافرٌ وهذا الاستدلال غير سديد من حيث إنّه سبحانه إنّما بيّن بذلك أنّه لايجازي بهذا النوع من العذاب الّذي هو الاستيصال إلّا الكافر ويجوز أن يعذّب الفاسق بغير ذلك العذاب .

وقيل : معنى الآية هل نجازي بجميع سيّئاته إلّا الكافر لأنّ المؤمن قد يكفّر عنه بعض سيّئاته . وقيل : معنى الآية أنّ المجازاة من التجازي ، وهو التقاضي أي لا يقتضي ولا يرتجع ما اُعطي إلّا الكافر وأنّهم لمّا كفروا ارتجع منهم النعمة .

قوله : [وجعلنا بينهم وبين القرى الّتي باركنا فيها قرى ظاهرة] أي إنّا جعلنا بينهم وبين قرى الشام الّتي باركنا فيها بالماء والشجر قرىً مواصلة قرية متّصلة بقرية وكان متجرهم من أرض اليمين إلى الشام وكانوا يبيتون بقرية ويقيلون باُخرى حتّى

(١) بل سيجيء ذكرها عن قريب .
(٢) آل عمران : ٥٤ .
(٣) البقرة : ١٩٤ .

يرجعوا وكانوا لايحتاجون إلى زاد في طريقهم من وادي سبأ إلى الشام ومعنى الظاهرة أنّ الثانية كانت ترى من الأولى لقربها منها .

[وقدّرنا فيها السير] أي وجعلنا السير من القرية إلى القرية مقداراً واحداً وهو نصف يوم وقلنا لهم : [سيروا فيها ليالي وأيّاماً] أيّ ليلاً شئتم المسير بلا خوف أونهار [آمنين] من الجوع والعطش والسباع والسارق و كلّ المخاوف والمراد بيان تكامل النعمة عليهم سفراً وحضراً .

ثمّ أخبر سبحانه أنّهم بطروا وبغوا [فقالوا ربّنا باعد بين أسفارنا] أي اجعل بيننا وبين الشام فلوات ومفاوز لنركب إليها الرواحل ونقطع المنازل وهذا كما قالت بنو إسرائيل : لمّا ملّوا النعمة حيث قالوا :اخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها بدلاً من المنّ والسلوى .

[وظلموا أنفسهم] بارتكاب المعاصي والكفر [فجعلناهم أحاديث] لمن بعدهم يتحدّثون بأمرهم وشأنهم ويضربون بهم المثل فيقولون : تفرّقوا أيادي سبأ إذا تشتّتوا أعظم التشتّت [ومزّقناهم كلّ ممزّق] أي فرّقناهم في البلاد كلّ تفريق [إنّ في ذلك لآيات] أي دلالات [لكلّ صبّار] على الشدائد [شكور] على النعماء أوصبور عن المعاصي شكور للنعم بالطاعات .

ومختصر قصّة طريفة الكاهنة أنّها ألقت(١) إلى عمرو بن العامر الّذي يقال له مزيقيا ابن ماء السماء وكانت رأت في كهانتها أنّ سدّ مأرب سيخرب وإنّه سيأتي سيل العرم فيخرب الجنّتين فباع عمرو أمواله وسار هو وقومه إلى مكّة فأقاموا بها وما حولها فأصابتهم الحمّى وكانوا ببلد لايعرفون فيه الحمّى فدعوا طريفة وشكوا إليها الّذي أصابهم فقالت لهم : قدأصابني الّذي أصابكم وهو مفرّق بيننا قالوا : فما ذاتأمرين قالت : من كان منكم ذاهمّ بعيد وجمل شديد و مزاد جديد فيلحق بقصر عمّان المشيد وكانت أزد عمّان ثمّ قالت : من كان منكم ذاجلد وصبر على أزمّات الدهر فعليه بالأراك من بطن مرّان وكانت خزاعة ثمّ قالت : من كان منكم يريد الراسيات في الوحل المطعمات في المحل فليلحق بيثرب ذات النخل وكانت الأوس والخزرج ثمّ قالت: من كان منكم يريد الخمر والخمير والملك

(١) اى ابلغتة الرؤيا التى رأتها .

والتأمير وملابس الديباج والحرير فليلحق ببصرى وغوير ـ وهما من أرض الشام ـ وكان الّذين سكنوها آل جفنة بن غسّان ثمّ قالت : من كان منكم يريد الثياب الرقاق والخيل العتاق وكنوز الأرزاق والدم المهراق فليلحق بأرض العراق وكان الّذين سكنوها آل جذيمة الأبرش ومن كان بالحيرة وآل محرق .

قوله تعالى : و لقد صدق عليهم ابليس ظنه فاتبعوه الافريقا من المؤمنين (٢٠) و ما كان له عليهم من سلطان الا لنعلم من يؤمن بالاخرة ممن هو منها في شك و ربك على كل شيء حفيظ (٢١) قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات و لا في الارض و ما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير (٢٢) ولا تنفع الشفاعة عنده الا لمن اذن له حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا ما ذا قال ربكم قالوا الحق و هو العلي الكبير (٢٣) قل من يرزقكم من السموات و الارض قل الله وانا او اياكم لعلى هدى او في ضلال مبين (٢٤) قل لا تسألون عما اجر منا ولا نسأل عما تعملون (٢٥) .

الضمير قيل : في «عليهم» راجع إلى أهل سبأ وقيل : إلى الناس كلّهم إلّا من أطاع الله .

و المعنى أنّ إبليس كان قال : « لأُغوينّهم و لأُضلّنّهم » و ما كان ذلك عن علم و تحقيق و إنّما قاله ظنّا فلمّا تابعه أهل الزيغ و الشرك صدّق ظنّه و حقّقه [فاتّبعوه] فيما دعا هم إليه [إلّا فريقاً من المؤمنين] يعني المؤمنين كلّهم و « من » هنا للتبيين أي و علموا قبح متابعة إبليس فلم يتّبعوه و اتّبعوا أمر الله .

[و ما كان له عليهم من سلطان] أي لم يكن لإبليس عليهم من سلطنة ولا ولاية يتمكّن بها من إجبار هم على الضلال و إنّما كان يمكنه الوسوسة فقط كما قال : « و ما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي » .

[إلّا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممّن هو منها في شكّ] أي إنّا لم نمكّنه من إغوائهم و وسوستهم إلّا لنميّز بين من يقبل منه ومن يمتنع متابعته فنعذّب من يتابعه و نثيب من خالفه فعبّر عن التمييز بين الفريقين بالعلم ، و هذا التميّز متجدّد لأنّه

لا يكون إلّا بعد وقوع ما يستحقّون به ذلك و أمّا العلم فبخلاف ذلك فإنّه سبحانه كان عالماً بأحوالهم و بما يكون منهم في الأزل و قيل : معناه لنعلم طاعاتهم موجودة أو معاصيهم إن عصوا فنجازيهم بحسبها لأنّه سبحانه لا يجازي أحداً على ما يعلم من حاله إلّا بعد أن يقع ذلك منه [و ربّك على كلّ شيء حفيظ] أي عالمٌ لا يفوته علم شيء من أحوالهم .

و ههنا تحقيق و هو أنّ علم الله من الأزل إلى الأبد محيط بكلّ معلوم و علمه عين ذاته لا يتغيّر و هو في كونه سبحانه عالماً لايتغيّر ولكن يتغيّر متعلّق علمه فإنّ العلم يظهر به كلّ ما في نفس الأمر فعلم الله في الأزل أنّ العالم سيوجد فإذا وُجد علمه موجوداً بذلك العلم و إذا عدم يعلمه معدوماً بذلك العلم مثاله أنّ المرآة المصقولة فيها الصفاء فيظهر فيها صورة زيد إن قابلها ثمّ إذا قابلها عمرو يظهر فيها صورته و المرآة لم تتغيّر في ذاتها و لا تبدّلت في صفاتها إنّما التغيير في الخارجات الّتي قابلت فكذلك ههنا فقوله : « إلّا لنعلم من يؤمن » أي ليقع في العلم صدور الايمان من المؤمن و الكفر من الكافر و كان قبله في علمه أنّه سيكفر زيد و يؤمن عمرو .

قولى تعالى : [قل ادعوا الّذين زعمتم من دون الله] قل يا محمّد لهؤلاء المشركين : ادعوا الّذين زعمتم أنّهم آلهة و أنّهم شركاء لله تعالى و أنّهم شفعاؤكم هل يستجيبونكم إلى ما تسألونهم و هذا نوع توبيخ ليعلموا أنّ أوثانهم لا تنفعهم ولا تضرّهم لأنّهم لايتمكّنون من أن يجيبوهم .

ثمّ قال سبحانه : [لا يملكون مثقال ذرّة في السماوات ولا في الأرض] أي لايقدرون زنة ذرّة من خير و شرّ و نفع و ضرّ فيهما [و ما لهم فيهما من شرك] و ليس لهم في خلق السماوات و الأرض من نصيب و مدخليّة [و ما له منهم من ظهير] أي ليس له معاون على خلقهما .

[و لا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذن له] أي لاتنفع الشفاعة عندالله إلّا لمن رضيه الله و ارتضاه و أذن له الشفاعة مثل الأنبياء و الملائكة و الأولياء و إلّا لمن يأذن له في الشفاعة ، و إنّما قال سبحانه ذلك لأنّ الكفّار و المشركين كانوا يقولون : نعبدهم

ليقرّبونا إلى الله زُلفى فحكم الله ببطلان عقائدهم .

[حتّى إذا فزّع عن قلوبهم] أي كشف الفزع عن قلوبهم ، و اختلف في الضمير في قوله : « عن قلوبهم » على قولين :

الأوّل أنّ الضمير راجع إلى المشركين الّذين تقدّم ذكرهم فيكون المعنى حتّى إذا أخرج عن قلوبهم الفزع وقت الفزع ليسمعوا كلام الملائكة [قالوا] إذا قالت الملائكة لهم : [ما ذا قال ربّكم قالوا الحقّ] أي قال هؤلاء المشركون مجيبين للملائكة إنّ ما جاء به الرسل كان حقّاً و يعترفون حينئذ بالحقّ .

و القول الثاني أنّ الضمير راجع إلى الملائكة ثمّ اختلف في معناه على وجوه :

أحدها أنّ الملائكة إذا صعدوا بأعمال العباد ولهم زجل و صوت عظيم فتحسب الملائكة أنّها الساعة فيخرّون سُجّداً و يفزعون فإذا علموا أنّه ليس ذلك قالوا : « ما ذا قال ربّكم قالوا الحقّ » .

و ثانيها أنّ الفترة لمّا كانت بين عيسى و محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و بعث الله محمّداً أنزل الله سبحانه جبرئيل بالوحي فلمّا نزل ظنّت الملائكة أنّه نزل بشيء من أمر الساعة فصعقوا لذلك فجعل جبرئيل يمرّ بكلّ سماء ويكشف عنهم الفزع فرفعوا رؤوسهم وقالت الملائكة بعضهم لبعض : « ما ذا قال ربّكم قالوا الحقّ » يعني الوحي و القرآن .

و القول الثالث أنّ الله إذا أوحى إلى بعض الملائكة لحق الملائكة غشيٌ عند سماع الوحي و يخرّون و يصعقون سجّداً للآية العظيمة فإذا فزّع عن قلوبهم سألت الملائكة ذلك الملك الّذي اُوحي إليه ما ذا قال ربّك ، و يسأل بعضهم بعضاً فيعلمون أنّ الأمر في غيرهم ، عن ابن مسعود واختاره الجبّائيّ .

[و هو العليّ الكبير] السيّد القادر العليّ في صفاته الكبير في قدرته .

القمّي : قال الصادق عليه السلام : لا يشفع أحد من أنبيائه و رسله يوم القيامة حتّى يأذن الله في الشفاعة إلّا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فإنّ الله قد أذن له في الشفاعة قبل يوم القيامة والشفاعة له في اُمّته و لنا الشفاعة في شيعتنا و لشيعتنا الشفاعة في أهاليهم ثمّ قال : إنّ المؤمن ليشفع في مثل ربيعة و مضر و إنّ المؤمن ليشفع حتّى لخادمه يقول :

يا ربّ خدمني و كان يقيني الحرّ و البرد .

و عن الباقر عليه السلام قال : ما من أحد من الأوّلين و الآخرين إلّا و هو محتاج إلى شفاعة رسول الله ثمّ قال : إنّ لرسول الله الشفاعة وقرى «حتّى إذا فُرّغ » بالراء المهملة و الغين المعجمة بمعنى فراغ القلوب وخلوّها عن الوجل من فرغ الزاد إذا لم يبق منه شيء .

قال العلّامة أبو السعود صاحب التفسير العلّامة المعروف في بيان الآية في قوله : « ولا تنفع الشفاعة عنده إلّا لمن أذن له حتّى إذا فزّع عن قلوبهم» قال : (أي لا تقع الشفاعة في حال من الأحوال الكائنة لمن أذن له في الشفاعة من النبيّين و الملائكة و نحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة فتبيّن حرمان الكفرة من الشفاعة بالكلّيّة أمّا من جهة أصنامهم فلظهور انتفاء الإذن لها ضرورة استحالة الإذن في الشفاعة لجماد لا يعقل و لا ينطق و أمّا من جهة من يعبدونه من ملائكة فلأنّ إذنهم مقصور على الشفاعة للمستحقّين لها لقوله تعالى : « لا يتكلّمون إلّا من أذن له الرحمن و قال صواباً » (١) و من المعلوم أنّ الشفاعة للكفرة بمعزل من الصواب فعلى هذا ثبت حرمانهم عن الشفاعة و هي غير صادرة عن الشفعاء إذ لم يؤذن لهم و قوله : « حتّى إذا فزّع » و التفزيع إزالة الفزع أي زال الفزع عن قلوب الشفعاء والمشفوع لهم من المؤمنين و كلمة « حتّى » غاية لما ينبىء عنه قبل الكلام من الإشعار بوقوع الإذن لمن أذن له لأنّه سأل كيف يؤذن لهم ؟ فقيل : يتربّصون الشفعاء من موقف الاستيذان والاستدعاء على وجل وخوف وفزع مليّاً حتّى اُزيل الفزع عن قلوبهم بعد اللتيّا واللتي وظهرت لهم تأثير الإجابة .

« قالوا» أي المشفوع لهم والمحتاجون : « ماذا قال ربّكم » في شأن الإذن «قالوا» أي الشفعاء لأنّهم المتباشرون للاستيذان المتوسّطون بين المذنبين والمحتاجين إلى الشفاعة وبينه عزّ وجلّ « الحقّ » أي قال ربّنا قول الحقّ ، وهو الأذن في الشفاعة للمستحقّين وقرىء «الحقّ » مرفوعاً أي ماقاله الحقّ .

« وهو العليّ الكبير » وهو من تمام كلام الشفعاء قالوه اعترافاً لغاية عظمة ربّهم) انتهى كلام أبي السعود .

(١) النبأ : ٣٨ .

قوله تعالى : [قل من يرزقكم من السماء والأرض] فإنّهم لايمكنهم أن يقولوا : ترزقنا آلهتنا الّتي نعبدها ثمّ عند ذلك [قل الله] الّذي يرزقكم [وإنّا أو إيّاكم لعلى هدىً أوفي ضلال مبين] إنّما قال ذلك على وجه النصفة في الحجّة دون الشكّ كما يقول القائل : أحدنا كاذب وإن كان هو عالماً بالكاذب وهذا العنوان من الكلام شائع بأن يجمع المتكلّم بين الخبرين ويفوّض التميز إلى العقول فيكون الكلام معناه : إنّا على هدىً وأنتم على ضلال و إنّما يقال مثل هذا الكلام على وجه الاستعطاف والمداراة لتنبيه المخاطب ولا ينسب المحقّ نفسه إلى الهدى وخصمه إلى الضلال بل يحثّه على التأمّل والنظر .

قوله : [قل لاتسألون عمّا أجرمنا ولانسأل عمّا تعملون] قل يا محمّد : إذا لم ينقادوا للحجّة لاتسألون أيّها الكفّار عن ما اقترفنا واكتسبنا من المعاصي ولانسأل نحن عمّا تعملونه أنتم بل كلّ إنسان يسأل عمّا يعمله وفي هذا دلالة على أنّ أحداً لايجوز أن يؤخذ بذنب غيره و أضاف الإجرام إلى النفس وقال في حقّهم : « ولانسأل عمّا تعملون » ذكر بلفظ العمل لئلاّ يحصل الإغضاب المانع من الفهم .

قوله تعالى : قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم (٢٦) قل اروني الذين ألحقتم به شركاء كلا بل هو الله العزيز الحكيم (٢٧) وما ارسلناك الا كافة للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لايعلمون (٢٨) ويقولون متى هذا الوعد ان كنتم صادقين (٢٩) قل لكم ميعاد يوم لاتستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون (٣٠) .

ثمّ أمر الله سبحانه نبيّه أن يحاكمهم و يكلّمهم إلى الله لإعراضهم عن الحجّة فقال :

[قل] يا محمّد : [يجمع بيننا ربّنا] يوم القيامة [ثمّ يفتح بيننا] أي يحكم [بالحقّ و هو الفتّاح العليم] الحاكم العالم بالحكم لايخفى عليه شيء من الحكم [قل أروني الّذين ألحقتم به شركاء] أي أروني الّذين زعمتم أنّهم شركاء لله تعبدونهم معه فوبّخهم الله فيما اعتقدوه من الأشراك مع الله [كلاّ] أي ليس كما تزعمون أي ارتدعوا

عن هذا المقال [بل هو الله العزيز الحكيم] الغالب الحكيم في أفعاله فكيف يكون له شريك ؟

ثمّ بيّن سبحانه نبوّة نبيّه فقال : [وما أرسلناك إلّا كافّة للنّاس] أي أنت رسول إلى عامّة البشر كلّهم كالعرب و العجم وسائر الاُمم ، روي عن ابن عبّاس عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : اُعطيت خمساً ولا أقول فخراً : بُعثت إلى الأحمر والأسود وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً واُحلّ لي الغنم ولم يحلّ لأحد قبلي ونُصرت بالرعب فهو يسير أمامي مسيرة شهر واُعطيت الشفاعة فادّخرتها لاُمّتي يوم القيامة . وقيل : « كافّاً للنّاس » أي مانعاً لهم عمّاهم عليه من الكفر والمعاصي بالأمر النهي و الهاء للمبالغة ، عن أبي مسلم .

[بشيراً] لهم بالجنّة [ونذيراً] بالنار [ولكنّ أكثر الناس لايعلمون]رسالتك لإعراضهم عن النظر في معجزتك ولا يعلمون مالهم في الآخرة في اتّباعك من الثواب والنعيم وما عليهم في مخالفتك من العذاب الأليم .

ثمّ حكى سبحانه عن الكفّار فقال : [ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين] فيما تقولونه يامعشر المؤمنين ثمّ أمر نبيّه بجوابهم [قل] يا محمّد : [لكم ميعاد يوم لاتستأخرون عنه ساعة ولاتستقدمون]أي لاتتأخّرون عن ذلك اليوم ولا تتقدّمون عليه بأن يزاد في آجالكم أو ينقص منها .

و في قوله : « لكم ميعاد يوم » قراءات : رفعهما مع التنوين و على هذا « يوم » بدل والثانية نصب « يوم » و رفع « ميعاد » والتنوين فيهما وجه النصب بفعل محذوف أي أعني يوماً أو على الظرفيّة كأنّه يقول : لكم ميعادٌ تعلمون يوماً كقول القائل : «إنّك مقتول يوماً» والثالثة الإضافة أي لكم ميعاد يوم .

وقوله تعالى : وقال الذين كفروا لن نومن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه و لو ترى اذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم الى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مومنين (٣١) قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد اذ جاءكم بل كنتم مجرمين (٣٢) و قال الذين استضعفوا للذين استكبروا

بل مكر الليل و النهار اذ تامروننا ان نكفر بالله و نجعل له أندادا و اسروا الندامة لما رأوا العذاب و جعلنا الاغلال فى اعناق الذين كفروا هل يجزون الا ما كانوا يعملون (٣٣) و ما أرسلنا فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا بما ارسلتم به كافرون (٣٤) و قالوا نحن أكثر أموالا و اولادا و ما نحن بمعذبين (٣٥) .

ثمّ بيّن سبحانه حالهم في القيامة : [وقال الّذين كفروا] قيل : اليهود ، و قيل : هم مشركو العرب ، و هو الأصحّ [لن نؤمن بهذا القرآن] و لا نصدّق بأنّه من الله تعالى [ولا بالّذي بين يديه] من أمر الآخرة أو أحكام القرآن ، وقيل : المراد « بالّذي بين يديه» يعنون به التوراة و الإنجيل وذلك لأنّه لمّا قال مؤمنو أهل الكتاب : إنّ صفة محمّد في كتابنا كذا و هو نبيّ مبعوث ، كفر المشركون بكتابهم .

ثمّ قال : [و لو ترى] يا محمّد [إذ الظالمون موقوفون عند ربّهم] أي محبوسون للحساب يوم القيامة [يرجع بعضهم إلى بعض القول] أي يردّ بعضهم إلى بعض القول في الجدال .

[يقول الّذين استضعفوا] و هم الأتباع [للذين استكبروا] و هم الأشراف و القادة [لو لا أنتم لكنّا مؤمنين] مصدّقين بآيات الله أي أنتم منعتمونا من الإيمان ولولا دعاؤكم إيّانا إلى الكفر لآمنّا بالله في الدنيا و جواب « لو ترى » محذوف وتقديره : لرأيت عجباً .

قوله : [قال الّذين استكبروا للذين استضعفوا] أي قال المتبوعون للتابعين على سبيل الإنكار : [أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم] أي لم نصدّكم نحن عن قبول الهدى [بل كنتم مجرمين] أنتم كفرتم ولم نحملكم على الكفر قهراً فكلّ واحد من الفريقين ورك [(١)] الذنب على صاحبه و اتّهمه و لم يضف واحد منهم الذنب إلى الله .

[و قال الذين استضعفوا للّذين استكبروا] يعني الأتباع للمتبوعين [بل مكر الليل و النهار] أي بل صدّنا مكركم بنا في الليل و النهار ، فحذف المضاف إليه وأُقيم مقامه الظرف اتّساعاً و قرىء « بل مكرٌ الليلَ والنهارَ » بالتنوين عوض عن المضاف إليه

(١) ورك الذنب عليه : حمله .

و قرىء « بل مكرّ[1] الليل و النهار » بالرفع والنصب أي تكرّون الإغواء مكرّاً دائباً فالرفع على الفاعليّة أي صدّنا مكركم في الليل والنهار والنصب على المصدريّة أي تكرّون مكرّ الليل و النهار أي مكرّاً دائماً .

[إذ تأمروننا أن نكفر بالله و نجعل له أنداداً] حين أمرتمونا بجحد وحدانيّة الله و دعوتمونا إلى أن نجعل له شركاء في العبادة .

[وأسرّوا الندامة]فيه وجهان : أحدهما : أضمر الفريقان الندامة وأخفاها كلّ منها عن الآخر مخافة التعيير و الثاني أظهروها فإنّه من الأضداد وهو المناسب لحالهم ، كما فسّر بيت امرىء القيس على الوجهين حيث يقول :

تجاوزت أحراسا إليها و معشراً * عليّ حراصاً لو يسرّون مقتلي

[لمّا رأوا العذاب] أي حين رأوا نزول العذاب بهم [و جعلنا الأغلال في أعناق الّذين كفروا] أي غلّوا بها في النيران [هل يجزون إلّا ماكانوا يعملون] أي لايجزون إلّا بأعمالهم الّتي عملوها على قدر استحقاقهم .

[و ما أرسلنا في قرية من نذير] أي من نبيّ مخوّف بالله [إلّا قال مترفوها] جبّاروها وأغنياؤها المتنعّمون فيها [إنّا بما اُرسلتم به كافرون] و في الآية بيان للنبيّ أنّ أهل قريته صلى الله عليه وآله وسلم نهجوا على مناهج الأوّلين و أنّ إيذاء الأنبياء من جانب الكفّار ليس بدعاً بل ذلك عادة جرت من قبل .

ثمّ بيّن علّة كفرهم [و قالوا نحن أكثر أموالاً و أولاداً] أي فاستدلّوا على كونهم مصيبين بكثرة المال والولد ظنّاً منهم بأنّ الله إنّما خوّلهم المال و الولد كرامة لهم عنده و قالوا : إذا رزقنا و حرمتم فنحن أكرم منكم و أفضل عندالله .

[و مانحن بمعذّبين] ولم يعلموا أنّ الأموال و الأولاد ليس للإكرام والتفضّل وتستوجب الشكر لاالكفر و إنّما قالوا ذلك إمّا للإنكار منهم للعذاب رأساً أو اعتقاداً لحسن حالهم في الآخرة قياساً بالدنيا .

فبيّن الله خطاءهم بقوله :

---

(١) مصدر ميمى من كر ، يكر ، كرورا : بمعنى رجع .

قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر و لكن أكثر الناس لايعلمون (٣٦) و ما أموالكم و لا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى الا من آمن و عمل صالحا فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا و هم في الغرفات آمنون (٣٧) و الذين يسعون في آياتنا معاجزين اولئك في العذاب محضرون(٣٨) قل ان ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له و ما انفقتم من شيء فهو يخلفه و هو خير الرازقين (٣٩) ويوم نحشرهم جميعا ثم نقول للملائكة أهؤلاء اياكم كانوا يعبدون(٤٠).

[قل] يا محمد [إنّ ربّي] الّذي خلقني [يبسط الرزق لمن يشاء] عن ما يعلم من المصلحة للمرتزق أو لغيره [و يقدر] أي و يضيق أيضاً على حسب المصلحة و المراد من « البسط » الزيادة على قدر الكفاية « و القدر » تضييقه عن قدر الكفاية فالسعة و الضيق لا تدلّ على حال المحقّ والمبطل فكم من مؤسر شقيّ ومعسر تقيّ [ولكنّ أكثر الناس لايعلمون] حكمته و صلاحه سبحانه .

ثمّ كشف سبحانه عن هذا المعنى بقوله : [و ما أموالكم و لا أولادكم بالّتي تقربكم عندنا] فإنّ المال لا يقرّب إلى الله و لااعتبار بالتعزّز به حيث تقولون : «نحن أكثر أموالاً » و إنّما المفيد العمل الصالح بعد الإيمان بل إنّ المال و الولد في الغالب يشغل عن الله و يبعد العبد عنه فكيف يقرّب به [زلفى] أي قربى و زلفى اسم المصدر أي يقرّبكم قربةً أو تقريباً .

[إلّا من آمن و عمل صالحا] أي و ما الأموال و الأولاد تقرّب أحداً إلّا المؤمن الصالح الّذي أنفق ماله في سبيل الله و علّم أولاده الخير والصلاح فحينئذ الاستثناء متّصل و يجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً مفرّغاً أي لكن من آمن بالله و صدّق نبيّه و أطاعه فيما أمره .

[فأُولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا] و جزاء الضعف الحسنة فإنّ الضعف لا يكون إلّا في الحسنة و في السيّئة لا يكون إلّا المثل أي يضاعف الله حسناتهم فيجزي بالحسنة الواحدة عشراً إلى ما زاد و الضعف اسم جنس يدلّ على الكثير و القليل [و هم

في الغرفات آمنون] أي في غرف الجنّة و هي البيوت المرتفعة فوق الأبنية مأمونين غير خائفين .

[و الّذين يسعون في آياتنا معاجزين] و يجتهدون في إبطال آياتنا وتكذيبها معاجزين لأنبيائنا أوزاعمين أنّهم يفوتوننا أو مثبّطين غيرهم عن أفعال الخير [اُولئك في العذاب محضرون] أي ثابتون ودائمون .

[قل إنّ ربّي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له] مرّ تفسيره و إنّما كرّره سبحانه لاختلاف فالأوّل توبيخ للكافرين والثاني وعظ للمؤمنين و إشارة إلى معنى و هو أنّ نعيم الآخرة قد يكون لا ينافي نعيم الدنيا بل الصالحون قد يحصل لهم في الدنيا النعم مع حصول النعم لهم في العقبى كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : «و قد يجمعها الله لأقوام» كأنّه قال : إنّ وجود الرزق لايدلّ على عدم الشرف ولا يدلّ على الشرف .

قوله : [و ما أنفقتم من شيء فهو يخلفه] أي و ما أخرجتم من أموالكم في وجوه البرّ فإنّه سبحانه يعطيكم خلفه و عوضه إمّا في الدنيا بزيادة النعم و إمّا في الآخرة بثواب الجنّة .

[و هو خير الرازقين] لأنّه يعطي المنافع لالدفع ضرر أو جرّ نفع لاستحالة المنافع و المضارّ عليه ، و روى أبوهريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : قال الله عزّ وجل لي : أنفق اُنفق عليك . و عن جابرعن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : كلّ معروف صدقة و ما اُوتي به الرجل عوضه فهو صدقة و ما أنفق المؤمن من نفقة فعلى الله خلفها ضامناً إلّا ما كان من نفقة في بنيان أو معصية .

وخيريّة الرازق في اُمور : أحدها أن لايؤخّر عن وقت الحاجة إذا عرف الصلاح لأنّه عالم و لا ينقص عن قدر الحاجة و لاينكده بالحساب لأنّه غنيّ ولايكدره بطلب الثواب لأنّه كريم و قد ذكر سبحانه بقوله : « يرزق من يشاء بغير حساب[1] » أنّ هبة الأعلى للأدنى لا يقتضي ثواباً و بقوله تعالى : « و ما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » أنّه قد حصل الضمان و الوعد و الخلف لا يقع منه تعالى فإذاً إمساكك عن البذل و الإقراض

(١) البقرة : ٢١٢ .

إمّا سوء ظن بالربّ أو من قلّة العقل مع أنّ المال في يد العبد على سبيل العارية .

فلو قيل : « خير الرازقين » ينبىء أن يكون رازق غيره ولا رازق إلّا الله فالمراد : الله خير الرازقين الّذين تظنّونهم رازقين مثل قوله : « أحسن الخالقين » .

و تحقيق المسألة هو أنّ الصفات منها ما حصل لله و للعبد حقيقة و منها ما يقال لله بطريق الحقيقة و للعبد بطريق المجاز و منها يقال لله بطريق الحقيقة و لا يقال للعبد لا بطريق الحقيقة و لا بطريق المجاز لعدم حصوله للعبد لا حقيقة ولا صورة ؛ مثال الأوّل العلم بكون النار حارّة فإنّ الله يعلم و العبد يعلم غاية مافي الباب أنّ علمه قديم وعلمنا حادث ، مثال الثاني الرازق و الخالق فإنّ العبد إذا أعطى غيره شيئاً فإنّ الله هو المعطي و لكن لأجل صورة العطاء منه سمّي معطياً كما يقال للصورة المنقوشة على الحائط : إنسان و فرس ، مثال الثالث الأزليّ و الإله فإنّه له لا لغيره سبحانه و قد يقال في أشياء في الإطلاق و التعبير على العبد حقيقة و على الله مجازاً كالاستواء و المعيّة و يد الله وجنب الله ، انتهى .

و قوله صلى الله عليه وآله وسلم : و ما أنفق المؤمن من نفقه فعلى الله خلفها بشرط أن لا يبلغ إلى حدّ السرف كما في الحديث روى أبو أمامة قال : إنّكم تؤوّلون في هذه الآية غير تأويلها « و ما أنفقتم من شيء فهو يخلفه » و قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و إلّا فصمّتا يقول : إيّاكم و السرف في المال و النفقة و عليكم بالاقتصاد ، فما افتقر قوم قطّ اقتصدوا .

قوله : [ويوم نحشرهم جميعاً] أي يوم القيامة نجمع العابدين لغير الله و المعبودين من الملائكة للحساب .

[ثمّ نقول للملائكة أهؤلاء] الكفّار [إيّاكم كانوا يعبدون] و يقصدون بالعبادة و هذا الخطاب و الاستشهاد للملائكة على اعتقاد الكفّار حتّى تبرّأ الملائكة منهم و من عبادتهم كما يقال لعيسى عليه السلام : « ءأنت قلت للنّاس اتّخذوني و أُمّي إلهين من دون الله (١) » فينكر عيسى و يقول : « إن كنت قلته فقد علمته (٢) » .

و النظم في الآية بماقبلها أنّهم قالوا : « نحن أكثر أموالاً » بيّن سبحانه أنّ

(١ ـ ٢) المائدة : ١١٩ .

دعواهم مردودة و أنّهم معذّبون .

قوله تعالى : قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون (٤١) فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعا ولاضرا و نقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون (٤٢) واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا الارجل يريد ان يصدكم عماكان يعبد آباؤكم وقالوا ماهذا الاافك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم ان هذا الا سحرمبين (٤٣) وما آتيناهم من كتب يدرسونها و ما ارسلنا اليهم قبلك من نذير (٤٤) و كذب الذين من قبلهم و ما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلي فكيف كان نكير(٤٥) .

المعنى : [قالوا] أي الملائكة : [سبحانك] أي تنزيهاً لك من أن نعبد سواك و نتّخذمعبوداً غيرك [أنت] يا الله [وليّنا] و ناصرنا وأولى بنا [من دونهم] من دون هؤلاء الكفّار و كلّ أحد وما كنّا نرضى بعبادتهم إيّانا مع علمنا بأنّك ربّنا وربّهم .

[بل كانوا يعبدون الجنّ] بطاعتهم إيّاهم فيما دعوهم إليه من عبادة الملائكة و قيل : المراد « بالجنّ » إبليس و ذريّته و أعوانه [أكثر هم بهم مؤمنون] أي مصدّقون بالشياطين مطيعون لهم وقيل : إنّ الشياطين يتمثّلون لهم ويخيّلون لهم أنّهم الملائكة فيعبدونهم وقيل : يدخلون أجواف الأصنام إذا عبدت و الضمير في « أكثرهم » للإنس والمشركين و الضمير في « بهم » للجنّ و الأكثر بمعنى الكلّ .

ثمّ يقول الله : [فاليوم] يعني في الآخرة [لايملك بعضكم لبعض] يعني العابدين و المعبودين [نفعاً] بالشفاعة [ولاضرّاً] بالتعذيب والفاء لترتيب بيان عدم النفع و الضرّ من الملائكة للعبدة والعبدة للملائكة .

[ونقول للذين ظلموا] بأن عبدوا غيرالله [ذوقوا عذاب النار الّتي كنتم بها تكذّبون] ولا تعترفون بها و تجحدونها لأنّ بعضهم كانوا جاحدين وقوع العذاب رأساً و بعضهم يدفعونها بشفاعة أصنامهم و بعضهم ينكرون العذاب الدائم و يقولون : « لن تمسّنا النار إلّا أيّاماً معدودة »(١) فيقال لهم : ذوقوا عذاب الدائم .

---

(١) البقرة : ٨٠

ثمّ بيّن سبحانه حال الكفّار في الدنيا فقال : [و إذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات] أي متى ما يقرء عليهم حججنا البيّنة الواضحة من القرآن الّذي أنزلناه على نبيّنا [قالوا] عند ذلك : [ماهذا إلّا رجل يريد أن يصدّكم] و يمنعكم [عمّا كان يعبد آباؤكم] و يقول بعضهم لبعض هذا القول و فرغوا إلى تقليد الآباء لمّا أفحمتهم الحجّة .

[وقالوا ما هذا] القرآن [إلّا إفك] أي كذب مفترى تخرّصه وافتراه هذاالنبيّ [وقال الّذين كفروا للحقّ] أي للقرآن [لمّا جاءهم إن هذا] أي ما هذا [إلّا سحر مبين] ظاهر .

ثمّ أخبرسبحانه أنّهم لم يقولوا ذلك عن بيّنة فقال : [وما آتيناهم من كتب يدرسونها] أي و ما أعطينا مشركي قريش كتاباً قطّ يعلّمون درسه حتّى يعلموا أنّ ماجئت به حقّ أو باطل وإنّما يكذّبونك بهوى أنفسهم لاعن علم أي إنّ الآيات البيّنات لاتعارض إلّا بالبراهين العقليّة أوبالنقليّات الصحيحة وهم ماكان عندهم من كتاب ولا رسول غيرك والمعتبر كتاب الله أوخبرالرسول .

[وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير] أي مابعثنا رسولاً أمرهم بتكذيبك وأخبرهم ببطلان قولك يعني إنّهم لايرجعون في تكذيبك إلّا إلى الجهل والعناد .

ثمّ أخبر سبحانه عن عاقبة من كذّب الرسل تخويفاً لهم فقال : [و كذّب الّذين من قبلهم] بمن بعث إليهم من الرسل وما آتاهم الله من الكتب [وما بلغوا معشار ما آتيناهم] أي و مابلغ قومك يا محمّد معشار ما أعطينا من قبلهم من القوّة والعمر والمال فأهلكهم الله .

[فكذّبوا رسلي فكيف كان نكير] أي عقوبتي انظر في آثار هم كيف كان إنكاري عليهم بالهلاك ومابلغ هؤلاء الضعفاء من قومك معشار اُولئك الذين وقع عليهم أخذي و عقوبتي مع كثرة أموالهم وأعمارهم مثل عاد وثمود ويمكن أن يكون المعنى: إنّ اُولئك المتقدّمين الّذين وقع عليهم العذاب ما آتيناهم عشر ما آتينا قومك من البيّنات والحجج ومع ذلك كيف كان إنكاري لهم بالتدمير فليحذر هؤلاء من مثل ذلك وذلك لأنّ كتاب محمّد أكمل من سائر الكتب وأوضح ولذلك محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم أفضل وأفصح وبرهانه وبيانه أشفى .

قل انما اعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى و فرادى ثم تتفكروا ما

بصاحبكم من جنة ان هو الا نذير لكم بين يدى عذاب شديد (٤٦) قل ماسألتكم من أجر فهو لكم ان اجرى الا على الله وهو على كل شيء شهيد (٤٧) قل ان ربى يقذف بالحق علام الغيوب (٤٨) قل جاء الحق و ما يبدىء الباطل و ما يعيد (٤٩) قل ان ضللت فانما أضل على نفسى و ان اهتديت فبما يوحى الى ربى انه سميع قريب (٥٠) .

المعنى : أشار سبحانه في هذه الآية بالأصول الثلاثة فقوله : «أن تقوموا لله» إشارة إلى التوحيد وقوله : «مابصاحبكم من جنّة إن هو إلّا نذير لكم» إشارة إلى الرسالة وقوله : « بين يدي عذاب شديد » إشارة إلى اليوم الآخر .

فخاطب نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : [قل] يا محمّد : لهم [إنّما أعظكم بواحدة] أي آمركم بخصلة واحدة أو بكلمة واحدة وهي كلمة التوحيد أوطاعة الله فمن قال بالأوّل: فسّر الواحدة بمابعده فقال : [أن تقوموا لله مثنى وفرادى] أي اثنين اثنين ووا حداً واحداً [ثمّ تتفكّروا ما بصاحبكم من جنّة] معناه أن يقوم الرجل منكم وحده أومع غيره ثمّ تتساءلون وتتباحثون هل جرّبنا على محمّد كذباًوهل رأينابه جنّة ففي ذلك بطلان قولكم فيماتقولون : إنّه لمجنون وساحر ومعنى القيام في الآية ليس القيام على الأرجل بل المراد به القصد للنظروالفهم والتعقّل لتبيين الحقّ .

فلوقيل : إنّ قوله : « إنّما أعظكم بواحدة » أن يتمّ الأمر بالتوحيد والحالة أنّ الإيمان لايتمّ إلّا بالاعتراف بالرسالة والحشر واُمور اُخر فكيف يصحّ الحصر المذكور بقوله : « إنّما أعظكم بواحدة » .

فالجواب أنّ الاُمور الباقية والأركان الاُخر غير منفكّة عن هذه الواحدة و لازمة لها لأنّ من وحّد الله حقّ التوحيد لابدّ وأن يؤمن بكتابه و وحيه فالإيمان بالكلّ يلزمه ثمّ إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ما قال : إنّي لا آمركم في جميع عمري إلّا بشيء واحد بل قال : إنّي أعظكم أوّلاً بالتوحيد ولاآمركم في أوّل الأمر بغيره لأنّه سابق على الكلّ كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم في أوّل الأمر قولوا : لاإله إلّا الله تفلحوا وهو الأصل الأصيل .

و في الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث : إنّ الله تعالى اُنزل عزائم

الشرائع وآيات الفرائض في أوقات مختلفة كما خلق السماوات والأرض في ستّة أيّام و لوشاء أن يخلقهما في أقلّ من لمح البصر لخلق و لكنّه جعل الأناة و المداراة مثالاً لاُمنائه و تعليماً لخلقه في اُمورهم فكان أوّل ما قيّدهم به الإقرار بالوحدانيّة والربوبيّة فلّما أقرّوا بذلك تلا بالإقرار لنبيّه والشهادة له بالرسالة فلمّا انقادوا لذلك فرض عليهم الصلاة ثمّ الصوم ثمّ الحجّ ثمّ الجهاد ثمّ الزكاة ثمّ الصدقات وما يجري مجراها من الأحكام من الفيء وغيرها فقال المنافقون : هل بقي لربّك علينا بعد الّذي فرض علينا شيء آخر فتذكره ليسكن أنفسنا إلى أنّه لم يبق غيره فأنزل الله في ذلك « قل إنّما أعظكم بواحدة » يعني الولاية و إذا نظر الإنسان بعين التأمّل والدقّة يعرف أنّ من أتى بالولاية لعليّ بن أبي طالب فقد أتى بجميع الاُصول الخمسة والملازمة بينهما ثابتة بل ملازمة الفروع ثابتة لأنّ الجحود والإطاعة نقيضان كما أنّ الولاية والقبول متلازمان .

قوله تعالى : [إن هو إلّا نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد] ولمّا قال سبحانه : قبيل هذا « ما بصاحبكم من جنّة » أي أنتم ما رأيتم من منشئه إلى مبعثه وصمة تنافي النبوّة من كذب أوضعف في العقل أو اختلاف في القول والعمل نبّههم سبحانه عن طريقة النظر بأنّ مثل هذا الأمر العظيم الّذي تحته ملك الدنيا والآخرة لا يتصدّى لادّعائه إلّا مجنون لايبالي بافتضاحه عند مطالبته بالبرهان ، أو مؤيّد من عند الله مرشّح للنبوّة واثق بحجّته و قد عرفتم ذلك منه و قد انضمّ إلى ذلك معجزات تخرّ لها الجبال ويظهر منه أشياء لاتكون مقدوراً للبشر مثل القرآن وآياتٌ و معجزاتٌ اُخر فالصادرة منه بواسطة الملك وقدرة الله و تثبت النبوّة ولزمتهم الحجّة فقال : ماهو صلّى الله عليه وآله وسلّم إلّا رسول منذركم ومخوّفكم من مخالفته ومن معاصي الله «بين يدي عذاب شديد » أي عذاب القيامة .

ثمّ قال سبحانه : [قل] يا محمّد لهم : [ماسألتكم من أجر فهو لكم] أي لا أسألكم على تبليغ الرسالة شيئاً من عرض الدنيا وما طلبته منكم من أجر أداء الرسالة وبيان الشريعة ، فهو لكم و « ما » في قوله : « وما سألتكم » يجوز أنّها موصولة ويجوز أن تكون شرطيّة [إن أجري إلّا على الله] وليس ثواب عملي إلّا على الله [وهو على كلّ

شيء شهيد] لم يغب عنه شيء ويعلم مايلحقني من أذاكم .

[قل] يا محمّد : [إنّ ربّي يقذف بالحقّ علاّم الغيوب] أي يلقيه ويرمي الحقّ وهو الوحي إلى أنبيائه والقرآن أو يتكلّم بالقرآن وهو الحقّ وينزله على من يجتبيه من عباده أو يرمي بالحقّ على الباطل فيدمغه أوالمعنى أنّه سبحانه يقذف بالقرآن في أقطار الآفاق لإظهار الدين وإعلاء كلمته وهو الّذي علم جميع الخفيّات .

[قل] يا محمّد : [جاء الحقّ] وهو أمر الله تعالى بالإسلام والتوحيد وقيل : هو الجهاد بالسيف عن أبي مسعود ولمّا ذكر الله أنّه يقذف بالحقّ وكان ذلك بصيغة الاستقبال ذكر سبحانه أنّ ذلك الحقّ قدجاء ، وفي الحقّ وجوه وذكرنا الوجهين الثالث : أنّ المراد المعجزات الدّالة على نبوّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ويمكن أن يكون المراد من قوله : « جاء الحقّ » يعني ظهر الحقّ لأنّ كلّ ماجاء فقدظهر .

وقوله : [وما يبدىء الباطل وما يعيد] أيما يبدىء الباطل لأهله خيراً في الدنيا ولا يعيد خيراً في الآخرة وقيل : إنّ « ما » استفهاميّة على معنى « وأيّ شيء يبدىء الباطل وأيّ شيء يعيده» وقيل : معنى الآية : ذهب الباطل إذهاباً لم يبق منه إبداء ولا إدبار لأنّ الحقّ إذا جاء لايبقى للباطل بقيّة .

قال ابن مسعود : دخل رسول الله مكّة وحول البيت ثلاثمائة وستّون صنماً فجعل يطعنها بعودٍ في يده الشريفة ويقول : «جاء الحقّ وزهق الباطل إنّ الباطل كان زهوقاً جاء الحقّ ومايبدىء الباطل وما يعيد » .

قوله تعالى : [قل إن ضللت فإنّما أضلّ على نفسي وإن اهتديت] أي إن ضللت عن الحقّ كما تدّعون وتزعمون فإنّما يرجع وبال ضلالي عليّ لأنّي مأخوذ به دون غيري وإن اهتديت إلى الحقّ [فبما يوحي إليّ ربي] أي بتفضّل ربّي حيث أوحى إليّ وليس اهتدائي بالنظر والاستدلال كاهتدائكم وإنّما هو بالوحي [إنّه سميع] لأقوالنا [قريب] بالإحاطة لايخفى عليه المحقّ والمبطل .

قوله : ولو ترى اذ فزعوا فلا فوت واخذوا من مكان قريب (٥١) وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد (٥٢) وقد كفروا به من قبل ويقذفون بالغيب من مكان بعيد (٥٣) وحيل بينهم وبين مايشتهون كما

فعل باشياعهم من قبل انهم كانوا فى شك مريب (٥٤).

جواب لو محذوف وتقديره : لرأيت عجباً .

المعنى : لمّا قال سبحانه : « إنّه سميع قريب » فإنّه إن لم يعذّب عاجلاً أولايعيّن صاحب الحقّ في الحال فيوم الفزع آت لافوت فيه وإنّما يستعجل العقوبةمن يخاف الفوت [وأُخذو من‌مكان قريب] يعني القبور وحيث ماكانوا فهم من الله قريب وقيل : المراد من قوله : « إذ فزعوا » في الدنيا حين رأوا بأس الله عند معاينة الملائكة لقبض أرواحهم .

القمّي عن الباقر عليه السلام قال : إذا فزعوا من الصوت و ذلك الصوت من السماء . « وأُخذوا من مكان قريب» قال عليه السلام : من‌تحت أقدامهم خسف بهم و عنه عليه السلام لكأنّي أنظر إلى القائم وقد أسند ظهره إلى الحجر وساق الحديث إلى أن قال : فإذا جاء إلى البيداء يخرج إليه جيش السفيانيّ فيأمرالله عزّوجلّ للأرض فتأخذ بأقدامهم وهو قوله تعالى : « ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت وأُخذوا من‌مكان قريب » .

[وقالوا آمنّا به]قال : يعني بالقائم من آل محمّد صلى الله عليه وآله وسلم أو بمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم [وأنّي لهم التناوش من مكان بعيد] أي التناول يعني تناول الإيمان بعد زمان التكليف قال : إنّهم طلبوا الهدى من حيث لاينال وقدكان لهم مبذولاً من حيث ينال .

[وقد كفروا به من قبل] في أوان التكليف ولمّا جعل الله الفعل مأخوذاً كالجسم جعل‌ظرف الفعل وهو الزمان كظرف الجسم وهو المكان فقال : « من‌مكان بعيد » والضمير في قوله : « وقد كفروا به » راجع إلى القائم بموجب الرواية أو بمحمّد أو بالقرآن .

وعن حذيفة بن اليمان عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : ذكر فتنة تكون بين أهل المشرق والمغرب قال : فبيناهم كذلك يخرج عليهم السفيانيّ من الوادي اليابس حتّى ينزل دمشق فيبعث جيشين جيشاً إلى المشرق وآخر إلى المدينة حتّى ينزلوا بأرض بابل من المدينة الملعونة يعني بغداد فيقتلون أكثر من ثلاثمائة آلاف و يفتضحون أكثر من مائة امرأة ويقتلون بها ثلاثمائة كبش من بني العبّاس ثمّ ينحدرون إلى الكوفة فيخربون مابها ثمّ يخرجون متوجّهين إلى الشام فيخرج راية هدى من الكوفة فيلحق ذلك

الجيش فيقتلونهم لايفلت منهم مخبرو يستنقذون مافي أيديهم من السبي والغنائم ويحلّ الجيش الثاني بالمدينة فينتهبونها ثلاثة أيّام بلياليها ثمّ يخرجون متوجّهين إلى مكّة حتّى إذاكانوا بالبيداء يبعثالله جبرئيل فيقول : اذهب ياجبرئيل فأبدهم فيضربها برجله ضربة يخسف الله بهم عندها ولا يفلت منهم إلّا رجلان منجهينة فلذلك جاء القول «وعند جهينة الخبراليقين» فلذلك قوله تعالى : « ولو ترى إذ فزعوا » أورده الثعلبيّ في تفسيره وروى أصحابنا مثله عن الباقر والصادق عليهما السلام انتهى .

قوله تعالى : [ويقذفون بالغيب من مكان بعيد] أي يرجمون بالظنّ كالشيء الّذي يرمى في موضع بعيد فيقولون : لاجنّة ولا نار ولا بعث وقيل : معناه يرمون محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم بالظنون من غير يقين وذلك قولهم : هو ساحرٌ وهو شاعر وهو مجنون ويبعّدون أمر الآخرة فيقولون لأتباعهم : «هيهات هيهات لما توعدون» . وقيل : معناه أنّهم في الآخرة يقولون : « ربّنا أبصرنا وسمعنا فارجعنا نعمل صالحاً » (١) وهو قذف بالغيب منمكان بعيد وهو الدنيا .

ثمّ قال : [و حيل بينهم و بين ما يشتهون] من العود إلى الدنيا أو حيل بينهم و بين لذّات الدنيا بالموت و منعوا من كلّ مشتهى فيلحق الله النفار فيهم فلا يدركون شيئاً إلّا ويتألّمون به .

[كما فعل] مثل ذلك [بأشياعهم من قبل] أي بأمثالهم من الكفّار و بأهل دينهم من الأُمم الماضية حين لم يقبل منهم التوبة وقت رؤية البأس والعذاب قال الضحّاك : أراد بذلك أصحاب الفيل حين أرادوا خراب الكعبة [إنّهم كانوا في شكّ] من البعث و النشور و في وقوع العذاب بهم [مريب] أي مشكّك و معنى « شك مريب » مثل قولك : عجب عجيب و هو مبالغة في بيان الشكّ .

تمّت السورة

---

(١) السجدة : ١٢ .

سورة الملائكة

(مكية)

إلّا آيتين : الأُولى : « إنّ الّذين يتلون كتاب الله » الآية [١] و الثانية « ثمّ أورثنا الكتاب » الآية [٢] .

فضلها قال اُبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ قال : من قرأ سورة الملائكة دعته يوم القيامة ثلاثة أبواب من الجنّة أن ادخل من أيّها شئت .

(١) الاية : ١٩ .
(٢) الاية : ٣١ .

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله فاطر السموات و الارض جاعل الملائكه رسلا اولی اجنحة مثنی و ثلاث و رباع یزید فی الخلق ما یشاء ان الله علی كل شیءقدیر(١) ما یفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما یمسك فلا مرسل له من بعده و هو العزیز الحكیم (٢) یا ایها الناس اذكروا نعمة الله علیكم هل من خالق غیر الله یرزقكم من السماء و الارض لا اله الا هو فانی تؤفكون(٣) و ان یكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك والی الله ترجع الامور (٤) یا ایها الناس ان وعد الله حق فلا تغرنكم الحیوة الدنیا و لا یغرنكم بالله الغرور (٥) .

المعنى : حمد سبحانه نفسه ليعلّمنا كيف نحمده و ليبيّن لنا أنّ الحمد كلّه له فقال : [الحمد لله فاطر السماوات و الأرض] أي حقيقة الحمد لمن خلقهما مبتدئاً على غير مثال ومبدعها أو المعنى شافهما النزول الأرواح من السماء و خروج الأجساد من الأرض .

[جاعل الملائكة رسلاً] إلى الأنبياء بالرسالة و الوحي [اُولي أجنحة مثنى و ثلاث و رباع] و كلمة « مثنى و ثلاث ورباع » معدولة عن اثنين اثنين و ثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة و إنّما جعلهم سبحانه اُولي أجنحة ليتمكّنوا بها من العروج إلى السماء ومن النزول إلى الأرض فمنهم من له جناحان و منهم من له ثلاثة أجنحة و منهم من له أربعة أجنحة و يزيد فيها ما يشاء و هو قوله : [يزيد في الخلق ما يشاء] قال ابن عبّاس : رأى رسول الله جبرئيل ليلة المعراج و له ستّ مائة جناح و قيل : معنى قوله : « و يزيد في الخلق ما يشاء » أراد حسن الصورة و الصوت والملاحة والشعر والحسن .

[إنّ الله على كلّ شيء قدير] ولا شيء إلّا و هو قادر عليه .

ثمّ بيّن إحسانه فقال : [ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها] «ما» شرطيّة

أي مهما يأتهم و يفتح الله للناس من خيرو و مطر و عافية أو أيّ نعمة شاء فإنّ أحداً لا يقدر على إمساكه [و ما يمسك] من ذلك [فلا مرسل له من بعده] أي إنّ أحداً لا يقدر على إرساله .

و قيل : معنى الآية : ما يرسل الله من رسول إلى عباده في وقت دون وقت فلا مانع له لأنّ إرسال الرسول رحمة من الله ولولا ناموس الشريعة في الناس لانجرّ الأمر في الخلق إلى النفاق و الهلاك .

أقول : و قد وجدت في بعض كلمات أفلاطون الحكيم أنّ إرسال الرسل و بيان الناموس للخلق من أعظم النعم و إنّه من موجبات البقاء و لولاه لآل اُمورهم إلى الفناء و الاضمحلال .

[و هو العزيز الحكيم] الغالب في أمره لا يعجز الحكيم في أفعاله إن أمسك أو أنعم بما يقتضيه حكمته .

ثمّ خاطب المؤمنين فقال : [يا أيّها الناس اذكروا نعمة الله عليكم] الظاهرة و الباطنة الّتي من جملتها أنّه خلقكم و أوجدكم و أقدركم و خلق لكم أنواع الملاذّ و المنافع و النعم مع كثرتها منحصرة في قسمين : نعمة الإيجاد و نعمة الإبقاء فقال : [هل من خالق غير الله] إشارة إلى نعمة الإيجاد في الابتداء وقال : [يرزقكم من السماء والأرض] إشارة إلى نعمة الإبقاء بالرزق إلى الانتهاء و هذا الكلام استفهام تقريريّ و معناه النفي ليقرّوا بأنّه لاخالق إلا الله و لا رازق للعباد غيره مثل أن يرزق من السماء بالمطرو من الأرض بالنبات .

[لا إله إلّا هو] وليس معبود يستحقّ العباد سواه [فأنّى تؤفكون] أي كيف تصرفون عن طريق الحقّ إلى الضلال وتقلبون الأمر و تعكسون هذه الأدلّة معوضوحها ؟

ثمّ سلّى نبيّه عن تكذيب قومه إيّاه فقال : [وإن يكذّبوك فقد كذّبت رسل من قبلك و إلى الله ترجع الاُمور] فيجازي من كذّب رسله و ينصر من صدّقهم .

ثمّ خاطب الخلق فقال : [يا أيّها الناس إنّ وعد الله] من الجنّة و النار والبعث و النشور و الجزاء و الحساب [حقّ] و صدق كائن لا محالة [فلا تغرّنكم الحياة الدنيا]

فلا تغترّوا بملاذّها و نعيمها و لايخدعنّكم حبّ الجاه والرياسة و طول البقاء فإنّ ذلك نافد بائد و يبقى الوزر و لمّا كان الإنسان بعضهم سخيف الرأي قليل العقل فيغترّ بأدنى شيء و قد يكون فوق ذلك و لا يغترّ به و لكن إذا جاءه غارّ و شيطان كامل و زيّن له ذلك الشيء و هوّن عليه مفاسده و بيّن له ملاذّ ومنافع يغترّ به و يوقع نفسه في المعصية فقال الله : « لا تغرّنّكم الحياة الدنيا » إشارة إلى الدرجة الأولى و قال : [و لا يغرّنّكم بالله الغرور] إشارة إلى الطبقة الثانية و الغرور الّذي عادته أن يغرّ غيره و الشيطان و الدنيا و زينتها بهذه الصفة و إنّ الخلق يغترّون بها و قيل : المراد من الغرور إبليس .

ثمّ أشار إلى الطبقة الثالثة و هي الطبقة العليا الّذين لم يكونوا من عبيد الدنيا ومن حزب الشيطان و قال سبحانه :

ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير (٦) الذين كفروا لهم عذاب شديد والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير (٧) أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا فان الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ان الله عليم بما يصنعون (٨) والله الذى أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه الى بلد ميت فأحيينا به الارض بعد موتها كذلك النشور (٩) من كان يريد العزة فلله العزة جميعا اليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر اولئك هو يبور (١٠).

المعنى : لمّا حذّرهم سبحانه عن الانغمار في الدنيا ومتابعة الشيطان فصرّح [إنّ الشيطان لكم عدوّ] يدعوكم إلى مافيه الهلاك والخسرو يصرفكم عن أفعال الخير والبرّ ويدعوكم إلى الشرّ [فاتّخذوه عدوّاً] وعادوه ولاتتّبعوه بأن تعملوا على وفق مراده .

[إنّما يدعو حزبه] أي أتباعه وأصحابه [ليكونو من أصحاب السعير] أي النار المسعرة والمعنى أنّه لاسلطان له على المؤمنين و لكنّه يدعو أتباعه إلى ما يستحقّون به

النار ثمّ بيّن حال من اتّبعه و حال من خالفه والعاقل إذا علم أنّه عدوّ لامهرب له منه و جزم بذلك فإنّه يقف على قباله حتّى يهزمه فهزيمة الشيطان بعزيمة الإنسان على الثبات في طاعة الله والإعمال على العبادة .

ثمّ بيّن سبحانه حال حزب الشيطان وحال حزب الله فقال : [الّذين كفروا لهم عذاب شديد] جزاءً على كفرهم [والّذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة] من الله لذنوبهم [وأجرٌ كبير] أي ثواب عظيم .

ثمّ قال سبحانه على سبيل الإنكار مقرّراً لهم [أفمن زيّن له سوء عمله فرآه حسناً] يعني الكفّار زيّنت لهم نفوسهم ومشتهياتهم أعمالهم السيّئة فتصوّروها حسنة أوزيّنه الشيطان لهم بأن أمالهم إلى الشبه المضلّة وتركوا النظر في الأدلّة وأغواهم حتّى تشاغلوا بما فيه عاجل اللّذّة وجواب الاستفهام محذوف أي أهو كمن علم الحسن والقبيح ولم يزيّن له سوء عمله وقيل : تقديره : كمن هداه الله وزيّن له صالح عمله والآية تقرير لبيان التباين بين حال الفريقين .

قوله : [فإنّ الله يضلّ من يشاء] لاستحسانهم و استحبابهم الضلالة على الهدى وبسوء اختياره اقتضى العذاب فردّه إلى أسفل السافلين [و يهدي من يشاء] بصرف اختيارهم إلى الهداية فيرفعه إلى أعلى علّيّين .

قوله : [فلاتذهب نفسك عليهم حسرات] أي لا تهلك نفسك يا محمّد عليهم حسرة و لا يغمّك حالهم إذا كفروا واستحقّوا العذاب وهو كقوله : «لعلّك باخع نفسك ألّا يكونوا مؤمنين» والحسرة شدّة الحزن على مافات من الأمر [إنّ الله عليم بما يصنعون] فيجازيهم على صنيعهم .

قوله : [والله الّذي أرسل الرياح فتثير سحاباً] ثمّ عاد سبحانه إلى ذكر أدلّة التوحيد وشواهد القدرة وذلك أنّ هبوب الرياح دليلٌ ظاهر على الفاعل المختار لأنّ الهواء قد يسكن وقد يتحرّك ويتموّج وعند حركته قد يتحرّك إلى اليمين وإلى اليسار و في حركاته المختلفة قد ينشئ السحاب وقد لا ينشئ و هذه الاختلافات من طبيعة واحدة دليل على مسخّر ومدبّر حيث تختلف آثارها وأتى الإرسال بلفظ الماضي و الإثارة بلفظ

المستقبل لأنّه لمّا أسندفعل الإرسال إلى الله وما يفعل الله يكون بقوله : « كن » لوجوب وقوعه وسرعة كونه كأنّه كان فهو سبحانه قدّر الارسال في الأوقات المعلومة إلى المواضع المعيّنة والتقدير وقع فهو كالإرسال وأمّا الإثارة لمّا أسنده إلى الريح وهو يؤلّف في زمان فأتى بلفظ المستقبل على هيئتها التدريجيّ .

قوله : [فسقناه إلى بلد ميّت] أي أرض مجدبة فيمطر على ذلك البلد [فأحيينا به] أي بالمطر والماء [الأرض بعد موتها] بأن أنبتنا فيها الزرع والكلاء بعد أن لم يكن [كذلك النشور] أي كما نعل بهذه الأرض المجدبة الميّتة من إحيائها بالزرع والنبات ينشر الخلائق بعد موتهم ويحشرهم للجزاء من الثواب والعقاب ووجه التشبيه معلوم أي كما أنّ الريح يجمع القطع السحابيّة كذلك تجتمع أجزاء الأعضاء و أبعاض الأشياء و أيضاً كما نسوق الريح والسحاب إلى البلد الميّت لإحيائه كذلك نسوق الروح والحياة إلى البدن ثانياً وأيضاً كما أنّ الأرض الميّتة قبلت الحياة اللائقة بها كذلك أعضاء الإنسان تقبل الحياة .

قوله تعالى : [من كان يريد العزّة فللّه العزّة جميعاً] اختلف في معناه فقيل : المعنى : من كان يريد علم العزّة وهي القدرة على القهر والغلبة لمن هي فإنّها لله جميعاً و قيل : معناه من أراد العزّة فليتعزّز بطاعة الله فإنّ الله يعزّه كما يقال : من أراد المال فالمال لفلان فليطلب من عنده و يؤيّد هذا المعنى مارواه أنس عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : إنّ ربّكم يقول كلّ يوم : أنا العزيز فمن أراد عزّ الدارين فليطع العزيز .

ولعلّ المراد في الآية منع الكفّار عن العزّة الّتي كانوا يتوهّمونها من حيث إنّهم ماكانوا في طاعة أحد ولم يكن من يأمرهم وينهاهم فكانوا ينحتون الأصنام ويقولون: إنّ هذه آلهتنا ثمّ إنّهم كانوا ينقلونها مع أنفسهم و كانوا يطلبون العزّة لأنفسهم وهي عدم التذلّل للرسول وترك الاتّباع فقال سبحانه : إن كنتم تطلبون بهذا الكفر العزّة فهي كلّها لله ومن يتذلّل له فهو العزيز ومن يتعزّز عليه فهو الذليل كما قال سبحانه : في آية اُخرى « ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين[1] » فله العزّة بالذات و لرسوله بواسطة

(١) الفتح : ٨ .

القرب من العزيز وهو الله وللمؤمنين بواسطة قربهم للرسول .

قوله تعالى : [إليه يصعد الكلم الطيّب] تقرير لبيان العزّة و ذلك أنّ الكفّار كانوا يقولون : نحن لا نعبد من لا نراه ولا نحضر عنده فقال تعالى : إن كنتم لا تصلون إليه فهو يسمع كلامكم و يقبل الطيّب من القول والكلم جمع « الكلمة » يقال : هذا كلم وهذه كلم فيذكّر ويؤنّث و كلّ جمع ليس بينه وبين واحده إلّا الهاء يجوز فيه التذكير والتأنيث ومعنى الصعود ههنا القبول من صاحبه والإثابة عليه و كلّ ما يتقبّله الله من الطاعات يوصف بالرفع والصعود لأنّ الملائكة يكتبون أعمال بني آدم ويرفعونها إلى حيث شاء الله وهذا كقوله : « إنّ كتاب الأبرار لفي علّيّين [1] » ويمكن أن يكون المعنى يصعد إلى سمائه فجعل صعود العمل إلى سمائه صعوداً إليه والمراد من « الكلم الطيّب » الكلمات الحسنة من التعظيم والتقديس وأحسن الكلم « لا إله إلّا الله » .

قوله : [والعمل الصالح يرفعه] قيل فيه وجوه : أحدها أنّ العمل الصالح يرفع الكلم الطيّب إلى الله فالهاء من يرفعه يعود إلى الكلم . والثاني على القلب من الأوّل أي الكلم الطيّب يرفع العمل الصالح إلى الله حيث لا ينفع العمل الصالح إلّا إذا صدر عن التوحيد . والثالث أنّ العمل الصالح يقبله الله ويرفعه وعلى هذا يكون الكلام ابتداءً إخباراً لا يتعلّق بما قبله .

قوله تعالى : [والّذين يمكرون السيّئات] أي الّذين مكروا برسول الله في دار الندوة وتبانيهم في إحدى ثلاث: حبسه أو قتله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أو إجلائه ويشمل مكرات أصحاب السقيفة وقيل : يمكرون أي يعملون السيّئات ولذا عدّاه بالسيّئات وإلّا فهو لازم أو المعنى يمكرون المكرات السيّئات ويشركون بالله [لهم عذاب شديد] في الآخرة ثمّ أخبر سبحانه أنّ مكرهم يبطل ويفسد فقال : [ومكر اُولئك] الماكرين [هو يبور] ويفنى .

قال الفيض في قوله تعالى : « إليه يصعد الكلم الطيّب و العمل الصالح يرفعه » القمّي قال : هو كلمة الإخلاص والإقرار بما جاء به النبيّ من عند الله من الفرائض والولاية ترفع العمل الصالح إلى الله وعن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ الكلم الطيّب قول المؤمن : لا إله إلّا الله

(١) المطففين : ١٨

محمد رسول الله علي ولي الله وخليفة رسول الله قال: والعمل الصالح الاعتقاد بالقلب بأن هذا لهو الحق من عند الله.

وعن الباقر عليه السلام قال: قال رسول الله: إن لكل قول مصدقاً من عمل يصدقه أو يكذبه فإذا قال ابن آدم وصدق قوله عمله، رفع قوله بعمله إلى الله وإذا خالف عمله قوله رد قوله على عمله الخبيث وهوي به في النار.

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال: ولايتنا أهل البيت وأومأ بيده إلى صدره فمن لم يتولنا لم يرفع الله له عملاً.

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام: من قال: لا إله إلا الله مخلصاً طمست ذنوبه كما ينطمس الحرف الأسود من الرق الأبيض فإذا قال ثانية: لا إله إلا الله مخلصاً خرقت أبواب السماء وصفوف الملائكة حتى يقول الملائكة بعضها لبعض: اخشعوا لعظمة أمر الله فإذا قال ثالثة مخلصاً: لا إله إلا الله لم تنته دون العرش فيقول الجليل: اسكني فوعزتي وجلالي لأغفرن لقائلك بما كان فيه ثم تلا هذه الآية «إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه» يعني إذا كان علمه صالحاً ارتفع قوله وكلامه انتهى.

قوله تعالى: والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجاً وما تحمل من انثى ولا تضع الا بعلمه وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره الا في كتاب ان ذلك على الله يسير (١١) وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح اجاج ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون (١٢) يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه مايملكون من قطمير (١٣) ان تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا مااستجابوا لكم و يوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير (١٤) يا أيها الناس أنتم الفقراء الى الله والله هو الغنى الحميد (١٥) ان يشأ يذهبكم و يأت بخلق جديد (١٦) وما ذلك على الله بعزيز (١٧).

اعلم أنّ الدلائل مع كثرتها وعدم دخولها في عددٍ محصور منحصرة في قسمين : دلائل الآفاق ودلائل الأنفس فلمّا ذكر سبحانه شطراً من دلائل الآفاق من السماوات وما يُرسل منها من الملائكة والأرض وما يُرسل فيها من الرياح ذكر في هذه الآية من دلائل الأنفس فقال :

[والله خلقكم من تراب] أي خلق آباءكم وأصلكم من تراب [ثمّ من نطفة] أي ماء قليل وهي من الأضداد وقوله : « من نطفة » إشارة إلى أولاده أو المراد أنّ أصل النطفة من التراب أيضاً . وقوله : [ثمّ جعلكم أزواجاً] أي ذكوراً و إناثاً وقيل : ضروباً وأصنافاً .

[وما تحمل من اُنثى ولا تضع إلّا بعلمه] إشارة إلى كمال العلم فإنّ ما في الأرحام قبل الانخلاق بل بعده مادام في البطن لايعلم حاله أحد كيف والاُمّ الحامل لاتعلم منه شيئاً ؟

[وما يعمّر من معمّر] معناه وما يمدّ في عمر معمّر ولا يطول عمر أحدٍ [ولا ينقص من عمُره] أي من عمر ذلك المعمّر بانقضاء الأوقات عليه و لا يذهب بعض عمره بمضيّ الليل والنهار أو يكون المعنى : إنّ فلاناً لو أطاع لبقي إلى وقت كذا وإذا عصا نقص عمره .

[إلّا في كتاب] أي إلّا وذلك مثبت في الكتاب وهو الكتاب المحفوظ فأثبت الله في اُمّ الكتاب عمر فلان كذا سنة ثمّ يكتب أسفل ذلك ذهب يوم ذهب يومان وذهب ثلاثة أيّام حتّى يأتي على آخر عمره فبيّن سبحانه أنّه هو القادر على مثل هذا الخلقة والعالم بهذه الجزئيّات والأصنام الّتي تعبدونها لاقدرة ولا علم لها فكيف تستحقّ العبادة ؟

[إنّ ذلك على الله يسير] أي الخلق والتعمير والنقصان على الله سهلٌ يسير .

ثمّ قال : [وما يستوي البحران] يعني العذب والمالح ثمّ ذكر الفرق فقال : [هذا عذب فرات] أي طيّب بارد [سائغ شرابه] جائز في الحلق هنيء [و هذا ملح اُجاج] فيه الملوحة والمرورة . قال أهل اللغة : لايقال في ماء البحر إذا كان فيه ملوحة :

مالح و إنّما يقال له : ملح كما أنّ الماء العذب إذا أُلقي فيه ملح حتّى ملح لايقال له إلّا مالح و إنّما يقال للماء الّذي أصل خلقته مملوحة : ملح لأنّ المالح شيء فيه ملح وماء البحر ليس ماء وملح بخلاف الطّعام الّذي وقع فيه الملح فيقال لهذا : مالحولذلك : ماء ملح ولو أنّ ماء البحر اكتسب الملوحة من أجزاء سبخة أرضيّة وماؤه بسبب المجاورة اكتسب الملوحة لكن لمّا ملح بسبب المجاورة كأنّهم جعلوا ملوحته أصلاً وخلقةً وفرّقوا بين اللغتين بهذا السبب .

وبالجملة قال المفسّرون : إنّ المرادمن الآية ضرب المثل في حقّ الكُفر والإيمان أو الكافر والمؤمن قالوا : إنّ الكفر والإيمان لايتساويان كما لايتساوى الماء الملح والماء العذب .

وقوله تعالى : [ومن كلّ تأكلون لحماً طريّاً وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر] أي ماخرات وشاقّات البحر بالجري بيانٌ بأنّ حال الكافر دون حال البحرين لأنّ الأُجاج يشارك الفُرات في الخير والنفع إذ اللحم الطريّ يوجد فيهما والحلية توجد منهما والفُلك تجري فيهما ولا نفع في الكُفر والكافر وهذا الكلام على نسق قوله تعالى : «كالحجارة أو أشدّ قسوة وإنّ من الحجارة لمّا يتفجّر منه الأنهار[1] » .

وفي الآية إشارة إلى أمرٍ آخر وهو الدليل على كمال القدرة وبيانه أنّ البحرين يستويان في الصورة ويختلفان في الماء فإنّ أحدهما « عذب فرات » والآخر « ملح أُجاجٌ » ولو كان ذلك بإيجاب لما اختلف المتساويان ثمّ إنّهما بعد اختلافهما يوجد فيهما أُمورٌ متشابهة فإنّ اللحم الطريّ يوجد منهما و من يوجد في المتشابهين اختلافاً و من المختلفين أشباهاً لايكون إلّا قادراً مختاراً وهذا دليل على كمال قُدرته ونفوذ إرادته .

[لتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون] وهذه النعم لمعاشكم ولأن تعرفوا نعم الله عليكم فتشكروه وتعرفون خالقكم .

قوله تعالى : [يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخّر الشمس والقمر]

---

(١) البقرة : ٧٤

مرّ بيانه مراراً و أمّا بيان قوله : « وسخّر الشمس والقمر » جواب لسؤال مقدّر المشركون وهو أنّهم قالوا : اختلاف الليل والنهار بسبب اختلاف القسي الواقعة فوق الأرض وتحتها فإنّ في الصيف تمرّ الشمس على سمت الرؤوس في بعض البلاد المائلة في الآفاق وحركة الشمس هناك حمائليّة فيقع تحت الأرض أقلّ من نصف دائرة الزمان مكثها تحت الأرض فيقصر الليل وفي الشتاء بالضدّ فيقصر النهار فقال الله سبحانه « وسخّر الشمس والقمر » يعني سبب الاختلاف وإن كان ماذكرتم لكن سير الشمس والقمر بإرادة الله وقدرته وهو الّذي فعل ذلك .

ثمّ قال : [ذلكم الله ربّكم له الملك والّذين تدعون من دون ما يملكون من قطمير] أي ذلك الّذي فعل هذه الأمور « له الملك » فلا معبود إلّا هو و إذا كان الملك له كلّه فله العبادة كلّها ثمّ بيّن ماينا في صفة الإلهيّة وهو قوله : « والّذين تدعون من دونه مايملكون » من لفافة النواة فكيف تعبدونها ؟ وذلك البيان لأجل أنّهم كانوا يقولون : إنّ الله فوّض أمر الأرض والأرضيّات إلى الكواكب الّتي هذه الأصنام على صورتها وطوالعها فقال : « لايملكون قطميراً » .

قوله تعالى : [إن تدعوهم] لكشف ضرّ [لا يسمعوا دعاءكم] لأنّها جماد لا تنفع ولا تضرّ [ولو سمعوا] على زعمكم أو أن يخلق الله لها سمعاً [ما استجابوا لكم] .

ثمّ بيّن سبحانه على أنّ النفع لايحصل لكم منها في الدنيا يحصل لكم منها الضرر في الآخرة بقوله : [ويوم القيامة يكفرون] بإشراككم بالله شيئاً فينطقهم الله يوم القيامة لتوبيخ عابديها ويجوز أن يكون المراد بهم الملائكة وعيسى فعلى هذا المعنى يكون معنى « لايسمعون دعاءكم » أي لا يلتفتون إليكم وهم مشغولون عنكم والظاهر المراد بالأصنام المعبودة .

قوله : [ولاينبّئك مثل خبير] أي لا يخبرك بالأمر مخبر مثل خبير أخبرك به وهو الحقّ سبحانه فإنّه الخبير بكنه الأمور و هو يخبرك بما هو الصلاح والفساد والمنافع والمضارّ .

قوله تعالى : [ياأيها الناس أنتم الفقراء] المحتاجون [إلى الله والله هو الغني] عن عبادتكم لايحتاج إلى شيء [الحميد] المستحق للحمد على جميع أفعاله فلا يفعل إلا ما يستحق به حمداً ولما بالغ الرسول في الدعوة قال الكفار : لعل الله يحتاج إلى عبادتنا حتى يأمرنا بها أمراً بالغاً ويهددنا على تركها مبالغاً فقال تعالى: « أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني » ولا يأمركم بالعبادة لاحتياجه إليكم وإنما هو لإشفاقه عليكم . واعلم أن التعريف في الخبر قليل والأكثر أن يكون الخبر نكرة والمبتدء معرفة وذلك لأن المخبر لايخبر في الأكثر إلا بأمر لايكون عند المخبر به علم أو في ظن المتكلم أن السامع لاعلم له به والمبتدء لابد من أن يكون معلوماً عند السامع حتى يقول له : أيها السامع الأمر الذي تعرفه أنت فيه المعنى الفلاني كقول القائل : زيد قائم فإن كان الخبر معلوماً عند السامع والمبتدء كذلك يقع الخبر تنبيهاً لاتفهيماً ويحسن تعريف الخبر كقول القائل : الله ربنا ومحمد نبينا حيث عرف كون الله رباً وكون محمد نبياً فيحتمل أن يكون قوله : « أنتم الفقراء » من هذا القبيل .

قوله تعالى : [إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد] بيان لغناه وفي العبارة بلاغة كاملة أي ليس إذهابكم موقوفاً إلا على مشيته بخلاف الشيء المحتاج إليه فإن المحتاج لايقول فيه إن يشأ فلان هدم داره وأعدم عقاره وإنما يقول : لولا حاجة السكنى إلى الدار لبعتها ولو لا الافتقار إلى العقار لتركتها .

ثم زاد في بيان الاستغناء بقوله : « ويأت بخلق جديد » أي إن كان يتوهم متوهم أن هذا الملك له عظمة وكمال فلو أذهبه لزال ملكه وعظمته فبين سبحانه أنه قادر بأن يخلق خلقاً جديداً أحسن وأتم وأكمل .

[وما ذلك على الله بعزيز] أي الإذهاب والإتيان غير معسور عليه ولا يغلب العجز عليه و « العزيز » في اللغة الغالب من قوله : « ومن عز بز » أي من غلب سلب فالله عزيز أي غالب والفعل إذا كان لايطيقه شخص يقال : هو مغلوب بالنسبة إلى ذلك الفعل فقوله : « وما ذلك على الله بعزيز » أي لايغلب الله ذلك الفعل ولا يعجزه بل هو هين على الله .

قوله تعالى : ولاتزر وازرة اخرى وان تدع مثقلة الى حملها لايحمل

منه شيء ولو كان ذاقربى انما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة و من تزكى فانما يتزكى لنفسه و الى الله المصير (١٨) وما يستوى الاعمى و البصير (١٩) ولا الظلمات ولا النور (٢٠) ولا الظل ولا الحرور (٢١) وما يستوى الاحياء ولا الاموات ان الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور (٢٢) ان أنت الا نذير (٢٣) انا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وان من امة الا خلافيها نذير (٢٤) وان يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر و بالكتاب المنير (٢٥) ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير (٢٦) .

المعنى : ثمّ أخبر سبحانه عن عدله في حكمه و أجاب الرؤساء والمتبوعون بما كانوا يقولون للتابعين : اتّبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم فقال :

[ولا تزر وازرة]الآية أي لا تحمل نفس حاملة حمل نفس [اُخرى] ولا يؤخذ أحد بذنب غيره وإنّما يؤاخذ كلٌّ بما يقترفه من الآثام .

[وإن تدع] نفس [مثقلة] بالآثام والمعاصي [إلى حملها] إلى أن يتحمّل عنها شيئاً من إثمها وفي قوله : « مثقلة » زيادة بيان لأنّ المثقل قد يعان [لايحمل منه شيء] أي لايحمل غيرها شيئاً من ذلك الحمل [ولوكان ذاقربى] أي ولوكان المدعوّ إلى التحمّل ذاقرابة منها وأقرب الناس إليها ماحمل عنها فكلّ نفسٍ بما كسبت رهينة قال ابن عبّاس : يقول الأب والاُمّ : يابنيّ احمل عنّي فيقول : حسبي ماعليّ .

[إنّما تنذر الّذين يخشون ربّهم بالغيب] وهذا كقوله :(١) «إنّما أنت منذرٌ من يخشاها » أي إنّ إنذارك لاينفع إلّا الّذين يخشون ربّهم في خلواتهم وغيبتهم عن الخلق أو المعنى: هم غائبون عن أهوال الآخرة ومعتقدون بها .

[و أقاموا الصلاة] أي أداموها وقاموا بشرائطها وإنّما عطف الماضي على المستقبل إشعاراً باختلاف المعنى لأنّ الخشية لازمة في كلّ وقت و الصلاة لها أوقات مخصوصة .

---

(١) النازعات : ٤٥ .

[ومن تزكّى] أي فعل الطاعات وقام بما يجب عليه من الزكاة وغيرها من الواجبات وقيل : أي تطهّر من المعاصي [فإنّما يتزكّى لنفسه] لأنّ جزاء ذلك يصل إليه دون غيره [وإلى الله المصير] أي مرجع الخلق إليه فيجازي كلاً على عمله .

[وما يستوي الأعى و البصير] أي لا يتساوى الأعمى عن طريق الحقّ والّذي اهتدى إليه أوالمشرك والمؤمن [ولا الظلمات] أي ظلمات الشرك والضلال [ولا النور] أي نور الإيمان والهداية وتكرار كلمة «لا» في قوله : [ولا النور] زائدة مؤكّدة للنفي [ولا الظلّ ولاالحرور] يعني الجنّة والنار و قيل : الظل الليل و الحرور سموم النهار الحارّة [وما يستوي الأحياء ولا الأموات] يعني المؤمنين والكافرين وقيل : يعني العلماء والجهّال وبالجملة كما لايستوي هذه الأشياء ولا يتماثل ولا يتشاكل فكذلك عبادةالله لاتشبه عبادة غيره ولا يستوي المؤمن والكافر والحقّ والباطل .

[إنّ الله يسمع من يشاء] أي ينفع بالأسماع من يشاء أن يلطف له ولم يردبه نفي حقيقة السماع لأنهّم كانوا يسمعون آيات الله [وما أنت بمسمع من في القبور] أي إنّك لا تقدر على أن تنفع الكفّار بإسماعك إيّاهم إذ لم يقبلوا كما لا تسمع من في القبور من الأموات [إن أنت إلّا نذير] أي ما أنت إلّا مخوّف لهم بالله .

[إنّا أرسلناك بالحقّ] أي بالدين الصحيح [بشيراً ونذيراً] أي مبشّراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين [و إن من أمّة إلّا خلافيها نذير] خلا أي مضى أي كما أنت مبشّر ومنذر لقومك كذلك قبلك كان الرسل يخوّفونهم و ينذرونهم وأقاموا الحجّة على قومهم .

[وإن يكذّبوك] يامحمّد ولم يصدّقوك [فقد كذّب الّذين من قبلهم] من الكفّار أنبياء أرسلهم الله إليهم [جاءتهم رسلهم بالبيّنات] أي بالمعجزات الباهرات [وبالزبر] أي وبالكتب [وبالكتاب المنير] ولعلّ المراد « بالزبر » صحف إبراهيم و « بالكتاب المنير» كالتوارة والإنجيل وإنّما كرّر ذكر الكتاب وعطفه على الزبر لاختلاف الصفتين فإنّ الزبور أثبت في الكتاب من الكتاب لأنّه يكون منقّراً منقّشاً فيه كالنقر في الحجر .

[ثمّ أخذت الّذين كفروا فكيف كان نكير] فلمّا كذّبوا رسلهم ولم يعترفوا بنبوّتهم أخذتهم بالعذاب وأهلكتهم ودمّرت عليهم فكيف كان تغييري وإنكاري عليهم وإنزالي العقاب بهم ؟

قوله تعالى : الم تر ان الله انزل من السماء ماء فاخرجنا به ثمرات مختلفا الوانها ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف الوانها وغرابيب سود (٢٧) ومن الناس والدواب والانعام مختلف ألوانه كذلك انما يخشى الله من عباده العلماء ان الله عزيز غفور (٢٨) ان الذين يتلون كتاب الله واقاموا الصلوة وانفقوا مما رزقناهم سرا و علانية يرجون تجارة لن تبور (٢٩) ليوفيهم اجورهم و يزيدهم من فضله انه غفور شكور (٣٠) .

أي [ألم] تعلم [أنّ الله أنزل من السماء] غيثاً ومطراً [فأخرجنا] أخبر عن نفسه بنون الكبرياء والعظمة [به] أي بذلك الماء [ثمرات] جمع «ثمرة» وهي ما يجتنى من الشجرة [مختلفاً ألوانها] وطعومهاوروائحها ، اقتصر على ذكر الألوان لأنّها أظهر في التنوّع ولدلالة الكلام على الطعوم والروائح وقوله تعالى : « ألم تر» استفهام تقريريّ والاستفهام التقريريّ لا يقال إلّا في الشيء الظاهر جدّاً كما أنّ من أبصر الهلال و هو خفيّ جدّاً فقال لهغير : أين هوفانّه يقول له : في الموضع الفلاني فإن لم يره يقول له : الحقّ معك إنّه خفيّ وأنت معذوروإذاكان بارزاً يقول له : أماترى هذا هوظاهر و لمّاكانت الشواهد ظاهرة فكأنّه سبحانه قال له : أنت صرت بصيراً ولم يبق ما يوجب الخفاء أماترى هذه الآية ؟

ثمّ إنّه سبحانه لمّاذكر الدلائل ولم تنفعهم قطع الكلام معهم والتفت إلى غيرهم كما أنّ السيّد إذا نصح بعض العبيد وأرشدهم وما نفعهم الإرشاد يقول لغيره : اسمع ولاتكن مثل هذا ويكرّر معه ماذكره مع الأوّل ويكون فيه إشعار بأنّ الأوّل فيه نقيصة لايستأهل الخطاب وبعض الخطابات في القرآن للنبيّ من هذا العنوان .

وفي الآية بيان آخر بقوله : « أخرجنا » لأنّ الجاهل قد يكون يتصوّر في ذهنه

أنّ نزول الماء بالطبع لثقله فيقال له : فالإخراج لايمكنك أن تقول فيه : إنّه بالطبع فهو بإرادة الله فلمّا كان ذلك أسنده إلى المتكلّم مع أنّ قبله بصيغة الغائب .

قوله تعالى : [ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها و غرابيب سود] أي وممّا خلقنا من الجبال جدد بيض وحمر و في الآية دلالة على القدرة ورادّة على من ينكر الإرادة في اختلاف الألوان و الطعوم كأنّ قائلاً يقول : اختلاف الثمرات لاختلاف البقاع ألاترى أنّ بعض النباتات لاتنبت ببعض البلاد كالزعفران والدارچين فردّ سبحانه زعمهم الباطل بأنّ بعض الجبال بل جبل واحد فيه مواضع حمر والجدد جمع جدّة وهي الخطّة والطريقة فطريقة حمراء متّصلة بخطّ أسود .

[مختلف ألوانها] الظاهر أنّ الاختلاف راجع إلى كلّ لون أي بيض مختلف ألوانها وحمر مختلف ألوانها لأنّ الأبيض قد يكون على لون الجصّ وقد يكون على لون التراب الأبيض وكذلك الأحمر ولو كان المراد أنّ البيض و الحمر مختلف الألوان لكان مجرّد تأكّد ومعنى الأوّل آكد وأولى وقوله : « و غرابيب سود » « و غرابيب » تأكيد « للسود » أي سود غرابيب كالفاقع للأصفر .

فإن قيل : إنّ التأكيد لايجيء إلّا متأخّراً فكيف جاء « غرابيب سود » ؛ قال الزمخشريّ : « غرابيب » تأكيد لذي لون مقدّر في الكلام و تقديره سود غرابيب ثمّ أعاد السود مرّة اُخرى فحينئذ فيه زيادة التأكيد لكونه ذكره مضمراً و مظهراً و قيل : هو على التقديم والتأخير ويجوز أن يكون « سود » عطف بيان يبيّن غرابيب .

قوله : [و من الناس والدوابّ والأنعام] و كذلك خلق سبحانه من النّاس و الدوابّ الّتي تدبّ على وجه الأرض والأنعام كالإبل والغنم والإبل كذلك مختلف اللون كاختلاف الثمرات والجبال و كما أنّها في أنفسها دلائل كذلك في اختلافها دلائل .

ثمّ تمّ الكلام وقال : [إنّما يخشى الله من عباده العلماء] الخشية بقدر المعرفة فالعالم يعرف الله فيخافه ويرجوه و «إنّ أكرمكم عندالله أتقاكم» فبيّن أنّ الكرامة بقدر التقوى ثمّ قال : [إنّ الله عزيز غفور] ذكر سبحانه مايوجب الخوف والرجاء فكونه عزيزاً ذا انتقام يوجب الخوف التامّ وكونه غفوراً يوجب الرجاء البالغ و قراءة من قرأ

بنصب العلماء ورفع الله فالمعنى أنّه سبحانه يبجّل ويعظّم .

وحاصل المعنى أنّه ليس يخاف الله حقّ خوفه ولايحذّر معاصيه خوفاً من نقمته إلّا العلماء . وروي عن الصادق عليه السلام أنّه قال : يعني بالعلماء من صدّق قوله فعله و من لم يصدّق فعله قوله فليس بعالم وفي الحديث: أعلمكم بالله أخوفكم لله قال مسروق : كفى بالمرء علماًأن يخشى الله و كفى بالمرء جهلاً أن يعجب بعلمه وإنّماخصّ العلماء بالخشية لأنّ العالم أحذرلعقاب الله من الجاهل حيث يختصّ بمعرفة التوحيد و العدل و يصدّق بالبعث والحساب والجنّة والنار .

ثمّ وصف سبحانه العلماء فقال : [إنّ الّذين يتلون كتاب الله] أي يقرؤون القرآن في الصلاة و غيرها فأثنى عليهم بقراءة القرآن [وأقاموا الصلاة وأنفقوا ممّا رزقناهم] أي ملّكناهم التصرّف فيه [سرّاً وعلانية] في حال السرّ والعلن أي أنفقوا في حال كونهم مسرّين ومعلنين وعن عبدالله بن عمر الليثيّ قال : قام رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله مالي لاأحبّ الموت ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم : ألك مال ؟ قال : نعم قال : فقدّمه قال : لا أستطيع قال : فإنّ قلب الرجل مع ماله إن قدّمه أحبّ أن يلحق به و إن أخّره أحبّ أن يتأخّرمعه .

[يرجون تجارة لن تبور] أي راجين بذلك تجارة لن تكسد ولن تفسد ولن تهلك إشارة إلى الاخلاص وينفقون لوجهه لاأن يقال له : إنّه كريم .

[ليوفّيهم اُجورهم]أي أنفقوا لأن يوفّيهم الله اُجورهم بالثواب [ويزيدهم من فضله إنّه غفور] لذنوبهم [شكور] لحسناتهم وروى ابن مسعود عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال في قوله : « ويزيدهم من فضله » هوالشفاعة لمن وجبت له النار ممّن صنع إليه معروفاً في الدنيا وقيل : معنى « شكور» أنّه يقبل اليسيرويثيب عليه الكثيرتقول : أشكرمن بردفة و هي شجرة عارية من الورق تغيم السماء فوقها فتخضرّوتورق من غيرمطر .

قوله تعالى : والذى اوحينااليك من الكتاب هوالحق مصدقا لمابين يديه ان الله بعباده لخبير بصير(٣١) ثم اورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهممقتصد ومنهم سابق بالخيرات باذن الله ذلك

هو الفضل الكبير (٣٢) جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من اساور من ذهب و لؤلؤاً و لباسهم فيها حرير (٣٣) وقالوا الحمد لله الذى اذهب عنا الحزن ان ربنا لغفور شكور (٣٤) الذى احلنا دار المقامة من فضله لايمسنا فيها نصب ولايمسنا فيها لغوب (٣٥).

ثمّ خاطب نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال:

[والّذي أوحينا إليك] يا محمّد وأنزلنا [من الكتاب] وهو القرآن [هو الحقّ] الصحيح الّذي لايشوبه فساد والصدق الّذي لايمازجه كذب و هو يدعو إلى الحقّ ويصرف عن الباطل [مصدّقاً لما بين يديه] « مصدّقاً » حال مؤكّدة لكونه حقّاً و مصدّقاً لماقبله من الكتب مثل التوراة والانجيل لأنّه جاء موافقاً لما بشّرت به تلك الكتب و يحتمل أن يكون معنى قوله : « أوحينا اليك من الكتاب » أي من الكتاب الكبير وهو اللوح المحفوظ.

[إنّ الله بعباده لخبير بصير] و هذا جواب لما كانوا يقولونه : إنّه لمَ لم ينزل هذا القرآن على رجل عظيم فقال : «إنّ الله بعباده لخبير» يعلم صلاحهم و بواطنهم «وبصير» يرى ظواهرهم و هذا مثل قوله : «الله أعلم حيث يجعل رسالته [1] » فاختار محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم ولم يختر غيره فهو أصلح من الكلّ .

ثمّ قال : [ثمّ أورثنا الكتاب الّذين اصطفينا من عبادنا] و معنى الارث انتهاء الأمر و الحكم إليهم والميراث انتقال الشيء من قوم إلى قوم و اختلف في الّذين اصطفاهم الله من عباده في الآية فقيل : هم الأنبياء اختارهم الله برسالته و كتبه عن الجبّائيّ وقيل : هم المصطفون الداخلون في قوله : «إنّ الله اصطفى آدم و نوحاً» إلى قوله : « و آل ابراهيم و آل عمران [2] » و قيل : هم اُمّة محمّد أورثهم الله كلّ كتاب أنزله عن ابن عباس وقيل : هم علماء اُمّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم لما ورد في الحديث: العلماء ورثة الأنبياء و المرويّ عن الباقر و الصادق عليهما السلام أنّهما قالا : هي لنا خاصّة و إيّانا عنى و هو الأقرب من الأقوال و الأصحّ لأنّهم أحقّ الناس بوصف الاصطفاء و الاجتباء واستيراث علم الأنبياء إذ هم

(١) الانعام : ١٢٦ .
(٢) آل عمران : ٣٢ .

المتعبّدون بحفظ الوحي والقرآن و بيان حقائقه ودقائقه .

قوله : [فمنهم ظالم لنفسه و منهم مقتصد و منهم سابق بالخيرات] اختلف في أنّ الضمير في « منهم » إلى من يعود على قولين : أحدهما أنّه يعود إلى العباد وتقدير الكلام : فمن العباد ظالم لنفسه و روي نحو ذلك عن ابن عبّاس والحسن وقتادة و اختاره المرتضى من أصحابنا قال : و الوجه أنّه لمّا علّق توريث الكتاب بمن اصطفاه من عباده بيّن عقبه أنّه إنّما علّق وراثة الكتاب ببعض العباد دون بعض لأنّ في العباد من هو ظالم لنفسه و من هو مقتصد و من هو سابق بالخيرات و القول الثاني أنّ الضمير يعود إلى المصطفين من العباد عن أكثر المفسّرين .

ثمّ اختلف في أحوال الفرق الثلاث على قولين : أحدهما أنّ جميعهم ناج و يؤيّد ذلك ما ورد في الحديث عن أبي الدرداء قال : سمعت رسول الله يقول في الآية : أمّا السابق فيدخل الجنّة بغير حساب و أمّا المقتصد فيحاسب حساباً يسيراً و أمّا الظالم لنفسه فيحبس في المقام ثمّ يدخل الجنّة فهم الّذين قالوا : « الحمد لله الّذي أذهب عنّا الحزن» و عن عائشة أنّها قالت : كلّهم في الجنّة أمّا السابق فمن مضى على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بالجنّة و أمّا المقتصد فمن اتّبع أثره من أصحابه حتّى لحق بهم و أمّا الظالم فمثلي ومثلكم وروي عنها أنّها قالت : السابق الّذي أسلم قبل الجهرة والمقتصد الّذي أسلم بعد الهجرة و الظالم نحن . و روي عن عمر بن الخطّاب أنّه قال : سابقنا سابق و مقتصد ناج و ظالمنا مغفور له . و قيل : إنّ الظالم من كان ظاهره خيراً من باطنه و المقتصد الّذي استوى ظاهره و باطنه و السابق الّذي باطنه خير من ظاهره . و قيل : « منهم ظالم لنفسه » بالصغائر « و منهم مقتصد » بالطاعات في الدرجة الوسطى و « منهم سابق بالخيرات » في الدرجة العليا عن جعفر ابن حرب .

و روى أصحابنا عن الصادق عليه السلام أنّه قال : الظالم لنفسه منّا من لا يعرف حقّ الإمام و المقتصد منّا العارف بحقّ الإمام و السابق بالخيرات هو الإمام و هؤلاء كلّهم مغفور لهم .

و عن زياد بن المنذر عن أبي جعفر عليه السلام قال : أمّا الظالم لنفسه منّا من عمل

صالحاً و آخر سيّئاً وأمّا المقتصد المتعبّد المجتهد وأمّا السابق بالخيرات فعليّ والحسن و الحسين و من قتل من آل محمّد شهيداً .

و القول الآخر أنّ الفرقة الظالمة لنفسها غير ناجية قال قتادة : الظالم لنفسه أصحاب المشأمة و المقتصد أصحاب الميمنة و السابق بالخيرات هم السابقون المقرّبون من الناس كلّهم كما قال سبحانه : « و كنتم أزواجاً ثلاثة[1] » و قال عكرمة عن ابن عبّاس: إنّ الظالم هو المنافق و المقتصد والسابق من جميع الناس وقال الحسن : السابقون هم الصحابة و المقتصدون هم التابعون و الظالمون هم المنافقون و في الصافي نقلاً عن بصائر الدرجات عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى : « ثمّ أورثنا الكتاب ، الآية » هي في ولد فاطمة عليها السلام .

و عن الصادق عليه السلام أنّه قيل له : إنّها في الفاطميّين فقال : ليس حيث تذهب ليس يدخل في هذا من سلّ سيفه و دعا الناس إلى الضلال فقيل : من الظالم لنفسه قال : الجالس في بيته لا يعرف حقّ الإمام و المقتصد العارف بحقّ الإمام و السابق الإمام و عن الكاظم أنّه تلا هذه الآية وقال : نحن الّذين اصطفانا الله عزّ وجلّ وأورثنا هذا الكتاب فيه تبيان كلّ شيء .

و في العيون عن الرضا عليه السلام أنّه قال : أراد الله بذلك العترة الطاهرة و لو أراد الاُمّة لكانت بأجمعها في الجنّة لقول الله : « فمنهم ظالم لنفسه » الآية ، ثمّ جمعهم كلّهم في الجنّة فقال : « جنّات عدن يدخلونها » الآية ، فصارت الوراثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم .

و عن الصادق عليه السلام أنّ فاطمة لعظمها على الله حرّم الله ذرّيّتها على النار وفيهم نزلت « ثمّ أورثنا الكتاب » الآية و في الاحتجاج عن الصادق أنّه سئل عنها و قيل له : إنّه لولد فاطمة خاصّة فقال : أمّا من سلّ سيفه و دعا الناس إلى نفسه إلى الضلال من ولد فاطمة فليس بداخل في هذه الآية قيل له : من يدخل فيها ؟ قال : الظالم لنفسه الّذي لا يدعو الناس إلى ضلال و لا هدىً و المقتصد منّا أهل البيت العارف حقّ الإمام و السابق الإمام .

---

(١) الواقعة : ٧ .

و في المعاني عنه عليه السلام أنّه سئل عنها فقال : نزلت فينا أهل البيت فقيل له : فمن الظالم لنفسه ؟ قال : الّذي استوت حسناته و سيّئاته منّا أهل البيت فهو الظالم لنفسه فقيل : من المقتصد منكم قال : العابد لله في الحالين حتّى يأتيه اليقين فقيل : فمن السابق منكم بالخيرات ؟ قال : من دعا والله إلى سبيل ربّه و أمر بالمعروف و نهى عن المنكر ولم يكن للمضلّين عضداً ولا للخائفين خصيماً ولم يرض بحكم الفاسقين إلّا من خاف على نفسه ودينه ولم يجد أعواناً انتهى .

قوله تعالى : [بإذن الله ذلك هو الفضل الكبير] المعنى : إنّ إيراث الكتاب و اصطفاء الله إيّاهم بإذن الله وأمره و هو الفضل العظيم .

فإن قيل : لمَ قدّم الظالم وأخّر السابق وإنّما يقدّم الأفضل ؟

فالجواب أنّه قد يقدّم الأدنى في الذكر على الأفضل قال سبحانه : « يولج الليل في النهار (١) » و قال : « يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور (٢) » و قال : «خلق الموت و الحياة (٣) » و قال : « فمنكم كافر و منكم مؤمن (٤) » و يمكن أن يقال : إنّما قدّم الأدنى على الأفضل لئلّا ييئس الظالم من رحمته و أخّر السابق لئلّا يعجب بعمله أو رتّب هذا الترتيب على مقامات الناس لأنّ أحوال الناس ثلاثة معصية ثمّ التوبة ثمّ القربة فإذا عصا فهو ظالم وإذا تاب فهو مقتصد وإذ تمحّض في عبادة الله اتّصل بالله وعدّ من السابقين .

قوله : [جنّات عدن يدخلونها] هذا تفسير للفضل كأنّه قيل : ما ذلك الفضل الكبير ؟ فقال : هي جنّات أي جزاء جنّات أو دخول جنّات و يجوز أن يكون بدلاً من الفضل أي ذلك الفضل دخول جنّات .

[يحلّون فيها من أساور] جمع « أسورة » و هي جمع « سوار » و هي حلية اليد من ذهب و لؤلؤ أي و يحلّون فيها أساور من لؤلؤ أو من ذهب صفائه صفاء اللؤلؤ أو

(١) الحج : ٦١ .
(٢) الشورى : ٤٩ .
(٣) الملك : ٢ .
(٤) التغابن : ٢ .

مرصّع باللؤلؤ من حليت المرأة فهي حالية و متحلّية و التحلّي بالأساور كاشف عن الفراغ من السعي و البطش و يدلّ على الغناء والراحة و زوال كلّ مكروه [ولباسهم فيها حرير] وهو الابريسم المحض .

[و قالوا الحمدلله الّذي أذهب عنّا الحزن إنّ ربّنا لغفور شكور] فأخبر سبحانه عن حال الداخلين بأنّهم إذا دخلوا الجنّة يقولون : « الحمد لله » اعترافاً منهم بنعمته لا على وجه التكليف بل شكراً على هذه النعمة من الفرح ويعنون من « الحزن » الحزن الّذي أصابهم قبل دخول الجنّة لأنّهم كانوا يخافون دخول النار « إنّ ربّنا لغفور» لذنوب عباده و قبيح أفعالهم « وشكور » يقبل اليسير من محاسن أعمالهم و شكر الله هو مكافاته على شكرهم وقبول يسير طاعتهم وإن كان حقيقة الشكر لايجوز عليه ولايصحّ أن يكون سبحانه منعماً عليه لأنّ تمام النعم منه فهو المنعم لاالمنعم .

قوله [الّذي أحلّنا دار المقامة] هذا من كلامهم أي أنزلنا دار الخلود يقيمون فيها أبداً لا يموتون و لا يتحوّلون عنها من فضله [لا يمسّنا فيها نصب و لا يمسّنا فيها لغوب] أي لا يمسّنا في الجنّة عناء و مشقّة و لايمسّنا و لا يصيبنا فيها أعياء و تعب أي ليس في الجنّة كالدنيا مظانّ المتاعب وقيل : النصب التعب المرض و اللغوب هو ما يلغب منه و ما يحصل من ذلك المرض فكأنّه قال : لا يمسّنا مرض ولادون ذلك .

قوله تعالى : والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولايخفف عنهم من عذابها كذلك نجزى كل كفور (٣٦) و هم يصطرخون فيها ربنا اخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر و جاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير (٣٧) ان الله عالم غيب السموات و الارض انه عليم بذات الصدور (٣٨) هو الذى جعلكم خلائف فى الارض فمن كفر فعليه كفره و لا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتاً و لا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا (٣٩) قل ارايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله اورونى ماذا خلقوا من الارض ام لهم شرك فى السموات ام آتيناهم كتابا فهم على بينة منه بل ان يعد الظالمون بعضهم بعضا الا غرورا (٤٠) .

المعنى : لمّا قدّم سبحانه ذكر ما أعدّ لأهل الجنّة من أنواع الثواب عقّبه بذكر ما أعدّه للكفّار من أليم العقاب فقال :

[و الّذين كفروا] بوحدانيّة الله و جحدوا نبوّة نبيّه [لهم نار جهنّم] جزاء على كفرهم [لا يقضى عليهم] بالموت [فيموتوا] أو يستريحوا [و لا يخفّف عنهم من عذابها] ولا يسهّل عليهم عذاب النار [كذلك] أي و مثل هذا العذاب و نظيره [نجزي كلّ كفور] جاحد كثير الكفران مكذّب لأنبياء الله .

[و هم يصطرخون] و يتصايحون [فيها] في النار بالاستغاثة يقولون [ربّنا أخرجنا] من عذاب النار [نعمل صالحاً] ونؤمن بدل الكفر و نطع بدل المعصية وردّنا إلى الدنيا لنعمل بالطاعات الّتي تأمرنا بها [غير الّذي كنّا نعمل] من المعاصي .

فوبّخهم الله تعالى فقال : [أو لم نعمّركم ما يتذكّر فيه من تذكّر] أي ألم نعطكم من العمر مقدار ما يمكن أن يتفكّر و يعتبر وينظر في اُمور دينه و عواقب حاله من يريد أن يتذكّر و اختلف في هذا المقدار فقيل : هو ستّون سنة و هو المرويّ عن أمير المؤمنين قال عليه السلام : العمر الّذي أعذر الله فيه إلى ابن آدم ستّون سنة و هو إحدى الروايتين عن ابن عبّاس و روي عن النبيّ أيضاً مرفوعاً أنّه قال : من عمّره الله ستّين سنة فقد أعذره الله و قيل : هو أربعون سنة عن ابن عبّاس و مسروق و قيل : هو توبيخ لابن ثماني عشر سنة ، عن وهب و قتادة و روي ذلك عن الصادق عليه السلام .

قوله : [و جاءكم النذير] أي المخوّف من عذاب الله وهو محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم عن ابن زيد و جماعة و قيل : النذير القرآن و قيل : الشيب والبياض في الشعر عن عكرمة و جماعة ومنه قول الشاعر :

رأينا الشيب من نذر المنايا * لصاحبه و حسبك من نذير

وقال عديّ بن زيد :

و بياض السواد من نذر المو * ت و هل بعده يجيء نذير

وقيل : «النذير» موت الأهل والأقارب وقيل : كمال العقل .

[فذوقوا] العذاب وحسرة الندم [فما للظالمين من نصير] يدفع العذاب عنهم .

قوله تعالى : [إنّ الله عالم غيب السماوات والأرض] تقرير لدوامهم في العذاب وبيان لأمر آخر وهو أنّه سبحانه لمّا قال : « و جزاء سيّئة سيّئة مثلها (١) » ولايزاد عليها فلو قال قائل : الكافر ما كفر بالله إلّا أيّاماً معدودة فكان ينبغي أن لايعذّب إلّا مثل تلك الأيّام فأجاب الله تعالى أنّ الله لايخفى عليه غيب السماوات و الأرض و لايخفى عليه ما في الصدور و كان يعلم من الكافر أنّ في قلبه تمكّن الكفر بحيث لودام إلى الأبد لماأطاع الله ولاعبده وبالجملة لايخفى عليه شيء ممّا يغيب عن الخلائق علمه فلاتضمروا في أنفسكم مايكرهه .

[هو الّذي جعلكم خلائف في الأرض] أي جعلكم معاشر الكفّار اُمّة بعد اُمّة و خلائف القرون الماضية وأحدثكم بعده وأورثكم ماكان لهم [فمن كفر فعليه] ضرر [كفره] وعقاب كفره [ولايزيد الكافرين كفرهم عندربّهم إلّا مقتاً] أي شدّة البغض [ولا يزيد الكافرين كفرهم إلّا خساراً]أي خسرانا وهلاكاً والكفر لاينفع عندالله حيث لايزيد إلّا المقت ولاينفعهم في أنفسهم حيث لايفيدهم إلّا خساراً فإنّ العمر كرأس المال من اشترى به رضا الله ربح ومن اشترى به سخطه خسر .

قوله تعالى : [قل أرأيتم شركاءكم الّذين تدعون من دون الله] قل لهم يا محمّد : أخبروني أيّها المشركون عن الأوثان الّذين أشركتموه مع الله في العبادة [أروني ماذا خلقوا من الأرض] و بأيّ شيء أو جبتم لها العبادة و أيّ شيء خلقوه من الأرض ؟ فإن قيل :كيف يفسّر قوله : « أرايتم » في معنى أخبروني ؟ لأنّ الاستفهام يستدعي جواباً مثاله يقول القائل : أرأيت ما ذا فعل فلان فيقول السامع : باع أو اشترى ولو لا تضمّنه معنى أخبروني لما كان الجواب إلّا قوله لا أو نعم فحينئذ يستخبر المستفهم الخبير و يطلبه فيصحّ معنى أخبروني .

قوله : [أم لهم شرك في السماوات] أي ألهم شرك في خلقها [أم آتيناهم كتاباً] و أنزلنا عليهم كتاباً و أمراً يصدّق دعواهم فيما هم عليه من الشرك [فهم على بيّنة]

---

(١) الشورى : ٤٠ .

فيكونون على حجّة واضحة لعبادتهم إيّاها من ذلك الكتاب و الضمير في قوله « أم آتيناهم» يمكن أن يعود إلى الشركاء أي هل آتينا الشركاء كتاباً فتصحّ العبادة ويمكن أن يعود الضمير إلي المشركين .

و حاصل المعنى أنّ هذه العبادة الباطلة لاعقليّة بسبب أنّها مخلوقة عاجزة ولاعقل لمن يعبد من لم يخلق من الأرض جزءً من الأجزاء ولا شيئاً في السماء ولا نقليّة لأنّا ما آتيناهم كتاباً فيه يكون أمراً بجواز العبادة لها فهذه العبادة لا عقليّة و لا نقليّة بل صرف التقليد فوعد بعضهم بعضاً في فائدة عبادة الأصنام من الشفاعة أو الرزق ليس إلّا غروراً لا حقيقة له و طمع في مالا يطمع فيه .

النظم في قوله : « إنّ الله يعلم غيب السماوات» متّصل بقوله : « نعمل صالحاً غيرالّذي كنّا نعمل» فالمراد أنّه تعالى يعلم أنّه لوردّكم إلى الدنيا لعدتم إلى كفركم .

قوله تعالى : ان الله يمسك السموات و الارض ان تزولا و لئن زالتا ان أمسكها من احد من بعده انه كان حليماً غفوراً (٤١) و اقسموا بالله جهد ايمانهم لئن جاءهم نذير ليكونن اهدى من احدى الامم فلما جاءهم نذير ما زادهم الا نفورا (٤٢) استكبارا فى الارض و مكر السيىء ولايحيق المكر السيىء الا باهله فهل ينظرون الا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا و لن تجد لسنة الله تحويلا (٤٣) اولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم و كانوا أشد منهم قوة و ما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الارض انه كان عليما قديرا (٤٤) ولو يؤاخذ الله الناس بماكسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم الى أجل مسمى فاذا جاء أجلهم فان الله كان بعباده بصيرا (٤٥) .

المعنى : لمّا بيّن الله شرك المشركين قال : مقتضى شركهم زوال السماوات والأرض وكانتا جديرتين بأن تهدّاهدّاً كما قال عزّوجلّ : « تكاد السماوات يتفطّرن وتنشقّ الأرض وتخرّ الجبال هدّاً [1] » وبيّن أنّه تعالى يمسكهما لئلّا تزولا أوالمعنى

(١) مريم : ٩٠ وبعده «ان دعوا للرحمن ولدا» فشركهم كدعواهم للرحمن ولدا يقتضى زوال السموات و الارض لكنه يصفح عنهم حلما .

أنّه يمسكهما من غير علاقة فوقها ولا دعامة تحتهما .

[ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده] أي: إن قدّر أن تزولا عن مراكزهما ما أمسكهما أحد ولا يقدر على إمساكهما أحد «من بعده أي» من بعد الله أو من بعد زوالهما [إنّه كان حليماً غفوراً] وما ترك تعذيبهم إلّا حلماً منه تعالى وإلّا كانوا يستحقّون إسقاط السماء وانطباق الأرض عليهم ولم يعجل في إهلاكهم بعد إصرارهم على الشرك وهو لمن تاب ويرحمه بعد التوبة وإن استحقّ العقاب .

في الكافي عن أمير المؤمنين أنّه سئل عن الله عزّ وجلّ يحمل العرش أم العرش يحمله فقال عليه السلام : الله عزّ وجلّ حامل العرش والسماوات والأرض وما بينهما وذلك قول الله تعالى : « إنّ الله يمسك السماوات والأرض أن تزولا » الآية .

وفي الإكمال عن الرضا عليه السلام في حديث بنا يمسك الله السماوات والأرض أن تزولا . وعنهم عليهم السلام : لولا ما في الأرض منّا لساخت بأهلها .

ثمّ حكى سبحانه عن الكفّار فقال [و أقسموا بالله جهد أيمانهم] أي إنّهم بعد أن أشركوا و المراد كفّار مكّة حلفوا بالله بأيمان غليظة قبل أن يأتيهم محمّد صلّى الله عليه وآله [لئن جاءهم نذير] أي رسول مخوّف من جهة الله [ليكوننّ أهدى] إلى قبول قوله و اتّباعه [من إحدى الأمم] الماضية يعني اليهود و النصارى و ذلك أنّ قريشاً لمّا بلغهم أنّ أهل الكتاب كذّبوا رسلهم قالوا : لعن الله اليهود و النصارى لو أتانا رسول لنكوننّ أهدى من إحدى الأمم .

[فلمّا جاءهم نذير] أي محمّد و صحّ مجيئه بالبيّنة و الظهور [ما زادهم إلّا نفورا] فإنّهم قبل البعثة كانوا كافرين بالله و بعدها كفروا برسوله و تباعدوا عن الحقّ .

[استكباراً في الأرض] أي عتوّاً على الله و أنفة من أن يكونوا تبعاً لغيرهم وكانوا على حالة الاستكبار في الأرض [و مكر السيّىء] إضافة الجنس إلى نوعه كما يقال : علم الفقه و حرفة الحدادة و اُضيف المصدر إلى صفة المصدر فالتقدير : و مكروا المكر السيّىء و المراد المكر برسول الله و بالمؤمنين و مكر السيّىء كلّ مكر أصله الخدعة و الكذب و كان تأسيسه على فساد لأنّ من المكر ما هو حسن و هو مكر المؤمنين بالكافرين إذا

حاربوهم من الوجه الّذي يحسن أن يمكروا بهم .

قوله : [و لا يحيق المكر السيّىء إلّا بأهله] أي لا ينزل جزاء المكر السيّىء إلّا بمن فعله .

[فهل ينظرون إلّا سنّة الأوّلين] أي فهل ينتظرون إلّا عادة الله في الأمم الماضية أن يهلكهم إذا كذّبوا رسله و ينزل بهم العذاب جزاءً على كفرهم فإن كانوا ينتظرون ذلك [فلن تجد لسنّة الله تبديلاً] أي لا يغيّر الله عادته من عقوبة الكافر ولا يبدّلها وهذا أمر واقع لا محالة ليس له من دافع [ولن تجد لسنّة الله تحويلاً] بأن ينقله من المكذّبين إلى غيرهم .

فإن قيل : التبديل تحويل فما وجه التكرار ؟

فالجواب أنّ قوله : « فلن تجد لسنّة الله تبديلاً » أي العذاب للكافر لا يتبدّل بغيره و بقوله : « ولن تجد لسنّة الله تحويلاً » أي لا يتحوّل العذاب عن مستحقّه إلى غيره فتبيّن الفرق بين التبديل و التحويل لأنّ التبديل تغيير الشيء مكان الشيء و تعويضه و لكنّ التحويل تصيير الشيء في غير المكان الّذي كان فيه فحينئذ ليس تكراراً ولو فرضنا التكرار فليتمّ تهديد المسيء و لعلّ المراد من « سنّة الله » أنّ عادة الله جرت بأن إذا كان في القوم من يؤمن أو يكون في أصلاب الكافرين من يؤمن فلا يعذّبهم بعذاب الاستئصال فلذلك أمهلهم و ليس لهذه العادة من تحويل و تغيير .

قوله تعالى : [أو لم يسيروا في الأرض] أي ألم يسر هؤلاء الكفّار الّذين أنكروا هلاك الأمم الماضية في الأرض و الآية استشهاد على ما قبله من جريان سنّته على تعذيب المكذّبين بما يشاهدونه في أسفارهم إلى الشام و العراق و اليمن من آثار ديار الأمم العاتية و الهمزة للإنكار و النفي و الواو للعطف على مقدّر يليق بالمقام .

و تقدير الكلام : أقعدوا ولم يسيروا في الأرض حتّى [ينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم] مثل قوم لوطٍ و عادٍ و ثمودٍ [و كانوا أشدّ منهم قوّة] و أطول أعماراً و ما أغنى عنهم طول المدى و شدّة القوى و الحالة أنّ أولئك كانوا أشدّ من هؤلاء قوّة .

[و ما كان الله ليعجزه من شيء] أي لم يكن الله يفوته شيء [في السماوات ولا في

الأرض إنّه كان عليماً] بجميع الأشياء [قديراً] على مالا نهاية له و في قوله : « وماكان الله ، الآية » قطع لأطماع الجهّال بأن لو قال قائل : هب أنّ الأوّلين كانوا أشدّ قوّةً و أطول أعماراً لكنّا نستخرج بذكائنا ما يزيد على قواهم و نستعين بأُمور أرضيّة لها خواصّ أو كواكب سماويّة لها آثار مخصوصة فقال تعالى : « وماكان الله ليعجزه » إلى قوله « عليماً » بأفعالهم قديراً على إهلاكهم .

ثمّ قال سبحانه : [و لو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا] لمّا هدّد الله المكذّبين بمن مضى و كانوا يستعجلون العذاب من شدّة عنادهم و فساد عقائدهم و يقولون : عجّل لنا عذابنا فقال الله تعالى في هذه الآية : للعذاب أجلٌ و الله لا يؤاخذ الناس سريعاً بنفس الظلم فإنّ الإنسان ظلوم جهول و إنّما يؤاخذ بالإصرار و حصول يأس الناس عن إيمانهم و وجود الإيمان ممّن كتب الله إيمانه فإذا لم يبق فيهم من يؤمن يهلك المكذّبين و لو أخذهم بنفس الظلم لكان كلّ يوم إهلاك فقال سبحانه : و لو يؤاخذ الله جميعاً بما كسبوا من السيّئات كما فعل بأُولئك ما ترك على ظهر الأرض من نسمة تدبّ عليها من بني آدم و قيل : من غيرهم أيضاً من شؤم معاصيهم و هو المرويّ عن ابن مسعود و أنس .

و يعضد القول الأوّل قوله تعالى : « ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّىً » وهو يوم القيامه و الضمير في قوله : « ظهرها » عائد إلى الأرض و لم يجر لها ذكر لدلالة الكلام على ذلك و العلم الحاصل به ممّا تقدّم في الآية و ما تأخّر أمّا ما تقدّم فقوله : « و ما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض » فهو أقرب المذكورات الصالحة لعود الهاء إليها و أمّا ما تأخّر فقوله : « من دابّة » لأنّ الدوابّ على ظهر الأرض .

فلو قيل : إذا كان الله يؤاخذ الناس بما كسبوا فما بال الدوابّ يهلكون ؟

فالجواب أنّ خلق الدوابّ نعمة فإذا كفر الناس يزيل الله النعم و الدوابّ أقرب النعم خصوصاً للإنسان و أعلى درجات المخلوقات في النفع من عالم العناصر للإنسان الدوابّ فيزيل الله هذه النعمة و إزالة هذه النعمة ليست عقوبة للدوابّ بل عقوبة للإنسان والدوابّ المخلوقة تبعاً و نفعاً للإنسان فإذا كان الهلاك عامّاً للإنسان فلايبقى من الإنسان من يعمر فلا تبقى الدوابّ .

ثمّ من أعظم نعم الله المطر لأنّ به يحصل نعمة البقاء فإذا لم يستحقّوا قطعت الأمطار عنهم فيظهر الجفاف على وجه الأرض فتموت الدوابّ الأرضيّة و أمّا حيوانات البحريّة فتعيش بماء البحر و هو سبحانه قال : [ما ترك على ظهرها من دابّة] .

فإن قيل : كيف يقال لما عليها : ظهر الأرض ؛ لأنّ الأرض كالدابّة الحاملة للأثقال والحمل يكون على الظهر و وجه الأرض ظهرها على أنّ الظهر في مقابلة البطن و الظهر و الظاهر من باب واحد والبطن و الباطن من باب واحد فوجه الأرض ظهر لأنّه هو الظاهر و غيره منها باطن و بطن .

[ولكن يؤخّر هم إلى أجل مسمّى فإذا جاء أجلهم فإنّ الله كان بعباده بصيراً]

فإذا جاء وقت الهلاك فالله بالعباد بصير إمّا ينجّيهم و يكون
توفّيهم تقريباً من الله لا تعذيباً في حقّ المؤمنين
وتعذيباً للكافرين كما قال سبحانه :

« و اتّقوا فتنة لاتصيبنّ
الّذين ظلموامنكم
خاصّة[1]».

تمّت السورة

(١) الانفال : ٢٥ .

سورة يس

✿ (مكية) ✿

إلّا آية منها و هي قوله : « وإذا قيل لهم أنفقوا ممّا رزقكم الله » الآية[1] نزلت بالمدينة .

فضلها اُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : من قرأ سورة يس يريد وجه الله عزّ و جلّ غفر الله له و اُعطي من الأجر كأنّما قرأ القرآن اثني عشرة مرّة و أيّما مريض قرئت عنده سورة يس نزل عليه بعدد كلّ حرف منها عشرة أملاك يقومون بين يديه صفوفاً صفوفاً يستغفرون له ويشهدون قبضه ويتبعون جنازته ويصلّون عليه و يشهدون دفنه و أيّما مريض قرأها و هو في سكرات الموت أو قرئت عنده أتاه رضوان خازن الجنّة بشربة من شراب الجنّة فسقاه إيّاها وهو على فراشه فيشرب فيموت ريّان ويبعث ريّان ولا يحتاج إلى حوض من حياض الأنبياء حتّى يدخل الجنّة و هو ريّان .

وعن أبي بكر عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : سورة يس تدعى في التوراة المنعمة فقيل: و ما المنعمة ؟ تعمّ صاحبها خير الدنيا و الآخرة و تكابد عنه بلوى الدنيا و تدفع عنه أهاويل الآخرة و تدعى المدافعة القاضية تدفع عن صاحبها كلّ شرّ و تقضي له كلّ حاجة و من قرأها عدلت له عشرين حجّة و من سمعها عدلت له ألف دينار في سبيل الله و من كتبها ثمّ شربها أدخلت جوفه ألف دواء و ألف نور و ألف يقين و ألف بركة وألف رحمة و نزعت عنه كلّ داء وغلّ .

و أنس بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنّ لكلّ شيء قلباً وقلب القرآن يس .

و عنه عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : من دخل المقابر فقرأ سورة يس خفّف عنهم يومئذ و كان له بعدد من فيها حسنات .

و روى أبو بصير عن أبي عبد الله عليه السلام قال : إنّ لكلّ شيء قلباً و قلب القرآن يس فمن قرأها في نهاره قبل أن يمسي كان في نهاره من المحفوظين و المرزوقين حتّى يمسي

(١) يس : ٤٧ .

و من قرأها في ليلة قبل أن ينام وكّل به ألف ملك يحفظونه من كلّ شيطان رجيم ومن كلّ آفة و إن مات في نومه أدخله الله الجنّة و حضر غسله ثلاثون ألف ملك كلّهم يستغفرون له و يشيّعونه إلى قبره بالاستغفار له فإذا اُدخل لحده كانوا في جوف قبره يعبدون الله و ثواب عبادتهم له و فسّح في قبره مدّ بصره و أمن من ضغطة القبر ولم يزل له في قبره نور ساطع إلى عنان السماء إلى أن يخرجه الله من قبره فإذا أخرجه لم تزل الملائكة معه يحدّثونه ويضحكون في وجهه ويبشّرونه بكلّ خير حتّى يجوزوا به الصراط و الميزان و يوقفوه من الله موقفاً لا يكون عندالله خلق أقرب منه إلّا ملائكة الله المقرّبون و أنبياؤه المرسلون و هو مع النبيّين واقف بين يدي الله لا يحزن مع من يحزن و لا يهتمّ مع من يهتمّ ولا يجزع مع من يجزع ثمّ يقول له الرّبّ تعالى : اشفع عبدياُ شفّعك في جميع ما تشفع و سلني عبدياُ عطك جميع ماتسأل فيسأل فيعطى ويشفع فيشفّع ولا يحاسب فيمن يحاسب ولا يذلّ مع من يذلّ ولا يبكت بخطيئته ولا بشيء من سوء عمله و يعطى كتاباً منشوراً فيقول الناس بأجمعهم : سبحان الله ماكان لهذا العبد خطيئة واحدة و يكون من رفقاء محمّد صلى الله عليه وآله وسلم .

و روى محمّد بن مسلم عن الصادق عليه السلام قال : إنّ لرسول الله اثني عشر اسماً خمسة منها في القرآن : محمّد و أحمد و عبد الله و يس و نون .

بسم الله الرحمن الرحيم

يس (١) و القرآن الحكيم (٢) انك لمن المرسلين (٣) على صراط مستقيم (٣) تنزيل العزيز الرحيم (٥) لتنذرقوماً ما انذر آباؤهم فهم غافلون (٦) لقد حق القول على اكثرهم فهم لا يؤمنون (٧) انا جعلنا في اعناقهم اغلالا فهي الى الاذقان فهم مقمحون (٨) و جعلنا من بين ايديهم سدا و من خلفهم سدا فاغشيناهم فهم لا يبصرون (٩) و سواء عليهم ءانذرتهم ام لم تنذرهم لايؤمنون (١٠) .

المعنى : قد تكرّر الكلام في الحروف المقطّعة عند مفتتح السور في أوّل البقرة و قيل : [يس] معناه يا إنسان و تصغير الإنسان اُنيسين حذف الصدر منه و بقي العجز فيحتمل أن يكون الخطاب إلى الإنسان الكامل ابتداءً و هو محمّد صلى الله عليه وآله وسلم وقيل : معناه: يا محمّد و هو اسم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن عليّ بن أبي طالب و أبي جعفر عليهما السلام و قد ذكرنا الرواية فيه قبيل هذا و قيل : معناه يا سيّد الأوّلين و الآخرين و قيل: معناه يا رجل بلغة .

[و القرآن الحكيم] أقسم سبحانه بالقرآن المحكم من الباطل أو سمّاه حكيماً لما فيه من الحكمة فكأنّه المظهر للحكمة الناطق بها .

و يختلف إعراب كلمة « يس» باختلاف معانيها ؛ فمن قرأ بالرفع على أنّها خبرٌ لمبتدء محذوف أي هذه يس و أمّا بالضمّ على النداء المفرد و اكتفى من الاسم بحرف واحد و هو السين و الياء حرف نداء و نظير حذف بعض الاسم قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « كفى بالسيف شا» أي شاهداً فحذف العين واللام من شاهد فكذلك حذف من «إنسان» الفاء والعين و جعل ما بقي منه اسماً قائماً برأسه و هو السين فقيل : « ياسين » و هو شبيه بقول الشاعر حيث قال : « قلنا لها قفي لنا قالت ق » أي وقفت أو تكون الكلمة مبنيّة على الضمّ كحيث

وأمّا بالنصب فتقديره: اُتل يس أو يكون مبنيّة بالفتح كأين و كيف وقرىء بالكسر مثل جير لإسكان الياء و كسرة ما قبلها ولا يجوز أن يقال بالكسر لأنّ إضمار الجارّ غير جائز و ليس فيه حرف جرّ و قسم .

[إنّك لمن المرسلين] هذه الجملة مقسم عليه .

فإن قيل : إنّ المطالب تثبت بالدليل لا بالقسم فما الحكمة في الإقسام في القرآن ؟ فيه وجوه :

الاول : أنّ العرب كانوا يتوقّون الأيمان الكاذبة و كانوا يقولون و يعتقدون أنّ اليمين الكاذبه توجب خراب العالم وصحّح النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ذلك بقوله : اليمين الكاذبة تدع الديار بلاقع ، ثمّ إنّهم كانوا يقولون : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يصيبه من آلهتهم عذاب و هي الكواكب و كان النبيّ يحلف بأمر الله وما كان يصيبه عذاب بل كان كلّ يوم أمنع مكاناً و أرفع شأناً فكان القسم يوجب اعتقاد أنّه ليس بكاذب و ما يراد من الدليل إلّا إثبات المدّعى و حصول المطلوب .

الوجه الثاني : أنّ المناظر إذا أقام برهانه و لم يقبل طرفه بقوّة جدله و كابر لا يجوز أن يأتي المناظر بدليل آخر لأنّ المكابر يقول في الدليل الآخر مثل ما قاله في الدليل الأوّل و لا يقبل فلا يجد المناظر بدّاً لإثبات مراده إلّا اليمين فكذلك النبيّ لمّا أقام البراهين و قالت العرب : « ما هذا إلّا رجل يريد أن يصدّكم و قالوا للحقّ لمّا جاءهم إن هذا إلّا سحر مبين[1] » تعيّن التمسّك بالأيمان لعدم فائدة الدليل .

الثالث : هو أنّ هذا ليس مجرّد الحلف و إنّما هو دليل خرج في صورة اليمين لأنّ القرآن معجزة و دليل كونه صلى الله عليه وآله وسلم مرسلاً هو المعجزة و القرآن كذلك .

قوله : [على صراط مستقيم] خبر بعد خبر أي إنّك ثابت على صراط مستقيم و المستقيم أقرب الطرق إلى المقصد و الدين كذلك فإنّه توجّه إلى الله و المقصود أنّ محمّداً على الصراط المستقيم الّذي يكون عليه المرسلون و فيه معنى لطيف يعلم منه فساد قول المباحيّة الّذين يقولون : المكلّف يصير و اصلاً إلى الحقّ فلا يبقى عليه تكليف و ذلك

(١) سبأ : ٤٤ وفي الآية سقط .

أنّ الله بيّن أنّ المرسلين ماداموا في الدنيا فهم سالكون و منتهجون إلى السبيل المستقيم فكيف ذلك الجاهل العاجز ؟

[تنزيل العزيز الرحيم] أي هذا القرآن تنزيل الغالب في ملكه الرحيم بخلقه قرىء بالجرّ على أنّه بدل من القرآن كأنّه قال : والقرآن الحكيم تنزيل العزيز الرحيم و قرىء بالنصب وفيه وجهان : أحدهما مصدر فعله منويّ أي نزل تنزيل العزيز الرحيم و الثاني أنّه مفعول فعل معنويّ كأنّه قال : و القرآن الحكيم أعني تنزيل العزيز الرحيم لكنّ الزمخشريّ اختار الرفع على الخبريّة للمبتدء و هو هذا .

[لتنذر قوماً ما اُنذر آباؤهم فهم غافلون] لتخوّف به من معاصي الله قوماً لم ينذر آباؤهم قبلهم لأنّهم كانوا في زمان الفترة بين عيسى و محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و قيل : المعنى لم يأتهم نذير من أنفسهم و قومهم و إن جاءهم من غير هم و قيل : معناه لم يأتهم من أنذرهم بالكتاب حسب ما أتيت و هذا على قول من قال : كان في العرب قبل نبيّنا من هو نبيّ كخالد بن سنان و قسّ بن ساعدة الأيادي و غيرهما و قيل : معناه لتنذر قوماً كما اُنذر آباؤهم فمعنى قوله « لتنذر قوماً ما اُنذر آباؤهم » أي ما اُنذروا بعد ماضلّوا عن طريق الرسول المتقدّم « فهم غافلون » عمّا تضمّنه القرآن و عمّا أنذر الله به من نزول العذاب و الغفلة مثل السهو و هو ذهاب المعنى عن النفس .

ثمّ أقسم سبحانه فقال : [لقد حقّ القول على أكثرهم] أي وجب الوعيد و استحقاق العقاب عليهم [فهم لا يؤمنون] و يموتون على كفرهم و قد سبق ذلك في علم الله وقيل : معناه لقد سبق القول على أكثرهم أنّهم لا يؤمنون و ذلك أنّه سبحانه أخبر ملائكته أنّهم لا يؤمنون فحقّ قوله عليهم لأنّه قد سبق في علمه أنّ هذا يؤمن و أنّ هذا لا يؤمن فقال في حقّهم : إنّهم لا يؤمنون و قوله تعالى : « حقّ القول » جواب القسم و تقدير الكلام و الله يحقّق عدم إيمان أكثرهم لكن لا بطريق الجبر بل بسبب إصرارهم الاختياريّ على الكفر والإنكار وعدم تأثّرهم من الإنذار بحيث لا يثنيهم عاطف .

قوله : [إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان] قيل : إنّ هذه الآية نزلت في أبي جهل و صاحبيه المخزوميّين كان حلف أبو جهل لئن رأى محمّداً يصلّي ليرضخنّ

رأسه فأتاه و هو صلى الله عليه وآله وسلم يصلّي و معه حجر ليدمغه فلمّا رفعه انثنت يده إلى عنقه و لزق الحجر بيده فلمّا عاد إلى أصحابه و أخبرهم بما رأى سقط الحجر من يده فقال صاحبه المخزوميّ : أنا أقتله بهذا الحجر فأتاه و هو يصلّي ليرميه بالحجر فأغشى الله بصره فجعل يسمع صوته و لا يراه فرجع إلى أصحابه فلم يرهم حتّى نادوه : ماصنعت فقال : ما رأيته و لقد سمعت صوته و حال بيني و بينه كهيئة الفحل يخطر بذنبه لو دنوت منه لأكلني .

و روى أبو حمزة الثماليّ عن عمّار بن عاصم عن شقيق بن سلمة عن عبد الله بن مسعود أنّ قريشاً اجتمعوا بباب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فخرج إليهم فطرح التراب على رؤوسهم وهم لا يبصرونه قال عبد الله بن مسعود : هم الّذين سحبوا في القليب قليب بدر .

و روى أبو حمزة الثماليّ عن مجاهد أنّ قريشاً اجتمعوا بباب النبيّ فقالت : لئن دخل محمّد لنقومنّ إليه قيام رجل واحد فدخل النبيّ فجعل الله من بين أيديهم سدّاً و من خلفهم سدّاً فلم يبصروه و صلّى النبيّ ثمّ أتاهم فجعل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ينشر على رؤوسهم التراب وهم لا يرونه فلمّا خلّى عنهم رأوا التراب و قالوا : هذا ما سحركم ابن أبي كبشة .

رجعنا إلى تفسير قوله « إنّا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان » وروي عن ابن مسعود و ابن عبّاس أنّهما قرءا « إنّا جعلنا في أيمانهم » و قرأ بعضهم في أيديهم و قال بعضهم على القراءة المشهورة و استعاروا الأعناق بالكناية عن الأيدي فالمعنى واحد في الجميع لأنّ الغلّ لا يكون في العنق دون اليد ولا في اليد دون العنق و مثله في التنزيل « و جعل لكم سرابيل تقيكم الحرّ[(١)] » ولم يقل : و البرد لأنّ المعنى اللازم أنّ مايقي من الحرّ يقي من البرد .

و اختلف في معنى الآية على وجوه :

أحدها أنّه سبحانه بسوء اختيارهم واستحقاقهم جعلهم ممسكين لاينفقون في سبيل الله ولا يبسطون أيديهم إلى الخير والزكاة وإنّما ذكره ضرباً للمثل و تقديره : إنّ هؤلاء في إعراضهم عمّا تدعوهم إليه كمثل رجل غلّت يده إلى عنقه لايمكنه أن يبسطهما و طامح

(١) النحل : ٨١ .

برأسه لا يمكنه من أن يطأطىء رأسه لأنّ المغلول تكون يده مجموعة في الغلّ إلى عنقه و المغلول الّذي بلغ الغلّ ذقنه بقي مقمحاً رافع الرأس لا يبصر طريق قدميه وهو كناية عن عدم هدايته إلى الطريق الحق فهذا الّذي يهديه النبي إلى الصراط المستقيم و هو يعاند و يمتنع عن قبول قوله جعل ممنوعاً كالمغلول .

وثانيها أنّ المعنى كان هذا القرآن أغلالاً في أعناقهم يمنعهم عن الخضوع لتدبّره و استماعه لاستثقالهم أحكامه و أنّهم لمّا استكبروا عنه و أنفوا من اتّباعه و كان المستكبر رافعاً رأسه ولاوياً عنقه شامخاً بأنفه لا ينظر إلى الأرض صاروا كأنّما غلّت أيديهم إلى أعناقهم و هذا المعنى قريب في الجملة إلى الوجه الأوّل .

وثالثها أنّ المعنى على سبيل الحقيقة وذلك أنّ ناساً من قريش همّوا بقتل النبي صلّى الله عليه وآله وسلّم فجعلت أيديهم إلى أعناقهم فلم يستطيعوا أن يبسطوا إليه صلّى الله عليه وآله وسلّم كما بيّنّا في نزول الآية هذا المعنى .

و رابعها أنّ المراد به وصف حالهم يوم القيامة فهو مثل قوله : « إذ الأغلال في أعناقهم » و إنّما ذكره بلفظ الماضي للتحقيق وقوله : « فهم مقمحون » أي متأبّون قهراً أن يطأطئون رؤوسهم بسبب الغلّ يقال : بعير قامح إذا رفع رأسه فلم يشرب الماء ولم يطأطئه للشرب والإيمان كالماء الزلال الّذي به الحياة و هذا الكافر يمتنع عن قبول الإيمان فيهلك كما يهلك البعير القامح .

قوله تعالى : [و جعلنا من بين أيديهم سدّاً و من خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون] و في الآية بيان معبّر عن خذلان الله إيّاهم لمّا كفروا أي تركناهم مخذولين فصار خذلانهم سدّاً بين أيديهم و من خلفهم و إذا فسّر الآية بأنّها وصف حال المشركين في الآخرة على بيان الوجه الرابع من الوجوه المذكورة الأربعة فالكلام على حقيقته ويكون عبارة عن ضيق المكان في النار بحيث لا يجدون متقدّماً ولا متأخّراً إذ سدّ عليهم جوانبهم و إذا حملناه على صفة القوم الّذين همّوا بقتل النبي فالمراد جعلنا بين أيدي اُولئك الكفّار منعاً ومن خلفهم منعاً حتّى لم يبصروا النبي فأغشينا أبصارهم فهم لا يبصرون النبي وقرىء بالعين المهملة والمعنى مناسب مأخوذ من العشواء و قيل : فأغشيناهم

العذاب فهم لايبصرون النار .

و يمكن أن يكون في الآية إشعار بنكتة لطيفة و هي أنّ الإنسان له هداية فطريّة و الكافر تركها و هداية نظريّة و الكافر بسبب عناده ما أدركها فكأنّه تعالى قال : جعلنا من بين أيديهم سدّاً فلا يسلكون طريقة الاهتداء الّتي هي نظريّة و جعلنا من خلفهم سدّاً فلا يرجعون إلى الهداية الجبلّيّة الفطريّة .

[و سواء عليهم ءأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون]أي الإنذار و عدمه سيّان بالنسبة إلى الإيمان منهم .

فإن قيل : إذا كان الإنذار و عدمه سواء فلما ذا الإنذار ؟

فالجواب أنّه تعالى قال : «سواء عليهم » ولم يقل : « سواء عليك » فالإنذار بالنسبة إلى النبيّ واجب و خروج عن العهدة و سبب في زيادة سيادته عاجلاً و سعادته آجلاً ولكن بالنسبة إليهم على السواء و انتفاء الفائدة في الإنذار قد صدر منهم .

ثمّ قال تعالى :

انما تنذر من اتبع الذكر و خشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة واجر كريم (١١) انا نحن نحى الموتى و نكتب ما قدموا و آثارهم و كل شيء احصيناه في امام مبين (١٢) و اضرب لهم مثلا اصحاب القرية اذ جاءها المرسلون (١٣) اذ ارسلنا اليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا انا اليكم مرسلون (١٤) قالوا ما انتم الا بشر مثلنا و ما انزل الرحمن من شيء ان انتم الا تكذبون (١٥) قالوا ربنا يعلم انا اليكم لمرسلون (١٦) وما علينا الا البلاغ المبين(١٧) قالوا انا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب اليم(١٨) قالوا طائركم معكم أ ان ذكرتم بل انتم قوم مسرفون(١٩) و جاء من اقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين (٢٠) .

المعنى : لمّا بيّن سبحانه أنّ الكفّار لايؤمنون أكثرهم بسبب إنكارهم النبوّة و القرآن عقّبه بذكر من ينتفع بالإنذار فقال :

[إنّما] ينتفع بتخويفك و إنذارك [من اتّبع الذكر] و المراد القرآن [وخشي

الرحمن بالغيب] أي في حال غيبته عن الناس بخلاف المنافق و قيل : معناه وخشي الرحمن فيما غاب عنه من أمر الآخرة [فبشّره] يا محمّد من هذه صفته [بمغفرة و أجر كريم] أي ثواب خالص من الشوائب و الغفران جزاء الإيمان فكلّ مؤمن مغفور و الأجر الكريم جزاء العمل .

و ههنا بيان لطيفة و هي أنّ بعض العلماء قالوا : الله و الرحمن اسمان علمان كما قال سبحانه : «قل ادعوا الله أوادعوا الرحمن » فالله اسم ينبىء عن الهيبة و الجلالة والرحمن ينبىء عن الرحمن و العاطفيّة و قال : في موضع « يرجو الله » و قال ههنا : « و خشي الرحمن » يعني مع كونه تعالى ذاهيبة لاتقطعوا رجاءكم عنه و مع كونه ذا رحمة لاتأمنوه .

قوله : [إنّا نحن نحيي الموتى و نكتب ما قدّموا] لمّا ذكر أصلاً من الأُصول و هو النبوّة ذكر أصلاً آخر في هذه الآية بقوله : « إنّا نحن» الآية و في قوله : « إنّا نحن » يحتمل وجهين :

أحدهما أن يكون مبتدءاً و خبراً كقول القائل : « أنا أبوالنجم و شعري شعري» و مثل هذا الكلام يقال عند الشهرة العظيمة و ذلك لأنّ من لايعرف يقال له : من أنت فيقول : أناابن فلان فيعرف و من كان معروفاً إذا قيل له : من أنت يقول : أنا أنا أي لا معرّف لي أظهر من نفسي فقال سبحانه « إنّا نحن » .

و ثانيهما أن يكون الخبر«نحيي»كأنّه قال : « إنّا نحيي الموتى » و نحن يكون تأكيداً قادرين كمال القدرة ونحيي الموتى ونكتب ما قدّموا أي نحصي ما قدّموا وأُسلفوا من الأعمال الصالحة و الفاسدة و ما أخّروا و قصّروا و اكتفى بذكر أحدهما عن الآخر مثل قوله : « سرابيل تقيكم الحرّ » و المراد البرد و قيل : نكتب ما قدّموه من عمل ليس له أثر .

[و آثارهم] أي ما يكون أثر و قيل : المراد بآثارهم أعمالهم الّتي صارت بعدهم سنّة يقتدى فيها بهم حسنة كانت أم قبيحة و قيل : المراد خُطاهم إلى المسجد وسبب ذلك ما رواه أبو سعيد الخدري أنّ بني سلمة كانوا في ناحية من المدينة فشكوا إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم بعد منازلهم من المسجد و الصلاة معه فنزلت الآية و في الحديث عن أبي موسى قال:

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ أعظم الناس في الصلاة ثواباً أبعدها إليها ممشى و لمّا نزلت الآية و كانوا قبل ذلك ناوين النقلة ظلّوا في دورهم ثابتين فقال صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ الله يكتب خطوتكم و يثيبكم عليه فألزموا بيوتكم .

[و كلّ شيء أحصيناه في إمام مبين] أي و أحصينا و عدّدنا كلّ شيء من الحوادث في كتاب مبين ظاهر لا يدرس أثره و هو اللوح المحفوظ و الوجه في إحصاء ذلك اعتبار الملائكة به إذ قابلوا به ما يحدث من الاُمور ليكون فيه دلالة على معلومات الله سبحانه على التفصيل و قيل : أراد صحائف الأعمال و عن عليّ عليه السلام قال : أنا و الله الإمام المبين اُبيّن الحقّ من الباطل و ورثته من رسول الله .

و في المعاني عن الباقر عليه السلام عن أبيه عن جدّه قال نزلت هذه الآية على النبيّ « و كلّ شيء أحصيناه في إمام مبين » قام أبو بكر و عمر من مجلسهما و قالا : يا رسول الله هو التوراة ؟ قال : لا قالا : فهو الانجيل ؟ قال : لا قالا : هو القرآن ؟ قال : لا قالا : فما فأقبل أمير المؤمنين عليه السلام فقال رسول الله : هو هذا إنّه الإمام الّذي أحصى الله فيه علم كلّ شيء .

و في الاحتجاج عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في حديث قال معاشر الناس : ما من علم إلّا علّمنيه ربّي و أنا علّمته عليّاً و قد أحصاه الله فيّ و كلّ علم علّمت فقد أحصيته في إمام المتّقين و ما من علم إلّا علّمته عليّاً (١) .

[و اضرب لهم مثلا أصحاب القرية] هؤلاء أضراب أي هؤلاء أمثال أي و مثّل لهم يا محمّد مثالاً أو اُذكر لهم مثلاً « أصحاب القرية » و ترك المثل و اُقيم الأصحاب مقامه في الإعراب .

[إذ جاءها المرسلون] و هذه البلدة بلدة الأنطاكية و قيل : المعنى مثّل قومك بأصحاب القرية الأنطاكية حيث جاءهم ثلاثة رسل ولم يؤمنوا و صبر الرسل على القتل و الإيذاء و هم بُعثوا على قرية و أنت بعثت على العالم فتكون تتحمّل أذا هم ومكارههم .

[إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذّبوهما] فكذّبوا الرسولين قال ابن عبّاس : ضربوهما وسجنوهما [فعزّزنا]هما[بثالث] وقوّيناهما برسول ثالث وكان اسم الرسولين شمعون و يوحنّا واسم الثالث يونس و قال ابن عبّاس : اسمهما صادق و صدوق و الثالث اسمه شلوم وقيل:

(١) العبارة هنا مضطربة . انظر الاحتجاج : ٣٤ - ٤١ .

إنّهم رسل عيسى وهم الحواريّون وإنّما أضافهم تعالى إلى نفسه لأنّ عيسى أرسلهم بأمره.

[فقالوا إنّا إليكم مرسلون] أي قالوا : يا أهل القرية إنّ الله أرسلنا إليكم.

[قالوا] يعني أهل القرية : [ما أنتم إلّا بشر مثلنا] فلا تصلحون للرسالة كما لا نصلح نحن لها كما قال قوم محمّد هذا الكلام « ءأُنزل عليه الذكر » أي أنتم بشر مثلنا فكيف صرتم رسل الله ولا يجوز رجحانكم علينا [إن أنتم إلّا تكذبون] أي ما أنتم إلّا كاذبون في ادّعائكم.

[قالوا ربّنا يعلم إنّا إليكم لمرسلون] إشارة إلى أنّهم بمجرّد التكذيب لم يسأموا ولم يتركوا بل أعادوا وكرّروا القول عليهم و أكّدوه بلام التأكيد واستشهدوا بعلم الله في رسالتهم و إنّما قالوا ذلك بعد ما قامت الحجّة منهم بظهور المعجزة فلم يقبلوها.

قوله [و ما علينا إلّا البلاغ المبين] أي ليس يلزمنا إلّا أداء الرسالة و ليس علينا أن نحملكم قهراً على الايمان فإنّا لانقدر.

[قالوا إنّا تطيّرنا بكم] أي قال هؤلاء الكفّار : إنّا تشأّمنا بكم [لئن لم تنتهوا] عمّا تدعونه من الرسالة [لنرجمنّكم] بالحجارة و قيل · معناه لنشتمنّكم [وليمسّنّكم منّا عذاب أليم].

[قالوا] يعني الرسل : [طائركم معكم] أي الشؤم كلّه معكم بإقامتكم على الكفر بالله تعالى فأمّا الدعاء إلى التوحيد و عبادة الله ففيه غاية البركة و الخير و اليمن و قيل : معنى « طائركم » أي نصيبكم و حظّكم من الخير و الشرّ معكم [أئن ذكّرتم] ثمّ قال المرسلون جواباً عن قول الكفّار حيث قالوا : «لنرجمنّكم » يعني أتفعلون بنا ذلك و إن ذكّرتم و تبيّن لكم صدقنا و ظهر الأمر بالمعجزة و البرهان [بل أنتم قوم مسرفون] و ليس فينا ما يوجب التشأّم بنا و لكنّكم قوم متجاوزون عن الحدّ في التكذيب للرسل ، و الإسراف الإفساد أي أنتم تقصدون إيلام من يجب في حقّه الإكرام و المسرف هو المجاوز الحدّ بحيث يبلغ الضدّ لأنّ الواجب اتّباع الدليل فإن لم يوجد الاتّباع فلا أقلّ من أن لا يجزم بنقيضه و هم جزموا بالكفر.

[و جاء من أقصى المدينة رجل يسعى] فكان اسمه حبيب النجّار عن ابن عبّاس و جماعة من المفسّرين و كان قد آمن بالرسل عند ورودهم القرية و كان منزله عند أقصى باب من أبواب المدينة فلمّا بلغه أنّ قومه قد كذّبوا الرسل وهمّوا بقتلهم جاء يعدو .

[قال يا قوم اتّبعوا المرسلين] الّذين أرسلهم الله إليكم و أقرّوا برسالتهم و إنّما علم هو بنبوّتهم لأنّهم لمّا دعوه قال : أتأخذون على ذلك أجراً ؟ قالوا : لا و قيل : إنّه كان به زمانة أو جذام فأبرءوه فآمن بهم عن ابن عبّاس .

و شأن القصّة أنّ عيسى عليه السلام بعث رسولين إلى مدينة أنطاكية فلمّا قربا من المدينة رأيا شيخاً يرعى غنيمات له وهو حبيب النجّار فسلّما عليه فقال الشيخ لهما : من أنتما ؟ قالا : رسولا عيسى ندعوكم من عبادة الأوثان إلى عبادة الرحمن . فقال : أمعكما آية ؟ قالا : نعم نشفي المريض و نبرء الأكمه و الأبرص بإذن الله ، فقال الشيخ : إنّ لي ابناً مريضاً صاحب فراش منذ سنين قالا : فانطلق بنا إلى منزلك نتطلّع حاله فذهب بهما فمسحا ابنه فقام في الوقت بإذن الله صحيحاً ففشا الخبر في المدينة وشفى الله على أيديهما كثيراً من المرضى .

و كان لهم ملك يعبد الأصنام فانتهى الخبر إليه فدعاهما و قال لهما : من أنتما ؟ قالا : رسولا عيسى جئنا ندعوك من عبادة الأوثان عبادة مالا يسمع ولا يبصر إلى عبادة من يسمع و يبصر فقال الملك : أولنا إله سوى آلهتنا ؟ قال : نعم من أوجدك و أوجد آلهتك قال : قوما حتّى أنظر في أمركما فأخذهما الناس في السوق وضربوهما .

و قال وهب بن منبّه : بعث عيسى هذين الرسولين إلى أنطاكيه فأتياه و لم يصلا إلى ملكها و طالت مدّة مقامهما فخرج الملك ذات يوم فكبّرا و ذكرا الله فغضب الملك و أمر بحبسهما و جلّد كلّ واحد منهما مائة جلدة فلمّا كذّب الرسولان و ضربا بعث عيسى شمعون الصفا رأس الحواريّين على أثرهما لينصرهما فدخل شمعون البلدة متنكّراً فجعل يعاشر حاشية الملك حتّى أنسوا به فرفعوا خبره إلى الملك فدعاه و رضي عشرته و أنس به و أكرمه ثمّ قال له شمعون ذات يوم : أيّها الملك بلغني أنّك حبست رجلين في السجن وضربتهما حين دعواك إلى غير دينك فهل سمعت قولهما ؟ قال الملك : حال الغضب

بيني و بين ذلك قال : فإن رأى الملك دعاهما حتّى نطّلع ما عندهما فدعاهما الملك فقال لهما شمعون : من أرسلكما إلى ههنا ؟ قالا : الله الّذي خلق كلّ شيء لا شريك له قال شمعون لهما : و ما آتاكما ربّكما ؟ قالا : ما نتمنّاه فأمر الملك حتّى جاءوا بغلام مطموس العينين و موضع عينيه كالجبهة فما زالا يدعوان الله حتّى انشقّ موضع البصر فأخذا بندقتين من الطين فوضعا حدقتيه فصار تا مقلتين يبصر بهما فتعجّب الملك فقال شمعون للملك : أرايت لو سألت إلهك حتّى يصنع صنيعاً مثل هذا فيكون لك ولإلهك شرفاً فقال الملك: ليس لي عنك سرّ إنّ إلهنا الّذي نعبده لا يضرّ ولا ينفع ثمّ قال الملك للرسولين : إن قدر إلهكم على إحياء ميّت آمنّا به و بكما قالا : إلهنا قادر على كلّ شيء فقال الملك : إنّ ههنا ميّتاً مات منذ سبعة أيّام لم ندفنه حتّى يرجع أبوه وكان غائباً فجاءوا بالميّت و قد تغيّر و أروح فجعلا يدعوان ربّهما علانية و جعل شمعون يدعو ربّه سرّاً فقام الميّت و قال لهم : إنّي قدمت منذ سبعة أيّام و اُدخلت في سبعة أودية من النار و أنا اُحذّركم ما أنتم فيه فآمنوا بالله فتعجّب الملك فلمّا علم شمعون أنّ قوله أثّر في الملك دعاه إلى الله فآمن و آمن من أهل مملكته قوم و كفر آخرون .

و قد روى مثل ذلك العيّاشيّ بإسناده إلى الثماليّ و غيره عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام إلّا أنّ في بعض الروايات : بعث الله الرسولين إلى أهل أنطاكية ثمّ بعث الثالث و في بعضها أنّ عيسى أوحى الله إليه أن يبعثهما ثمّ بعث وصيّه شمعون ليخلصهما و أنّ الميّت الّذي أحياه الله بدعائهما كان ابن الملك و إنّه خرج من قبره ينفض التراب عن رأسه فقال له : يا بنيّ ماحالك قال : كنت ميّتاً فرأيت رجلين ساجدين يسألان الله تعالى أن يحييني قال : يابنيّ أفتعرفهما إذا رأيتهما قال : نعم فأخرج الناس إلى الصحراء فكان يمرّ عليه رجل بعد رجل فمرّ أحدهما بعد جمع كثير فقال :هذا أحدهما ثمّ مرّ الآخر فعرفهما و أشار بيده إليهما فآمن الملك و أهل مملكته .

و قال ابن اسحاق : بل كفر الملك و أجمع هو و أهل مملكته على قتل الرسل فبلغ ذلك حبيباً و هو على باب المدينة الأقصى فجاء يسعى إليهم يذكّرهم و يدعوهم إلى طاعة الرسل .

قوله تعالى : اتبعوا من لا يسألكم اجراوهم مهتدون (٢١) وما لى لا أعبد الذى فطرنى و اليه ترجعون (٢٢) ءاتخذ من دونه آلهة ان يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئاً ولا ينقذون (٢٣) انى اذا لفى ضلال مبين (٢٤) انى آمنت بربكم فاسمعون (٢٥)قيل ادخل الجنة قال ياليتقومى يعلمون (٢٦) بما غفر لى ربى و جعلنى من المكرمين (٢٧) وما انزلنا على قومه من بعده من جند من السماء و ما كنا منزلين (٢٨) ان كانت الا صيحة واحدة تأخذهم فاذاهم خامدون (٢٩) يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول الا كانوا به يستهزءون(٣٠) .

ثمّ ذكر سبحانه تمام الحكاية عن الرجل الّذي جاءهم من أقصى المدينة فقال : [اتّبعوامن لايسألكم أجراً] أي أيّها الكفّاراتّبعوا من لا يطلبون الأجر ولا يسألونكم أموالكم علىماجاءوكم به من الهدى [وهم مهتدون] إلى طريق الحقّ فلمّا قال هذا الكلام أخذوه و رفعوه إلى الملك فقالله الملك : أفأنتتتّبعهم ؟ فقال :[ومالي لا أعبد الّذي فطرني] وأيّ شيء لي لم أعبد خالقي الّذي أنشأني و هداني و في الكلام إشعار بأنّ المانع مفقود والمقتضي موجود و قد وجب شكر المنعم لأنّه أنعم عليّ بالإيجاد والهداية .

و في قوله : « فطرني » لطيفة و هي أنّه معنى فطرني و لو أنّ معناه أنشأني و لكن مشعر بأنّه جعلني عين الفطرة الّتي فطر الناس عليها فأنا باقٍ عليها والمراد تقريعهم على ترك عبادة خالقهم إلى عبادةغيره كما ينبىء عنه قوله : [و إليه ترجعون] و في العدول من التكلّم إلى الخطاب معنى لطيف وهو إشارة إلى الخوف والرجاء لأنّ من يكون إليه المرجع يخاف منه و يرجى و العابد عابد يعبد الله لكونه إلهاً مالكاً يستحقّ العبادة سواء أنعم أو لم ينعم و قسم يعبد الله خوفاً من المخالفة و قسم يعبد الله للنعمة الواصلة إليه فجعل هذا الرسول نفسه من الطبقة الاُولى و جعلهم دون ذلك من الطبقة الثانية و الثالثة لأنّه علم أنّهم ليسوا قابلين أنيكونوامن الطبقة الاُولى .

و ههنا بيان و هو أنّه لِم فتح الياء في قوله : « و مالي » و الحال أنّ الأصل

سكون الياء ؟ قال أبو عمرو : لئلاّ يكون الابتداء « بلاأعبد » ولكن قرأ في الباقي على الأصل كما في قوله : « مالي لا أرى الهدهد [1] » بسكون الياء .

و بالجملة ثمّ أنكر عبادة الأصنام فقال : [ءأتّخذ من دون آلهة] أعبدهم [إن يردن الرحمن بضرّ] أي إذا أرادالله إهلاكي والإضراربي [لا تغن عنّي شفاعتهم شيئاً] أي لا تدفع و لا تمنع شفاعة الأوثان عنّي شيئاً أي لا شفاعة لهم فتغني ولا يخلصوني [ولا ينقذون] من ذلك الضرر والإهلاك والمكروه و في قوله : « ءأتّخذ » إشارة إلى أنّ غيره ليس بإله لأنّ المتّخذ لا يكون إلهاً لأنّ المتّخذ يجدّد أمراً ماكان والإلهيّة الإله كان ثابتاً في أزل الآزال .

[إنّي إذاً لفي ضلال مبين] أي إنّي إن فعلت ذلك و أتّخذ إلهاً غير الله و أعدل إذن أكون في ضلال واضح [إنّي آمنت بربّكم فاسمعون] أي آمنت و صدّقت بربّكم الّذي أخرجكم و خلقكم فاسمعوا قولي واقبلوه .

و اختلف في المخاطبين في الآية قيل : الخطاب إلى الرسولين قال المفسّرون : أقبل القوم عليه يريدون قتله فأقبل هو على المرسلين و قال : إنّي آمنت بربّكم فاسمعوا قولي واشهدوا لي عندالله و قيل : المعنى أيّها السامعون إنّي آمنت بربّكم .

ثمّ إنّ القوم لمّا سمعوا ذلك القول و طؤوه بأرجلهم حتّى مات فأدخله الله الجنّة و هو حيّ فيها يرزق [قيل ادخل الجنّة] و قيل : رجموه حتّى قتلوه و قيل : لمّا أرادوا أن يقتلوه رفعه الله إليه فهو في الجنّة لا يموت إلّا بفناء الدنيا و هلاك الجنّة و قيل : إنّ القوم قتلوه إلّا أنّ الله سبحانه أحياه و أدخله الجنّة .

فلمّا دخلها [قال ياليت قومي يعلمون بما غفرلي ربّي] تمنّى أن يعلم قومه بما أعطاه الله من جزيل النعمة و الثواب ليرغبوا فيه و ليؤمنوا و لينالوا ذلك و في تفسير الثعلبيّ عن عبدالرحمن بن أبي ليلى عن أبيه عن النبيّ ﷺ قال : سبّاق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين عليّ أمير المؤمنين و صاحب يس و مؤمن آل فرعون فهم الصدّيقون وأفضلهم عليّ عليه السلام .

(١) النمل : ٢٠ .

[و جعلني من المكرمين] أي من المدخلين في الجنّة و الإكرام هو إعطاء المنزلة الرفيعة على وجه التعظيم و في هذا دلالة على نعيم القبر لأنّه إنّما قال ذلك و قومه أحياء في الدنيا و إذا جاز نعيم القبر جاز عذاب القبر فإنّ الخلاف فيهما واحد . و كلمة « ما » في قوله : « بما غفر لي » مصدريّة أو أن تكون موصولة أي بالّذي غفر لي و يجوز أن يكون المعنى : بأيّ شيء غفر لي ربّي فيكون استفهاماً .

ثمّ حكى سبحانه ما أنزله بقومه من العذاب والاستئصال فقال : [وما أنزلنا على قومه من بعده] أي من بعد قتله أو من بعد رفعه [من جندٍ من السماء] أي الملائكة أي لم ننتصر منهم لإهلاكهم بعد قتلهم الرسل جنداً كثيراً من الملائكة يقاتلونهم والمراد الإشارة إلى هلاكهم بعده سريعاً على أسهل وجه و ما كان يحتاج الأمر إلى إرسال جندٍ يهلكهم و إنّما النازل من العذاب عليهم بصيحة ملك واحد أخمدت نارهم وخربت ديارهم .

ثمّ بيّن الله سبحانه فقال : [إن كانت إلّا صيحة واحدة] أي ما كانت الواقعة إلّا صيحة قال الزمخشريّ : أصله : إن كان شيء إلّا صيحة فكان الأصل أن يذكّر لكنّها اُنّث لما بعده من المفسّر و هو صيحة و واحدة تأكيدٌ لبيان أنّ الأمر عندنا هيّن [فإذاهم خامدون] إشارة إلى سرعة الهلاك فإنّ خمودهم كان مع الصيحة و في وقتها و وصفهم بالخمود لأنّهم لمّا قتلوا حبيباً النجّار غضب الله عليهم فبعث جبرئيل حتّى أخذ بعضاً دنا باب المدينة و كانت المدينة عظيمة ثمّ صاح بهم صيحة فما توا دفعة عن آخرهم لا يسمع لهم حسٌّ كالنار إذا طفئت وسكنت أنفاسهم في أسرع وقت كما أنّ النار والسراج والشعلة تنطفىء دفعة واحدة .

فإن قيل : إذا كانت صيحة واحدة تكفي لقوم و اُمّة و أهل بلدة عظيمة مثل أنطاكية من ملك واحد فكيف أنزل جنوداً لم تروها من الملائكة يوم بدر مع أنّه كان ذلك الملك و هو جبرئيل مع الملائكة ؟ فذلك لجلالة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم و إلّا كان تحريك ريشة واحدة من جناح ملك كان كافياً في إهلاك العالم وما كان رسل عيسى في درجة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم .

قوله تعالى : [يا حسرة على العباد] أي هذا وقت الحسرة فاحضري و التنكير

للتكثير ، و العباد هم الّذين أخذتهم الصيحة فياحسرة و ندامة عليهم و تشمل هذه الحسرة لجميع المكذّبين بالرسل و المراد أنّه تحقّقت الندامة عند تحقّق العذاب .

و ههنا بيان وهو أنّه مَن المتحسّر في الآية وفيه وجوه : الأوّل أنّه لا متحسّر أصلاً في الحقيقة والمقصور أنّ ذلك الوقت وقت الندامة والحسرة لأنّ الفاعل يرفض إذا كان غير مقصود به أو القائل بقوله : « يا حسرة » هو الله على الاستعارة تعظيماً و تهويلاً للأمر فحينئذ كالألفاظ الّتي وردت في حقّ الله كالنسيان والاستهزاء و أمثاله . أو المعنى أنّه تعالى مخبر عن وقوع الندامة والحسرة في ذلك الوقت بصورة النداء لابصورة الإخبار والمقصود الإخبار . الثالث : المتحسّر المسلمون والملائكة كما حكي عن حبيب النجّار أنّه لمّا قتلوه كان يقول : « اللّهم اهدقومي » و بعدما قتلوه واُدخل الجنّة يتمنّى و كان يقول : « يا ليت قومي يعلمون » .

قوله : [ما يأتيهم من رسول إلّا كانوا به يستهزءون] فبيّن سبحانه سبب الحسرة و سبب وقوع العذاب فحينئذ هذا الكلام من قول الله : والمعنى أنّهم حلّوا محلّ من يتحسّر عليه و عذّبوا بسبب استهزائهم بالرسل و يحتمل أن يكون من كلام حبيب و يحتمل أن يكون قوله : « يا حسرة » إلى قوله : « يستهزءون » من كلام القوم لمّا عاينوا العذاب قالوا : « يا حسرة على العباد » يعني على الرسل حيث لم نؤمن بهم و قتلناهم فندموا حين لم ينفعهم الندامة و معنى الحسرة أن يرتكب الإنسان أمراً ثمّ يشتدّ ندمه على ذلك الفعل مالا نهاية له حتّى يبقى قلبه حسيراً .

قوله تعالى : الم يروا كم اهلكنا قبلهم من القرون أنهم اليهم لا يرجعون (٣١) و ان كل لما جميع لدنيا محضرون (٣٢) و آية لهم الارض الميتة احييناها و اخرجنا منها حباً فمنه يأكلون (٣٣) وجعلنا فيها جنات من نخيل واعناب و فجرنا فيها من العيون (٣٤) ليأكلوا من ثمرة و ما عملته ايديهم أفلا يشكرون (٣٥) .

المعنى: ثمّ هدّد سبحانه كفّار مكّة فقال :

[ألم يروا] و لم يعلموا [كم أهلكنا] قرناً [قبلهم من القرون] مثل قوم عاد

و ثمود و غيرهم [إنّهم إليهم لا يرجعون] و لا يعودون في الدنيا أفلا تعتبرون بهم و أنّكم ستصيرون إلى مثل حالهم فانظروا ألّا تصيروا مثلهم و احذروا أن يأتيكم العذاب والهلاك و أنتم في غفلة وغرّة . و يسمّى أهل كلّ عصر قرناً لاقترانهم في الوجود (١).

ثمّ بيّن أنّ من أهلكه الله هوغير متروك بل بعده حساب وعقاب و حبس وعذاب ، و إن ترك من هلك لكان الموت راحة قال الشاعر :

ولو أنّا إذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كلّ حيّ
و لكنّا إذا متنا بعثنا * ونسأل بعده عن كلّ شيء

وقوله : [وإن كلّ لمّا جميع لدينا محضرون] وفي « إن » وجهان : أحدهما أنّها مخفّفة من المثقّلة واللام في « لما » فارقة بينها وبين النافية و« ما » زائدة مؤكّدة للمعنى فالقراءة حينئذ بالتخفيف في « لما » وثانيهما أنّها نافية فحينئذ « لمّا » بمعنى « إلّا » و مشدّدة . وحاصل المعنى أنّ الاُمم يوم القيامة يحضرون فيقفون على ما عملوه في الدنيا من الماضين والباقين مبعوثون للحساب والجزاء .

ثمّ قال : [وآية لهم] أي وحجّة ودلالة قاطعة لهم على قدرتنا على البعث [الأرض الميتة أحييناها] أي الأرض القحطة المجدبة الّتي لاتنبت أحييناها بالنبات [و أخرجنا منها حبّاً] أي كلّ حبّ يتقوّتونه مثل الحنطة والشعير والاُرز و غيرها من الحبوب [فمنه يأكلون] ومن ذلك الحبّ يأكلون وينتفعون .

[و جعلنا فيها جنّات] في الأرض بساتين [من نخيل و أعناب] و إنّما خصّ النوعين لكثرة منافعهما وأنواعهما [وفجّرنا فيهامن العيون]أي وفجّرنا في تلك الأرض الميتة أو في تلك الجنّات عيوناً من الماء ليسقوابها الكرم والنخيل .

ثمّ بيّن سبحانه أنّه إنّما فعل ذلك [ليأكلوامن ثمره] من ثمرالنخيل ، و عود الضمير إلى أحد المذكورين لحصول العلم بأنّ الأعناب في حكم النخيل كما قال سبحانه: « ولاينفقونهافي سبيل الله(٢) » وترك الذهب حيث الإرجاع في الضمير به و قيل : الضمير

(١) كذا قال الراغب فى المفردات ، و قيل فيه وجوه اخر .

(٢) والذين يكنزون الذهب والفضة ولاينفقونها فىسبيل الله الاية . التوبة : ٣٥ .

عائدٌ إلى الله أي ليأكلوا من ثمر الله لأنّ سبب وجود الثمار ليس إلّا بالله وإرادته ويمكن أن يكون الضمير عائد إلى التفجير أي و فجّرنا فيها من العيون تفجيراً ليأكلوا ثمر ذلك التفجير .

قوله : [وما عملته أيديهم] قيل : إنّ « ما » نافية أي تلك الثمار ما عملته أيديهم بل نحن الزارعون والله أثمر النخل وأنبت البقل وقيل: « ما » موصولة فإنّه قال : والّذي عملته أيديهم من الغراس بعد التفجير ومن السقاية و أمثالها وقيل : « ما » مصدريّة أي ليأكلوا من ثمره وعمل أيديهم يعني يغرسون والله ينبتها ويخلق ثمرها فيأكلون مجموع عمل أيديهم وخلق الله وهذا المعنى على قراءة من قرأ « و ما عملت أيديهم » ولا يجوز ذكر الهاء المفعول على هذا المعنى ومع هذه النعم العديدة والقدرة الكاملة [أفلا يشكرون] منعمهم وخالقهم .

قوله تعالى : سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض و من انفسهم و مما لا يعلمون (٣٦) و آية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذاهم مظلمون (٣٧) والشمس تجرى لمستقرلها ذلك تقدير العزيز العليم (٣٨) و القمرقدرناه منازل حتى عادكالعرجون القديم (٣٩) لاالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولاالليل سابق النهاروكل فى فلك يسبحون (٤٠) .

لفظة «سبحان » علم دالّ على التسبيح وتقديره: اُسبّح تسبيحاً للّذي خلق أصناف الأشياء .

ووجه تعلّق الآية بماقبلها هوأنّه لمّا قال : « أفلايشكرون » وهم تركوه وعبدوا غيره فقال :

[سبحان الّذي خلق الأزواج] وغيره لم يخلق شيئاً و قد خلق سبحانه الأصناف والأشكال من الأشياء فالحيوان على مشاكلة الذكر للأنثى و كذلك النخل و الحبوب أشكال فلذلك قال : [ممّاتنبت الأرض] من سائر النبات [ومن أنفسهم] أي وخلق منهم أولاد أزواجاً ذكوراً وإناثاً [وممّا لايعلمون] ممّا في بطون الأرض وقعر البحار ولم يشاهدوه و لم يتّصل خبره بهم .

[وآية لهم] ودلالة اُخرى لهم [الليل نسلخ] وننزع من الليل [النهار] ونخرج ضوء الشمس والمراد من النهار الضوء أي نضمحلّ الضوء و نسلبه فيبقى الهواء مظلماً كماكان لأنّ الله يضيء الهواء بضياء الشمس فإذا سلخ منه الضياء كشط و اُزيل يبقى مـُظلماً.

وقيل : إنّما قال سبحانه «نسلخ منه النهار» لأنّه تعالى جعل الليل كالجسم لظلمته وجعل النهار كالجلد والقشر وهو عارض فالنهار كالكسوة والليلة أصل فهو كالجسم فإذا تميّز وانتزع منه الضوء [فإذاهم مظلمون] أي داخلون في ظلام الليل لاضياء لهم فيه.

[والشمس تجري لمستقرّ لها] أي و دلالة اُخرى لهم الشمس أي إنّها تجري لانتهاء أمرها عند انقضاء الدنيا فلاتزال تجري حتّى تنقضي الدنيا وقرىء «لامستقرّ لها» و المعنى واحد أي لاقرارلها إلى انقضاء الدنيا و يمكن أن يكون اللام للوقت والسبب نحو « لدلوك الشمس » فالجري بسبب حصول الوقت و قيل : معناه أنّها تجري لوقت واحد لاتعدوه ولا يختلف . أو المعنى أنّها تجري إلى أقصى منازلها في الشتاء والصيف لا يتجاوزها و لها في الارتفاع غاية لا تنقطع دونها و في الهبوط غاية لا يتجاوزها ولا تقصر عنها فمستقرّها [ذلك تقدير العزيز] القادر الّذي لايعجزه شيء [العليم] الّذي لايخفى عليه.

وههنا بيان وهو أنّ المكان يدفع شبه الفلاسفة والزمان يدفع شبه المشبّهة.

أمّا بيان الأوّل وهو أنّ الفلسفي يقول : لوكان عدم العالم قبل وجوده لكان عند فرض عدم العالم قبل ، وقبل وبعد لايتحقّق إلّا بالزمان فقبل العالم زمان والزمان من جملة العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه وهو محال فنقول : إنّه قد وافقتمونا على أنّ الأمكنة متناهية لأنّ الأبعاد متناهية بالاتّفاق فإذن فوق السطح الأعلى من العالم يكون عدماً وهو موصوف بالفوقيّة وفوق وتحت لايتحقّق إلّا بالمكان ففوق العالم مكان والمكان من العالم فيلزم وجود الشيء عند عدمه فإن قالوا : فوق السطح الأعلى لاخلأ و لاملأ نقول : قبل وجود العالم لاآنٌ ولازمان موجود.

وأمّا بيان الثاني فلأنّ المشبّه يقول : لايمكن وجود موجود إلّا في مكان فالله في

مكان فنقول : فيلزمكم أن تقولوا : الله في زمان لأنّ الوهم كما لايمكنه أن يقول : هو موجود ولامكان لايمكنه أن يقول : هوكان موجوداً ولازمان و كلّ زمان فهوحادث وقدأجمعنا على أنّ الله قديم .

قوله تعالى : [والقمرقدّرناه منازل حتّى عادكالعرجون القديم] أي وقدّرنا وعيّنا للقمرمجاري ومنازل أي جعلنا القمرذا منازل حذف المضاف واُقيم المضاف إليه مقامه وهي ثمانية وعشرون منزلاً ينزل كلّ يوم وليلة منزلاً منها لايختلف حاله إلى أن يقطع الفلك إلى أن يعود في آخر الشهر دقيقاً كالعذق اليابس العتيق المعوجّ المقوّس ثمّ يخفى يومين آخر الشهر .

وشبّهه سبحانه بالعذق لأنّه إذا مضى على العذق أيّام جفّ ويقوّس فيكون أشبه الأشياء بالهلال والهلال به والغالب أنّ العذق يصير كذلك و يتقوّس إذا مضى عليه ستّة أشهر .

وروى عليّ بن إبراهيم بإسناده قال : دخل أبوسعيد المكاري ـ وكان واقفيّاً ـ على أبي الحسن الرضا عَلَيْهِ السَّلَامُ فقال : أبلغ من قدرك أنّك تدّعي ما ادّعاه أبوك فقال له أبو الحسن : مالك أطفأ الله نورك و أدخل الفقر بيتك أما علمت أنّ الله سبحانه أوحى إلى عمران إنّي واهب لك ذكراً يبرأ الأكمه والأبرص فوهب له مريم و وهب لمريم عيسى فعيسى من مريم ومريم من عيسى وعيسى ومريم شيء واحد وأنا من أبي وأبي منّي فقال له أبو سعيد: فأسألك عن مسألة قال : سل ولا إخالك تقبل منّي ولست من غنمي ولكن هلمّها قال : ما تقول في رجل قال عند موته : كلّ مملوك لي قديم فهو حرّ لوجه الله ؟ فقال أبو الحسن عَلَيْهِ السَّلَامُ: ماملكه لستّة أشهر فهوقديم وهو حرّ قال : و كيف صار كذلك ؟ قال : لأنّ الله يقول : « والقمرقدّرناه منازل حتّى عادكالعرجون القديم» سمّاه الله قديماً ويعود العرجون كذلك لستّة أشهر قال : فخرج أبوسعيد من عنده وذهب بصره وكان يسأل على الأبواب حتّى مات.

قوله تعالى : [لاالشمس ينبغي لها أن تدرك القمر] في سرعة سير القمر لأنّ الشمس أبطأ سيراً من القمر فإنّ الشمس تقطع منازلها في سنة والقمر يقطعها في شهر فلايمكن أن يدرك أحدهما الآخر وخلقهما على وفق الحكمة وجعل لكلّ منهما ومن الكواكب مطالع

ومجاري مخصوصة متعيّنة فالشمس لم تكن تصلح لها سرعة الحركة بحيث تدرك القمرو إلّا لكان في شهر واحد صيف وشتاء فحينئذ لاتدرك الثمارولاتنضج .

[ولاالليل سابق النهار] ولايسبق الليل النهارولايجتمع ليلتان ليس بينهمايوم بل يتعاقبان [وكلّ في فلك يسبحون] أي وكلّ من الشمس والقمروالنجوم وذكرالشمس والقمر مشعر بالكواكب والنون عوض عن الضمير الّذي ذكر الشمس والقمر يشعر بوجود الضمير . فيفلك يسيرون بانبساط وسهولة وكلّ ما انبسط في شيء فقد سبح فيه و منه السباحة في الماء .

و إنّما قال : « يسبحون » بالواو والنون لما أضاف إليها فعل مثل الآدميّين و وصفها بصفة من يعقل كما قال : « مالكم لا تنطقون » قال ابن عبّاس : تدور كما تدور الغزل في الفلكة .

ويستنبط من بعض الأخبار كما ورد عن الرضا عليه السلام أنّ النهار خلق قبل الليل(١) .

قوله تعالى : وآية لهم أنا حملنا ذريتهم فى الفلك المشحون (٤١) وخلقنا لهم من مثله مايركبون (٤٢) وا ن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولاهم ينقذون (٤٣) الا رحمة منا ومتاعا الى حين (٤٤) واذا قيل لهم اتقوا مابين ايديكم وما خلفكم لعلكم ترحمون (٤٥) وما تاتيهم من آية من آيات ربهم الا كانوا عنها معرضين (٤٦) واذا قيل لهم انفقوا مما رزقكم‌الله قال الذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لويشاءالله أطعمه ان أنتم الا فى ضلال مبين (٤٧) ويقولون متى هذا الوعد ان‌كنتم صادقين (٤٨) ما ينظرون الا صيحة واحدة تاخذهم وهم يخصمون (٤٩) فلا يستطيعون توصية ولا الى أهلهم يرجعون (٥٠) .

ثمّ امتنّ الله على خلقه بذكرفنون نعمه دالّاً بذلك على وحدانيّته فقال :

[وآية] وحجّة وعلامة لهم على اقتدارنا [أنّا حملنا ذرّيّتهم في الفلك المشحون] أي آباءهم وأجدادهم الّذين هؤلاء من نسلهم وانتشر منهم خلق كثير وتسمّى الآباء

---

(١) راجع مجمع البيان .

« ذرّيّة » من ذرءالله الخلق لأنّ الأبناء والأولاد خُلقوا منهم وسمّي الأولاد ذرّيّة لأنّهم خُلقوا من الآباء وقيل : الذرّيّة هم الصبيان والنساء وخصّ الذرّيّة بالذكر في السفينة مع أنّ الآباء أيضاً حملوا لضعفهم ولأنّه لاقوّة لهم على السفر كقوّة الرجال .

« في الفلك المشحون » أي سفينة نوح المملوّة من الناس وما يحتاج إليه من فيها فسلموا من الغرق و الفُلك السفينة لأنّ السفينة تدور في الماء ومنه الفَلَك لأنّها تدور بالنجوم وفَلَكَ ثدي المرأة إذا استدار .

[وخلقنالهم من مثله مايركبون * وإن نشأ] إذا حملناهم في السفن [نغرقهم] بتهييج الرياح و الأمواج [فلا صريخ] ولا مغيث [لهم ولاهم ينقذون] ولا يخلصون من الغرق .

وههنا بيانٌ لغويّ صرفيّ وهو أنّه جعل الفلك تارة جمعاً مثل قوله : « وترى الفلك مواخر (١) » واُخرى فرداً مثل قوله : « في الفلك المشحون » وهذا ليس من قبيل لفظ المشترك الّذي وضعت بحركة واحدة لمعنيين بل الحركة الأصليّة في المعنيين مختلفة ولكن في الصورة متّحدة مثلها قولك : سجد يسجد سجوداً للمصدر وهم قوم سجود في جمع ساجد نظنّ أنّها كلمة واحدة لمعنيين وليس كذلك بل السجود عند كونه مصدراً حركة أصليّة وحركة السجود عند كونه للجمع حركة متغيّرة حيث إنّ الجمع يشتقّ من الواحد وهو ساجد ولابدّ أن يلحق المشتقّ تغيير في الحركة أوفي الحروف أوفي مجموعها فساجد لمّا أردنا أن نشتقّ منه لفظ جمع غيّرناه وجئنا بلفظ السجود إذا عرفت هذا فالفلك عند كونه واحداً مثل « قفل » و عند كونها جمعاً مثل « خُشب » فإذا استعملت الكلمة بمعنى الجمع فيكون واحدها فلكة انتهى .

[وخلقنا لهم من مثله ما يركبون] أي وخلقنا لهم من مثل سفينة نوح سفناً يركبون فيها هؤلاء كما ركب اُولئك والمراد السفن الّتي عملت بعد سفينة نوح على صورتها وشكلها وحاصل المعنى أنّ خلقنا لهؤلاء مثل ماخلقنا للمتقدّمين منهم و « من » في قوله : « من مثله » قيل : صلة زائدة مثل ماجاءني من أحد لكن سيبويه يقول « من » لاتقع

---

(١) النحل : ١٤ .

صلة إلّا بعد النفي لكن هي مبيّنة وقيل : المراد وخلقنا ممّا يماثل الفلك ما يركبون من الإبل فإنّها سفائن البرّ وقيل: ممّا يماثل السفينة المراد الحمولة من الدوابّ كالإبل والبقر والحمير وإنّما جعلها مخلوقة لله مع كونها من مصنوعات العباد ليس لمجرّد كون صنعهم بإقدار الله وإلهامه بل لمزيد اختصاص أصلها بحكمته وقدرته كما يعرب عن هذا المعنى قوله : « واصنع الفلك بأعيننا ووحينا [١] » .

قوله تعالى : « وإن نشأ نغرقهم فلا صريخ لهم ولاهم ينقذون * إلّا رحمة منّا ومتاعاً إلى حين » أي لا يغاثون ولا ينقذون « إلّا رحمة منّا » فيمن علم الله منه أنّه مؤمن أو سيؤمن أو ننقذهم للتمتّع زماناً قليلاً في الدنيا ونمتّعه إلى حين قدّرناه لتقضي آجالهم .

[وإذا قيل لهم] أي للمشركين [اتّقوا ما بين أيديكم] من أمر الآخرة واعملوا لها [وما خلفكم] من أمر الدنيا واحذروها ولا تغترّوا بها أو اتّقوا ما مضى من الذنوب وما تأتى من الذنوب بالتوبة للماضي والاجتناب للمستقبل وقيل : معناه : اتّقوا العذاب المنزل على الاُمم الماضية وما خلفكم من العذاب الآخرة وجواب « إذا قيل لهم » محذوف أي إذا قيل لهم اتّقوا لعلّكم ترحمون لا يتّقون و يعرضون ويدلّ على هذا المحذوف قوله تعالى : [وما تأتيهم من آية من آيات ربّهم إلّا كانوا عنها معرضين] أي أعرضوا عن التفكّر في الحجج والمعجزات و « من » في قوله : « من آية » هي الّتي تزاد بعد النفي للتأكيد والاستغراق ومن الثانية للتبعيض أي ليس تأتيهم آية إلّا أعرضوا عنها و ذلك سبيل من ضلّ الهدى وخسر الآخرة .

[وإذا قيل لهم] أيضاً [أنفقوا ممّا رزقكم الله] في طاعته وأخرجوا من أموالكم ما أوجب الله عليكم [قال الّذين كفروا للذين آمنوا أنطعم من لو يشاء الله أطعمه] أي احتجّوا في منع الإنفاق والحقوق بأن قالوا : كيف نطعم من يقدر الله على إطعامه ولو شاء الله إطعامه أطعمه فإذا لم يطعم دلّ على أنّه لم يشأ إطعامه .

واختلف في هؤلاء القائلين : فقيل : هم اليهود حين اُمروا بإطعام الفقراء وقيل : هم مشركو قريش قال لهم أصحاب الرسول صلّى الله عليه وآله وسلّم : أطعمونا من أموالكم ما

(١) هود : ٣٧ .

زعمتم أنّه لله وذلك قوله : «هذا لله بزعمهم (١) » وقيل : هم الزنا دقة من الناس الّذين أنكروا الصانع تعلّقوا بقوله : « رزقكم الله » فقالوا : إن كان هو الرازق فلا فائدة في التماس الرزق منّا وقدرزقنا وحرّمكم فلمَ تأمرون بإعطاء من حرمه الله ؟

[إن أنتم إلّا في ضلال مبين] هذا من بقيّة قول الكفّار لمن أمرهم بالإطعام . وقيل : إنّه من قول الله حين ردّوا هذا الجواب .

[و يقولون متى هذا الوعد] الّذي تعدنا به نزول العذاب بنا [إن كنتم صادقين] أنت وأصحابك وهذا استهزاء منهم بخبر النبيّ وخبر المؤمنين .

فقال تعالى في جوابهم : [ماينظرون إلّا صيحة واحدة] أى ماينتظرون إلّا صيحة واحدة يريد النفخة الاُولى عن ابن عبّاس ، أي إنّ القيامة تأتيهم بغتة [تأخذهم] الصيحة [وهم يخصّمون] أي يختصمون و يتناظرون في الأسواق وفي الحديث : تقوم الساعة والرجلان قدنشروا ثوبهما يتبايعانه فما يطويانه حتّى تقوم الساعة والرجل يرفع اُكلته إلى فيه فما تصل إلى فيه حتّى تقوم الساعة والرجل يليط حوضه ليسقي إبله وما شيته فما يسقيها حتّى تقوم وقيل : وهم يختصمون هل ينزل بهم العذاب أم لا ؟

فإن قيل : إنّهم ماكانوا ينتظرون بل كانوا يجزمون بعدمها .

فالجواب أنّ الانتظار فعليّ لأنّهم كانوا يفعلون مايستحقّون به البوار وتقريب الساعة والعذاب . والتنكير في الصيحة لبيان عظمتها و هولها كقولك : إنّ لفلان مالاً أي كثيرٌ عظيم وقوله : « واحدة » للتأكيد والمبالغة في شدّة الصيحة أي لايحتاج معها إلى ثانية وتأخذهم وتعمّهم بالأخذ وتصل إلى من في المشارق والمغارب .

[فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون] فبيّن الله سبحانه شدّة الأخذ بحيث لا يمهلهم إلى أن لا يتمكّنوا من الوصيّة ، والتوصية بالقول والقول يوجد أسرع ممّا يوجد الفعل كأنّه قال سبحانه : لايستطيعون كلمةً فكيف فعلاً يحتاج إليه زمان معتدّ به من أداء الواجبات وردّ المظالم ؟

ولفظ التوصية ذكر في الآية لبيان أنّه لاقدرة له على أهمّ الاُمور فإنّ وقت الموت

---

(١) الانعام : ١٣٦ .

الحاجة إلى الوصيّة أقدم من كلّ الأُمور والتنكير في التوصية للتعمّم ولأنّ التوصية قد يحصل بالإشارة فالعاجز عنها عاجز عن غيرها والحاصل أنّ الساعة إذا أخذتهم بغتة لم يقدروا على الإيصاء بشيء ولا يقدرون إلى الرجوع إلى أهليهم.

ثمّ بيّن سبحانه مابعد الصيحة فقال:

ونفخ في الصور فاذاهم من الاجداث الى ربهم ينسلون (٥١) قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن و صدق المرسلون (٥٢) انكانت الاصيحة واحدة فاذاهم جميع لدينامحضرون(٥٣) فاليوم لاتظلم نفس شيئاً ولا تجزون الا ماكنتم تعملون (٥٤) ان اصحاب الجنة اليوم فيشغل فاكهون (٥٥) هم و ازواجهم في ظلال على الارائك متكئون (٥٦) لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون (٥٧) سلام قولا من رب رحيم (٥٨) و امتازوا اليوم أيها المجرمون (٥٩) ألم أعهد اليكم يابني آدم ان لا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين (٦٠).

أخبر الله عن النفخة الثانية وما يلقونه فيها إذا بُعثوا بعد الموت فقال:

[و نفخ فيالصور] فإن قيل: إنّ في هذا الموضع يقول: [فإذاهم من الأجداث إلى ربّهم ينسلون] وفي موضع آخر «ثمّ نفخ فيه أُخرى فإذاهم قيام ينظرون [1]» والقيام غير النسلان وقوله: في الموضعين « إذاهم » يقتضي أنيكونا معاً فالجواب أنّ القيام لاينافي المشي السريع ولا ينافي النظر والماشي قائم أو أنّ المواضع كثيرة أو أنّ لسرعة الأُمور كان الكلّ في زمان واحد كقول امرىء القيس: «مكرّ مفرّ مقبل مدبر معاً ».

وبالجملة فصارت النفختان مؤثّرتين في أمرين متضادّين الإحياء والإماتة والصوت الهائل يزلزل الأجسام فعند الحياة لمّا كانت الأجزاء مجتمعة فزلزلها فحصل فيها تفريق وأمّا حالة الموت كانت الأجزاء متفرّقة فزلزلها فحصل فيها اجتماع فعند

(١) الزمر: ٦٨.

الاجتماع تتفرّق وعند الافتراق تجتمع .

فائدة : إعلم أنّ « إذا » الّتي للمفاجاة هي «إذا » الّتي للظرف لكنّ الشيء قد يكون ظرفاً للشيء معلوماً كونه ظرفاً فعند الكلام يعلم كونه ظرفاً وعند المشاهدة لا يتجدّد علم كقول القائل : إذا طلعت الشمس أضاء الجوّ وإذا رأى إضاءة الجوّ عند الطلوع لم يتجدّد علمٌ زائد وأمّا إذا قلت : خرجت فإذا أسدٌ بالباب كان ذلك الوقت ظرف كون الأسد بالباب لكنّه لم يكن معلوماً فإذا رآه علمه فحصل العلم بكونه ظرفاً مفاجاةً عند الإحساس فقيل : « إذا » للمفاجاة .

مسألة فلو قيل : أين يكون ذلك الوقت أجداث وقد زلزلت الصيحة الجبال ؟ وذلك بأن يجمع الله الأجزاء كلّ واحدٍ في الموضع الّذي قبر فيه فيخرج من ذلك الموضع وهو جدثه .

وفي الآية إشعار بكمال القدرة حيث إنّه في زمان واحد يجتمعون و ينسلون إلى الموضع الّذي يحكم الله فيه ولا حكم لغيره سراعاً فلمّا رأوا أهوال القيامة [قالوا ياويلنا من بعثنا من مرقدنا] أي يقولون : « ياويلنا » و قرىء « ياويلتنا » أي كلّ واحدٍ منهم يقول : ياويل احضر فهذا أوان حضورك وقرىء من أهبّنا من هبّ من نومه إذا انتبه وإنّما يقولون : «من مرقدنا » مع أنّهم كانوا معذّبين في القبر فكيف قالوا « من مرقدنا » ؟

قيل : إنّ للكفّار هجعة بين النفختين و يرفع الله العذاب عنهم بين النفختين فيرقدون ويجدون فيها طعم النوم فإذا بعثوا بالنفخة الثانية وشاهدوا أهوال القيامة دعوا بالويل والثبور و قالوا ذلك أوأنّهم لكثرة ما يشاهدون من الأهوال يختلط عقولهم يظنّون أنّهم كانوا نياماً وقيل : إذا عاينوا جهنّم ومافيها من أنواع العذاب يصير عندهم عذاب القبر في جنبها مثل النوم فيقولون ذلك .

وقرىء « من بعثنا » بمن الجارّة والمصدر . و«المرقد » إمّا مصدرٌ أي رقادنا أواسم مكان أُريد به الجنس أي المراقد والقبور .

ثمّ يقولون : [هذا ماوعد الرحمن وصدق المرسلون] فيما أخبرونا عن هذا المقام وهذا البعث قال قتادة : أوّل الآية من قول الكافرين وآخرها للمسلمين : قال الكافرون :

« يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا » وقال المسلمون : «هذاماوعدالرحمن وصدق المرسلون » .

ثمّ أخبر سبحانه عن سرعة بعثهم فقال : [إن كانت إلّا صيحة واحدة] أي لم تكن المدّة والنفخة إلّا مدّة صيحة واحدة [فإذاهم جميع لدينا محضرون] أي فإذاً الأوّلون والآخرون مجموعون في عرصات القيامة محصورون في موقف الحساب وقوله : «محضرون» يدلّ على أنّ كونهم ينسلون إجباريّ لااختياريّ .

ثمّ بيّن سبحانه مايكون في ذلك اليوم بقوله : [فاليوم لاتظلم نفس شيئاً ولا تجزون إلّا ما كنتم تعملون] فقوله : « لا تظلم نفس » ليأمن المؤمن « ولا تجزون إلّا ما كنتم تعملون » لييأس الكافر والمعنى أنّه لاينقص من لهحقّ شيئاً من حقّه من الثواب والعوض بل الاُمور جارية على مقتضى العدل .

ثمّ ذكر سبحانه حال أوليائه فقال : [إنّ أصحاب الجنّة اليوم في شغل فاكهون] شغلهم النعيم عن أهوال القيامة وغمرهم سرورهم عمّافيه أهل النار من العذاب وأنّ أهل العذاب أقاربهم قال ابن عبّاس: شغلوا بافتضاض العذارى و هو المرويّ عن الصادق عليه السلام قال : و حواجبهنّ كالأهلّة و أشفار أعينهنّ كقوادم النسور [١] و قيل : باستماع الألحان مشغولون .

و قيل : شغلهم في الجنّة سبعة أنواع من الثواب لسبعة أعضاء فثواب الرجل بقوله : « اُدخلوها بسلام آمنين [٢] » وثواب اليد « يتنازعون فيها كأساً لا لغوٌ فيها [٣] » وثواب الفرج «وحور عين [٤] » وثواب البطن « كلوا واشربوا هنيئاً » الآية ، وثواب الاُذن « لايسمعون فيها لغواً [٤] » يسمعون أصوات المطربة وثواب العين «وتلذّ الأعين [٥] » فاكهون فرحون والفكه الطيّب النفس الضحوك فظهور البشر في الوجه

(١) القوادم : الريشات التى فى مقدم الجناح وهى كبارها والنسور جمع نسر : الطائر المعروف .

(٢) الحجر : ٤٦ .

(٣) الطور : ٢٣ ـ ١٩ .

(٤) ـ الواقعة : ٢٢ ـ ٦٢ .

(٥) الزخرف : ٨١ .

والجبهة يقال : رجل فكه وفاكه ولم يسمع لهذا فعل في الثلاثي أومأخوذ من الفكاهة فهو كناية عن الأحاديث الطيبة وقيل : «فاكهون » أي ذوو فكاهة كما يقال : لاحم وشاحم أي ذولحم وشحم .

قوله : [هم وأزواجهم في ظلال] هم و حلائلهم في الدنيا ممن وافقهم على إيمانهم في أستارهم من الظلال التي لا حر فيها و لا برد وقيل : المراد من الأزواج اللاتي زوجهم الله من الحور العين في ظلال أشجار الجنة أي في ظلال تسترهم من نظر العيون إليهم [على الأرائك] و هي السرر و عليها الحجال و قيل : هي الوسائد [متكئون] عليها و جالسون جلوس الملوك إذ ليس عليهم من الأعمال شيء و كلما اتكيء عليه فهو أريكة و الجمع « أرائك » .

[لهم فيها] أي في الجنة [فاكهة و لهم ما يدعون] أي ما يتمنون و يشتهون و «ما» موصولة أو موصوفة و يدعون يفتعلون من الدعاء عبر بها عن مدعو عظيم الشأن أي كل ما يدعونه حاصل لهم قال أبو عبيدة : يقول العرب : ادع علي ما شئت أي تمن علي .

ثم بين سبحانه ما يشتهون فقال : [سلام] أي لهم سلام و منى أهل الجنة أن يسلم الله عليهم [قولاً من رب رحيم] و سلام بدل من « ما يدعون » كأنه لما قال : « لهم ما يدعون » بينه ببدله فقال : «لهم سلام» فيكون في المعنى « سلام » كالمبتدء الذي خبره «لهم» كما يقال : لزيد مال أو سلام خبر لمبتدء محذوف و المعنى ما يدعونه لهم وهو سلام يقال لهم .

[قولاً] كائناً من واسطته تعالى و من جهة لطفه و إكرامه إما بواسطة الملك أو بدونها مبالغةً في تكريمهم قال ابن عباس : و الملائكة يدخلون عليهم بالتحية من رب رحيم .

ثم ذكر سبحانه أهل النار فقال : [و امتازوا اليوم أيها المجرمون] أي يقال لهم : انفصلوا و اعتزلوا معاشر العصاة و الكفرة من جملة المؤمنين و كونوا على حدة قيل : إن لكل كافر بيتاً في النار يدخل فيه فيردم و يسد بابه لا يرى و لا يرى .

ثمّ خصّهم بالتوبيخ فقال : [ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان] ألم أنهاكم على ألسنة الأنبياء و الرُسل في الكتب المنزله أن لا تطيعوا الشيطان فيما يأمركم به و قلت لكم : [إنّه عدوّ مبين] ظاهر العداوة عليكم .

و في هذه الآية دلالة على أنّه سبحانه لا يخلق عبادة الشيطان لأنّه حذّر عباده عن عبادته و وبّخ عليه و لايجور أن يوبّخ ما خلقه .

قوله تعالى : و ان اعبدوني هذا صراط مستقيم (٦١) و لقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون (٦٢) هذه جهنم التى كنتم توعدون (٦٣) اصلوها اليوم بما كنتم تكفرون (٦٤) اليوم نختم على افواههم و تكلمنا ايديهم و تشهد ارجلهم بما كانوا يكسبون (٦٥) .

ثمّ بيّن سبحانه ما يقوله للكفّار يوم القيامة [و أن اعبدوني] فوصف عبادته بأنّه طريق مستقيم من حيث كان طريقاً إلى الجنّة و ذكرعداوة الشيطان لبني آدمفقال : [و لقد أضلّ منكم جبلّاً كثيراً] أي أضلّ الشيطان خلقاً كثيراً منكم بأن دعاهم و أغواهم و حملهم على الضلال [أفلم تكونوا تعقلون] أنّه يغويكم و يصدّكم عن الحقّ فتنبّهون وصورة الكلام صورة الاستفهام و معناه الإنكار عليهم والتبكيت لهم .

و في هذا بطلان مذهبأهل الجبر في أنّ الله لم يرد إضلالهم لأنّه سبحانه أنكر إضلال الشيطان إيّاهم و وبّخهم على متابعتهم إيّاه .

و ههنا بيان ، هو أنّه إن دعتك نفسك إلى فعل فانظر أهو مأذون فيه أو ممنوع عنه و النظر في هذا الأمر لابدّ و أن يكون من جهة الشرع و من بيان الشارع فإن لم تكن مأذوناً فيه فنفسك هي الشيطان أو معها الشيطان يدعوك فإن اتّبعته فقد عبدته ثمّ إنّ الشيطان يأمر أوّلاً بمخالفة الله ظاهراً فمن أطاعه فقد عبده و من لم يطعه فلا يرجععنه بل يقول له : اعبد الله كي تكون عزيزاً عند الناس و ليرتفع شأنك عندهم و ينتفع بك إخوانك و أعوانك و ذلك لأنّ غرضه اللعين أن يفسد عملك و ينتزعه عن القربة و يدخله في الشرك و يجعله هباءً منثورا و أنت بزعمك أنّك عبدت الله فهذا نوع من عبادة الشيطان و إطاعته و نوع آخر أن يحملك على المعاصي وذلك أيضاً على تفاوت

فمن المعاصي ما يقع و العامل فيه موافق جنانه و لسانه و أركانه و منها ما يقع و الجنان و اللسان مخالف للجوارح و يرتكب جريمة كارهاً بقلبه لما يقترف من ذنبه مستغفراً لربّه يعترف بسوء ما يقترف فهو أيضاً عبادة الشيطان بالأعضاء الظاهرة و متى كان العاصي منزجراً مستكرهاً بالقلب فهو مصداق الحديث النبوي حيث قال قال الله : لو لم تذنبوا لخلقت أقواماً يذنبون و يستغفرون فأغفر لهم .

إذا عرفت هذا فالطاعة الّتي تقع بالأعضاء الظاهرة للشيطان إذا كانت البواطن طاهرة فمكفّرة بالأسقام و الآلام كما يرد في الأخبار ومن ذلك قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : الحمّى من فيح جهنّم وقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : السيف محّاء للذنوب أي لمثل هذه الذنوب ويدلّ عليه ما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم في الحدود أنّها كفّارات و ما يكون بالقلوب فلاخلاص عنه إلّا بالتوبة و الندم و إقبال القلب على الربّ فالقلب أمير و اللسان خاصّته والأعضاء خدمه فما يصدر من القلب فهو العظيم من الذنب لأنّه أعرض عن الله و أقبل على محبّة غير الله فهو المستعقب للعقاب الأليم و العمدة في سبب عداوة إبليس لآدم تكرمة آدم فحسده و شقاوة إبليس بسبب ترك السجود لآدم فإذا كان الشيطان للإنسان عدوّاً مبيناً فما بال الانسان يميل إلى مراضيه من الشراب و الزنا و يكره مساخطه من العبادة و المجاهدة و السبب أنّ اللعين يستولي على الانسان بمعونة من نفس الانسان و ترك الانسان الاستعانة بالله فيستعين الشيطان بشهوة الّتي خلقها تعالى فيه لجواز التكليف و لمصالح بقائه و بقاء نوعه و الجاهل يجعلها سبباً لفساد حاله وتتقوّى الشيطان بالدعوة بها إلى مسالك المهالك كما أنّ اللعين يستعين بغضبه الّذي خلقه الله فيه لدفع المفاسد عنه فيجعله سبباً لوباله و فساد أحواله وميل الانسان إلى المعاصي كميل المريض إلى المضارّ فترى المحموم يريد الماء البارد و هو يزيد في مرضه و صحيح المزاج و العاقل لا يشتهي إلّا ما ينفعه فالدنيا كالهواء الوبيء لا يستغني الانسان عن الاستنشاق و هو المفسد لمزاجه و لا طريق له في الاستخلاص إلّا الاستصلاح بالهواء الطيّب و الروايح العطرة و الرشّ بالخلّ والما ورد فكذلك طريقة الإصلاح في الدنيا ترك استنشاق الهواء الوبيء الّذي هو الشيطان ، وترك هوى النفس الّذي يعين عدوّ الله و تحريف الهوى بالتذكّر و الذكر الطيّب الّذي هو بمنزلة الخلّ و العطر لفساد

الهواء ، فإذا صحّ مزاجه فحينئذ لا يميل إلّا إلى الحقّ ويحصل له مع العبادة اُلفة فهنالك يعترف الشيطان بأنّه ليس له عليه سلطان و لا يكون من حزب الضالّين بل من المفلحين .

مسألة : في الجبلّ ستّة لغات : كسر الجيم و الباء مع تشديد اللام و ضمّهما مع التشديد و كسرهما مع التخفيف و ضمّهما مع التخفيف وتسكين الباء و تخفيف اللام مع ضمّ الجيم و مع كسره وفي معنى الجبلّ الجيم و الباء واللام لايخلو عن معنى الاجتماع و الجبلّ فيه اجتماع الأجسام الكثيرة فالمراد من الجبلّة الجمع العظيم انتهى .

قوله تعالى : [هذه جهنّم الّتي كنتم توعدون] بيّن سبحانه مآل أهل الضلال يخاطبون بعد التوبيخ ويقال لهم : « هذه جهنّم الّتي كنتم توعدون » و ذلك عند إشرافهم على شفير جهنّم أي كنتم توعدونها على ألسنة الرسل بمقابلة عبادة الشيطان .

[إصلوها اليوم] أمر إهانة و تنكيل كقوله : « ذق إنّك أنت العزيز الكريم(١) » أي ادخلوها و قاسوا فنون عذابها و أصل الصلاء اللزوم ومنه المصلّي الّذي يجيء في أثر السابق للزومه أثره و قيل : معناه : صيروا اصلاءها أي وقودها بما كنتم تكفرون جزاءً على كفركم بالله و تكذيبكم أنبياء الله .

[اليوم نختم على أفواههم] و المراد الختم حقيقة يوضع على أفواه الكفّار يوم القيامة فلايقدرون على النطق [وتكلّمنا أيديهم وتشهد أرجلهم] أي تستنطق الأعضاء الّتي لاتنطق في الدنيا لتشهد عليهم .

واختلف في كيفيّة الشهادة من الجوارح على وجوه : أحد ها أنّ الله يجعلها خلقة يمكن أن تتكلّم وتعترف بذنوبها . وثانيها أنّ الله يجعل فيها كلاماً و إنّما نسب الكلام إليها لأنّه لايظهر إلّا من جهتها . وثالثها أنّ الله يجعل فيها آيات دالّة على أنّ أصحابها عصوا المعاصي فسمّي ذلك شهادةً منها كما يقال : عيناك تشهدان كذا .

قوله : [بما كانوا يكسبون] أي تنطق الأعضاء بما كسبوا في الدنيا من الذنوب فجعل الله الشاهد عليهم منهم .

قوله تعالى : و لو نشاء لطمسنا على اعينهم فاستبقوا الصراط فأنى

---

(١) الدخان : ٤٩ .

يبصرون (٦٦) ولو نشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضياً ولا يرجعون (٦٧) و من نعمره ننكسه في الخلق أفلا يعقلون (٦٨) و ما علمناه الشعروما ينبغي له ان هوالاذكروقرآن مبين (٦٨) لينذر من كان حياويحق القول على الكافرين (٧٠).

أخبرسبحانه عن قدرته على إهلاكهم وبيان استحقاق هؤلاء الكفّارالّذين جحدوا وحدانيّته فقال :

[لونشاء] عقوبتهم بماذكرمن الطمس والمسخ . والطمس محوالشيء حتّى يذهب أثره ولايدرك منه شيء ولو أردنا أن نفعل بهم ما يوجب جناياتهم المستدعية لها لطمسنا على أعينهم [فاستبقوا الصراط] يعني فأرادوا أن يستبقوا إلى الطريق الّذي اعتادوا سلوكه [فأنّى يبصرون] الطريق و كيف يتوجّهون حينئذ جهة السلوك و كيف يتردّدون إلى منازلهم لأنّه إذا طمست أعينهم لم يهتدوا إليها و قيل : المعنى « ولونشاء لطمسنا » أي لأعميناهم عن الهدى « فاستبقوا الصراط »أي فطلبوا طريق الحقّ وقدعموا عنه فكيف يبصرون ؟ عن ابن عبّاس .

[ولونشاء لمسخناهم على مكانتهم فما استطاعوا مضيّاًولا يرجعون] كأنّ قائلاً يقول: الأعمى قد يهتدي بالأمارات العقليّة أوالحسّيّة غيرالحسّ البصركالأصوات واللمس فقال: و لو نشاء مسخناهم وسلبنا قوّتهم و غيّرنا صورهم و عذّبناهم بنوع آخر من العذاب فأقعدناهم في منازلهم ممسوخين قردة وخنازير كما فعلنا بغيرهم أو جعلناهم حجارة في منازلهم ليس فيهم أرواحهم فلم يقدروا على ذهاب ولامجيء ولارجوعاً إلى الخلقة الأولى بعد المسخ وهذا تهديد من الله لهم و المكان و المكانة واحد .

ثمّ قال سبحانه : [ومن نعمّره ننكّسه في الخلق]أي من نطوّل عمره نصيّره بعدالقوّة إلى الضعف و بعد زيادة الجسم إلى النقصان و بعد الجدة والطراوة إلى البلى والخلوقة فكأنّه نكس خلقه وردّه إلى حال الهرم الّتي تشبه حال الصبى في ضعف القوّة وغروب العلم.

[أفلايعقلون] و يتدبّرون في أنّ الله يقدر على الاعادة كما قدر على ذلك و قرىء « أفلا يعقلون » بصيغة الغايب .

ثمّ أخبر عن نبيّه و وصفه توكيداً لقوله : « إنّك لمن المرسلين» فقال : [وما علّمناه الشعر] أي ما علّمناه صناعة الشعر وإنشائه [وما ينبغي له] أن يقول الشعر عن عند نفسه وما يتسهّل له الشعر وماكان صلى الله عليه وآله وسلم يتزيّن له بيت شعر حتّى أنّه صلى الله عليه وآله وسلم تمثّل بيت شعر جرى على لسانه : « كفى الإسلام والشيب للمرء ناهياً » فقال بعض الأصحاب : يا رسول الله إنّما قال الشاعر: « كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً» أشهد أنّك لرسول الله و ما علّمك الشعر وما ينبغي لك وعن عائشة أنّها قالت : كان رسول الله يتمثّل ببيت أخي بني قيس :

ستبدي لك الأيّام ما كنت جاهلاً * و يأتيك بالأخبار من لم تزوّد

فجعل صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «و تأتيك من لم تزوّد بالأخبار» فيقول أبو بكر: ليس هكذا يا رسول الله فيقول : إنّي لست بشاعر وما ينبغي لي فأمّا قوله : « أنا النبيّ لا كذب أنا بن عبد المطّلب» فقد قال قوم : إنّ هذا ليس بشعر وقال آخرون : إنّما هو اتّفاق منه وليس بقصد منه إلى قول الشعر.

وقيل : إنّ معنى الآية « و ما علّمناه الشعر » بتعليم القرآن و ما ينبغي للقرآن أن يكون شعراً فإنّ نظمه ليس بنظم الشعر على معنى أنّ القرآن ليس بشعر فإنّ الشعر كلام متكلّف موضوع منسوج على منوال الوزن والقافية مبنيّ على خيالات واهية ومثل هذا لا يصلح للنبيّ ولا يتأتّى له لو طلبه فرضاً كما جعلناه اُمّيّاً لا يهتدي للخطّ لتكون الحجّة أثبت والشبهة أدحض وقد صحّ أنّه كان يسمع الشعر ويحثّ عليه لكن شعر الحكمة وقال لحسّان بن ثابت : لا تزال يا حسّان مؤيّداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك .

[إن هو] أي ما الّذي أنزلناه عليه [إلّا ذكر وقرآن مبين] من عند ربّ العالمين ليس بشعر ولا رجز ولا خطبة والمراد بالذكر أنّه يتضمّن ذكر الحلال والحرام والدلالات وأخبار الاُمم الماضية للاعتبار فجمع سبحانه بينها لاختلاف فائدتها [لتنذر من كان حيّاً] أي من كان مؤمناً لأنّ الكافر كالميّت بل أقلّ من الميّت لأنّ الميّت و إن كان لا ينتفع ولا يتضرّر لكنّ الكافر لا ينتفع بدينه ويتضرّر به وقيل : المراد من الحيّ العاقل روي ذلك عن عليّ عليه السلام .

[ويحق القول على الكافرين] ويجب الوعيد والعذاب على الكافرين بكفرهم و كلمة « القول » كما قال تعالى : « ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة و الناس أجمعين [١] » وقوله : « حقت كلمة العذاب [٢] » لأنه قال : « و ما كنا معذبين حتى نبعث رسولا [٣] » فلما وجد منهم التكذيب جاء التعذيب .

ثم إنه أعاد دلائل الوحدانية فقال :

اولم يروا انا خلقنا لهم مما عملت ايدينا انعامافهم لهاما لكون (٧١) وذللناهالهم فمنها ركوبهم ومنها يأكلون (٧٢) ولهم فيها منافع ومشارب افلايشكرون (٧٣) واتخذوامن دون الله آلهةلعلهم ينصرون (٧٤) لايستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون فلايحزنك قولهم انا نعلم ما يسرون و ما يعلنون (٧٦) أولم يرالانسان انا خلقناه من نطفةفاذا هوخصيم مبين (٧٧) و ضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم (٧٨) قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم (٧٩) الذى جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا أنتم منه توقدون (٨٠) اوليس الذى خلق السموات والارض بقادرعلى أن يخلق مثلهم بلى وهوالخلاق العليم (٨١) انما امره اذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون (٨٢) فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون (٨٣) .

أي ألم يعلموا علماً يقينياً متآخم للمعاينة [أنا] لأجلهم [خلقنا مما] تولينا إحداثه بالذات من غير ولي وناصر وذكر «الأيدي» استعارة يفيد المبالغة في التفرد والاختصاص و « اليد » في اللغة تطلق على الجارحة والقوة والنعمة [أنعاماً] يعني الإبل والبقروالغنم [فهم لها مالكون] ولولم نخلقها لما ملكوها ولما انتفعوا بها وبألبانها و ركوب ظهورها و لحومها وقيل : المراد « هم لها » ضابطون لم نخلقها وحشية لايقدرون على ضبطها .

[وذللناها لهم] وسخرنا ها لتصرفهم حتى صارت منقادة غير نافرة [فمنها ركوبهم]

(١) الم السجدة : ١٣
(٢) الزمر : ٧١
(٣) اسرى : ١٥

على تقدير حذف المضاف أي ذو ركوبهم وذو الركوب هو المركوب ويجوز أن يكون المعنى: فمن منافعها ركوبهم وأمّا ركوبتهم فهي المركوبة كالحلوبة و الجروزة لما يحلب و يجرز [ومنها يأكلون] قسّم الأنعام وجعل منها ما يركب ومنها ما يذبح .

[و لهم فيها منافع و مشارب] فمن منافعها لبس أصوافها و أوبارها و أشعارها و أكل لحومها وركوب ظهورها [أفلا يشكرون] الله على هذه النعم .

ثمّ ذكر سبحانه جهلهم فقال : [واتّخذوا من دون الله آلهة لعلّهم ينصرون] يعبدون تلك الآلهة لكي ينصروهم ويدفعوا عنهم عذاب الله [لا يستطيعون نصرهم] يعني هذه الآلهة الّتي عبدوها لا يقدر على نصرهم والدفع عنهم [وهم لهم جند محضرون] أي الكفّار جندٌ للأصنام يغضبون لهم ويحضرونهم في الدنيا كالجند وهي لا تسوق إليهم خيراً ولا تدفع عنهم شرّاً وقيل : المعنى أنّ هذه الآلهة معهم في النار محضرون لأنّ كلّ حزب مع ما عبدته من الأوثان في النار كما قال سبحانه « إنّكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنّم »(١) .

[فلا يحزنك قولهم] في تكذيبك [إنّا نعلم ما يسرّون] في ضمائرهم [و ما يعلنون] بألسنتهم فنجازيهم على ذلك أي نعلم عقائدهم الفاسدة وما يعلنون من الأفعال القبيحة .

[أو لم ير الإنسان] ويعلم [أنّا خلقناه من نطفة] والتقدير ثمّ نقلناه من النطفة إلى العلقة ومن العلقة إلى المضغة ومن المضغة إلى العظم ومن العظم إلى أن جعلناه خلقاً سويّاً ثمّ جعلنا فيه الروح وأخرجناه من بطن اُمّه ونقلناه من حال إلى حال إلى أن كمل عقله وصار متكلّماً خصيماً جدليّاً وذلك قوله : [خصيم مبين]أي ذو بيان ونطق .

وإنّما ذكر « الخصيم » مكان الناطق لأنّه أعلى أحوال الناطق لأنّ الناطق مع نفسه لا يبيّن كلامه والمتكلّم مع غيره أظهر في النطق وأبين فمن قدر على جميع ذلك فكيف لا يقدر على الإعادة وهي أسهل من الإنشاء و الإبداع ولا يجوز أن يكون خلق الإنسان واقعاً بالطبيعة لأنّ الطبيعة ليست بقادرة و لا حسّاسة و في حكم الموات فكيف يصلح منها الفعل و لا يجوز أن يكون الوقوع بسبب الاتّفاق لأنّ المحدَث لابدّ له من محدث

---

(١) الانبياء : ٩٨ .

قادرقبل زمان الحدوث .

و في الآية دلالة على صحّة استعمال النظرفي الدين لأنّه سبحانه أقام الحجّة على قيام النشأة الثانية بوجود النشأة الأُولى وألزم من أقرّ بالأُولى أن يقرّ بالثانية.

ثمّ أكّد سبحانه هذا البيان بقوله : [وضرب لنامثلاً] أي ضرب المثل في إنكار البعث بالعظم البالي وفتّته بيده ويتعجّب ممّن يقول : إنّ الله يحييه [ونسي خلقه] أي وترك النظروالتدبّر في خلق نفسه إذ خلق من نطفة .

ثمّ بيّن سبحانه قول المنكر للحشر و المتمثّل [قال من يحيي العظام وهي رميم] أي البالية المتفتّتة واختلف في القائل لذلك فقيل : هو اُبيّ بن خلف وهوالمراد بالإنسان في الآية عن الصادق عليه السلام وقيل : هوالعاص بن وائل السهميّ وقيل : اُميّة بن خلف .

ثمّ ردّ سبحانه عليه بقوله : [قل] لهذا المنكر من الإعادة يا محمّد : [يحييها الّذي أنشأها أوّل مرّة] لأنّ من قدرعلى الاختراع فهوقادرعلى الإعادة [و هو بكلّ خلق عليم] من الابتداء والإعادة فكما خلقه ولم يكن كذلك شيئاً يعيده وإن لم يبق منه شيئاً مذكوراً .

ثمّ زاد في بيان القدرة وأخبرمن صنعه سبحانه بما هو عجيب الشأن فقال : [الّذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه تو قدون] والمراد أنّكم إذا تستبعدون الإعادة بسبب فناء وحياة سارية في الإنسان فلاتستبعدوا الإعادة لهذا السبب فإنّ النار في الشجرالأخضر الّذي يقطرمنه الماء أعجب وأغرب وأنتم تشاهدون حيث منه توقدون و جعل لكم من الشجرالرطب المطفيء للنارناراً محرقة يعني بذلك الشجرالمرخ والعفاروهما شجرتان يتّخذالأعراب نارها منها فمن قدرعلى أن يخرج من الشجر الّذي هو في غاية الرطوبة ناراً حارّة مع مضادّة النار للرطوبة ويخرج الضدّ من الضدّ فيقدرعلى إعادتكم قال الكلبيّ : كلّ شجرينقدح منه النارإلّا العنّاب لكنّ العرب استمجد المرخ والعفار لكثرةهذهالمادّة فيهما .

ثمّ ذكرسبحانه من خلقه ماهو أعظم من الإنسان وهو خلق السماوات و الأرض فقال : [أو ليس الّذي خلق السماوات والأرض بقادرعلى أن يخلق مثلهم] مع عظمهما و كثرة أجزائهما يقدرعلى إعادة البشر .

ثمّ أجاب فقال : [بلى] أي هو قادر على ذلك [وهو الخلاّق العليم] يخلق خلقاً بعد خلق العالم بجميع ما خلق .

وذكرقدرته على إيجاد الأشياء فقال : [إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون] فعبّرعن هذا المعنى بكلمة « كن » لأنّه أبلغ في القدرة وليس هناقول و إنّما المراد إخبار بحدوث مايريده تعالى وقيل : إنّما هوفي التحويلات نحوقوله : « كونوا قردة خاسئين »[١] « وكونوا حجارة أوحديداً »[٢] وما أشبه ذلك .

ولفظ الأمرعلى عشرأوجه : أحدها : الأمرلمن هودونك ، والثاني : الندب كقوله: « وكاتبوهم إن علمتم فيهم خيراً »[٣] ، وثالثها : الإباحة نحوقوله : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا »[٤] « وإذا حللتم فاصطادوا »[٥] والرابع : الدعاء نحو « ربّنا آتنا من لدنك رحمة »[٦] الخامس : الترفية كقوله :ارفق بنفسك ، السادس : الشفاعة نحوقولك : شفّعني فيه ، السابع : التحويل نحو« كونوا قردة » الثامن : التهديد نحو « اعملوا ماشئتم »[٧] التاسع : الاختراع والاحداث والوقوع نحوقوله : « كن فيكون » العاشر: التعجّب نحو « وأبصربهم وأسمع »[٨].

وبالجملة حاصل المعنى أنّه سبحانه إذا أراد فعل شيء بمنزلة ما يقول للشيء : « كن » فيكون في الحال كقول الشاعر:

فقالت له العينان سمعاً وطاعة * وحدّرتا كالدرّ لمّا يثقّب

(١) البقره : ٦٥ .

(٢) اسرى : ٥٠

(٣) النور : ٣٣

(٤) الجمعة :١٠

(٥) المائدة : ٣

(٦) الكهف : ١٠

(٧) حم السجده : ٤٠

(٨) مريم : ٨٣ .

وإنّما أخبر الشاعر عن سرعة دمعه دون أن يكون ذلك قولاً على الحقيقة .

قوله : [فسبحان الّذي بيده ملكوت كلّ شيء] أي تنزيهاً عن
نفي القدرة على الإعادة و غير ذلك ممّا لايليق بصفاته
الّذي بيده أي بقدرته ملك كلّ شيء [وإليه
ترجعون] يوم القيامة إلى
حيث لايملك الأمر و
النهي أحد سواه .

تمّت السورة بحمد الله

سورة والصافات

(مكية)

فضلها : قال اُبيّ بن كعب : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ومن قرأ سورة الصافّات اُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد كلّ جنّي وشيطان وتباعدت عنه مردة الشيطان و برأ من الشرك وشهد له حافظاه يوم القيامة إنّه كان مؤمناً بالمرسلين .

وروى الحسين بن أبي العلاء عن الصادق عليه السلام قال : من قرأ سورة الصافّات في كلّ يوم جمعة لم يزل محفوظاً من كلّ آفة مدفوعاً عنه كلّ بليّة في حياته الدنيا مرزوقاً في الدنيا بأوسع مايكون من الرزق ولم يصبه الله في ماله ولا في ولده ولا بدنه بسوء من شيطان رجيم ولا من جبّار عنيد و إن مات في يومه أو ليلته بعثه الله شهيداً و أماته شهيداً و أدخله الجنّة مع الشهداء في درجة من الجنّة .

التفسير : افتتح الله هذه السورة بمثل ما اختتم به سورة يس من ذكر التوحيد والبعث فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

والصافات صفاً (١) فالزاجرات زجرا (٢) فالتاليات ذكرا (٣) ان الهكم لواحد (٤) رب السموات و الارض و ما بينهما ورب المشارق (٥) انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب (٦) وحفظا من كل شيطان مارد (٧) لا يسمعون الى الملاء الاعلى ويقذفون من كل جانب (٨) دحورا ولهم عذاب واصب (٩) الا من خطف الخطفة فاتبعه شهاب ثاقب (١٠) .

قرىء [و الصافّات صفّاً] بإدغام التاء في الصاد و كذلك بإدغام التاء في الزاي في «الزاجرات» و كذلك بإدغام التاء في «التاليات» قالوا : إدغام هذه الحروف الثلاثة فيما يليها حسن لمقاربة الحرفين في الثلاثة .

و اعلم أنّ هذه الأشياء الثلاثة المقسم بها يحتمل أن يكون صفات للملائكة أي واقفين صفوفاً إمّا في السماوات للعبادة كما أخبر الله عنهم أنّهم قالوا : « و إنّا لنحن الصافّون(١) » و قيل : إنّهم يصفّون أجنحتهم في الهواء منتظرين لأمر الله أو أنّ لكلّ واحد منهم درجة و مرتبة معيّنة في الذات و الشرف وذلك يشبه الصفوف أوصفّ الغزاة المجاهدين في سبيل الله .

و أمّا قوله : [فالزاجرات زجراً] يقال : زجرت البعير إذا أحثته ليمضي وزجرت فلاناً عن سوء أي نهيته ففي وصف الملائكه بالزجر قيل : المراد الملائكة الّذين و كّلوا بالسحاب يزجرونها من موضع إلى موضع و قيل : المراد منه أنّ الملائكة لهم تأثيرات في قلوب بني آدم على سبيل الإلهام فيزجرونهم عن المعاصي زجراً أو يزجرون الشياطين عن التعرّض لبني آدم بالشرّ و الإيذاء و إلقاء الهداية في قلوب البشريّة في مقابلة إغواء الشياطين و إضلالهم للبشر فقوله : « فالزاجرات » إشارة إلى تأثير الجواهر الملكيّة في

---

(١) السورة : ١٦٩

تنوير الأرواح القدسيّة البشريّة كما قال سبحانه : «فالملقيات ذكراً » و ذلك إشارة إلى كيفيّة تأثيراتها في إزاله ما لا ينبغي عن الأرواح البشريّة و حاصل المعنى أنّ الله سبحانه يوصل مفهوم زجر الملائكة إلى قلوب العباد كما يوصل مفهوم إغواء الشيطان إلى قلوبهم ليصحّ التكليف . وقيل : المراد رفع المؤمنين أصواتهم عند قراءة القرآن لأنّ الزجرة الصيحة .

قوله تعالى : [فالتاليات ذكراً] اختلف فيها أيضاً أحدها أنّها الملائكة تقرء كتب الله تعالى والذكر الّذي ينزل على الموحى إليه أو الكُتب الّتي كتب الله لملائكته وفيه ذكر الحوادث فتزداد يقيناً بوجود المخبر على وقوع الخبر والثالث ذكر جماعة قرّاء القرآن من المؤمنين يتلونه في الصلاة وإنّما لم يقل : «تلواً» كما قال : « زجرا » لأنّ التالي قد يكون بمعنى التابع ومنه قوله : « و القمر إذا تلاها [1] » فلمّا كان اللفظ مشتركاً بيّنه بلفظ يزيل الابهام .

و كلّ هذه الأمور أقسام أقسم الله تعالى بها أنّه واحد ليس له شريك فقال في جواب الأقسام [إنّ إلهكم لواحد] واختلف في مثل هذه الأقسام فقيل : أقسام بالله كلّها على تقدير وربّ الصافّات وربّ الزاجرات وربّ التين وربّ الزيتون .

فإن قيل : ذكر القسم أمّا للمؤمن فهو مقرّ بالتوحيد وأمّا للكافر فهو منكرٌ والحلف لا يكون دليلاً فما الفائدة .

فالجواب أنّ القرآن نزل بلغة العرب وعندهم إثبات الأمر بالحلف واليمين طريقة مألوفة ولو أنّه ليس بدليل لكنّه سبحانه ما اقتصر على ذكر الدليل بالحلف بل أتى بالدليل اليقينيّ في كون الاله واحداً لأنّه عقّب اليمين بالدليل بقوله :

[ربّ السماوات والأرض وما بينهما] و النظر في انتظام العالم وخلقه دليلٌ يقينيّ فالقسم للتأكيد ولذلك قال سبحانه : « ربّ السماوات والأرض وما بينهما » أي خالقهما [و ربّ المشارق] وهي مشارق الشمس ومطالعها بعدد أيّام السنة ثلاثمائة وستّون مشرقاً والمغارب كذلك يطلع كلّ يوم من مشرق ويغرب في مغرب والشروق قبل الغروب

(١) الليل : ٢ .

ولذلك قدّم في الذكر .

و يحتمل أن يكون المراد من المشارق و المغارب مشارق الكواكب و مغاربها فإنّ لكلّ كوكب مشرقاً و مغرباً و ذكر المشارق يغني عن ذكر المغارب كقوله «سرابيل تقيكم الحرّ(١)» على أنّ الشروق أكثر نفعاً من الغروب .

[إنّا زيّنّا السماء الدنيا] الّتي هي أقرب السماوات إلينا وإنّما خصّها بالذكر لاختصاصها بالمشاهدة [بزينة الكواكب] قرىء «زينة» منوّنة « الكواكب » بالجرّ و هو ردّ معرفة على نكرة مثل « بالناصية ناصية » و الكواكب بدلٌ من الزينة مثل قولك : مررت بأبي عبدالله زيد و قرأ عاصم بالتنوين في الزينة و نصب الكواكب يريد زيّنّا الكواكب قال الزجّاج : يجوز أن تكون «الكواكب» في النصب بدلاً من قوله : «بزينة» لأنّ «بزينة» في موضع النصب و قرأ الباقون « بزينة الكواكب» بالجرّ على الإضافة من غير تنوين «الزينة» .

و الحاصل أنّه سبحانه بيّن أنّه زيّن سماء الدنيا لمنفعتين إحداهما للزينة و الثانية للحفظ من الشيطان المارد و بيان زينة السماء بالكواكب أي بنور الكواكب وضوئها و النور والضوء أحسن الصفات في الزينة ثمّ إنّ أشكالها متزيّنة و مختلفة كشكل الجوزاء و بنات نعش والثريّا وأمثالها و كيفيّة طلوعها و غروبها و إنّ الإنسان إذا نظر في الليلة الظلماء إلى سطح الفلك ورأى هذه الجواهر الزواهر مشرقة لامعة متلألئة على ذلك السطح الأزرق يرى أمراً عجيباً مزيّناً .

قوله : [و حفظاً من كلّ شيطان مارد] قال المبرّد : إذا ذكرت فعلاً ثمّ عطفت عليه مصدر فعل آخر نصبت المصدر لأنّه قد دلّ على فعله مثل قولك افعل و كرامة لأنّه لمّا قال : افعل علم أنّ الأسماء لاتعطف على الأفعال فالمعنى إفعل ذلك و أكرمك كرامة و كذلك قوله : « و حفظاً» أي حفظناها من كلّ شيطان خبيث متمرّد أن لايدنو منها فإنّهم كانوا يسترقّون السمع ويستمعون إلى كلام الملائكة و يلقون مايستمعون و يوسوسونها في قلوب الكهنة و يوهمونهم أنّهم يعرفون الغيب فمنعهم الله تعالى عن ذلك بهذه الشهب و يرميهم بها .

(١) النحل : ٨١ .

قوله تعالى : [لايسمّعون إلى الملأ الأعلى] أي لكيلا يتسمّعوا إلى الكتبة من الملائكة في السماء و المراد من «الملأ الأعلى» الملائكة لأنّهم أهل الملأ الأعلى .

[و يقذفون من كلّ جانب * دحوراً] أي يرمون بالشهب من كلّ جانب من جوانب السماء إذا أرادوا الصعود طردوا دفعاً لهم بالعنف [و لهم عذاب واصب] أي ولهم مع ذلك أيضاً عذاب دائم يوم القيامة لكفرهم وتمرّدهم .

[إلّا من خطف الخطفة] استثناء من الاستماع و التقدير لايسمّعون إلى الملائكة إلّا من وثب الوثبة إلى قريب من السماء فاختلس خلسة و استلب استلاباً بسرعة [فأتبعه شهاب ثاقب]فلحقه وأصابه نارمضيئة محرقة و«الثاقب»النيّر المضيء فان قيل : إنّ الجنّ من النارفكيف يحترقون ؟ نعم نارالقويّة تؤثّر في النار الضعيفة كالسراج ينطفىء بالنار القويّة(١).

قوله فاستفتهم أهم أشد خلقاام من خلقنا انا خلقناهم من طين لازب(١١) بل عجبت ويسخرون (١٢) و اذا ذكروا لا يذكرون (١٣) و اذا رأوا آية يستسخرون(١٤) و قالوا ان هذا الا سحر مبين (١٥) أءذا متنا و كنا ترابا و عظاما أئنا لمبعوثون (١٦) أو آباؤنا الاولون (١٧) قل نعم و انتم داخرون (١٨) فانما هى زجرة واحدة فاذا هم ينظرون (١٩) و قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين (٢٠) .

المعنى : في الآية استدلال على وقوع الحشر وإمكانه فقال : استفت يا محمّد واسأل من هؤلاء المنكرين [أهم أشدّ خلقاً أم من خلقنا] من خلق السماوات و الأرض والملائكة و ما بينهما و لا شكّ أنّهم يعترفون بأنّ خلق هذا القسم أشدّ من خلقهم فحينئذ بالحريّ أن يكون قادراً على إعادة الحياة في هذه الأجساد و لاشكّ أنّ خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الإنسان .

قوله : [إنّا خلقناهم من طين لازب] أي لاصق لازم أي إنّ هذه الأجسام قابلة للحياة إذ لولم تكن قابلة للحياة لما صارت حيّة في المرّة الأولى و لولا كونه تعالى قادراً

(١) كذا فى تفسير الامام ولكن النار القوى انما تطفىء بلهيبها لا بذاتها بل الجواب ان البشر من الطين فكيف يوجعه و يزجره المواد الطينية اذا ضرب بها مع انه قال عز و جل «فاتبعه شهاب ثاقب» ولم يقل يحرقه ويفنيه .

على إحيائهم لما حصلت الحياة في المرّة الاُولى و لاشكّ أنّ القابليّة باقية و أنّ قادريّته تعالى باقية لأنّ هذه القابليّة و القادريّة من الصفات الذاتيّة فامتنع زوالها .

و قيل : المعنى : اسألهم يا محمّد صلّى الله عليك أهم أحكم صنعاً و أشدّ قوّة أم من خلقنا قبلهم من الاُمم الماضية و القرون السالفة و المراد أنّكم لستم بأحكم خلقاً من غيركم من الاُمم وقد أهلكنا هم بالعذاب فإن قالوا : نحن أشدّ قوّة فأعلمهم أنّ الله خلق أصلهم من طين لاصق لازم و أنّ هؤلاء من نسله وذرّيّته فكأنّهم خلقوا منه .

[بل عجبت] يا محمّد من هذه الخلائق العظيمة و إنكارهم للعبث [و] هم [يسخرون] من تعجّبك و تقريرك للبعث و قرئ بضمّ التاء على تقدير قل يا محمّد : بل عجبت أو أنّ العجب نسبه إلى ذاته تعالى على معنى الاستعظام اللازم للعجب أي ينبغي أن يقع العجب فرضاً و العجب من الله خلاف عجب الآدميّين كما قال: « ويمكرون ويمكر الله(١) » وقال: « سخر الله منهم(٢) » وقال تعالى : « وهو خادعهم(٣) » و المكر والخداع والسخريّة من الله بخلاف هذه الأحوال من العباد و قد دلّ القرآن و الخبر على جواز إضافة العجب إلى الله أمّا القرآن فقوله : «فإن تعجب فعجب قولهم(٤) » و المعنى و إن تعجب يا محمّد من قولهم فهو أيضاً عجب عندي و أمّا الخبر فقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : عجب ربّكم من شابّ ليس له صبوة و عجب ربّكم من ذلّكم و قنوطكم و أنكر شريح فقال : إنّ الله لا يعجب إنّما يعجب من لا يعلم قال الأعمش : فذكرت إنكار الشريح عند إبراهيم الخوّاص فقال : إنّ شريحاً معجب برأيه إنّ عبد الله قرأ بضمّ التاء و هو أعلم من شريح .

قوله : [وإذا ذكّروا لايذكرون] و لمّا بيّن سبحانه تباعد الكفّار عن حالة النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم غاية التباعد بأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم يتعجّب من إنكارهم المعاد مع هذه الأدلّة وهم يسخرون منه في إصراره على إثبات المعاد حتّى أنّهم إذا رأوا آية من آيات الله ومعجزة مثل انشقاق القمر و غيرها أوخوّفوا بالله و وعظوا بالقرآن لا يتذكّرون و لا يقبلون

(١) الانفال : ٣٠ .
(٢) التوبة : ٨٠ .
(٣) النساء : ١٤١ .
(٤) الرعد : ٥ .

ويستسخرون و يستهزؤون و يحملونه على السحر .

[و قالوا إن هذا إلّا سحرٌ مبين] و قالوا : لتلك الآية: ما هذا إلّا سحرٌ وتمويه [أئذا متنا و كنّا تراباً و عظاماً ءإنّا لمبعوثون] بعدذلك و كيف نبعث بعد ماصرنا تراباً .

[أوآباؤنا الأوّلون] يبعثون الّذين اتّصفوا بصفة الترابيّة و العظاميّة و المراد منهم الإنكار من البعث « أو آباؤنا » مبتدء وخبره محذوف تقديره مبعوثون أي ليس الأمر كذلك هذا إذا كان الواو ساكنة و من فتح الواو جعلها واو العطف دخل عليها همزة الاستفهام كقوله : «أو أمن أهل القرى» .

ثمّ قال لنبيّه : [قل] لهم [نعم] تبعثون و أنتم صاغرون ذليلون أشدّ الذلّة .

ثمّ ذكر أنّ بعثهم بزجرة و صيحة واحدة فقال : [فإنّما هي] أي قصّة البعث صيحة [واحدة] من إسرافيل و الزجرة الصرفة عن الشيء بالمخافة فكأنّهم زجروا عن الحال الّتي هم فيها إلى المحشر [فإذاهم ينظرون] إلى الأمر الّذي كذّبوا به أو المعنى أحياء ينتظرون ما ينزل بهم من عذاب الله .

[و قالوا يا ويلنا هذا يوم الدين] فيعترفون بالعصيان و يقولون : « يا ويلنا » من العذاب وهو كلمة يقولها القائل عند الوقوع في الهلكة كقوله « ياحسرتنا» ويقولون : هذا يوم الجزاء .

قوله : هذا يوم الفصل الذى كنتم به تكذبون (٢١) احشروا الذين ظلموا وازواجهم و ماكانوا يعبدون (٢٢) من دون الله فاهدوهم الى صراط الجحيم (٢٣) وقفوهم انهم مسئولون (٢٤) مالكم لا تناصرون (٢٥) بل هم اليوم مستسلمون (٢٦) و اقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٢٧) قالوا انكم تاتوننا عن اليمين (٢٨) قالوا بل لم تكونوا مؤمنين (٢٩) وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوماً طاغين (٣٠) .

قوله تعالى : [هذا يوم الفصل] قيل : من بقيّة قول الكفّار يقولون بعضهم لبعض بعد قولهم : « هذا يوم الدين » وقيل : تمّ كلام الكفّار بعد قولهم : « هذا يوم الدين » و قوله : « هذا يوم الفصل » من كلام الملائكة لهم و هو أليق بالعبارة لأنّ قوله : «احشروا الّذين ظلموا» كلام غير الكفّار و سوق على قوله : « هذا يوم الفصل » .

قوله تعالى : [احشروا الّذين ظلموا و أزواجهم] فحكى سبحانه ما يأمر الملائكة به بأن يأمرهم « احشروا الّذين ظلموا » أنفسهم بارتكاب المعاصي أي اجمعوهم من كلّ جهة و قيل : ظلموا أنفسهم بمخالفتهم أمر الله و بتكذيبهم الرسل و قيل : ظلموا الناس و أزواجهم أي و أشباههم و الزوج بمعنى الشبه و الشكل نحو قوله : « و كنتم أزواجاً ثلاثة » أي أشباهاً و أشكالا ثلاثة فيكون المعنى إنّ صاحب الزنا يحشر مع أصحاب الزنا و صاحب الخمر مع أصحاب الخمر و كذلك اليهوديّ مع اليهوديّ و قيل : المراد وأشياعهم من الكفّار و قيل : المراد و أزواجهم المشركات فكأنّه سبحانه قال : احشروا المشركين والمشركات .

قوله : [و ما كانوا يعبدون من دون الله] من الأصنام زيادةً في تخسيرهم وتخجيلهم [فاهدوهم إلى صراط الجحيم] أي خذوهم إلى ذلك الطريق و دلّوهم عليه . فإن قيل : ما معنى « احشروا » مع أنّهم قد حشروا و حضروا من قبل في الموقف لأنّهم قالوا : «هذا يوم الدين» فالمراد احشروهم واجمعوهم إلى دار الجزاء وهي جهنّم ولذلك قال : «فاهدوهم إلى صراط الجحيم» .

فلو قيل : كيف يصحّ ذلك وقد قال : بعده « وقفوهم إنّهم مسئولون» و معلوم أنّ حشرهم إلى الجحيم إنّما يكون بعد المسألة ؟

فالجواب أنّه ليس في العطف بحرف الواو ترتيب .

و لعلّ المراد من الظالم المطلق في الآية مصروف إلى الكفّار و يؤكّد هذا قوله تعالى : « و الكافرون هم الظالمون» ويمكن بل الأولى أن يكون المراد « بالّذين ظلموا» الرؤساء لأنّك لو جعلت « الّذين ظلموا » عامّاً في كلّ من أشرك لم يكن للأزواج معنى و قيل : في معنى « الأزواج » القرناء من الشياطين و المراد ما كانوا يعبدون من دون الله من الأوثان و الأصنام و نظيره « فاتّقوا النار الّتي وقودها الناس والحجارة [١] » .

فإن قيل : إنّ تلك الأحجار جمادات فما الفائدة في حشرها إلى جهنّم ؟ أجاب القاضي بانّه ورد الخبر بأنّها تعادوتحيا لتحصيل المبالغة في توبيخ الكفّار و تخجيلهم

---

(١) البقرة : ٢٤ .

وهذا القول بعيد لأنّه لم يصدر عنها ذنب فكيف تعذيبها و لكن يبقون على الجماديّة ولكن للتخجيل يحشرون مع عابديهم .

قوله : [وقفوهم إنّهم مسؤولون] أي إذا انتهوا إلى الصراط قيل للملائكة : «قفوهم إنّهم مسؤولون» عن أعمالهم ويسألهم الخزنة «ألم يأتكم رسل منكم بالبيّنات قالوا بلى ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين »[1] .

و قيل لهم على سبيل التوبيخ : [مالكم لا تناصرون] أي لا ينصر بعضكم بعضاً كما كنتم في الدنيا و ذلك أنّ أبا جهل كان يقول يوم بدر : نحن جميع منتصر فقيل لهم يوم القيامة: مالكم غير متناصرين و ما لشركائكم أيّها الكفّار لا يمنعونكم من العذاب .

[بل هم اليوم مستسلمون] يقال : استسلم للشيء إذا انقاد له و خضع له أي صاروا منقادين لا حيلة لهم يتخاصمون لهم في دفع تلك المضارّ لا العابد ولا المعبود .

[فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون] أي الرؤساء و الأتباع يسأل بعضهم بعضاً و هذا التساؤل عبارة عن التخاصم يقولون : غررتمونا و يقول أُولئك : لمَ قبلتم منّا .

[قالوا إنّكم كنتم تأتوننا عن اليمين] فشرح سبحانه ذلك التساؤل فيقول الكفّار لغواتهم: « إنّكم كنتم تأتوننا » من جهة النصيحة و اليمن و البركة و قيل : معناه كنتم تأتوننا من قِبل القوّة فتخدعونا بأقوى الوجوه أو المراد من «اليمين» الّدين و الحقّ أي تنبّئون لنا ما نضلّ به و على المعنى الأوّل لا استعارة اليمين للأعمال الخيريّة لأنّ مباشرة الأعمال الخيريّة غالباً باليمين مثل مصافحة الأخيار و الأكل و ما على العكس منه يباشرونه باليد اليسرى و يتمنون بالجانب الأيمن و يسمّونه بالبارح أو المراد بأنّ أئمّة الكفّار كانوا يحلفون للأتباع : أنّ ما يدعونهم إليه هو الحقّ فوثقوا بأيمانهم و تمسلكوا بعهودهم أي آتيتمونا من ناحية المواثيق و الأيمان الّتي قدّمتموها لنا .

فأجاب الرؤساء لهم [قالوا بل لم تكونوا مؤمنين] مصدّقين بالله و موصوفين بالإيمان حتّى يقال : إنّا أزلناكم عنه .

ثمّ قالوا : [و ما كان لنا عليكم من سلطان] أي ما كان لنا قدرة عليكم حتّى

---

(١) الزمر : ٨١ .

نقهر كم [بل كنتم قوماً طاغين] ضالّين غالين في معصية الله وباغين و متجاوزين إلى أفحش الظلم وأعظم المعاصي .

قوله تعالى : فحق علينا قول ربنا انا لذائقون (٣١) فاغويناكم انا كنا غاوين (٣٢) فانهم في العذاب مشتركون (٣٣) انا كذلك نفعل بالمجرمين (٣٤) انهم كانوا اذا قيل لهم لااله الا الله يستكبرون (٣٥) و يقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون (٣٦) بل جاء بالحق و صدق المرسلين (٣٧) انكم لذائقون العذاب الاليم (٣٨) و ما تجزون الا ماكنتم تعملون (٣٩) الا عباد الله المخلصين (٤٠) .

هذا تمام الحكاية عن قول الكفّار الّذين قالوا : « و ما كان لنا عليكم من سلطان» ثمّ قالوا : [فحقّ علينا قول ربّنا] إشارة إلى قول الله لإبليس « لأملأنّ جهنّم منك و ممّن تبعك منهم أجمعين [١] » أي إذا لا نؤمن و نموت على الكفر فقد أوجب العذاب الّذي نسحقّه على الكفر و الإغواء [إنّا لذائقون] العذاب ندركه كما ندرك الطعام بالذوق .

ثمّ يعترفون المغوين بأن [أغويناكم] عن الحقّ و أضللناكم و دعوناكم إلى الغيّ [إنّا كنّا غاوين] و داخلين في الضلالة و خيّبناكم وخيّبنا [فإنّهم] يومئذ في ذلك اليوم [في العذاب مشتركون] واشتراكهم و اجتماعهم [إنّا كذلك نفعل بالمجرمين] الّذين جعلوا لله شركاء وقيل : معنى الآية إنّما مثل ما فعلنا بهؤلاء نفعل بجميع المجرمين .

ثمّ بيّن سبحانه أنّه إنّما فعل ذلك بهم من أجل [أنّهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلّا الله يستكبرون] عن قبول ذلك [ويقولون أئنّا لتاركو آلهتنا لشاعرمجنون] أي يأنفون من هذه المقالة و يقولون : لاندع آلهتنا و عبادة أصنامنا لقول شاعر مجنون يعنون النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم .

فردّ الله عليهم و كذّبهم بأن قال : [بل جاء بالحقّ] ليس بشاعر ولا مجنون و لكنّه أتى بما يقبله العقول من الدّين الحقّ أو الكتاب الحقّ [وصدّق المرسلين] و حقّق ما أتى به المرسلون من بشاراتهم بمقدمه الشريف أوصدّقهم بأن أتى بمثل ما أتوا به من

---

(١) ص : ٨٥ .

الدعوة إلى التوحيد .

ثمّ خاطب الكفّار فقال سبحانه : [إنّكم] أيّها المشركون [لذائقو العذاب الأليم] على كفركم و نسبتكم إيّاه إلى الشعر والجنون لأنّ مقالاته ليست إلّا وحي و هو أعقل الخلق [وما تجزون إلّا ما كنتم تعملون] على قدر أعمالكم ثمّ استثنى فقال : [إلّا عباد الله المخلصين] وهذا الاستثناء منقطع أي لكن عباد الله المخلصين الّذين أخلصوا العبادة لله وأطاعوه في كلّ ما أمرهم به فإنّهم لا يذوقون العذاب وإنّما ينالون الثواب .

قوله تعالى : اولئك لهم رزق معلوم (٤١) فواكه وهم مكرمون (٤٢) في جنات النعيم (٤٣) على سرر متقابلين (٤٤) يطاف عليهم بكأس من معين (٤٥) بيضاء لذة للشاربين (٤٦) لا فيها غول ولا هم عنها ينزفون (٤٧) و عندهم قاصرات الطرف عين (٤٨) كأنهن بيض مكنون (٤٩) فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٥٠) .

بيّن سبحانه ما أعدّه لعباده المخلصين من أنواع النعم فقال :

[اُولئك لهم رزق معلوم] جعل لهم التصرّف فيه و حكم لهم به في الأوقات ثمّ فسّر ذلك الرزق بأن قال : [فواكه] جمع فاكهة يقع على الرطب واليابس من الثمار كلّها يتفكّهون بها ويتنعّمون بالتصرّف فيها [وهم مكرمون] مع ذلك معظّمون قيل : المراد من الرزق المعلوم معلوم الوقت وهو مقدار غدوة و عشيّة وإن لم يكن هناك بكرة و عشيّاً و قيل : معناه إنّ ذلك الرزق معلوم الصفة لكونه مخصوصاً بخصائص خلقها الله فيه من طيب طعم ورائحة ولذّة وحسن منظرة أو يتيقّنون دوامه لا كرزق الدنيا الّذي لا يعلم متى يحصل ومتى ينقطع والتعبير بالفاكهة لأنّ الفاكهة عبارة عمّا يؤكل لأجل التلذّذ لا لأجل الحاجة وأرزاق أهل الجنّة كلّها فواكه لأنّهم مستغنون عن حفظ الصحّة بالأقوات فإنّهم أجسام محكمة مخلوقة للأبد فكلّ ما يأكلونه فهو على سبيل التلذّذ و لمّا كانت الفاكهة حاضرة أبداً كان غيرها أولى بالحضور .

ولمّا ذكر مأكولهم وصف مساكنهم فقال : [في جنّات النعيم على سرر متقابلين] ومعناه أنّه لا كلفة عليهم في التلاقي للتخاطب والاُنس وفي بعض الأخبار أنّهم إذا أرادوا

القرب سار السرير تحتهم ولا يجوز أن يكونوا متقابلين إلّا مع حصول الخواطر و الميل إلى القرب .

ولمّا شرح الله صفة المأكل والمسكن ذكر بعده صفة الشراب فقال : [يطاف عليهم بكأس من معين] يقال للزجاجة الّتي فيها الخمر: « كأساً » و تسمّى الخمر نفسها كأساً قال الشاعر :

و كأس شربت على لذّة * واُخرى تداويت منها بها

وعن الأخفش كلّ « كأس » في القرآن فهي الخمر.

قوله : « من معين » أي من شراب أو من نهر « معين » مأخوذ من عين الماء أي يخرج من العيون كما يخرج الماء وسُمّي « معيناً » لظهوره ويجوز أن يكون فعيلاً من المعين و هو الماء الشديد الجري ومنه أمعن في السير إذا اشتدّ فيه .

[بيضاء لذّة للشاربين] صفة للخمر أشدّ بياضاً من اللبن و قوله : « لذّة » وصفت باللذّة كأنّها نفس اللذّة وعينها كما يقال : فلان جود و كرم إذا أرادوا المبالغة أو المعنى ذات لذّة بحذف المضاف .

[لا فيها غول] والغول أن يغتال عقولهم قال مطيع بن أياس :

و ما زالت الكأس تغتالهم * و تذهب بالأوّل فالأوّل

وقال الليث : « الغول » الصداع أي ليس فيها صداع كما في خمر الدنيا قال الواحديّ : و حقيقته الإهلاك يقال : غاله إذا أهلكه و سمّي الصداع « غولاً » لأنّه يؤدّي إلى الهلاك .

[ولا هم عنها ينزفون] وقرىء بكسر الزاي يقال : اُنزف الرجل إذا نفدت خمرته و اُنزف إذا ذهب عقله من السكر والمعنى على الفتح : لا يذهب عقولهم ولا يسكرون وليس فيها نوع فساد من صداع أو خمار أو سكر .

ولمّا ذكر سبحانه مشروبهم عقّب بذكر منكوحهم فقال : [وعندهم قاصرات الطرف عين] ومعنى القصر الحبس أي إنّهنّ يحبسن نظرهنّ ولا ينظرن إلى غير أزواجهنّ «عين» جمع عيناء أي نجلاء كبار الأعين حسانها [كأنّهنّ بيض مكنون] شبّههنّ ببيض النعام

المكنونة عن الغبار والكدورة المصونة من كلّ شيء ومعنى هذا التشبيه أنّ ظاهر البيض بياض يشوبه قليل من الصفرة فإنّ ذلك من أحسن ألوان البدن .

ثمّ قال : [فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون] عطف على قوله : « يطاف عليهم » والمعنى يشربون ويتحادثون على الشراب قال الشاعر :

وما بقيت من اللذّات إلّا * محادثة الكرام على المدام

فيقبل بعضهم على بعض يتساءلون عمّا جرى لهم و عليهم فيخبر كلّ صاحبه بإنعام الله عليه .

قوله تعالى : قال قائل منهم انى كان لى قرين (٥١) يقول أءنك لمن المصدقين (٥٢) ءاذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون (٥٣) قال هل انتم مطلعون (٥٤) فاطلع فرآه فى سواء الجحيم (٥٥) قال تالله ان كدت لتردين (٥٦) ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين (٥٧) أفما نحن بميتين (٥٨) الاموتتنا الاولى وما نحن بمعذبين (٥٩) ان هذا لهو الفوز العظيم (٦٠) .

هذا تمام الحكاية عن أحوال أهل الجنّة و إقبال بعضهم على بعض في المسألة عن الأحوال .

[قال قائل] من أهل الجنّة [إنّي كان لي قرين] في دار الدنيا و صاحب يختصّ بي إمّا من الإنس على قول ابن عبّاس : و إمّا من الشيطان [يقول أئنّك لمن المصدّقين] أي كان يوبّخني على التصديق بالبعث و القيامة ويقول إنكاراً و تعجّباً : [أئذا متنا و كنّا تراباً وعظاماً أئنّا لمدينون] ومحاسبون ومجازون أي ذلك القرين كان يقول على وجه الاستنكار: أن إذا متنا نحشر ونبعث بعد أن صرنا تراباً أي هذا لا يكون أبداً وهذا أبلغ في النفي .

[قال هل أنتم مطّلعون] أي ثمّ هذا المؤمن قال لإخوانه في الجنّة بعد ما حكى لجلسائه مقالة قرينه في الدنيا : « هل أنتم مطّلعون » أي إلى أهل النار و هل في الجنّة موضع يرى منه هذا القرين في النار و هل تحبّون أن تطّلعوا على أهل النار لأُريكم ذلك القرين فتعلموا أين منزلتكم من منزلتهم قيل : إنّ في الجنّة كوىً ينظر منها أهلها إلى أهل النار .

[فاطّلع فرآه في سواء الجحيم] فاطّلع هذا المؤمن فرأى قرينه في وسط النّار قيل : القائل في قوله « قال هل أنتم مطّلعون » هوالله أو بعض الملائكة و قرىء « فاطّلع » على لفظ المضارع المنصوب و على لفظ الماضي و إذا كان بلفظ المضارع يكون المعنى : هل أنتم مطّلعون فأطّلع أنا أيضاً و إذاكان بصيغةالماضي يكون المعنى عرض عليهم الاطّلاع فقبلوا ما عرضه.

فاطّلع هو بعد ذلك [قال تالله إن كدت لتردين] أي قال القائل : بعد مااطّلع إلى حال قرينه مخاطباً له : تالله قد كان قريباً أن تهلكني بالإغواء و تجعل حالي كالك و « إن » هي المخففّة من المثقّلة بدلالة مصاحبته لام الابتداء لها أي إنّك كدت تهلكني بما دعوتني إليه في الدنيا بقولك : لانبعث و لا نعذّب فقد ظهرالأمر خلاف ذلك.

[و لو لانعمة ربّي لكنت من المحضرين] أي ولولا لطفه تعالى و عصمته وهدايته حتّى آمنت لكنت أنا معك في النار ولايستعمل «أحضر» إلّا في الشرّ.

قوله تعالى : [أفما نحن بميّتين إلّا موتتنا الأولى و ما نحن بمعذّبين] المعنى : أنّ هذا المؤمن يقول لهذا القرين السوء الّذي في النار يخاطبه و يقول له على وجه التوبيخ و التقريع : أليس كنت تقول : « مانحن بمائتين » وقرىء بمائتين و لانموت إلّا الموتة الّتي تكون في الدنيا و لا عذاب و لارجوع أفرأيتم أنّ الأمر ظهر بخلاف مازعمتم وقيل : إنّ هذاالكلام من مكالمات أهل الجنّة بعضهم لبعض على وجه إظهار السرور بدوام نعيم الجنّة ولهذا عقّبه بقوله :

[إنّ هذا لهو الفوز العظيم] فحينئذ يكون معنى الآية : ما نحن بميّتين في هذه الجنّة إلّا موتتنا الّتي كانت في الدنيا وما نحن بمعذّبين كما وعدنا الله ويريدون به التحقيق لاالشكّ و إنّما قالوا هذا القول لأنّ لهم في ذلك سروراً مجدّداً و فرحاً مضاعفاً و إن كانوا قدعرفوا أنّهم سيخلدون في الجنّة وهذا كما أنّ الرجل يعطي المال الكثيرفيقول : أكلّ هذا الملك لي وهذا كقوله :

أبطحاء مكّة هذا الّذي * أراه عياناً و هذا أنا

قوله تعالى : لمثل هذا فيعمل العاملون (٦١) أذلك خير نزلا ام شجرة الزقوم (٦٢) انا جعلناها فتنة للظالمين (٦٣) انها شجرة تخرج فى اصل الجحيم (٦٤) طلعها كانه رءوس الشياطين (٦٥) فانهم لاكلون منها فمالؤن منها البطون (٦٦) ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم (٦٧) ثم ان مرجعهم لالى الجحيم (٦٨) انهم ألفوا اباءهم ضالين (٦٩) فهم على آثارهم يهرعون (٧٠) .

ثمّ قال سبحانه تمام الحكاية عن قول أهل الجنّة : [لمثل هذا] الثواب و الفوز و الفلاح [فليعمل العاملون] في دار التكليف و قيل : إنّ هذا من قول الله أي لمثل هذا النعيم الّذي ذكرناه « فليعمل العاملون » و المذكور من قوله : «لهم رزق معلوم» إلى قوله : «بيض مكنون » والمراد الترغيب في طلب الثواب بالطاعة .

قوله تعالى : [أذلك خير نزلاً أم شجرة الزقّوم] أي أذلك الّذي ذكرناه من قرى أهل الجنّة و ما أعدّ لهم خير من حيث النزل و « النزل » مايصلح أن ينزلوا عليه من الغذاء والتشريفات و ما يتقوّت به أم نزل أهل النار وهو الزّقوم مع أنّه لاخير فيه وإنّما قال : « خير » على وجه المقابلة مثل قوله : «أصحاب الجنّة يومئذ خير مستقرّاً وأحسن مقيلاً [١] » أوجاء بلفظ « خير» مع أنّ في الزقّوم ليس إلّا الألم و الغمّ فهو على سبيل السخريّة بهم وسوء اختيارهم قال العلّامة أبو السعود في تفسيره : « الزقّوم » شجرة صغيرة الورق زفرة كريهة الرائحة مُرّة تكون في تهامة سمّيت به الشجرة الموصوفة .

قوله : [إنّا جعلناها فتنة للظالمين] وهذه الشجرة يقتاتها أهل النار وإنّما صارت هذه الشجرة فتنة للظالمين لأنّ الكفّار لمّا سمعوا هذه الآية أنكروا و قالوا : كيف يعقل أن تنبت الشجرة في جهنّم مع أنّ النار تحرق الشجرة ولهذه الجهة صارت فتنة لهم والحالة أنّ خالق النار قادر على أن يمنع النار من إحراق الشجر كما أنّ الله يقدر أن يخلق الزّقوم من جوهر ومن مادّة لاتأكله النار ولا تحرقه كما أنّها لاتحرق السلاسل

(١) الفرقان : ٢٤ .

والأغلال فيها وكما أنّه لاتحرق حيّاتها وعقاربها وكذلك الضريع وما أشبه ذلك فمعنى كونها « فتنة لهم » وقعت هذه الشبهة الركيكة في قلوبهم وصارت سبباً لإنكارهم .

والقول الثاني في تفسير الآية في كون الشجرة فتنة لهم في النار لانّهم كلّفوا بتناولها وشقّ ذلك عليهم فحينئذ يصير ذلك فتنة في حقّهم أي شدّة عذاب لهم من قوله : « يومهم على النار يفتنون[1] » أي يعذّبون .

قوله : [إنّها شجرة تخرج في أصل الجحيم] أي إنّ الزقّوم شجرة تنبت في قعر جهنّم وأغصانها ترفع إلى دركاتها [طلعها كأنّه رؤوس الشياطين] « الطلع » للنخلة غلاف الثمرة وسمّي بالطلع لطلوعه كلّ سنة في النخل فاستعير لشجرة الزقّوم لفظيّة وهذا التشبيه حيث إنّ الناس لمّا اعتقدوا في الملائكة كمال الفضل في الصورة والسيرة واعتقدوا في الشياطين نهاية القبح و التشويه في الصورة فحسن التشبيه في القبح برؤوس الشياطين و هذا من باب التشبيه بالمتخيّل لابالمحسوس قال امرؤ القيس :

أتقتلني والمشرفيّ مضاجعي * و مسنونة رزق كأنياب أغوال

مع أنّ الغول لم يره أحد . و قيل : إنّ رؤوس الشياطين ثمرة يقال لها : الأستن تشبه بني آدم وقيل : إنّ الشيطان نوع من الحيّات .

[فإنّهم لآكلون منها] أي أهل النار يأكلون من ثمرة تلك الشجرة فيملؤون بطونهم منها من شدّة ألم الجوع وقدروي أنّ الله تعالى يجوعهم حتّى أنسوا عذاب النار من شدّة الجوع فيصرخون إلى مالك فيحملهم إلى تلك الشجرة ومنهم أبوجهل فيأكلون منها فيغلي بطونهم كغلي الحميم فإذا شبعوا من أكل الزقّوم يشتدّ عطشهم فيحتاجون إلى الشراب .

فعند هذه وصف الله شرابهم فقال : [ثمّ إنّ لهم عليها لشوباً من حميم] و « الشوب » كلّ ماخلط بغيره فالمعنى إذا غلبهم العطش الشديد سقوا من ذلك المشوب من غسّاق أوصديد جهنّم حارّ مغبور الّذي بلغ نهاية في الحرارة حتّى إذاقربوها من وجوههم ليشربوا شوّت وجوههم كما قال : « يشوي الوجوه[1] » فإذا وصلت إلى بطونهم صهر

---

(١) الكهف : ٢٩ .

مافي بطونهم والجلود فذلك شرابهم وطعامهم و قوله : « ثمّ إنّ لهم » على شجرة الزقّوم زيادة لشوباً وخليطاً بهذا الشراب المذكور ويكرهون على هذا الأكل الشراب و ثمّ يرجعون بعد الأكل والشرب و يردّون إلى الجحيم وذلك أنّهم يوردون الحميم لشربه وهو خارج عن الجحيم كما يورد الإبل الماء و « الجحيم » النار الموقدة الّتي منازلهم فيها فينقلبون بعد الأكل والشرب إلى منقلبهم .

قوله : [إنّهم ألفوا آباءهم ضالّين * فهم على آثارهم يهرعون] المعنى إنّه سبحانه علّل الاستحقاق والوقوع في تلك الشدائد كلّها بترك الإيمان و تقليد الآباء من غيردليل واقتفائهم بآبائهم وتسرّعهم إلى اتّباعهم ومعنى الإهراع الإسراع .

قوله تعالى : ولقد ضل قبلهم اكثر الاولين (٧١) ولقد ارسلنا فيهم منذرين (٧٢) فانظر كيف كان عاقبة المنذرين (٧٣) الا عباد الله المخلصين (٧٤) ولقد نادنا نوح فلنعم المجيبون (٧٥) ونجيناه واهله من الكرب العظيم (٧٦) و جعلنا ذريته‌هم الباقين (٧٧) وتركنا عليه فى الاخرين (٧٨) سلام على نوح فى العالمين (٧٩) انا كذلك نجزى المحسنين (٨٠) انه من عبادنا المؤمنين (٨١) ثم اغرقنا الاخرين (٨٢) .

ذكر سبحانه مايوجب التسلية لنبيّه فقال :

[ولقد ضلّ قبلهم] اللام هي الّتي تدخل في جواب القسم المحذوف و «قد» للتأكيد أي قبل هؤلاء الّذين في عصرك و كذّبوك ضلّ أكثر الاُمم الماضية .

[ولقد أرسلنا قبلهم منذرين] من الأنبياء والمرسلين يخوّفونهم من عذاب الله وحاصل المعنى أنّ إرساله تعالى الرسل وتكذيب الاُمم الرسل قد سلف و يجب لك ـ صلّى الله عليك ـ اُسوة بهم وتصبّر كما صبروا وفي الآية دلالة على أنّ أهل الحقّ في كلّ زمان كانوا أقلّ من أهل الباطل .

[فانظر كيف كان عاقبة المنذرين] أي من المكذّبين المعاندين الحقّ كيف أهلكهم وما ذا حلّ بهم من العذاب ؟

ثمّ استثنى من المنذرين فقال : [إلّا عباد الله المخلصين] الّذين أنذرهم الأنبياء

وقبلوا منهم وأخلصوا عبادتهم لله تعالى فإنّ الله خلصهم من ذلك العذاب و وعدهم بجزيل الثواب .

[ولقد نادانا نوح] أي دعانا نوح بعد أن يئس من إيمان قومه لننصره على قومه و ذلك قوله عليه السلام : « إنّي مغلوب فانتصر » [فلنعم المجيبون] نحن لدعائه وأجبناه إلى ما سأل بإهلاك قومه وقيل : المعنى هو على العموم لمن دعانا .

[ونجّيناه وأهله من الكرب العظيم] أي من المكروه الّذي كان ينزل به من قومه و « الكرب » كلّ غمّ يصل حرّه إلى الصدر وأصل النجاة من النجوة فهي المرتفع فهي الرفع من الهلاك وأهله هم الّذين في السفينة معه .

[وجعلنا ذرّيّته هم الباقين] بعد الغرق فالناس كلّهم بعد نوح عن وُلد نوح قال الكلبيّ : لمّا خرج نوحٌ من السفينة مات من كان معه من الرجال والنساء إلّا ولده ونساءهم .

[وتركنا عليه في الآخرين] أي تركنا عليه ذكراً جميلاً وأثنينا عليه في اُمّة محمّد ويسلّم عليه إلى يوم القيامة فكأنّه قال : وتركنا على نوح التسليم والصلوات إلى يوم القيامه بقوله : [سلام على نوح في العالمين] و معنى تركنا أبقينا يقال : ماترك فلان أي ما أبقى والمراد من « العالمين » من الملائكة والثقلين .

[إنّا كذلك] أي مثل ما جزينا نوحاً [نجزي المحسنين] فمن أحسن بأفعال الطاعات و تجنّب المعاصي نكافيه بإحسانهم [إنّه من عبادنا المؤمنين] أي إنّ نوحاً من عبادنا المؤمنين ، والآية تتضمّن مدح المؤمنين حيث أنّ نوحاً منهم .

[ثمّ أغرقنا الآخرين] أي من لم يؤمن به و المقصود من الآيات تحذير القوم عن سلوك مثل طريقتهم لئلّا يعاقبوا بمثل عقوبتهم .

قوله تعالى : و ان من شيعته لابراهيم(٨٣) اذ جاء ربه بقلب سليم(٨٤) اذ قال لابيه و قومه ماذا تعبدون (٨٥) ءافكا آلهة دون الله تريدون (٨٦) فما ظنكم برب العالمين (٨٧) فنظر نظرة فى النجوم (٨٨) فقال انى سقيم(٨٩) فتولوا عنه مدبرين (٩٠) فراغ الى آلهتهم فقال الا تاكلون (٩١) مالكم

لا تنطقون (٩٢) فراغ عليهم ضربا باليمين (٩٣) فاقبلوا اليه يزفون (٩٤) قال اتعبدون ماتنحتون (٩٥) و الله خلقكم وما تعملون (٩٦) قالوا ابنوا له بنيانا فالقوه فى الجحيم (٩٧) فارادوا به كيدا فجعلنا هم الاسفلين (٩٨) و قال انى ذاهب الى ربى سيهدين (٩٩) رب هب لى من الصالحين (١٠٠)

المعنى : [و إنّ من] شيعة نوح إبراهيم يعني إنّه على منهاجه في التوحيد و العدل و اتّباع الحقّ و ما كان بين نوح و إبراهيم إلّا نبيّان هود و صالح و ألفان و ستّمائة وأربعون سنة وقيل : المعنى: وإنّ من شيعة محمّد إبراهيم و معنى الشيعة الجماعة التابعة لرئيس لهم .

قوله : [إذ جاء ربّه بقلب سليم] حين صدّق الله و آمن به بقلب خالص من الشرك بريء من المعاصي على ذلك عاش و عليه مات و قيل : بقلب سليم من كلّ ما سوى الله لم يتعلّق بشيء غيره عن أبي عبد الله عليه السلام .

قوله : [إذ قال لأبيه و قومه] حين رآهم يعبدون الأصنام من دون الله على وجه التهجين لفعالهم و التقريع لهم [ما ذا تعبدون] أي أيّ شيء تعبدون [ءإفكاً آلهة دون الله تريدون] « الإفك » أشنع الكذب و أصله قلب الشيء عن جهته الّتي هي له أي تريدون عبادة آلهة دون عبادة الرحمن [فما ظنّكم بربّ العالمين] أن يصنع بكم مع عبادتكم غيره و قيل : المعنى كيف تظنّون بربّكم أنّه على أيّ صفة و من أيّ جنس من أجناس الأشياء حين شبّهتم به هذه الأصنام ؟

قوله : [فنظر نظرة في النجوم و قال إنّي سقيم] عن ابن عبّاس إنّهم كانوا يتعاطون علم النجوم فعاملهم على مقتضى عادتهم و ذلك أنّه عليه السلام أراد أن يكايدهم في أصنامهم ليلزمهم الحجّة في أنّها غير معبودة و كان لهم من الغد يوم عيد يخرجون إليه فأراد أن يتخلّف عنهم ليبقى خالياً في بيت الأصنام فيقدر على كسرها .

و ههنا بحث و هو أنّ النظر في علم النجوم غير جائز فكيف أقدم عليه إبراهيم ، ثمّ إنّه عليه السلام ما كان سقيماً فلمّا قال : « إنّي سقيم » كان ذلك كذباً ؟

وفي الجواب عنهما وجوه كثيرة :

الأوّل أنّه نظر نظرة في النجوم وكانت يأتيه سقامة كالحمّى في بعض أوقات اللّيل و النهار فنظر ليعرف هل هي في تلك الساعة و قال: «إنّي سقيم» فجعله عذراً في تخلّفه عن الذهاب معهم عن العيد الّذي لهم و كان صادقاً فيما قال. لأنّ السقم كان يأتيه في ذلك الوقت و إنّما تخلّف لأجل مقصوده و ذلك تكسير الأصنام و أمّا قوله: «إنّي سقيم» أي سأسقم في هذا الوقت كقوله: «إنّك ميّت و إنّهم ميّتون» أي إنّك ستموت

و وجه آخر و هو أنّا لا نسلّم أنّ النظر في علم النجوم و الاستدلال بمقايستها حرام لأنّ من اعتقد أنّ الله خصّ كلّ واحد من هذه الكواكب بقوّة و خاصيّة لأجلها يظهر منه أثر مخصوص فهذا العلم على هذا الوجه ليس بحرام و باطل و يجوز أن يكون الله أعلمه بالوحي أنّه سيسقمه في وقت مستقبل و جعل العلامة على ذلك إمّا طلوع نجم و اتّصاله بآخر على وجه مخصوص.

فلمّا رأى إبراهيم تلك الامارة فقال «إنّي سقيم» تصديقاً بما أخبره الله تعالى ويمكن أن يكون مراده بقوله: «إنّي سقيم» أي سقيم القلب حزناً على إصرارهم على عبادة الأوثان و هي لا تسمع ولا تبصر و نظره في النجوم فكرته في أنّها مخلوقة محدثة مدبّرة فكيف هؤلاء يعبدونها؟

و ما رواه العيّاشي بإسناده عن أبي جعفر و أبي عبد الله عليهما السلام أنّهما قالا: و الله ما كذب إبراهيم و ما كان سقيماً محمول على هذه الوجوه المذكورة و ما روي أنّ إبراهيم كذب ثلاث كذبات قوله: «إنّي سقيم» وقوله. «بل فعله كبيرهم»(١) وقوله في سارة: «إنّها اُختي» فيمكن أن يتأوّل مثلاً مثل قوله «إنّي سقيم» أي سأسقم، و سارة اُختي أي في الدّين «و فعله كبيرهم» على ما ذكرناه في موضعه.

وبالجملة لمّا قال إبراهيم: «إنّي سقيم» وكان قد غلب الأسقام عليهم من باب الطاعون و كانوا يخافون العدوى ففارقوه و هربوا منه إلى معبد هم في البرّيّة و تركوه و ذلك قوله: [فتولّوا عنه مُدبرين] أي هاربين مخافة العدوى.

[فراغ إلى آلهتهم] أي ذهب إليهم في خفية و أصل «الروغ» الميل بحيلة ومنه

(١) الانبياء: ٦٣.

روغان الثعلب [فقال] للأصنام استهزاءً [ألا تأكلون] أي هلاّ تأكلون من الطعام الّذي كانوا يضعونها عندالأصنام لتبرّك عليه كماكان عادتهم ذلك للاستشفاء و الاستبراك واليمن [مالكم لا تنطقون] أي لمَ لاتجاوبوني . [فراغ عليهم ضرباً باليمن] فمال إبراهيم مستعلياً عليهم ضرباً موكّداً شديداً و «ضرباً» مصدر مؤكّد «لراغ»أي ضربهم ضرباً شديداً وذلك لأنّ اليمين أقوى الجارحتين و قوّة الآلة تقتضي قوّة الفعل و فيه قول آخر : و هو أنّ المراد من « اليمين » الحلف أي أتى الضرب بسبب الحلف و هو قوله تعالى عنه : « و تالله لأكيدنّ أصنامكم » .

ثمّ قال : [فأقبلوا إليه يزفّون] أي أقبلوا بعد الفراغ من عيد هم إلى إبراهيم يسرعون و « الزفيف » حالة بين المشي و العدو من زفيف النعام لأنّهم اطّلعوا على صنع إبراهيم بأصنامهم فقصدوه مسرعين و حملوه إلى بيت أصنامهم و بعد ما أتوابه جرى بينهم و بينه من المحاورات ما نطق به قوله تعالى في غير هذه السورة : « ءأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم [(١)] » فأجابهم على وجه الحجاج :

[أتعبدون ما تنحتون * والله خلقكم وما تعملون] أي تعبدون منحوتكم و ما عملتم من الأصنام فكيف تعبدون معمولكم ؟ و هذا كما يقال : فلان يعمل الحصير والمراد أنّ الله خلق أصل الحجارة الّتي تعملون منها الأصنام .

واحتجّ أهل الجبر بأنّ فعل العبد مخلوق لله و قالوا : إنّ لفظ «ما » مع ما بعده في تقدير المصدر فقوله : « وماتعملون » معناه : و عملكم و على هذا التقدير صار معنى الآية: و الله خلقكم وخلق عملكم .

والجواب أنّ هذه الآية حجّة عليهم لاحجّة لهم لأنّ الله تعالى قال : « أتعبدون ما تنحتون » وأضاف العبادة و النحت إليهم إضافة الفعل إلى الفاعل و لو كان ذلك واقعاً بتخليق الله لاستحال كونه فعلاً للعبد .

و الجواب الثاني أنّه سبحانه إنّما ذكر هذه الآية توبيخاً لهم على عبادة الأصنام و لو لم يكونوا فاعلين لأفعالهم لما جاز توبيخهم عليها بقبيح فعلهم و عبادتهم و لو كان

(١) الانبياء : ٦٢ .

معناه والله خلقكم و خلق عبادتكم لكانت الآية على أن يكون عذراً لهم أقرب و أولى من أن يكون لوماً و تهجيناً و لكان لهم أن يقولوا : و لمَ توبّخنا على عبادتها و الله هو الفاعل لذلك فيكون الحجّة لهم لا عليهم و لأنّه قد أضاف الفعل و العمل إليهم بقوله : « تعملون » فكيف يكون مضافاً إلى الله و هذا تناقض ؟

و أمّا قولهم : لفظة « ما » مع ما بعدها في تقدير المصدر ممنوع و بيانه أنّ سيبويه و الأخفش اختلفا في أنّه هل يجوز أن يقال : أعجبني ما قمت أي قيامك فجوّزه سيبويه و منعه الأخفش و جماعة و قالوا : إنّ هذا لا يجوز إلّا في فعل المتعدّي و لوسلّمنا لكنّه أيضاً قد يكون بمعنى المفعول لأنّ المراد من قوله : « أتعبدون ما تنحتون » أتعبدون المنحوت لا النحت لأنّهم ما عبدوا النحت و إنّما عبدوا المنحوت فوجب أن يكون المراد بقوله : « ما تعملون » المعمول لا العمل فحينئذ لفظة «ما» مع ما بعدها كما يجيء بمعنى المصدر فقد يجيء بمعنى المفعول فكان حمل الآية هنا على المفعول أولى لأنّ الآية بيان تزييف مذهبهم في عبادة الأصنام .

و بالجملة لمّا أورد إبراهيم عليهم هذه الحجّة القويّة و عجزوا عن الجواب عدلوا إلى طريق الإيذاء [فقالوا ابنوا له بنياناً] و كيفيّة ذلك البنيان لا يدلّ عليها لفظ القرآن قال ابن عبّاس : بنوا حائطاً من حجر طوله في السماء ثلاثون ذراعاً و عرضه عشرون ذراعاً و ملؤوه ناراً فطرحوه فيها فذلك قوله تعالى : [فألقوه في الجحيم] أي جحيم ذلك البنيان و الجحيم النار العظيمة و الألف و اللام في « الجحيم » يدلّ على النهاية .

[فأرادوا به كيداً] و حيلة و تدبيراً في إهلاكه و إحراقه بالنار [فجعلناهم الأسفلين] بأن أهلكناهم و سلّمنا إبراهيم و رددنا كيدهم عنه و لمّا أشرفوا عليه بعد إيقاعه في النار رأوه سالماً و علموا أنّهم مغلوبون فلمّا انقضت هذه الواقعة [قال] إبراهيم: [إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين] أي مهاجر و أهجر ديار الكفّار و أذهب إلى حيث أمرني الله بالذهاب إليه و هي الأرض المقدّسة أي يهديني ربّي .

فإن قيل : إنّ إبراهيم جزم في هذه الآية بأنّه تعالى سيهديه ، و إنّ موسى لم يجزم

به بل قال : « عسى ربّي أن يهديني سواء السبيل » .

قلنا : العبد إذا تجلّى له مقامات رحمة الله فقد يجزم بحصول المقصود و إذا تجلّى له مقامات كونه غنيّاً عن العالمين فحينئذ يستحقر نفسه فلا يجزم بل لا يظهر إلّا الرجاء و الطمع قال بعض أهل التفسير : و هو أوّل من هاجر و معه لوط وسارة إلى الشام وإنّما قال « سيهدين » ترغيباً لمن هاجر معه في الهجرة .

فلمّا قدم الأرض المقدّسة سأل إبراهيم ربّه الولد فقال : [ربّ هب لي من الصالحين] أي أعطني بعض الصالحين يريد الولد لأنّ لفظ الهبة غلب في الولد و إن كان قد جاء في الأخ في قوله : « و وهبنا له من رحمتنا أخاه هارون نبيّاً[(١)] » و قال تعالى : « و وهبنا له إسحاق و يعقوب »[(٢)] و « ووهبنا له يحيى[(٣)] » و في الآية دلالة على أنّ الصلاح أشرف مقامات العباد .

قوله تعالى : فبشرناه بغلام حليم (١٠١) فلما بلغ معه السعى قال يا بنى انى ارى فى المنام انى اذبحك فانظر ما ذا ترى قال يا ابت افعل ما تؤمر ستجدنى ان شاء الله من الصابرين (١٠٢) فلما اسلما و تله للجبين (١٠٣) و ناديناه ان يا ابراهيم (١٠٤) قد صدقت الرؤيا انا كذلك نجزى المحسنين (١٠٥) ان هذا لهو البلاء المبين (١٠٦) و فديناه بذبح عظيم (١٠٧) و تركنا عليه فى الاخرين (١٠٨) سلام على ابراهيم (١٠٩) كذلك نجزى المحسنين (١١٠) انه من عبادنا المؤمنين (١١١) و بشرناه باسحق نبيا من الصالحين (١١٢) و باركنا عليه و على اسحق و من ذريتهما محسن و ظالم لنفسه مبين (١١٣) .

المعنى : أخبر سبحانه أنّه استجاب لإبراهيم بقوله : [فبشّرناه] بابن و قور ، و الحليم الّذي لا يعجل الأمر قبل وقته مع القدرة عليه أو الّذي لا يعجل بالعقوبة .

[فلمّا] أدرك و [بلغ] الحدّ الّذي يقدر فيه على السعي أي شبّ و بلغ الابن إلى أن يتصرّف و يمشي معه و يعينه و كان يومئذ ابن ثلاث عشرة سنة و قيل : المراد من السعي العمل لله و العبادة و النسك و الفاء في قوله : « فلمّا بلغ » فصيحة معربة

---

(١) مريم : ٥٣ .

(٢-٣) الانبياء : ٧٢ ، ٩٠ .

عن مقدّر حذف لعدم الحاجة إلى التصريح به لاستحالة التخلّف بعد البشارة [قال يابنيّ إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى] و معنى « رأى » في الكلام على خمسة أوجه : أحدها أبصر ، و الثاني علم ؛ نحو رأيت زيداً فاضلاً و الثالث : بمعنى ظنّ كقوله: « إنّهم يرونه بعيداً و نراه قريباً » . و الرابع : اعتقد نحو قوله :

وإنّا لقوم ماترى القتل سبّة * إذا مارأته عامر وسلول

والخامس بمعنى الرأي نحو رأيت هذا الرأي وأمّا رأيت في المنام فمن رؤية البصر .

فمعنى الآية إنّ إبراهيم قال لابنه : إنّي أبصرت في المنام رؤياً تأويلها الأمر بذبحك فانظر ما الّذي تراه وأيّ شيء ترى من الرأي ولا يجوز أن يكون ترى ههنا بمعنى تبصر لأنّه لم يشر إلى شيء يبصر بالعين ولا يجوز أن يكون بمعنى علم أو ظنّ أواعتقد لأنّ هذه الأشياء تتعدّى إلى مفعولين وليس هنا إلّا مفعول واحد مع استحالة المعنى فلم يبق إلّا أن يكون من الرأي .

وقيل : إنّ الله تعالى أوحى إلى إبراهيم في حال اليقظة بأن يمضي مايأمره به في حال نومه من حيث إنّ منامات الأنبياء لاتكون إلّا صحيحة ولو لم يأمر بذلك في حال اليقظة لما كان يجوز أن يعمل على مايراه في المنام . وقال سعيد بن جبير عن ابن عبّاس : منامات الأنبياء وحي وقال قتادة : رؤيا الأنبياء حقّ إذا رأوا شيئاً فعلوه .

وقال أبومسلم : رؤيا الأنبياء مع أنّ جميعها صحيحة ضربان أحدهما أن يأتي الشيء كما رأوه و منه قوله : « لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام[1] » الآية ، والآخر أن يكون عبارة عن خلاف الظاهر ممّا رأوه في المنام وذلك كرؤيا يوسف الأحد عشر كوكباً والشمس والقمر ساجدين وكان رؤيا إبراهيم من هذا القبيل لكنّه لم يأمن أن يكون مارآه ممّا يلزم العمل به على الحقيقة .

وروي أنّه عليه السلام رأى ليلة التروية في منامه كأنّ قائلاً يقول له إنّ الله يأمرك بذبح ابنك . وقيل : إنّ إبراهيم حين بشّر بغلام حليم قال : هو إذاً لله ذبيح فقيل :

(١) الفتح : ٢٧ .

لا براهيم قد نذرت نذراً فف بنذرك فلمّا أصبح قال إبراهيم : « يا بُنيّ إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك » .

و بالجمله بعد أن رأى ليلة التروية ذلك المنام وأصبح تروّى في ذلك المنام عن الصباح إلى الرواح أمن الله هذا الحلُم أمن الشيطان ؟ فمن ثمّ سمّي « يوم التروية » فلمّا أمسى رأى مثل ذلك فعرف أنّه من الله فسمّي « عرفة » ثمّ رأى مثله في الليلة الثالثة فهمّ نحره فسمّي «يوم النحر» .

فان قيل : إمّا أن يقال : إنّه ثبت بالدليل عند الأنبياء أنّ كلّ مارآه في المنام فهو حقّ حجّة أولم يثبت ذلك بالدليل عندهم فان كان الأوّل فلمَ راجع الولد في هذه الواقعة بل كان عليه أن يشتغل بتحصيل ذلك المأمور وأن لايراجع الولد فيه وأن لايقول له : «فانظر ماذا ترى » وأن لايوقف العمل إلى أن يقوله له الولد : « افعل ماتؤمر [1]» ثمّ إذا ثبت له مارأى في المنام حجّة لم يكن إلى هذه التروّي والتفكّر حاجة وإن كان الثاني وهو عدم الثبوت فكيف يجوز له أن يقدم على ذبح ذلك الولد بمجرّد رؤيا لم يدلّ الدليل على كونها حجّة ؟

ويمكن الجواب أنّه لايبعد أنّه كان عند الرؤيا متردّداً فيه ثمّ تأكّدت الرؤيا بالوحي الصريح .

واختلفوا في أنّ هذ الذبيح من هو فقيل : إنّه إسحاق وهذا قول عليّ عليه السلام وعمرو العبّاس بن عبدالمطّلب وابن مسعود و كعب الأحبار وقتادة وسعيد بن جبير و مسروق وعكرمة والزهريّ والسّديّ ومقاتل[2] و قيل إنّه إسماعيل وهو قول ابن عبّاس وابن عمر و سعيد بن المسيّب والحسن والشعبيّ ومجاهد و الكلبيّ .

و احتجّ القائلون بأنّه إسماعيل أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : أنا ابن الذبيحين فقال له أعرابيّ : يا ابن الذبيحين فتبسّم فسئل عن ذلك فقال : إنّ عبد المطّلب لمّاحفر بئرزمزم نذر لله لئن سهل الله له أمرها ليذبحنّ أحد ولده فخرج السهم على عبدالله فمنعه

(١) الوالد انما يكون وليا على ولده لا مالكا لدمه وروحه والقربان يكون من ماله لا من مال غيره الا اذا اجازه الولد ذلك لوالده والا فهو قتل نفس محرم لاقربان .

(٢) كذا في تفسير الامام الرازى .

أخواله و قالوا له : افد ابنك بمائة من الإبل ففداه بمائة من الإبل و الذبيح الثاني إسماعيل .

الحجّة الثانية عن الأصمعيّ أنّه قال : سألت أبا عمرو بن العلاء عن الذبيح فقال : يا أصمعيّ أين عقلك ومتى كان إسحاق بمكّة وإنّما كان إسماعيل بمكّة وهوالّذي بنى البيت مع أبيه والمنحر بمكّة .

الحجّة الثالثة أنّ الله وصف إسماعيل بالصبر دون إسحاق في قوله : « وإسماعيل واليسع وذاالكفل كلّ من الصابرين » وهو صبره على الذبح ووصفه أيضاً بصدق الوعد في قوله : «إنّه كان صادق الوعد [1] » لأنّه وعد أباه من نفسه الصبر على الذبح فوفى به .

الحجّة الرابعة الأخبار الكثيرة في تعليق قرن الكبش بالكعبة فكان الذبيح بمكّة ولوكان الذبيح إسحاق لكان الذبح بالشام [2] .

واحتجّ من قال : إنّ ذلك الذبيح إسحاق بوجهين : الوجه الاوّل أنّ أوّل الآية وآخرها يدلّ على ذلك أمّا أوّلها فإنّه تعالى حكى عن إبراهيم قبل هذه الآية أنّ إبراهيم قال : « إنّي ذاهب إلى ربّي سيهدين » أجمعوا على أنّ المراد منها مهاجرته إلى الشام ثمّ قال : « فبشّرناه بغلام حليم » فوجب أن يكون هذا الغلام ليس إلّا هو إسحاق ثمّ قال بعده : فلمّا بلغ معه السعي و ذلك يقتضي أن يكون المراد من هذه الغلام الّذي بلغ معه السعي هو ذلك الغلام الّذي حصل في الشام .

الوجه الثاني ما اشتهر من كتاب يعقوب إلى يوسف: من يعقوب إسرائيل نبيّ الله ابن اسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله .

و بالجملة فالّذين قالوا : الذبيح إسماعيل كان الذبح بمنى والّذين قالوا : إسحاق قالوا : هو ببيت المقدس .

(١) مريم : ٥٤ و انما يصح هذا اذاكان المراد باسماعيل فى الآية اسماعيل بن ابراهيم فراجع .

(٢) و قد استدل على ذلك بوجهين آخرين : الاول انه قال رب هب لى من الصالحين و انما يصلح ذلك ممن لا ولد له ابدا فاذا هو اسماعيل لانه اول اولاده و الثانى انه تعالى بشره باسحق و من وراء اسحق يعقوب فكيف يامره بذبح اسحق ولم يولد بعد يعقوب ؟

واعلم أنّ الله لايأمر إلّا بما يكون حسناً في ذاته ولا ينهى إلّا عمّا يكون قبيحاً في ذاته وقد يكون الأمر بالشيء تارة يحسن لكون المأمور به حسناً وتارة لأجل أنّ ذلك الأمر يفيد صحّة مصلحة من المصالح وإن لم يكن المأمور به في ذاته حسناً ألاترى أنّ السيّد إذا أراد أن يروض عبده فإنّه يقول له : إذا جاء يوم الجمعة فافعل الفعل الفلانيّ ويكون ذلك من الأفعال الشاقّة ويكون مقصود السيّد من ذلك الأمر ليس أن يأتي ذلك العبد بذلك الفعل لأنّ ذلك الفعل قد يكون المولى لايرضى بوقوعه بل الغرض من الأمر الشاقّ أن يوطّن العبد نفسه على الانقياد والطاعة فإذا أطاع وفعل مقدّمات التكليف رفع عنه عند ذلك التكليف .

قال الرازيّ : واحتجّوا بهذه الآية على أنّ الله قد يأمر بما لايريد وقوعه والدليل عليه أنّه سبحانه أمر بالذبح و ما أراد وقوعه أمّا أنّه أمر بالذبح فلما تقدّم في تفسير الآية و حيث لم يقع لأنّ الله نهى عن ذلك الذبح والنهي عن الشيء يدلّ على أنّ الناهي لايريد وقوعه فثبت أنّه تعالى أمر بالذبح و ثبت أنّه ما أراده وذلك يدلّ على أنّ الامر قد يوجد بدون الإرادة انتهى .

قوله تعالى : [قال] ابنه : [ياأبت أفعل ما تؤمر] أي ما اُمرت به [ستجدني إن شاء الله من الصابرين] أي ستصادفني بحسن توفيقه ممّن يصبر على الشدائد في جنب الله و يسلم لأمره .

[فلمّا أسلما] أي استسلما الأمر وأطاعاه [و تلّه للجبين] أي صرعه على جبينه و قيل : كبّه على جبهته و هذا خطاء لأنّ الجبين غير الجبهة و للوجه جبينان و الجبهة بينهما و إنّما وضع جبينه على الأرض لئلّا يرى وجهه فيلحقه رقّة الآباء (١). و روي أنّ إسماعيل قال : اذبحني و أنا ساجد لئلّا تنظر إلى وجهي فعسى أن ترحمني فلا تذبحني .

---

(١) هذا غير صحيح و ان نقل عن ابن عباس ورضى به كثيرون لانه قد يقال الجبين للجبهة ايضا ولان القربان يصلح ان يكون وجهه و جبهته الى الكعبة فيصير مصروعا على جبينه الايسر ولذلك قال : وتله للجبين .

[و ناديناه أن يا إبراهيم] الواو زائدة .

قال المفسّرون : لمّا أضجعه للذبح نودي من الجبل [يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا] فسعد إبراهيم سعادة عظيمة و تبيّن إطاعتهما و استحقّا الأجر العظيم ونبوّة ولده .

حكي في قصّة الذبيح أنّ إبراهيم لمّا أراد ذبحه قال : يا بنيّ خذ الحبل و المدية و انطلق بنا إلى الشعب نحتطب فلمّا توسّط شعب ثبير (بتقديم الثاء المثلّثة) أخبره بما اُمر به فقال : يا أبت اشدد رباطي كي لا أضطرب و اكفف عنّي ثيابك لا ينتضح عليها شيء من دمي فتراه اُمّي فتحزن واشتحد شفرتك وأسرع إمرارها على حلقي ليكون أهون فإنّ الموت شديد و اقرء على اُمّي سلامي و إن رأيت أن تردّ قميصي على اُمّي فافعل فإنّه قد يكون أسهل لها و أسلى فقال إبراهيم : نعم العون أنت بنيّ على أمر الله ثمّ أقبل عليه يقتله و قد ربط وهما يبكيان ثمّ وضع السكّين على حلقه فقال حينئذ : كبّني على وجهي أخاف أن تدركك رقّة تحول بينك و بين أمر الله ففعل إبراهيم ثمّ وضع السكّين على قفاه فانقلبت السكّين و نودي يا إبراهيم قد صدّقت الرؤيا أي فعلت ما اُمرت به في الرؤيا .

[إنّا كذلك نجزي المحسنين] أي إنّا كما جزينا إبراهيم بالعفو عن ذبح ابنه نجزي من سلك طريقتهما في الإحسان و الانقياد لأمر الله .

[إنّ هذا لهو البلاء المبين] أي إنّ هذا لهو الامتحان الظاهر والاختبار الشديد و اختلف العلماء في الكبش الّذي جعله الله فداءً عن إسماعيل فقيل : إنّه الكبش الّذي تقرّب به هابيل إلى الله فقبله و كان يرعى في الجنّة حتّى فدى الله به إسماعيل و قال آخرون : أرسل الله كبشاً من الجنّة قد رعى أربعين خريفاً و قال السدّي : نودي إبراهيم فالتفت فإذاً هو كبش أو وعل أملج انحطّ من الجبل فقام عند إبراهيم فأخذه فذبحه وخلّى ابنه ثمّ اعتنق ابنه وقال : يا بنيّ اليوم وهبت لي .

[و فديناه بذبح عظيم] بما يذبح بدله وهو الكبش العظيم الجثّة أو القدر لأنّه فدى الله به نبيّاً ابن نبيّ وأيّ نبيّ الّذي من نسله سيّد المرسلين واحتجّ القائلون بجواز النسخ قبل العمل بالمأمور به بهذه الآية .

[و تركنا عليه في الآخرين سلام على إبراهيم] مضى تفسيره [و باركنا عليه وعلى

إسحاق و من ذرّيّتهما محسن و ظالم لنفسه مبين] أي جعلنا لإبراهيم و إسحاق من الخير و البركة و يجوز أن يكون المراد كثرة ولدهما و بقائهم قرناً بعد قرن إلى أن تقوم الساعة .

[ومن ذرّيّتهما] أي من أولاد إبراهيم وإسحاق محسن بالإيمان و الطاعة وبعضهم ظالم لنفسه بالكفر والمعاصي بيّن الظلم وفي الآية دلالة على أن فضائل الآباء لايستلزم فضيلة الأبناء ولاتصير هذه الشبهة سبباً لمفاخرة اليهود .

قوله تعالى : و لقد مننا على موسى و هرون (١١٤) و نجيناهما و قومهما من الكرب العظيم (١١٥) و نصرنا هم فكانوا هم الغالبين (١١٦) و آتينا هما الكتاب المستبين (١١٧) و هديناهما الصراط المستقيم (١١٨) و تركنا عليهما فى الاخرين (١١٩) سلام على موسى و هرون (١٢٠) انا كذلك نجزى المحسنين (١٢١) انهما من عبادنا المؤمنين (١٢٢) .

ثمّ عطف سبحانه على ماتقدّم بذكر موسى وهارون فقال : [ولقد مننّا] أي و لقد أنعمنا عليهما نعماً جليلة .

و اعلم أنّ وجوه الأنعام كثيرة إلّا أنّها محصورة في نوعين : إيصال المنافع إليه و دفع المضارّ عنه ، و ذكر سبحانه القسمين : فقوله : «ولقد مننّا على موسى و هارون» إشارة إلى إيصال المنافع إليهما و قوله : « و نجّيناهما وقومهما من الكرب العظيم » إشارة إلى دفع المضارّ عنهما . و المنافع على قسمين منافع الدنيا و منافع الدين أمّا منافع الدنيا فالوجود و العقل والصحّة و الكمال في ذات كلّ واحد منهما و أمّا منافع الدين فالعلم و الطاعة و أعلى درجاتها النبوّة و المعجزات و قد أدّينا كلّ هذه الأمور و أمّا القسم الثاني و هو دفع الضرر وهو المراد بقوله : [و نجّيناهما و قومهما من الكرب العظيم] و المراد من « الكرب العظيم » إيذاء فرعون ببني إسرائيل و نجاتهم منه بالغرق .

[و نصرناهم و كانوا هم الغالبين] أي نصرنا موسى و هارون و قومهما و هم بنو إسرائيل و غلبوا آل فرعون بظهور الحجّة و في آخر الأمر بالدولة والرفعة و استيرائهم ملك فرعون.

[و آتينا هما الكتاب المستبين] و المراد منه التوراة و هو الكتاب المشتمل على جميع العلوم الّتي يحتاجون إليها في مصالح الدين و الدنيا [و هديناهما الصراط المستقيم] أي دلّلناهما على طريق الحقّ .

[و تركنا عليهما في الآخرين] و هم اُمّة محمّد ﷺ خلفنا لهما الثناء الحسن و الذكر الجميل أي أبقينا فيما بين الاُمم الآخرين هذا الثناء و هو قولهم : سلام على موسى و هارون و يذكرونهما بهذا الثناء الجميل و يجوز أن يكون قوله : « سلام على موسى و هارون» هو كلام الله وثناؤه سبحانه عليهما بأن قلنا : «سلامٌ على موسى وهارون» .

[إنّا كذلك نجزي المحسنين] و مثل ذلك نفعل بالمطيعين [إنّهما من عبادنا المؤمنين] المصدّقين بجميع ما أوجبه الله عليهم العاملين بذلك .

قوله تعالى : و ان الياس لمن المرسلين (١٢٣) اذ قال لقومه الا تتقون (١٢٤) اتدعون بعلا و تذرون احسن الخالقين (١٢٥) الله ربكم ورب آبائكم الاولين (١٢٦) فكذبوه فانهم لمحضرون (١٢٧) الا عباد الله المخلصين (١٢٨) و تركنا عليه فى الاخرين (١٢٩) سلام على الياسين (١٣٠) انا كذلك نجزى المحسنين (١٣١) انه من عبادنا المؤمنين (١٣٢) .

قرأ ابن عامر «وإنّ إلياس» بغير همزة على وصف الألف والباقون بالهمزة وقطع الألف .

و اختلف في إلياس فقيل : هو إدريس و قيل : هو إلياس بن ياسين من سبط هارون أخي موسى بعث بعده و قيل : إدريس لأنّه قرىء مكانه إدريس و إدراس و قرىء إيليس .

و عن ابن عبّاس ومحمّد بن إسحاق وغيرهما قالوا : إنّه بعث بعد حزقيل لمّا عظمت الأحداث في بني إسرائيل وكان يوشع لمّا فتح الشام بوّأها بني إسرائيل و قسّمها بينهم فأحلّ سبط منهم بعلبكّ و هم سبط إلياس بعث فيهم نبيّاً فأجابه الملك ثمّ إنّ امرأته حملته على أن ارتدّ من دينه و خالف إلياس و طلبه الملك ليقتله فهرب إلى الجبال و البراري و كان الملك اسمه حبّ كان مؤمناً فأغوته امرأته فصار يعبد الأصنام و كان لامرأته سبعون ولداً منه ومن غيره وكان بجنب دارها بستان لعابد فطمعت فيه فقتلت العابد و تملّكت البستان فأخبرها إلياس بهلاكها و هلاك زوجها فأهلكهما الله .

و قيل : إنّه استخلف اليسع على بني إسرائيل و رفعه الله من بين أظهرهم و قطع عنه لذّة الطعام و الشراب و كساه الريش فصار إنسيّاً ملكيّاً أرضيّاً سماويّاً وسلّطه الله على الملك و قومه عدوّاً لهم فقتل الملك و امرأته و بعث الله اليسع رسولاً فآمنت به بنو إسرائيل و عظّموه .

و قيل : إنّ إلياس صاحب البراري و الخضر صاحب الجزائر و يجتمعان في كلّ يوم عرفة بعرفات .

و بالجملة ثمّ قال سبحانه حكاية عنه : [إذ قال لقومه ألا تتّقون] أي ألاتخافون الله و تعبدون غيره و تعصونه ثمّ ذكر القبيح الّذي لأجله خوّفهم فقال : [أتدعون بعلاً و تذرون أحسن الخالقين] و بعل اسم صنم كان لهم مثل « مناة و هبل » و كان من ذهب طوله عشرون ذراعاً و له أربعة أوجه و فتنوا به و عظّموه حتّى عيّنوا له أربعمائة سادن و جعلوهم أنبياء .

و قيل : كان الشيطان يدخل في جوف بعل و يتكلّم بشريعة الضلالة و السدنة يحفظونها و يعلّمونها الناس و به سمّيت مدينتهم لكن هذا القول و هو دخول الشيطان في جوف الصنم و تكلّمه بالضلال قول غير مقبول لأنّه إن صحّ هذه القدرة من الشيطان يرتفع الأمان عن المعجزات حينئذ .

[و تذرون] و تتركون عبادة [أحسن الخالقين] فرضاً بزعمكم ولمّا عابهم على عبادة غير الله صرّح بنفي الشركاء فقال : [الله ربّكم و ربّ آبائكم الأوّلين] و قرىء « الله ربّكم و ربّ آبائكم » كلّها بالنصب على البدل من قوله : « أحسن الخالقين» .

[فكذّبوه] أي كذّبوا قوله قومه : [فإنّهم لمحضرون] النار غداً ثمّ استثنى سبحانه منهم بقوله : [إلّا عباد الله المخلصين] وذلك لأنّهم ما كذّبوه بكلّيّتهم بل كان فيهم من كان يعبد الله مخلصاً فإنّهم لا يحضرون .

ثمّ قال : [و تركنا عليه في الآخرين سلام على آل ياسين] أي أبقينا له الذكر الحسن و « سلام » في هذه الآي كلّها مبتدء و الجارّ والمجرور بعده خبره و الجملة من المبتدء و الخبر في موضع المفعول لقوله « و تركنا » و لو اُعمل « تركنا » لفظاً لقال :

« سلاماً » بالنصب و يجوز أن يكون التقدير « و تركنا عليه في الآخرين » الباقين بعده الثناء فحذف « الثناء » و هو المفعول ثمّ ابتدأ فقال : «سلام» .

و بالجملة في كلمة « آل ياسين » أقوال قال ابن عبّاس : آل ياسين آل محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و ياسين من أسمائه و من قرأ « إلياسين » بالوصل أراد « إلياس » و من تبعه من مؤمن قومه و قيل : ياسين اسم السورة فكأنّه قال : سلام على من آمن بكتاب الله و القرآن الّذي هو يس قال أبو علي : من قرأ « آل يس » فحجّته أنّها في المصحف مفصولة من « يس» و في فصلها دلالة على أنّ آل هو الّذي تصغيره اُهيل .

قوله تعالى : وان لو طالمن المرسلين (١٣٣) اذ نجيناه و اهله اجمعين (١٣٤) الاعجوزافي الغابرين (١٣٥) ثم دمرناالاخرين (١٣٦) و انكم لتمرون عليهم مصبحين (١٣٧) و بالليل أفلا تعقلون (١٣٨) و ان يونس لمن المرسلين (١٣٩) اذ أبق الى الفلك المشحون (١٤٠) فساهم فكان من المدحضين (١٤١) فالتقمه الحوت و هو مليم (١٤٢) فلولا أنه كان من المسبحين (١٤٣) للبث فى بطنه الى يوم يبعثون (١٤٤) فنبذناه بالعراء و هو سقيم (١٤٥) و انبتنا عليه شجرة من يقطين (١٤٦) وارسلناه الى مائة الف أويزيدون(١٤٧) فآمنوا فمتعناهم الى حين (١٤٨) .

ثمّ عطف على ماتقدّم أي إنّ لوطاً رسول من جملة المرسلين الّذين أرسلهم الله إلى خلقه داعياً لهم على طاعة الله [إذ نجّينا و أهله أجمعين] و الظرف متعلّق بمحذوف تقديره : اذكر يا محمّد إذ نجّينا لوطاً ونجّيناه من آمن معه من قومه من عذاب الاستئصال [إلّا عجوزاً في الغابرين] أي في الباقين الّذين اُهلكوا استثنى من أهله و قومه الناجين امرأته فإنّها من الهالكين و « الغابر » في اللغة الباقي قليلاً بعد ما مضى منه و منه الغبار لأنّه يبقى بعد ذهاب التراب قليلاً .

[ثمّ دمّرنا الآخرين] أي أهلكناهم .

[و إنّكم لتمرّون عليهم مصبحين و بالليل] هذا خطاب لمشركي العرب أي تمرّون في ذهابكم ومجيئكم إلى الشام على منازلهم وقراهم بالنهار وبالليل و ذلك لأنّ القوم كانوا يسافرون إلى الشام و المسافر في أكثر الأسفار إنّما يمشي في الليل و في

أوّل النهار فلهذا السبب عيّن هذين الوقتين .

ثمّ قال : [أفلا تعقلون] حتّى تتعقّلون و تعتبرون ممّا نزل بهم فتجتنبوا ماكانوا يفعلونه من الكفر و الضلالة و الوجه في تكرار قصص الأنبياء التشويق إلى ما كانوا عليه من مكارم الأخلاق و صرف الخلق عمّا كان عليه أهل المعصية و مقابيح الأفعال .

قوله تعالى : [و إنّ يونس لمن المرسلين] واذكره [إذ أبق إلى الفلك المشحون] أي فرّ من قومه إلى السفينة المملوّة من الناس و الأحمال و كان فراره خوفاً من أن ينزل العذاب بهم و هو مقيم فيهم و ذلك لأنّه أحسّ إنزال الإهلاك و العذاب بقومه الّذين كذّبوه فظنّ أنّه نازل لا محالة فلأجل هذا الظنّ لم يصبر على دعائهم فكان الأولى عليه أن يبقى مع قومه و يستمرّ على دعائهم و أنّه أقدم على أمر ظهرت إمارته و إن كان الأولى في مثل هذا الباب أن لا يعمل فيه بالظنّ ثمّ انكشف ليونس من بعد أنّه أخطأ في ذلك الظنّ لأجل أنّه ظهر الإيمان من قومه .

و ذكروا وجهاً آخر و هو أنّ يونس كان وعد قومه بالعذاب . فلمّا تأخّر عنهم العذاب بسبب توبتهم خرج كالمستور عنهم و الخجلان منهم بقصد البحر و ركب السفينة فذلك قوله : « إذ أبق إلى الفلك » و تمام الكلام في مشكلات هذه الآية مرّ في قوله : « وذا النون إذ ذهب مغاضباً » الآية [1] في تفسير سورة يونس فليراجع هناك و أصل الهرب من السيّد لكن لمّا كان هرب يونس من قومه بغير إذن ربّه ظنّاً منه أنّ الهرب أمرٌ حسن ، حسن إطلاقه عليه .

قال ابن عبّاس في قصّة يونس : إنّه كان يسكن مع قومه فلسطين فغزاهم الملك وسبى منهم تسعة أسباط و نصفاً و بقي سبطان و نصف و كان الله أوحى إلى بني إسرائيل إذا أسركم عدوّكم أو أصابتكم مصيبة فادعوني أستجب لكم فلمّا نسوا ذلك و اُسروا أوحى الله بعد إلى نبيّ من أنبياء بني إسرائيل أن اذهب إلى ملك هؤلاء القوم وقل له : حتّى يطلب من الله أن يبعث إلى بني إسرائيل نبيّاً فاختار الملك يونس لقوّته و أمانته قال يونس : الله أمرك بهذا قال : لا ولكن اُمرت أن أبعث قويّاً أميناً و أنت كذلك فقال يونس : و في

(١) الانبياء : ٨٨ .

بني إسرائيل من هو أقوى منّي فلمَ لاتبعثه فألحّ الملك عليه فغضب يونس منه و خرج حتّى أتى البحر أي بحر الروم و وجد سفينة مشحونة فحملوه فيها فلمّا دخلت السفينة لجّة البحر أشرفت على الغرق فقال الملّاحون : إنّ فيكم عاصياً و إلّا لم يحصل في السفينة ما نراه من غير ريح ولا سبب ظاهر وقال التجّار : قد جرّبنا مثل هذا فإذا رأيناه نقترع فمن خرج سهمه نغرقه فلأن يغرق واحد خيرٌ من غرق الكلّ فتقارعوا فخرجت القرعة باسم يونس فقال التجّار نحن أولى من نبيّ الله ثمّ عادوا ثانياً و ثالثاً يقرعون فيخرج سهم يونس فقال يونس : يا هؤلاء أنا الآبق و تلفّف في كسائه و رمى بنفسه في البحر فابتلعه السمكة فأوحى الله إلى الحوت إنّي ما جعلته رزقاً لك لاتكسر منه عظماً و لا تقطع له وصلاً .

فذلك قوله تعالى : [فساهم فكان من المدحضين] أي من المغلوبين بالقرعة وأصل «الدحض» المزلق عن مقام الظفر .

[فالتقمه الحوت و هو مليم] أي فابتلعه من « اللقمة » و هو مليم أي داخل في الملامة أو آت بما يلام عليه أو مليم نفسه وقرىء « مليم» بالفتح بناء من ليم مثل مشيب في مشوب و هذا اللوم لوم العتاب لالوم العقاب على خروجه من قومه و عندنا الإماميّة أنّ ذلك وقع من يونس تركاً للمندوب و قد يلام الإنسان على ترك المندوب .

و اختلف في مدّة لبثه في بطن الحوت فقيل : ثلاثة أيّام وقيل : سبعة أيّام و قيل : عشرين يوماً وقيل : أربعين يوماً .

[فلولا أنّه كان المسبّحين] أي كان تسبيحه أنّه كان يقول : «لاإله إلّا أنت سبحانك إنّي كنت من الظالمين » وقيل :كان من المصلّين في حال الرجاء فنجّاه الله عند البلاء وقيل : كان ينزّه الله دائماً عمالايليق به [للبث في بطنه إلى يوم يبعثون] أي كان بطن الحوت قبره إلى يوم القيامة .

[فنبذناه بالعراء و هو سقيم] أي فطرحناه بالمكان العاري عن النبات و الشجر وقذفه الحوت بأمر الله من جوفه على وجه الساحل وهو مريض حين ألقاه الحوت وخرج من بطن الحوت كهيئة فرخ ليس عليه ريش .

[و أنبتنا عليه شجرة من يقطين] و هو القرع و اليقطين يقال لكلّ نبت ينبسط على وجه الأرض ولاساق له فكان يونس يستظلّ بها ويأكل من ثمرها حتّى تشدّدقيل : إنّ السمكة أخرجته إلى نيل مصر ثمّ إلى بحر فارس ثمّ إلى بحر البطائح ثمّ دخله و رمته بأرض نصيبين ثمّ إنّ الأرضة أكلت الشجرة فخرّت من أصلها فحزن يونس لذلك حزناً شديداً فقال : يا ربّ كنت أستظلّ تحت هذه الشجرة من الشمس و الريح و آكل من ثمرها و قد سقطت فقيل له : يا يونس تحزن على شجرة أنبتت في ساعة واقتلعت في ساعة ولا تحزن على مائة ألف أويزيدون تركتهم انطلق إليهم فانطلق إليهم وذلك قوله :

[و أرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون] قيل : إنّ الله أرسله إلى نينوى من أرض الموصل و كانت رسالته هذه بعد ما نبذه الحوت فعلى هذا يجوز أن يكون اُرسل إلى قوم بعد قوم أو أن يكون مرسلاً إلى الأوّلين بشريعة فآمنوا بها .

وقيل : في معنى «أو يزيدون» وجوهاً : أحدها أن يكون على طريق الإبهام على المخاطبين كأنّه قال : أرسلناه إلى احدى العدّتين و ثانيها أنّ « أو » للتخيير كأنّ الرائي خيّر بين أن يقول : مائة ألف أو يزيدون أي كانوا عدداً لو نظر إليهم الناظر لقال : هم مائة ألف أو يزيدون و ثالثها أنّ « أو » بمعنى الواو كأنّه قال : و يزيدون و قيل : معنى « أو » بل يزيدون واختلف في الزيادة على مائة ألف فقيل : عشرون ألفاً عن ابن عبّاس وقيل : بضع وثلاثون ألفاً وقيل : سبعون ألفاً .

[فآمنوا فمتّعناهم إلى حين] حكى سبحانه عنهم أنّهم آمنوا بالله وراجعوا التوبة فكشف عنهم العذاب ومتّعوا بالمنافع واللّذات إلى انقضاء آجالهم .

قوله تعالى : فاستفتهم ألربك البنات ولهم البنون (١٤٩) أم خلقنا الملائكة اناثا وهم شاهدون (١٥٠) الا انهم من افكهم ليقولون (١٥١) ولدالله وانهم لكاذبون (١٥٢) أصطفى البنات على البنين (١٥٣) مالكم كيف تحكمون (١٥٤) أفلا تذكرون (١٥٥) امْلكم سلطان مبين (١٥٦) فأتوا بكتابكم ان كنتم صادقين (١٥٧) وجعلوا بينه و بين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة انهم لمحضرون (١٥٨) سبحان الله عما يصفون (١٥٩) الا عباد الله المخلصين (١٦٠) .

قرىء « اصطفى » بكسر الهمزة وبفتح الهمزة .

ثمّ عاد الكلام إلى الردّ على مشركي العرب فقال سبحانه :

[فاستفتهم] أي سلهم واطلب الحكم منهم في هذه القصّة [ألربّك البنات ولهم البنون] أي كيف أضفتم البنات إلى الله واخترتم لأنفسكم البنين وذلك لأنّهم كانوا يقولون : إنّ الملائكة بنات الله على وجه الاصطفاء لاعلى وجه الولادة .

[أم خلقنا الملائكة إناثاً] أي بل خلقنا الملائكة إناثاً [وهم شاهدون] أي حاضرون أي كيف جعلوهم إناثاً ولم يشهدوا خلقهم والغرض من هذا البيان تبكيتهم على كفرهم حيث جعلوا البنات اللاتي هنّ أوضع الجنسين لله ولهم البنون الّذين أرفع الجنسين .

ونقل الواحديّ عن المفسّرين أنّهم قالوا : إنّ قريشاً وأجناس العرب قالوا : الملائكة بنات الله مع أنّهم كانوا يستنكفون من البنت والشيء الّذي يستنكف منه المخلوق كيف يثبتونه للخالق على أنّ إثبات الولد لله كفرٌ ثمّ كيف أضافوا الأُنوثيّة للملائكة مع أنّ الملائكة من أشرف الخلائق وأبعدهم من صفات الأجسام ورذائل الطباع والأُنوثة من أخسّ صفات الحيوان .

ثمّ أخبر سبحانه عن كذبهم فقال : [ألا إنّهم من إفكهم ليقولون ولد الله] حين زعموا أنّ الملائكة بنات الله [وإنّهم لكاذبون] في قولهم : « أصطفى البنات على البنين » دخلت همزة الاستفهام على همزة الوصل فسقطت همزة الوصل ومثله قول ذي الرّمة :

استحدث الركب عن أشياعهم خبراً * أم راجع القلب من أطرابه طرب

وحاصل المعنى كيف يختار الله سبحانه الأدون على الأعلى مع كونه حكيماً مالكاً .

ثمّ وبّخهم فقال : [مالكم كيف تحكمون] بهذا الحكم [أفلا تذكّرون] وتتّعظون فتنتهون عن مثل هذا القول السخيف .

[أم لكم سلطان مبين] أي حجّة وبيّنة على ما تقولون و هذا كلّه إنكار وردّ بصورة الاستفهام [فأتوا بكتابكم إن كنتم صادقين] أي فأتوا بحجّتكم على هذا الاعتقاد

والمراد أنّه لادليل لكم على ماتقولونه من جهة العقل ولا من جهة السمع .

قوله تعالى : [وجعلوا بينه وبين الجنّة نسباً] روينا في تفسير قوله : « و جعلوا لله شركاء الجنّ (١) » إنّ قوماً من الزنادقة كانوا يقولون : إنّ الله وإبليس أخوان فالله الأخ الكريم الخيّر وإبليس هو الشرير الخسيس فقوله : « و جعلوا بينه وبين الجنّة نسباً » المراد منه هذا المذهب وهو مذهب المجوس القائلين بيزدان و أهريمن هذا أحد الأقوال في تفسير الآية وحاصل هذا المعنى أنّ الله خالق الخير والنور والحيوان النافع والشيطان خالق الشرّ والظلمة والحيوان الضارّ الموذي .

والقول الثاني في معني الآية على قول المشركين من العرب حيث يقولون: إنّ الملائكة بنات الله وسمّي الملائكة جنّة الاستتارهم عن العيون .

و القول الثالث : إنّ الله صاهر الجنّ فحدثت الملائكة . تعالى الله عن هذه الأقوال السخيفة .

والقول الرابع أنّهم أشركوا الشيطان في عبادةالله فذلك هو النسب الّذي جعلوه بينه وبين الجنّة .

[ولقد علمت الجنّة أنّهم لمحضرون] أي علمت الملائكة أنّ هؤلاء الّذين قالوا هذا القول محضرون في العذاب يوم القيامة .

[سبحان‌الله عمّا يصفون] نزّه سبحانه نفسه عمّا لايليق به وأضافوه إليه [إلّا عبادالله المخلصين] استثنى عباده المخلصين عن هذه الأقوال القبيحة السخيفة ومن حضور العذاب .

قوله تعالى : فانكم وما تعبدون (١٦١) ما أنتم عليه بفاتنين (١٦٢) الا من هو صال الجحيم (١٦٣) وما منا الاله مقام معلوم (١٦٤) وانا لنحن الصافون (١٦٥) وانا لنحن المسبحون (١٦٦) وان كانوا ليقولون (١٦٧) لوأن عندنا ذكرا من الاولين (١٦٨) لكنا عباد الله المخلصين (١٦٩)فكفروا به فسوف يعلمون (١٧٠) .

ثمّ خاطب سبحانه الكفّار بأن قال لهم : [فإنّكم وما تعبدون] أي إنّكم يا

---

(١) الانعام : ١٠٠ .

معشر الكفّار والّذي تعبدونه [ما أنتم عليه بفاتنين] والضمير في « عليه » فيه قولان : أحدهما أنّه يعود إلي « ما تعبدون » والتقدير أنّكم وما تعبدونه ما أنتم على عبادته بفاتنين أحداً إلّا من يصلي الجهيم ويحترق بها بسوء اختياره وما أنتم بمضلّين أحداً ولا تقدرون على إضلال أحد إلّا من سبق في علم الله أنّه بسوء اختياره سيكفر ويصلي الجحيم والقول الآخر في الضمير من « عليه » أنّه يعود إلى الله والتقدير ما أنتم على الله وعلى دينه بمضلّين أحداً [إلّا من هو صال الجحيم] باختياره .

قوله : [وما منّا إلّا له مقام معلوم] هذا قول جبرئيل للنبيّ : أو قول الملائكة وصفوا بأنفسهم بالمبالغة في العبادة والعبوديّة وذكروا أنّهم يصطفّون للصلاة والتسبيح والغرض من بيان الآية التنبيه على فساد قول من يقول : إنّهم أولاد الله فإنّهم يعترفون بالعبوديّة والعبوديّة تنافي الأولاديّة .

وذكرا أنّ لكلّ منهم مرتبة لايتجاوزها درجة لايتعدّى عنها بقولهم : [وإنّا لنحن الصافّون] أي صافّون في أداء الطاعات ومنازل الخدمة وأمّا درجاتهم في المعارف فبقولهم : [وإنّا لنحن المسبّحون] .

قوله : [وإن كانوا ليقولون لوأنّ عندنا ذكراً من الأوّلين] المعنى أنّ مشركي العرب كانوا يقولون : « لو أنّ عندنا ذكراً » أي كتاباً من كُتب الأوّلين الّذي نزل عليهم مثل التوراة والإنجيل لأخلصنا العبادة لله و لمّا كذّبنا كما كذّب غيرنا ثمّ جاءهم الذكر الّذي هو سيّد الأذكار و الكتاب المهيمن الّذي فاق كلّ الكتب وهو القرآن .

[فكفروا به] و في الكلام حذف تقديره فلمّا أتاهم الكتاب كفروا به [فسوف يعلمون] عاقبة كفرهم .

قوله تعالى : ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين (١٧١) انهم لهم المنصورون (١٧٢) وان جندنا لهم الغالبون (١٧٣) فتول عنهم حتى حين (١٧٤) وابصرهم فسوف يبصرون (١٧٥) أفبعذابنا يستعجلون (١٧٦)

فاذا نزل بساحتهم فساء صباح المنذرين (١٧٧) وتول عنهم حتى حين (١٧٨) وابصر فسوف يبصرون (١٧٩) سبحان ربك رب العزة عما يصفون (١٨٠) وسلام على المرسلين (١٨١) والحمد لله رب العالمين (١٨٢).

المعنى لمّا هدد الكفّار بقوله : « فسوف يعلمون » أردفه بما يقوّي قلب الرسول ﷺ بقوله :[ولقد سبقت كلمتنا] أقسم وذكر لام القسم أي تقدّم في علم الله وحكمه أنّ المرسلين [لهم المنصورون وإنّ جندنا لهم الغالبون] فبيّن أنّه سبحانه وعد نبيّه بنصرته والدليل عليه قوله تعالى : « كتب الله لأغلبنّ أنا ورسلي [1] » وأيضاً إنّ الخير مقتض بالذات والشرّ مقتض بالعرض وما بالذات أقوى ممّا بالعرض .

وأمّا النصرة والغلبة قد تكون بالحجّة وقد تكون بالاستيلاء والدولة وقد تكون بالدوام والثبات فالمؤمن وإن صار مغلوباً في بعض الأوقات بسبب أحوال الدنيا لكن مع ذلك فالحقّ بما هو حقّ غالب ولا يلزم أن يقال : فقد قتل بعض الأنبياء وقد ضعف وهزم كثير من المؤمنين فهم مع ذلك غالبون بالسعادة وهؤلاء مغلوبون بالشقاوة بسوء العاقبة .

ثمّ قال لنبيّه : [فتولّ عنهم] أي أعرض عن هؤلاء الكفّار [حتّى حين] نأمرك فيه بقتالهم أو إلى يوم الموت وانقضاء مدّة الامهال .

[وأبصرهم فسوف يبصرون] أي أنظرهم فسوف يبصرون العذاب [أفبعذابنا يستعجلون] لأنّهم كانوا يقولون : متى هذا التهديد والوعيد الّذي توعدنا به فأنزل الله أفبعذابنا يطلبون العجلة ؟

[فإذا نزل] العذاب [بساحتهم] و بأفنية دورهم كما يستعجلون [فساء صباح المنذرين]أي بئس الصباح صباح من يحذّر ولم يحذر . و« الساحة » معناه الدار وفناؤها وكانت العرب تفاجيء أعداءها بالغارات صباحاً فخرج الكلام على عادتهم ولأنّ الله أجرى العادة بتعذيب الأمم وقت الصباح كما قال : « إنّ موعدهم الصبح أليس الصبح بقريب » .

[وتولّ عنهم حتّى حين وأبصر فسوف يبصرون] مرّ تفسيره وإنّما كرّر

(١) المجادلة : ٢١ .

للتأكيد والاهتمام بشأن التهديد و قيل : إنّ المراد بأحدهما عذاب الدنيا مثل بدر وأشباهه وبالآخر عذاب الآخرة .

ثمّ نزّه سبحانه نفسه عن وصفهم وبهتانهم فقال : [سبحان ربّك ربّ العزّة عمّا يصفون] أي تنزيهاً لربّك مالك العزّة يعزّ من يشاء لايملك أحد إعزاز أحد سواه [وسلام على المرسلين] أي سلامة وأمان للأنبياء من العذاب والسوء [والحمدلله ربّ العالمين] أي أحمدوا الله الّذي هومالك العالمين (وهو خبر معناه الأمر) وأخلصو الثناء والحمدلله ولا تشركوا به أحداً فإنّ النعم كلّها منه تعالى .

روى الأصبغ بن نباتة عن عليّ عليه السلام وروى أيضاً مرفوعاً إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: من أراد أن يكتال بالمكيال الأوفى من الأجر يوم القيامة فليكن آخر كلامه في مجلسه «سبحان ربك ربّ العزّة عمّا يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله ربّ العالمين».

تمّت السورة بعون الله

سورة ص

✡ (مكية) ✡

فضلها اُبيّ بن كعب عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم قال : من قرأ سورة ص اُعطي من الأجر بوزن كلّ جبل سخّر الله لداود حسنات و عصمه الله أن يصرّ على ذنب صغيراً أو كبيراً .

و روى العيّاشيّ عن أبي جعفر عليه السلام قال : من قرأ سورة ص في ليلة الجمعة اُعطي من خير الدنيا والآخرة مالم يعط أحد من الناس إلّا نبيّ مرسل أوملك مقرّب وأدخله الله الجنّة و كلّ من أحبّ من أهل بيته حتّى خادمه الّذي يخدمه وإن كان ليس في حدّ عياله ولا في حدّ من يشفع له وآمنه الله يوم الفزع الأكبر .

بسم الله الرحمن الرحيم

ص والقرآن ذى الذكر (١) بل الذين كفروا فى عزة وشقاق (٢) كم أهلكنا من قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص (٣) وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب (٤) اجعل الالهة الهاً واحدا ان هذا لشىءعجاب (٥).

النزول : قال المفسّرون : إنّ أشراف قريش وهم خمسة وعشرون منهم الوليد بن مغيرة وهو أكبرهم وأبوجهل واُبيّ واُميّة ابنا خلف وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والنضر بن الحارث أتوا أباطالب وقالوا : أنت شيخنا وكبيرنا وقد أتيناك لتقضي بيننا وبين إبن أخيك فإنّه سفّه أحلامنا و شتم آلهتنا فدعا أبوطالب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقال : ياابن أخي هؤلاء قومك يسألونك فقال : ماذا يسألونني قالوا : دعنا وآلهتنا ندعك وإلهك فقال صلى الله عليه وآله وسلم : أتعطونني كلمة واحدة تملكون العرب والعجم فقال أبوجهل : لله أبوك نعطيك ذلك وعشرة أمثالها فقال : قولوا : لاإله إلّا الله فقاموا وقالوا : « أجعل الآلهة إلهاً واحداً » فنزلت هذه الآيات .

وروي أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم استعبر ثمّ قال : ياعمّ والله لووضعت الشمس في يميني والقمر في شمالي ماتركت هذا القول حتّى أنفذه أواُقتل دونه فقال له أبوطالب : امض لأمرك فوالله لاأخذلك أبداً .

قوله تعالى : [ص] اختلفوا في معناه فقيل : هو اسم للسورة وقيل فيه ما قيل في فواتح السور وقد شرح بيانه في سورة البقرة مثل أن يكون « ص » اسماً من أسماء الله الّتي أوّلها صاد ومعناه صادق الوعد وصانع المصنوعات وصمد أومعناه صدّق محمّد فيما أخبر به عن الله أو المعنى صدّ الكفّار عن قبول هذا الدّين كما قال : [الّذين كفروا

وصدّوا عن سبيل الله[١] » وقيل : معناه أنّ القرآن مركّب من هذه الحروف وأنتم قادرون عليها و لستم قادرين على معارضة القرآن فدلّ ذلك على أنّ القرآن معجز، الخامس من المعاني أن يكون « صادِ » بالكسر من الدال من المصادّة وهي المعارضة و منها الصدى وهو ما يعارض صوتك في الأماكن الخالية الصلبة فحينئذ معناه : عارض القرآن و واجهه بعملك فاعمل بأوامره وانته عن نواهيه و إذا كان اسم للسورة فالتقدير: هذه السورة صاد و إذا كان المراد من «ص» صدق محمّد فالصاد هو المقسم عليه و قوله : [و القرآن ذي الذكر] هو القسم فالمعنى و القرآن ذي الذكر أنّ محمّداً لصادق فيما يخبر عن ربّه .

و المراد من قوله : «ذي الذكر » أي ذي البيان الّذي يؤدّي إلى الحقّ و يهدي إلى الرشد لأنّ فيه ذكر ما يحتاج الإنسان إليه من اُمور معاشه و معاده و ذكر الأنبياء و أخبار الأمم و البعث و الأحكام و قيل : المراد من «الذكر» الشرف ويؤيّده قوله :«وإنّه لذكر لك و لقومك[٢]» أو المراد منه ذكر الله و توحيده و أسمائه الحسنى و صفاته العليا.

و اختلف في جواب القسم على وجوه : أحدها أنّ جوابه محذوف فكأنّه قال : «والقرآن ذي الذكر» لقد جاء الحقّ وظهر الأمر و حذف الجواب في مثل هذا أبلغ فإنّ ذكر الجواب يقصر المعنى على وجه والحذف يصرف إلى كلّ وجه فيعمّ . و القول الثاني ما ذكرناه و هو أنّ جوابه «ص» يعني صدق محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم .

قوله : [بل الّذين كفروا في عزّة وشقاق] إضراباً عن ذلك كأنّه قيل : لاريب فيه قطعاً و ليس عدم إذعانهم للقرآن لشائبة ريب فيه بل هم في استكبار و حميّة شديدة و شقاق بعيد لله و لرسوله و لذلك لا يذعنون له و منعهم الحسد و التكبّر من الانقياد إلى الحقّ .

و المراد من العزّة ههنا العظمة و ما يعتقده الإنسان في نفسه من الأحوال الّتي تمنعه من متابعة الغير كما قال : « وإذا قيل له اتّق الله أخذته العزّة بالإثم[٣]» والمراد من الشقاق إظهار المخالفة على جهة المساوات للمخالف وهو مأخوذ من «الشقّ» كأنّه يرتفع عن أن يلزمه الانقياد له بل يجعل نفسه في شقّ وخصمه في شقّ فيريد أن يكون في شقّ نفسه و

(١) النساء : ١٦٦ .
(٢) الزخرف : ٤٩
(٣) البقره : ٢٠٦ .

لا يجري عليه حكم خصمه .

ثمّ إنّه سبحانه لمّا وصفهم بالعزّة و الشقاق خوّفهم فقال : [كم أهلكنا قبلهم من قرن فنادوا ولات حين مناص] و المعنى أنّهم نادوا عند نزول العذاب بسبب تكذيبهم الأنبياء و نادوا عند وقوع الهلاك بهم بالاستغاثة و ليس الوقت حين منجى و لا يفيد في ذلك الوقت الندامة والرجوع عند معاينة العذاب و هو كقوله : «فلمّا رأوا بأسنا قالوا آمنّا[1]» و كقوله : «الآن وقد عصيت قبل[2]» وقوله : « فلم يك ينفعهم إيمانهم لمّا رأوا بأسنا» [3].

و أمّا تحقيق الكلام في لفظ «لات» قال سيبويه : إنّ « لات » هي «لا » المشبّهة بليس زيدت عليها تاء التأنيث كما زيدت على ربّ و ثمّ للتأكيد و بسبب هذه الزيادة حدث لها أحكام : منها أنّها لا تدخل إلّا على الأحيان و منها أن لا يبرز إلّا أحد جزءيها إمّا الاسم و إمّا الخبر ويمتنع بروزهما جميعاً و قال الأخفش : إنّها لا النافية للجنس زيدت عليها التاء و خصّت بنفي الأحيان و « حين مناص » منصوب بها كأنّك قلت : و لات حين مناص لهم و يرتفع بالابتداء أي و لات حين مناص كائن لهم و المناص المنجى و الغوث يقال : ناصه ينوصه إذا أغاثه و استناص طلب المناص .

قوله تعالى : [و عجبوا أن جاء هم منذر منهم و قال الكافرون هذا ساحر كذّاب] و عجب الكافرون أن أتاهم من ينذرهم و يخوّفهم منهم قالوا : إنّ محمّداً مساوٍ لنا في الخلقة الظاهرة و الأخلاق الباطنة و النسب والشكل فكيف يختصّ من بيننا بهذا الأمر و هو من رهطنا و عشيرتنا فاستنكفوا من الدخول تحت طاعته و الانقياد لتكاليفه و ما كان سبب هذا التعجّب إلّا الحسد.

ثمّ نسبو إليه السحر و الكذب ثمّ قالوا : [أجعل] هذا الرجل [الآلهة] الكثيرة [إلهاً واحدا إنّ هذا لشيء عُجاب] و قاسوا بسبب تقليد آبائهم الحمقاء

---

(١) المؤمن : ٨٤ .

(٢) يونس : ٩١ .

(٣) المؤمن : ٨٥ .

و قالوا : لابدّ في حفظ هذا العالم الكثير من آلهة كثيرة يتكفّل كلّ واحد منهم بحفظ نوع و كان قياسهم الباطل أنّ اُولئك الأقوام من أسلافنا على كثرتهم وقوّة عقولهم كيف كانوا جاهلين و مبطلين و هذا الإنسان الواحد يكون محقّاً صادقاً و هذه التشريفات كانت منشأ عجبهم .

و « العجاب » هو العجيب إلّا أنّه أبلغ كقولهم : طويل و طوال و كبير و كبار و قد يسدّد للمبالغة مثل « ومكرو امكراً كبّارا » .

قوله : و انطلق الملاء منهم أن امشوا و اصبروا على آلهتكم ان هذا لشيء يراد(٦) ماسمعنا بهذا فى الملة الاخرة ان هذا الا اختلاق (٧) ءانزل عليه الذكر من بيننا بل هم فى شك من ذكرى بل لما يذوقوا عذاب (٨) ام عند هم خزائن رحمة ربك العزيز الوهاب(٩) ام لهم ملك السموات و الارض و ما بينهما فليرتقوا فى الاسباب (١٠) .

المعنى : هذا تمام الحكاية عن الكفّار أي انطلق الأشراف منهم و «الانطلاق» الذهاب بسهولة و منه طلاقة الوجه و الخلق و كان يقول بعضهم لبعض : [امشوا واصبروا على آلهتكم] و اثبتوا على عبادة آلهتكم و اصبروا على دينكم و تحمّلوا المشاقّ وقيل: القائل منهم عقبة بن أبي معيط .

قال الزمخشريّ : «أن امشوا» «أن» ههنا بمعنى « أي » و هي المفسّرة عن القول أي قال بعضهم لبعض : «امشوا واصبروا على آلهتكم » و اعبدوها متحمّلين لما تسمعونه من القدح .

[إنّ هذا لشيء يراد] أي إنّ هذا الّذي شاهدناه من محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و من أمر التوحيد و نفي الآلهة و إبطال أمرها لشيء يراد من جهته صلّى الله عليه وآله وسلّم و لا يمكن أن يلويه صارف و لاعاطف يثنيه فاقطعوا أطماعكم عن استنزاله من هذا الرأي بواسطة أبي طالب أو غيره و قيل : المعنى إنّ هذا لشيء من نوائب الدهر يراد بنا فلا انفكاك لنا منه وقيل: إنّ هذا الّذي يدّعيه من التوحيد أو يقصده من الرياسة و الترفّع على العرب و العجم لشيء يتمنّى و يريده كلّ أحد قال القفّال : هذه كلمة تذكر للتهديد وكان معناه أنّه ليس

غرض محمّد من هذا القول تقرير الدين و إنّما غرضه أن يستولي علينا فيحكم في أموالنا و أنفسنا بما يريد .

[ما سمعنا بهذا في الملّة الآخرة] و المراد من « الملّة الآخرة » هي ملّة النصارى أي هذا التوحيد الّذي أتى به محمّد ما سمعناه في دين النصارى لأنّها آخر الملل قال ابن عبّاس : لأنّ النصارى لايوحّدون وأنّهم يقولون بقوله : « ثالث ثلاثة » و قيل : المراد من «الملّة الآخرة » ملّة قريش أي ملّة زماننا .

[إن هذا] أي ليس هذا الّذي يقوله محمّد صلى الله عليه وآله وسلم [إلّا اختلاق] أي تصنّع و كذب و افتعال أي كذب اختلقه و اخترعه .

[ءاُنزل عليه الذكر من بيننا] هذه شبهة من المشركين أي كيف اُنزل على محمّد القرآن من بيننا و ليس بأكبر سنّاً منّا ولا بأعظم شرفاً وهو مساوٍ لنا في البشريّة و الخلقة الظاهرة فكيف اختصّ بهذه الفضيلة ؟ و هذا القياس باطل لأنّهم زعموا أنّ الشرف بالمال و الأعوان فعقدوا على هذا القياس الفاسد أمرهم و أفكارهم .

فأجاب سبحانه [بل هم في شكّ من ذكري] أي ليس يحملهم على هذا الاستبعاد إلّا الشكّ في هذا القرآن و الوحي الّذى أنزلناه إليك و إعراضهم عن النظر و التدبّر إلى الأدلّة المؤدّية إلى العلم بحقيقته [بل لمّا يذوقوا عذاب] أي إذا أذاقوه تبيّن لهم حقيقة الحال و في كلمة « لمّا » دلالة على أنّ ذوقهم على شرف الوقوع و المعنى أنّهم لا يصدّقون بالقرآن حتّى يمسّهم العذاب و لأنّهم لم يذوقوا العذاب الموعود و لذلك شكّوا .

[أم عندهم خزائن رحمة ربّك العزيز الوهّاب] تتمّة الجواب عن شبهتهم بقولهم : « ءاُنزل عليه الذكر من بيننا » فقال سبحانه : أبأيديهم مفاتيح النبوّة و الرسالة فيضعونها حيث يشاءوا من صناديدهم أي أنّها ليست بأيديهم و ليس لهم تعيين النبيّ و الرسول حتّى يضعوا النبوّة فيمن أرادوه و لكنّها بيد العزيز الغالب في ملكه كثير الهبات و العطايا يختار للنبوّة من يشاء من عباده .

[أم لهم ملك السماوات و الأرض و ما بينهما فليرتقوا في الأسباب] أي ألهم

سلطة و اختيار في السماوات والأرض فيمنعون الله من مراده ، إن ادّعوا ذلك فليصعدوا في المعارج و المناهج و المدارج الّتي يتوصّل بها إلى السماوات و يدبّروا أمرها وينزلوا الوحي إلى من يختارونه و هذا الكلام جواب عن شرط محذوف أي إن كان لهم ما ذكر من الملك « فليرتقوا في الأسباب » .

و لمّا ذكرسبحانه في الآية الاُولى بقوله : « أم عندهم خزائن رحمة ربّك» و ذكر الخزائن على عمومها و هي غير متناهية أردفها بذكرملك السموات و الأرض يعني أنّ ملك السماوات و الأرض أحد أنواع خزائن الله فإذا كنتم عاجزين عن هذا القسم و كيفيّة صعود ها وتصرّفها فبأن تكونوا عاجزين عن كلّ خزائن الله كان أولى .

قوله تعالى : جند ما هنالك مهزوم من الاحزاب (١١) كذبت قبلهم قوم نوح و عاد و فرعون ذوالاوتاد (١٢) و ثمود و قوم لوط و اصحاب الايكة اولئك الاحزاب (١٣) ان كل الاكذب الرسل فحق عقاب (١٤) و ما ينظر هؤلاء الا صيحة واحدة مالها من فواق(١٥) .

المعنى : أخبر سبحانه عن الكفّار القائلين بهذه الأقوال السخيفة نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم و هو بمكّة أنّهم سيهزمون و أنت منصورٌ عليهم و هم الّذين تحزّبوا و حاربوا النبيّ و « ما » زائدة مؤكّدة للتحقير مثل أكلت شيئاً مّا ويجوز أن يكون للتعظيم هزؤاً فيؤول إلى التحقيروقيل : المراد بقوله«هنالك» يوم بدرأو المرادالموضع الّذي ذكروا هذه المقالات السخيفة و يمكن أن يكون حمله على يوم فتح مكّة .

و وجه النظم في الآية بما قبلها أنّ المعنى كيف يتقوّلون بهذه الأقاويل و كيف يرتقون إلى السماء وهم فرق من قبائل شتّى مهزومون ؟

قوله : [كذّبت قبلهم] أي كذّبت قبل هؤلاء الكفّار [قوم نوح و عاد وفرعون ذو الأوتاد] أي أقوام الأنبياء قبلك كذلك كذّبوا أنبياءهم و هكذا كانوا يكذّبون رسلهم ثمّ بالآخرة نزل العذاب بهم فذكر ستّة أصناف منهم : أوّلهم قوم نوح فأهلكهم الله بالغرق و الطوفان . و الثاني عاد قوم هود لمّا كذّبوه أهلكهم الله بالريح العقيم . و الثالث فرعون لمّا كذّب موسى أهلكه الله مع قومه بالغرق . والرابع ثمود قوم صالح لمّا كذّبوه فاُهلكوا

بالصيحة . و الخامس قوم لوط كذّبوه فأهلكوا بالخسف . و السادس أصحاب الأيكة و هم قوم شعيب فلمّا كذّبوه فأهلكوا بعذاب يوم الظلّة .

و إنّما وصف الله فرعون بكونه ذوالأوتاد لوجوه :

الاول : أنّ أصل هذه الكلمة من أصل ثبات البيت المطنّب بأوتاده ثمّ استعير لإثبات العزّ و الملك قال الشاعر :

و لقد غنوا فيها بأنعم عيشة * في ظلّ ملك ثابت الأوتاد

و هذا المعنى أحسن الوجوه .

و الثاني أنّه كان ينصب الخشب في الهواء و كان يمدّ يدي المعذّب و رجليه إلى تلك الخشب الأربع و يضرب على كلّ واحد من هذه الأعضاء وتداً و يتركه معلّقاً في الهواء إلى أن يموت .

و الثالث أنّه يمدّ المعذّب بين أربعة أوتاد في الأرض و يرسل عليه العقارب و الحيّات .

و الرابع قال قتادة : كانت عنده أوتاداً و أرساناً و ملاعب يلعب بها عنده .

و الخامس أنّ عساكره كانوا كثيرين وكانوا كثيري الأهبة عظيمي النعم وكانوا يكثرون من الأوتاد لأجل الخيام فعرّف بها .

قوله تعالى : [أُولئك الأحزاب] مبالغة لوصفهم بالقوّة و الكثرة و المعنى أنّ حال أُولئك الأحزاب مع كمال قوّتهم لمّا كان عاقبة أمرهم الهلاك و البوار فكيف هؤلاء الضعفاء ؟

و لمّا ذكر حال المكذّبين بيّن أن مشركي قريش حزبٌ من هؤلاء الأحزاب و معناه هم الأحزاب حقّاً أي أحزاب الشيطان كما يقال : هم هم و فلان هو الرجل قال الشاعر :

و إنّ الّذي حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كلّ القوم يا أُمّ خالد

[إن كلٌّ إلّا كذّب الرسل فحقّ عقاب]أي ما كلّ حزب منهم إلّا كذّب الرسل فوجب عليهم عقابي بتكذيبهم رسلي [و ما ينظر] أي و ما ينتظر [هؤلاء] يعني كفّار

مكّة [إلّا صيحةً واحدةً] و هي النفخة الاُولى في الصور [مالها من فواق] أي لا يكون لتلك الصيحة إفاقة بالرجوع إلى الدنيا أو لا يتمكّنون من الرجوع مقدار زمان رجوع اللبن إلى الضرع . قال الفرّاء : إذا ارتضعت البهيمة اُمّها ثمّ تركها حتّى تنزل فتلك الإفاقة و الفواق ثمّ قيل لكلّ إنظار و استراحة و قيل : المعنى مالها من فتور كما يفتر المريض أو مالها مثنويّة و ردّ وصرف .

قال الطبرسيّ : من الآيات الدالّة على عدم تعذيب هذه الاُمّة بعذاب الاستئصال هذه الآية و المراد أنّ عقوبة اُمّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بعذاب الاستئصال مؤخّرة إلى يوم القيامة و عقوبة سائر الاُمم معجّلة في الدنيا كما قال سبحانه : « بل الساعة موعدهم و الساعة أدهى وأمرّ (١) » .

قوله تعالى : وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب (١٦) اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود ذا الايد انه أواب (١٧) انا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والاشراق (١٨) و الطير محشورة كل له أواب (١٩) و شددنا ملكه و آتيناه الحكمة وفصل الخطاب (٢٠) .

[وقالوا] أي هؤلاء الكفّار : [ربّنا] أي يا ربّنا [عجّل لنا قطّنا] قدّم لنا نصيبنا من العذاب [قبل يوم الحساب] و إنّما قالوه على سبيل الاستهزاء بخبر النبيّ وخبر الله عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة وجماعة .

و قيل : لمّا نزل « و أمّا من اُوتي كتابه بيمينه ، و أمّا من اُوتي كتابه بشماله (٢) » قال قريش : يا محمّد زعمت أنّا نؤتى كتابنا بشمالنا فعجّل لنا كتبنا الّتي نقرؤها في الآخرة وذلك استهزاء منهم بهذا الوعيد و تكذيباً به و « القطّ » كتب الجوائز و الحكم و اشتقاقها من القطّ و هو القطع لأنّها تقطع النصيب و العمل والقطّ الحساب أيضاً قال الأعشى :

و لا الملك النعمان يوم لقيته * بنعمته يعطي القطوط و يافق

و بالجملة إنّ القوم قد كمل كفرهم في الشبهات الثلاثة الّتي أوردوها : اُولاها تتعلّق

---

(١) القمر : ٤٦ .

(٢) الحاقه : ١٩و٢٥ .

بالإلهيّات و هو قوله تعالى حكايةً عنهم « أجعل الآلهة إلها واحداً » . والثانية تتعلّق بالنبوّة و هو قوله : « ءأُنزل عليه الذكر من بيننا » . والثالثة تتعلّق بالمعاد وهو قوله : «وقالوا ربّنا عجّل لنا قطّنا قبل يوم الحساب » .

قوله تعالى : [اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود] سلّى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم بالصبر إن كنت قد شاهدت من هؤلاء الجهلة جرأتهم في مثل هذه الاُمور اصبر و تحمّل أذاهم كأنّه قال : و اذكر لهم الأكابر من الأنبياء كيف كانوا يخافون الله مع أنّهم معصومون من المعاصي و منهم داود فإنّه بسبب ترك مندوب كيف خاف من ربّه كما حكى عنه بكاءه الدائب وغمّه الواصب وندمه الدائم فما الظنّ بهؤلاء الكفرة الأذلّين من كلّ ذليل المصرّين لأكبر الكبائر والغرض من الآية وذكر القصّة تهويل لأمر المعصية في أعين الناس و تنبيهاً لهم على كمال قبح ما اجترءوا عليه و أيضاً تثبيت للرسول على مقاساة أمر النبوّة وصيانة نفسه الشريفة على التحمّل والتصبّر على أذيّاتهم .

[و اذكر عبدنا داود ذا الأيد] في التوحيد عن الباقر عليه السلام : اليد في كلام العرب القوّة و النعمة و قيل : ذو القوّة على العبادة ذكر أنّه كان يقوم نصف الليل و يصوم نصف الدهر و كان يصوم يوماً و يفطر يوماً و ذلك أشدّ الصوم و قيل : المراد بالقوّة في البدن روي أنّه رمى بحجر من مقلاعه صدر الرجل فأنفذه من ظهره فأصاب آخر فقتله و قيل : معناه ذا التمكين العظيم و النعمة العظيمة و ذلك أنّه كان يبيت كلّ ليلة حول محرابه اُلوف كثيرة من الرجال .

و إنّ هذا الوصف الّذي وصف داود و هو قوله : « عبدنا » نهاية في التعظيم مقام أعلى و أسنى منهم ألاترى أنّه سبحانه قال : «سبحان الّذي أسرى بعبده [1] » و هذا بيان تشريف محمّد صلى الله عليه وآله وسلم في ليلة المعراج وإنّما وصف سبحانه عباده المخلص بالعبوديّة مشعراً بأنّهم قد حقّقوا معنى العبوديّة بسبب الاجتهاد في الطاعة .

[إنّه أوّاب] أي رجّاع كثير الرجوع إلى مرضاة الله و يراجع اُموره كلّها إلى طاعتي و رضاي و يرجع عن كلّ ما يكره الله إلى ما كلّ يحبّ الله من آب يؤوب

---

(١) الاسراء : ١ .

إذا رجع و قيل : معناه أي مسبّح و قيل : مطيع قوله تعالى : [إنّا سخّرنا الجبال معه يسبّحن بالعشيّ والإشراق] و ذكر في تسبيح الجبال وجوه :

الاول : أنّ الله خلق في جسم الجبل حياةً و قدرةً و عقلاً و منطقاً و حينئذصار الجبل مسبّحاً لله تعالى و نظيره قوله تعالى : « فلمّا تجلّى ربّه للجبل [1] » فإنّ معناه أنّه تعالى خلق في الجبل عقلاً و فهماً ثمّ خلق فيه رؤية عظمة الله فكذا ههنا .

الثاني : ما رواه القفّال المروزيّ في تأويل التسبيح أنّه يجوز أن يقال : إنّ داود قد أُوتي من شدّة حسن الصوت ما كان له دويّ حسن في الجبال و ما يصغي إليه الطير لحسنه فيكون دويّ الجبال و تصويت الطير وتغريده معه تسبيحاً لهم وذكر محمّد بن إسحاق أنّ الله لم يعط أحداً من خلقه مثل صوت داود حتّى إنّه كان إذا قرأ الزبور دنت منه الوحوش حتّى يأخذ عليه السلام بأعناقهم .

والوجه الثالث من الوجوه أنّ الله سيّر الجبال معه حتّى أنّها كانت تسير إلى حيث يريده و يتبعه و كان ذلك السير تسبيحاً لها لأنّه كان يدلّ على كمال قدرة الله و حكمته .

قال صاحب الكشّاف : « يسبّحن » في معنى مسبّحات فإنّ صيغة الفعل تدلّ على الحدوث والتجدّد و صيغة الاسم على الدوام فقوله : «يسبّحن» يدلّ على التجدّد والحدوث في التسبيح من الجبال شيئاً بعد شيء و حالاً بعد حال .

قوله : [بالعشيّ و الإشراق] أي بالرواح و الصباح يقول : الشمس إذا طلعت أشرقت وصفا شعاعها .

قوله : [و الطير] أي و سخّرنا الطير [محشورة] أي مجموعة إليه تسبّح الله تعالى معه [كلّ] يعني كلّ الطير و الجبال له [أوّاب] رجّاع إليه مطيعٌ له بالتسبيح قال الجبّائيّ : لايمتنع أن يكون الله خلق في الطيور من المعارف ما تفهم بها أمر داود و نهيه فتطيعه في مايريد منها وإن لم تكن كاملة العقل مكلّفة .

[وشددنا ملكه] أي قوّينا ملكه بالحرس والجنود والهيبة و كثرة العدّة و العدد

(١) الاعراف : ١٤٢ .

عن ابن عبّاس أنّه كان يحرسه كلّ ليلة ستّة وثلاثون ألف رجل وقيل : أربعون ألفاً وكان أشدّ ملوك الأرض سلطاناً .

و عن عكرمة عن ابن عبّاس أنّ رجلاً ادّعى عند داود على رجل أخذ منه بقرة فأنكر المدّعى عليه فقال داود للمدّعي : أقم البيّنة فلم يقمها فرأى داود في منامه أنّ الله يأمره أن يقتل المدّعى عليه فتثبّت داود و قال : هومنام فأتاه الوحي بعد ذلك بأن يقتله فأحضره و أعلمه أنّ الله يأمره بقتله فقال المدّعى عليه : صدق الله إنّي كنت قتلت أبا هذا الرجل غيلة فقتله داود فبهذه الواقعة شدّت ملكه و أمّا الأسباب الدينيّة الموجبة لهذا الشدّ فهي الصبر و التأمّل التامّ و الاحتياط الكامل فحصل له مقام العبوديّة و التقوى .

قوله : [وآتيناه الحكمة و فصل الخطاب] و المراد بالحكمة النبوّة أوالعلم بالله و شرائعه و المراد « بفصل الخطاب » هو العلم بالقضاء و الفهم والعالم بالحكمة أن يكون الإنسان يعلم حقائق الأشياء على ماهي عليه بقدر الطاقة البشريّة والعامل بالحكمة أن يكون آتياً بالعمل الأصلح الأصوب بمصالح الدنيا و الآخرة فهذا هو الحكمة . و إنّما سمّي هذا الأمر بالحكمة لأنّ اشتقاق الحكمة من إحكام الاُمور و تبعيدها عن أسباب الرخاوة و الضعف فلهذا السبب سمّيت تلك المعارف و هذه الأعمال بالحكمة و المراد من «فصل الخطاب» على ما ذكرنا معرفة اُمور الّتي بها يفصل بين الخصوم حسبما قرّره الشارع وبحيث لايختلط شيء بشيء آخر وينفصل كلّ مقام من مقام .

قوله تعالى : وهل أتاك نبؤ الخصم اذتسوروا المحراب (٢١) اذدخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق و لا تشطط و اهدنا الى سواء الصراط (٢٢) ان هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلنيها و عزني في الخطاب (٢٣) قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك الى نعاجه وان كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض الا الذين آمنوا و عملوا الصالحات و قليل ماهم و ظن داود انما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا واناب (٢٤) فغفرنا له ذلك وان له عندنا لزلفى و حسن مآب (٢٥) .

المعنى : فقوله تعالى: [و هل أتاك نبأ الخصم] فهو نظير قوله : « هل أتاك حديث موسى » و فائدة هذا الاستفهام التنبيه على جلالة القصّة المستفهم عنها ليكون داعياً إلى الاعتبار بها .

قال الرازيّ : و أقول : للناس في هذه القصّة ثلاثة أقوال :

أحدها ذكر هذه القصّة على وجه يدلّ على صدور الكبيرة عن داود عليه السلام . وثانيها دلالتها على صدور الصغيرة عنه . و ثالثها بحيث لا تدلّ على الكبيرة ولا على الصغيرة .

فأمّا القول الأوّل فحاصل كلامهم فيها أنّ داود عشق امرأة اُوريا فاحتال بالوجوه الكثيرة حتّى قتل زوجها ثمّ تزوّج بها فأرسل الله إليه ملكين في صورة المتخاصمين في واقعة شبيهة بواقعته و عرضا تلك الواقعة عليه فحكم داود بحكم لزم منه اعترافه بكونه مذنباً فتنبّه لذلك و اشتغل بالتوبة.

و هذا القول باطل و في نهاية الفساد من وجوه :

الاول أنّ هذه الحكاية لو نسبت إلى أفسق النّاس و أشدّهم فجوراً لا ستنكف منها و الرجل الحشويّ الخبيث الّذي يقرّر تلك القصّة لو نسب إلى مثل هذا العمل لبالغ في تنزيه نفسه و ربّما لعن من ينسبه إليها و إذا كان الأمر كذلك فكيف يليق بالعاقل نسبتها إلى المعصوم ؟

الثاني أنّ حاصل القصّة يرجع إلى أمرين إلى السعي في قتل رجل مسلم بغير حقّ و إلى الطمع في زوجته أمّا الأول فأمر منكر قال صلى الله عليه وآله وسلم : من سعى في دم مسلم و لو بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه «آيس من رحمة الله» وأمّا الثاني فإنّ اُوريا على قولكم لم يسلم من داود لا في زوجه و لا في منكوحه و قد قال صلى الله عليه وآله وسلم : المسلم من سلم المسلمون من يده و لسانه .

والوجه الثالث أنّ الله سبحانه وصف داود في الآية السابقة بصفات فائقة جليلة و وصفه أيضاً كثيرة حسنة بعد هذه القصّة و كلّ هذه الصفات تنافي كونه عليه السلام موصوفاً بهذا الفعل المنكر و لو قلنا : إنّ داود صدرت منه هذه الكبائر لغرض شهوته فكيف يليق بأحكم الحاكمين أن يأمر محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الرسل بأن يقتدي بداود

في الصبر والطاعة و كيف يكون من هو قلبه مشغول بالفجور و القتل و حظّ النفس كثير الرجوع إلى الله في الطاعة و أن يكون « أوّاباً » بصيغة المبالغة و كيف يليق بمثل هذا الانسان أن تكون الجبال و الطيور مسخّرة و تابعة له ليتّخذه وسيلة إلى القتل و الفجور ؟ و قد قيل : إنّه كان محرّماً عليه صيد شيء من الطير فحينئذ بزعمكم أنّ الطير آمن منه و لا ينجو منه الرجل المسلم على نفسه و زوجته ؟ و قد قال الله تعالى : في حقّه « و شددنا ملكه » و قد وفسّروا تشديد ملكه بما يقوّي الدين و بأسباب السعادة كما بيّنّا في موضعه قبل هذا و من لا يملك نفسه عن امرأة كيف يليق بذلك ؟

ثمّ وصفه تعالى بأنّه مأتيّ الحكمة و الحكم كما قال : « و آتيناه الحكمة و فصل الخطاب » و كلّ من كان موصوفاً بهذه الصفات و قابلاً لهذه المواهب الجليلة كيف يرضى أن يصدر منه أمور يستنكف منه الشيطان و كلّ هذه المدائح الّتي مدحه الله تعالى و منحه بها دالّة أنّ براءة ساحته عن تلك الأكاذيب قبل شرح القصّة .

و أمّا الصفات المذكورة بعد القصّة فهي أيضاً ناطقة بعلوّ ساحته عن مثل هذه المقامات مثل قوله : « و إنّ له عندنا لزلفى و حسن مآب » و ذكر مثل هذا الكلام إنّما يناسب في حقّ من هو قويّ في طاعة الله أمّا لو كانت القصّة المتقدّمة دالّة على سعيه في القتل و الفجور لم يكن قوله : « و إنّ له عندنا لزلفى » لائقاً به و أمّا قوله تعالى : « ياداود إنّا جعلناك خليفة في الأرض » يدلّ على كذب هذه المقالات لأنّ الملك العظيم الشأن إذا حكى عن بعض عبيده أنّه قصد دماء الناس و أموالهم و أزواجهم فبعد فراغه من شرح القصّة على ملأ من الناس يقبح منه أن يقول عقيبه : أيّها العبد إنّي فوّضت إليك خلافتي و نيابتي فإنّ ذكر تلك القبائح يناسب الزجر و الحجر لا أن يجعله خليفة نفسه و من المعلومة في أصول الفقه أنّ ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب للحكم يدلّ على كون ذلك الحكم معلّلاً بذلك الوصف فلمّا حكى الله عنه تلك الواقعة القبيحة ثمّ قال بعده « إنّا جعلناك خليفة في الأرض » أشعر هذا بأنّ الموجب لتفويض هذه الخلافة هو إتيانه بتلك الأفعال المنكرة و معلوم أنّ هذا فاسد كيف لا ؟ و ذكر العشق و السعي في القتل من أعظم منافيات الخلافة وباب العيوب .

والعجب أنّ القائلين بهذه الروايات الفاسدة المجعولة ذكروا أنّ داود تمنّى أن يحصل له في الدين كما حصل للأنبياء الكبار من المنازل العالية مثل ما حصل للخليل من الإلقاء في النار و حصل للذبيح من الذبح و حصل ليعقوب من الشدائد الموجبة لكثرة الثواب و الأجر فأوحى الله إليه أنّهم إنّما وجدوا تلك الدرجات لأنّهم لمّا ابتلوا صبروا فعند ذلك سأل داود الابتلاء فأوحى الله إليه : إنّك ستبتلي يوم كذا فبالغ في الاحتراز ثمّ وقعت الواقعة و هي أنّ داود كان يصلّي في محرابه إذ تصوّر له إبليس بصورة طير أحسن ما يكون في الطيور فقطع داود صلاته و قام ليأخذ الطير فخرج الطير إلى الدار فخرج في أثره فطار الطير إلى السطح فصعد داود في طلبه فسقط الطير في دار اُوريا بن حيّان فاطّلع داود في أثر الطير فإذا بامرأة اُوريا تغتسل فلمّا نظر إليها هوا ها و كان قد أخرج اُوريا في بعض غزواته فكتب إلى صاحبه أن قدّم اُوريا أمام التابوت فقدّم فظفر بالمشركين فصعب ذلك على داود فكتب داود إلى صاحبه ثانياً أن قدّم اوريا أمام التابوت فقدّمه فقتل اُوريا و تزوّج داود بامرأته و كلّ هذا باطل.

و في العيون عن الرضا عليه السلام في حديث عصمة الأنبياء قال : لمّا حكي هذه الرواية الفاسدة للرضا عليه السلام ضرب الرضا يده على جبهته و قال عليه السلام : إنّا لله و إنّا إليه راجعون لقد نسبتم نبيّاً من أنبياء الله إلى التهاون بصلاته حتّى خرج في أثر الطير ثمّ الفاحشة ثمّ بالقتل ! فقيل : ياابن رسول الله فما كان خطيئة داود فقال : و يحك إنّ داود إنّما ظنّ أنّه ما خلق الله عزّوجلّ خلقاً هو أعلم منه فبعث الله إليه الملكين فتسوّروا المحراب فقالاله : « خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحقّ و لاتشطط واهدنا إلى سواء الصراط إنّ هذا أخي له تسع و تسعون نعجة ولي نعجة واحدة فقال اكفلنيها و عزّني في الخطاب » فجعل داود على المدّعى عليه فقال : « لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه » و لم يسأل المدّعي البيّنة على ذلك و لم يقبل على المدّعى عليه فيقول له ، فكان هذه خطيئته و ليس كما ذهبتم إليه ألا تسمع قول الله تعالى يقول : « يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحقّ » فقيل : له ياابن رسول الله صلى الله عليه وآله فماقصّته مع اُوريا ؟ قال الرضا : إنّ المرأة في أيّام داود إذا مات بعلها

أوقتل لا تتزوّج بعده أبداً فأوّل من أباح الله أن يتزوّج بامرأة قتل بعلها داود فتزوّج بامرأة أُوريا لمّا انقضت عدّتها فذلك الّذي شقّ على الناس .

و يؤيّد هذا الحديث الصحيح ما روي في المجمع عن عليّ عليه السلام و قد نقل هذا الحديث الرازيّ في المفاتيح عن عليّ عليه السلام قال : لا أُوتي برجل يزعم أنّ داود تزوّج بامرأة أُريا بهذه النسبة الفاسدة إلّا جلّدته حدّين حدّاً للنبوّة وحدّاً للإسلام .

و روي عنه عليه السلام أيضاً قال : من حدث بحديث داود على ما يرويه القصّاصون جلّدته مائة وستّين جلدة .

و بالجملة فذكر هذه القصّة على ما فسّروه الحشويّة ومثل قصّة يوسف يقتضي إشاعة الفاحشة فوجب أن يكون مثل هذا الذكر محترماً كقوله تعالى : « إنّ الّذين يحبّون أن تشيع الفاحشة في الّذين آمنوا » و لا شكّ أنّ داود من كبار المؤمنين فيجب ردّ هذه الكلمات الواهية و ثبت بهذه الوجوه المذكورة أنّ القصّة الّتي ذكروها فاسدة باطلة .

فإن قيل : إنّ كثيراً من المحدّثين والمفسّرين ذكروا هذه القصّة فكيف الحال فيها ؟

فالجواب أنّه لمّا وقع التعارض بين الدلائل القاطعة و بين خبر واحد من الأخبار الآحاد كان الرجوع إلى الدلائل القاطعة سيّما إذا تعارض هذا الخبر مع ما روي من الحديثين الصحيحين عن عليّ عليه السلام و عن الرضا حسبما شرحناه فحينئذ تلك الأقوال أوهن من نسج العنكبوت و أيضاً فالأصل براءة الذمّة ثمّ إنّه لم يتّفق أهل التفسير على هذا القول ، بل المحقّقون رووا هذا القول و حكموا عليه بالكذب و الفساد فهذا تمام الكلام في هذه القصّة .

أمّا الاحتمال الثاني و هو صدور الصغيرة عنه كما شرحناه في الوجوه الثلاثة و الّذين نسبوا إليه الصغيرة قالوا : إنّ هذه المرأة خطبها أُوريا فأجابوه ثمّ خطبها داود فآثره أهلها و إنّما نسبوا هذا الأمر إلى داود صغيرة أنّ خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه و قيل : مال قلب داود إليها و سأل أُوريا أن يطلّقها ففعل أُوريا

فتزوّجها داود . وهذا القول مدفوع مردود لأنّه على فرض وقوعه وصحّته لم يكن صغيرة لأنّ ذلك كان جائزاً في شريعته معتاداً في اُمّته غير مخلّ بالمروّة حيث كان يسأل بعضهم بعضاً أن يستنزل عن امرأته فيتزوّجها إذا أعجبته و قد كان الأنصار في صدر الإسلام يواسون المهاجرين بمثل ذلك من غير نكير خلا أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لعظم منزلته وعلوّ شأنه نبّه بالتمثيل على أنّه لم يكن ينبغي له أن يتعاطى ما يتعاطاه آحاد اُمّته و أمّا ماقالوا : إنّ داود وقع بصره عليها فمال قلبه إليها فليس له في هذا ذنب البتّة أمّا وقوع بصره عليها من غير قصد فذلك ليس بذنب وأمّا حصول الميل عقيب النظر فليس أيضاً ذنب لأنّ هذا الميل ليس في وسعه فلا يكون مكلّفاً به فمن أين حصلت الصغيرة ؟

و أمّا الاحتمال الثالث و هو ذكر هذه القصّة على وجه لا يلزم إلحاق الكبيرة و الصغيرة بداود بل يوجب إلحاق أعظم أنواع المدح و الثناء و هو أن تقول : روي أنّ جماعة من الأعداء طمعوا في أن يقتلوا نبيّ الله داود وكان له يوم يخلو فيه بنفسه و يشتغل بعبادة ربّه فانتهزوا الفرصة في ذلك اليوم « و تسوّروا المحراب » و التسوّر الإتيان من جهة السور أي أتوا من طرف المحراب إليه فلمّا دخلوا عليه وجدوا عنده أقواما وحرّساً يمنعونه منهم فخافوا فوضعوا كذباً فقالوا : « خصمان بغى بعضنا على بعض » و باقي القصّة سيأتي بعيد هذا في تفسير الآية .

و بالجملة ليس في القرآن ما يمكن أن يحتجّ به في إلحاق الذنب بداود إلّا ألفاظ أربعة في الجملة ظاهراً أحدها قوله : « و ظنّ داود أنّما فتنّاه » و ثانيها قوله تعالى : « فاستغفر ربّه » وثالثها قوله : « و أناب » و رابعها قوله : « فغفرله ذلك » .

فنقول : إنّ هذه الألفاظ لا تدلّ على شيء منها على ما ذكروه من إثبات الذنب له عليه السلام و تقريره من وجوه :

الاول أنّهم لمّا دخلوا عليه لطلب قتله بهذا الطريق و علم داود ذلك دعاه الغضب إلى أن يشتغل بالانتقام منهم إلّا أنّه مال و عدل إلى الصفح و التجاوز عنهم طلباً لمرضاة الله و كانت هذه الواقعة هي الفتنة لأنّها جارية مجرى الابتلاء و الامتحان ثمّ إنّه استغفر

ربّه ممّا هم به من الانتقام منهم وتاب عن ذلك القصد والهمّ فغفر له ذلك القدر من الهمّ والعزم.

و الوجه الثاني أنّه و إن غلب على ظنّه أنّهم دخلوا عليه ليقتلوه إلّا أنّه ندم على ذلك الظنّ و قال : لمّا لم تقم أمارة و لا دلالة على أنّ الأمر كذلك فبئسما علمت بهم حيث ظننت بهم هذا الظنّ الرديء فكان هذا هو المراد من قوله : « وظنّ داود أنّما فتنّاه فاستغفر ربّه و خرّ راكعاً وأناب» منه و قد يعبّر عن السجود بالركوع قال الشاعر :

فخرّ على وجهه راكعاً	و تاب إلى الله من كلّ ذنب

فغفر الله له ذلك الظنّ .

الوجه الثالث أنّ دخولهم عليه كان فتنة لداود إلّا أنّه عليه السلام استغفر لذلك الداخل العازم على قتله كما قال سبحانه في حقّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم : « و استغفر لذنبك و للمؤمنين و المؤمنات » فداود استغفر لهم و أناب أي رجع إلى الله في طلب مغفرة ذلك القاصد للقتل و قوله : « فغفرنا له ذلك » أي غفرنا له ذلك الذنب من الداخل القاصد لأجل احترام داود و لتعظيمه كما قال بعض المفسّرين في قوله : « ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك » : إنّ معناه أنّ الله يغفر لك ولأجلك ما تقدّم من ذنب اُمّتك.

الوجه الرابع أنّه هب أنّ داود تاب عن ترك أولى صدر منه لكنّه ذلك ليست بسبب المرأة بل لوصحّ وقوعه كان سبب أنّه قضى لأحد الخصمين قبل أن يسمع كلام الخصم الثاني فإنّه لمّا قال : «لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه» حكم عليه بكونه ظالماً بمجرّد دعوى الخصم بغير بيّنة فعند هذا اشتغل بالاستغفار و التوبة إلّا أنّ هذا من باب ترك الأفضل و الأولى و لايلزم إسناد شيء من الذنوب إلى داود بل ذلك يوجب إسناد أعظم الطاعات إليه و حمل الآية على الوجوه الّتي ذكرناها أولى ممّا ذكر هؤلاء الكذبة على أنّ روايات الأئمّة صلوات الله عليهم ناطقة لها مثل رواية عليّ و الرضا عليهما السلام و سوق صدر الآية حيث يخاطب سبحانه نبيّه « و اصبر على ما يقولون و اذكر عبدنا داود » و هذا الذكر إنّما يحسن إذا كان داود قد صبر على أذاهم و تحمّل سفاهتهم و كان حسن الأعمال و السيرة و أمّا إذا حملناها على مافسّروه و ذكروه صار الكلام متناقضاً فاسداً .

رجعنا في تفسير الآية ، قوله : [وهل أتاك نبأ الخصم] و المراد بالاستفهام الترغيب في الاستماع كما ذكرنا أي هل أتاك خبرهم ؟ و يعبّر بالخصم عن الواحد و الاثنين و الجماعة بلفظ واحد لأنّ أصل المصدر يقال : رجل خصم و رجلان خصم و رجال خصم [إذ تسوّروا المحراب] أي حين صعدوا إليه المحراب و أتوه من أعلى سوره و هو مصلّاه و أتى بلفظ الجمع أراد الفريقين .

[إذ دخلوا على داود ففزع منهم] لدخولهم عليه في غير الوقت الّذى يحضرونه لأنّهم دخلوا عليه بغير إذنه [قالوا لاتخف خصمان] أي قالوا لداود : نحن خصمان [بغى بعضنا على بعض] فجئناك لتقضي بيننا و ذلك قوله : [فاحكم بيننا بالحقّ و لا تشطط] أي و لاتجر علينا في حكمك و لا تجاوز الحقّ فيه بالميل لأحدنا على صاحبه [و اهدنا إلى سواء الصراط] أي دلّنا إلى وسط الطريق الّذى هو طريق الحقّ .

[إنّ هذا أخي له تسع و تسعون نعجة ولي نعجة واحدة] قال الخليل : النعجة الاُنثى من الضأن و العرب تكنّي عن النساء بالنعاج و الشاة فحكى الله سبحانه ما قاله أحد الخصمين بقوله : « إنّ هذا أخي » صاحب كذا عدد من النعاج « ولي واحدة » وقال : لي ضمّها إليّ و أعطنيها و اعزل لي عنها و هذا معنى : [فقال أكفلنيها و عزّني في الخطاب] أي غلبني في مخاطبة الكلام ؛ إن بطشني كان أشدّ منّي و إن دعا كان أكثر منّي .

[قال] داود : [لقد ظلمك بسؤال نعجتك] أي إن كان الأمر على ما تدّعيه لقد ظلمك بسؤاله إيّاك بضمّ نعجتك [إلى نعاجه] .

فإن قيل : كيف جاز لداود أن يحكم على أحد الخصمين بمجرّد قول خصمه ؟ قال محّمد بن إسحاق : لمّا فرغ الخصم الأوّل من كلامه نظر داود إلى الخصم الّذى لم يتكلّم و قال : لئن صدق لقد ظلمته و الحاصل أنّ هذا الكلام كان مشروطاً بشرط كونه صادقاً في دعواه . و قال ابن الأنباريّ : لمّا ادّعى أحد الخصمين اعترف الثاني فحكم داود ولم يذكر الله الاعتراف لدلالة ظاهر الكلام عليه كما تقول : أمرتك بالتجارة فكسبت تريد اتّجرت فكسبت كما قال سبحانه : « أن اضرب بعصاك البحر فانفلق » (١) أي

(١) الشعراء : ٦٤

فضرب فانفلق . و القول الثالث أنّ تقدير الكلام : إنّ الخصم الّذي هذا شأنه يكون قد ظلمك .

ثمّ قال داود : [و إنّ كثيراً من الخلطاء] و الشركاء الّذين خلطوا أموالهم [ليبغي بعضهم على بعض] و يتجاوزون عن حدودهم و يتعدّون بعضهم بعضاً [إلّا الّذين آمنو و عملوا الصالحات] لأنّ مخالطة هؤلاء لاتكون إلّا لأجل الدين وطلب السعادات الروحانيّة فلا جرم لا توجب المنازعة و أمّا الّذين يكون مخالطتهم لأجل الدنيا لابدّ و أن يكون مخالطتهم سبباً لمزيد البغي و العدوان ويتبيّن من هذا الكلام و الاستثناء أنّ الّذين آمنوا و عملوا الصالحات لايبغي بعضهم على بعض فلوكان داود قد بغى وتعدّى على ذلك الرجل لزم بحكم فتوى داود أن لايكون هو من الّذين آمنوا و معلوم أنّ ذلك باطل فثبت أنّ قول من يقول : المراد من واقعة النعجة قصّة داود قول باطل .

ثمّ قال سبحانه : [و قليل ماهم] و «ما» زائدة مؤكّدة لمعنى القلّة و للإبهام و فيه معنى التعجّب من قلّتهم .

قوله تعالى : [و ظنّ داود أنّما فتنّاه] قالوا : معناه : و علم داود أنّما فتنّاه أي امتحنّاه و السبب الّذي أوجب حمل لفظ الظنّ على العلم ههنا أنّ داود لمّا قضى بينهما نظر أحدهما إلى صاحبه فضحك ثمّ صعدا إلى السماء قبل وجهه فعلم داود أنّ الله ابتلاه بذلك و إنّما جاز لفظ الظنّ على العلم لأنّ العلم الاستدلالي يشبه الظنّ مشابهة عظيمة والمشابهة علّة لجواز المجاز وهذا الكلام يتمّ إذا كان الخصمان ملكين و أمّا إذا لم نقل ذلك لايلزمنا حمل الظنّ على العلم بل لمّا غلب على ظنّه حصول الابتلاء من الله .

[فاستغفر ربّه و خرّ راكعاً] أي ساجداً [و أناب] و استغفر ربّه و سأل الغفران و لايلزم من الاستغفار كونه عليه السلام مرتكباً لذنب بل حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين . روي أنّه عليه السلام بقي ساجداً أربعين يوماً و ليلة لا يرفع رأسه إلّا لصلاة مكتوبة أولما لابدّ منه و لا يرقأ له دمعه حتّى نبت العشب إلى رأسه و لم يشرب ماء إلّا ثلثاه دمع ، و جهد بنفسه راغباً إلى الله في العفو عنه حتّى كاد أن يهلك و اشتغل بذلك عن الملك حتّى وثب ابن له

يقال له « ايشا » على ملكه و دعا إلى نفسه فاجتمع إليه أهل الزيغ و الباطل من بني إسرائيل فلمّا غفرله حاربه فهزمه .

قوله تعالى : [و إنّ له عندنا لزُلفى] أي قربة و كرامة بعد المغفرة [و حسن مآب] أي حسن مرجع في الجنّة .

يا داود انا جعلناك خليفة فى الارض فاحكم بين الناس بالحق و لا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله ان الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب (٢٦) و ما خلقنا السماء و الارض و ما بينهما باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار (٢٧) ام نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض ام نجعل المتقين كالفجار (٢٨) كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر اولوا الالباب (٢٩).

ثمّ ذكر إتمام نعمه على داود بقوله :[يا داود إنّا جعلناك خليفة في الأرض]أي صيّرناك تدبّر اُمور العباد من قبلنا أوجعلناك خلف من مضى من الأنبياء في الدعاء إلى توحيد الله و بيان شريعته [فاحكم بين النّاس بالحقّ] أي افصل اُمورهم وضع كلّ شيء موضعه .

[و لا تتبّع الهوى] أي لا تتّبع ما يميل طبعك إليه إذا كان مخالفاً للحقّ [فيضلّك عن سبيل الله] أي إذا اتّبعت الهوى عدل بك الهوى عن سبيل الحقّ [إنّ الّذين يضلّون عن سبيل الله] و يعدلون عن العمل بماأمرهم الله [لهم عذاب شديد بمانسوا يوم الحساب] أي يعذّبون عذاباً شديداً بتركهم طاعة الله في الدنيا و بسبب إعراضهم عن ذكر يوم القيامة فيكون « يوم » متعلّقاً « بما نسوا » .

[و ما خلقنا السماء و الأرض و ما بينهما باطلاً] لاغرض فيه بل لغرض فيه الحكمة و هوأنواع المنافع الجليلة من هذه الخلقة العظيمة وخلقناها لأن يستفيد العقلاء الثواب العظيم واحتجّ الجبّائي بهذه الآية على أنّه تعالى لايجوزأن يكون خالقاً لأعمال العباد قال : لأنّها مشتملة على الكفر و الفسق و كلّها أباطيل فلمّا بيّن الله أنّه ماخلق السماوات والأرض و ما بينهما باطلاً دلّ هذا على أنّه لم يخلق أعمال العباد خلافاً للمجبّرة

فإنّ عندهم أنّه سبحانه خلق الكافر لأجل أن يكفر و الكفر باطل و قد خلق الباطل.

ثمّ أكّد الله تعالى ذلك بأن قال : [ذلك ظنّ الّذين كفروا]أي كلّ من قال بهذا القول فهو كافر فهذا تصريح بأنّ مذهب المجبّرة عين الكفر [فويل للّذين كفروا من النار] فالويل من النار حاصل للكفّار .

و اعلم أنّ قوله تعالى : « و ما خلقنا السماء » دالّ على صحّة القول بالحشر والنشر و القيامة والثواب والعقاب لأنّه تعالى خلق الخلق في هذا العالم فإمّا أن يقال: إنّه خلقهم للإضرار أوللإنفاع أولاللإنفاع ولاللإضرار والأوّل باطل لأنّ ذلك لايليق بالرحيم الكريم . والثالث أيضاً باطل لأنّ هذه الحالة حاصلة حين كانوا معدومين فلم يبق إلّاأن يقال : إنّه خلقهم للإنفاع فنقول : و ذلك الإنفاع إمّا أن يكون في حياة الدنيا أوفي حياة الآخرة و الأوّل باطل لأنّ منافع الدنيا قليلة و مضارّها كثيرة و تحمّل المضارّ الكثيرة للمنفعة القليلة المستهلكة لا يليق بالحكمة و لمّا بطل هذا القسم ثبت القول بوجود حياة اُخرى بعد هذه الحياة الدنيا و ذلك هو القول بالحشر و القيامة و الثواب و العقاب فهذا هو المراد من قوله : « ذلك ظنّ الّذين كفروا فويل للّذين كفروا من النار» لأنّ من شكّ أو أنكر الحشركان شاكّاً في حكمة الله .

و لمّا بيّن هذا البيان فقال : [أم نجعل الّذين آمنو و عملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتّقين كالفجّار] و تقرير الآية أنّا نرى في الدنيا من أطاع الله و احترز عن معصيته في الفقر و الزمانة وأنواع البلاء و نرى الكفرة و الفسّاق في الراحة و الغبطة فلولم يكن حشر و نشر و معاد فحينئذ يكون حال المطيع أدون من حال العاصي و ذلك لا يليق بحكمة الحكيم العدل الرحيم و إذا كان ذلك قادحاً في الحكمة ثبت أنّ إنكار الحشر و النشر يوجب إنكار الحكمة من الله أي كيف يمكن أن نجعل الّذين صدّقوا الله ورسله و عملوا الصالحات و الطاعات كالعاملين بالمعاصي في الأرض أو نجعل الّذين اتّقوا المعاصي لله خوفاً من عقابه كالفجّار الّذين تركوا الطاعات ؟ إنّ هذا لا يكون أبداً .

ثمّ خاطب سبحانه نبيّه فقال : [كتابٌ أنزلناه إليك مبارك] أي هذا القرآن

كتابٌ منزل إليك مبارك كثير نفعه و خيره [ليدّبّروا آياته] أي ليتفكّر الناس فيه و يتّعظوا بمواعظه و من هو من اُولي العقول .

و قالت المعتزلة ـ و نعم ما قالت ـ : دلّت الآية على أنّه إنّما اُنزل هذا القرآن لأجل الخير و الرحمة و الهداية فيلزم أنّ أفعال الله معلّلة برعاية المصالح و أنّه تعالى أراد الإيمان و الخير و الطاعة عن الكلّ بخلاف قول من يقول : إنّه أراد الكفر من الكافر .

و ههنا بيانٌ آخر و هو أنّ صدر السورة حكاية عن المستهزئين من الكفّار بأنّهم بالغوا في إنكار البعث و القيامة بحيث قالوا : «ربّنا عجّل لنا قطّنا قبل يوم الحساب» فقال الله سبحانه : « اصبر على ما يقولون و اذكر عبدنا داود » ولا تعلّق بإثبات القيامة وقصّة داود حتّى ذكر سبحانه أنّ القرآن شريف كثير الخير و هذه فصول متباينة لا تعلّق للبعض منها بالبعض فكيف النظم ؟ هذا تمام البيان والسؤال .

والجواب أنّه من ابتلي بخصم جاهل جدليّ متعصّب و رآه المخاطب أنّه قدخاض في التعصّب و الإصرار وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة لأنّه كلّما كان خوضه في تقريره أكثر كانت نفرته عن القبول أشدّ فالطريق حينئذ أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة و أن يخوض في كلام آخر أجنبيّ عن المسألة الاُولى بالكلّيّة ويطنب في الكلام الثاني بحيث ينسى ذلك المتعصّب تلك المسألة الاُولى فاذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبيّ و نسي الكلام الأوّل فحينئذ يدرّج في أثناء الكلام في هذا الفصل الأجنبيّ مقدّمة مناسبة لذلك المطلوب الأوّل فإنّ ذلك المتعصّب يسلّم هذه المقدّمة فإذا سلّمها فحينئذ يتمسّك بها في إثبات المطلوب الأوّل فحينئذ يصير ذلك الخصم منقطعاً مفحماً .

إذا عرفت هذا فنقول : إنّ الكفّار لمّا بالغوا في إنكار الحشر إلى حيث بلغوا إلى درجة الاستهزاء بقولهم : « ربّنا عجّل لنا قطّنا قبل يوم الحساب » فقال الله سبحانه : يا محمّد اقطع الكلام معهم في هذه المسألة « واصبر على ما يقولون » واشرع في كلام أجنبيّ و هو قصّة داود ، و ذكر في آخر القصّة خلافة داود وجعله خليفة إلى أن قال له : «واحكم

بين الناس بالحقّ » و كلّ من سمع هذا قال : نعم الحكم هذا حيث أمره بحكم الحقّ فالله الّذي يأمر خليفته بالحقّ فهو أولى بإتيان الحقّ لأنّه ربّ العالمين و لا يقضي بالباطل قطعاً فحينئذ لا بدّ أن يستسلم الخصم أنّ الله هو الحقّ فيلزمه القبول بصحّة الحشر و القيامة لأنّ الظالم الغشوم الّذي يظلم في مدّة خمسين سنة أو أقلّ أو أكثر فقيراً صعلوكاً و هو بمعزل عن ذلك الظالم و الظالم يتعاقبه و يؤذيه و هو لا يقدر دفعه فلولم يكن دار اُخرى فيجازي ذلك الظالم و يثيب ذلك المظلوم فيكون هذا الربّ الّذي يأمر خليفته بالعدل و التحرّز عن الباطل هو غير حاكم بالعدل و عامل بالباطل فبهذا الطريق اللطيف أورد الله تعالى الإلزام القاطع على منكري الحشر والقيامة ولا يمكنهم الخلاص عن قبوله .

ولمّا ذكر سبحانه هذه الطريقة الدقيقة في الإلزام في القرآن لاجرم وصف الله القرآن بالكمال و البركة فقال : « كتاب أنزلناه مبارك ليدّبّروا آياته و ليتذكّر اُولوا الألباب » و من لم يتدبّر و لم يساعده التوفيق الإلهيّ لم يقف على مثل هذه الأسرار العجيبة في القرآن و يزعم عدم الترتيب في النظم ، انتهى .

قوله تعالى : و وهبنا لداود سليمان نعم العبد انه اواب (٣٠) اذ عرض عليه بالعشي الصافنات الجياد (٣١) فقال انى احببت حب الخير عن ذكر ربى حتى توارت بالحجاب (٣٢) ردوها على فطفق مسحا بالسوق والاعناق (٣٣) و لقد فتنا سليمان و القينا على كرسيه جسدا ثم اناب (٣٤) قال رب اغفر لى وهب لى ملكا لاينبغى لاحد من بعدى انك أنت الوهاب (٣٥) فسخرنا له الريح تجرى بامره رخاء حيث اصاب (٣٦) والشياطين كل بناء وغواص (٣٧) و آخرين مقرنين فى الاصفاد (٣٨) هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب (٣٩) و ان له عندنا لزلفى و حسن ماب (٤٠) .

ثمّ عطف سبحانه على قصّة داود حديث سليمان فقال :

[و وهبنا لداود سليمان] أي أعطيناه ولداً [نعم العبد] سليمان إنّه رجّاع إلى الله في اُمور دينه ابتغاء مرضاته .

[إذ عرض عليه] يجوز أن يتعلّق « إذ » بنعم العبد أي نعم العبد هو إذ عرض

عليه ، و يجوز أن يتعلّق باذكر و المخصوص بالمدح في قوله « نعم العبد » محذوف فقيل : هو سليمان و قيل : هو داود و الأوّل أولى لأنّه أقرب المذكورين ولأنّه قال : بعده « إنّه أوّاب » ولا يجوز أن يكون المراد هو داود لأنّه وصفه بهذا المعنى قد تقدّم في الآية المتقدّمة حيث قال سبحانه : « و اذكر عبدنا داود ذا الأيد إنّه أوّاب » و في الآية دلالة على أنّ من كان كثير الرجوع إلى الله في أكثر الأوقات يكون موصوفاً بمثل هذه الصفة [بالعشيّ] و العشيّ هو من حين العصر إلى آخر النهار .

عرض عليه الخيل لينظر إليها و يقف على كيفيّة أحوالها و وصف الخيل بوصفين أوّلهما [الصافنات] و الصفون صفة دالّة على حسن الفرس و هي الّتي تقوم على ثلاثة قوائم و يرفع إحدى يديها حتّى يكون على طرف الحاف و الصفة الثانية [الجياد] و الجياد جمع « جواد » و هو الفرس الشديد الجري كما أنّ الجواد من الإنسان السريع البذل و المقصود في الآية وصفها بالفضيلة و الكمال حالتي وقوفها وحركتها .

قال مقاتل : إنّ سليمان ورث من أبيه ألف فرس و كان أبوه قد أصاب ذلك من العمالقة و قيل : إنّ سليمان غزا دمشق و نصيبين فأصاب ألف فرس و قيل : كانت خيلاً خرجت من البحر لها أجنحة و كان سليمان قد صلّى الصلاة الاُولى و قعد على كرسيّه و الخيل يعرض عليه حتّى غابت الشمس .

[فقال إنّي أحببت حبّ الخير عن ذكر ربّي] و المراد بالخير هنا الخيل فانّ العرب يسمّي الخيل خيراً وفي الحديث : الخير معقود بنواصي الخيل إلى يوم القيامة و قيل : معناه حبّ المال و الخير بمعنى المال الكثير و قيل : إنّ هذه الخيل كانت شغلته عن صلاة العصر حتّى فات وقتها و في روايات أصحابنا أنّه فاته أوّل الوقت و قال الجبّائيّ : لم يفته الفرض وإنّما فاته النفل الّذي كان يفعله في آخر النهار لاشتغاله بالخيل . و قيل : المعنى : إنّي أحببت حبّ الخيل على كتاب ربّي ، كنايةً عن كتاب الله التوراة و كما أنّ ارتباط الخيل ممدوح في القرآن كذلك في التوراة ممدوح فحينئذ معنى« عن ذكر ربّي» أي عن كتاب ربّي وهو التوراة . و«أحببت» فعل يتعدّى بعن، أي اُثبت حبّ الخير عن كتاب ربّي. و حاصل المعنى أنّي أحببت حبّي لهذه الخيل عن ذكر ربّي

يعني إنّ هذه المحبّة الشديدة إنّما حصلت عن ذكر الله و أمره لا عن الشهوة والهوى .

[حتّى توارت] الضمير راجع إلى الشمس لأنّه جرى ذكر ماله تعلّق بها و هو «العشيّ» كما أنّ ضمير « ردّوها » أيضاً قالوا : راجع إلى الشمس و يحتمل أن يعود الضميران إلى « الصافنات » و يحتمل أن يكون الأوّل راجعاً إلى « الشمس » و الثاني « بالصافنات » ويحتمل أن يكون بالعكس فهذه وجوهٌ أربعة فالأوّل أن يكون الضميران عائدين إلى الشمس كأنّه قال : حتّى تورات الشمس [بالحجاب] وغابت .

[ردّوها عليّ] أي سأل الله أن يردّ الشمس عليه فردّها عليه حتّى صلّى صلاة الفائتة فرضاً كانت أو نفلاً و على كون الضمير في «ردّوها» على أن يكون المرادبالخيل أي قال لأصحابه : ردّوا الخيل عليّ وعلى قول من يقول : إنّ الضمير في «توارت» راجع إلى الخيل يعني توارت الخيل بالحجاب بمعنى أنّها شغلت فكره إلى تلك الحال و هي غيبوبتها عن بصره وذلك أنّه أمر بإجراء الخيل فاُجريت حتّى غابت الخيل عن بصره فقال لأصحابه : ردّوا الخيل عليّ .

قوله : [فطفق مسحاً بالسوق و الأعناق] قيل فيه وجوه : أحدها أنّ المسح هنا القطع و المعنى أنّه أقبل لضرب سوقها و أعناقها لأنّها كانت سبب فوت صلاته و هذا القول بعيد عن الصواب جدّاً و قيل : إنّه إنّما فعل ذلك لأنّها كانت أعزّ ماله فيقرّب إلى الله بأن ذبحها ليصدّق بلحومها وقيل : المعنى فجعل يمسح أعراف خيله وعراقيبها بيده حبّاً لها ، عن ابن عبّاس .

قال ابن عبّاس : سألت عليّاً عن هذه الآية فقال عليه السلام : ما بلغك فيها ياابن عبّاس قلت : سمعت كعباً يقول : اشتغل سليمان بعرض الأفراس حتّى فاتته الصلاة « فقال ردّوها عليّ » يعني الأفراس وهي كانت أربعة عشر فأمر بضرب أعناقها و سوقها بالسيف فقتلها فسلبه الله ملكه أربعة عشر يوماً لأنّه ظلم الخيل بقتلها فقال عليّ عليه السلام : كذب كعب لكن اشتغل سليمان بعرض الأفراس ذات يوم لأنّه أراد جهاد العدوّ حتّى توارت الشمس بالحجاب فقال بأمر الله للملائكة الموكّلين بالشمس : ردّوها عليّ فردّت فصلّى العصر في وقتها وإنّ أنبياء الله لا يظلمون و لا يأمرون بالظلم لأنّهم معصومون مطهّرون ، انتهى

كلامه عليه السلام.

[ولقد فتنّا سليمان] أي اختبرناه و شدّدنا المحنة عليه [و ألقينا على كرسيّه جسداً] أي وطرحنا على كرسيّه جسداً و ، الجسد الّذي لا روح فيه و اختلف العلماء في فتنته وامتحانه والجسد الّذي اُلقي على كرسيّه على أقوال :

منها أنّ سليمان قال يوماً في مجلسه : لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة من نسائي تلد كلّ امرأة منهنّ غلاماً يضرب بالسيف في سبيل الله ولم يقل : إن شاء الله فطاف عليهنّ فلم تحمل منهنّ إلّا امرأة واحدة جاءت بشقّ ولد رواه أبو هريرة عن النبيّ قال : ثمّ قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : و الّذي نفس محمّد بيده لو قال : إن شاء الله لجاهدوا في سبيل الله فرساناً فالجسد الّذي اُلقي على كرسيّه كان هذا ثمّ أناب الله وفزع إلى الصلاة و الدعاء على وجه الانقطاع إلى الله . و هذا لا يقتضي أنّه وقع منه معصية صغيرة ولا كبيرة لأنّه وإن لم يستثن ذكره لفظاً فلابدّ من أن يكون قد استثناه ضميراً أو اعتقاداً إذ لو كان قاطعاً للقول بذلك لكان مطلقاً لما لا يؤمّن من أن يكون كذباً إلّا أنّه لمّا لم يذكر لفظة الاستثناء عوتب على ذلك من حيث أنّه ترك ما هو مندوبٌ إليه .

ومنها ما روي أنّ الجنّ والشياطين لمّا وُلد لسليمان ابن قال بعضهم لبعض : إن عاش له ولد لنلقّين منه ما لقينا من أبيه من الجهد والبلاء فأشفق سليمان منهم عليه فاسترضعه في المزن وهو السحاب فلم يشعر إلّا وقد وُضع على كرسيّه ميّتاً تنبيهاً على أنّ الحذر لا ينفع عن القدر فإنّما عوتب على خوفه من الشياطين ، عن الشعبيّ وهو المرويّ عن أبي عبدالله عليه السلام .

ومنها أنّه وُلد له ولدٌ ميّت جسدٌ بلا روح فاُلقي على سريره .

و منها أنّ الجسد المذكور هو جسد سليمان لمرض امتحنه الله به فحينئذ تقدير الكلام : و ألقينا منه على كرسيّه جسداً لشدّة المرض فيكون جسداً منصوباً على الحال و العرب يقول في الإنسان إذا كان ضعيفاً : هو جسد بلا روح ولحم على وضم [ثمّ أناب] أي رجع إلى حال الصحّة .

و هذه الوجوه المذكورة ذكرها أهل التحقيق من المفسّرين في كيفيّة افتتان

سليمان في قوله تعالى: «ولقد فتنّا سليمان» ولأهل الحشو في هذا الباب أقوال سخيفة على وجوه :

الأوّل قالوا : إنّ سليمان بلغه خبر مدينة في البحر فخرج إليها بجنوده يحمله الريح ففتحها و قتل ملكها و أخذ بنتاً له اسمها جرادة من أحسن الناس وجهاً فاصطفاها لنفسه وأسلمت فأحبّها وكانت تبكي أبداً على أبيها فأمر سليمان الشيطان فمثّل لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته الّتي كان يكسي به حال حياته و كانت تذهب إلى تلك الصورة بكرة و عشيّاً مع جواريها يسجدون لها فأخبر آصف سليمان بذلك فكسر سليمان الصورة و عاقب المرأة ثمّ خرج وحده إلى فلاة و فرش الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله وكانت لسلمان امّ ولد يقال لها أمينة ، إذا دخل للطهارة أولإ صابة امرأة وضع خاتمه عندها وكان ملكه في خاتمه فوضعه عندها يوماً فأتاها الشيطان صاحب البحر على صورة سليمان و قال : يا أمينة هات خاتمي فتختّم به وجلس على كرسيّ سليمان فأتى عليه الطير و الجنّ و الإنس وتغيّرت هيئة سليمان فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته و طردته فعرف أنّ الخطيئة قد أدركته فكان يدور في البيوت يتكفّف و إذا قال : أنا سليمان أحثوا عليه التراب و سبّوه ثمّ أخذ يخدم السمّاكين ينقل لهم السمك فيعطونه كلّ يوم سمكتين فمكث على هذه الحالة أربعين صباحاً عدد ما عُبد الوثن في بيته فأنكر آصف و عظماء بني إسرائيل حكم الشيطان و سأل آصف نساء سليمان فقلن : ما يدع امرأة منّا في دمها و لا يغتسل من جنابة .

وقيل : بل نفذ حكمه في كلّ شيء إلّا فيهنّ ثمّ طار الشيطان و قذف الخاتم في البحر فابتلعته سمكة و وقعت السمكة في يد سليمان فبقر بطنها فإذا هو بالخاتم فتختّم به ووقع ساجداً لله ورجع إليه مُلكه و أخذ ذلك الشيطان وأدخله في صخرة وألقاها في البحر .

و القول الثاني للحشويّة أنّ تلك المرأة لمّا أقدمت على عبادة تلك الصورة افتتن سليمان فكان يسقط الخاتم من يده و لا يتماسك فيه فقال له آصف : إنّك لمفتون بذنبك فتُب إلى الله .

و القول الثالث لهم قالوا ! إنّ سليمان قال لبعض الشياطين ! كيف تفتنون الناس فقال الشيطان : أرني خاتمك اُخبرك فلمّا أعطاه إيّاه نبذه في البحر فذهب مُلكه وقعد

هذا الشيطان على كرسيه ثمّ ذكرا الحكاية إلى آخرها .

و القول الرابع لهم أنّه كان سبب فتنته احتجابه عن الناس ثلاثة أيام فسلب ملكه و اُلقي على سريره شيطان عقوبة له .

و بالجملة إنّ أقوال الحشويّة بمعزل عن القبول و إنّ أهل التحقيق أنكروا هذه المقالات من وجوه :

الاول أنّ الشيطان لو قدر على أن يتشبّه في الصورة و الخلقة بالأنبياء فحينئذ لا يبقى اعتماد على شيء من الشرائع فلعلّ هؤلاء الّذين رأوهم الناس في صورة موسى و عيسى عليهما السلام ماكانوا اُولئك بل كانوا شياطين تشبّهوا بهم في الصورة لأجل الإغواء و الإضلال و معلوم أنّ ذلك يبطل الدين بالكلّيّة .

الثاني أنّ الشيطان لو قدر على أن يعامل نبيّ الله سليمان بمثل هذا المعاملة لوجب أن يقدر على مثلها مع جميع العلماء و الصلحاء و حينئذ وجب أن يقتلهم و أن يمزّق تصانيفهم وأحاديثهم وفتاويهم و لمّا بطل ذلك في حقّ آحاد العلماء فلأن يبطل مثله في حقّ أكابر الأنبياء أولى .

الثالث : لو قلنا : إنّ سليمان أذن لتلك المرأة في عبادة تلك الصورة فهذا كفر منه و إن لم يأذن فيه البتّة فالذنب على تلك المرأة فكيف يؤاخذ الله سليمان بفعل لم يصدر عنه فرجعت المسألة إلى وجوه ذكرناها أوّلاً في الآية حيث قال : لأطوفنّ الليلة على سبعين امرأة و لم يقل : إن شاء الله .

فلو قيل : إنّ ترك الاستثناء لا يوجب الذنب ولولا تقدّم الذنب لما طلب المغفرة .

فالجواب بأنّ هذا الأمر لا ينفكّ عن ترك الأفضل إليه و حينئذ يحتاج إلى طلب المغفرة لأنّ حسنات الأبرار سيّئات المقرّبين و لأنّ الأنبياء و الأولياء دائماً في مقام هضم النفس و إظهار الذلّة و الخضوع كما قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : و إنّي لأستغفر الله في اليوم و الليلة سبعين مرّة فالمراد من هذا الاستغفار هذا المعنى .

قوله تعالى : [قال ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً لا ينبغي لأحد من بعدي] ثمّ حكى سبحانه دعاء سليمان حين أناب إلي الله بقوله : « ربّ اغفر لي وهب لي ملكاً » .

فلو قيل : إنّ هذا الدعاء من سليمان يقتضي الضنّة و المنافسة لأنّه عليه السلام لم يرض بأن يسأل الملك حتّى أضاف إلى ذلك أن يمنع غيره منه .

فالجواب أنّ الأنبياء لا يسألون إلّا ما يؤذن لهم في مسألته و لعلّ أن أعلمه أنّه إن سأل ملكاً لا يكون لغيره كان أصلح له من غيره و أعلمه أنّه لا صلاح لغيره في ذلك كما أنّ أحدنا لو صرّح في دعائه بهذا الشرط فيقول : اللّهم اجعلني أكثر أهل زماني مالاً إذاعلمت أنّ ذلك أصلح لي لكان ذلك منه حسناً جائزاً ولا ينسب في ذلك إلى شحّ و بخل أو المعنى لا يقدر أحد على معارضته أو أنّه لمّا مرض ثمّ عاد إلى الصحّة عرف أنّ الدنيا صائرة إلى غيره فسأل ربّه ملكاً لايمكن أن ينتقل منه إلى غيره وهو ملك الآخرة .

و ثانيها أنّه يجوز أن يكون التمس من الله آيةً لنبوّته يتبيّن بها من غيره وأراد بقوله : « لاينبغي لأحد » غيري ممّن أنا مبعوث إليه و لم يرد من بعده إلى يوم القيامة من النبيّين كما يقال : أنا لا اُطيع أحداً بعدك أي لا اُطيع أحداً سواك .

و ثالثها ما قال المرتضى : إنّه يجوز أن يكون سأل ملك الآخرة و ثواب الجنّة و يكون معنى قوله : « لا ينبغي لأحد من بعدي » لا يستحقّه بعدوصولي إليه أحد .

و رابعها أنّه التمس معجزة يختصّ بها كما أنّ موسى اختصّ بالعصا و اليدواختصّ الصالح بالناقة و محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بالمعراج و القرآن و يدلّ على هذا المعنى ما روي مرفوعاً عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنّه صلّى صلاة فقال : إنّ الشيطان عرض لي ليفسد عليّ الصلاة فأمكنني الله منه فدفعته و لقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتّى تصبحوا و تنظروا إليه أجمعين فذكرت قول سليمان : « ربّ هب لي ملكاً لا ينبغي لأحد بعدي » فردّه الله خائباًخاسئاً أورده البخاريّ ومسلم في الصحيحين .

ثمّ بيّن سبحانه أنّه أجاب دعاءه بقوله : [فسخّرنا له الريح تجري بأمره رخاء] أي ريحاً ليّنة طيّبة مطيعة تجري إلى حيث يشاء سليمان [حيث أصاب] أي حيث أراد سليمان من النواحي و منقادة له كيف أراد قيل : كان يغدوسليمان بإيليا و يقيل بقزوين و يبيت بكابل فإن قيل : كيف وصف سبحانه الريح بالعاصف في قوله : « ولسليمان الريح

عاصفة » وهنا وصفها « رخاء » ؟ يجوز أنّ الله جعلها عاصفة تارةً و رخاء اُخرى بحسب ما أراد سليمان .

[والشياطين] أي و سخّرنا له الشياطين [كلّ بنّاء] في البرّ يبني له ما أراد من الأبنية الرفيعة ؛ بنوا له عشر بلاد عظيمة مثل تدمر و صرواح و مرواج و بينون وسلخين و هبذه و هينده و فلثوم و غمدان و بيت المقدس [و غوّاص] في البحر على اللآلي و الجواهر فيستخرج له ما يشاء منها .

[و آخرين مقرّنين في الأصفاد] أي و سخّرنا له آخرين من الشياطين مشدّدين في الأغلال و السلاسل من الحديد و كان عليه السلام تجمع بين اثنين و ثلاثة منهم في سلسلة لا يمتنعون عليه إذا أراد ذلك بهم عند تمرّد من حكمه . و قيل : إنّه كان يفعل ذلك بكفّارهم فإذا آمنوا و أطاعوا أطلقهم .

قوله : [هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب] هذا الّذي أعطيناك أعط من شئت و امنع من شئت بغير حساب أي ليس عليك حرج فيما أعطيت و فيما أمسكت هذا قول ابن عبّاس . و قيل : المراد في أمر الشياطين خاصّة و المعنى أنّ هؤلاء الشياطين المسخّرين عطاؤنا فامنن على من شئت منهم فخلّ عنه و احبس من شئت منهم في العمل بغير حساب .

و لمّا ذكر الله سبحانه ما أنعم به على سليمان في الدنيا أردفه بإنعامه عليه في الآخرة فقال : [و إنّ له عندنا لزلفى و حسن مآب] و قد سبق تفسيره .

قوله تعالى : و اذكر عبدنا ايوب اذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب و عذاب (٤١) اركض برجلك هذامغتسل بارد و شراب (٤٢) ووهبنا له اهله و مثلهم معهم رحمة منا و ذكرى لاولى الالباب (٤٣) وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث انا وجدناه صابرا نعم العبد انه اواب (٤٤) .

ثمّ ذكر سبحانه قصّة أيّوب فقال :

[و اذكر] يا محمّد [عبدنا أيّوب] شرّفه الله بأن أضافه إلى نفسه أي اقتد يا محمّد به في الصبر على الشدائد و كان في زمن يعقوب بن إسحاق و تزوّج « ليا » بنت يعقوب و هذا هو القصّة الثالثة من القصص المذكورة في هذه السورة و إنّ داود و سليمان كانا

ممّن أفاض الله عليه أصناف النعماء و أيّوب كان ممّن خصّه الله تعالى بأنواع البلاء و المقصود من هذه الآيات الاعتبار : كأنّ الله يقول لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم : اصبر على سفاهة قومك فإنّه ما كان في الدنيا أكثر نعمةً و مالاً وجاهاً من داود و سليمان و ما كان أكثر بلاء و محنة من أيّوب فتأمّل في أحوال هؤلاء لتعرف أنّ أحوال الدنيا لاتنتظم لأحد والعاقل لابدّ له من الصبر على المكاره والمعنى أنّ نداء أيّوب حكاية عن هذا القول : « بأنّي مسّني الشيطان بنصب » بضمّ النون وفتحها مع سكون الصاد وفتحها و ضمّها وهو التعب والمشقّة و العذاب والألم و كان قد حصل عنده نوعان من المكروه الغمّ الشديد بسبب زوال الخيرات و أيضاً الألم الشديد في الجسم و لمّا حصل هذان النوعان لا جرم ذكر الله تعالى لفظين .

و للناس في هذا الموضع قولان : الأوّل أنّ الآلام و الأسقام الحاصلة في جسمه إنّما حصلت بفعل الشيطان ، الثاني أنّها إنّما حصلت بفعل الله والعذاب المضاف في الآية إلى الشيطان هو عذاب الوسوسة .

فأمّا القول الأوّل فتقريره ما روي أنّ الشيطان اللعين سأل ربّه فقال : هل في عبيدك من لو سلّطني عليه يمتنع منّي فقال الله : نعم عبدي أيّوب فجعل يأتيه بوساوسه و هو يرى إبليس عياناً ولا يلتفت إليه فقال إبليس : يا ربّ قد امتنع فسلّطني على ماله و كان يجيئه و يقول : له هلك من مالك كذا و كذا فيقول : الله أعطى و الله أخذ ثمّ يحمد الله فقال إبليس : يا ربّ إنّ أيّوب لا يبالي بماله فسلّطني على ولده فجاء و زلزل الدار فهلك أولاده بالكلّيّة فجاءه وأخبره به فلم يلتفت إليه فقال : يا ربّ لا يبالي بما له و ولده فسلّطني على جسده فأذن فيه فنفخ في جلد أيّوب و حدثت أسقام عظيمة و آلام شديدة فيه من نفسه من نار السموم فمكث في ذلك البلاء سنين ثمّ وسوس الشيطان إلى أهل البلدة أن أخرجوه من بلدتكم فخرج إلى الصحراء و ما كان يقرب منه أحد .

ثمّ جاء الشيطان إلى امرأته وقال : لو أنّ زوجك استعان بي لخلّصته من هذا البلاء قال ابن عبّاس : إنّ إبليس تصوّر لها بصورة طبيب وقال لها : أنا اُداوي أيّوب على أنّه إذا برىء قال : أنت شفيتني لا اُريد جزاء سواه قالت : نعم فذكرت المرأة ذلك لأيّوب

فحلف بالله لئن عافاه الله ليجلدنّها مائة جلدة وعند هذه الواقعة قال : « أنّي مسّني الشيطان بنصب وعذاب » فأجاب الله دعاءه و أوحى إليه أن [اركض برجلك] أي ادفع برجلك الأرض [هذا مغتسل باردٌ وشراب] و في الكلام حذف و تقديره فركض رجله فنبعت بركضته عين ماء و قيل : نبعت عينان فاغتسل من أحدهما فبرأ وشرب من الاُخرى فروي . والمغتسل الموضع الّذي يغتسل منه فلمّا اغتسل منها أذهب الله عنه كلّ داء في ظاهره وباطنه وردّ عليه أهله وماله .

والقول الثاني وهو أنّ الشيطان لا قدرة له البتّة على إيقاع الناس في الأمراض والآلام لأنّا لو جوّزنا حصول الموت والحياة والصحّة والمرض من الشيطان فلعلّ الواحد منّا إنّما وجد الحياة بفعل الشيطان ولعلّ ما حصل عندنا من الخيرات فقد حصل بفعل الشيطان وحينئذ لا يكون لنا سبيل إلى أن نعرف أنّ معطي الحياة والموت والصحّة والسقم هو الله الثاني أنّ الشيطان لو قدر على ذلك فلمَ لا يسعى في قتل الأنبياء والأولياء ولمَ لا يخرب دورهم ؟ الثالث أنّه تعالى حكى عن الشيطان أنّه قال : « ما كان لي عليكم من سلطان إلّا أن دعوتكم فاستجبتم لي[1] » فصرّح سبحانه بأنّه لا قدرة له في حقّ البشر إلّا على إلقاء الوسوسة والخواطر الفاسدة وذلك يدلّ على فساد قول من قال : إنّ الشيطان هو الّذي ألقاه في تلك الأمراض بنفخته .

فإن قيل : لِمَ لا يجوز أن يقال إنّ الفاعل لهذه الأفعال هو الله لكن على وفق التماس الشيطان ؟

قلنا : فإذا كان لابدّ من الاعتراف بأنّ خالق تلك الآلام والأسقام هو الله فأيّ فائدة في جعل الشيطان واسطة في ذلك بل الحقّ أنّ المراد من قوله : « أنّي مسّني الشيطان بنصب وعذاب » أنّه بسبب إلقاء الوساوس الفاسدة ويمكن أنّه لمّا طالت مدّة المرض وعلّته كانت شديدة الألم ثمّ تنفّر الناس عنه وعن مجاورته وأخرجوه من البلدة ومنعوا امرأته من الدخول عليهم ومن الاشتغال بخدمتهم لأجل تحصيل القوت فلمّا قويت تلك الوساوس في قلبه تضرّع إلى الله وقال : « أنّي مسّني الشيطان » وشقّ على ذلك فتضرّع إلى الله .

(١) ابراهيم : ٢٢ .

روي عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه بقي أيّوب في البلاء ثمان عشرة سنة حتّى رفضه القريب والبعيد إلّا رجلين ثمّ قال أحدهما لصاحبه: لقد أذنب أيّوب ذنباً ما أتى به أحدٌ من العالمين ولولاه ما وقع في مثل هذا البلاء فذكروا ذلك لأيّوب فقال: لا أدري ماتقولان غير أنّ الله يعلم أنّي كنت أمرّ على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتي فأنفر عنهما كراهية أن يذكر الله إلّا في الحقّ.

وقيل: إنّ امرأته كانت تخدم الناس فتأخذ منهم قدر القوت وتجيء به إلى أيّوب فاتّفق أنّهم ما استخدموها وطلب بعض النساء منها قطع إحدى ذؤابتيها على أن تعطيها قدر القوت ففعلت ثمّ في اليوم الثاني ففعلت مثل ذلك فلم يبق لها ذؤابة وكان أيّوب عليه السلام إذا أراد أن يتحرّك على فراشه تعلّق بتلك الذؤابة فلمّا لم يجد الذؤابة وقعت الخواطر المؤذية في قلبه واشتدّ غمّه فعند ذلك قال: «أنّي مسّني الشيطان»

وقيل: إنّ أيّوب قال: في بعض الأيّام يا ربّ لقد علمت ما اجتمع عليّ أمران إلّا آثرت طاعتك ولمّا أعطيتني المال كنت للأرامل قيّماً ولابن السبيل معيناً ولليتامى أباً فنودي من غمامة: ياأيّوب ممّن كان ذلك التوفيق فأخذ أيّوب كفّاً من التراب ووضعه على رأسه وفيه وقال: ياربّ منك ثمّ خاف من الخواطر فقال: «أنّي مسّني الشيطان» وقد ذكروا أقوالاً أُخرى والله العالم.

قوله تعالى: [ووهبنا له أهله ومثلهم معهم] والمراد بقوله: «ومثلهم معهم» فكان له من الأولاد ضعف ما كان له قبل فبعد أن أبرأه الله من الأسقام والمكاره بالاغتسال من العين أحيا الله له أهله الّذين كانوا ماتوا وهو في البليّة وأحيا له الّذين ماتوا وهو في البليّة [رحمةً منّا] أي فعلنا ذلك به لرحمتنا إيّاه وليتذكّر ويعتبر به أُولو [الألباب] ويعرفوا عاقبة الصبر قالوا: إنّه أطعم جميع أهل بلدته سبعة أيّام وأمرهم أن يحمدوا الله.

ولمّا كان أيّوب حلف قبل ذلك على امرأته لأمر أنكره من قولها حين وسوس لها الشيطان وكان قد حلف لئن عوفي ليضربنّها مائة جلدة فقيل له: [خذ بيدك ضغثاً] وهو ملء الكفّ من الشماريخ وما أشبه ذلك وقلنا له: خذ بعدد ما حلفت به من الشماريخ [فاضرب به] دفعة واحدةً فإنّك إذا فعلت ذلك بررت يمينك و «الضغث»

الحزمة الصغيرة من الحشيش و نحوه قوله [و لاتحنث] في يمينك نهاه عن الحنث أي لا تورد الحنث في يمينك و إنّ البرّ يتحقّق في يمينك بهذا العمل و لقد شرّع الله هذه الرخصة رحمة عليه و عليها لحسن خدمتهاله و رضاه عنها قيل : و هذا الحكم باقٍ .

و روى العيّاشيّ بإسناده أنّ عباد المكّي قال : قال لي سفيان الثوريّ إنّي أرى لك من أبي عبدالله عليه السلام منزلة فاسأله عن رجل زنى و هو مريض فإن اُقيم عليه الحدّ خافوا أن يموت ما تقول فيه ؟ قال : فسألتهفقال لي : هذه المسأله من تلقاء نفسك أوأمرك بها إنسان ؟ فقلت : إنّ سفيان أمرني أن أسألك عنها فقال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اُتي برجل قد استسقى بطنه و بدت عروق فخذيه وقد زنى بامرأة مريضة فأمر رسول الله فاُتي بعرجون فيه مائة شمراخ فضربه به ضربةً وضربها به ضربة وخلّى سبيلهما وذلك قوله : «وخذ بيدك ضغثاً فاضرب به ولاتحنث» .

قوله تعالى : [إنّا وجدناه صابراً نعم العبد] أي صابراً على البلاء الّذي ابتليناه به [إنّه أوّاب] رجّاع منقطع إلى الله .

قوله تعالى : و اذكر عبادنا ابراهيم و اسحق و يعقوب اولى الايدى و الابصار (٤٥) انا اخلصناهم بخالصة ذكرى الدار (٤٦) و انهم عندنا لمن المصطفين الاخيار (٤٧) و اذكر اسماعيل و اليسع و ذا الكفل و كل من الاخيار (٤٨) هذا ذكر وان للمتقين لحسن مآب (٤٩) جنات عدن مفتحة لهم الابواب (٥٠) متكئين فيها يدعون فيها بفاكهة كثيرة وشراب (٥١) وعندهم قاصرات الطرف اتراب (٥٢) هذا ماتوعدون ليوم الحساب (٥٣) ان هذا لرزقنا ماله من نفاد (٥٤) .

ثمّ عطف سبحانه على ماتقدّم من حديث الأنبياء فقال :

[واذكر] يا محمّد لاُمّتك و قومك [عبادنا إبراهيم وإسحاق و يعقوب] ليقتدوا بهم في حميد أفعالهم و كريم خلالهم فيستحقّوا بذلك حسن الثناء في الدنيا وجزيل الثواب في العقبى كما استحقّ اُولئك وإذا قرىء «عبدنا» فيكون التقدير عبدنا إبراهيم وخصّه بشرف إلى نفسه واذكر إسحاق ويعقوب وصفهم جميعاً فقال : [اُولي الأيدي] أي ذوي القوّة

على العبادة [والأبصار] الفقه و البصيرة في الدين و حاصل المعنى اُولي العلم و العمل « فالأيدي » العمل و « الأبصار» العلم أو المراد من الأيدي النعم على عباد الله بالدعوة إلى الدين و المراد بالأبصار جمع البصر وهو العقل .

قوله : [إنّا أخلصناهم بخالصة ذكرى الدار] أي جعلناهم لنا خالصين بأن خلصت لهم ذكرى الدار و هو أنّهم يتذكّرونها بالتأهّب للآخرة و يزهدون في الدنيا كما هو عادة الأنبياء وقيل : المراد «بالدار» الدنيا فحينئذ المراد : أبقيت لهم الذكر الجميل في الدنيا .

و قرىء «خالصة » منوّنة و مضافة فمن نوّن كان التقدير : جعلناهم خالصين بسبب خصلة خالصة لا شوب فيها و هي « ذكرى الدار» و من قرأ مضافة فالمعنى : بما خلص من «ذكرى الدار» يعني أنّ ذكر الدار قد تكون لله وقد تكون لغيره و هم ذكرهم خالصة لله علماً و عملاً كصبر إبراهيم حين اُلقي في النار في طاعة الله عملاً و يقينه حيث ما راجع أمره إلى غير الله حتّى جبرئيل ، علماً و صبر إسماعيل للذبح و صبر يعقوب حين فقد ولده و ذهب بصره .

و اعلم أنّ النفس الناطقة الإنسانيّة لها قوّتان عاملة و عالمة فالقوّة العاملة فأشرف ما يصدر عنها طاعة الله و قد صدر منهم و أمّا القوّة العالمة فأشرف ما يصدر عنها معرفة الله و اليقين به فقوله : « اُولي الأيدي و الأبصار » إشارة إلى هاتين الحالتين .

ثمّ قال تعالى : [و إنّهم عندنا لمن المصطفين الأخيار] أي هم المختارين من أبناء جنسهم و اصطفوا للنبوّة و تحمّل أعباء الرسالة و « الأخيار» جمع خيّر أو خير مخفّفة كأموات و ميّت و ميت و هو الّذي يفعل الأفعال الكثيرة الحسنة و احتجّ العلماء بهذه الآية في إثبات عصمة الأنبياء لأنّه تعالى حكم عليهم بكونهم أخياراً على الإطلاق وهو يعمّ حصول الخيريّة في جميع الأفعال و الصفات .

قوله تعالى : [واذكر إسماعيل و اليسع و ذا الكفل] أي و اذكر لاُمّتك هؤلاء المذكورين أيضاً ليقتدوا بهم و يسلكوا طريقتهم و هم قوم آخرون من الأنبياء تحمّلوا الشدائد في دين الله و فصّل ذكر إسماعيل عن ذكر أبيه و أخيه للإشعار بعراقته في الصبر و اليسع هو ابن اُخطوب بن العجور استخلفه إلياس على بني إسرائيل ثمّ صار نبيّاً

و اللام دخل على يسع كما دخل في قوله : « رأيت الوليد بن اليزيد مباركاً » وقرىء و الليسع كأنّ أصله ليسع و اللام أصليّة فيعل ثمّ دخل عليه حرف التعريف و على القراءتين علم أعجميّ و قيل : هو يوشع . « وذا الكفل» و هوابن عمّ يسع وقد فرّ إليه مائة من بني اسرائيل من القتل فآواهم و كفّلهم .

[و كلّ من الأخيار] المشهورين بالخيريّة قد اختارهم الله للنبوّة .

[هذا ذكر] أي شرف و ثناء حسن يذكرون به في الدنيا وقوله : « هذا ذكر » بيان عنوان في العاجل لهم من الشأن و قسم آخر من الشأن و هو أعظم .

فشرع في تقرير الباب الثاني فقال : [و إنّ للمتّقين لحسن مآب] أي حسن مرجع يرجعون في الآخرة إلى ثواب الله وفسّر حسن المآب بقوله : [جنّات عدن] فهي في موضع جرّ على البدل أي حسن المآب جنّات إقامة و خلود [مفتّحة لهم الأبواب] أي يجدون أبوابها مفتوحة و لا يحتاجون إلى الوقوف عند أبوابها حتّى تفتح .

و قيل : مفتاح تلك الجنان كلمة يقال لها : انفتحي انفلقي أوالملائكة يفتح لهم و تغلق لهم متى شاءوا .

و احتجّ القائلون بقدم الأرواح بقوله : « لحسن مآب » و بكلّ آية على لفظ الرجوع و يقولون : إنّ لفظ الرجوع إنّما يصدق لوكانت الأرواح موجودة قبل الأجساد و كانت في حضرة جلال الله ثمّ تعلّقت بالأبدان فعند انفصالها عن الأبدان يسمّى ذلك رجوعاً .

و الجواب أنّ هذا إن دلّ فإنّما يدلّ على أنّ الأرواح كانت موجودة قبل الأبدان و كون الأرواح قبل الأجساد لا يدلّ على قدم الأرواح بل يدلّ على سبقة خلقة زمان الروح عن البدن .

قوله : [متّكئين فيها] أي مستندين فيها إلى المساند جالسين جلسة الملوك [يدعون فيها بفاكهة كثيرة و شراب] أي يتحكّمون في ثمارها و شرابها فإذا قالوا لشيء منها : أقبل حصل عندهم و « متّكئين » حال قدّمت على العامل فيها و هو قوله : « يدعون فيها» فالمعنى يدعون في الجنّات متّكئين فيها بفاكهة كثيرة أي بألوان الفاكهة وأقسامها

و ألوان الشراب و أقسامها .

و لمّا بيّن أمر المسكن و أمر المأكول و المشروب عقّبة أمر المنكوح فقال :

[وعندهم قاصرات الطرف أتراب] أي ولهم في هذه الجنان أزواج قصّرن طرفهنّ على أزواجهنّ راضيات بهم و مالهنّ في غيرهم رغبةٌ ومعنى « قاصر» نقيض المادّ ، يقال : فلان قاصر طرفه عن فلان ومادّعينه إلى فلان قال امرؤالقيس :

من القاصرات الطرف لودبّ محول * من الذرّ فوق الإتبمنها لأثّرا

[أتراب] أي أقران على سنّ واحد ليس فيهنّ عجوز ولا هرمة و أمثال و أشباه أو متساويات في الحسن و مقدار الشباب لا يكون لواحدة على صاحبتها فضل في ذلك و قيل : معنى أتراب على مقدار سنّ الأزواج كلّ واحدة منهنّ ترب زوجها لاتكون أكبر منه و « الترب » اللدة مأخوذ من اللعب بالتراب و لا يقال إلّا في الإناث .

[هذا ما توعدون] أي ما ذكر من هذه النعم هو الّذي وُعدتم به و يخاطب المتّقون فيقال لهم هذا القول [ليوم الحساب] والجزاء .

ثمّ أخبر سبحانه عن دوام هذه النعم فقال : [إنّ هذا لرزقنا ماله من نفاد] و ليس له انقطاع بل هو دائم باق ببقاء الله .

قوله تعالى : هذا و ان للطاغين لشر مآب (٥٥) جهنم يصلونها فبئس المهاد(٥٦) هذا فليذوقوه حميم و غساق (٥٧) و آخر من شكله أزواج(٥٨) هذا فوج مقتحم معكم لا مرحبا بهم انهم صالوا النار (٥٩) قالوا بل انتم لا مرحبا بكم انتم قدمتموه لنا فبئس القرار(٦٠) قالوا ربنا من قدم لناهذا فزده عذابا ضعفا في النار (٦١) .

المعنى : لمّا بيّن أحوال أهل الجنّة وما أعدّ لهم من النعم عقّبه ببيان أحوال أهل النار و ما لهم من أليم العذاب فقال :

[هذا] أي ما ذكرناه ثواب للمتّقين ثمّ ابتدأ فقال : [و إنّ للطاغين] الّذين طغوا على الله و كذّبوا رسله [لشرّ مآب] و هو ضدّ مآب المتّقين و فسّر ذلك الشرّ فقال : [جهنّم يصلونها] أي يدخلونها حال كونهم ملازمين النار [فبئس المهاد] و المسكن و الممهّد .

[هذا فليذوقوه حميم و غسّاق] أي هذا الجزاء للطاغين فليذوقوه حميم وغسّاق أي هذا الجزاء حميم و هو الحارّ الشديد الحرارة و الغسّاق قيح شديد النتن والعفونة خلاف الصفاء و قيل : الغسّاق ضدّ الحميم البارد الزمهرير فالمعنى أنّهم يعذّبون تارة بحال شراب الّذي انتهت حرارته و ببارد الّذي انتهت برودته فبرده يحرق كما تحرق النار و قيل : الغسّاق عين في جهنّم يسيل إليها سمّ كلّ ذات حمة من الحيّات و العقارب و غيرها و قيل : الغسّاق هو ما يسيل من دموعهم يسقونه مع الحميم وقيل : الغسّاق هو عذاب لا يعلمه إلّا الله من شدّته و هو مأخود من الظلمة .

[و آخر من شكله أزواج] أي و ضروب آخر من شكل هذا العذاب و جنسه أزواج أي أنواع و ألوان متشابهة في الشدّة لانوع واحد و الضمير في قوله . « من شكله» يعود إلى الحميم و يرجع إلى العذاب الّذي يعذّبون به أهل جهنّم .

و اختلفوا في المراد بالطاغين فأكثر المفسّرين حملوه على الكفّار . و قال الجبّائيّ : إنّه محمول على أصحاب الكبائر سواءً كانوا كفّاراً أولم يكونوا .

واحتجّ الأوّلون بوجوه : الأوّل أنّ قوله : «لشرّ مآب» يقتضي أن يكون مآبهم شرّاً من مآب غيرهم و ذلك لا يليق إلّا بالكفّار . الثاني أنّه تعالى حكى عنهم أنّهم قالوا : « اتّخذناهم سخريّاً » و ذلك لا يليق إلّا بالكافر لأنّ الفاسق لايتّخذ المؤمن سخريّاً . الثالث أنّه اسم ذمّ والاسم المطلق محمول على الكامل والكامل في الطغيان هو الكافر .

وأمّا حجّة الجبّائيّ قوله تعالى: «إنّ الإنسان ليطغى أن رآه استغنى»(١) وهذا يدلّ على أنّ الوصف بالطغيان قد يحصل في حقّ صاحب الكبيرة و لأنّ كلّ من جاوز عن تكاليف الله و تعدّاها فقد طغى .

و بالجملة لمّا وصف الله مسكن الطاغين و مأكولهم حكى سبحانه أحوالهم مع الّذين كانوا أحبّاء لهم في الدنيا أوّلاً ثمّ مع الّذين كانوا أعداء لهم في الدنيا ثانياً أمّا الأوّل فهو قوله : [هذا فوج مقتحم معكم] و ههنا حذف أي يقال لهم : « هذا فوج » وهم مادّة الضلالة إذا دخلوا النار ثمّ يدخل الأتباع فيقول الخزنة للقادة : هذا فوج ،

---

(١) الحاقة : ٦ .

أي قطع من الناس و هم الأتباع « مقتحم معكم » في النار دخلوها و الاقتحام الدخول في الشيء بشدّة و صعوبة و قيل : يعنى بالأوّل إبليس و أولاده و بالفوج الثاني يعني بني آدم و المراد أنّ بني إبليس مقتحم مع بني آدم يدخلون النار و أنتم معهم .

[لا مرحباً بهم إنّهم صالوالنار] فيكون على المعنى الأوّل أنّ القادة و الرؤساء يقولون للأتباع : لا مرحباً بهؤلاء إنّهم يدخلون النار مثلنا و لازموها فيقول الأتباع لهم : [بل أنتم لامرحباً بكم] ولا نلتم رحباً وسعةً [أنتم قدّمتموه لنا] و حملتمونا على الكفر الّذي أوجب لنا هذا العذاب و دعوتمونا إليه .

و أمّا على القول الثاني إنّ أولاد إبليس يقولون لبني آدم : لا مرحباً بهؤلاء قد ضاقت أماكننا بهم و نحن بسببهم في الضيق و الشدّة و قد ورد عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّ النار تضيق عليهم كضيق الزجّ بالرمح قالوا : « بل أنتم لا مرحباً بكم » أي يقول بنو آدم لبني إبليس : بل لا كرامة لكم أنتم شرّعتموه لنا وزيّنتموه في نفوسنا حتّى استوجبنا هذا العذاب [فبئس القرار] الّذي استقررنا عليه و هو جهنّم .

[قالوا] ثمّ قالت الأتباع : [ربّنا من قدّم لنا هذا فزده عذاباً ضعفاً في النار] معناه نظير قوله تعالى : «ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً [1]» والمراد من «الضعف» عذاب الضلال وعذاب الإضلال لقوله صلّى الله عليه وآله وسلّم : من سنّ سنّةً سيّئةً فعليه وزرها و وزر من عمل بها إلى يوم القيامة .

هذا شرح أحوال الكفّار مع الّذين كانوا أحباباً لهم في الدنيا وأمّا شرح أحوالهم مع الّذين كانوا أعداءً لهم في الدنيا :

قوله تعالى : و قالوا ما لنا لانرى رجالا كنا نعدهم من الاشرار (٦٢) اتخذناهم سخريا ام زاغت عنهم الابصار (٦٣) ان ذلك لحق تخاصم أهل النار (٦٤) قل انما أنا منذر و ما من اله الا الله الواحد القهار (٦٥) رب السموات و الارض و ما بينهما العزيز الغفار (٦٦) قل هو نبؤ عظيم (٦٧) انتم عنه معرضون (٦٨) ماكان لي من علم بالملاء الاعلى اذ يختصمون (٦٩) ان يوحى الى الا انما انا نذير مبين (٧٠) .

(١) الاعراف : ٣٧ .

فحكى سبحانه مقالات أهل النار بقوله : [و قالوا مالنا لانرى رجالاً كنّا نعدّهم من الأشرار] فيقولون هذا الكلام حين ينظرون في النار فلايرون من كان يخالفهم مسلكاً في الدنيا وهم يعنون فقراء المسلمين أو المؤمنين وسمّوهم من الأشرار بمعنى الأراذل الّذين لاخير ولاجدوى فيهم أو لأنّهم بزعمهم على خلاف الدين .

ثمّ قالوا : [أتّخذناهم سخريّاً] أي لمّا لم يروهم في النار قالوا : أتّخذناهم هزؤاً في الدنيا فأخطأنا أم عدلت عنهم أبصارنا فلانراهم وهم معنا في النار قرىء «اتّخذناهم» بهمزة الوصل وبهمزة القطع و وجه فتح الهمزة يكون على التقرير و عودلت « بأم » كما عودلت بأم في قوله : «سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » .

فإن قيل : فما الجملة المعادلة بقوله : « أم زاغت عنهم الأبصار » على قول من كسر الهمزة في قوله : «اتّخذناهم» ؟ فحينئذ الجملة المعادلة لأم محذوفة و المعنى والتقدير: أتراهم أم زاغت الأبصار مثل قوله : « أم كان من الغائبين(١)» لأنّ المعنى أخبروني عن الهدهد أحاضر هو أم كان من الغائبين و «سخريّاً» إذا كان بضمّ السين فمعناه التذليل والتسخير والعبوديّة و أمّا إذا كان بكسر السين فمعناه الهزؤ .

قوله تعالى : [إنّ ذلك لحقّ تخاصم أهل النار] و لمّا حكى سبحانه عنهم هذه المقالات في النار من التابعين و المتبوعين فقال سبحانه : إنّ ذلك الّذي حكيناه عنهم لحقّ و لابدّ أن يتكلّموا به ثمّ بيّن أنّ هذه المقالات تخاصم أهل النار و سمّي تخاصماً هذا الكلام لأنّ قول الرؤساء : « لامرحبابهم » وقول الأتباع : «بل أنتم لامرحباً بكم » من باب الخصومة و مجادلة بعضهم بعضاً .

ثمّ خاطب نبيّه فقال : [قل] يا محمّد : [إنّما أنا منذر] أي مخوّف و محذّر من معاصي الله [وما من إله] تحقّ له العبادة [إلّا الله الواحد القهّار] لجميع خلقه المتعالي بسعة مقدوراته فلايقدر أحد على الخلاص من عقوبته إذا أراد عقابه .

[ربّ السماوات و الأرض و مابينهما] من الإنس والجنّ و كلّ خلق [العزيز] الّذي لايغلبه شيء [الغفّار] لذنوب عباده مع قدرته على عقابهم و حاصل المعنى أنّه أبلغ

---

(١) النمل : ٢٠ .

يا محمّد أحوال عقاب من أنكر التوحيد والنبوّة والمعاد وأحوال ثواب من أقرّ بها كما بدأ في أوّل السورة بأدلّة التوحيد والنبوّة .

قوله تعالى : [قل هو نبؤ عظيم أنتم عنه معرضون] قل يا محمّد : هو نبؤ و اختلف في مرجع الضمير . قيل : هو القرآن أي حديث عظيم لأنّه كلام الله المعجز و قيل : هو أي خبر القيامة خبر عظيم أنتم عن الاستعداد لها معرضون و غافلون و بها مكذّبون و قيل : معناه النبأ الّذي أنبأتكم به عن الله نبأ عظيم و ذلك لأنّ هذه المطالب الثلاثة مذكورة في أوّل السورة مثل قوله : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبّروا آياته » وهؤلاء الأقوام أعرضوا عنه على ما قال : « أنتم عنه معرضون » و القمّي : يعني به أمير المؤمنين و في البصائر عن الباقر عليه السلام هو والله أمير المؤمنين ، وعن الصادق النبأ الإمامة . و قيل : المعنى ما أنبأتكم من نبأ آدم والملائكة و قصص الأوّلين نبأ عظيم وأنتم لاتتفكّرون فيه فتعلموا صدقي في نبوّتي .

ويدلّ على هذا المعنى قوله : [ما كان لي علمٌ بالملأ الأعلى] يعني الملائكة [إذ يختصمون] و هذا الكلام مسوق لتحقيق أنّ النبأ عظيم لأنّه وارد من جهته تعالى بطريق الوحي من عندالله « والملأ الأعلى» هم الملائكة و قصّة آدم و إبليس و سجود الملائكة و استكبار إبليس و التقدير ماكان لي فيماسبق علمٌ بحال الملأ الأعلى وإنّماعلمته بالوحي الّذي أُنزل إليّ وإنّما عبّر بالمخاصمة بسبب قولهم : «أتجعل فيها من يفسدفيها ويسفك الدماء » . و لمّا جرى هذه المناظرة و السؤال والجواب فشابه المخاصمة و المشابهة علّة لجواز المجاز توسّعاً فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ المخاصمة عليه [إن يوحى إليّ إلّا أنّما أنا نذير مبين] أي ماكان لي علمٌ باختصام الملائكة لو لاأنّ الله أخبرني به لم يمكنني إخباركم و لكن ما يوحى إليّ أخبركم به وليس يوحى إليّ إلّا الإنذار البيّن الواضح فأنامخوّف و مظهر للحقّ .

ثمّ بيّن اختصام الملائكة من بيان أمر آدم بقوله :

اذ قال ربك للملائكة انى خالق بشرامن طين (٧١) فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين (٧٢) فسجد الملائكة كلهم أجمعون (٧٣)

الا ابليس استكبر و كان من الكافرين (٧٤) قال يا ابليس ما منعك ان تسجد لما خلقت بيدى أستكبرت ام كنت من العالين (٧٥) قال أنا خير منه خلقتني من نار و خلقته من طين (٧٦) قال فاخرج منها فانك رجيم (٧٧) و ان عليك لعنتي الى يوم الدين (٧٨) قال رب فانظرني الى يوم يبعثون (٧٩) قال فانك من المنظرين (٨٠) الى يوم الوقت المعلوم (٨١) قال فبعزتك لاغوينهم اجمعين (٨٢) الاعبادك منهم المخلصين (٨٣) .

ثمّ ذكر الاختصام بقوله : [إذ قال ربّك للملائكة] و«إذ» يتعلّق بقوله : «يختصمون» وإن اعترض بينهما كلام [إنّي خالق بشراً من طين] يعني آدم .

[فإذا] سوّيت خلق هذا البشر وتمّمت أعضاءه و صوّرته [و نفخت فيه من روحي] أي جعلت فيه الروح إلى نفسه تشريفاً له و معنى « نفخت فيه » أي تولّيت فعله من غير سبب و واسطة كالولادة المؤدّية إلى ذلك فتبيّن أنّ الإنسان مركّب من جسد و هو الطين و من نفس و هو الروح بدليل الآية و ذهبت الحلوليّة الملاعنة إلى أنّ كلمة «من» تدلّ على التبعيض و هذا يوهم أنّ الروح جزء من أجزاء الله تعالى و هذا في غاية الفساد لأنّ كلّ ماله جزء فهو مركّب من أجزائه و ممكن الوجود لذاته ومحدث ومخلوق و هو غير الله .

و أمّا كيفيّة نفخ الروح و حقيقته فهي أمرٌ لا يعلمه إلّا الله و ليس إلّا من عالم الأمر و القدرة و ليس لنا طريق إلى معرفته لكنّه معلوم في الجملة أنّها عبارة عن أجسام شفّافة نورانيّة علويّة العنصر قدسيّة الجوهر وهي تسري في البدن سريان الضوء في الهواء و سريان النار في الفحم .

قوله : [فقعوا له ساجدين] أمر سبحانه الملائكة بعد التسوية ونفخ الروح بالتعظيم و السجود له وتوجّه أمر الله عليهم بالسجود له و أمّا أنّ المأمور بذلك السجود ملائكة الأرض أو دخل فيه ملائكة السماوات جميعاً كما هو المستفاد مثل جبرئيل و ميكائيل و الروح الأعظم المذكور في قوله : « يوم يقوم الروح و الملائكة صفّاً [1] » ففيه مباحث عميقة .

---

(١) النبأ : ٣٨ .

و احتجّ بعض الجهلة بإثبات الأعضاء والجوارح لله تعالى بقوله تعالى : « مامنعك أن تسجد لماخلقت بيديّ » بأنّ ظاهر الآية يدلّ عليه فوجب المصير إليه و آيات كثيرة واردةٌ على وفق هذه الآيات فوجب القطع به .

والجواب أنّ الدلائل القطعيّة على نفي كونه جسماً مركّباً كثيرة وقد سبق ذكرها في مواضع ولكن لابأس بذكر نكتة منها حتّى تجري مجرى الإلزام لأنّ من قال : إنّ الله تعالى شأنه مركّب من الأعضاء و الأجزاء لزمه تعالى من هذا القول إثبات صورة لا يمكن أن يزاد عليها في القبح فضلاً عن بطلان التركيب الّذي هو أصل أصيل لأنّه يلزمه إثبات وجه لا يوجد منه إلّا رقعة الوجه لقوله : « كلّ شيء هالك إلّا وجهه [١] » و يلزمه تعالى أن يثبت في تلك الرقعة عيوناً كثيرة لقوله : « تجري بأعيننا [٢] » و أن يثبت له جنباً واحداً لقوله : « يا حسرتا على ما فرّطت في جنب الله [٣] » و أن يثبت على ذلك الجنب أيدي كثيرة لقوله : « ما عملت أيدينا [٤] » و بتقدير أن يكون له يدان فإنّه يجب أن يكون يده تعالى من الحجر الصلب لقوله صلى الله عليه وآله وسلم : الحجر الأسود يمين الله في الأرض و أن يثبت له ساقاً واحداً لقوله تعالى : « يوم يكشف عن ساق [٥] » فحينئذ الحاصل من مثل هذه الصورة أقبح الصور بحيث لو كان صاحب هذه الصورة عبداً لم يرغب أحد في شرائه فكيف يقول العاقل : إنّ أحسن الخالقين صورته كذلك فتبيّن أنّ المراد من قوله : « بيديّ » و أمثاله ليس معنى الظاهر بل القدرة بحكم العقل والنقل تعالى الله عمّا يقول الظالمون علوّاً كبيراً .

قوله : [فسجد الملائكة كلّهم أجمعون * إلّا ابليس استكبر وكان من الكافرين] مفسّرٌ في سورة البقرة و الغرض والنظم في الآية المنع من الحسد و الكبر و الكفّار إنّما نازعوا محمّداً في نبوّته بسبب الحسد والكبر فالله تعالى ذكر هذه القصّة ليصير سماعها زاجراً لهم عن هاتين الصفتين المذمومتين .

و ههنا تحقيق و هو أنّ العلماء ذكروا في قوله : « بيديّ » وجوهاً : الأوّل أنّ

---

(١) القصص : ٨٨ . (٢) الجاثية : ١٤ .
(٣) الزمر : ٥٦ . (٤) يس : ٧١ .
(٥) القلم : ٤٢ .

المراد من « اليد » القدرة و الاستيلاء تقول العرب : مالي بهذا الأمر من يد أي من قوّة وطاقة . الثاني اليد عبارة عن النعمة . الثالث أنّ لفظ اليد قد يراد للتأكيد كقول القائل لمن جنى باللسان : هذا ما كسبت يداك .

فلو قيل : حمل اليد على القدرة غير جائز لأنّه لو كانت اليد عبارة عن القدرة فكلّ شيء مخلوق بالقدرة حتّى إبليس و لم تكن هذه العلّة علّة لكون آدم مسجوداً لإبليس أولى من أن يكون إبليس مسجود الآدم و كذلك لوكانت اليد عبارة عن النعمة فهو أيضاً باطل لأنّ نعم الله كثيرة « و إن تعدّوا نعمة الله لاتحصوها (١) » و النعمة مخلوقة فحينئذ هذا الأمر لايكون سبب الكمال بل سبب النقصان ؛ لكنّ المعنى أنّ السلطان العظيم إذا كان له عناية شديدة في عمل يجعل العناية الشديدة بمنزلة العمل باليد شخصاً مجازاً لاهتمام الأمر به وتوسّعاً .

و بالجملة قوله : [قال ما منعك أن تسجد لما خلقت بيديّ] هذا سؤال توبيخ ومعنى « لما خلقت بيديّ » تولّيت خلقه من غير واسطة ومثل هذا المعنى قوله : « ممّا عملت أيدينا » [أستكبرت أم كنت من العالين] أي أرفعت نفسك فوق قدرك وتعظّمت عن امتثال أمري أم كنت من الّذين تعلو أقدارهم عن السجود فتعاليت عنه ؟

[قال] إبليس : [أنا خيرٌ منه خلقتني من نار وخلقته من طين] و فضّل النار على الطين [قال] الله سبحانه : [فاخرج منها] من الجنّة أو من السماوات [فإنّك رجيم] طريد و مبعد عن رحمتي [وإنّ عليك لعنتي إلى يوم الدين] .

[قال] إبليس عند ذلك : [ربّ فأنظرني إلى يوم يبعثون] أي أخّرني إلى يوم يحشرون و هو يوم القيامة [قال] الله : [فإنّك من المنظرين] أي من المؤخّرين [إلى يوم الوقت المعلوم] و إنّما طلب الإنظار إلى يوم القيامة لأجل أن يتخلّص من الموت لأنّه إذا أُنظر إلى يوم البعث ولم يمت قبل يوم البعث فعند مجيء يوم البعث لايموت أيضاً فحينئذ يتخلّص من الموت فقال الله تعالى : «إنّك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم» أي إلى يوم يعلمه الله ولم ينظره إلى يوم القيامة .

(١) ابراهيم : ٣٦ .

[فقال] إبليس : [فبعزّتك] أي اُقسم بقدرتك الّتي تقهر بها جميع المخلوقين [لاُغوينّهم أجمعين إلّا عبادك منهم المخلصين] أي أدعو بني آدم إلى الغيّ و اُزيّن لهم القبائح إلّا عبادك الّذين استخلصتهم و عصمتهم فلاسبيل لي عليهم وغرضه اللعين من هذا الاستثناء أن لايقع في كلامه الكذب لأنّه علم أنّه لا قدرة له عليهم و لو لم يستثن لظهر كذبه وإذا كان الكذب أمر يستنكف منه إبليس مع هذه الشقاوة فكيف يليق بالمسلم الإقدام عليه ؟

فإن قيل : كيف الجمع بين هذه الآية وبين قوله : «وما أرسلنا من رسول ولانبيّ إلّا إذا تمنّى ألقى الشيطان في اُمنيّته[1] » ؟

فالجواب أنّه لم يقل : إنّي لم أقصد إغواء عباد الله المخلصين و هو و إن كان يقصد الإغواء إلّا أنّه لايغويهم حيث لاقدرة له عليهم .

فائدة قوله : « إلّا عبادك منهم المخلصين » يدلّ على أنّ إبليس لا يغوي عباد الله المخلصين فمن وصفه سبحانه في كتابه بأنّه من المخلصين معصوم مثل يوسف و أمثاله و ذلك يدلّ على كذب الحشويّة و الّذين ينسبون الأنبياء إلى القبائح و ينسبون إليهم بعض المعاصي .

قوله تعالى : قال فالحق و الحق اقول (٨٤) لاملان جهنم منك وممن تبعك منهم اجمعين (٨٥) قل ماأسألكم عليه من اجر وما أنامن المتكلفين (٨٦) ان هو الا ذكر للعالمين (٨٧) و لتعلمن نبأه بعد حين (٨٨) .

قال الله تعالى : [فالحقّ و الحقّ] قرأ عاصم وحمزة « فالحقّ » بالرفع « والحقّ » بالنصب و الباقون بالنصب فيهما أمّا الرفع فتقديره فالحقّ قسمي فيكون مبتدءاً وحذف الخبر و أمّا النصب فيهما فتشبّهاً بالقسم فيكون الناصب له ما ينصب القسم من نحو الله لأفعلنّ فيكون التقدير الحقّ لأملأنّ والحقّ منصوب بأقول أي أقول الحقّ ويجوز أن يكون «والحقّ» تأكيداً لقوله : «فالحقّ» .

و بالجملة [لأملأنّ جهنّم منك] أي جنسك و هم الشياطن المتمرّدة [و ممّن تبعك منهم] أي من الشياطين التابعين لك أوالمراد من قوله « ممّن تبعك » من بني آدم

(١) الحج : ٥٢ .

و قوله : [أجمعين] تأكيد من ضمير « منك» أو ضمير «منهم» .

ثمّ خاطب النبيّ ﷺ فقال : [قل] يا محمّد لكفّار مكّة : [ما أسألكم عليه]أي على تبليغ الوحيو القرآن و الدعوة إلى الله [من أجر] و مال تعطونيه [و ما أنا من المتكلّفين] لهذا القرآن من تلقاء نفسي أوالمعنى ما أتيتكم رسولاً من قبل نفسي و لم أتكلّف هذا الإتيان بل اُمرت به [إن هو إلّا ذكر للعالمين] أي ما القرآن إلّا موعظة للخلق و شرفاً لمن آمن به .

[و لتعلمنّ نبأه بعد حين] يا كفّار مكّة خبر صدق القرآن بعد الموت و من عاش علم ذلك إذا ظهر أمره وعلاحكمه .

فائدة علميةإذاخالف القياس النصّ يجب تركهومتابعته والعمل به يوجب الخذلان كما أوجب على إبليس الطرد و اللعن لأنّه قاس من مقدّمة كاذبة و خالف النصّ حيث قال : من كان أصله خير من أصل غيره فهو خير منه لأنّي خلقت من نار و خلق آدم من طين فأنا أشرف منه و لايجوز سجودالأشرف لغير الأشرف لأنّ الأجرام الفلكيّة أشرف من الأجرام العنصريّة و النار أقرب العنصر الفلك من الأرض و الأرض أبعدها عنه و النار مضيئة في العالم و الأرض غبراء كثيفة و اللطافة أشرف من الكثافة و النار خفيفة يشبه الروح و الأرض ثقيلة يشبه الجسد و الروح أفضل من الجسد و العنصر الثقيلعون على تركيب الأجساد و العنصرالخفيف أعون علىتوليد الأرواحو أشرف أعضاء الحيوان القلب و الروح و هما على طبيعة النار و أخسّ أعضاء الحيوان هو العظم و هو بارد يابس أرضيّ والأجسام الأرضيّة كلّماكانت أشدّ نوراً ومشابهةبالناركانت أشرف و كلّماكانتأكثر غبرة و كدورة و مشابهة بالأرضكانتأخسّ مثاله الأجسامالشبيهة بالنار الذهبو الياقوت و الأحجار الصافية النورانيّة كالجواهر و أشرف أجسام العالم الجسمانيّ هو الشمس و هي أشبه بالنار في صورته و طبيعته و أثره و توليد المركّبات لاتتمّ إلّا بالحرارة و النار القوّة الفاعلة و الأرض القوّة المنفعلة و الفعل أفضل من الانفعال .

و من هذه المقامات الباطلة استكبر اللعين و آل أمره إلى ما آل لأنّ كلّ هذه

الوجوه التي قاسها اللعين أمور اعتبارية لا متأصلة والأمر المتأصل والشرف الأصيل ما جعله الله أصيلاً وأودع فيه حكمته .

وكل هذه الوجوه متناقضة بمثلها مثاله أن الأرض أمين مصلح فإذا أودعتها حبة ردتها إليك شجرة مثمرة والنار خائنة تفسد كلما أسلمته إليها ، وكذلك الأرض مستولية بالقدرة على النار فإنها تطفىء النار ، وأما النار فإنها لا تؤثر في الأرض الخالصة فالنار منفعلة والأرض فاعلة وقول اللعين : إن من كان أصله خيراً من أصله فهو خير منه هذه المقدمة كاذبة لأن أصل الرماد النار وأصل الفواكه والثمار هو الأرض ومعلوم بالضرورة أن الأشجار المثمرة خير من الرماد ثم هب أن اعتبار مثل هذه الجهات يوجب الفضيلة إلا أن هذا يمكن أن يصير معارضاً بجهة أخرى أقوى وأولى مثل إنسان أصيل نسيب لكنه عار عن كل الفضائل ورجل غير نسيب يكون كثير العلم والفضائل فيكون هو أفضل من ذلك الرجل النسيب العاري فثبت أن قياساته باطلة ولما عارض النص فأبطل .

فإن قيل : هب أن إبليس أخطأ في هذا القياس لكن كيف لزمه الكفر من تلك المخالفة فإن قوله تعالى : «اسجدوا» أمر والأمر إذا لم يكن حقيقة في الوجوب ويكون حقيقة في الندب فمخالفة الندب لا توجب العصيان فضلاً عن الكفر وهب أن الأمر حقيقة في الوجوب لكنه محتمل للندب ومع قيام هذا الاحتمال الظاهر كيف يلزم العصيان فضلاً عن الكفر؟ وهب أنه للوجوب فإذا كان الخطاب للملائكة وعلى كون إبليس لم يكن من الملائكة لا يدخل في الأمر فخصص نفسه عن عموم ذلك الأمر بالقياس . ثم هب أنه لم يسجد مع علمه بأنه كان مأموراً به إلا أن هذا المقدار يوجب العصيان ولا يوجب الكفر فكيف لزمه ؟

فالجواب أنه هب أن صيغة الأمر لا تدل على الوجوب لكن إذا ضمت إليها من القرائن ما يدل على الوجوب وجب العمل به وقد حصلت تلك القرائن بقوله : «أستكبرت أم كنت من العالين » فاللعين أتى بذلك القياس ليتوسل به إلى القدح والجحود في أمر الله وتكليفه وذلك يوجب الكفر قطعاً بل أعلى درجة الكفر لأن الجحود أقبح أقسام الكفر .

و اعلم أنّه ثبت في أصول الفقه أنّ ذكر الحكم عقيب الوصف المناسب يدلّ على
كون ذلك الحكم معلّلاً بذلك الوصف و ههنا الحكم بكونه
رجيماً و رد عقيب ما حكي عنه أنّه خصّص النصّ
بالقياس فهذا يدلّ على أنّ تخصيص النصّ
بالقياس يوجب هذا الحكم ، انتهى
تمّت السورة .

سورة الزمر

و تسمى سورة الغرف

و هي مكّيّة كلّها ، و قيل : ثلاثة منها نزلن بالمدينة في وحشيّ قاتل حمزة «قل يا عبادي الّذين إلى آخرهنّ » و قيل : فقط آية « قل يا عبادي » مدنيّة .

قال اُبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ من قرأ سورة الزُمر لم يقطع الله رجاه وأعطاه ثواب الخائفين الّذين خافوا الله .

و روى هارون بن خارجة عن الصادق عليه السلام قال : من قرأ سورة الزُمر أعطاه الله شرف الدنيا و الآخرة و أعزّه بلا مال و لا عشيرة حتّى يهابه من يراه وحرّم جسده على النار و يبنى له في الجنّة ألف مدينة في كلّ مدينة ألف قصر في كلّ قصر مائة حوراء و له مع ذلك عينان تجريان و عينان نضّاختان و جنّتان مدهامّتان و حور مقصورات في الخيام .

التفسير: ختم الله سورة ص بذكر القرآن وافتتح هذه السورة أيضاً بالقرآن فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (١) انا انزلنا اليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاله الدين (٢) الالله الدين الخالص و الذين اتخذوا من دونه اولياء ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى ان الله يحكم بينهم فيماهم فيه يختلفون انالله لايهدى من هو كاذب كفار (٣) لو اراد اللهان يتخذ ولدا لاصطفى مما يخلق ما يشاء سبحانه هوالله الواحد القهار (٤) خلق السموات و الارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهارعلى الليل و سخر الشمسو القمر كل يجرى لاجلمسمى ألاهو العزيزالغفار(٥)

تنزيل مبتدأ وخبره « من الله » أوخبر مبتدء محذوف أي هذا تنزيل الكتاب .

عظّم الله أمر القرآن و حثّ المكلّفين على القيام بما فيه و اتّباع أوامره ونواهيه بأن قال :

[تنزيل الكتاب من الله العزيز] المتعالي عن المثل و الشبه [الحكيم] في أفعاله و الحكيم هو الّذي يفعل لداعية الحكمة لا لداعية الشهوة و هذا إنّما يتمّ إذا كان عالماً بجميع المعلومات و غنيّاً عن جميع الحاجات و وصف نفسه سبحانه تعالى بالعزّة تحذيراً من مخالفة كتابه .

[إنّا أنزلنا إليك الكتاب بالحقّ] ولم ننزّله بغير غرض و أنزلنا بالأمر الحقّ والدين الصحيح [فاعبدالله] وتوجّه عبادتك إلى الله وحده [مخلصاً له الدين] من شرك الأوثان والأصنام ومعنى الإخلاص أن يقصد العبد بنيّته وعمله إلى خالقه ولا يشو به أمر آخر من الرياء والسمعة وغرض غيرالله ولا يكون فيه وجه من وجوه الدنيا وهوالإسلام وشهادة أن لاإله إلّا الله على حسب الحقيقة وهو الاعتقاد الواجب في التوحيد و العدل و النبوّة والشرائع والإقرار بها على حسب الجزم واليقين والعمل بموجباتها و البراءة من

كلّ دين سواها فليكن العبد مشتغلاً بعبادة الله على سبيل الإخلاص لقوله تعالى : « فاعبدالله مخلصاً » ومتبرّءاً عن عبادة غيره وأن لايجعل لله تعالى في العبادة شريكاً وهو المراد من قوله تعالى : [ألالله الدين الخالص] لأنّ قوله : « ألالله » يفيد الحصر و معنى الحصرأن يثبت الحكم في المذكور و ينتفي عن غير المذكور كما أنّ قوله تعالى : « وما اُمروا إلّا ليعبدوا الله مخلصين له الدين» (١) .

وشرط المعتزلةفي قبول العبادات التخلّص من الكبائر وقال غيرهم : إنّ المعصية لاتضرّ مع الإيمان كما أنّ الطاعة لاتنفع مع الكفرمحتجّين بماروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال الله : لا إله إلّا الله حصني ومن دخل حصني أمن من عذابي وبالجملة فالمسألة خلافيّة بين الأشاعرة و المعتزلة و الأكثرون على أنّ الآية متناولة لكلّ ما كلّف الله به من الأوامر والنواهي وهذا هوالأولى ويؤيّد هذا المعنى قوله تعالى : « إنّما يتقبّل الله من المتّقين»(٢) نعم إنّ شهادة أنلاإله إلّا الله بمنزلةالعمود ولكنأين الطنب و عمود الخيمة لاينتفع به إلّا مع الطنب النهاية أنّ صاحب هذه الكلمة لايخلّد و مع ذلك هذه الكلمة مشروطة بشرايطوليست مطلقة قال القاضي عبدالجبّار : وأمّا مايروى عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال لمعاذ وأبي الدرداء : وإن زنى و إن سرق ، على رغم أبي الدرداء فإن صحّ فإنّه يجب أن يحمل عليه بشرط التوبةلأنّه مخالف للقرآن قال القاضي : ولأنّه يوجب أنلايكون الإنسان مزجوراًعن الزنىوالسرقة لأنّه يعلمأنّهلايضرّه مع التمسّك بالشهادتين فكان ذلك إغراء بالقبيح وهوينافي الحكمة انتهى كلام القاضي .

فلو قيل : إنّ القول بأنّه يزول ضرر العصيان بالتوبة يوجب أيضاً الإغراء بالقبيح .

فنقول : ليس الأمر كذلك لأنّا نعتقد ونقول : إنّفعل القبيح مضرّ لكنّه يزول ذلك الضرربفعل التوبة في الجملة إذا كانت مقبولة و مأتيّة بشرائطها و آدابها و لمّاكان الإتيان بالشرائط و الآداب غير محقّق والقبول أيضاً غير يقينيّ فحينئذ لايكون إغراء

(١) البينة : ٥

(٢) المائدة : ٣٠ .

بالقبيح بخلاف قول من يقول : إنّ فعل القبيح لا يضرّ مع الشهادتين ثمّ من أين تحقّق قول القاضي من أنّ القول به مخالف للقرآن لأنّه لمّا لم يحصل القطع بحصول العفو في حقّ كلّ أحد من الناس والعاصين كان الخوف حاصلاً للعاصي في القبول فلا يكون حينئذ الاغراء حاصلاً انتهى .

قوله تعالى : [والّذين اتّخذوا من دونه أولياء] أي زعموا أنّ لهم من دون الله مالكاً عليكم والتقدير : أنّهم يقولون : [ما نعبدهم إلّا ليقرّبونا إلى الله زلفى] فمرادهم أنّ عبادتهم لها تقرّبهم إلى الله ومعنى « زلفى » أي قربى والتقدير ليقرّبونا قربى وحاصل الكلام أنّ العبّاد للأوثان والأصنام والملائكة والشمس والقمر كانوا يقولون : إنّ الإله الأعظم أجلّ من أن يعبده البشر ، والبشر اللائق به أن يشتغل بعبادة الأكابر من هؤلاء مثل الكواكب و مثل الأرواح السماويّة ثمّ إنّها تشتغل بعبادة الإله الأكبر و يتشفّعون لنا .

فاقتصر سبحانه في الجواب لهم بإسماع التهديد والتخويف فقال : [إنّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون] و قد يكون الدعوى من الخصم واهية بحيث لا تكون قابلة للاستدلال في ردّه فحينئذ يكون الجواب التهديد و التخويف فإنّ وصفهم لهذه الأوثان و الأصنام بأنّها آلهة و مستحقّة للعبادة مع علمهم بأنّها جمادات خسيسة و هم نحتوها و كانت قبل ساعة أو سنة شجرة في بستان أو صخرة في جبل و هم بأيديهم عملوها و العلم الضروريّ حاكم بأنّ وصف هذه الأشياء بالإلهيّة و الإدراك و القوّة و التصرّف كذب محض فلا يكون جوابهم إلّا التهديد و قد كفروا بنعمة الله فإنّ العبادة نهاية التعظيم و هي لا تليق إلّا لمن صدر منه هذه النعمة فعبادة غير المنعم كفران نعمة المنعم .

ثمّ قال سبحانه : [إنّ الله لا يهدي] إلى طريق الجنّة أو لا يحكم بهدايته إلى الحقّ [من هو كاذب] على الله و على رسوله [كفّار] بما أنعم الله عليه و ليس مراده سبحانه من الهداية الهداية إلى الإيمان لقوله سبحانه : « و أمّا ثمود فهديناهم » (١) .

قوله تعالى : [لو أراد الله أن يتّخذ ولداً] على ما يقوله هؤلاء من أنّ الملائكة

---

(١) حم السجده : ١٧ .

بنات الله أو ما يقوله النصارى : من أنّ المسيح ابن الله أو اليهود من أنّ عزيراً ابن الله .

قوله : [لاصطفى ممّا يخلق ما يشاء سبحانه هو الله الواحد القهّار] أي لاختار من خلقه ما يشاء أي ما كان يتّخذ الولد باختيارهم حتّى يضيفوا من شاءوا بل يختصّ ما يشاء لذلك و مثله قوله : « لو أردنا أن نتّخذ لهواً لاتّخذناه من لدنّا[1] » و هو منزّه عن مثل هذه النسبة لأنّه الواحد الحقيقيّ والولد عبارة عن جزء من أجزاء الشيء ينفصل عنه و إذا كان كذلك فيكون ذا أجزاء فهو مركّب محتاج إلى جزئه ولا يتصوّر الفرديّة المطلقة مع حصول الأجزاء و شرط الولديّة أن يكون الولد مماثلاً في تمام الماهيّة للوالد فيكون حقيقة الولد حقيقة الوالد حقيقة نوعيّة محمولة على شخصين أو ثلاث و هذا الشخص لا يكون واجب الوجود لذاته ولا يكون واحداً القهّار لخلقه بالموت والفناء .

ثمّ نبّه على قدرته بقوله : [خلق السماوات والأرض بالحقّ] فلمّا طعن في الآية السابقة جعل الأصنام المخلوقة و عباده المربوبة كونها آلهة ذكر في هذه الآية الصفات الّتي باعتبارها يحصل الإلهيّة و الخالقيّة فاستدلّ بقدرته على خلق السماوات والأرض و اختلاف حال الأفلاك و الليل و النهار و هو المراد بقوله :

[يكوّر اللّيل على النهار و يكوّر النهار على اللّيل] و بيانه أنّ النور و الظلمة آيتان عجيبتان و في كلّ يوم يغلب هذا تارة ذاك و ذاك تارة هذا ففي هذا الاختلاف دلالة على أنّ كلّ واحد منهما مغلوب و مقهور بغالب و قاهر و مسخّر لهما يكونان تحت حكمه و تدبيره و معنى « يكوّر » يدخل فما يزيد في أحدهما ينقص من الآخر والشمس سلطان النهار بل الحاكم و القمر سلطان اللّيل و أكثر مصالح هذا العالم مربوطة بهما وقد قدّر حركتهما بطرز مخصوص إلى زمان مخصوص مسمّى و هو يوم القيامة وهما مسخّرتان بأمره .

[ألا هو العزيز الغفّار] و هو سبحانه مع هذه القدرة العظيمة غفّار عظيم الرحمة و الفضل و الإحسان و المراد من بيان الآية أنّ من هو قادر على خلق السماوات والأرض وتسخير الشمس والقمر و تكوير الليل و النهار ليس بمحتاج في اتّخاذ الولد منزّه عنه .

قوله تعالى : خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها و انزل لكم

---

(١) الانبياء : ١٧ .

من الانعام ثمانية ازواج يخلقكم فى بطون امهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ذلكم الله ربكم له الملك لا اله الا هو فانى تصرفون(٦) ان تكفروا فان الله غنى عنكم ولا يرضى لعباده الكفر وان تشكروا يرضه لكم ولا تزر وازرة وزر اخرى ثم الى ربكم مرجعكم فينبئكم بما كنتم تعملون انه عليم بذات الصدور (٧) و اذا مس الانسان ضرد عاربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعوا اليه من قبل و جعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا انك من أصحاب النار (٨) أمن هو قانت آناء الليل ساجدا و قائما يحذر الاخرة و يرجوا رحمة ربه قل هل يستوى الذين يعلمون و الذين لايعلمون انما يتذكر اولوا الالباب (٩) قل ياعبادى الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين احسنوا فى هذه الدنيا حسنة و ارض الله واسعة انما يوفى الصابرون اجرهم بغيرحساب (١٠).

المعنى : فبعد أن استدلّ على كمال قدرته بخلق الآفاق استدلّ في هذه الآية بخلق الأنفس فاستدلّ بخلق آدم وذرّيّته فقال :

[خلقكم من نفس واحدة] يعني آدم لأنّ جميع البشر من نفسه و نسله [ثمّ جعل منها زوجها] يعني حوّاء من فضل طينه و قيل : من ضلع من أضلاعه و « ثمّ » يقتضي التراخي و المهلة .

و بعد ذلك استدلّ سبحانه بخلق الحيوان فقال : [و أنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج] و هي الإبل و البقر و الضأن و المعز ذكراً و اُنثى و معنى « الإنزال » هنا الإحداث و الإنشاء كقوله : « وقد أنزلنا عليكم لباساً(١) » و لم ينزل اللباس ولكن أنزل الماء الّذي هوسبب القطن والصوف و اللباس يتكوّن منهما فكذلك هنا الأنعام تكوّن بالنبات والنبات يكوّن بالماء أو المعنى أنّه أنزلها بعد أن خلقها في الجنّة و في الخبر: الشاة و الإبل من دوابّ الجنّة و قيل : إنّ المعنى جعل الأنعام نزلا ورزقاً لكم .

قوله : [يخلقكم في بطون اُمّهاتكم خلقاً من بعد خلق] يعني نطفة ثمّ علقة ثمّ مضغة ثمّ عظاماً ثمّ يكسي العظام لحماً ثمّ ينشيء خلقاً آخر و قيل : معناه خلقاً في

(١) الاعراف : ٢٥ .

بطوق الاُمّهات بعدالخلق في ظهر آدم عليه السلام [في ظلمات ثلاث] ظلمةالبطن وظلمةالرحم و ظلمة المشيمة و قيل : الصُلب و الرحم و البطن .

ثمّ خاطب سبحانه خلقه فقال [ذلكم الله ربّكم]أي ذلكم الشيء الّذي عرفتم و بيّنّا من عجائب الأفعال وصُنعه هوالله ربّكم وخالقكم يملك التصرّف فيكم[له الملك] لالغيره [لاإله إلّاهو] لأنّه لوثبت إلهٌ آخرفذلك الإله إمّا أن يكون له الملك أولايكون فإن كان له الملك فحينئذ يكون كلّ واحد منهما قادراً مالكاً و يجري بينهما التمانع و إن لم يكن للثاني شيء من الملك و القدرة فيكون ناقصاً و لايصلح للإلهيّة .

ثمّ زيّف سبحانه طريقة المشركين بقوله : [فأنّى تُصرفون] عن طريق الحقّ مثل قوله : «فأنّى تؤفكون » قالت المعتزلة ردّاً على الأشاعرة بأنّ هذا الكلام تعجّب و إنكار عن هذا الانصراف و لوكان الفاعل لذلك الصرف هوالله لم يبق لهذا الإنكاروالتعجّب معنى لأنّه تعالى لو كان هو الصارف كما قالت الجبريّة فممّ يستنكر و ممّن يتعجّب فثبت أنّ الصارف غيره .

قوله تعالى : [إن تكفروا] أي تجحدوا نعمة الله [فإنّ الله غنيّ عنكم] و عن عبادتكم و شكركم فلا يضرّه كُفركم [ولا يرضى لعباده الكفر] و في الآية أوضح دلالة على أنّه سبحانه لايريد الكُفر الواقع من العباد لأنّه لو أراده لوجب متى وقع أن يكون راضياً لعبده و كيف يتصوّر أن يرضى بشيء و لم يرده ألاترى أنّه يستحيل أن نريد من غيرنا أمراً و يقع على وفق ما نريد فلا نكون راضين به أو أن نرضى شيئاً و لم نرده .

[وإن تشكروا يرضه لكم] و إن تشكرالله تعالى على نعمه و تعترفوا بها يرضه لكم و الهاء في «يرضه» راجعة إلى المصدر الّذي دلّ عليه الفعل و هو قوله : « و إن تشكروا » والتقدير: يرضى الشكر لكم مثل قولهم : من كذب كان شرّاً له أي كان الكذب شرّاً له .

[ولا تزر وازرة وزر اُخرى]أي لاتحمل حاملة ثقل اُخرى أي لا يؤاخذ بالذنب إلّا من يرتكبه و يفعله [ثمّ إلى ربّكم مرجعكم] أي مصيركم [فينبّئكم بما كنتم

تعملون] أي يجازيكم بحسب عملكم [إنّه عليم بذات الصدور] و لا يخفى عليه سرّ و علانية .

قوله تعالى : [و إذا مسّ الإنسان ضرّ] من شدّة و مرض وقحط و كلّ أنواع الضرّ [دعا ربّه منيباً إليه] راجعاً إليه وحده لا يرجو سواه و لا يرجع في طلب دفعه إلّا إلى الله [ثمّ إذا خوّله] أي أعطاه [نعمة منه نسي ماكان يدعو إليه من قبل] أي نسي الضرّ الّذي كان يدعو الله إلى أن يكشفه من قبل نيل هذه النعمة أي نسي الدعاء الّذي كان يتضرّع به إلى الله أونسي الله الّذي كان يتضرّع إليه و رجع إلى المعاصي و عبادة الأصنام .

و المراد بالإنسان قيل : أقوام معيّنون مثل عتبة بن ربيعة و غيره وقيل: المرادبه الكافر الّذي تقدّم ذكره و في قوله : « خوّله» قيل : من قوله: «فلان خائل مال» إذاكان متعهّداً له حسن القيام به و منه ماروي عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنّه كان يتخوّل أصحابه بالموعظة و قيل : من مادّة خال يخول إذا اختال و افتخروفي هذا المعنى قالت العرب : «إنّ الغنيّ طويل الذيل ميّاس» و كلمة « ما » في الآية بمعنى«من» كقوله : « و ما خلق الذكر و الأنثى »[(١)] و قوله : « ولا أنتم عابدون ما أعبد »[(٢)] و قوله : «فانكحوا ماطاب لكم من النساء »[(٣)] .

قوله : [وجعل لله أنداداً] أي يرجع هذا الإنسان الكافر إلى عبادة الأصنام وسمّي له أمثالاً في توجيه عبادته إلى الأصنام [ليضلّ] الناس [عن سبيله] أي عن دينه أويضلّ هو عن الدين و اللام لام العاقبة و ذلك أنّهم لم يفعلوا ما فعلوه و غرضهم ذلك لكن آل أمرهم إليه و هوالمراد من معنى لام العاقبة [قل تمتّع بكفرك قليلاً] و هذا أمر معناه الخبر كقوله : إذا لم تستحي فاصنع ما شئت ، و المعنى أنّ مدّة تمتّعه في الدنيا قليلة زائلة [إنّك من أصحاب النار] تعذّب فيها دائماً .

(١) الليل : ٣ .
(٢) الجحد : ٣ و ٥ .
(٣) النساء : ٣ .

قوله: [أم من هو قانت] أي هذا الّذي ذكرناه خير أم من هو دائم على الطاعة و قيام الليل و قيل : صلاة الليل عن الصادق عليه السلام [آناء الليل] أي ساعات الليل والقانت القائم بما يجب عليه من الطاعة و منه قوله صلى الله عليه وآله وسلم أفضل الصلاة صلاة القنوت و هو القيام فيها و«آناء الليل » أوقاته أوّله و وسطه و آخره و عبادة الليل أفضل لأنّها أستر على العيون فيكون أبعد عن الرياء لأنّ الظلمة تمنع الأبصار و نوم الخلق يمنع من السماع فالقلب يكون أفرغ ، وترك النوم أشقّ فيكون الثواب أكثر كما قال سبحانه : «إنّ ناشئة الليل هي أشدّ وطأً و أقوم قيلاً»(١) .

قوله : [ساجداً أوقائماً] أي يسجد تارة و يقوم اُخرى في الصلاة و في الكلام حذف والتقدير: أمّن هو قانت كغيره [يحذر الآخرة و يرجو رحمة ربّه] أي يتردّد بين الخوف و الرجاء أي ليساسواء و هو قوله :

[قل هل يستوي الّذين يعلمون والّذين لايعلمون إنّما يتذكّر اُولوا الألباب] بمثل هذه الاُمور و يتّعظ ذوي العقول من المؤمنين عن الصادق عليه السلام أنّه قال : نحن الّذين يعلمون و عدوّنا الّذين لايعلمون وشيعتنا اُولو الألباب .

[قل يا عبادي الّذين آمنو] « قل يا محمّد : يا عبادي الّذين صدقوا بتوحيد الله [اتّقوا] عقاب [ربّكم] باجتناب معاصيه .

وتمّ الكلام ثمّ قال سبحانه : [للّذين أحسنوا] أي فعلوا الأفعال الحسنة والأعمال الصالحة وأحسنوا إلى غيرهم [في هذه الدنيا حسنة] أي ثناء حسن وذكر جميل ومدح وشكر و صحّة و سلامة و قيل : معناه الّذين أحسنوا في هذه الدنيا لهم مثوبة حسنة في الآخرة و هو الخلود في الجنّة و التنكير في «الحسنة » للتعظيم .

[وأرض الله واسعة] و المراد أنّه لاعذر للمقصّرين في الإحسان حتّى أنّهم إن اعتلّوا بأوطانهم و بلادهم بأنّهم لا يتمكّنون فيها من التوفّرة على الإحسان قيل لهم : « إنّ أرض الله واسعة » فتحوّلوا من هذه البلاد إلى بلاد تقدرون فيها على الاشتغال بالطاعات و العبادات و الاقتداء بالأنبياء في مهاجرتهم لتزدادوا إحساناً إلى إحسانهم

---

(١) المزمل :٦ .

و قيل : المراد حثّ لهم على الهجرة من مكّة وقيل: المعنى : و أرض الجنّة واسعة فاطلبوها بالأعمال الصالحة .

[إنّما يوفّى الصابرون أجرهم] أي ثوابهم على طاعتهم و صبرهم على شدائد الدنيا [بغير حساب] لكثرته لا يمكن عدّه وحسابه روى العيّاشي بالإسناد عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال رسول الله : إذا نشرت الدواوين ونصبت الموازين لم ينصب لأهل الصبر في الشدائد ميزان ولم ينشر لهم ديوان بل يصبّ الرحمة عليهم صبّاً حتّى يتمنّى أهل العافية في الدنيا أنّ أجسادهم تقرض بالمقاريض لما به أهل البلاء من الفضل ثمّ تلا هذه الآية « إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب» .

قوله : قل اني امرت ان اعبدالله مخلصاً له الدين (١١) و امرت لان أكون أول المسلمين (١٢) قل اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم (١٣) قل الله اعبد مخلصاً له ديني (١٤) فاعبدوا ما شئتم من دونه قل ان الخاسرين الذين خسروا أنفسهم واهليهم يوم القيمة ألا ذلك هو الخسران المبين (١٥) لهم من فوقهم ظلل من النار ومن تحتهم ظلل ذلك يخوف الله به عباده يا عباد فاتقون (١٦) والذين اجتنبوا الطاغوت أن يعبدوها و أنابوا الى الله لهم البشرى فبشر عباد (١٧) الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه اولئك الذين هداهم الله و اولئك هم اولوا الباب (١٨) أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار (١٩) لكن الذين اتقوا ربهم لهم غرف من فوقها غرف مبنية تجري من تحتها الانهار وعدالله لا يخلف الله الميعاد (٢٠).

النظم قيل : إنّ كفّار قريش قالوا للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : ما حملك على هذا الدين الّذي آتيتنا به ألا تنتظر إلى ملّة قومك و سادات عشيرتك يعبدون اللاّت والعزّى فأنزل الله :

[قل] يا محمّد : [إنّي اُمرت أن أعبدالله مخلصاً له الدين] و العبادة الخالصة ما لا يشوبه الشرك بل شيء من المعاصي [واُمرت] أيضاً [لأن أكون أوّل المسلمين] فيكون لي فضل السبق [1] و ثوابه و التكليف نوعان أحدهما الاحتراز عمّا لا ينبغي و الثاني

(١) يريد ان الاولية ليست من جهة الاسلام والايمان فان اول من آمن بهذه الشريعة و عرفها و اسلم لله لابد و ان يكون الرسول نفسه ولا يمكن غير ذلك حتى يؤمر النبي بذلك بل المراد ان يكون الرسول في طاعة الله و اجراء احكامه الواجبة و المندوبة سابقاً على المؤمنين و المسلمين .

الأمر بتحصيل ما ينبغي و يعبّر بالتخلية و التحلية فالعبادة لها ركنان عمل القلب وعمل الجوارح و تكرار « أمرت » مشعرٌ لهذا المعنى فليس بتكرار فالأمر مشترك معناه في الوجوب و الندب و الإباحة و مشترك اللفظيّ كالعين .

[قل إنّي أخاف إن عصيت ربّي عذاب يوم عظيم] أي عذاب يوم القيامة و لمّا بيّن سبحانه وأمره بالإخلاص بالقلب و بالأعمال الجوارحيّة و كان الأمر يحتمل الوجوب و الندب بيّن أنّ الأمر للوجوب بقوله : « قل إنّي أخاف إن عصيت » إلخ ، و أنّه صلى الله عليه وآله وسلم مع جلالة قدره و شرف نبوّته إذا وجب أن يكون خائفاً من المعاصي فغيره أولى بذلك و إذا كان تارك الأمر عاصياً و خائفاً فتحقّق حينئذ أنّ الأمر للوجوب .

[قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه] و هذا تأكيد في حصر العبادة له سبحانه يعني الله أعبد و لا أعبد سواه و أنتم معاشر الكفّار « فاعبدوا ما شئتم من دون الله » من الأصنام و هذا الأمر على وجه التهديد لهم .

[قل] يا محمد : [إنّ الخاسرين] في الحقيقة هم [الّذين خسروا أنفسهم وأهليهم] و إنّما خسروا أنفسهم لأنّهم قذفوها بين أطباق الجحيم و خسروا أهليهم الّذين كان أعدّ لهم الجنّة قال ابن عبّاس : إنّ لكلّ رجل منزلاً وأهلاً و خدماً في الجنّة فإن أطاع أعطي ذلك و إن كان من أهل النار حرم ذلك فخسر نفسه و أهله و منزله و ورّثه غيره من المسلمين ولا خسارة أعظم منها و هو المراد بقوله : [ألا ذلك هو الخسران المبين] البيّن الظاهر .

ثمّ شرح حال الخاسرين [لهم من فوقهم ظللٌ من النار] أي سرادقات وأطباق من النار ودخانها [و من تحتهم ظلل] أي فرشٌ و مهاد و إنّما أطلق اسم « الظلل» على قطع النار على سبيل التوسّع و التهكّم في مقابلة ما لأهل الجنّة من الظلل و المعنى أنّ النار تحيط بجوانبهم و إنّما سمّي ما تحتهم من النار « ظلل » مع أنّ الظلل لا يكون إلّا من جانب الفوق لأنّها ظلل لمن تحتهم إذ النار دركات و هم بين أطباقها .

[ذلك يخوّف الله عباده] أي ذلك الّذي تقدّم ذكره من العذاب يخوّف الله به عباده ليحترز عباده المؤمنين منه لأنّهم إذا سمعوا أنّ هذا حال الكفّار نبّهوا وأخلصوا

في التوحيد و العبادة و الأولى أنّ التخويف للكافر والمؤمن [يا عباد فاتّقون] من الشرك و المعاصي .

[والّذين اجتنبو الطاغوت أن يعبدوها] ولمّا ذكر سبحانه و عيد المشركين ذكر في هذه الآية وعد من اجتنب عبادة الأوثان و تجنّب عن المعاصي و إنّما أنّث للجماعة [و أنابوا إلى الله] فأقلعوا عمّا كانوا عليه من الشرك و رجعوا إلى الله [لهم البشرى] ما يظهر به من السرور و البشارة جزاءً على ذلك و روى أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال: أنتم هم و من أطاع جبّاراً فقد عبده .

ثمّ قال سبحانه مخاطباً لنبيّه صلى الله عليه وآله: [فبشّر] يا محمّد [عباد] اجتزىء بالكسرة عن الياء [الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه] أي كلّ من سمع أمراً من أوامر الله فاختار الأكمل منها و الأحسن في كلّ باب فهو في زمرة السعداء و تميّز الأحسن من القول لا يحصل إلّا بالسماع عن المخاطب بالوحي فهو المرشد إلى الطريق الصواب و الأصوب فالّذي يتّبع أحسن ما يؤمر به و يعمل به فهو أهل البشارة بالسعادة الأبديّة عن أبي الدرداء قال : لولا ثلاث ما أحببت أن أعيش يوماً: الظّماء بالهواجر والسجود في جوف الليل ومجالسة أقوام ينتقون من خير الكلام كما ينتقى طيب التمر .

و قيل : المراد يستمعون القرآن وغيره فيتّبعون القرآن و الطاعة الّتي هي أحسن ثواباً و أكثر فضلاً مثل أنّ القصاص حقّ و العفو أفضل فيأخذون بالعفو و هكذا و هذا الحكم يجري في كلّ أبواب الخير من الأمور الاعتقاديّة و العمليّة مثل العلم بأنّ إله العالم يكون حيّاً عالماً بالجزئيّات يصدر منه جزئيّات الخير و كلّيّاته أحسن من أن يعتقد الإنسان أنّ الله ليس عالمٌ بالجزئيّات هذا في الاعتقاد و مثل أن يصلّي الإنسان صلاة جامعة لشرايط الصحّة و الكمال أحسن من أن يصلّي صلاة جامعة لشرائط الصحّة دون الكمال و هذا في مثل العمل و هذا المراد بقوله : « فيتّبعون أحسنه » .

[اُولئك الّذين هداهم الله] و حصول الهداية أمرٌ حادث ولا بدّ له من فاعل فالفاعل هو الله و قابل و إليه الإشارة بقوله : [و اُولئك هم اُولو الألباب] .

و إنّ الجسم لمّا كان قابلاً للحركة والسكون على السويّة وهي في هذا الأمر متماثلة

فامتنع أن تصير ذات الجسم سبباً لرجحان أحد الطرفين على الآخر فالاختلاف في الأجسام مع أنّها متماثلة دليل وجود الفاعل فكذلك القول في الهداية من الفاعل والقابل عرض وإنّما قلنا : إنّ الفاعل لهذه الهداية هو الله لأنّ جوهر النفس مع ما فيها من نور العقل قابل للاعتقاد الحقّ و الباطل و إذا كان الشيء قابلاً للضدّين كانت نسبة ذلك القابل إليهما بالسويّة فامتنع كون ذلك القابل سبباً لرجحان أحد الطرفين كما بيّنّا في الجسم لأنّ ذات النفس كما أنّها قابلة لهذه الإرادة فكذلك ذات العقل قابلة لإرادة مضادّة لتلك الإرادة فيمتنع كون جوهر النفس محقّقاً لتلك الإرادة فثبت أنّ حصول الهداية لابدّ لها من فاعل وقابل والفاعل هو الله لكنّها مشروطة وجودها بقبول القابل فتأمّل هذه الدقيقة

و الآية نزلت في ثلاثة نفر كانوا يقولون في الجاهليّة : لا إله إلّا الله و هم زيد ابن عمرو بن نفيل و أبي ذرّ الغفاريّ و سلمان الفارسيّ و في حصول هذه البشارة من السلطان الأعظم شرط عظيم و هو الإعراض عن غير الله و الطواغيت والإقبال على طاعة الله بالكلّيّة و المقصود من الآية هؤلاء الموصوفين بهذه الصفات و حاصل الكلام في قوله : « و الّذين اجتنبوا الطاغوت » الإعراض عن عبوديّة ما سواه و في قوله : « و أنابوا إلى الله » الرجوع و الإقبال بالكلّيّة إلى الله .

و في السفر الخامس من التوراة أنّ الله تعالى قال لموسى : يا موسى أجب إلهك بكلّ قلبك ولا شكّ أنّه ما دام يبقى في القلب الالتفات إلى غير الله فهو ما أجاب إليه بكلّ قلبه و إنّما تحصل الإجابة بكلّ القلب إذا أعرض القلب عن كلّ ما سواه من باب الطاعات فمن أطاع الشيطان فقد أعرض عن الله و عبد الشيطان في ذلك الأمر .

و ههنا تحقيق للرازيّ و هو أنّه كيف يعرض الإنسان بالكلّيّة و هو أنّه يشاهد بالحسّ الأسباب المفضية إلى المسبّبات في هذا العالم فليس المراد من إعراض القلب عنها أن يقتضي عليها بالعدم بل المراد أن يعرف الإنسان أنّ واجب الوجود لذاته واحد و أنّ كلّ ما سواه فإنّه ممكن الوجود لذاته و كلّ ما كان ممكناً لذاته فإنّه لا يوجد إلّا بتكوين الواجب و إيجاده و إنّما جعل سبحانه تكوين الأشياء على قسمين منها ما يكون بغير واسطة و هي عالم السماوات والروحانيّات والعلويّات و منها ما يكون بواسطة وهو عالم العناصر

و العالم السفلي .

فإذا عرفت الأشياء على هذا الوجه عرفت أن الكل لله و بالله ومن الله ولا مؤثر إلا هو و حينئذ ينقطع نظره عن هذه الممكنات و يبقى مشغول القلب بالمؤثر الحقيقي فإنه إن كان قد وضع الأسباب بحيث يتأدى إلى هذا المطلوب فهذا الشيء يحصل و إن قد وضع بحيث لا يفضي إلى حصول هذا الشيء لم يحصل و بهذا الطريق ينقطع نظره عن الكل ولا يبقى في قلبه التفات إلى شيء إلا إلى الموجد الأول و قد اتفق أني كنت أنصح بعض الصبيان في حفظ المال فعارضني و قال : لا يجوز الاعتماد على الجد و الجهد بل يجب الاعتماد على قضاء الله و قدره فقلت : هذه كلمة حق سمعتها ولكن ما عرفت معناها و ذلك لأنه لا شبهة أن الكل من الله من الأسباب و المسببات إلا أنه سبحانه دبر الأشياء على قسمين : منها ما جعل حدوثه و حصوله معلقاً بأسباب معلومة و منها ما يحدثه من غير واسطة هذه الاسباب أما القسم الأول فهو حوادث هذا العالم الأسفل و أما القسم الثاني فهو حوادث العالم الأعلى فمن طلب حوادث هذا العالم الأسفل وأراد حصولها لامن الأسباب التي عينها الله تعالى لها كان هذا الشخص مخالفاً لتدبير الله ومنازعاً له لأنه تعالى حكم بحدوث هذه الأمور بناءً على أسباب المعينة المعلومة لحصول المسببات و أنت تريد تحصيلها لامن تلك الأسباب و هذا خطاء فهذا هو الكلام في تحقيق الإعراض و الإقبال عن غير الله و إلى الله فتأمل .

قوله تعالى : [أفمن حق عليه كلمة العذاب أفأنت تنقذ من في النار * لكن الذين اتقوا ربهم] بين سبحانه هذه الآية للنبي صلى الله عليه وآله وسلم لحرصه على إسلام المشركين . والمعنى أنك لاتقدر على إدخال الإسلام في قلوبهم فلاعليك إذا لم يؤمنوا فإنما أتوا ذلك من قبل نفوسهم وهذا كقوله : « فلعلك باخع نفسك على آثارهم (١)» الآية ، وقيل : تقدير الآية أفمن وجب عليه وعيد الله بالعقاب أفأنت تخلصه من النار فاكتفى بذكر « من في النار » عن الضمير العائد إلى المبتدء و أتى بالاستفهام مرتين توكيداً للتنبيه على المعنى قال ابن الأنباري : الوقف في الآية على قوله : « كلمة العذاب » و التقدير : كمن وجبت

---

(١) الكهف :٦ .

له الجنّة .

قوله : [لكن الّذين اتّقوا ربّهم لهم غرفٌ] أي قصور [في الجنّة من فوقها غرف مبنيّة] و هذه الآية في مقابلة قوله تعالى : « لهم من فوقهم ظللٌ من النار و من تحتهم ظللٌ » فإنّ في الجنّة منازلُ رفيعة بعضها فوق بعض و ذلك أنّ النظر من الغرف إلى الخضر والمياه و الجنان أشهى و ألذّ [تجري من تحتها] أي من تحت الغرف [الأنهار وعد الله] أي وعدهم الله تلك الغرف و المنازل وعداً [لا يخلف الله الميعاد] ميعاده الّذي وعده .

قوله تعالى : الم تر أن الله انزل من السماء ماءً فسلكه ينابيع فى الارض ثم يخرج به زرعا مختلفا الوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاما ان فى ذلك لذكرى لاولى الالباب (٢١) أفمن شرح الله صدره للاسلام فهو على نور من ربه فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله اولئك فى ضلال مبين (٢٢) الله نزل احسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم و قلوبهم الى ذكر الله ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ومن يضلل الله فماله من هاد (٢٣) أفمن يتقى بوجهه سوء العذاب يوم القيمة وقيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون (٢٤) كذب الذين من قبلهم فأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون (٢٥) .

لمّا قدّم سبحانه الدعوة إلى التوحيد في الآيات السابقة عقّبه بذكر الدلائل فقال يخاطب النبيّ ﷺ ـ وإن كان المراد جميع المكلّفين ـ بقوله : [ألم تر أنّ الله أنزل من السماء ماءً] أي مطراً [فسلكه] أي فأدخل ذلك الماء [ينابيع في الأرض] مثل العيون و القنى والآبار و ينبوع الموضع الّذي يفور منه الماء .

[ثمّ يخرج به] أي بذلك الماء من الأرض [زرعاً مختلفاً ألوانه] وصنوفه من البرّ والشعير و الأرز و غيرها من أخضر و أصفر و أبيض و أحمر واللون يطلق على الأصناف و على الألوان .

[ثمّ يهيج] أي يجفّ لأنّه إذا تمّ جفافه جاز أن ينفصل عن منابته و إن لم تتفرّق أجزاؤه فتلك الأجزاء كأنّها هاجت لأن تتفرّق ثمّ يصير حطاماً يابساً .

[إنّ في ذلك لذكرى لأُولي الألباب] لأنّ من شاهد هذه الأحوال في النبات من الشعير علم أنّ أحوال الحيوان و الإنسان كذلك و أنّه و إن طال عمره فلابدّ له من الانتهاء إلى أن يصير منحطم الأجزاء فلمّا شاهد هذه الحالة فحينئذ تعظم نفرته من الدنيا وطيّباتها ورغب في الآخرة وعلم قوله تعالى : « كما بدأكم تعودون (١) » وينابيع منصوبٌ بنزع الخافض والتقدير: في ينابيع .

قوله : [أفمن شرح الله صدره للإسلام] أي وسّع قلبه لقبول الإسلام والثبات عليه و شرح الصدر يحصل بقوّة الأدلّة [فهو على نور] و دلالة و هدى [من] توفيق [ربّه] و شبّه سبحانه الدليل بالنور لأنّ بها يعرف الحقّ كما بالنور يعرف اُمور الدنيا .

قوله : [فويلٌ للقاسية قلوبهم] و في الآية حذفٌ و تقديره: كمن هو قاسي القلب و يدلّ على المحذوف « فويل للقاسية قلوبهم عن ذكر الله » و هم الّذين ألفوا الكفر و تصلّبت قلوبهم حتّى لا ينفع فيها وعظٌ ولا ترغيب ولا ترهيب ولا يهتدي لقراءة القرآن و ذكر الله .

و اعلم أنّ جواهر النفوس تختلف ماهيّاتها بالملكات الطيّبة والخبيثة فتصير بعضها خيرة نورانيّة شريفة مائلة إلى الإلهيّات عظيمة الرغبة في الاتّصال بالروحانيّات وبعضها نذلة خسيسة مائلة إلى الجسمانيّات و هذا التفاوت حاصلٌ في جواهر النفوس البشريّة و هو المراد من شرح الصدور و قسوة القلوب و لهذا السبب تختلف جواهر النفوس فإنّ الفاعل الواحد تختلف أفعاله بحسب اختلاف القوابل كنور الشمس يسوّد وجه القصّار و يبيّض ثوبه و كذلك حرارة الشمس تلين الشمع وتعقد الملح وقد نرى إنساناً واحداً يذكر كلاماً واحداً في مجلس واحد فيستطيبه واحد ويستكرهه آخر و ما ذاك إلّا من اختلاف جواهر النفوس .

[اُولئك في ضلال مبين] وفي عدول عن الحقّ واضح .

[الله نزّل أحسن الحديث] القرآن سمّاه الله «حديثاً» والكلام سمّي حديثاً كما يسمّى كلام النبيّ حديثاً و القرآن كلام الله و لأنّه حديث النزول بعد الكتب المنزلة على

(١) الاعراف : ٢٩ .

الأنبياء وهو أحسن الحديث لفرط فصاحته وإعجازه واشتماله على جميع مايحتاج المكلّف من الأحكام.

و في الآية دلالة على حدوث الكلام لأنّ الحديث لابدّ و أن يكون حادثاً بل لفظ الحديث أقوى دلالةً في الحدوث من الحادث والشيء إمّا أن يكون حادثاً أو قديماً وليس مرتبة بين الحادث والقديم.

قوله: [كتاباً متشابهاً] يشبه بعضه بعضاً ويصدّق بعضه بعضاً و قيل: معناه إنّه يشبه كتب الله المتقدّمة و إن كان أكمل و أنفع و أعمّ [مثاني تقشعرّ منه جلود الّذين يخشون ربّهم] سمّي القرآن بذلك لأنّه يثنّى فيه بعض القصص و الأخبار و الأحكام و المواعظ بضروب البيان و يثنّى في التلاوة فلايملّ لحسن مسموعه « تقشعرّ منه جلود الّذين » أي تأخذهم قشعريرة خوفاً ممّا في القرآن من الوعيد [ثمّ تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله] إذا سمعوا ما فيه من الوعد بالثواب و الرحمة و تطمئنّ و تسكن قلوبهم إلى ذكر الله الجنّة والثواب و إنّ العارفين إذا نظروا إلى عالم الجلال طاشوا و إن لاح لهم أثرٌ من عالم الجمال عاشوا.

و تركيب لفظ القشعريرة من حروف التقشّع و هو الأديم اليابس مضموماً إليها حرف رابع و هو «الراء» ليكون رباعيّاً و دالّاً على زيادة المعنى يقال: اقشعرّ جلده من الخوف و وقف شعره و ذلك مثل في شدّة الخوف روي عن عبّاس بن عبد المطّلب أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال: إذا اقشعرّ جلد العبد من خشية الله تحاتت عنه ذنوبه كما يتحاتّ عن الشجرة اليابسة ورقها و هذا المعنى نعتٌ لأولياء الله نعتّهم الله بأن تقشعرّ جلودهم و تطمئنّ قلوبهم إلى ذكر الله ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشيان عليهم و الغشيان عليهم إنّما ذلك في أهل البدع من المتصوّفة وهو من الشيطان.

قوله: [ذلك] يعني القرآن [هدى الله يهدي به من يشاء] من عباده بما نصب فيه من الأدلّة و هم الّذين آتاهم القرآن من اُمّة محمّد و تدبّروا في دلائل القرآن و اهتدوا بها.

[و من يضلل الله] عن طريق الجنّة بسبب عدم قبول القرآن و الهداية [فما له

من هاد] أي لا يقدر على هدايته أحدٌ عن الجبّائي و قيل : معناه من ضلّ عن رحمة الله و عن الله فلاهادي له يقال : أضللت بعيري إذا ضلّ وقيل : معناه من يضلله عن زيادة الهدى و الألطاف بكفره لالطف له لأنّ الكافر لالطف له .

[أفمن يتّقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة] أي أفحال من يتّقي بوجهه و يدفع عذاب النار بوجهه يوم القيامة كحال من يأتي آمناً لاتمسّه النار و إنّما قال سبحانه : « بوجهه » لأنّه يلقى منكوساً في النار فأوّل عضو منه مسّته النار وجهه و الوجه أعزّ أعضاء الإنسان و يقال لمقدّم القوم : يا وجه العرب ثمّ إذا وقع الإنسان في نوع من أنواع العذاب فإنّه يجعل يده وقاية لوجهه و فداءً له و إذا كان القادر على الاتّقاء يجعل كلّ ما سوى الوجه وقاية للوجه فجعل الاتّقاء بالوجه كناية عن العجز عن الاتّقاء ونظيره قول النابغه :

و لا عيب فيهم غير أنّ سيوفهم * بهنّ فلول من قراع الكتائب

أي لا عيب في الجماعة إلّا هذا و هو عين المدح في الشجاعة فالمعنى أنّه لاعيب فيهم بوجه من الوجوه في الشجاعة فكذا هنا أي لايقدرون على الاتّقاء من العذاب بوجه من الوجوه إلّا بالوجه و هو ليس باتّقاء فليس لهم قدرة على الاتّقاء البتّة و إنّ الّذي يلقى في النار يداه مغلولة إلى عنقه ولايتهيّأ له أن يتّقي النار إلّا بوجهه كيف حاله ؟

و بالجملة فجواب الاستفهام محذوف وتقديره : أفمن يتّقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كمن هو آمن من العذاب فحذف الخبر كما حذف في نظائره .

ثمّ قال : [و قيل للظالمين ذوقوا ما كنتم تكسبون] و القائل خزنة النار لهم أي جزاء ما كسبتموه من المعاصي .

ثم أخبر سبحانه عن أمثال هؤلاء الكفّار من الاُمم الماضية فقال : [كذّب الّذين من قبلهم] بآيات الله و جحدوا رسله [فأتاهم العذاب] عاجلاً [من حيث لايشعرون] وهم آمنون غافلون .

قوله تعالى : فاذا قهم الله الخزى فى الحيوة الدنيا و لعذاب الاخرة أكبر لو كانوا يعلمون (٢٦) و لقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل

لعلهم يتذكرون (٢٧) قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون (٢٨) ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون و رجلا سلما لرجل هل يستويان مثلا الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون (٢٩) انك ميت و انهم ميتون (٣٠) ثم انكم يوم القيمة عند ربكم تختصمون (٣١) .

ثمّ أخبر سبحانه عمّا فعله بالأُمم المكذّبة بأن قال :

[فأذا قهم الله الخزي] أي الذلّ و الهوان في الحياة الدنيا [و لعذاب الآخرة أكبر] أي أعظم وأشدّ [لو كانوا يعلمون] كيفيّة عذاب الآخرة .

[ولقد ضربنا في هذا القرآن من كلّ مثل لعلّهم يتذكّرون] سمّي ذكر الأُمم السابقة «مثلاً» كما قال : « وتبيّن لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال(١) » أو المعنى : إنّا و صفنا وبيّنّا للناس في هذا القرآن كلّما يحتاجون إليه من مصالح دينهم و دنياهم لكي يتذكّروا ويتدبّروا فيعتبروا .

[قرآناً عربيّاً غير ذي عوج] ليس فيه اعوجاجٌ وميل عن الحقّ بل هو مستقيم موصل إلى الحقّ [لعلّهم يتّقون] المعاصي وفي الآية دلالة على أنّ أفعال الله وأحكامه معلّلة وأنّه سبحانه يريد من الكلّ الإيمان والمعرفة لأنّ قوله تعالى : « و لقد ضربنا للناس » مشعر بالتعليل و كذلك « لعلّهم يتّقون » .

وأيضاً الآية تدلّ على حدوث الكلام لأنّ الشيء الّذي يؤتى به لغرض آخر يكون محدثاً لأنّ القديم هو الّذي يكون موجوداً في الأزل وهذا يمتنع أن يقال : إنّه إنّما أتى به لغرض كذا و كذا و بالجملة وصف القرآن بالاستقامة و عدم الاعوجاج و كونه « قرآناً » والمراد كونه متلوّاً في المحاريب والأمكنة الشريفة وكونه « عربيّاً » قد أعجز الفصحاء عن معارضته .

قوله تعالى : [ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون] ضرب سبحانه هذا المثل للمشركين الّذين يعبدون الآلهة فحالهم كحال رجل قد اشترك في ذلك الرجل موالي كثيرة وهم شركاء في ملكيّته وبينهم تنازع و اختلاف كثير فهذا المولى يأمره بأمر وذلك ينهاه وينازع كلّ واحد منهم ويدّعي أنّه عبده وهم يتجاذبونه في حوائجهم والرجل

(١) ابراهيم : ٤٥ .

متحيّر في أمره فكلّما أرضى واحداً غضب الباقون وإذا احتاج العبد إلى أمر أو رزق ومعاش فكلّ واحد منهم يردّه إلى الآخر فهو يتحيّر في أمره لايعرف أيّهم أولى بأن يطلب رضاه رأيّهم يقيم بحوائجه فهو لهذا السبب في عذاب دائم وتعب مقيم . والشكس سوء الخلق .

فهذا مثل المشرك الّذي يجعل لله شريكاً في العبادة ويجعل له الآلهة و أمّا المؤمن الموحّد الّذي يعبد الله و يطيعه وحده كمثل رجل له مخدوم واحد يخدمه على سبيل الإخلاص وذلك المخدوم يعينه على مهمّاته فأيّ هذين العبدين أحسن حالاً وأحمد شأناً ؟ وهو المراد بقوله : [ورجلاً سلماً لرجل] وقرىء «سالماً» أي ذو سلامة وتسليم وهذا مثلٌ ضرب الله في قبح الشرك وتحسين التوحيد .

ثمّ قال سبحانه : [هل يستويان مثلاً] أي هل يستوي هذان الرجلان صفة في حسن العاقبة أي لايستويان .

ثمّ قال : [الحمد لله] فيكون العبوديّة والحمد و المستحقّ للثناء هو الله لأنّه المالك الواحد والمنعم الحقيقيّ ويمكن أن يكون « الخبر» بمعنى الأمر أي احمدوا الله [بل أكثرهم لايعلمون] حقيقة نعمة التوحيد .

فإن قيل : هذا المثل لاينطبق على عبادة الأصنام لأنّها جمادات و ليس بينها مشاكسة ومنازعة ؟

فالجواب أنّ عبدة الأصنام منهم من يقول : هذه الأصنام تماثيل الكواكب السبعة فهم في الحقيقة يعبدون الكواكب السبعة ثمّ إنّ القوم يثبتون بين هذه الكواكب منازعة ومشاكسة ألاترى أنّهم يقولون : زحل هو النحس الأعظم والمشتري هو السعد الأعظم ومنهم من يقول : هذه الأصنام تماثيل الأرواح الفلكيّة والقائلون بهذا القول زعموا أنّ كلّ نوع من أنواع حوادث هذا العالم يتعلّق بروح من الأرواح السماويّة وحينئذ يحصل بين تلك الأرواح مخالفات في المقتضي ومشاكسة فالمثل حينئذ مطابق ومنهم من يقول : هذه الأصنام تماثيل الأشخاص من الصلحاء والعلماء الّذين مضوا فهم يعبدون هذه التماثيل ليصيروا أُولئك الأشخاص شفعاء لهم عند الله و القائلون بهذا القول : يزعم كلّ طائفة منهم أنّ المحقّ هو ذلك الرجل الّذي هو على دينه و أنّ من سواه مبطل فعلى

هذا أيضاً ينطبق المثال .

قوله تعالى : [إنّك ميّت وإنّهم ميّتون] بيّن سبحانه المقام الّذي يتبيّن فيه المبطل من المحقّ فقال : إنّ عاقبتك وعاقبة هؤلاء الموت فحينئذ يتبيّن الحقّ من الباطل .

[ثمّ إنّكم يوم القيامة عند ربّكم تختصمون] و الاختصام يكون بين المهتدين والضالّين والصادقين و الكاذبين وقيل : يقع الاختصام بين أهل القبلة قال أبو سعيد الخدريّ في هذه الآية : كنّا نقول : ربّنا واحد ونبيّنا واحد وديننا واحد فما هذا الاختصام ؟ فلمّا وقع صفّين و شدّ بعضنا على بعض بالسيوف قلنا : نعم هو هذا .

قوله تعالى : فمن اظلم ممن كذب على الله و كذب بالصدق اذ جاءه اليس فى جهنم مثوى الكافرين (٣٢) و الذى جاء بالصدق و صدق به اولئك هم المتقون (٣٣) لهم مايشاءون عند ربهم ذلك جزاء المحسنين (٣٤) ليكفر الله عنهم أسوء الذى عملوا و يجزيهم أجرهم بأحسن الذى كانوا يعملون (٣٥) .

ثمّ بيّن نوعاً آخر من قبائح أفعال المشركين و هو أنّهم أثبتوا لله ولداً و شركاء أو أنّهم مصرّون على تكذيب الصادقين و الأنبياء ويكذّبون محمّداً صلّى الله عليه وآله وسلّم فأردف تكذيبهم بالوعيد فقال :

[أليس في جهنّم مثوى] و مقرّاً [للكافرين] و المراد من قوله : [و كذّب بالصدق] التوحيد و القرآن [إذ جاءه] .

قوله : [و الّذي جاء بالصدق] قيل : الّذي جاء بالصدق محمّد جاء بالقرآن [و صدّق به] هم المؤمنون [أُولئك] المصدّقون [هم المتّقون] و قيل : الّذي جاء جبرئيل و الصدق القرآن و تلقّاه بالقبول و صدّق به محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و قيل : الّذي جاء بالصدق الجائي محمّد و الصدق كلمة لا إله إلّا الله و صدّق به هو أيضاً نفسه الشريفة و بلّغه إلى الخلق و قالوا : لو كان المصدّق به غيره لقال : و الّذين صدّق به و هذا القول أقوى الأقوال و القائل ابن عبّاس و قيل : الّذي جاء بالصدق الأنبياء و صدّق به أتباعهم فحينئذ يكون كلمة « و الّذي » للجنس كما قال :

و إنّ الّذي جاءت بفلج دماؤهم * هم القوم كلّ القوم يا اُمّ خالد

الأ ترى أنّه عاد إليه ضمير الجمع و قيل : الّذي جاء بالصدق محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و صدّق به المراد عليّ بن أبي طالب عن مجاهد و رواه الضحّاك عن ابن عبّاس وهو المرويّ عن أئمّة الهدى من آل محمّد خزنة العلم .

ثمّ منّ سبحانه بما أعدّ لهم من النعيم فقال : [لهم ما يشاءون] من النعيم في الجنّة [عند ربّهم] أي ينالون من جهة لطفه [ذلك جزاء المحسنين] ذلك إشارة إلى ما ذكر و هو حصول ما يشاءونه على إحسانهم الّذي فعلوه في الدنيا و أعمالهم الصالحة .

[ليكفّر الله عنهم أسوء الّذي عملوا] قيل : اللام في ليكفّر من صلة قوله : « لهم ما يشاءون » والمعنى أنّه لمّا وعدهم بما يشاءون جزاءً على إحسانهم أثبت وحقّق الثواب لهم بتكفير السيّئات الّتي عملوها قبل الإيمان و قيل : اللام للقسم و التقدير : و الله ليكفّرنّ فحذف النون و كسرت اللام أي يسقط الله عنهم عقاب الشرك و المعاصي الّتي فعلوها قبل ذلك بمقابله إيمانهم و تصديقهم و رجوعهم إلى الله .

و اعلم أنّ مقاتلاً شيخ المرجئة و هم الّذين يقولون : لا يضرّ شيء من المعاصي مع الإيمان كما لا ينفع شيء من الطاعات مع الكفر و احتجّ بهذه الآية فقال : إنّها تدلّ على أنّ من صدّق الأنبياء فإنّه تعالى يكفّر عنهم أسوء الّذي عملوا و قال : إنّ ظاهر الآية يدلّ على أنّ التكفير حصل في حال ما وصفهم الله بالتقوى و هو التقوى من الشرك و إذا كان كذلك وجب أن يكون المراد منه الكبائر الّتي يأتي بها بعد الإيمان والآية تنصيص على أنّه يكفّر عنهم بعد إيمانهم أسوء ما يأتون به و ذلك هو الكبائر .

أقول : و في هذا الكلام نظر لأنّه من أين ثبت أنّ المراد من التقوى في الآية التقوى من الشرك كما فسّره بل لعلّ المراد التقوى من المعاصي فتأمّل .

[و يجزيهم أجرهم] و ثوابهم [بأحسن الّذي كانوا يعملون] بالفرائض والنوافل فهي أحسن أعمالهم لأنّ عمل المباح و إن كان حسناً لكن لا يستحقّ به ثواب و لا مدح .

وههنا بحث وهو قوله للمصدّقين ووعدهم بقوله : « لهم ما يشاءون عند ربّهم » وهذا الوعد يدخل فيه كلّ ما يرغب المكلّف فيه و لاشكّ أنّ الكمال أمرٌ محبوبٌ لذاته

مرغوب فيه وأهل الجنّة لاشكّ أنّهم عقلاء فإذا شاهدوا الدرجات العالية الّتي هي للأنبياء وأكابر الأولياء عرفوا أنّها خيرات عالية ودرجات كاملة والعلم بالشيء من حيث إنّه كمالٌ و خيرٌ يوجب الميل إليه والرغبة فإذا كان كذلك فهم يشاءون حصول تلك الدرجات لأنفسهم فوجب حصولهالهم بحكم هذه الآية أيضاً وليس يحصل لهم يقيناًفلولم يحصل لهم ذلك المراد كانوا في الغصّة ووحشة القلب .

فالجواب أنّ أحوال أهل الآخرة بخلاف أحوالهم في الدنيافيزيل الله عن قلوبهم الحقد والحسد والطمع .

وفي الآية بحث آخروهو أنّ بعض الناس تمسّكوا بهذه الآية في أنّ المؤمنين يرون الله تعالى عن ذلك وذلك لقوله : « لهم مايشاءون عند ربّهم » لأنّ الرؤية أعظم وجوه التجلّي وزوال الحجاب ولاشكّ أنّها حالة مطلوبة و النصّ يقتضي حصول كلّما شاءوه وأرادوه .

واُجيب بأنّ هذا الكلام باطل لأنّه لمّا علم أنّ هذا المطلوب ممتنع الوجود بعينه فإنّه يترك طلبه لالأجل عدم المقتضي للطلب بل لقيام المانع و هو كونه ممتنعاً في نفسه فإذا تحقّق الامتناع لهم وجوداًسلب المقتضي فهملايشاءونأمراًممتنعاً لأنّهم عقلاء

وللمسألة جواب آخروهوأنّ الله سبحانه يزيل عنقلوبهم هذه الإشاءة فلايشتهون هذا الأمرحتّى تقول : إنّ ترك الطلب للمانع والطلب والميل باق انتهى .

أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه ومن يضلل الله فماله من هاد(٣٦) ومن يهدى الله فماله من مضل اليس الله بعزيزذى انتقام (٣٧) ولئن سالتهم من خلق السموات والارض ليقولن الله قل أفرأيتم ماتدعون من دون الله ان ارادنى الله بضر هل هن كاشفات ضره اوارادنى برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبى الله عليه يتوكل المتوكلون (٣٨) قل ياقوم اعملوا على مكانتكم انى عامل فسوف تعلمون (٣٩) من ياتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم (٤٠) .

كانت الكفّار تخيفه صلّى الله عليه وآله بالأوثان الّتي كانوا يعبدونها وكانوا يقولون له صلّى الله عليه وآله: إنّ آلهتنا تمسّك بالضرّ فحسم الله سبحانه مادّة قولهم بقوله : [أليس الله بكاف] من يعبده وإنّ آلهتهم لاتضرّ ولاتنفع .

[ويخوّفونك بالّذين من دونه] يعني آلهتهم ولعلّ المراد بالعبد في الآية العباد و المقصود الأنبياء كما كفى نوحاً من الغرق وإبراهيم من النار و يونس ردّ فهو كافيك كما كفى الأنبياء قبلك ، قيل : إنّما قصد خالد لكسر الأصنام بأمر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قالوا : إيّاك يا خالد فبأسها شديد فضرب خالد أنفها بالفأس و هشمها وقال : كفرانك ياعزّى لاسبحانك ، سبحان من أهانك ، إنّي رأيت الله قد أهانك .

[ومن يضلل الله فماله من هاد] أي من أضلّه الله عن طريق الجنّة بكفره ومعاصيه فليس له هاد يهديه إليها وقيل : معناه إنّ من وصفه بأنّه ضالّ إذا ضلّ هو عن طريق الحقّ فليس له من إله هادياً وقيل : معناه من يحرمه الله عن زيادات الهدى فليس له زائد .

[ومن يهدي الله فماله من مضلّ] أي من يهديه الله وحذف « الهاء » كما حذف في قوله : «أهذا الّذي بعث الله رسولاً(١)» لدلالة الكلام إلى طريق الجنّة فلا أحد يضلّه عنها وقيل : من بلغ استحقاق زيادات الهدى بصالح أعماله فقد ارتفع عن تأثير الوسواس [أليس الله بعزيز] أي غالب قادر لا يقدر أحد على مغالبته [ذي انتقام] من أعدائه الجاحدين لنعمه .

ثمّ قال : لنبيّه صلى الله عليه و آله : [ولئن سألتهم [يا محمّد [من خلق السماوات والارض] وأوجد ها بعد أن كانت معدومة [ليقولنّ الله] الفاعل لذلك لأنّهم مع عبادتهم الأوثان يقرّون بذلك .

فردّ عليهم سبحانه بأنّ ما يعبدونه من دون الله لا يملك كشف السوء و الضرّ عنهم فقال : [قل] لهم : [أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضرّ] أي بمرض أو فقر أو بلاء أو شدّة [هل هنّ كاشفات ضرّه أو أرادني برحمة هل هنّ ممسكات رحمته] والمراد أنّ هذه الأصنام لاقدرة لها على الخير والشرّ .

و حاصل المعنى أخبروني أنّ آلهتكم إن أراد الله أن يصيبني بضرّ هل يكشفن عنّي ذلك الضرّ أو أراد الله أن ينفعني بخير هل تمنعني آلهتكم بحيث لا يصلني ذلك الخير فإذا كان الأمر كذلك و آلهتكم عاجزة عن إيصال النفع و دفع الأذى فكيف يستحقّون العبادة فحينئذ الاعتماد على عبادة الله .

(١) الفرقان : ٤١ .

[قل حسبي الله عليه يتوكّل المتوكّلون] ويفوّضون إليه أُمورهم و وجه عبادتهم .

و لمّا أورد الله عليهم هذه الحجّة الواضحة قال على سبيل التهديد : [قل] يا محمّد [ياقوم اعملوا على مكانتكم إنّي عامل فسوف تعلمون] «على مكانتكم » أي على جهدكم و قدرتكم في إهلاكي و تضعيف أمري « إنّي عامل » قدر جهدي و طاقتي [فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه و يحلّ عليه عذاب مقيم] دائم أي فسوف تعلمون أنّ العذاب و الهوان و الخزي يصيبني أو يصيبكم .

قوله تعالى : انا أنزلنا عليك الكتاب للناس بالحق فمن اهتدى فلنفسه و من ضل فانما يضل عليها و ما انت عليهم بوكيل (٤١) الله يتوفى الانفس حين موتها و التى لم تمت فى منامها فيمسك التى قضى عليه الموت و يرسل الاخرى الى اجل مسمى ان فى ذلك لايات لقوم يتفكرون (٤٢) ام اتخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون (٤٣) قل لله الشفاعة جميعاً له ملك السموات و الارض ثم اليه ترجعون (٤٤) و اذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لايؤمنون بالاخرة و اذا ذكر الذين من دونه اذاهم يستبشرون (٤٥) .

النظم : و لمّا كان يعظم على النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إصرارهم على الكفر سلّى قلبه صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال :

[إنّا أنزلنا عليك الكتاب] الكامل الشريف لنفع الناس و لاهتدائهم به و جعلنا إنزاله مقروناً بالحقّ فمن اهتدى به فنفعه يعود إليه و من ضلّ فضرّ ضلاله يعود إليه [و ما أنت عليهم بوكيل] ولست مأموراً بأن تحملهم على الإيمان على سبيل القهر و القبول و عدمه مفوّض إليهم و لست كفيل إيمانهم .

قوله : [الله يتوفّى الأنفس حين موتها] المقصود من الآية إتيان الحجّة على المشركين ببيان قدرته فإنّه المستحقّ للعبادة دون آلهتكم العجزة و إشعار في تشبيه الهداية و الإيمان بالحياة و اليقظة و الكفر و الضلال بالموت و النوم فقال : إنّه تعالى يتوفّى الأنفس عند الموت و عند النوم .

قال ابن عبّاس : في بني آدم نفس و روحٌ بينهما مثل شعاع الشمس فالنفس بها العقل و التمييز و الروح بها التنفّس و الحركة فإذا نام الإنسان قبض الله نفسه و لم يقبض

روحه و إذا مات قبض الله روحه ويؤيّده ما رواه العيّاشيّ عن الباقر عليه السلام قال: ما من أحد ينام إلّا عرجت نفسه إلى السماء و بقيت روحه في بدنه و صار بينهما سبب كشعاع الشمس فإن أذن الله في قبض الروح و قضى عليه بالموت أجابت الروح النفس و إن لم يأذن أجابت النفس الروح و هو قوله: « الله يتوفّى الأنفس حين موتها الآية » فمارأت في ملكوت السماوات فهو ممّا له تأويل و مارأت فيما بين السماء و الأرض فهو ممّا يخبله الشيطان و لا تأويل له و نسبة التوفّي إلى الملك في بعض الآيات بالمباشرة و المتوفّي هو الله.

و بالجملة فمعنى الآية أنّ الله يتوفّى الأنفس وقت موتها و انقضاء آجالها.

[و الّتي لم تمت في منامها] أي و يتوفّى الله النفس الّتي لم يقض عليه بالموت أيضاً فالنفس الّتي قضي عليها الموت يمسكها سبحانه إلى يوم القيامة لا تعود إلى الدنيا و الّتي لم يقض عليها الموت و ما بلغ أجلها يرسلها إلى وقت معلوم قدّر لها فليس قادر غيره على هذا الأمر والنفس الإنسانيّة عبارة عن جوهر مشرق روحانيّ أي من سنخ عالم الروحانيّات لا العناصر إذا تعلّق بالبدن حصل ضوؤه في جميع الأعضاء و هو الحياة ففي وقت الموت ينقطع ضوؤه عن ظاهر البدن و عن باطنه و أمّا في وقت النوم فإنّه ينقطع ضوؤه عن الحواسّ وظاهر البدن من بعض الوجوه ولا ينقطع ضوؤه عن باطن البدن فالموت و النوم متشابهان من بعض الجهات إلّا أنّ الموت انقطاع تامّ والنوم انقطاع ناقص فيشتركان في كون كلّ واحد منهما توفّياً للنفس و هذا التدبير العجيب لا يمكن صدوره إلّا عن الخالق القادر و هو المراد من قوله: [إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون].

قوله تعالى: [أم اتّخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً و لا يعقلون] و لمّا اعتذر المشركون أنّا لانعبد هؤلاء الأصنام لاعتقاد أنّها آلهة مستقلّة و إنّما نعبدها لأجل أنّها تماثيل لأشخاص كانوا عند الله من المقرّبين فنحن نعبدها لأجل الشفاعة فأجاب الله بقوله: « أم اتّخذوا من دون الله شفعاء » أي بل اتّخذ قريش من دون إذن الله الأصنام شفعاء تشفع لهم عنده قل يا محمّد: « أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون» « الهمزة » للاستفهام الإنكاريّ واستقباح هذا الأمر أي قل لهم: أتتّخذونهم شفعاء و لو

كانوا لايملكون شيئاً من الأشياء ولايعقلون لأنّها جمادات فضلاً عن أن يملكون الشفاعة عندالله وحاصل المعنى: أيتّخذونهم شفعاء راجين شفاعتهم و لو كانت الآلهة موصوفة بصفة العجز و عدم الإدراك.

ثمّ قال سبحانه: [قل] لهم يا محمّد: [لله] إذن [الشفاعة] و لا يملك أحد الشفاعة إلّا بإذنه و تمليكه [جميعاً] لأنّه المالك و [له ملك السماوات و الأرض ثمّ إليه ترجعون] أي هو مالكها لايستطيع أحدٌ شفاعةً مّا حتّى يكون المشفوع له مرتضى دينه و الشفيع يكون مأذوناً و كلاهما مفقود ههنا [و إليه] رجوعكم يوم القيامة دون غيره لااستقلالاً ولا اشتراكاً.

قوله: [وإذاذكرالله وحده اشمأزّت قلوب الّذين لايؤمنون بالآخرة] قال ابن عبّاس: كان المشركون إذا سمعوا قول «لاإله إلّا الله وحده لاشريك له» نفروا من هذا القول لأنّهم كانوا يقولون بالتشريك.

[و إذا ذكر الّذين من دونه] يعني الأصنام الّتي كانوا يعبدونها من دون الله [إذا هم يستبشرون] ويسرّون بحيث يظهرون السرور في وجوههم الخبيثة و حصل الغيظ في قلوبهم الفاسدة والاستبشار والاشمئزاز متقابلان بالتضادّ.

قل اللهم فاطر السموات و الارض عالم الغيب و الشهادة انت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون (٤٦) ولو ان للذين ظلموا ما فى الارض جميعا و مثله معه لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيمة و بدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون (٤٧) و بدالهم سيئات ما كسبوا و حاق بهم ماكانوا به يستهزؤن (٤٨) فاذا مس الانسان ضردعانا ثم اذا خولناه نعمة منا قال انما اوتيته على علم بل هى فتنة ولكن أكثرهم لايعلمون (٤٩) قد قالها الذين من قبلهم فما أغنى عنهم ماكانوا يكسبون (٥٠).

و لمّا صدر من المشركين الاستبشار من ذكر تعدّد الآلهة و الاشمئزاز من وصف التوحيد و هو أمر عجيب تشهد فطرة العقل بفساده أمر نبيّه أن يحاكمهم و يدعو بهذا الدعاء:

[قل اللّهمّ فاطر السماوات والأرض] فقال: قل يا محمّد، أي ياخالقهما ومنشئهما

و يا عالم الغيب و الشهادة أي يا عالم ما غاب علمه عن جميع الخلايق و عالم ما شهدوه و علموه .

[أنت تحكم بين عبادك] يوم القيامة [فيما كانوا فيه يختلفون] في دار الدنيا من أمر دينهم و دنياهم و تفصل بينهم بالحقّ في الحقوق و المظالم أي فاحكم بيني و بين قومي بالحقّ .

و في هذا بشارة للمؤمنين بالظفر والنصر لأنّه سبحانه إنّما أمره به للإجابة لامحالة و عن سعيد بن المسيّب أنّه قال : إنّي لأعرف موضع آية لم يقرأها قطّ فسأل الله شيئاً إلّا أعطاه وهي قوله : «اللهمّ فاطر السماوات و الأرض » الآية .

ثمّ أخبر سبحانه بوقوع العذاب والعقاب بالكفّار بأُمور :

أولها : [و لو أنّ للّذين ظلموا ما في الأرض جميعاً و مثله معه] زيادةً عليه [لافتدوا به من سوء العذاب يوم القيامة] أي إنّ هؤلاء الكفّار لو ملكوا كلّ ما في الأرض من الأموال وملكوا مثله معه لجعلوا الكلّ فدية لأنفسهم من ذلك العذاب الشديد .

و الثاني : [و بدالهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون] أي ظهر لهم يوم القيامة من صنوف العذاب ما لم يكونوا يظنّونه وينتظرونه ولم يكن في حسابهم و كما أنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم قال في صفة الثواب في الجنّة : فيها مالاعين رأت و لا أُذُنٌ سمعت ولاخطر على قلب بشر فكذلك في العقاب حصل مثله .

و ثالثها : [و بدالهم] أي ظهر لهم أيضاً [سيّئات ما كسبوا] أي جزاء سيّئات أعمالهم و آثارها [و حاق] من كلّ الجوانب و نزل بهم [ماكانوا به يستهزءون] وهو كلّ ما ينذرهم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم ممّا كانوا ينكرونه ويكذّبون به .

ثمّ أخبر سبحانه عن شدّة تقلّب الإنسان من حال إلى حال و عن عقيدته الفاسدة فقال : [فإذا مسّ الإنسان ضرّ دعانا] أي عند وقوع الضرر من الفقر والمرض يفزعون إلى الله ويرون أنّ دفع ذلك لايكون إلّا منه .

[ثمّ إذا خوّلناه نعمة] و هي السعة في المال أو العافية في البدن تفضّلاً [قال إنّما اُوتيته على علم] أي زعم أنّه إنّما حصل ذلك بكسبه وبسبب جدّه و جهده فإن

كان مالاً قال : إنّما حصل بكسبي و إن كان صحّة قال : إنّما حصل ذلك بسبب العلاج الفلاني" وهذا تناقض عظيم لأنّه كان في حال العجز و الحاجة أضاف إلى الله و استدعى رفعه منه و في حال السلامة قطعه عن الله وأسنده إلى كسب نفسه و هذا تناقض قبيح .

ثمّ قال تعالى : ليس الأمر على ما يقولونه ويزعمونه [بل هي فتنة] أي بليّة واختبار يبتليه الله بها ليظهر شكره أو صبره فيجازيه بحسبها و قيل : معناه هذه المقالة و العقيدة فتنة لهم لأنّهم بسبب هذا القول يعاقبون عليها [ولكنّ أكثرهم لا يعلمون] البلوى من النعمى أو لا يعلمون أنّ النعم كلّها من الله وإن حصل بأسباب من جهة العبد .

فإن قيل : إنّ لفظ « النعمة » مؤنّثة و الضمير في قوله : « اُوتيته » عائد على النعمة وضمير المذكّر كيف عاد إلى المؤنّث وقال : بعده « بل هي فتنة » فجعل الضمير مؤنّثاً فما السبب فيه والجواب أنّ التقدير حتّى إذا خوّلناه شيئاً من النعمة فمعنى « النعمة » مذكّر فلاجرم جاز الأمران و معنى التخويل التفضّل .

قوله تعالى : [قد قالها الّذين من قبلهم] أي قد قال مثل هذه الكلمة قارون حيث قال : « إنّما اُوتيته على علم عندي[1] » [فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون] ولم ينفعهم ما كانوا جمعوه من الأموال بل صارت وبالاً عظيماً .

قوله تعالى : فاصابهم سيئات ما كسبوا والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا و ماهم بمعجزين (٥١) أو لم يعلموا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر ان في ذلك لايات لقوم يؤمنون (٥٢) قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله ان الله يغفر الذنوب جميعا انه هو الغفور الرحيم (٥٣) و انيبوا الى ربكم و اسلموا له من قبل أن ياتيكم العذاب ثم لاتنصرون (٥٤) و اتبعوا ما انزل اليكم من ربكم من قبل أن ياتيكم العذاب بغتة و أنتم لا تشعرون (٥٥) .

ثمّ أخبر سبحانه عن حال هؤلاء الكفّار بقوله : [فأصابهم سيّئات ما كسبوا] أي أصاب عقاب سيّئاتهم فخذف المضاف لدلالة الكلام عليه و إنّما سمّي عقاب سيّئاتهم « سيّئة » لازدواج الكلام كقوله : « و جزاء سيّئة سيّئة مثلها[2] » .

---

(١) القصص : ٧٨ .

(٢) الشورى : ٤٠ .

[والّذين ظلموا من هؤلاء] أي من كفّار قومك [سيصيبهم سيّئات ما كسبوا] أيضاً [و ما هم بمعجزين] و لا يفوتون الله و لا يعجزون الله بالخروج عن قدرته .

[أولم يعلموا أنّ الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر] أي يوسّع الرزق على من يشاء و يضيق على من يشاء بحسب ما يعلم من المصلحة و الدليل عليه أنّا نرى الناس مختلفين في سعة الرزق وضيقه و لابدّ له من سبب و ذلك السبب ليس هو عقل الرجل وجهله لأنّا نرى العاقل في أشدّ الضيق و نرى الجاهل المريض الضعيف العاجز في أعظم السعة وليس ذلك أيضاً لأجل الطبائع والأنجم والأفلاك كمايزعم بعضهم لأنّ في الساعة الّتي ولد ذلك الملك الكبير و السلطان القاهر قد ولد فيها أيضاً عالم من الناس وعالم من الحيوان غير الانسان و عالم من النبات و نشاهد حدوث هذه الأشياء الكثيرة في تلك الساعة الواحدة مع كونها مختلفة في السعادة و الشقاوة علمنا أنّه ليس المؤثّر في السعادة و الشقاوة الطبيعة و الطالع لأنّ الطالع إن كان يقتضي السعد فيقتضي السعد للملك و الصعلوك اقتضاء واحداً و لمّا بطلت هذه الأقسام و الأثر لايوجد إلّا بالمؤثّر والمعلول بالعلّة علمنا أنّه ليس المؤثّر فيه إلّا الله .

فلا السعد يقضي به المشتري * ولا النحس يقضي علينا زحل
و لكنّه حكم ربّ السماء * و قاضي القضاة تعالى وجلّ

[إنّ في ذلك لآيات] و دلالات و اضحات [لقوم يؤمنون] و يصدّقون بتوحيد الله لأنّهم المنتفعون .

[قل يا عبادي الّذين أسرفوا على أنفسهم] بارتكاب الذنوب [لا تقنطوا من رحمة الله]أي لاتيأسوا من مغفرة الله [إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً إنّه هو الغفور الرحيم] عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله قال : ما اُحبّ أنّ لي الدنيا و ما فيها بهذه الآية. وعن أمير المؤمنين عليه السلام أنّه قال : ما في القرآن آية أوسع من هذه الآية . و في مصحف عبدالله بن مسعود : إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً لمن يشاء .

قال الرازيّ : إنّ عرف القرآن جار بتخصيص اسم العباد بالمؤمنين قال تعالى :

« و عباد الرحمن يمشون على الأرض هوناً» [١] و قال : « عيناً يشرب بها عباد الله »[٢] و أيضاً لفظ مذكور في معرض التعظيم فوجب أن لا يقع إلّا على المؤمنين فظهر من هذه المقدّمات أنّ قوله : «يا عبادي» مختصّ بالمؤمنين ولأنّ المؤمن هو الّذي يعترف بكونه عبدالله و أمّا المشركون فإنّهم في الغالب يسمّون أنفسهم بعبد اللات و العزّى و عبدالمسيح .

إذا ثبت هذا فنقول : إنّه تعالى قال : « الّذين أسرفوا على أنفسهم »عامّ في حقّ جميع المسرفين ثمّ قال تعالى : « إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً » وهذا يقتضي كونه تعالى غافراً لجميع الذنوب الصادرة عن المؤمنين .

فإن قيل : إنّ هذه الآية لايمكن إجراؤها على ظاهرها و إلّا لزم القطع بكون الذنوب مغفورة قطعاً و أنتم لا تقولون به فما هو مداول هذه الآية لا تقولون به و الّذي تقولون به لا تدلّ عليه هذه الآية فسقط الاستدلال . و أيضاً إنّه قال عقيب هذه الآية : « و أنيبوا إلى ربّكم و أسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثمّ لا تنصرون »ولوكان المراد من أوّل الآية أنّه غفر جميع الذنوب قطعاً لما أمر عقيبه بالتوبة ولما خوّفهم بنزول العذاب عليهم من حيث لا يشعرون . وأيضاً لوكان المراد ما يدلّ عليه ظاهر الآية لكان ذلك إغراءً بالمعاصي وإطلاقاً في الاقدام عليها و ذلك لا يليق بحكمة الله تعالى فعلى هذا وجب أن يحمل معنى الآية على أن يقال : المراد منه التنبيه على أنّه لا يجوز أن يظنّ العاصي أنّه لا مخلص له من عذاب الله البتّة فإنّ من اعتقد ذلك فهو قانط من رحمة الله إذ لا أحد من العصاة المذنبين إلّا ومتى تاب زال عقابه فمعنى قوله :« إنّ الله يغفر الذنوب جميعاً » أي بالتوبة و الإنابة .

و أمّا الجواب عن القول : « بأنّ الآية تقتضي كون كلّ الذنوب مغفورة قطعاً و أنتم لاتقولون به[٣]» قلنا : بل نحن نقول به و بيانه أنّ صيغة «يغفر» للاستقبال وعندنا

(١) الفرقان : ٦٣ . (٢) الدهر : ٦ .

(٣) بل الجواب ان جميعا تأكيد للذنوب و المراد ان الله اذا غفر لمن يشاء يغفر جميع ذنوبه بلا فرق بين كبيرة و كبيرة فلايقنط احد من غفران بعض كبائرها العظيمة فى نفسه ، و ليس الله ان يغفر بعضها ثم يعذبه ببعضها و لذلك عقبه بقوله « و انيبوا الى الله و اسلموا» : توبة مما سلف و تسليما لما خلف حتى يغفر لكم جميع ما سلف .

أنّ الله يخرج من النار أهل التوحيد و على هذا التقدير فصاحب الكبيرة مغفور له قطعاً إمّا قبل الدخول في جهنّم و إمّا بعد الدخول فيها فحينئذ ما خرجنا عن مدلول الآية .

و أمّا قوله : لوصارت الذنوب مغفورة بأسرها لما أمر بالتوبة فالجواب أنّ التوبة واجبة و حكم لازم على المكلّف وخوف العقاب قائم و لم يحصل القطع بإزالة العقاب بالكلّيّة بل نقول : لعلّه يعفو مطلقاً و لعلّه يعذّب بالنار مدّة ثمّ يعفو بعد ذلك انتهى كلام الرازيّ .

القميّ قال : نزلت الآية في شيعة عليّ بن أبي طالب خاصّة وفي الكافي عن الصادق عليه‌السلام قال : لقد ذكركم الله في كتابه إذ يقول : « يا عبادي » الآية ، قال : و الله ما أراد بهذا غيركم و في معاني الأخبار و القميّ عن الباقر عليه‌السلام قال : و في شيعة ولد فاطمة عليها‌السلام أنزل الله هذه الآية خاصّة وفي المحاسن عن الصادق عليه‌السلام قال : ما على ملّة إبراهيم غيركم و ما يقبل إلّا منكم و لا يغفر الذنوب إلّا لكم .

و بالجمله قيل : إنّ الآية نزلت في وحشيّ قاتل حمزة حين أراد أن يسلم وخاف أن لا يقبل توبته فلمّا نزلت الآية أسلم . قال الطبرسيّ : و هذا لا يصحّ لأنّ الآية نزلت بمكّة و وحشيّ أسلم بعدها بسنين كثيرة و لكن يمكن أن يكون قرئت عليه الآية فكانت سبب إسلامه فالله سبحانه يغفر الذنوب جميعاً للتائب لا محالة حيث يقول سبحانه : «وهو الّذي يقبل التوبة عن عباده »[1] فإن مات الموحّد من غير توبة فهو في مشيّة الله إن شاء عذّبه بعدله و إن شاء غفر له بفضله كما قال : « و يغفر مادون ذلك لمن يشاء»[2] .

قوله [و أنيبوا إلى ربّكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثمّ لا تنصرون] أي انقادوا له بالطاعة فيما يأمركم به و قيل . معناه : اجعلوا أنفسكم خالصة لقبول دينه و قد حثّ سبحانه بهذه الآية على التوبة لكي لا يرتكب الإنسان المعصية و يدع التوبة اتّكالاً على الآية المتقدّمة .

---

(١) التوبه : ١٠٥ .

(٢) النساء : ٤٧ و ١١٥ .

[و اتّبعوا أحسن ما اُنزل إليكم] من الحلال و الحرام و الأمر و النهي و اتى بالمأمور به و ترك المنهيّ عنه و إنّما قال : « أحسن ما اُنزل » لأنّه أراد بذلك الواجبات و النوافل الّتي هي الطاعات دون المباحات [من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة] أي فجأة لا تتوقّعونه [و أنتم لا تشعرون] أي لا تعرفون وقت نزوله بكم .

قوله تعالى : ان تقول نفس يا حسرتى على ما فرطت فى جنب الله و ان كنت لمن الساخرين (٥٦) او تقول لو ان الله هدانى لكنت من المتقين (٥٧) أو تقول حين ترى العذاب لوان لى كرة فاكون من المحسنين (٥٨) بلى قد جاءتك آياتى فكذبت بها و استكبرت وكنت من الكافرين (٥٩) و يوم القيمة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين (٦٠)

و لمّا أمر الله سبحانه باتّباع الطاعات و اجتناب المعاصي تحذيراً من نزول العقوبات بيّن الغرض في ذلك بقوله : [أن تقول نفس] أي كراهية أن تصيروا إلى حال تقولون فيها : [يا حسرتى على ما فرّطت فيجنب الله] أي يا ندامتي و طول تحسّري علي ما ضيّعت من ثواب الله وقصّرت في أمر الله و التفريط إهمال ما يجب أن يتقدّم فيه حتّى يفوت وقتة و الجنب القرب أي في قربه و جواره يقال : فلان في جنب فلان أيفي قربه و جواره و هو الجنّة و قال الزجّاج : أي فرّطت في طريق الله فيكون الجنب بمعنى الجانب أي قصّرت في الجانب الّذي يؤدّي إلى مرضاة الله .

و روى العيّاشيّ بالإسناد عن أبيالجارود عن أبيجعفر عليه السلام أنّه قال : نحن جنب الله . وفي المحاسن عن الباقر عليه السلام : إنّ أشدّ الناس حسرة يوم القيامة الّذين و صفوا العدل ثمّ خالفوه و هو قوله : « أن تقول نفس » الآية . و في الكافي عن الكاظم عليه السلام في الآية قال : جنب الله أمير المؤمنين و كذلك من كان بعده من الأوصياء بالمكان الرفيع إلى أن ينتهي الأمر إلى آخرهم . و في الإكمال والعيّاشي عن الباقر عليه السلام : نحن جنب الله وفي المناقب عنه وعن أبيه في هذه الآية: عليّ جنب الله و حجّة على الخلق .

قوله: [و إن كنت لمن الساخرين] أي و إن كنت لمن المستهزئين بالنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم والقرآن و بالمؤمنين فيدارالدنيا و قيل : معناه من الساخرين ممّن يدعوني إلى الإيمان .

و من الكلمات الّتي حكى الله عنهم قوله : [أو تقول لو أنّ الله هداني لكنت من المتّقين] فإنّهم لمّا لم ينظروا في الأدلّة وأعرضوا عن القرآن واشتغلوا بالدنيا و الأباطيل توهّموا أنّ الله لم يهدهم فقالوا ذلك بالظنّ و قد ردّ الله عليهم بقوله : « بلى قد جاءتك آياتي» الآية ، وقيل : معناه لو أنّ الله هداني إلى النجاة بأن يردّني إلى حال التكليف لكنت ممّن يتّقي المعاصي عن الجبّائي قال : لأنّهم يضطرّون يوم القيامة إلى العلم بالحقيقة بأنّ الله قد هداهم .

[أوتقول حين ترى العذاب لو أنّ لي كرّة فأكون من المحسنين] أي لو أنّ لي رجعة إلى الدنيا فأكون من الموحّدين المطيعين .

ثمّ أنكر الله قولهم فقال تعالى : [بلى قد جاءتك] أي ليس كما قلت قد جاءتك آياتي أي حججي و دلالاتي [فكذّبت بها] و أنفت من اتّباعها [و استكبرت وكنت من الكافرين] و قرئ في الشواذّ بكسر التاءات باعتبار تأنيث النفس .

[و يوم القيامة ترى الّذين كذبوا على الله] فزعموا أنّ له شريكاً أو ولداً [وجوههم مسودّة أليس في جهنّم مثوى للمتكبّرين] استفهام تقريري أي الّذين تكبّروا عن الإيمان بالله فيها مثواهم و مقامهم .

و روى العيّاشي بإسناده عن خيثمة قال : سمعت أبا عبدالله عليه السلام يقول : من حدّث عنّا بحديث فنحن سائلوه عنه يوماً فإن صدق علينا فإنّما يصدق على الله و رسوله لأنّا إذا حدّثنا لانقول: قال فلان و قال فلان إنّما نقول : قال الله و قال رسوله ثمّ تلا هذه الآية «ويوم القيامة ترى الّذين» الآية ، ثمّ أشار خيثمة إلى اُذنيه فقال : صمّتا إن لم أكن سمعته .

و عن سودة بن كليب قال : سألت أبا جعفر عليه السلام عن هذه الآية فقال : هو إمام انتحل إمامته ليست له من الله قلت : و إن كان علويّاً قال عليه السلام : و إن كان علويّاً قلت: و إن كان فاطميّاً قال عليه السلام : و إن كان فاطميّاً .

قوله تعالى : و ينجي الله الذين اتقوا بمفازتهم لايمسهم السوء ولاهم يحزنون (٦١) الله خالق كل شيء وهو على كل شيء وكيل (٦٢) له مقاليد السموات و الارض و الذين كفروا بآيات الله اولئك هم الخاسرون (٦٣)

قل أغير الله تامرونى أعبد أيها الجاهلون(٦٤) ولقد اوحى اليك والى الذين من قبلك لئن اشركت ليحبطن عملك و لتكونن من الخاسرين (٦٥) بل الله فاعبد وكن من الشاكرين (٦٦) .

لمّا أخبر سبحانه في الآية السابقة حال الكفّار عقّبه بذكر حال الأتقياء الأبرار فقال :

[و ينجّي الله الّذين اتّقوا] معاصيه خوفاً من عقابه [بمفازتهم] أي بمنجاتهم وقرىء « بمفازاتهم» على أنّ المصادر قد تجمع إذا اختلف أجناسها و أصل الفوز النجاة و بذلك سمّيت المفازة على وجه التفاؤل بالنجاة منها كما سمّوا اللديغ سليماً [لايمسّهم السوء] أي لايصيبهم المكروه و الشدّة [ولاهم يحزنون] على مافاتهم من لذّات الدنيا .

و لمّا ذكر الوعد والوعيد بيّن أنّه القادر على كلّ شيء بقوله : [الله خالق كلّ شيء] أي محدثه ومبدعه [وهو على كلّ شيء وكيل] أي حافظ و مدبّر .

[له مقاليد السماوات و الأرض] واحدها مقليد يريد مفاتح السماوات و الأرض بالرزق و الرحمة يفتح لمن يشاء و يغلق لمن يشاء على حسب مايقتضيه الحكمة [والّذين كفروا بآيات الله اُولئك هم الخاسرون] لأنّهم خسروا الجنّة و نعيمها و يصلون النار و سعيرها .

ثمّ أعلم أنّه المعبود و لا معبود سواه بقوله : [قل] يا محمّد لهؤلاء الكفّار : [أفغير الله تأمرونّي أعبد]أي أتأمروني أن أعبد غيرالله [أيّها الجاهلون] بما تأمرونني به إذ تأمرون بعبادة من لايسمع ولايبصر ولاينفع ولايضرّ .

و بالآية السابقة وهي قوله : «الله خالق كلّ شيء» استدلّت المجبّرة بأنّ الله خالق الكفر والايمان وأثبتوا الجبر بزعمهم .

و اُجيب عنها بأجوبة صحيحة : منها أنّه قالت المجوسيّة : إنّ السباع والهوامّ والموذيات و الأمراض ليست من خلق الله فأراد سبحانه أن يبيّن أنّها بأجمع من خلقه ثمّ إنّ لفظة « كلّ» قد لايوجب العموم لقوله تعالى : « و اُوتيت من كلّ شيء [1] » والحال

---

(١) النمل : ٢٣ .

أنها ما أوتيت كل شيء في العالم و قوله تعالى : « تدمر كل شيء[١] » .

و الجواب الآخر أنه لو كانت الأعمال من العباد من خلق الله لما أضافها إليهم بقوله : « كفاراً حسداً من عند أنفسهم[٢] » و لما صح قوله : « و يقولون هو من عندالله و ما هو من عندالله[٣] » و لما صح قوله : «وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً[٤]» و معلوم أن الكفر باطل و قال الجبائي : الله خالق كل شيء سوى أفعال خلقه التي صح فيها الأمر و النهي و استحقوا بها الثواب والعقاب ولو كانت أفعالهم خلقاًلله لما جاز العقاب فيه كما لايجوز مثله في ألوانهم وصورهم .

و قال أبو مسلم : الخلق هو التقدير لا الإيجاد فإذا أخبر الله سبحانه عن عباده أنهم يفعلون الفعل الفلاني فقد قدر ذلك الفعل فيصح إطلاق التقدير على الخلق و إن لم يكن له موجداً .

قوله تعالى : [و لقد أوحي إليك و إلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك و لتكونن من الخاسرين] قال ابن عباس : هذا أدب من الله لنبيه و تهديد لغيره لأن الله عصمه من الشرك و هو كلام وارد على طريق الفرض و الشرط و لو أن مشتاقاً لتهييج الرسل وإقناط الكفرة والإيذان بغاية شناعة الكفر و الاشتراك و كونه بحيث ينهى عنه من لايكاد يمكن أن يباشره فكيف عن عداه وإفراد الخطاب باعتبار كل واحد واللام الأولى موطئة للقسم والأخريان للجواب .

فإن قيل : كيف صح هذا الكلام مع علم الله أن رسله لا يشركون ولا تحبط أعمالهم .

فالجواب أن الكلام قضية شرطية و القضية الشرطية لا يلزم من صدقها صدق جزئيها ألا ترى أن قولك : لو كانت الخمسة زوجاً لكانت منقسمة بمتساويين قضية صادقة مع مع أن كل واحد من جزأيها غير صادق قال الله : «لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[٥] » و لم يلزم من هذا صدق القول بأن فيهما آلهة و بأنهما قد فسدتا .

(١) الاحقاف : ٢٥ . (٢) البقرة : ١٠٩ .
(٣) آل عمران : ٧٨ . (٤) ص : ٢٧ .
(٥) الانبياء : ٢٢ :

ثمّ إنّه تعالى لمّا بيّن هذه الأمور ذكر ماهو المقصود فقال : [بل الله فاعبد و كن من الشاكرين] فردّ سبحانه ما اقترحوه منه ﷺ من الاستلام ببعض آلهتهم لأنّ قوله : « قل أغير الله تأمرونّي » يفيد أنّ المشركين عيّنوا عليه عبادة غير الله فقال سبحانه : إنّهم بئس ما قالوا و لكن كن على الصدق و كن من الشاكرين على ما هداك وأرشدك .

قوله تعالى : و ما قدروا الله حق قدره والارض جميعاً قبضته يوم القيامة و السموات مطويات بيمينه سبحانه و تعالى عما يشركون (٦٧) و نفخ في الصور فصعق من في السموات و من في الارض الا من شاء الله ثم نفخ فيه اخرى فاذا هم قيام ينظرون (٦٨) و اشرقت الارض بنور ربها و وضع الكتاب وجيء بالنبيين و الشهداء و قضى بينهم بالحق وهم لايظلمون (٦٩) و وفيت كل نفس ماعملت وهواعلم بالمهتدين (٧٠) .

فبيّن سبحانه أنّ المشركين لمّا جعلوا هذه الأشياء الخسيسة مشاركة له في المعبوديّة قال :

[و ما قدروا الله حقّ قدره] و ما وحّدوه و عظّموه تعظيماً لائقاً به فلو قيل : كيف إنّ الخلق ما عرفوا الله ، فالجواب أنّ هذا وصف المشركين لا المؤمنين على أنّ المؤمنين أيضاً لم يعرفوه كما هو .

والضمير في الآية راجع إلى المشركين أي أشركوا معه غيره والحالة أنّ [الأرض جميعاً قبضته يوم القيامة] و هم جحدوا البعث و قالوا : إنّه عاجز عن الإعادة و النشر لأنّ هذا أمر غير ممكن فذكر سبحانه « أنّ الأرض » كلّها مع عظمها في مقدوره كالشيء الّذي يقبض عليه القابض بكفّه و كذلك قوله : [و السماوات مطويّات بيمينه] أي يطويها بقدرته كما يطوي الواحد منّا الشيء المقدور له طيّه بيمينه و ذكر اليمين للمبالغة في الاقتدار والملك كقول الشاعر :

إذا ما راية رفعت لمجد * تلقّاها عرابة باليمين

قال الزمخشريّ : المراد من هذا الكلام بيان عظمته و التوقيف على كنه جلاله لا إلى جهة حقيقة ، روي أنّ يهوديّاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال : يا أبا القاسم إنّ

الله يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع و الأرضين على إصبع و الجبال على إصبع و الشجر على إصبع و الثرى على إصبع و سائر الخلق على إصبع ثمّ يهزّهن فيقول : أنا الملك فضحك رسول الله تعجّبا ممّا قال .

قال الزمخشريّ : وإنّما ضحك أفصح العرب لأنّه لم يفهم منه إلّا ما يفهمه علماء البيان من غير تصوّر إمساك ولا إصبع ولا هزّ ولا شيء من ذلك ولكن فهم من كلام اليهوديّ الخلاصة الّتي هي الدلالة على القدرة المحضة انتهى كلام الزمخشريّ .

و اعلم أنّ الأصل في الكلام حمله على الحقيقة فإن قام دليل منفصل على أنّه يتعذّر حمله على حقيقته فحينئذ يتعيّن صرفه إلى مجاز فإن حصلت هناك مجازات لم يتعيّن صرفه إلى مجاز معيّن إلّا إذا كان الدليل يوجب ذلك التعيّن و التعيين يحصل بالأولويّة و هذا هو الطريق الصحيح في استعمال اللفظ في معنى المجازيّة في الكلام و الكلام في الآية كذلك لأنّه لمّا دلّت الدلائل العقليّة و السمعيّة على امتناع ثبوت الأعضاء و الجوارح لله تعالى فوجب حمل هذه الأعضاء على وجوه المجاز و أقربها .

و للرازيّ كتاب مفرد في إثبات تنزيه الله تعالى عن الجسم و المكان سمّاه تأسيس التقديس و من أراد الإطناب في هذا الباب فليرجع إليه .

و قوله تعالى في الآية « والأرض» المراد الأرضون و بيّنه قوله : « جميعاً » فإنّ هذا التأكيد لا يحسن إدخاله إلّا على الجمع فإنّ الأوصاف و الألفاظ الملحقة بالمفرد إذا كانت جمعاً تدلّ على أنّ المراد منه الجمع كقوله : «والنخل باسقات » (١) .

قوله : [سبحانه و تعالى عمّا يشركون] نزّه سبحانه نفسه عن شركهم و عمّا يضيفونه إليه .

[و نفخ في الصور فصعق من في السماوات و من في الأرض إلّا من شاء الله] والصور قرن ينفخ فيه إسرافيل و وجه الحكمة في ذلك أنّها علامة جعلها الله ليعلم بها العقلاء آخر أمرهم في دار التكليف ثمّ بعد ظهور هذه العلامة تجديد الخلق فشبّه ذلك بما يتعارفونه من بوق الرحيل و النزول و قيل : « و نفخ في الصور» جمع صورة فكأنّه نفخ في

---

(١) ق : ١٠ .

صورة الخلق .

« فصعق من في السماوات و من في الأرض » أي يموت من شدّة تلك الصيحة الّتي تخرج من الصور جميع من في السماوات و الأرض يقال : صعق فلان إذا مات بحال هائلة شبيهة بالصيحة العظيمة .

[إلّا من شاء الله] اختلف في المستثنى : قال ابن عبّاس : هم جبرئيل و ميكائيل و إسرافيل و ملك الموت وهو المرويّ عن حديث مرفوع ثمّ يميت الله ميكائيل وإسرافيل ثمّ جبرائيل و ملك الموت و القول الثاني أنّهم أي المستثنين هم الشهداء لقوله : « بل أحياء عند ربّهم يرزقون[1] » و عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : هم الشهداء متقلّدون أسيافهم حول العرش . القول الثالث: المستثنى هو موسى لأنّه صعق مرّة فلا يصعق ثانياً . القول الرابع أنّهم الحور العين و سكّان العرش و الكرسيّ القول الخامس الله أعلم بأنّهم من هم و ليس في القرآن و الأخبار ما يدلّ على أنّهم من هم .

و اختلفوا في الصعقة : منهم من قال : إنّها غير الموت بدليل قوله في موسى عليه السلام : « و خرّ موسى صعقاً » مع أنّه لم يمت فهذا هو النفخ الّذي يورث الفزع الشديد فالمراد من نفخ الصعقة و من نفخ الفزع على هذه التقدير واحد و هو المذكور في سورة النمل في قوله : « ويوم ينفخ في الصور ففزع من السماوات و من في الأرض[2] » و على هذا فنفخ الصور ليس إلّا مرّتين . و القول الثاني أنّ الصعقة عبارة عن الموت والقائلون بهذا القول قالوا : إنّهم يموتون من الفزع و شدّة الصوت و على هذا التقدير فالنفخة يحصل ثلاث مرّات أوّلها نفخة الفزع و هي المذكورة في سورة النمل و الثانية نفخة الصعق والثالثة نفخة القيام و هما مذكورتان في هذه السورة قوله تعالى : « فإذا هم قيام ينظرون » .

و كلمة ثمّ في قوله : [ثمّ نفخ فيه اُخرى فإذا هم قيام ينظرون] تفيد التراخي و هي متأخّرة عن النفخة الاُولى و روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّ بينهما أربعين ولا أدري أربعون يوماً أو شهراً أو أربعون سنة أو أربعون ألف سنة وقوله : « فإذا هم قيام» يعني

---

(١) آل عمران : ١٩٦ .

(٢) الكهف : ١٠٠ .

قيامهم من القبور عقيب هذه النفخة الآخرة في الحال من غير تراخ لأنّ الفاء تدلّ على التعقيب و المراد من قوله « ينظرون » أي يقلّبون أبصارهم في الجهات نظر المبهوت إذ جاء هم خطب عظيم أو ينظرون ما ذا يفعل بهم و يجوز أن يكون القيام بمعنى الوقوف و الخمود في مكان لأجل استيلاء الحسرة و الدهشة عليهم .

ثمّ قال سبحانه : [و أشرقت الأرض بنور ربّها] و هذه الأرض المذكورة ليست هي هذه الأرض الّتي يسكن و يقعد عليها الآن بدليل قوله : « يوم تبدّل الأرض غير الأرض[١] » يعني أرضاً لم يكسب عليها الذنوب و بدليل قوله : « و حملت الأرض والجبال فدكّتا دكّة واحدة[٢] » بل هي أرض اُخرى يخلقها الله لمحفل يوم القيامة .

و ههنا بيان و هو أنّه قالت المجسّمة : إنّ الله تعالى نور محض فإذا حضر الله في تلك الأرض لأجل القضاء بين عباده أشرقت تلك الأرض بنور الله و أكّدوا هذا القول بقوله : « الله نور السماوات والأرض[٣] » .

و قد اُجيب عن هذه الشبهة الواهية على التفصيل في سورة النور و كيف يجوز حمل الكلام في معنى النور على الحقيقة و كونه تعالى شأنه من جنس هذه الأنوار المشاهدة و قد فُسّر لفظ النور في قوله : « و أشرقت الأرض بنور ربّها[٤] » على العدل و قد يستعمل هذا اللفظ مجازاً في هذا المعنى و في بيان أنّ المراد من لفظ النور ههنا ليس إلّا هذا المعنى أمّا بيان الاستعمال فهو أنّ الناس شايع في كلامهم بأن يقولون للملك العادل : أشرقت الأرض بعدلك و أضاءت الدنيا بقسطك كما يقولون : أظلمت البلاد بجورك قال صلى الله عليه وآله وسلم : الظلم ظلمات يوم القيامة .

و القرينة على أنّ المراد من النور في الآية العدل فقط أنّه تعالى قال : بعده « و وضع الكتاب وجيء بالنبيّين و الشهداء » و معلوم أنّ المجيء بالشهداء ليس إلّا للشهادة وإظهار العدل. و أيضاً قال في آخر الآية : « و هم لا يظلمون » ثمّ إضافة النور إلى الله لا يلزم

---

(١) النبأ : ٣٨ .

(٢) الحاقة : ١٤ .

(٣) النور : ٣٥ .

(٤) الزمر : ٦٤ .

كون ذلك صفة ذات الله لأنّه يكفي في صدق الإضافة أدنى سبب فلمّا كان ذلك النور من خلق الله و شرّفه بأن أضافه إلى نفسه كان ذلك النور نور الله مثل قوله : بيت الله و ناقة الله . و هذا الجواب أقوى من الأوّل لأنّ في هذا الجواب لا يحتاج إلى ترك الحقيقة و الذهاب إلى المجاز .

قوله : [و وضع الكتاب] قيل : المراد من الكتاب اللوح المحفوظ الّذي يحصل فيه شرح أحوال عالم الدنيا إلى وقت القيامة وقيل : المراد كتب الأعمال كما قال سبحانه : « و كلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً »(١) و قال في آية اُخرى « ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلّا أحصاها(٢) » .

قوله : [وجيء بالنبيّين] و المراد من مجيء الأنبياء ليكونوا شهداء على الناس قوله : [والشهداء] قيل : أراد بالشهداء المؤمنين و قيل : يعني الحفظة من الملائكة في أعمالهم و قيل : أراد بالشهداء المستشهدين في سبيل الله ، القمّي : الشهداء الأئمّة وفي إرشاد المفيد عن الصادق عليه السلام في قوله : « و أشرقت الأرض بنور ربّها » المراد إذا قام قائمنا أشرقت الأرض بنور ربّها أي نور الإمام و قد جعله الله نوراً للعالم و استغنى العباد عن ضوء الشمس و ذهبت الظلمة .

قوله تعالى : [و قضي بينهم بالحقّ وهم لا يظلمون] أي يفصل بينهم و يوصل إلى كلّ أحد حقّه من غير نقيصة [ووفّيت كلّ نفس] أي يستوفي كلّ نفس جزاء ما عمل [وهو أعلم بما يفعلون] عالم بكيفيّات أعمالهم و مقادير أفعالهم فلا يمكن دخول الخطاء في ذلك الحكم .

قوله تعالى : وسيق الذين كفروا الى جهنم زمراً حتى اذا جاءوها فتحت ابوابها و قال لهم خزنتها الم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم و ينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا بلى و لكن حقت كلمة العذاب على الكافرين (٧١) قيل ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٢) وسيق الذين اتقوا ربهم الى الجنة زمرا حتى اذا

---

(١) اسرى : ١٣ .
(٢) الكهف : ٥٠ .

جاؤها و فتحت ابوابها و قال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين (٧٣) و قالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده و اورثنا الارض نتبؤ من الجنة حيث نشاء فنعم اجر العاملين (٧٤) وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم و قضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين(٧٥).

لمّا شرح أحوال أهل القيامة بقوله : « و وفيّت كلّ نفس ما عملت » بيّن أحوال أهل العقاب ثمّ كيفيّة أهل الثواب «السوق» الدفع بالعنف(١) [وسيق الّذين كفروا] أي يساقون بالعنف إلى جهنّم تسوقهم الملائكة من خزنة جهنّم وهم ملائكة العذاب ونظيره قوله : « يوم يدعّون إلى نارجهنّم دعّاً (٢)» أي يدفعون دفعاً وأمّا الزمر فهي الأفواج المتفرّقة بعض في أثر بعض .

[حتّى إذا جاءوها فتحت أبوابها] أي تفتح أبواب جهنّم عند وصول أُولئك إليها فإذا وصلوا باب جهنّم [قال لهم] ملائكة العذاب [ألم يأتكم رسل منكم] أي من جنسكم [يتلون عليكم آيات ربّكم و ينذرونكم لقاء يومكم] يقرءون عليكم آيات ربّكم و حجج ربّكم و ما يدلّكم على معرفته وبيان عبادته ويخوّفونكم من مشاهدة هذا اليوم و عذابه .

[قالوا بلى] فيقول الكفّار: قدجاءتنا و خوّفونا [ولكن حقّت كلمة العذاب على الكافرين] أي وجب العقاب على من كفر بالله لأنّه أخبر بذلك فلم يكن يقع منه على خلاف ما أخبر به فصار كوننا في جهنّم موافقاً لخبره سبحانه و الكلمة قوله تعالى لإبليس «لأملأنّ جهنّم منك وممّن تبعك منهم أجمعين(٣)» و قد كنّا ممّن تبعه و كذّبنا الرسل .

قوله : [قيل ادخلوا أبواب جهنّم خالدين فيها] فتقول الخزنة لهم : ادخلوا أبواب جهنّم وأنتم مخلّدون ومؤبّدون فيها وإبهام القائل لتهويل المقول [فبئس مثوى المتكبّرين] أي بئس موضع المتكبّرين عن الحقّ و هذا الكلام لبيان أنّ ورودهم في النار بناءً على

(١) بل هو الحث على السير .
(٢) الطور : ١٣ .
(٣) ص : ٨٥ .

كفرهم و تكبّرهم عن عبادة الله و هذا العذاب إنّما أوردوه على أنفسهم بكفرهم على سبيل الاختيار حيث لم يعتنوا بدلائل التوحيد ولم يقبلوا قول الرسل .

[وسيق الّذين اتّقوا ربّهم إلي الجنّة زمراً] فبيّن حال أهل الثواب و الّذين لم يتكبّروا عن أمره و خافوا عن مخالفة الله و رسله .

فإن قيل : السوق في أهل النار للعذاب معقول لأنّهم لابدّ و أن يساقوا إليه لأنّهم ذهبوا إليه عنفاً و كرهاً ولكن أيّ حاجة لأهل الكرامة بالسوق ؟

فالجواب أنّه إنّما ذكر السوق على وجه المقابلة لسوق الكافرين كلفظ البشارة في قوله : « فبشّرهم بعذاب أليم [1] » و إنّما البشارة للخير و مثل قوله : « و جزاء سيّئة سيّئة » .

وقيل وجه آخر و هو أنّ المحبّة و الصداقة باقية بين المتّقين فإذا قيل لواحد منهم : اذهب إلى الجنّة فيقول: لا أدخلها حتّى يدخلها أصدقائي فيتأخّرون لهذا السبب فحينئذ يحتاجون إلى السوق إلى الجنّة .

و قيل أيضاً وجه آخر : أنّ المؤمنين الماحضين قد عبدوا الله مخلصاً لا للجنّة ولا للنار فتصير شدّة استغراقهم في مشاهدة مواقف الجلال و الجمال مانعة لهم من الرغبة في الجنّة فلا جرم يحتاجون إلى أن يساقوا إلى الجنّة .

وقيل : إنّ أهل الجنّة وأهل النار يساقون إلّا أنّ المراد بسوق أهل النار طردهم إليها بالهوان و العنف كما يفعل بالأسير إذا سيق إلى الحبس و المراد بسوق أهل الجنّة سوق مراكبهم لأنّه لايذهب بهم إلّا راكبين فالمراد إسراعهم إلى دار الكرامة والرضوان كما يفعل بمن يكرم و يشرف من الوافدين على الملوك شتّان ما بين السوقين !

ثمّ قال تعالى : [حتّى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها] فإن قيل : قال تعالى في أهل النار: « فتحت أبوابها » بغير الواو و قال ههنا بالواو فما الفرق ؟ والفرق أنّ أبواب جهنّم لا تفتح إلّا عند دخول أهلها فيها فأمّا أبواب الجنّة ففتحها يكون متقدّماً على وصولهم إليها بدليل قوله : « جنّات عدن مفتّحة لهم الأبواب [2] » فلذلك جيء

---

(١) آل عمران : ٢١ .
(٢) ص : ٥١ .

بالواو كأنّه قيل : حتّى إذا جاءوها وقد فتحت أبوابها و الواو واوحال و قيل : الواو واو الثمانية قال المبرّد: الواو زائدة وأنكرقول من قال : إنّها واو الثمانية وأنشد لامرىء القيس:

فلمّا أجزنا ساحة الحيّ وانتحى * بنا بطن جنب ذي حقاف عقنقل

قال : والمعنى فلمّا أجزنا ساحة الحيّ انتحى بنا .

وبالجملة فجواب إذا في صفة أهل الجنّة محذوف وتقديره: حتّى إذا جاءوها وفتحت أبوابها فازوا و نالوا وكانوا كيت و كيت كما أنّ في بيت امرىء القيس الجواب محذوف والتقدير: فلمّا أجزنا ساحة الحيّ وانتحى بنا خلونا ونعمنا .

وبالجملة فالمعنى: حتّى إذا جاءوها وقد فتحت لهم أبواب الجنّة وقال لهم خزنتها : [سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين] الخزنة يذكرون لأهل الثواب هذه الكلمات الثلاث أوّلها يبشّرونهم بالسلامة من كلّ الآفات فتقول الملائكة عند استقبالهم : سلامة من الله عليكم ويحيّونهم ليزدادوا بذلك سروراً « طبتم » بالعمل الصالح في الدنيا وطابت وزكت أعمالكم أو المعنى: طابت أنفسكم بدخول الجنّة وقيل : إنّهم طيّبوا قبل دخول الجنّة بالمغفرة وقيل : طبتم أي طاب لكم المقام وقيل : إنّهم إذا قربوا من الجنّة يردون إلى عين من الماء فيغتسلون بها و يشربون منها فيطهّر الله أجوافهم فلا يكون بعد ذلك منهم حدث و أذى ولا يتغيّر ألوانهم فحينئذ تقول الملائكة لهم : طبتم فادخلوها خالدين مؤبّدين والفاء في قوله : « فادخلوها » يدلّ على كون ذلك الدخول معلّلاً و متعاقباً بالطيب والطهارة .

قالت المعتزلة : هذا يدلّ على أنّ أحداً لا يدخلها إلّا إذا كان طاهراً عن كلّ المعاصي ، قال الرازيّ: وهذا القول ضعيف لأنّه يبدّل الله سيّئاتهم حسنات فحينئذ يصيرون طيّبين طاهرين .

وعن سهل بن سعد الساعديّ أنّ رسول الله قال : إنّ للجنّة ثمانية أبوابِ منها باب يسمّى الريّان لا يدخلها إلّا الصائمون .

[وقالوا الحمد لله الّذي صدقنا وعده] قال المتّقون عند ذلك : الحمد لله الذي صدقنا وعده الّذي وعدنا على ألسنة الرسل في قوله : « أن لا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا

بالجنّة الّتي كنتم توعدون » .

[وأورثنا الأرض] والمراد بالأرض أرض الجنّة وعبّر عنه بالإرث لأنّ الجنّة كانت في أوّل الأمر لآدم فلمّا عادت إلى أولاده كان ذلك سبباً لتسميتها بالإرث أو لأنّ الوارث يتصرّف فيما يرثه كما يشاء من غير منازع ولا مدافع فكذلك هؤلاء يتصرّفون في الجنّة كيف شاءوا والمشابهة علّة لحسن المجاز .

قوله تعالى : [نتبوّأ من الجنّة [أي نأخذ منها مأوى ومبوّء [حيث نشاء] و هذا إشارة إلى كثرة قصورهم ومنازلهم وسعة نعمتهم [فنعم أجر العاملين] أي نعم ثواب المحسنين الجنّة قال مقاتل : إنّ هذا الكلام من قول الله وليس من كلام أهل الجنّة .

قوله : [وترى الملائكة حافّين من حول العرش] لمّا بيّن ثواب أهل الإيمان ذكر عقيبه ثواب الملائكة فقال : كما أنّ ثواب المتّقين الجنّة فكذلك دار ثواب الملائكة جوانب العرش وأطرافه أي محدقين بالعرش ويطوفون حوله [يسبّحون بحمد ربّهم] ينزّهون الله عمّا لا يليق به و يذكرونه بصفاته الّتي هو عليها و قيل : يحمدون الله حيث دخل الموحّدون الجنّة وتسبيحهم في ذلك الوقت على سبيل التلذّذ و التنعّم لا على وجه التعبّد إذ ليس هناك تكليف .

ثمّ قال سبحانه : [وقضي بينهم بالحقّ] بإدخال بعضهم النار وبعضهم الجنّة أو المعنى: قضي بين الملائكة بإقامتهم في منازلهم على حسب تفاضلهم [وقيل الحمد لله ربّ العالمين] أي على ما قضي بيننا بالحقّ ولمّا كان تقرير المؤمنين بقولهم : « الحمد لله الّذي صدقنا وعده » و بيّن أنّهم اشتغلوا بهذا التحميد تلذّذاً لا تكليفاً فكذلك الملائكة متوافقين على الاستغراق في التحميد تلذّذاً وكان ذلك سبباً لمزيد التذاذهم وقيل : «الحمد لله ربّ العالمين» من كلام أهل الجنّة شكراً و قيل : إنّه من كلام الله تعالى فقال في ابتداء الخلق: الحمد لله الّذي خلق السماوات والأرض وقال بعد بعثهم واستقرارهم في منازلهم : الحمد لله وهذا أدب أدّب الله العباد بأنّه يجب الأخذ بأدبه في ابتداء كلّ أمر وختم كلّ أمر .

سورة المؤمن

مكّيّة إلّا آيتين منها نزلتا بالمدينة « إنّ الّذين يجادلون في آياتنا » إلى قوله : « لايعلمون » وقيل : إلّا قوله تعالى : « وسبّح بحمد ربك بالعشيّ والإبكار» يعني بذلك صلاة الفجروالمغرب وقد ثبت أنّ فرض الصلاة نزل بالمدينة .

فضل قراءة الحواميم كثير وفضلها خصوصاً روى أبوبردة الأسلميّ (أو بريدة) عن رسول الله صلّى الله عليه وآله قال : من أحبّ أن يرتع في رياض الجنّة فليقرء الحواميمفي صلاة الليل وعنأنس بن مالك عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : الحواميم ديباج القرآن وعن ابن عبّاس قال : لكلّ شيء لباب ولباب القرآن الحواميم قال ابن مسعود : إذا وقعت في قراءة الحواميم وقعت في روضات دمثات أتأنّق فيهنّ .

و عن اُبيّ بن كعب عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : ومن قرأسورة حم المؤمن لم يبق روح نبيّ ولاصدّيق ولامؤمن إلّا صلّواعليه واستغفرواله وروى أبوبصيرعن الصادق عليه السلام قال : الحواميم ريحان القرآن فاحمدوا الله واشكروه بحفظها وتلاوتها وإنّ العبد ليقوم يقرء الحواميم فيخرج من فيه ريح أطيب من المسك الأزفروالعنبرو إنّ الله ليرحم تاليها و قاريها ويرحم جيرانه وأصدقاءه و كلّ حميم أوقريب له و إنّه في القيامة يستغفرله العرش والكرسيّ وملائكة الله المقرّبون .

وروى أبوالصباح عن الباقرعليه السلام قال : من قرأحم المؤمن في كلّ ثلاث غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّروألزمه التقوى وجعل الآخرة خيراً له من الدنيا .

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم (٢) غافر الذنب و قابل التوب شديد العقاب ذى الطول لااله الا هو اليه المصير (٣) مايجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فلايغررك تقلبهم فى البلاد (٤) كذبت قبلهم قوم نوح والاحزاب من بعدهم وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق فأخذتهم فكيف كان عقاب (٥) وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم اصحاب النار (٦).

وقرىء بكسر الحاء وبعض بين الفتح والكسر قال صاحب الكشّاف : بفتح الميم و تسكينها ووجّه الفتح لالتقاء الساكنين وإيثار الفتح للخفّة نحوأين و كيف أو النصب باضمار إقرء ومنع الصرف للتعريف والتأنيث لأنّها اسم للسورة و أمّا السكون لأنّ الأسماء المجرّدة تذكرموقوفة الأواخر .

وبالجملة قال الرازيّ الأقرب أن يقال : « حم » اسم للسورة فقوله : [حم] مبتدأ وقوله : [تنزيل الكتاب من الله] خبره والتقدير: إنّ هذه السورة المسمّاة بحم تنزيل الكتاب وتنزيل مصدرلكنّ المراد منه المنزل . وقوله : من الله بيان أنّه تعالى هو المنزل ووصف نفسه بالغالب العليم . والفائدة في ذكر [العزيزالعليم] بيان أنّه تعالى بقدرته وعلمه أنزل القرآن على هذا الحدّ الّذي يتضمّن المصالح في عموم التكليف والاعجاز لقدرته وعلمه .

ثمّ وصف نفسه بما يجمع الوعد والوعيد والترهيب والترغيب فقالسبحانه : [غافر الذنب و قابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلّا هو إليهالمصير] فهذه ستّة أنواع من الصفات :

الأولى: غافر الذنب قال الجبّائي: معناه أنّه غافر الذنب إذا استحقّ المذنب غفرانه إمّا بتوبة أو طاعة أعظم من الذنب ومراده أنّ فاعل المعصية إمّا أن يقال: إنّه كان قد أتى قبل ذلك بطاعة كان ثوابها أعظم من عقاب هذه المعصية أو ما كان الأمر كذلك فإن كان الأوّل كانت هذه المعصية صغيرة فيحبط عقابها وإن كان الثاني كانت هذه المعصية كبيرة فلا يزول عقابها إلّا بالتوبة انتهى كلام الجبّائي.

قال الرازي: و مذهب أصحابنا أنّ الله تعالى قد يعفو عن الكبائر بدون التوبة و الآية تدلّ على ذلك لأنّ الغفر معناه الستر و معنى الغفر إنّما يعقل في الشيء الّذي يكون باقياً موجوداً فيستر و الصغيرة تحبط بسبب كثرة ثواب فاعليها فمعنى الغفر فيها غير معقول.

و لا يمكن حمل قوله: غافر الذنب على الكبيرة بعد التوبة لأنّ معنى كونه قابلاً للتوبة ليس إلّا ذلك و إنّ التائب من الذنب كمن لا ذنب و توسيط الواو بين الأوّلين لافادة الجمع بين محو الذنوب و قبول التوبة أو تغاير الوصفين فثبت أنّ كونه غافر الذنب يفيد كونه غافراً للذنوب الكبائر قبل التوبة على أنّ الكلام مذكور في معرض المدح العظيم فحمله على ما يفيد أعظم أنواع المدح أليق انتهى كلامه وفيه نظر.

الصفة الثانية: قوله تعالى: «قابل التوب» و في لفظ التوب قال أبو عبيدة: هو مصدر وقال الأخفش: إنّه جماعة التوبة و قال المبرّد: إنّه مصدر تاب يتوب توباً مثل «قولاً» قالت الأشاعرة: إنّ قبول التوبة من المذنب يقع على سبيل التفضّل و ليس بواجب على الله و قالت المعتزلة: إنّه واجب على الله.

الصفة الثالثة: قوله: «شديد العقاب» فلو قيل: إنّ قوله: «شديد العقاب» وهي صفة للمعرفة و هو الله ولا يصلح أن يوصف المعرفة بالنكرة كما أنّه يقال: مررت برجل شديد البطش ولا يقال: مررت بعبد الله شديد البطش فاُجيب بأنّ هذه الصفة و إن كانت نكرة إلّا أنّها لمّا ذكرت مع سائر الصفات الّتي هي معارف فحسن ذكرها مثل قوله: «وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعّال لما يريد [1]» و أجاب الزجّاج أنّ خفض شديد

(١) هود: ١٠٨.

العقاب على البدل و جعل النكرة بدلاً من المعرفة و بالعكس أمر جائز و قال ابن عبّاس في تفسير الآية : إنّه تعالى غافر الذنب لمن قال : لا إله إلّا الله مخلصاً قابل التوب عمّن قال : لا إله إلّا الله شديد العقاب لمن لم يقل : لا إله إلّا الله ذي الطول أي ذو الغنى عمّن لم يقل : لا إله إلّا الله . أقول : وقد عرفت أنّ هذه الكلمة مقيّدة بقبول الولاية وأداء شروطها.

و بالجملة فقوله : « ذي الطول » صفة رابعة و قيل : إنّه إنّما ذكر ذي الطول عقيب قوله : « شديد العقاب » لبيان تفضّله و طوله على الخلق و الطول الإحسان كقول الشاعر : « ليلى و ليلى » إلى آخر البيت و هذا البيان ليعلم أنّ العاصي أتى في هلاك نفسه من قبل نفسه لا من قبل ربّه و إلّا فنعمه سابغة .

الصفة الخامسة : التوحيد المطلق و هو قوله : لا إله إلّا هو فحينئذ لا يشاركه أحد في العبادة .

السادسة : قوله : « إليه المصير» وهذه الصفة أيضا داعية إلى الترغيب و الترهيب كما أنّ التوحيد داع إلى الترغيب والترهيب .

ولمّا ذكر سبحانه صفاته الشريفة وبيّن أنّ القرآن كتاب أنزله للهداية ثمّ ذكر أحوال المخاصم في دفع حجج الله وجحدها فقال : [ما يجادل في آيات الله إلّا الّذين كفروا بآيات الله] اعلم أنّ الجدال نوعان جدال في تقرير الحقّ وجدال في تقرير الباطل و الجدال في إثبات الحقّ فهو حرفة الأنبياء عليهم السلام قال تعالى لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم : « و جادلهم بالّتي هي أحسن (١) » وأمّا الجدال في تقرير الباطل فهو مذموم وهو المراد في الآية حيث قال : « ما يجادل » الآية و قال : « و جادلوا بالباطل ليدحضوا به الحقّ » وقال صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ جدالاً في القرآن كفر فقوله : إنّ جدالاً على لفظ التنكير يدلّ على التمييز بين جدال وجدال ولفظ الجدال في الشيء مشعر بالجدال الباطل ولفظ الجدال عن الشيء مشعر بالجدال الحقّ والذبّ عن الحقّ وقال صلى الله عليه وآله وسلم : لا تماروا في القرآن فإنّ المراء فيه كفر والجدال في آيات الله هو أن تقول مرّة إنّه سحر ومرّة إنّه شعر ومرّة إنّه قول الكهنة ومرّة أساطير الأوّلين ومرّة إنّما يعلّمه بشر وأشباه هذا من الشبهات الباطلة فذكر تعالى أنّه

(١) النحل : ١٢٥ .

لايفعل هذا إلّا الّذين كفروا وأعرضوا عن الحقّ .

[فلا يغررك] يا محمّد [تقلّبهم في البلاد] أي تصرّفهم في البلاد للتجارات سالمين أصحّاء مع كفرهم فإنّ الله لا يخفى عليه حالهم و إنّما يملهم لأنّهم في سلطانه ولا يفوتونه و في هذا غاية التهديد أي فإنّي و إن أمهلتهم فإنّي سآخذهم كما فعلت بأمثالهم من الاُمم المكذّبة و كانت قريش كذلك يتقلّبون في بلاد الشام و اليمن فرحين فرهين و لهم الأرباح الكثيرة في تجاراتهم و الزمان مساعد لهم .

ثمّ كشف عن هذا المعنى بقوله : [كذّبت قبلهم قوم نوح] نوحاً و هو رسولهم [و الأحزاب من بعدهم] أي الاُممالمستمرّة علىالتكذيب و الكفر نحو قوم هود وثمود و غيرهم من بعدهم و هم الّذين تحزّبوا على تكذيب الأنبياء .

[و همّت كلّ اُمّة] من اُولئك الأحزاب [برسولهم] أي قصدوه [ليأخذوه] أي ليهلكوه و يقتلوه و إنّما قال : « برسولهم » و لم يقل : برسولها لأنّ المراد الرجال .

[و جادلوا بالباطل] مثل قولهم : ما أنتم بشرٌ مثلنا وهلاّ أرسل الله إلينا ملائكة [ليدحضوا به الحقّ] و يبطلوا الحقّ و يزيلوه يقال : أدحض الله حجّته أي أزالها و أزلّها [فأخذتهم فكيف كان عقاب] أي عقابي إيّاهم فأفعل بقومك كما فعلت بهؤلاء إن أصرّوا على الجدال و الكفر بآيات الله .

ثمّ قال : [و كذلك حقّت كلمة ربّك على الّذين كفروا أنّهم أصحاب النار] أي مثل الّذي حقّ على اُولئك الاُمم السالفة من العقاب حقّت كلمتي أيضاً على هؤلاء الّذين كفروا من قومك فوجب على الكفرة كونهم من أصحاب النار .

قوله تعالى : الذين يحملون العرش و من حوله يسبحون بحمدربهم و يؤمنون به و يستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة و علما فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم (٧) ربنا و ادخلهم جنات عدن التي وعدتهم و من صلح من آبائهم و ازواجهم و ذرياتهم انك انت العزيز الحكيم (٨) و قهم السيئات و من تق السيئات يومئذ فقد رحمته و ذلك هو الفوز العظيم (٩) ان الذين كفروا ينادون لمقت الله اكبر من مقتكم انفسكم اذ تدعون الى الايمان فتكفرون (١٠) .

ثمّ أخبر سبحانه عن حال المؤمنين و أنّه تستغفر لهم الملائكة مع عظم منزلتهم عند الله فحالهم بخلاف حال الكفّار .

المعنى : إنّه إذا كان يبالغون في إظهار العداوة للأنبياء و المومنين فأشرف طبقات المخلوقات هم حملة العرش من الملائكة فهم يبالغون في إظهار المحبّة و الدعاء فلا تبال بهؤلاء الأراذل و لا تقم لهم وزناً فإنّ حملة العرش ينصرونك بالدعاء .

روي أنّ حملة العرش أرجلهم في الأرض السلفى و رءوسهم قد خرقت العرش و هم خشوع لا يرفعون طرفهم قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : لا تتفكّروا في عظم ربّكم ولكن تفكّروا فيما خلق الله من الملائكة فإنّ خلقاً من الملائكة يقال له : إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله و قدماه في الأرض السفلى و قد مرق رأسه من سبع سماوات و إنّه ليتضاءل من عظمة الله حتّى يصير كأنّه الوضع قيل : إنّه طائر صغير .

روى الزمخشريّ : إنّ الله أمر جميع الملائكة أن يغدوا ويروحوا بالسلام على حملة العرش تفضيلاً لهم على سائر الملائكة و خلق الله العرش من جوهرة خضراء و بين القائمتين من قوائمه خفقان الطير المسرع ثمانين ألف عام و حول العرش سبعون ألف صفّ من الملائكة يطوفون به مهلّلين مكبّرين و من ورائهم سبعون ألف صفّ قيام قد وضعوا أيديهم على عوائقهم رافعين أصواتهم بالتهليل و التكبير و من ورائهم مائة ألف صفّ قد وضعوا الأيمان على الشمائل ما منهم أحدٌ إلّا ويسبّح بمالا يسبّح به الآخر والحاصل أنّ حملة العرش [و من حوله] يعني الملائكة المطيفين بالعرش و هم الكرّوبيّون و سادة الملائكة و أشرافها ينزّهون ربّهم عمّا يصفه به هؤلاء المجادلون [و يؤمنون به] و يصدّقونه بوحدانيّته [ويستغفرون] و يسألون الله المغفرة [للّذين آمنوا] من أهل الأرض و يدعون لمن معك من المؤمنين فإنّ المشاركة في الإيمان أدعى الدواعي وأتمّها إلى النصح و الشفقة و استغفارهم لهم في سلك وظائفهم المفروضة عليهم و يقولون في دعائهم للمؤمنين :

[ربّنا وسعت كلّ شيء رحمة وعلماً] أي وسعت رحمتك و علمك كلّ شيء والمراد بالعلم المعلوم كما ينبيء عن هذا المعنى قوله : « ولا يحيطون بشيء من علمه » أي معلومه

على التفصيل و في هذا تعليم و أدب لطريقة الدعاء لأنّه لمّا كان السعادة مربوطة بأمرين التعظيم لأمر الله و الشفقة على خلق الله المستحقّين لها فقوله : « يسبّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به» مشعرٌ بالتعظيم لأمر الله و قوله «و يستغفرون للّذين آمنوا» مشعرٌ بالشفقة على خلق الله.

فقالوا : [فاغفر للّذين تابوا] من الشرك و المعاصي [و اتّبعوا سبيلك] الّذي دعوت إليه خلقك و هو دين الإسلام [و قهم] و ادفع عنهم [عذاب الجحيم] و في هذه الآية دلالة على أنّ إسقاط العقاب عند التوبة تفضيل من الله إذ لو كان واجباً لكان لا يحتاج فيه إلى مسألتهم بل كان يفعله الله سبحانه لامحالة .

قوله : [ربّنا و أدخلهم] مع قبول توبتهم و وقايتهم النار [جنّات عدن الّتي وعدتهم] على ألسن أنبيائك [ومن صلح من آبائهم وأزواجهم و ذرّيّاتهم] ليكمل اُنسهم و يتمّ سرورهم [إنّك أنت العزيز] الغالب القادر على ما يشاء [الحكيم] في أفعالك .

[و قهم السيّئات و من تق السيّئات يومئذ فقد رحمته] أي و من تقه عذاب السيّئات و المعاصي [فقد رحمته] يوم القيامة لأنّ من انصرف عنه شرّ معاصيه فقد تفضّلوا نعم عليه [و ذلك هو الفوز العظيم] و الظفر بالبغية و الفلاح .

و في العيون عن الرضا عليه السلام في قوله : « الّذين آمنوا » أي آمنوا بولايتنا و في الكافي عن الصادق عليه السلام : إنّ لله ملائكة يسقطون الذنوب عن ظهور شيعتنا كما يسقط الريح الورق أوان سقوطه وذلك قوله تعالى : «الّذين يحملون العرش الآية» قال عليه السلام : استغفار هم الله لكم دون هذا الخلق . و القميّ في قوله : «الّذين يحملون العرش » يعني رسول الله و الأوصياء من بعده يحملون علم الله و من حوله يعني الملائكة يستغفرون للّذين آمنوا أي لشيعة آل محمد و قوله : « للّذين تابوا » أي للّذين تابوا من ولاية غيرهم مثل بني اُميّة « و اتّبعوا سبيلك » يعني ولاية وليّ الله « و من صلح » يعني من تولّى عليّاً و ذلك صلاحهم « و ذلك هو الفوز العظيم » لمن نجاه الله عن ولاية غير عليّ وأولاده المعصومين .

و في الكافي مرفوعاً :إنّ الله عزّ وجلّ أعطى التائبين ثلاث خصال لو اُعطي خصلة

منها جميع أهل السماوات و الأرض لنجوا بها ثمّ تلاهذه الآية انتهى الحديث .

وههنانكتة وهي أنّ الدعاء في أكثر الأمر مذكور بلفظ ربّنا كما قالت الملائكة : « ربّنا وسعت » الآية ، و قال آدم عليه السلام : « ربّنا ظلمنا أنفسنا [1] » و قال نوح عليه السلام : « ربّ إنّي أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم [2] » الآية ، و قال أيضاً : « ربّ إنّي دعوت قومي ليلاً و نهاراً [3] » و قال أيضاً : « ربّ اغفرلي و لوالديّ [4] » الآية ، و قال إبراهيم : « ربّ أرني كيف تحيي الموتى [5] » و قال : « ربّ اغفر لي ولوالديّ وللمؤمنين يوم يقوم الحساب [6] » و قال : « ربّنا واجعلنا مسلمين لك [7] » و قال موسى: في قصّة الوكز « ربّ إنّي ظلمت نفسي فاغفر لي [8] » و قال سليمان : « ربّ هب لي ملكاً [9] » و قال عيسى : « ربّنا أنزل علينا مائدة [10] » و قال الله لمحمّد صلى الله عليه وآله وسلم : « و قل ربّ أعوذ بك من همزات الشياطين [11] » و حكى سبحانه عن المؤمنين أنّهم قالوا « ربّنا ما خلقت هذا باطلاً » و أعادوا إلى آخر السورة [12] هذه اللفظة خمس مرّات فظهر أنّ الترتيب في الدعاء أن ينادي العبد ربّه بقوله : يا ربّ .

فإن قيل : إنّ لفظ الله أعظم من لفظ الربّ فلمَ صار لفظ الربّ مختصّاً بوقت الدعاء ؟

فالجواب أنّ المناسب في المقام لفظ الربّ فإنّ العبد يقول : كنت في كتم العدم المحض والنفي الصرف فأخرجتني إلى الوجود و ربّيتني فاجعل تربيتك لي شفيعاً إليك في أن لا تخليني طرفة عين عن تربيتك وإحسانك القديم إليّ فبعد هذا الخطاب والنداء إلى ربّه فليحسن الداعي الثناء عليه ثمّ يستدعي حوائجه والعقل يحكم برعاية هذا الترتيب وذلك لأنّ ذكر الله بالثناء والتعظيم بالنسبة إلى جوهر الروح كالإكسير الأعظم بالنسبة إلى النحاس فكما أنّ ذرّة من الإكسير إذا وقعت على عالم من النحاس انقلب الكلّ ذهباً

---

(١) الاعراف : ٢٢ .
(٢) هود : ٤٧ .
(٣) المؤمنون : ٩٨ .
(٤) ابراهيم : ٤١ .
(٥) البقرة : ٢٦٠ .
(٦) ابراهيم : ٤١ .
(٧) البقرة : ١٢٨ .
(٨) القصص : ١٦ .
(٩) الشعراء : ٨٣ .
(١٠) المائدة : ١١٧ .
(١١) المؤمنون : ٩٨ .
(١٢) آل عمران : ١٩١ .

إبريزاً فكذلك إذا وقعت ذرّة من إكسيرمعرفة الله وجلاله على جوهر الروح النطقيّة انقلب من نحوسة النحاس إلى صفاء القدس والنقاوة ومتى أشرق نورمعرفته في جوهر الروح يصير الروح أقوى وأكمل فتأثير القويّ أقوى فكان حصول الشيء المطلوب بسبب هذه القوّة أمكن وأقرب وهذا هو السبب في تقديم الثناء على الله على الدعاء .

وههنا بحث آخر وهو أنّ العلم يصحّ أن يسع كلّ شيء لكنّ الرحمة كيف يسع كلّ شيء لأنّ المضرور حال وقوعه في الضرر لا يكون ذلك الضرر رحمة .

فالجواب أنّ كلّ موجود فقد نال من رحمة الله نصيباً وذلك لأنّ الموجود إمّا واجب وإمّا ممكن أمّا الواجب فليس إلّا الله وأمّا الممكن فوجوده من الله بإيجاده وذلك رحمة فلاموجود إلّا وقد وصل إليه نصيب ونصاب من رحمة الله والمقصود بالذات من الخلق و التربية الرحمة والإحسان ولهذا قالت الحكماء : الخير مراد مرضيّ والشرّ مراد مكروه و الخير مقضيّ به بالذات والشرّ مقضيّ به بالعرض وفي هذا البيان غور عظيم .

فإن قيل : إنّ قولهم : « وقهم عذاب الجحيم » و قولهم : « وقهم السيّئات » و قد فسّرتم أي قهم عذاب السيّئات فما هذا التكرار الخالي عن الفائدة ؟

فالجواب أنّ عذاب الجحيم يتناول عذاب جهنّم و عذاب السيّئات يشمل عذاب الموقف والقبر ومواقف القيامة أو المراد من قولهم : « و قهم السيّئات » المراد الحفظ من العقائد المفسدة في الدين والأعمال الفاسدة كما هو المفهوم من ظاهر الآية .

قوله تعالى : [إنّ الّذين كفروا ينادون لمقت الله] أي إنّ الملائكة ينادون الكفّار يوم القيامة والمراد من الملائكة خزنة جهنّم ينادون الكفّار وهم في النار: لمقت الله [أكبر من مقتكم] وذلك أنّهم مقتوا أنفسهم الأمّارة بالسوء الّتي بسبب اتّباعها و قعوا فيما وقعوا أو المعنى أنّ الكفّار مقت بعضهم بعضاً من الأحباب كقوله : « يلعن بعضكم بعضاً » (١) والمقت أشدّ البغض فتقول الملائكة لهم عند ذلك : لمقت الله إيّاكم في الدنيا أكبر وأعظم من مقتكم والسبب أنّكم كنتم إذ تدعون من جهة الأنبياء [إلى الإيمان] فتأبون [وتكفرون] اتّباعاً لأنفسكم ومسارعة إلى هواها أو اقتداءً بأخلّائكم المضلّين .

---

(١) العنكبوت : ٢٥ .

قوله تعالى : قالوا ربنا امتنا اثنتين واحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل الى خروج من سبيل(١١)ذلكم بأنه اذادعىالله وحده كفرتم وان يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلى الكبير(١٢) هوالذى يريكم آياته وينزل لكم من السماء رزقاً ومايتذكرالا من ينيب (١٣) فادعوا الله مخلصين له الدين ولوكره الكافرون (١٤) رفيع الدرجات ذوالعرش يلقىالروح من أمرهعلى من يشاء من عباده لينذريوم التلاق (١٥) يوم هم بارزون لايخفى على الله منهم شيء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار (١٦) اليوم تجزى كل نفس بماكسبت لاظلم اليوم ان الله سريع الحساب(١٧) .

المعنى : بيّن سبحانه أنّ الكفّارلمّا خوطبوا بهذاالخطاب وهوقوله : « لمقت الله الآية » [قالوا ربّنا أمتّنا اثنتين] اختلف في معناه على وجوه :

أحدها أنّ الإماتة الاُولى في الدنيا بعد الحياة والثانية في القبر قبل البعث والإحياء الاُولى في القبرللمساءلة والثانية في الحشروهواختيار بعض علماء أهل الجماعة مثل السدّيّ والبلخيّ.

و ثانيها أنّ الإماتة الاُولى حال كونهم نطفاً فأحياهم الله في الدنيا ثمّ أماتهم الموتة الثانية ثمّ أحياهم للبعث فهاتان حياتان و موتتان ونظيره قوله : «و كيف تكفرون بالله و كنتم أمواتاً » وهذا قول ابن عبّاس وقتادة والضحّاك واختاره أبومسلم .

وثالثها أنّ الحياة الاُولى في الدينا والثانية في القبرولم يرد الحياة يوم القيامة والموتة الاُولى في الدنيا والثانية في القبرعن الجبّائيّ و قوله : « أمتّنا اثنتين » فاثنتين نعت لمصدر محذوفوالتقدير: إماتتين وإحياءتين اثنتين و في تفسير علّي بن إبراهيم قال الصادق : ذلك في الرجعة .

ثمّ حكى الله عنهم أنّهم قالوا : [فاعترفنا بذنوبنا] فالفاء فيه معنىالسببيّة وذلك أنّهم لمّا كانوا منكرين في البعث فلمّا شاهدوا الإحياء بعدالإماتة مرّتين فلاجرم وقع هذا الاعتراف كالمسبّب عن تلك الإماتة والإحياء .

ثمّحكى سبحانه عن قولهم [فهل إلى خروج] من النار[سبيل] إلى الدنيالنعمل بطاعتك وفي مثل هذا الكلام نوع تلطّف في الاستدعاء ويعادل الاستفهام : أم اليأس وقع

فلا خروج ولاسبيل وفي الكلام حذف تقديره : فأجيبوا بأنّه لاسبيل لكم إلى الخروج .

وينبىء عن هذا الجواب [ذلكم بأنّه إذا دعي الله وحده كفرتم] أي ذلكم العذاب الّذي حلّ بكم بسبب أنّه إذا قيل لا إله إلّا الله استكبرتم وقلتم أجعل الآلهة إلهاً واحدا و جحدتم ذلك [وإن يشرك به] معبود آخر من الأصنام والأوثان [تؤمنوا] و تصدّقوا و تقبّلوا [فالحكم] في ذلك والفصل بين المحقّ و المبطل [لله العلّي الكبير] القادر على كلّ شيء الّذي ليس فوقه من هو أقدر منه أومن يساويه في مقدوره ونقلت هذه اللفظة من علوّ المكان إلى علوّ الشأن كما يقال : استعلى فلان بالحجّة والقوّة .

قوله : [هو الّذي يريكم آياته وينزّل لكم من السماء رزقاً] ولمّا كان أهمّ المهمّات رعاية مصالح الأديان من عباده فراعى بإظهار الحجج والبيّنات وراعى مصالح أبدانهم بإنزال الرزق من السماء فموقع الآيات من الأديان كموقع الأرزاق من الأبدان فالآيات لحياة الأديان والأرزاق لحياة الأبدان فبيّن سبحانه في الآية أنّه أراكم بيّناته وأنزل أرزاقكم من السماء لقوام حياتكم [وما يتذكّر] ويتّعظ بهذه الأُمور وليس تتفكّر في حقيقتها [إلّا من ينيب] و يرجع إليه ويقبل طاعته .

ثمّ أمر المؤمنين بقوله : [فادعوا الله مخلصين له الدين] أي وجّهوا عبادتكم إليه وحده [ولو كره الكافرون] فلا تبالوا بهم ولاتعتنوا بغيظهم و كرههم .

ثمّ وصف نفسه سبحانه [رفيع الدرجات] الرفيع بمعنى الرافع أي هو رافع درجات الأنبياء و الموحّدين في الجنّة وقيل : رافع السماوات السبع و قيل : معناه أنّه سبحانه عالي الصفات [ذو العرش] أي مالك العرش و ربّه و قيل : المراد من العرش الملك .

[يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده] و قيل : الروح القرآن و كلّ كتاب أنزله الله على نبيّ من أنبيائه و قيل : الروح الوحي هنا لأنّه يحيا به القلب أي يلقي الوحي على قلب من يشاء ممّن يراه أهلاً له يقال : ألقيت عليه كذا أي فهّمته وقيل: إنّ الروح جبرئيل يرسله الله بأمره و قيل : الروح هنا النبوّة .

[لينذر] بما اُوحي إليه [يوم التلاق] أي لينذر الله الناس أو لينذر النبيّ الناس وقرىء بالتاء للخطاب للنبيّ أي لتنذر الناس العذاب يوم القيامة لأنّه يتلاقى فيه الأرواح

و الأجسام أو يلتقي في ذلك اليوم أهل السماء و أهل الأرض و قيل : يلتقي فيه الأوّلون و الآخرون و الخصم و المخصوم و قيل : يلتقي فيه الخالق و المخلوق عن ابن عبّاس يعني أنّه يحكم بينهم و قيل : يلتقي المرء و عمله و الكلّ مراد .

[يوم هم بارزون] من قبورهم بدل من يوم التلاق أي خارجون من قبورهم وظاهرون ولا يسترهم شيء من جبل أو أكمة أو بناء لكون الأرض يومئذ قاعاً صفصفاً و ليس عليهم ثياب إنّما هم عراة مكشوفون كما جاء في الحديث : يحشرون عراة حفاة و يمكن أن يكون المعنى كونهم بارزين كناية عن ظهور أعمالهم وانكشاف أسرارهم كما قال تعالى : «يوم تبلى السرائر [(١)] » .

[لا يخفى على الله منهم شيء] فيجازي كلّاً بعمله إن خيراً فخير و إن شرّاً فشرّ و نظيره قوله تعالى : « يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية [(٢)] » . فإن قيل : إنّ الله لا يخفى عليه منهم شيء في جميع الأيّام فما معنى التقييد بذلك اليوم ؟ لأنّهم كانوا يتوهّمون أنّ الله لا يراهم و يخفى عليه أعمالهم و هو غير عالم بالجزئيّات فهم في ذلك اليوم صائرون من الانكشاف و البروز إلى حال لا يتوهّمون فيها مثل ما يتوهّمونه في الدنيا قال : «ولكن ظننتم أنّ الله لا يعلم كثيراً ممّا تعملون» [(٣)] .

قوله : [لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار] و التقدير ينادي فيه لمن الملك و هذا النداء في أيّ الأوقات يحصل فيه قولان : الأوّل قال المفسّرون : إذا هلك كلّ من في السماوات و من في الأرض فيقول الربّ : « لمن الملك اليوم » يعني يوم القيامة و لا يجيبه أحد فهو تعالى يجيب نفسه فيقول : « لله الواحد القهّار » قال محمّد بن كعب القرظيّ : يقول الله ذلك بين النفختين حين يفني الخلائق كلّها و القول الثاني : أنّه تعالى يقول و ذلك يوم الطلاق يوم يبرز العباد من قبورهم فيقرّ المؤمنون والكافرون بأنّه لله الواحد القهّار.

و إنّما خصّ ذلك اليوم بأنّه له الملك لأنّه قد ملك العباد بعض الأمور في الدنيا ولا يملك أحد شيئاً في ذلك اليوم لأنّه تعالى يملك جميع الأمور من غير تمليك مملّك

(١) الطارق : ٦ .
(٢) الحاقة : ١٨ .
(٣) حم السجده : ٢٢ .

وقد أنكر بعض أنّ هذا النداء يقع وقت هلاك الكلّ بل قالوا : إنّ الآية لا تدلّ على حصول النداء في ذلك الوقت بل يقع يوم التلاق و يوم البروز و يوم تجزى كلّ نفس بما كسبت والناس في ذلك الوقت أحياء بل يستفاد من الآية أنّ النداء يقع في يومهم بارزون .

ثمّ إنّ الكلام لابدّ فيه من فائدة و إنّما يحسن تكلّمه حال كون المتكلّم وحشره إمّا لأنّه يحفظ به شيئاً كالّذي يكرّر على الدرس أو لأجل أنّه يحصل له سرور بما يقوله و يستلذّ به و كلّها في حقّ الله محال و لو ذكر في ذلك الوقت لأجل أن يعبد الله بذلك الذكر فذلك أيضاً ممنوع لأنّه لا تكليف ولا مكلّف نعم يمكن أن يكون النداء وقت فناء البشر دون الملائكة فيكون في ذلك الوقت وقوع النداء لمصلحة من المصالح .

قوله تعالى : [اليوم تجزى كلّ نفس بما كسبت] تجزى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته و في الحديث إنّ الله تعالى يقول : أنا الملك الديّان لا ينبغي لأحد من أهل الجنّة أن يدخل الجنّة ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار و عنده مظلمة حتّى أقتصّه منه ثمّ تلا هذه الآية .

[لا ظلم اليوم] أي لا ظلم لأحد على أحد و لا ينقص من ثواب أحد ولا يزاد في عقاب أحد [إنّ الله سريع الحساب] لا يشغله محاسبة واحد عن محاسبة غيره .

قال القاضي : هذه الآية صريحة قويّة في إبطال قول المجبّرة لأنّه تعالى إذا خلق في الكافر الكفر ثمّ عذّبه عليه فهذا هو عين الظلم .

قوله : و انذرهم يوم الازفة اذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ما للظالمين من حميم و لا شفيع يطاع (١٨) يعلم خائنة الاعين و ما تخفى الصدور (١٩) و الله يقضى بالحق و الذين يدعون من دونه لا يقضون بشيء ان الله هو السميع البصير (٢٠) .

أمر سبحانه أن يخوّف المكلّفين يوم القيامة فقال :

[و أنذرهم يوم الآزفة] أي الدانية و هو يوم القيامة لأنّ كلّ ما هو آت دان قريب و يوم دنوّا المجازاة و الآزفة فاعلة من أزف الأمر إذا دنا و حضر و الآزفة نعت لمحذوف مؤنّث على تقدير يوم القيامة .

و يوم الآزفة يوم مسارعتهم دخول النار فانّ عند ذلك ترتفع قلوبهم عن مقارّها

من شدّة الخوف و قيل : يوم الآزفة يوم حضور الموت و الّذي يدلّ على هذا المعنى أنّه تعالى وصف القيامة بأنّه يوم التلاق ويوم هم بارزون ثمّ قال : بعده «و أنذرهم يوم الآزفة» فوصف يوم الموت بالقرب أولى من وصف يوم القيامة بالقرب و أيضاً الصفات المذكورة بعد قوله ، « يوم الآزفة » لائقة بيوم حضور الموت .

و اختلفوا في أنّ المراد من قوله : « إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين » كناية من شدّة الخوف أو هو محمول على ظاهره ؟ قيل : كناية عن شدّة الخوف و قيل : بل هو محمول على ظاهره و القلوب تنتزع من مواضعها بسبب شدّة الخوف و يبلغ الحناجر حقيقة فلا تخرج فيموتوا ولا ترجع إلى مواضعها فيتنفّسوا و قوله : « كاظمين » أي مكروبين و الكاظم الساكت حال امتلائه غمّاً و غيظاً وهو حال عن أصحاب القلوب والقلوب كاظمة على غمّ و كرب مع بلوغها موضع الحنجرة . و أتى بلفظ جمع السلامة لأنّه وصف القلوب بالكظم الّذي هو من أفعال العقلاء كما قال : « رأيتهم لي ساجدين [١] » و قال : «فظلّت أعناقهم لها خاضعين [٢]» .

قوله تعالى : [ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع] فبيّن سبحانه أنّه ليس لهم قريب ينفعهم ولا شفيع يطاع فيهم فنقبل شفاعته .

و ههنا بحث و هو أنّ أكثر المعتزلة احتجّوا بهذه الآية في نفي الشفاعة على المذنبين . و أجاب أهل الجماعة بوجوه :

الأوّل أنّه تعالى نفى أن يحصل لهم شفيع يطاع و هذا لا يدلّ على نفي الشفيع ألا ترى أنّك إذا قلت: ماعندي كتاب يباع فهذا يقتضي نفي كتاب يباع ولا يقتضي نفي الكتاب و لفظ الطاعة يقتضي حصول المرتبة فهذا يدلّ على أنّه ليس لهم يوم القيامة شفيع يطيعه الله و معلوم أنّه ليس في الوجود أحدٌ أعلى حالاً من الله حتّى يقال : إنّ الله يطيعه .

(١) يوسف : ٤ .

(٢) الشعراء : ٤ .

الوجه الثاني في الجواب أنّ المراد من الظالمين ههنا الكفّار لأنّ الآية في بيان زجر الكفّار الّذين يجادلون في آيات الله فوجب أن يكون مختصّاً بهم و معلوم أنّه لا شفاعة في حقّ الكفّار .

الثالث أنّ لفظ الظالمين إمّا أن يفيد الاستغراق وإمّا أن لا يفيد فإن أفاد الاستغراق كان المراد من الظالمين مجموعهم و يدخل في المجموع الكفّار و سلّمنا أنّ الشفاعة غير حاصلة للكافر فحينئذ لا يكون لهذا المجموع شفيع و ان لم يفد الاستغراق كان المراد من الظالمين بعض من كان موصوفاً بهذه الصفة ومعلوم أيضاً أنّ بعض الموصوفين بهذه ليس لهم شفيع و هم الكافرون .

و أجاب المستدلّون عن الجواب الأوّل فقالوا : يجب حمل كلام الله تعالى على محمل مفيد و كلّ أحد يعلم أنّه ليس في الوجود شيء يطيعه الله لأنّ المطيع أدون حالاً من المطاع و ليس في الوجود شيء أعلى مرتبة من الله حتّى يقال : إنّ الله يطيعه فكان حمل الآية عليه إخراجاً لها عن الفائدة فوجب حمل الطاعة على الإجابة قال الشاعر :

ربّ من انضجت غيظاً صدره * قد تمنّى لي موتاً لم يطع

أي لم يجب .

و أمّا الجواب عن الجواب الثاني بأنّ لفظ الظالمين صيغة جمع دخل عليها حرف التعريف فيفيد العموم أقصى ما في الباب أنّ هذه الآية وردت لذمّ الكفّار إلّا أنّ العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فحينئذ إنّ قوله : « ما للظالمين من حميم » يفيد أنّ كلّ واحد من الظالمين محكوم عليه بأنّه ليس له حميم ولا شفيع يطاع .

و اُجيبوا عن الردّ الأوّل بأنّ القوم كانوا يقولون في الأصنام : إنّها شفعاؤنا عند الله بغير إذن و لهذا السبب ردّ الله عليهم ذلك بقوله : «من ذا الّذي يشفع عنده إلّا بإذنه» فهذا يدلّ على أنّ القوم اعتقدوا أنّه يجب على الله إجابة الأصنام في تلك الشفاعة وهذا نوع طاعة فالله نفى تلك الطاعة بقوله : «ما للظالمين الآية ».

و أيضاً اُجيبوا عن الكلام الثاني بأنّ الأصل في حرف التعريف أن ينصرف المعهود السابق فإذا دخل حرف التعريف على صيغة الجمع وكان هناك معهود سابق انصرف إليه

و قد حصل في الآية معهود سابق وهم الكفّار الّذين يجادلون في آيات الله فوجب أن ينصرف إليه وعن الكلام بأنّ قوله : « ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع » يحتمل عموم السلب و يحتمل سلب العموم فعلى التقدير الأوّل يكون المعنى: إنّ كلّ واحد من الظالمين محكوم عليه بأنّه ليس له حميم ولا شفيع و أمّا على تقدير سلب العموم يكون المعنى: إنّ مجموع الظالمين ليس لهم حميم ولا شفيع فحينئذ لا يلزم من نفي الحكم عن المجموع نفيه عن كلّ واحد من آحاد ذلك المجموع كما أنّ قوله تعالى : «إنّ الّذين كفروا لا يؤمنون » إن حملناه على أنّ كلّ واحد منهم محكوم عليه بأنّه لا يؤمن لزم وقوع الخلف في الكلام لأنّ كثيراً ممّن كفر فقد آمن بعد ذلك أمّا لو حملناه على أنّ مجموع الّذين كفروا لا يؤمنون سواء آمن بعضهم أولم يؤمن صدق و يخلص عن الخلف فلا جرم حملت الآية على سلب العموم ولا تحملها على عموم السلب فكذا قوله : « ما للظالمين من حميم و لاشفيع » يجب حمله على سلب العموم لا على عموم السلب فسقط استدلال المعتزلة بهذه الآية .

اقول: و الحقّ أنّه نعم ماتدارك أهل الجماعة من الجواب في الردّ على المعتزلة في إثبات الشفاعة فكيف لاتكون الشفاعة لأنّه إن كان مرادكم أنّ الشفاعة لا ينال الظالم و الظالم بمعنى الكافر فهذا حكم متّفق عليه بيننا و بينكم و ليس فيه اختلاف و إن كان مرادكم أنّ الشفاعة لا تصيب لمن ظلم نفسه أوغيره بالمعصية و الذنوب فالآية ناطقة بأنّ الشفاعة تنال غير الكافر لقوله: «ولا يشفعون إلّا لمن ارتضى» دينه والمراد من المرضيّ الدين المسلم لأنّ الدين عندالله الإسلام فمن هومرضيّ الدين بالإيمان فهو داخل في الشفاعة و أيضاً الأخبار في حصول الشفاعة للنبيّ الأكرم مستفيضة و غير واحد بل هي حاصلة للمؤمنين كما قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : ادّخرت شفاعتي لأمّتي من أهل الكبائر انتهى .

قوله تعالى : [يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور] أي إنّه سبحانه عالم لايعزب عن علمه مثقال ذرّة في السماوات و يعلم خيانة الأعين الخائنة و هو الرمز بالعين و الخائنة مصدر كالخيانة مثل الكاذبة و اللاغية بمعنى الكذب و اللغو و يعلم ما تخفي الصدور و مضمرات القلوب فحينئذ يعلم الأفعال الخفيّة من الجوارح فضلاً عن الجليّة وأفعال

القلوب و الحاكم إذا بلغ في العلم إلى هذا الحدّ كان خوف المذنب منه شديداً جدّاً و قيل : الخائنة صفة النظرة إلى مالايحلّ .

[والله يقضي بالحقّ] و يوصل كلّ ذيحقّ إلى حقّه [و الّذين يدعون]الكفّار [من دونه]من الأصنام [لايقضون بشيء] و لا ينفعون لأحد لاالشفاعة ولا غيرها لأنّها جمادات [إنّ الله هوالسميع البصير] سميعبالمسموعات و بصير بالمبصرات .

قوله : اولم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوةو آثاراً فى الارض فأخذهم الله بذنوبهم و ماكان لهم من الله من واق (٢١) ذلك بأنهم كانت تاتيهم رسلهم بالبينات فكفروا فأخذهم الله انه قوى شديد العقاب(٢٢)و لقد أرسلنا موسى باياتنا و سلطانمبين (٢٣) الى فرعون وهامان و قارون فقالوا ساحر كذاب(٢٤) فلما جاءهم بالحق من عندناقالوا اقتلوا ابناء الذين آمنوا معه و استحيوا نساءهم و ماكيد الكافرين الا فىضلال (٢٥).

المعنى لمّا بالغ في الآيات السابقةفي تخويفالكفّار بعذاب الآخرة أردفهببيان تخويفهم بأحوال الدنيا ليعتبروا فقال :

[أولم يسيروا في الأرضفينظروا كيف كان عاقبة الّذين كانوا من قبلهم] والعاقل من اعتبر بغيره فإنّ الّذين مضوا من الكفّار قبلهم كانوا أشدّ قوّة من هؤلاء الحاضرين من الكفّار و أقوى آثاراً في الأرض منهم و المراد حصونهم و قصورهم و عساكرهم فلمّا كذّبوا أنبياءهم أهلكهم اللهبضروب الهلاك معجّلاً فحذّرهم الله من مثل ذلك بهذاالقول و قال : [و ما كان لهم من الله من واق] لمّا نزل العذاب بهم عند أخذه و لم يجدوا من يعينهم و يخلّصهم .

[ذلك] العذاب الّذي نزل بهم [بأنّهم كانت تأتيهم رسلهم بالبيّنات] و المعجزات الباهرات [فكفروا] بها [فأخذهم الله] وأهلكهم عقوبة على كفرهم [إنّه قويّ شديد] الانتقام منهم .

ثمّ ذكر قصّة موسى و فرعون ليعتبروا بها فقال : [ولقد أرسلنا موسى بآياتنا] أي بعثناه بحججنا و دلالاتنا [و سلطان مبين] ومعجزة باهرة ظاهرة نحو قلبالعصاحيّة

و فلق البحر [إلى فرعون و هامان و قارون]كان موسى رسولاً إلى كافّتهم إلّاأنّه خصّ فرعون لأنّه كان رئيسهم وكان هامان و زيره و قارون صاحب جنوده و كنوزه و الباقون تبع لهم و عطف السلطان على الآيات لاختلاف اللفظين تأكيداً و قيل : المراد بالآيات حجج التوحيد و العدل و بالسلطان المعجزات الدالّة على نبوّته .

[فقالوا ساحر كذّاب] مموّه فيما يدعو إليه [فلمّا جاءهم بالحقّ من عندنا] أي فلمّا أتاهم بالّدين الحقّ الّذي من عندنا وأمرهم بالتوحيد [قالوا اقتلو أبناء الّذين آمنوا معه واستحيوانساءهم] أي أمروابقتل الذكور من قوم موسى لئلّا يكثر قومه و لا يتقوّى بهم وأمروا باستبقاء نسائهم للخدمة وهذا القتل غير القتل الأوّل لأنّه أمربالقتل الأوّل لئلّا يولد منهم من يزول ملكه على يده ثمّ ترك ذلك فلمّا ظهرموسى و أظهر أمر نبوّته عاد إلى تلك العادة فمنعهم الله عنه بالدم و الضفادع و الطوفان و الجراد .

[و ما كيد الكافرين إلّا في ضلال] و معناه أنّ جميع ما يسعون فيه من مكايدة موسى فهو باطل لأنّ ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها .

ثمّ أخبر سبحانه عن نوع آخر من قبايح فرعون و قال :

و قال فرعون ذرونى أقتل موسى وليدع ربه انى أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر فى الارض الفساد (٢٦) و قال موسى انى عذت بربى و ربكم من كل متكبر لايؤمن بيوم الحساب(٢٧) و قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم ايمانه أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم و ان يك كاذباً فعليه كذبه و ان يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم ان الله لا يهدى من هو مسرف كذاب(٢٨) يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الارض فمن ينصرنا من بأس الله ان جاءنا قال فرعون ما اريكم الا ما أرى و ما أهديكم الا سبيل الرشاد (٢٩) و قال الذى آمن ياقوم انى اخاف عليكم مثل يوم الاحزاب (٣٠) .

المعنى :[و قال فرعون ذروني أقتل موسى] أي قال لقومه : اُتركوني أقتله . وفي الآية دلالة على أنّه كان في خاصّة قوم يشيرون عليه بأن لايقتل موسى و يخوّفونه بأن يدعو ربّه فيهلك فلذلك قال فرعون : [وليدع ربّه] أي كما يقولون و ليستعن بدعائه

في دفع القتل عنه فإنّه لا يجيء من دعائه شيء ، قاله عتوّاً و تكبّراً و جرأة على الله و لعلّه كان فيهم من يعتقد بقلبه كون موسى صادقاً فيأتي بوجوه الحيل في منع فرعون من قتل موسى أولعلّهم كانوا يحتالون في منعه من قتله لأجل أن يبقى فرعون مشغول القلب بموسى فلا يتفرّغ لتأديب اُولئك الأقوام فإنّ من شأن الاُمراء أن يشغلوا قلب ملكهم بخصم خارجيّ حتّى يصيروا آمنين من شرّ ذلك الملك .

قوله : [إنّي أخاف أن يبدّل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد] أي إن لم أقتله يبدّل مايعتقدونه من إلهيّتي أو أن يتبعه قوم و يحتاج الأمر إلى أن نقاتله فيخرب البلاد و قيل : إنّ مراده بقوله : « أن يظهر الفساد » أن يعمل بطاعة الله و يتركون قوله . فلمّا قال اللعين هذه الكلام استعاذ موسى عليه السلام بربّه [وقال موسى إنّي عذت بربّي و ربّكم من كلّ متكبّر لا يؤمن بيوم الحساب]أي إنّي اعتصمت بربّي الّذى خلقني و ربّكم الّذي خلقكم من شرّ كلّ متكبّر على الله متجبّر عن الانقياد له لا يصدّق بيوم المجازاة .

و لمّا قصد فرعون قتل موسى وعظهم المؤمن من آل فرعون و هو قوله : [قال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه]في صدره علي وجه التقيّة قال الصادق عليه السلام : التقيّة من ديني و دين آبائي و لادين لمن لا تقيّة له و التقيّة ترس الله في الأرض لأنّ مؤمن آل فرعون لو أظهر الايمان لقتل قال ابن عبّاس : لم يكن من آل فرعون مؤمن غيره و غير امرأة فرعون و ذلك المؤمن هو الّذي أنذر موسى فقال : « إنّ الملأ يأتمرون بك ليقتلوك » قال السدّيّ و مقاتل : كان الرجل ابن عمّ فرعون و كان آمن بموسى وهو الّذي جاء من أقصى المدينة يسعى و قيل : إنّه كان وليّ عهده بعده و كان اسمه حبيب و قيل : اسمه حزبيل .

قال الرجل : [أتقتلون رجلاً أن يقول ربّي الله و قد جاءكم بالبيّنات]والمعجزات مثل العصا واليد و غيرهما وقرىء رجل بكسر الجيم كما تقول : عضد في عضد .

[وإن يك كاذباً فعليه كذبه] و إنّما قال ذلك على وجه التلطّف و حاصل المعنى: إن كان هذا الرجل كاذباً كان و بال كذبه عائداً عليه فاتركوه و إن كان صادقاً [وإن يك

صادقاً يصبكم بعض الّذي يعدكم] قيل : إنّ موسى عليه السلام كان يعدهم بالنجاة إن آمنوا وبالهلاك إن كفروا ولذا قال : «يصبكم بعض الّذي يعدكم» لأنّهم إذا كانوا على أحد الحالين نالهم أحد الأمرين و ذلك بعض الأمر لا كلّه . وقيل : استعمل البعض في موضع الكلّ تلطّفاً في الخطاب و توسّعاً في الكلام و المراد الكلّ ؛ قال الشاعر :

قد يدرك المتأنّي بعض حاجته * وقد يكون من المستعجل الزلل

وكأنّه قال : إن يك صادقاً أقلّ مافيه أن يصبكم بعض الّذي يعدكم و في ذلك البعض هلاككم قال عليّ بن عيسى إنّما قال : « بعض الّذي يعدكم » على المظاهرة في الحجاج أي إنّه يكفيكم بعضه فكيف بجميعه ؟

فإن قيل : إنّه كان من الواجب أن يقال : و إن يك صادقاً يصبكم كلّ الّذي يعدكم الّذي لأنّ الّذي يصيب في بعض ما يعدهم أصحاب الكهانة والنجوم أمّا الرسول الصادق الّذي لا يتكلّم إلّا بالوحي و هو صادق في كلّ ما يقول .

فالجواب هو الجواب الّذي ذكرنا والمراد أنّه لا حاجة بكم في دفع شرّه إلى القتل بل يكفيكم أن تعرضوا عن مقالته وتتركوا قتله فإن كان كاذباً فحينئذ لا يعود ضرره إلّا إليه و إن كان صادقاً انتفعتم به . و فيه بيان و وجه آخر و هو أنّه عليه السلام كان يتوعّدهم بعذاب الدنيا و بعذاب الآخرة فإذا وصل إليهم في الدنيا عذاب الدنيا فقد أصابهم بعض الّذي يعدهم انتهى .

[إنّ الله لا يهدي من هو مسرف كذّاب] يجوز أن يكون هذا حكاية عن قول المؤمن ويجوز أن يكون ابتداء كلام من الله وفي الكلام بيان أنّ ماهم فيه من الملك والنعمة يقتضي الشكر لله و الإيمان به و لا يهدي الله إلى جنّته و ثوابه من هو مسرف على نفسه و مجاوز عن الحدّ في المعصية كذّاب على ربّه .

ثمّ قال المؤمن : [يا قوم لكم الملك اليوم ظاهرين في الأرض فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا] لمّا بيّن المؤمن لهم أنّه لا يجوز الإقدام على قتل موسى ولا يجوز التكذيب على الله بادّعاء الإلهيّة خوّفهم بعذاب الله و بأسه فقال : أنتم اليوم قد علوتم الناس ولكم السلطنة في أرض مصر و ماوا لاها فلا تفسدوا أمركم ولا تتعرّضوا لبأس الله

و عذابه فإنّه لا قبل لكم به و إنّما قال : ينصرنا و جاءنا لأنّه كان يظهر من نفسه أنّه منهم و هو مناصح لهم ومشارك معهم .

و لمّا قال هذا الكلام [قال فرعون ما اُريكم إلّا ما أرى] أي لا اُشير إليكم برأي سوى ما ذكرته أنّه يجب قتله حسماً لمادّة الفتنة و دفعاً له بالقتل [و ما أهديكم إلّا سبيل الرشاد] ثمّ حكى سبحانه أنّ المؤمن ردّ هذا الكلام على فرعون .

قوله : [و قال الّذي آمن يا قوم إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب] و اعلم أنّ فرعون لمّا قال : «ذروني أقتل موسى» و كان المؤمن يكتم إيمانه و الّذي يكتم كيف يمكنه أن يذكر هذه الكلمات مع فرعون فلهذا السبب حصل ههنا قولان :

الأوّل أنّ فرعون لمّا قال : « ذروني أقتل موسى » لم يصرّح المؤمن بأنّه على دين موسى بل أوهم أنّه مع فرعون و على دينه و لكنّه زعم أنّ المصلحة تقتضي ذلك و أظهر لفرعون هذا البيان لأجل المناصحة حيلة لتخليص موسى عن القتل و أوهم لفرعون أنّ مراده من المسرف الكذّاب يريد موسى و هو يريد فرعون .

و القول الثاني أنّه لمّا سمع من فرعون إرادة قتل موسى أزال الكتمان و أظهر دينه و شافه بالحقّ وقال : «يا قوم إنّي أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب» أي عذاباً مثل يوم الأحزاب .

و قيل : القائل لذلك موسى لأنّ مؤمن آل فرعون كان يكتم إيمانه وهذا لا يصحّ لأنّه قريب من قوله : «أتقتلون رجلاً» . والمراد بالأحزاب الأحزاب الّذي تحزّبوا على تكذيب أنبيائهم و اجتمعوا على مخالفة رسلهم وفسّرهم بقوله :

مثل دأب قوم نوح و عاد و ثمود و الذين من بعدهم و ما الله يريد ظلماً للعباد (٣١) و يا قوم انى أخاف عليكم يوم التناد (٣٢) يوم تولون مدبرين مالكم من الله من عاصم و من يضلل الله فما له من هاد (٣٣) ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات فما زلتم فى شك مما جاءكم به حتى اذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب (٣٤) الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان أتاهم كبر مقتاً عند الله و عند الذين آمنوا كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار (٣٥) .

الدأب العادة .

المعنى : إنّي أخاف عليكم [مثل] عادة الأوّلين من الله في [قوم نوح و عاد و ثمود] حين أهلكم الله و استأصلهم جزاء على كفرهم ، قد حذف المضاف في الآية والتقدير: مثل جزاء دأبهم [و] مثل [الّذين من بعدهم] كقوم لوط، والخوف بسبب هلاك معجّل في الدنيا ثمّ خوّفهم أيضاً بهلاك الآخر و الحرمان من الجنّة و هو قوله : [وما الله يريد ظلماً للعباد] و إنّما أوجبوا على أنفسهم العذاب و الحرمان بعنادهم و كفرهم وهوسبحانه غير ظالم لخلقه و إنّما هم ظلموا أنفسهم و استحقّوا العذاب وهو غير ظالم تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

قالت المعتزلة : إنّ هذه الآية صريحة دالّة على أنّه سبحانه لا يريد أن يظلم بعض العباد بعضاً و تدلّ على أنّه سبحانه لا يريد ظلم أحد من العباد فلو خلق الكفر فيهم ثمّ يعذّبهم على ذلك الكفر لكان ظالماً البتّة وإذا ثبت أنّه لا يريد الظلم ثبت أنّه غيرخالق لأفعال العباد من السيّئات لأنّه لوخلقها لأرادها .

و بالجمله النوع الآخرمن كلمات المؤمن [وياقوم إنّي أخاف عليكم يوم التناد] و التناد التفاعل من النداء يقال : تنادى القوم أي نادى بعضهم بعضاً والأصل الياء وحذفت لدلالة الكسرة و حذف الياء حسن في الفواصل مثل يوم التلاق وهو يوم القيامة .

والسبب في التسمية أنّ في ذلك اليوم ينادي فيه بعض الظالمين بعضاً بالويل وينادي فيه أصحاب الجنّة ينادون أهل النار بأن قد وجدنا ما وعدنا ربّنا حقّاً و كذلك أصحاب النار ينادون أصحاب الجنّة كما ذكر الله في سورة الأعراف « و نادى أصحاب النّار أصحاب الجنّه أن أفيضوا علينا من الماء (١) » الآية ويمكن أن يكون قوله تعالى : « يوم ندعو كلّ أُناس بإمامهم (٢) » أو ينادي المؤمن « هاؤم اقرءوا كتابيه (٣) » و الكافر « يا ليتني لم أُوت كتابيه (٤) » أوينادي فيه باللعنة على الظالمين أو لأنّه يجاء الموت بصورة

(١) الاعراف : ٦٤ .

(٢) الاسراء : ٧١ .

(٣ و ٤) الحاقة : ١٩ و ٢٥ .

كبش أملح ثمّ يذبح و ينادى يا أهل القيامة لاموت فيزداد أهل الجنّة فرحاً على فرحهم و أهل النار حزناً على حزنهم .

ولكن قال أبو عليّ الفارسي : التنادي مشتقّ من التناد أصله من قولهم ندّ فلان إذا هرب و هو قول ابن عبّاس قال : يندّون كما يندّ الإبل و يؤيّد هذا المعنى قوله : « يوم يفرّ المرء من أخيه (١) » .

و قوله : [يوم تولّون مدبرين] أيضاً يؤيّد هذا القول لأنّهم إذا سمعوا زفير النار يندّون هاربين فلا يأتون قطراً من الأقطار إلّا وجدوا ملائكة صفوفاً فيرجعون إلى المكان الّذي كانوا فيه .

ثمّ أكّد سبحانه التهديد بقوله : [مالكم من الله من عاصم] و مانع من عذابه [و من يضلل الله فماله من هاد] أي من يضلله الله عن طريق الجنّة فما له هاد يهديه إليها .

قوله : [و لقد جاءكم يوسف من قبل بالبيّنات] يمكن أن يكون هذا من بقيّة كلام مؤمن آل فرعون و يجوز أن يكون ابتداء كلام من الله هو يوسف بن يعقوب على أنّ فرعونه فرعون موسى أو على نسبة أحوال الآباء إلى الأولاد وقيل : المراد من يوسف سبطه و هو يوسف بن إفرائيم بن يوسف الصديق «من قبل» أي من قبل موسى بالبيّنات والحجج الواضحة .

[فمازلتم في شكّ ممّا جاءكم به] من الدّين و ممّا يأمركم به من التوحيد [حتّى إذا هلك] يوسف و مات [قلتم لن يبعث الله من بعده رسولاً] ضمّاً إلى تكذيب رسالة من بعده أوجزماً بأن لا يبعث بعده رسولاً مع الشكّ في رسالته و أقمتم على كفركم وظننتم أنّ الله لا يجدّد لكم إيجاب الحجّة .

[كذلك] أي مثل ذلك الضلال الفظيع [يضلّ الله] عن طريق الجنّة و الثواب [من هو مسرف] على نفسه كافر و مجاوز عن الحدّ [و مرتاب] و شاكّ في التوحيد و النبوّات فالعبد مالم يضلّ عن الدّين فإنّ الله لا يضلّه عن طريق الجنّة و الخير لأنّه سبحانه قال : إنّما أضلّهم عن طريق الجنّة لكونهم مسرفين في المعاصي مرتابين في دينهم .

(١) عبس : ٣٤ .

ثمّ بيّن المسرفين و المرتابين فقال : هم [الّذين يجادلون في آيات الله بغيرسلطان أتاهم] و يسعون في دفع آيات الله و إبطالها بغير حجّة و دليل أتاهم [كبر مقتاً عند الله] أي كبيرذلك الجدل و المخاصمة منهم بغضاً و عداوة عند الله [و عند الّذين آمنوا] بالله و المعنى مقته الله و لعنه و أعدّ له العذاب و مقته المؤمنون و أبغضوه بذلك الجدال و أنتم جادلتم و خاصمتم في آيات الله مثلهم فاستحققتم ذلك .

[كذلك يطبع الله على قلب كلّ متكبّر جبّار] أي مثل ما طبع على قلوب اُولئك بأن ختم عليها علامة لكفرهم يطبع و يفعل ذلك على كلّ مستكبر عن آيات الله و كلّ من يأنف على قبول الحقّ و لعلّ المراد من قوله : « على قلب » أي على ذي قلب و المقت و الغضب و التعجّب و الحياء و أمثال هذه الصفات واجبه التأويل في حقّ الله تعالى و الكبر و أمثاله قد يضاف إلى القلب مثل قوله : « فإنّه آثم قلبه » و قال قوم : الإنسان الحقيقيّ القلب .

قوله تعالى : و قال فرعون يا هامان ابن لى صرحا لعلى أبلغ الاسباب (٣٦) اسباب السموات فاطلع الى اله موسى و انى لاظنه كاذبا و كذلك زين لفرعون سوء عمله و صد عن السبيل و ماكيد فرعون الا فى تباب (٣٧) و قال الذى آمن يا قوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد (٣٨) و يا قوم انما هذه الحيوة الدنيا متاع و ان الاخرة هى دار القرار (٣٩) من عمل سيئة فلا يجزى الا مثلها و من عمل صالحا من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغيرحساب (٤٠) .

ثمّ بيّن سبحانه ما موّه فرعون على قومه لمّا وعظه المؤمن و خوّفه من قتل موسى [و قال فرعون] لوزيره : [يا هامان ابن لي صرحاً] أي قصراً مشيّداً بالآجرّ و قيل : مجلساً عالياً و الصرح البناء الظاهر الّذي لا يخفى على عين الناظر وإن بعد .

[لعلّي أبلغ الأسباب] ثمّ فسّر تلك الأسباب [أسباب السماوات] أي لعلّي أبلغ بالأسباب الطرق من سماء إلى سماء و قيل : لعلّي أبلغ أسباب طرق السماوات أو منازل السماوات وأتوصّل بها إلى مرادي و إلى علم ما غاب عنّي من اُمور السماوات والسبب كلّ ما يتوصّل به إلى شيء يبعد عنك [فأطّلع إلى إله موسى] أي فأنظر إليه فأراه أراد

اللعين بهذا الكلام التلبيس على الضعفة مع علمه باستحالة ذلك أو من جهله اعتقد أنّ الله في السماء و إنّه يقدر على بلوغ السماء .

[و إنّي لأظنّه كاذباً] أي إنّي أظنّ أنّ موسى كاذب في قوله : أنّ له إلهاً غيري و هو مرسل إلينا و العجب أنّ اليهود الباحثين عن تواريخ بني إسرائيل و فرعون قالوا : إنّ هامان ما كان موجوداً في زمان موسى و فرعون و إنّما جاء بعدهما بزمان مديد فصدّقوا تاريخهم و كذّبوا القرآن مع أنّهم مقرّون بأنّ أحوالهم اضطربت بسبب غلبة بخت نصّر على ملكهم حتّى ضيّع توراتهم سيّما قد طال العهد بتاريخ أحوالهم فكيف يبقى اعتماد بمثل هذا التاريخ حتّى ينسب الصدق إلى التاريخ المشوّش والكذب إلى القرآن تعالى كلامه عن الكذب علوّاً كبيراً .

و بالجملة لمّا حكى الله سبحانه عن فرعون هذه المقالة قال بعدها : [و كذلك زيّن لفرعون سوء عمله و صدّ عن السبيل] و قرىء « و صدّ عن السبيل » مجهولاً ومعلوماً أي و مثل ما زيّن لهؤلاء الكفّار سوء أعمالهم زيّن لفرعون سوء عمله و قبيح فعله و إنّما زيّن له ذلك أصحابه و جلساؤه و زيّن له الشيطان كما قال : « و زيّن لهم الشيطان أعمالهم (١) » و امتنع عن سبيل الحقّ بسوء اختياره و كفره أو صدّ غيره عن الإيمان على المعلوميّة .

[و ما كيد فرعون إلّا في تباب] أي وما كيد فرعون في إبطال آيات موسى إلّا في هلاك وخسار لاينفعه و قرأ صاحب الكشّاف « وزيّن له سوء عمله » على المعلوم فالمزيّن هو الشيطان و سوء العمل بخلاف ما قاله المجبّرة .

[و قال الّذين آمن ياقوم اتّبعون أهدكم سبيل الرشاد] ثمّ عاد الكلام إلى ذكر نصيحة آل فرعون و الكلام من بقيّة كلام الّذي آمن من آل فرعون و قد كان يدعوهم إلى الإيمان بموسى و قيل : إنّ القائل موسى يا قوم اتّبعوني حتّى تهتدون طريق الحقّ وهو الإيمان بالله فقال ابتداءً على سبيل الإجمال : « يا قوم اتّبعون أهدكم سبيل الرشاد » .

ثمّ بيّن على سبيل التفصيل و بيّن حال حقارة الدنيا و عظّم كمال حال الآخرة

(١) الانعام : ٤٣ .

فقال : [يا قوم إنّما هذه الحياة الدنيا متاع] أي يستمتع بهذه الحياة الدنيا في أيّام قلائل ثمّ تنقطع وتزول [و إنّ الآخرة هي دار القرار] و البقاء و الدوام خيراً من المنقضي قال بعض العارفين : لوكانت الدنيا ذهباً فانياً و الآخرة خزفاً باقياً كانت الآخرة خير من الدنيا فكيف و الدنيا خزف فان و الآخرة ذهب باق و كما أنّ النعيم في الآخرة باق فكذلك العذاب فيها دائم و الترغيب وقع في قوله بالنعيم الدائم و الترهيب عن العذاب الدائم و هو من أقوى وجوه الموعظة .

ثمّ بيّن حصول الجزاء في الآخرة ثواباً كان أو عقاباً فقال : [من عمل سيّئة فلا يجزى إلّا مثلها] و المراد بالمثل ما يقابلها في الاستحقاق .

فإن قيل : كيف يصحّ هذا الكلام مع أنّ كفر ساعة يوجب عقاب الأبد ؟

قلنا : إنّ الكافر يعتقد في كفره كونه طاعة و إيماناً فلهذا السبب يكون الكافر على عزم أن يبقى مصرّاً على الكفر أبداً فلاجرم كان عقابه مؤبّداً بخلاف الفاسق فإنّه يعتقد فيه كونه خيانة و معصية فيكون على عزم أن لا يبقى مصرّاً عليه فلا جرم يكون عقاب الفاسق منقطعاً و العزم على الإتيان بها أيضاً ليس دائماً فوقعت المماثلة و هذه الآية أصل كبير في علوم الشريعة فوجب رعاية المماثلة في الأحكام إلّا في مواضع التخصيص كما أنّ هذا الأصل جار في الأحكام الكثيرة مثل باب الجنايات على النفوس و على الأعضاء وعلى الأموال و على العبادات .

فلمّا بيّن أنّ جزاء السيّئة مقصور على المثل بيّن أنّ جزاء الحسنة غير مقصور على المثل بل هو خارج عن الحساب فقال : [و من عمل صالحاً من ذكر أو اُنثى وهو مؤمن فاُولئك يدخلون الجنّة يرزقون فيها بغير حساب] و فيه إشارة إلى أنّ جانب الرحمة غالب على جانب العقاب و قوله : « و من عمل صالحاً » نكرة في معرض الشرط في جانب الإثبات فمعنى الآية: إنّ كلّ من عمل صالحاً وكان مواظباً على التوحيد ولم يخرج من حدّ الإيمان فإنّه يدخل الجنّة و يرزق فيها بغير حساب أي زيادة على ما يستحقّونه تفضّلاً من الله و لو كان على مقدار العمل فقط لكان بحساب و لكنّ المعتزلة تقول : إنّ صاحب الكبيرة عندنا ليس بمؤمن ولا يدخل في هذا الوعد .

قوله تعالى : و يا قوم مالي أدعوكم الى النجاة و تدعونني الى النار (٤١) تدعونني لاكفر بالله و اشرك به ما ليس لي به علم و أنا أدعوكم الى العزيز الغفار (٤٢) لاجرم أنما تدعونني اليه ليس له دعوة في الدنيا و لا في الاخرة و ان مردنا الى الله و ان المسرفين هم أصحاب النار (٤٣) فستذكرون ما أقول لكم و أفوض أمري الى الله ان الله بصير بالعباد (٤٤) فوقه الله سيئات ما مكروا و حاق بآل فرعون سوء العذاب (٤٥) النار يعرضون عليها غدواً و عشياً و يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب (٤٦) .

ثمّ استأنف ذلك المؤمن و نادى :

[يا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة] أي أنا أدعوكم إلى الإيمان الّذي يوجب النجاة [و تدعونني إلى] الكفر الّذي يوجب [النار] و معنى « مالي » أي مالكم كما يقول الرجل : مالي أراك حزيناً معناه مالك حزيناً .

ثمّ فسّر الدعوتين بقوله : [و تدعونني لأكفر بالله و اُشرك به ما ليس لي به علمٌ] و لا يجوز حصول العلم به إذ لايجوز قيام الدلالة على إثبات شريك لله لامن طريق السمع ولا من طريق العقل [وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفّار] أي إلى عبادة القادرالّذي يعذّب و يغفر .

قوله : [لاجرم] أي لاقطع ولاانقطاع لبطلان دعوة الأصنام ولاتزال باطلة ولاينقطع ذلك فينقلب حقّاً وحاصل معنى « لاجرم » في الآية أي كما أنّ معنى لابدّ لك أن تفعل كذا أنّه لابدّ لك من فعله فكذلك لاجرم أنّ دعوتهم باطلة و غير حاصلة ولاقطع لذلك و أنّهم أبداً يستحقّون النار ولاانقطاع لاستحقاقهم أو بمعنى كسب بمعنى أنّه ما كسب من دعوة الأصنام إلّا ظهور بطلان الدعوة و الأوثان الّتي تدعونني إلى عبادتها ليس لها دعوة في الدنيا ولا في الآخرة لأنّها جمادات و الجمادات لاتدعو أحداً إلى عبادة نفسها أو ليس لها استجابة دعوة في الدنيا و لافي الآخرة فسمّيت استجابة الدعوة بالدعوة .

ثمّ قال : [و أنّ مردّنا إلى الله] و ارتجاعنا إلى الله و إنّ هذه الأصنام لافائدة

فيها البتّة وأيّ عاقل يترك عبادة الله الّذي هو قادر على كلّ شيء ويعبد مالا يدعو و لايستجيب ولايسمع ولايبصر ولاينفع ولايضرّ ؟

[و إنّ المسرفين هم أصحاب النار] قال قتادة : يعني المشركين و قال مجاهد : السفّاكين للدماء أي ووجب أنّ المسرفين الّذين أسرفوا على أنفسهم بالشرك وسفك الدماء بغير حقّها إنّهم يلازمون النار .

وقال لهم على وجه التخويف والموعظة [فستذكرون ما أقول لكم] أي فستعلمون صحّة ما أقول لكم إذا حصلتم يوم القيامة في العذاب أو المعنى فستذكرون عند نزول العذاب بكم صحّة ماقلته لكم من النصيحة .

[و اُفوّض أمري إلى الله] و أتوكّل عليه و اُسلّم له أمري و الأمر اسم جنس [إنّ الله بصير بالعباد] عالم بأحوالهم و يستنبط من هذا الكلام أنّ مؤمن آل فرعون قد هدّد بأمر يخافه و إنّما تعلّم هذه الطريقة من موسى عليه السلام فإنّ فرعون لمّا خوّفه بالقتل قال : « إنّي عذت بربّي و ربّكم من كلّ متكبّر لايؤمن بيوم الحساب » و هذا آخر كلام مؤمن آل فرعون .

قوله تعالى : [فوقاه الله سيّئات ما مكروا] أي صرف الله عنه سوء مكرهم فنجا مع موسى حتّى عبر البحر معه و قيل : إنّهم همّوا بقتله فهرب إلى جبل فبعث فرعون رجلين في طلبه فوجداه قائماً يصلّي و حوله الوحوش صفوفاً فخافا و رجعا هاربين و قيل : المراد من قوله : « فوقاه الله سيّئات ما مكروا » أنّهم قصدوا إدخاله في الكفر فوقاه الله عن ذلك لكنّ القول الأوّل أليق لأنّ قوله : [و حاق بآل فرعون سوء العذاب] يؤيّد معنى الأوّل أي أحاط بهم الغرق في البحر أو المراد النار المذكورة في قوله : « النار يعرضون عليها » قال الزجّاج : النار بدلٌ من قوله : « سوء العذاب » .

[النار يعرضون عليها غدوّاً و عشيّاً] أي يعرض آل فرعون على النار في قبورهم صباحاً و مساء و الآية تقتضي عرض النار عليهم غدوةً و عشيّاً من قولهم : عرض الاُسارى على السيف إذا قتلوا به و ليس المراد منه يوم القيامة لأنّه قال : [و يوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب] وليس المراد أنّ هذا العرض في الدنيا فثبت أنّ هذا العرض

إنّما حصل بعد الموت و قيل : يوم القيامة و ذلك يدلّ على إثبات عذاب القبر في حقّ هؤلاء و إذا ثبت في حقّهم ثبت في حقّ غيرهم لأنّه لاقائل بالفرق لأنّ حصول هذا العذاب إنّما وقع على آل فرعون لجحودهم و كفرهم فالعذاب أيضاً حاصل كما أنّهم احتجّوا بهذه الآية على إثبات عذاب القبر و المراد من الغداة و العشيّ مع أنّ في القبر ليس لهم غداة و عشيّ وقت الغداة و العشيّ أي في مثل هذا الزمانين تعرض النار عليهم فيعذّبون بها ويمكن أن يكون المعنى والمراد دوام العذاب و كناية عن ثبوته كقوله : « ولهم رزقهم فيها بكرةً وعشيّاً»[1] .

و عن نافع عن ابن عمر أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنّ أحدكم إذا مات عرض عليه مقعده بالغداة و العشيّ إن كان من أهل الجنّة فمن الجنّة و إن كان من أهل النار فمن النار يقال له : هذا مقعدك حين يبعثك الله يوم القيامة أورده البخاريّ ومسلم في الصحيح وقال أبوعبدالله ذلك في الدنيا قبل يوم القيامة لأنّ في نار القيامة لايكون غدوّ و عشيّ و لكن هذا في نار البرزخ قبل يوم القيامة .

قوله : [أدخلوا آل فرعون أشدّ العذاب] و هذا الأمر لآل فرعون بالدخول أو أمر للملائكة بإدخالهم في جهنّم باختلاف القراءة في القطع و الوصل في باب الفعل .

قوله تعالى : و اذ يتحاجون فى النار فيقول الضعفاء الذين استكبروا انا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغنون عنا نصيبامن النار (٤٧) قال الذين استكبروا انا كل فيها ان الله قدحكم بين العباد (٤٨) قال الذين فى النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب (٤٩) قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا ومادعاء الكافرين الا فى ضلال (٥٠) .

المعنى : لمّا انجرّ الكلام إلى شرح أحوال النار ذكر عقيبها المناظرات الّتي تجري بين الرؤساء و الأتباع من أهل النار فقال سبحانه :

[و إذ يتحاجّون] أي فاذكر يا محمّد لقومك الوقت الّذي يتخاصم الرؤساء والأتباع [فيقول الضعفاء] وهم الأتباع [للّذين استكبروا] و هم الرؤساء [إنّا كنّا لكم] معاشر

(١) مريم : ٦٢ .

الرؤساء [تبعاً] وكنّا نمتثل أمركم ونجيبكم إلى ما تدعوننا إليه [فهل أنتم مغنون عنّا نصيباً من النار] لأنّه من شأن الرئيس الدفع عن أتباعه فهل أنتم حاملون عنّا قسطاً من النار والعذاب الّذي نحن فيه ؟

[قال الّذين استكبروا إنّا كلّ فيها] أي نحن وأنتم في النار و مجتمعون فيها [إنّ الله قدحكم بين العباد] بذلك وبأن لايتحمّل أحدٌ عن أحد وإنّه يعاقب من أشرك به وعبد معه غيره لامحالة فلو قدرنا على إزالة العذاب عنكم لدفعناه عن أنفسنا ثمّ عندهذا يحصل اليأس للأتباع من المتبوعين فيرجعون إلى خزنة جهنّم .

[قال الّذين في النار لخزنة جهنّم] فيستغيثون بخزنتها [ادعوا ربّكم يخفّف عنّا يوماً من العذاب] فتقول الملائكة لهم : [أولم تك تأتيكم رسلكم بالبيّنات] أو لم تكن القصّة والحال تأتيكم رسلكم بالحجج على صحّة التوحيد فكفرتم و عاندتم حتّى استحققتم هذا العذاب [قالوا بلى] جاءنا الرسل والبيّنات فكذّبنا هم وجحدناهم نبوّتهم [قالوا] أي قالت الخزنة : [فادعوا] أنتم فإنّا لا ندعو إلّا بإذن و لم يؤذن لنا فيه و قيل : فادعوا بالويل والثبور [و ما دعاء الكافرين إلّا في ضلال] أي في ضياع لأنّه لا ينفع و الفاء في قوله . « فادعوا » فصيحة مثل قوله : فقد جئنا خراساناً .

و المراد من الملائكة حيث قالوا للكفّار : فادعوا إقناط الكفّار عن الإجابة لأنّهم يعلمون أنّ هذا الدعاء و إجابته ليس في خيّر الإمكان و ليس مراد الملائكة إطماع الكفّار في الاستجابة .

قوله تعالى : انا لننصر رسلنا و الذين امنوا فى الحيوة الدنيا و يوم يقوم الاشهاد (٥١) يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار (٥٢) و لقد آتينا موسى الهدى و اورثنا بنى اسرائيل الكتاب (٥٣) هدى و ذكرى لاولى الالباب(٥٤) فاصبر ان وعدالله حق وسبح بحمد ربك بالعشى والابكار(٥٥) .

في النظم لمّا ذكر سبحانه و قايته لموسى عليه السلام وذلك المؤمن من مكر فرعون عقّبه ببيان أنّه تعالى ينصر رسله والمؤمنين فقال :

[إنّا لننصر رسلنا] أي إنّ شأننا المستمرّ أن ننصر رسلنا و أتباعهم [في الحياة

الدنيا] تارة بالانتقام والظفر عليهم وتارة بالعذاب الاستيصال على أعدائهم و تارة بالحجّة و الدلائل و لا يقدح في ذلك ما قد يتّفق لهم من صورة الغلبة للكفّار امتحاناً إذ العبرة إنّما هي بالعواقب .

[و يوم يقوم الأشهاد] أي يوم يقوم القيامة عند جمع الأوّلين و الآخرين والمراد « بالأشهاد» كلّ من يشهد أعمال العباد في ذلك اليوم من ملك ونبيّ و مؤمن قال المبرّد : يجوز أن يكون واحد الأشهاد شاهد كأطيار وطائر ويجوز أن يكون واحد الأشهاد شهيد كأشراف وشريف وأيتام ويتيم .

[يوم لاينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار] و قرىء بالتاء «لاتنفع» المعنى إنّ ذلك اليوم كما أنّه حصلت النصرة و السعادة للرسل و المؤمنين حصلت الشقاوة للظالمين بأمور ثلاثة أحدها لا يقبل منهم عذر و الثاني أنّ اللعنة مقصورة عليهم و هي الإهانة و الإذلال و اليأس و الثالث سوء الدار و هو العقاب الشديد .

فإن قيل : إنّ قوله : « يوم لا ينفع الظالمين » يدلّ على أنّهم يذكرون الأعذار إلّا أنّ الأعذار لاتنفعهم فكيف الجمع بين هذا وبين قوله : « ولايؤذن لهم فيعتذرون (١) » .

فالجواب أنّ قوله : «لاينفع الظالمين معذرتهم» لايدلّ على أنّهم ذكروا الأعذار بل يدلّ على أنّ عذرهم غير مقبول ولايدلّ على أنّهم ذكروا أم لم يذكروا . ثمّ إنّ يوم القيامة يوم طويل فيعتذرون في وقت ولايعتذرون في وقت .

قوله : [و لقد آتينا موسى الهدى] الآية و لمّا ذكر نصرة الرسل والمؤمنين ذكر نوعاً من أنواع النصرة بإتيان موسى التوراة و المراد ما آتاه الله من العلوم الكثيرة النافعة في الدنيا و الآخرة و النبوّة الّتي هي أعظم المناصب .

ثمّ قال سبحانه : [و لقد آتينا موسى الهدى و أورثنا بني إسرائيل الكتاب هدى و ذكرى لأُولي الألباب] أي و أورثنا من بعد موسى بني إسرائيل التوراة و ما فيه هداية ودلالة يعرفون بها معالم دينهم وتذكير لأهل العقل لأنّهم الّذين يتمكّنون من الانتفاع به دون من لاعقل له وتوارثوه خلفاً عن سلف ويمكن أن يكون المراد من الكتاب الكتب

(١) المرسلات : ٣٦ :

الّتي أنزلها الله على أنبياء بني إسرائيل التوراة و الزبور و الإنجيل و الفرق بين الهدى و الذكرى أنّ الهدى ما يكون دليلاً على الشيء و ليس شرطه أن يذكر شيئاً آخر كان معلوماً ثمّ صار منسيّاً و أمّا الذكرى فهي الّذي يكون كذلك فكتب السماويّة كلّها مشتملة على هذين القسمين بعضها دلائل في أنفسها و بعضها مذكّرات .

ثمّ خاطب نبيّه صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال : [فاصبر] يا محمّد و تحمّل المشاقّ في تكذيبهم إيّاك و احتمل أذى قومك [إنّ وعدالله حقّ] أي ما وعدك من النصر في الدنيا و الثواب في الآخرة فالله ناصرك كما نصرهم ثمّ أمره بأن يقبل على طاعة الله النافعة في الدنيا والآخرة .

و اعلم أنّ مجامع الطاعات محصورة في قسمين : التوبة عمّا لا ينبغي و الاشتغال بما ينبغي والأوّل مقدّم على أنّ التخلية مقدّمة على التحلية بحسب الرتبة الذاتيّة فوجب أن يكون مقدّماً في الذكر و لو أنّ المراد اُمّته لأنّه صلّى الله عليه وآله وسلّم ماصدر عنه مكروه فضلاً من غير جائز .

أمّا التوبة عمّا لا ينبغي فهو قوله تعالى : [و استغفر لذنبك] والمقصود التأدّب و التعبّد من الله في حقّه لمزيد الدرجات ، و لتصير سنّة لمن بعده ولإظهار خضوعه في العبوديّة لا أنّه صدر منه الذنب بل تعليم للدعاء والاستغفار .

و أمّا الاشتغال بما ينبغي فهو قوله : [و سبّح بحمد ربّك بالعشيّ و الأبكار] و التسبيح عبارة عن كلّ مالا يليق به و العشيّ و الأبكار قيل : صلاة العصر وصلاة الفجر و قيل : المراد من العشيّ من النصف إلى آخر النهار و الأبكار عبارة عن أوّل النهار إلى النصف و قيل : المراد طرفي النهار و قيل : الأبكار من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس قال ابن عبّاس : يريد صلوات الخمس وقيل : المراد من الآية صلّ لهذين الوقتين إذا كان الواجب بمكّة ركعتين بكرة و ركعتين عشيّاً .

قوله تعالى : ان الذين يجادلون فى آيات الله بغير سلطان اتاهم ان فى صدور هم الا كبر ماهم ببالغيه فاستعذ بالله انه هو السميع البصير (٥٦) لخلق السموات والارض اكبر من خلق الناس ولكن اكثر الناس لايعلمون(٥٧) و ما يستوى الاعمى والبصير و الذين آمنوا و عملوا الصالحات ولاالمسيء

قليلا ما يتذكرون (٥٨) ان الساعة آتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لايؤمنون (٥٩) .

لمّا ذكر في أوّل السورة حال المجادلين و المكذّبين بآيات الله واتّصل البعض بالبعض في النسق نبّه سبحانه في هذه الآية على الداعية الّتي تحمّل اُولئك الكفّار على المجادلة فقال :

[إنّ الّذين يجادلون في آيات الله بغير] حجّة و دليل إنّما يحملهم على هذا الجدال الباطل الكبر الّذي في صدورهم و هو يحملهم على الباطل و ذلك الكبر هوأنّهم لو سلّموا نبوّتك لزمهم أن يكونوا تحت أمرك و نهيك و في صدورهم كبرٌ لايرضون أن يكونوا تحت يدك .

ثمّ قال : [ماهم ببالغيه] أي إنّهم يريدون أن لا يكونوا تحت يدك و طاعتك لكن لا يصلون إلى هذا المراد بل لا بدّ و أن يصيروا تحت أمرك ونهيك .

ثمّ قال : [فاستعذ بالله] أي فالتجىء إليه من كيد من يجادلك [إنّه هوالسميع] بمايقولون أو تقول [البصير] بما تعمل و يعملون .

قوله تعالى : [لخلق السماوات و الأرض أكبر من خلق الناس ولكنّ أكثر الناس لا يعلمون] و تقرير هذا الكلام أنّ الاستدلال بالشيء على غيره على ثلاثة أقسام أحدها أن يقال : لمّا قدر على الأضعف وجب أن يقدر على الأقوى و هذا فاسد و ثانيها أن يقال : لمّا قد على الشيء قدر على مثله فهذا صحيح لما ثبت في العقول أنّ حكم الشيء حكم مثله و ثالثها أن يقال : لمّا قدر على الأقوى الأكمل فبأن يقدر على الأقلّ الأرذل كان أولى و هذا الاستدلال في غاية الصحّة و القوّة .

ثمّ إنّ هؤلاء القوم يسلّمون أنّ خالق السماوات و الأرض هو الله و يعلمون بالضرورة أنّ خلق السماوات و الأرض أكبر من خلق الناس فكان من حقّهم أن يقرّوا بأنّ القادر على خلق السماوات و الأرض يكون على إعادة الإنسان الّذي خلقه بدواً و أوّلاً فهذا برهان جليّ في إفادة المطلوب و مع ذلك أكثرهم لايعقلون ولايعلمون .

و لمّا بيّن سبحانه بهذا التقرير الجدال المقرون بالبرهان و الجدال المقرون بالكبر و الجهل فرّق بين البابين بذكر المثال فقال : [و ما يستوي الأعمى و البصير]

أي ما يستوي المهتدي و الضالّ و المستدلّ و الجاهل [و الّذين آمنوا و عمل الصالحات و لا المسيء قليلاً ما يتذكّرون] قرئ بالياء و التاء أي و كذلك لا يستوي المؤمنون العاملون الصالحون و لا الكافر الفاسق في الكرامة و الإهانة فذلك يستحقّ الكرامة وهذا يستحقّ الإهانة و مع ذلك قليلاً يتذكّرون الناس و قلّ نظرهم فيما ينبغي لهم و ما مزيدة مؤكّدة أو مصدريّة فيكون تقديره قليلاً تذكّرهم .

قوله تعالى : [إنّ الساعة آتية لاريب فيها] و لمّا قرّر سبحانه الدليل على إمكان وجود القيامة أخبر وقوعها فقال : إنّها آتية من غير ريب [ولكنّ] أكثرهم لايصدّقون بها لقصور أنظارهم على ظواهر ما يحسّون به و لجهلهم وشكّهم بإخبار الله .

قوله تعالى : و قال ربكم ادعونى استجب لكم ان الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين (٦٠) .

ولمّا قرّر سبحانه القول بالقيامة بأنّه حقّ وصدق وكان من المعلوم أنّ الإنسان لاينتفع في يوم القيامة إلّا بطاعة الله و لمّا كان أشرف أنواع الطاعات الدعاء و التضرّع و المسألة أمر الله به بقوله : [ادعوني أستجب لكم] إذا اقتضت المصلحة إجابتكم و كلّ من يسأل الله شيئاً و يدعوه فلابدّ أنّ يشترط المصلحة في ذلك و هذا القيد مضمر في الكلام و إلّا يلزم أن يصدر منه قبيح تعالى عن ذلك لأنّه ربّما كان داعيا بما يكون فيه مفسدة .

وقيل : معنى «ادعوني» أي اُعبدوني بدليل أنّه قال بعده : «إنّ الّذين يستكبرون عن عبادتي » و لولا أنّ الأمر بالدعاء أمرٌ بمطلق العبادة لما بقي لقوله : « إنّ الّذين » معنى و أيضاً الدعاء بمعنى العبادة كثيرٌ في القرآن كقوله : « إن يدعون من دونه إلّا إناثاً » و اُجيب عنه بأنّ الدعاء هو اعتراف بالعبوديّة و الذلّ و المسألة فكأنّه قيل : إنّ تارك الدعاء إنّما تركه لأجل أن يستكبر عن إظهار العبوديّة وأيضاً اُجيب عن قوله : إنّ الدعاء بمعنى العبادة كثيرٌ في القرآن بأنّ ترك الظاهر لا يصار إليه إلّا بدليل منفصل فحينئذ المعنى على ظاهره وهو معنى الدعاء .

فلو قيل : إنّكم قلتم قد شرط المصلحة في الإجابة فإذا كانت الإجابة مصلحة فما هو فيه صلاح فهو سبحانه يفعله سواء دعوتم أو لاتدعون فلافائدة في الدعاء .

فالجواب أنّ الدعاء هو اعتراف بالعبوديّة ومحقّق معناها فلو كانت الإجابة ممتنعة لعدم المصلحة فإيقاع العبوديّة حاصلة وهو أصل المطلوب .

و في المسألة بيان آخر و هو أنّه سبحانه قال : « ادعوني أستجب لكم » و لعلّ العبد يدعو بدعاء ليس فيه أمر يقتضي عدم المصلحة في الحكمة وليس فيه أمر يقتضي إيجابه وجوباً في الحكمة مثل أن يدعو أمراً ينفعه و لا يكون فيه ضرر في الحكمة لكن لا يستجاب لأنّه ما دعى الله بالقلب بل دعاه باللسان لأنّ من دعا الله و في قلبه ذرّة من الاعتماد على ماله وجاهه وأصدقائه وجدّه واجتهاد فهو مادعا الله في الحقيقة خالصاً وفي الجملة في تحصيل ذلك المطلوب معوّل على غير الله فلذلك لا يستجاب له .

في الكافي عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال : هو الدعاء و أفضل العبادة الدعاء و عنه عليه السلام إنّه سئل أيّ العبادة أفضل فقال : ما من شيء أفضل عند الله من أن يسأل و يطلب ما عنده و ما أحد أبغض إلى الله عزّ وجلّ ممّن يستكبر عن عبادته و لا يسأل ما عنده .

و عن الصادق عليه السلام ادع ولا تقل: قد فرغ من الأمر فإنّ الدعاء هو العبادة إنّ الله يقول وتلا هذه الآية وفي الصحيفة السجّاديّة بعد ذكر هذه الآية : فسمّيت دعاءك عبادة والشرك استكباراً وتوعّدت على تركه دخول جهنّم داخرين .

و روى معاوية بن عمّار قال : قلت لأبي عبدالله : جعلني الله فداك ما تقول في رجلين دخلا المسجد وكان أحدهما أكثر صلاةً والآخر أكثر دعاءً فأيّهما أفضل قال : كلّ حسن قلت : قد علمت ولكن أيّهما أفضل قال عليه السلام : أكثرهما دعاءً أما تسمع قول الله : « ادعوني أستجب لكم » وقال : هي العبادة الكبرى .

وروى زرارة عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال : هو الدعاء و أفضل العبادة الدعاء .

فإن قيل : كيف الجمع بين هذه البيانات وهذه الرواية عن رسول الله حكاية عن ربّ العزّة إنّه تعالى قال : من شغله ذكري عن مسألتي أعطيته أفضل ما أُعطي السائلين قلنا إنّ العبد إذا كان مستغرقاً في ثناء الله و آلائه بحيث يمنعه ذلك الاستغراق و التذكّر عن المسألة ذلك أفضل أقسام العبادة و الدعاء و هو حقيقة الدعاء و الدعاء غير منفكّ عنه

النهاية إنّ المستغرق لايطلب و لايسأل حظّاً غير هذا الحظّ العظيم انتهى .

الله الذى جعل لكم الليل لتسكنوا فيه و النهار مبصرا ان الله لذو فضل على الناس و لكن أكثر الناس لايشكرون (٦١) ذلكم الله ربكم خالق كل شيء لا اله الا هو فأنى تؤفكون (٦٢) كذلك يؤفك الذين كانوا بآيات الله يجحدون (٦٣) اللهالذى جعل لكمالارض قرارا والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم و رزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين(٦٤) هو الحى لا اله الا هو فادعوه مخلصين له الدين الحمد لله رب العالمين (٦٥) .

و لمّا أمرالله الناس بالدعاء فلابدّ وأن يكون الداعي مسبوقاً بحصول المعرفةفذكر فيهذه الآية الدلائل على وجوده وقدرته فذكرمن الدلائل الآفاقيّة والفلكيّة مثلتعاقب الليل والنهار فقال :

[الله الّذي جعل لكم] معاشر الخلق [الليل] و هو ما بين غروب الشمس إلى طلوع الفجر [لتسكنوا فيه] في وقت الليل و تستريحون من كدّ النهار و تعبه [والنهار مبصراً] أي و جعللكم النهار مضيئاً تبصرونفيه مواضع حاجاتكم ولولا الإبصار لماحصل مكنة التصرّف في الأمور على الوجه الأنفع كما أنّ لولا السكون في الليل لماتخلّصت الأعضاء من الأعياء والليل بارد رطب فبرودته ورطوبته يتداركان ما حصل في النهار من الحرارة والجفاف بسبب ماحدث من كثرة الحركات .

فإن قيل : إنّ الموافق لرعاية البيان أن يقال : «لتبصروا» كما قال : « لتسكنوا» وأيضاً فما الحكمة في تقديم ذكرالليل مع أنّ النهار أشرف منالليل ؟

فالجواب أنّ الليل والنوم في الحقيقة طبيعة عدميّة فيالجملة فهو غير مقصودلأنّ الظلمة طبيعة عدميّة و النور طبيعة وجوديّة والعدم في المحدثات مقدّم على الوجود كما قال سبحانه : « و جعل الظلمات والنور » . و أمّا الجواب عن صيغة الاسم قال الشيخ عبد القاهرالنحويّ في دلائلالإعجاز : إنّ دلالة صيغة الاسم علىالكمال أقوى من دلالة صيغة الفعل عليها فهذا هو السبب في هذا البيان .

و بعد أن شرح سبحانه هاتين النعمتين من المصالح قال : [إنّ الله لذوفضل على

الناس و لكنّ أكثر الناس لايشكرون] ونظيره قوله : « وقليل من عبادي الشكور [١] » و قال إبليس : « ولا تجد أكثرهم شاكرين [٢] » .

ولمّا بيّن الله الدلائل المذكورة على وجوده و قدرته قال : [ذلكم الله ربّكم خالق كلّ شيء لاإله إلّاهو] قال صاحب الكشّاف : ذلكم المعلوم المميّز بالأفعال الخاصّة الّتي لايشاركه أحد فيها « هو الله ربّكم خالق كلّ شيء » أخبار مرادفة أي هو الجامع لهذه الأوصاف من الالهيّة و الربوبيّة و الخلق و أنّه لاثاني له [فأنّى تؤفكون] أي أنّى تصرفون و لمَ تعدلون عن هذه الدلائل وتكذّبون بها ومعنى «أنّى» كيف .

ثمّ قال : [كذلك] أي مثل ما صرف وأفك وانقلب هؤلاء [يؤفك الّذين كانوابآيات الله يجحدون] ومثل ذلك الافك العجيب الّذي لاوجه له يؤفك كلّ من جحد بآياته و يؤفك كما أفكوا وهم من تقدّمهم من الكفّار صرفهم أكابرهم و رؤساؤهم .

ثمّ عاد سبحانه إلى ذكر الدليل على توحيده فقال : [الله الّذي جعل لكم الأرض قراراً] مستقرّاً تستقرّون فيها وهي منزلكم في حال الحياة و بعد الممات [و السماءبناءً] كالقبّة المضروبة على الأرض قائمة ثابتة وإلّا لوقعت علينا و جعل السماء مرتفعاً ولوجعلها رتقاً مع الأرض لما أمكن الانتفاع للخلق بما بينهما .

[وصوّركم فأحسن صوركم]لأنّ صورة بني آدم أحسن صور الحيوان قال ابن عبّاس : خلق ابن آدم قائماًمعتدلاً يأكل بيده ويتناول بيده وغيره يأكل بفيه بادي البشرة ولذلك سمّي بشراً منتصب القامة متناسب الأعضاء متهيّئين لاكتساب الصنايع والكمالات .

[ورزقكم من الطيّبات] لأنّه ليس شيء من الحيوان له طيّبات المآكل والمشارب مثل ما خلق الله سبحانه لابن آدم لأنّ له أنواع الطيّبات و اللذّات من الثمار و فنون النبات واللحوم والدسوم بمالايحصى كثرةً .

[ذلكم الله ربّكم] أي خالق هذه الأشياء والمنعوت بهذه النعوت ربّكم [فتبارك الله ربّ العالمين] أي جلّ الله وإنّه الدائم الثابت الّذي لم يزل ولايزال .

---

(١) سبأ : ١٣ .

(٢) الاعراف : ١٦ .

[هو الحيّ] على الإطلاق من غير علّة وسبب و فاعل المتفرّد بالحياة الذاتيّة [لا إله إلّا هو] إذ لا موجود يدانيه في ذاته و صفاته و أفعاله [فادعوه] ولا تدعوا غيره واعبدوه [مخلصين له الدين] في دعائه وعبادته خاصّة من غير أن تشار كوامعه أحداً في العبادة و الدعاء [الحمد لله ربّ العالمين] قال الفرّاء : وهو خبر و في الكلام إضمار أي احمدوه على هذه النعم وقولوا: الحمد لله ربّ العالمين أو المعنى اعبدوه مخلصين له الدين قائلين الحمد لله ربّ العالمين عن ابن عبّاس قال : من قال : لا إله إلّا الله فليقل على أثرها الحمد لله ربّ العالمين يريد قول الله : مخلصين له الدين الحمد لله ربّ العالمين .

قوله تعالى : قل انى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله لما جاءنى البينات من ربى وامرت أن اسلم لرب العالمين (٦٦) هو الذى خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلا ثم لتبلغوا أشد كم ثم لتكونوا شيوخا ومنكم من يتوفى من قبل ولتبلغوا أجلا مسمى و لعلكم تعقلون (٦٧) هو الذى يحيى ويميت فاذا قضى أمرآ فانما يقول له كن فيكون (٦٨) الم تر الى الذين يجادلون فى آيات الله أنى يصرفون (٦٩) الذين كذبوا بالكتاب و بما ارسلنا به رسلنا فسوف يعلمون (٧٠) .

ثمّ أمر سبحانه نبيّه فقال :

[قل] يا محمّد : [إنّي نهيت أن أعبد] معبود كم الّذين تعبدونهم فأدّب المشركين بألين قول ليصرفهم عن عبادة الأوثان وبيّن أنّ وجه النهي في ذلك ماجاءه من البيّنات من صفات القدرة والخلق والرزق وصريح العقل يحكم بأنّ العبادة لا يليق إلّا لمن هو موصوف بهذه وأنّ جعل المنحوتة والخشب المصوّرة شركاء له في المعبوديّة مستنكر في بداهة العقل .

[واُمرت أن اُسلم لربّ العالمين] أي أستسلم لأمر ربّ العالمين الّذي يملك تدبير الخلائق والعوالم .

ثمّ عاد في ذكر الأدلّة فقال : [هو الّذي خلقكم من تراب] خلق أصلكم من تراب وأنتم نسله وتنتمون إليه أو أنّ مادّة نطفكم من التراب لأنّ مادّة النطفة من الغذاء و الغذاء إمّا من الحيوان أو من النبات و كلاهما من التراب [ثمّ من نطفة] أي ثمّ أنشأ من ذلك الأصل الّذي كان مخلوقاً من التراب النطفة وهي الماء القليل من الرجل و المرأة [ثمّ من

علقة] وهي قطعة من الدم ثمّ بعد كونه علقة مراتب إلى أن ينفصل من بطن اُمّه و ترك ذكرها لأجل أنّه ذكرها في سائر الآيات .

[ثمّ يخرجكم طفلاً]أي أطفالاً والطفل للواحد و الجماعة قال الله تعالى : « أو الطفل الّذين لم يظهروا على عورات النساء(١) » [ثمّ لتبلغوا أشدّكم] وههنا تقدير أي يبقيكم لتبلغوا أشدّكم وتكملوا [ثمّ لتكونوا شيوخاً] بعد ذلك .

[ومنكم من يتوفّى من قبل] أن يصير شيخاً ومن قبل أن يبلغ أشدّه [ولتبلغوا أجلاً مسمّى] وليبلغ كلّ واحد منكم ماسمّي له من الأجل الّذي يموت عنده يفعل ذلك وقيل : هذا للقرن الّذي يقوم عليهم القيامة والأجل المسمّى هو القيامة على هذا القول [ولعلّكم تعقلون] وتعتبرون وتعرفون خالقكم ومعبودكم .

[هو الّذي يحيي و يميت] أي من خلقكم من تراب على هذه الأوصاف المذكورة و أحياكم هو الّذي يميتكم فأوّلكم من تراب و آخركم إلى تراب [فإذا قضى أمراً فإنّما يقول له كن فيكون] أي يفعل ذلك من غير أن يتعذّر عليه و يمتنع له أمر أراده و حكم عليه فهو بمنزلة ما يقال له كن فيكون لأنّه يخاطب المعدوم بالتكوّن في عالم الأمر .

فاستدلّ سبحانه بهذه الصفات على كمال القدرة وعبّر عن الإحياء والإماتة بقوله : « كن فيكون » أي الانتقال من كونه تراباً إلى نطفة إلى كونه علقة و عظاماً في هذه الانتقالات بحسب الحكمة تحصل على التدريج قليلاً قليلاً و أمّا تعلّق جوهر الروح به فذلك يحدث دفعة واحدة و إنّ تلك المراتب من عالم الخلق و هذه المرتبة من عالم الأمر فلذلك وقع التعبير عنه بقوله : « كن فيكون » .

قوله تعالى : [ألم تر إلى الّذين يجادلون في آيات الله أنّى يصرفون * الّذين كذّبوا بالكتاب و بما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون] يعني المشركين الّذين يخاصمون في إبطال حجج الله كيف يقلبون عن الطريق المستقيم إلى الضلال ثمّ قال هدّدهم سبحانه بالّذين كذّبوا بالقرآن و جحدوه و لم يقلبوا ما في كتب رسلنا و كذّبوهم بأنّ عن قريب

(١) النور : ٣١ .

يعلمون عاقبة أمرهم إذا حلّ بهم و بال ما جحدوا فيعرفون حينئذ أنّ ما دعوتهم إليه حقّ و ما ارتكبوه ضلال و فساد .

قوله تعالى : اذالاغلال فى اعناقهم و السلاسل يسحبون (٧١) فى الحميم ثم فى النار يسجرون (٧٢) ثم قيل لهم اينما كنتم تشركون (٧٣) من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً كذلك يضل الله الكافرين (٧٤) ذلكم بما كنتم تفرحون فى الارض بغير الحق و بما كنتم تمرحون (٧٥).

« الأغلال» جمع غلّ و هو طوق يدخل العنق فيه للذلّ و الألم و أصله الدخول يقال : انغلّ العنق في الشيء إذا دخل فيه و الغلول الخيانة لأنّها تصير كالغلّ في عنق صاحبها و السلسلة هي الحلق المنتظمة في جهة الطول .

المعنى : وصف في هذه الآية كيفيّة عقابهم فقال :

[إذ الأغلال] أي يكون [في أعناقهم] الأغلال [و السلاسل] و [يسحبون] بتلك في الماء المستحق بنار جهنّم ثمّ في النار يشتعلون و السجر الإيقاد في التنّور .

فإن قيل : إنّ قوله : « فسوف يعلمون » و سوف للاستقبال و إذ للماضي و هذا الكلام مثل قولك سوف أصوم أمس .

فالجواب أنّ إذ ههنا بمعنى إذا لأنّ الأمور المستقبلة لمّا كانت في أخبار الله متيقّنة مقطوعاً بها عبّر عنه بلفظ ماكان و وجد لكنّ المعنى على الاستقبال . و بالجملة فهم بهذه السلاسل و الأغلال وقود جهنّم و توقّد بهم النار .

[ثمّ قيل لهم] أي يقال لهؤلاء الكفّار إذا دخلوا النار على وجه التوبيخ [أينما كنتم تشركون من دون الله] و تزعمون أنّها تنفع و تضرّ من أصنامكم الّتي عبدتموها [قالوا ضلّو عنّا] أي ضاعوا عنّا وهلكوا و لم نقدر عليهم ثمّ يستدركون فيقولون: [بل لم نكن ندعو من قبل شيئاً] و فسّروا هذا القول منهم على وجهين : الأوّل أنّهم أنكروا و كذّبوا أنّهم عبدوا غير الله كما أخبر الله سبحانه عنهم في سورة الأنعام أنّهم قالوا : « والله ربّنا ما كنّا مشركين » و الوجه الثاني أنّ مرادهم من قولهم : « بل لم نكن ندعو من قبل

شيئاً » أي تبيّن لنا أنّهم لم يكونوا شيئاً و ما كنّا نعبد بعبادتهم شيئاً أي نحن زعمنا أنّ عبادتها عبادة إلّا أنّها لم تكن .

ثمّ قال الله : [كذلك يضلّ الله الكافرين] قال القاضي عبد الجبّار : معناه أنّه سبحانه يضلّهم عن طريق الجنّة و لا يجوز أن يقال : يضلّهم عن الحجّة إذ قد هداهم في الدنيا إليها قال الطبرسيّ : معناه كما أضلّ الله أعمال هؤلاء و أبطل ما كانوا يأملونه كذلك يفعل بجميع من يتديّن بالكفر فلا ينتفعون بشيء من أعمالهم و قيل : يضلّ الله و يبطلها لأنّه لا ينفع عمل مع الكفر .

[ذلكم] العذاب الّذي نزل بكم [بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحقّ و بما كنتم تمرحون] جزاءً بفرحكم في الدنيا بالكفر و المعاصي و بما كان تصيبون أنبياء الله من المكاره وتأشرون و تبطرون من غير حقّ ، والفرق بين الفرح والمرح أنّ الفرح قد يكون بحقّ فيحمد عليه لكنّ المرح لا يكون إلّا باطلاً .

قوله تعالى : ادخلوا ابواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين (٧٦) فاصبر ان وعد الله حق فاما نرينك بعض الذى نعدهم او نتوفينك فالينا يرجعون (٧٧) و لقد ارسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك و منهم من لم نقصص عليك و ما كان لرسول أن يأتى بآية الا باذن الله فاذا جاء أمر الله قضى بالحق و خسر هنالك المبطلون (٧٨) الله الذى جعل لكم الانعام لتركبوا منها و منها تأكلون (٧٩) و لكم فيها منافع و لتبلغوا عليها حاجة فى صدوركم و عليها وعلى الفلك تحملون (٨٠) و يريكم آياته فاى آيات الله تنكرون (٨١) .

المعنى : يقال للكافرين : [ادخلوا أبواب جهنّم] و هي سبعة أبواب [خالدين فيها] مؤبّدين لا انقطاع لكربكم فيها و لا نهاية و إنّما جعل لها أبواب كما جعل لها دركات تشبيهاً لها بالدنيا من المطابق و السجون و المطامير فإنّ ذلك أهول و أعظم في الزجر [فبئس مثوى المتكبّرين] و مقامهم لأنّهم تكبّروا عن عبادة الله و إنّما أطلق عليه اسم بئس و إن كان حسناً لأنّ الطبع ينفر عنه كما ينفر العقل من القبيح فحسن لهذه العلّة اسم بئس عليه .

[فاصبر إنّ وعدالله حقّ] فأمر نبيّه ﷺ بالصبر على أذى قومه و الثبات على الحقّ وسمّاه صبراً للمشقّة الّتي تلحق به كما يلحق بتجرّع المرّ ، فإنّ ما وعد الله به المؤمنين على الصبر من الثواب في الجنّة حقّ لا شكّ فيه بل هو كائن لا محالة و يمكن أن يكون إنّ وعدالله بالنصر لأنبيائه و الانتقام من أعدائه حقّ .

[فإمّا نرينّك بعض الّذي نعدهم] إن شرطيّة و ما مزيدة للتأكيد أي إن نرك بعض الّذي نعدهم من العذاب في حياتك و إنّما قال : « بعض الّذي» لأنّ المعجّل من عذابهم هو بعض ما يستحقّونه مثل القتل و الأسر .

[أونتوفّينّك] قبل الإراءة [فإلينا يرجعون] يوم القيامة فنفعل بهم مايستحقّونه من العقاب و لا يفوتوننا و حاصل المعنى: إن نعذّبهم في حياتك أولم نعذّبهم فإنّا نعذّبهم في الآخرة أشدّ العذاب و يجوز أن يكون جواب الشرط محذوفاً وتقديره: فذاك ويجوز أن يكون الجواب قوله : « فإلينا يرجعون » فنفعل بهم مايستحقّونه .

ثمّ زاد سبحانه في تسلية نبيّه ﷺ بقوله : [و لقدأرسلنا رسلاً من قبلك منهم من قصصنا عليك و منهم من لم نقصص عليك] أي قد بيّنّا أحوال بعضهم لك وشرحنا لك أخبار بعضهم و بعضهم لم نبيّن لك أخبارهم أو المعنى: منهم من تلونا عليك ذكره ومنهم من لم نتل عليك ذكره و اختلف الأخبار في عدد الأنبياء فروي في بعضها أنّ عددهم مائة ألف و ألف و أربعة و عشرون ألفاً و في بعضها أنّ عددهم ثمانية آلاف نبيّ أربعة آلاف من بني إسرائيل و أربعة آلاف من سائر الناس و المذكور قصصهم أفراد معدودة .

[و ماكان لرسول أن يأتي بآية] أي و ما استقام و ما صحّ لرسول منهم أن يأتي بآية و معجزة [إلّا بإذن الله] فإنّ المعجزات على تشعّب فنونها عطايا من الله قسّمها بينهم حسبما تقتضيه الحكمة كسائر القسم ليس لهم اختيار في إيثار بعضها والاستبداد بإتيان المقترح منها ولم يكن ذلك قادحاً في نبوّتهم فكذلك الحال في اقتراح قومك عليك المعجزات الزائدة عن قدر اللزوم و لمّا لم يكن إظهارها صلاحاً لاجرم ما أظهرناها و هذا هوالمراد من قوله : « و ماكان لرسول أن يأتي بآية إلّا بإذن الله » .

ثمّ قال : [فإذا جاء أمر الله قضي بالحقّ] و هذا وعيد ورد عقيب اقتراحهم

الآيات من النبيّ فإذا جاء أمر الله بالعذاب في الدنيا و الآخرة أوالمراد من أمرالله ، القيامة ، و المبطلون هم المعاندون الّذين يجادلون في آيات الله و يقترحون المعجزات الزائدة على قدر الحاجة على سبيل التعنّت فقضي عليهم بالعذاب و هوالحقّ .

[وخسرهنالك المبطلون] أي إنّهم خسروا الجنّةوحصّلوا النار بدلاً منها .

قوله : [الله الّذي جعل لكم الأنعام لتركبوا منها و منها تأكلون] جعل لكم من الإبل و البقر و الغنم لتنتفعوا بركوبها « و منها تأكلون » يعني إنّ بعضها للركوب و الأكل كالإبل و البقر و بعضها للأكل كالأغنام و قيل : المراد بالأنعام ههنا الإبل خاصّة كما أنّ أصل اللغة للإبل لنعومة أخفافها حين و طئها على الأرض و إنّها الّتي تركب و تحمل عليها في أكثر العادات و اللام في قوله : « لتركبوا » الام الغرض .

[و لكم فيها منافع] من جهة ألبانها و أصوافها وأوبارها [و لتبلغوا عليهاحاجة في صدوركم] بأن تركبوها و تبلغوا المواضعالّتي تقصدونها بحوائجكم [و عليها] وأي على الأنعام و هي الإبل هنا [و على الفلك] أي على السفن [تحملون] في البرّ على الإبل و على السفن فيالبحر في أسفاركم فعلم الله سبحانهأنّا نحتاج إلى الأسفار فخلق لنا مركباً للبرّ ومركباً للبحر .

قوله :[و يريكم آياته فأيّ آيات الله تنكرون] أي بعد أن أراكم الله بخلقههذه النعم الّتي عدّدها الله فأيّ آية منها تنكرونها و إنّما أدخل لام الغرض على قوله : «لتركبوا » وعلى قوله : «لتبلغوا» ولميدخل على البواقي .

قال صاحب الكشّاف : الركوب في الحجّ والغزو إمّا أن يكون واجباً أومندوباً فهذان القسمان أغراض دينيّة فلاجرم اُدخل عليها اللام و أمّا الأكل و إصابة المنافع فمن جنس المباحاتفي الغالبفلاجرم ما اُدخل عليها لامالتعليل نظيره « و الخيلوالبغال و الحمير لتركبوها وزينة [١] » فأدخل التعليل على الركوب و لم يدخله على الزينة وفيقوله : « فأيّ آياتالله » جاء علىاللغةالمستفيضة و تذكير هذه الكلمة شائع مستفيض .

قوله : أفلم يسيروا فى الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أكثر منهم و أشد قوة و آثارا فى الارض فما اغنى عنهم ما كانوا

(١) النحل : ٨ .

يكسبون (٨٢) فلما جاءتهم رسلهم بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحاق بهم ما كانوا به يستهزؤن (٨٣) فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين (٨٤) فلم يك ينفعهم ايمانهم لما راوا بأسنا سنت الله التي قد خلت في عباده وخسر هنالك الكافرون (٨٥) .

ثمّ نبّههم فقال :

[أفلم يسيروا في الأرض] بأن يمرّوا في أطرافها فينظروا حال الاُمم المهلكة وهم كانوا أكثر منهم عدداً و أشدّ قوّة ومالاً وجاهاً من هؤلاء المتأخّرين و لم يستفيدوا من تلك القوّة و المكنة إلّا الخيبة و الخسار و الخسرة والبوار فيعتبروا بهم و أمّا بيان أنّهم كانوا أكثر من هؤلاء عدداً فإنّما يعرف بالسماع و الأخبار و أمّا أنّهم كانوا أشدّ قوّة وآثاراً في الأرض فلأنّه قد بقيت آثارهم بحصون عظيمة بعدهم مثل الأهرام الموجودة بمصر ومثل هذه البلاد العظيمة الّتي بناها الملوك المتقدّمون كما حكى سبحانه عنهم من أنّهم كانوا ينحتون من الجبال بيوتاً .

ثمّ قال سبحانه : [فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون] و ما في قوله : « ما أغنى » نافية أو مضمّنة معنى الاستفهام و ما في قوله : «ما كانوا» موصولة أومصدريّة ومحلّها الرفع يعني أيّ شيء أغنى عنهم كسبهم ؟

قوله : [فلمّا جاءتهم رسلهم بالبيّنات] بيّن سبحانه أنّ اُولئك الكفّار لمّا جاءتهم رسلهم بالدلائل و المعجزات [فرحوا بما عندهم من العلم] و الضمير في قوله : «فرحوا» يحتمل أن يكون عائداً إلى الرسل وقيل : راجع إلى الكفّار بما عندهم من العلم لأنّهم قالوا : نحن أعلم منهم لانبعث ولانعذّب و اعتقدوا أنّه علم فأطلق عليه لفظ العلم على اعتقادهم و فرحوا بالشرك الّذي كانوا عليه و أعجبوا به و ظنّوا أنّه علم و هو جهل و كفر و المراد بالفرح شدّة الإعجاب فيدفعون بجهالتهم علوم الأنبياء .

و يمكن أن يكون المراد بعلمهم علوم الفلاسفة فإنّهم كانوا إذا سمعوا بوحي الله صغّروا علم الأنبياء إلى علومهم ، وعن سقراط أنّه سمع بمجيء بعض الأنبياء فقيل له : لو هاجرت إليه فقال : نحن قوم مهديّون فلاحاجة بنا إلى من يهدينا .

و يجوز أن يكون المراد علمهم باُمور الدنيا كما قال : « يعلمون ظاهراً من الحياة

الدنيا و هم عن الآخرة هم غافلون * ذلك مبلغهم من العلم (١) » فلمّا جاءهم الرسل بعلوم الديانات و معرفة المعاد و تطهير النفس عن الرذائل لم يلتفتوا إليها واستهزءوا بها.

هذا إذا كان الضمير راجعاً إلى الكفّار وأمّا إذا قلنا: إنّ الضمير راجع إلى الأنبياء فمعناه أنّ الرسل لمّا رأوا من قومهم جهلاً وإعراضاً عن الحقّ وعلموا سوء عاقبة قومهم وإصابتهم الهداية فرحوا و شكروا الله على نعمة الهداية والوحي و حسن العاقبة.

[و حاق بهم ما كانوا به يستهزءون] وحلّ بهم ونزل جزاء استهزائهم برسلهم من العذاب [فلمّا رأوا بأسنا] أي عند رؤيتهم بأس الله [قالوا آمنّا بالله وحده و كفرنا بما كنّا به مشركين] وليس في مثل هذا الوقت ينفع الإيمان لأنّهم يصيرون عند ذلك ملجئين وفعل الملجأ لا يستحقّ به المدح.

[سنّت الله الّتي قد خلت في عباده] أي عدم قبول الإيمان حال اليأس اضطراراً عادة الله مطّردة في كلّ الأمم ثمّ قال سبحانه : [و خسر هنالك الكافرون] و هنالك مستعار للزمان أي خسروا وقت رؤية اليأس بدخول النار . تمّت السورة بحمد الله تعالى

اللّهمّ يا من لا يبلغ أدنى ما استأثرت به من جلالك و عزّتك أقصى نعوت الناعتين
و يا من تقاصرت عن الإحاطة بمبادي أسرار كبريائه أفهام المتفكّرين
و أنظار المتأمّلين لا تجعلنا برحمتك و فضلك في زمرة
الخاسرين المحرومين فإنّك أكرم
الأكرمين بمحمّد و آله
الطيّبين .

سورة فصلت ، السجدة

✿ (مكية) ✿

عن أُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من قرأ حم السجدة أُعطي بعدد كلّ حرف منها عشر حسنات .

و روى ذريح المحاربيّ عن الصادق عليه السلام قال : من قرأحم السجدة كانت له نوراً يوم القيامة مدّ بصره وسروراً و عاش في الدنيا مغبوطاً محموداً .

ختم الله سورة المؤمن بذكر المتكبّرين و افتتح هذه السورة بمثل ذلك :

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) تنزيل من الرحمن الرحيم (٢) كتاب فصلت آياته قرانا عربيا لقوم يعلمون (٣) بشيرا ونذيرا فاعرض أكثرهم فهم لايسمعون (٤) وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه و في آذاننا وقر ومن بيننا و بينك حجاب فاعمل اننا عاملون (٥) .

قيل في أوّل السورة أقوال : أحدها أنّ «حم» اسم للسورة مبتدأ وتنزيل خبره . والثاني قال الأخفش : تنزيل مبتدأ و خبره كتاب والثالث قال الزجّاج : تنزيل يخصّص بالصفة و هوقوله : من الرحمن الرحيم فجاز وقوعه مبتدءاً و كتاب فصّلت خبره .

و المراد من التنزيل أي المنزل و معنى المفعوليّة في المصدر شائع يقال : هذاضرب السلطان أي مضروبه و بناء الأمير أي مبنيّه أي كون السورة منزلاً من الله تعالى كتبها في اللوح المحفوظ و أمر جبرئيل عليه السلام بأن يحفظ تلك الكلمات ثمّ ينزل بها على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم فلمّا حصل تفهيم هذه الكلمات بواسطة نزول جبرئيل سمّي تنزيلاً و ذلك يدلّ على كون ذلك التنزيل نعمة عظيمة من الله لأنّ الفعل المقرون بالصفة لابدّ وأن يكون مناسباً لتلك الصفة فكونه رحماناً رحيماً صفتان دالّتان على كمال الرحمة فالتنزيل المضاف إلى هاتين الصفتين مشعرٌ بعظيم النعمة .

و الكتاب اسم مشتقّ من الجمع و قد جمع فيه علوم الأوّلين والآخرين و[فصّلت] آياته] وفرّقت وجعلت تفاصيل وتفاريق في معان مختلفة فبعضها في وصف ذاته سبحانه للمعرفة من التنزيه و التقديس و أحوال النبات و الحيوان و الانسان و التكاليف المتوجّهة نحو القلوب من العقائد و نحو الجوارح من الأفعال و الثواب و العقاب و تهذيب الأخلاق و رياضة النفس ، و القصص الأوّلين للعبرة و العظة و مقترن بعضه ببعض و لذا سمّي [قرآناً] و [عربيّاً] قد نزل بلغتهم ليفهموا منه المراد .

قوله : [بشيراً و نذيراً] بشيراً للمطيعين بالثواب و نذيراً للمجرمين بالعقاب و القرآن بشارة و نذارة إلّا أنّه أطلق اسم الفاعل عليه للتنبيه على كونه كاملاً في هذه الصفة كما يقال : شعر شاعر و كلام قائل [فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون] و مع هذه الصفات الّتي في القرآن أكثرهم لا يلتفتون إليه .

و احتجّ القائلون بخلق القرآن بهذه الآية لأنّه وصف بكونه تنزيلاً و المنزل مشعر بالتصيير من حال إلى حال وهومعنى الحدوث ، و كذلك لفظ التنزيل مصدربمعنى المفعول و المفعول مخلوق ، و كذلك معنى الكتاب بمعنى المكتوب فيدلّ على الحدوث . و الدليل الرابع أنّ قوله «فصّلت» يدلّ على أنّ متصرّفاً يتصرّف فيه بالتفصيل و التمييز و ذلك لا يكون في القديم . الخامس أنّه إنّما سمّي «قرآناً» لأنّه قرن بعض أجزائه بالبعض و ذلك يدلّ على كونه مفعول فاعل و مجعول جاعل . السادس وصفه سبحانه بكونه « عربيّاً» وهذه النسبة لأجل أنّ هذه الألفاظ إنّما دخلت على هذه المعاني بحسب وضع العرب و لغتهم وما جعل بجعل جاعل و فعل فاعل فلابدّ و أن يكون مخلوقاً .

و أجاب القائلون بأنّه قديم بأنّ هذه الوجوه الّتي ذكرتموها عائدة إلى الحروف و الكلمات و اللغات و هي عندنا محدثة مخلوقة إنّما الّذي ندّعي قدمه شيء آخر سوى هذه الألفاظ .

و الجواب عن جوابهم أنّه لوزعمتم أنّا ندّعي أنّ علم الله حادث فهذه فرية بلا مرية و المراد من القرآن كلام جامع حاوٍ لمعان مقصودة يحتاج إليه النبيّ في تبليغه متّسق بهذه الحروف والتراكيب استنسخه الله بواسطة الملك من اللوح واللوح أيضاً مخلوق فهذا المستنسخ من اللوح هو ما بين الدفّتين قد أحدثه بهذا التركيب و أنزله على نبيّه و ليس موضوع القرآن إلّا هذا و لا يطلق القرآن إلّا على هذه المعنى الجامع فمن أين ثبت قدمه ؟

فإن قيل : إنّه من علم الله فيلزم أن يكون قديماً .

قلنا : نعم علم الله قديم لكنّه لا ملازمة في الأمر بأن يكون القرآن قديماً كما أنّ حول العبد و قدرته من قدرة الله و حصوله بقدرة الله وقوّته وهوحادث و ليس بقديم .

قوله تعالى : [و قالوا قلوبنا في أكنّة]أي في أغطية [ممّا تدعونا إليه]و أكنّة جمع كنان مثل أغطية جمع غطاء و الكنان هو الّذي يجعل فيه السهام و حاصل المعنى أنّا لا نفقه ما تقول و إنّما قالوا ذلك ليؤيسوا النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم من قبولهم دينه [و في آذاننا و قر] و ثقل و صمم عن استماع القرآن [و من بيننا و بينك حجاب] أي بيننا و بينك حاجز في النحلة و الطريقة فلا نوافقك فيما تقول و التمثيل بالحجاب ليؤيسوه من الاجابة .

[فاعمل إنّنا عاملون] قيل : إنّ أباجهل رفع ثوباً بينه و بين النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فقال: يا محمّد أنت من ذلك الجانب و نحن من هذا الجانب فاعمل أنت على دينك إنّنا عاملون على مذهبنا و قيل : معناه فاعمل في هلاكنا إنّا عاملون في هلاكك أو اعمل في إبطال أمرنا إنّا عاملون في ابطال أمرك .

قوله تعالى : قل انما أنا بشر يوحى الى أنما الهكم اله واحد فاستقيموا اليه و استغفروه و ويل للمشركين (٦) الذين لايؤتون الزكاة و هم بالاخرة هم كافرون (٧) ان الذين آمنوا و عملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون (٨) قل انكم لتكفرون بالذى خلق الارض فى يومين و تجعلون له أندادا ذلك رب العالمين(٩) و جعل فيها رواسي من فوقها و بارك فيها و قدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين (١٠) .

و لمّا ظهر منهم العناد و عدم القبول أمر سبحانه نبيّه بقوله : [قل إنّما] الآية ، كان المعنى أنّي لا أقدر على أن أحملكم على الايمان قهراً فانّي بشر مثلكم و يوحى إليّ وأنا اُبلّغكم الوحي فبعد أن شرّفكم الله بالأمر للتوحيد فتنالكم السعادة إن قبلتموه و لحقكم الخذلان إن رددتموه و ذلك لا يتعلّق بنبوّتي و رسالتي .

ثمّ بيّن سبحانه أنّ خلاصة ذلك الوحي ترجع إلى أمرين العلم و العمل أمّا العلم فالعمدة فيه معرفة التوحيد وذلك لأنّ الحقّ هو أنّ [إلهكم إله واحد] فوجب علينا أن نعترف به وهو المراد من قوله : [فاستقيموا إليه] ونظيره « و إنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه » [واستغفروا] عمّا لاينبغي .

ثمّ أمر بالتحذير عمّا لاينبغي فقال : [وويل للمشركين الّذين لايؤتون الزكاة وهم

بالآخرة هم كافرون] ولمّا ثبت أنّ التوحيد أصل المراتب و أشرف مقام العبوديّة كان ضدّه وهو الشرك أخسّ المراتب وأرذلها فالسعادة حاصلة لمن وحّد الله و استقام في طاعته والويل لمن أشرك به وخالفه ولا يعطون الزكاة المفروضة وفيه دلالة على أنّ الكفّار مخاطبون بالشرايع وهذا المعنى هو الظاهر .

وقيل : معناه لا يطهّرون أنفسهم من الشرك بقول لا إله إلّا الله فإنّها زكاة الأنفس عن عطاء عن ابن عبّاس و قد وصف سبحانه الكفر بالنجاسة بقوله : « إنّما المشركون نجس [1]» وذكر الزكاة بمعنى التطهير في قوله : « خيراً منه زكاة [2] » .

وقيل : معناه لا يقرّون الزكاة ولا يرون إيتاءها ولا يؤمنون بها و عن الكلبيّ عابهم الله بها وقد كانوا يحجّون ويعتمرون وقال الفرّاء : الزكاة في هذا الموضع أنّ قريشاً كانت تطعم الحاجّ و تسقيهم وحرّموا ذلك على من آمن بمحمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم .

[وهم بالآخرة هم كافرون] أي هؤلاء مع ذلك بالآخرة وبما أخبر الله به من أحوال القيامة جاحدون .

ثمّ بعد وعيد الكفّار ذكر وعد المؤمنين فقال : [إنّ الّذين آمنوا] وصدّقوا بأمر الآخرة من الثواب والعقاب [وعملوا الصالحات] والطاعات [لهم أجرٌ غير ممنون] أي لهم جزاء على ذلك غير مقطوع بل هو متّصل دائماً وهو من مننت الحبل إذا قطعته ويجوز أن يكون المعنى أنّه لا أذى فيه من المنّ الّذي يكدر الصنيعة لأنّه سبحانه سمّاه أجراً والأجر لا يوجب المنّة .

ثمّ وبّخهم سبحانه على كفرهم فقال : [قل] يا محمّد (صلّى الله عليك) لهم على وجه الإنكار : [ءإنّكم لتكفرون بالّذي خلق الأرض] وهذا استفهام تعجيب أي كيف تجحدون وتكفرون نعمة من خلق الأرض [في] مقدار [يومين] ومن كان بهذه القدرة والكمال كيف يعقل أن تجعلوا له أحجاراً منحوتةً غير مدركة [أنداداً] و أمثالاً تعبدونها [ذلك ربّ العالمين] أي ذلك الّذي بهذه القدرة قابلٌ للمعبوديّة لأنّه خالقكم وخالق العالمين

(١) التوبة : ٢٩ .
(٢) الكهف : ٨٢ .

فإن قيل : إنّ من استدلّ بشيء على شيء فذلك الشيء المستدلّ به يجب أن يكون مسلّماً عند الخصم حتّى يصحّ الاستدلال به وكونه خالقاً للأرض في يومين أمرٌ لا يمكن إثباته بالعقل المحض وإنّما يمكن إثباته بالسمع ووحي الأنبياء وهم كانوا منازعين في الوحي والنبوّة فكيف تقرير هذه المقدّمة عليهم فحينئذ لا يبقى في الاستدلال بكونه خالقاً للأرض في يومين أثر ؟

فالجواب أنّ كفّار مكّة كانوا يعتقدون في أهل الكتاب أنّهم أصحاب العلوم والحقائق وكانوا قد سمعوا منهم هذه المعاني واعتقدوا أنّها حقّة فحسن هذا الاستدلال .

قوله : [وجعل فيها رواسي من فوقها] وجعل في الأرض جبالاً ثابتات من فوق الأرض راسخات فيها [وبارك فيها] بما خلق في الأرض من المنافع بأن أنبت فيها من غير غرس وأخرج نبتها من غير زرع وبذر يبذرونه من الكلاء وغيره وأودعها بما ينتفع العباد .

[وقدّر فيها] أي في الأرض [أقواتها] أي أرزاق أهلها على حسب الحاجة لقوام أبدان الناس وسائر الحيوان وقيل : قدّر في كلّ بلدة مالم يجعله في الأُخرى ليعيش بعضهم من بعض بالتجارة من بلدٍ إلى بلدٍ .

[في أربعة أيّام] أي في تتمّة أربعة أيّام من حين ابتداء الخلق فاليومان الأوّلان داخلان فيها كما تقول : خرجت من البصرة إلى بغداد في عشرة أيّام وإلى الكوفة في خمسة عشر يوماً أي تتمّة خمسة عشر يوماً .

قال أبو السعود في قوله تعالى : « في يومين » أي حكم بأنّها ستوجد في مقدار يومين أو في نوبتين على أنّ ما يوجد في كلّ نوبة يوجد بأسرع مايكون وإلّا فاليوم الحقيقيّ إنّما يتحقّق بعد وجودها وتسوية السماوات وإبداع نيرانها وترتيب حركاتها انتهى كلامه .

القميّ معنى يومين أي وقتين ابتداء الخلق وانقضاؤه قال : « وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها » أي لاتزل وتبقى في أربعة أيّام .

[سواء] مرتّباً أي في أربعة أوقات قام به العالم واستوى وهي الأوقات الّتي تخرج فيها أقوات العالم من الناس والبهائم والطير وحشرات الأرض وما في البرّ والبحر

من الخلق والثمار والنبات والشجر وما يكون فيه معاش الحيوان كلّه وهو الربيع والصيف والخريف والشتاء ففي الشتاء يرسل الله الرياح والأمطار والأنداء و الطلول من السماء فيلقي الأرض والشجر وهو وقت بارد ثمّ يجيء بعد الربيع و هو وقت معتدل حارّ و بارد فيخرج وقتئذ من الشجر والأرض نباتها فيكون أخضر ضعيفاً ثمّ يجيء وقت الصيف و هو حين ينضج الثمار وتصلب الحبوب الّتي هي أقوات العالم وجميع الحيوان ثمّ يجيء من بعد وقت الخريف فيطيّبه ويبرّده ويدرك مالم يدرك قبله ولوكان كلّه شيئاً واحداً لم يخرج النبات من الأرض ولم ينضج الثمار ولم يبلغ الحبوب ولوكان كلّه صيفاً لاحترق كلّ شيء نبت في الأرض ولم يكن للحيوان معاش و لو كان الوقت كلّه خريفاً ولم تتقدّمه شيء من هذه الأوقات لم يكن شيء يحصل حتّى يتقوّته أهل العالم فقام بهذا الترتيب أمر العالم واستوى وبقي مستوياً مرتّباً من غير تخلّف .

وسمّى الله هذه الأوقات أيّاماً [للسائلين] أي للمحتاجين لأنّ كلّ محتاج سائل ولوأنّ في العالم من خلق الله من لايسأل ولايقدر على السؤال كثير لكنّهم سائلون بلسان الحال وهو أبلغ من لسان المقال وقيل : معنى «للسائلين» أي السائلين عن مدّة خلق الأرض.

و قيل في علّة خلق الأرض و ما فيها في أربعة أيّام إنّما خلق ذلك شيئاً بعد شيء في هذه المدّة ليعلم الخلق أنّ من الصواب التأنّي في الاُمور و ترك الاستعجال فيها وإلّا كان قادراً على أن يخلق ذلك في أقلّ من لحظة أو ليعلم بذلك أنّها صادرة عن قادر مختار إذ لو صدرت عن مطبوع أو موجب لحصلت في حالة واحدة .

و روى عكرمة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : إنّ الله تعالى خلق الأرض يوم الأحد و الاثنين وخلق الجبال يوم الثلثاء و خلق الشجر والماء والعمران والخراب يوم الأربعاء فتلك أيّام أربعة وخلق يوم الخميس السماء وخلق يوم الجمعة الشمس و القمر و النجوم والملائكة وآدم فعلى هذا يكون خلقة الأرض قبل السماء .

قوله تعالى : ثم استوى الى السماء و هى دخان فقال لها و للارض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين (١١) فقضهن سبع سموات فى يومين و أوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم (١٢) فان اعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود (١٣)

اذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم و من خلفهم ألا تعبدوا الا الله قالوا لو شاء ربنا لانزل ملائكة فانا بما ارسلتم به كافرون (١٤) فأما عاد فاستكبروا في الارض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة اولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا باياتنا يجحدون (١٥) .

المعنى : ثمّ ذكر سبحانه خلق السماوات ثمّ قصد إلى خلق السماوات و كانت السماء دخاناً و ترتيب البيان لأجل اعتنائه سبحانه بأمر المخاطبين فبيّن ترتيب مبادي معائشهم قبل خلقهم بما يحملهم على الإيمان واليقين و يزجرهم عن الشرك فقال :

[ثمّ استوى] أي قصد نحوها قصداً سويّاً لايلوي على غيره [وهي دخان] أي أمرٌ ظلمانيّ عبّر به عن مادّتها أو عن الأجزاء المتصغّرة الّتي رُكّبت هي منها أو دخان و بخار مرتفع من الماء و قد روي أنّ العرش العظيم كان قبل خلق السماوات و الأرض على الماء ثمّ إنّه سبحانه أحدث في الماء اضطراباً فأزبد فارتفع منه دخان فأمّا الزبد فبقي على وجه الماء فخلق فيه اليبوسة فجعله أرضاً واحدة ثمّ فتقها فجعلها أرضين وأمّا الدخان فارتفع وعلا فخلق منه السماوات وخلق جرم الأرض مقدّم على خلق السماوات لكن دحوها و خلق ما فيها مؤخّر عنه[1] لقوله : «والأرض بعد ذلك دحاها» .

روى الحسن أنّ الله تعالى خلق الأرض في موضع بيت المقدس كهيئة الفهر عليه دخان ملتزق بها ثمّ أصعد الدخان و خلق منه و أمسك الفهر في موضعها و بسط منها الأرض و أنشأ دحوها على وجه خاصّ يليق لها من كلّ شكل معيّن و وصف مخصوص .

قوله تعالى : [فقال لها و للأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً] قال ابن عبّاس : المراد أنّه سبحانه قال : «ثمّ استوى إلى السماء» أي قصد و توجّه نحوها من قولهم استوى إلى مكان كذا إذا توجّه إليه توجّهاً و «ثمّ» لتفاوت ما بين الخلقتين لا للتراخي في المدّة إذ لا مدّة قبل خلق السماوات وهي دخان ظلمانيّ .

و المراد من قوله : «فقال لها وللأرض ائتيا» الآية ، إظهار قدرته و التقدير ائتيا طوعاً أو كرهاً أي طائعين أو مكرهين شئتما أو أبيتما كما يقول الجبّار لمن تحت يده : لتفعلنّ هذا

---

(١) بل المراد من الدحو الدفع الى مدار فلكها و ذلك بعد خلق السماء فلا اشكال لان الدحو فى اللغة الدفع .

شئت أو أبيت قال ابن عبّاس : أتت السماء بما فيها و أتت الأرض بما فيها و ليس هناك أمر بالقول على الحقيقة و لاجواب لذلك القول بل المراد إنشاؤه سبحانه لهما من غير تعذّر و لا كلفة بمنزلة ما يقال للمأمور افعل فيفعل من غير فعبّر سبحانه عن ذلك بالأمر و الاطاعة كقوله : « كن فيكون» .

و إنّما قال : « أتينا طائعين» و لم يقل : طائعتين لأنّ المعنى أتينا بمن فينا من العقلاء فغلب حكم العقلاء على التأنيث أولمّا خوطبن خطاب من يعقل جمعن جمع من يعقل مثل قوله : « كلٌّ في فلك يسبحون [1] » و مثل هذا القول كثير في الكلام قال الشاعر :

ألا انعم صباحا أيّها الرسم وانطق * وحدّث حديث الحيّ إن شئت واصدق

و قيل : إنّه تعالى ذكر السماء و الأرض ثمّ ذكر الطوع و الكره فيجوز أن ينصرف الطوع إلى السماء و الكره إلى الأرض و تخصيص السماء بالطوع لأنّ الموجود في السماء ليس إلّا الطاعة قال تعالى : « يخافون ربّهم من فوقهم و يفعلون ما يؤمرون [2] » وأهل الأرض ليس الأمر في حقّهم كذلك . ثمّ إنّ السماء في دوام حركتها على نهج واحد لا يختلف و الأرض ليست كذلك و إنّ السماء من حيث اللون أفضل الألوان وهي المستنيرة و أشكالها أفضل الأشكال و هي المستديرة و أجرامها أفضل الأجرام و هي الكواكب النيّرة المتلألئة بخلاف الأرض فإنّها مكان الظلمة و الكثافة و اختلاف الأحوال و تغيّر الذوات و الصفات فلا جرم وقع التعبير عن تكوّن السماء بالطوع و الأرض بالكره .

قوله تعالى : [فقضاهنّ سبع سماوات في يومين] و قضاء الشيء إتمامه و الفراغ منه و الضمير في «قضاهنّ» راجع إلى السماء على المعنى و يجوز أن يكون ضميراً مبهماً مفسّراً بسبع سماوات و النصبين أحدهما على الحال و الثاني على التمييز .

[و أوحى في كلّ سماء أمرها] أي خلق في كلّ سماء بما أراد من وضعها من النيّرات وغيرها و الملائكة و ما فيها من البحار و جبال البرد قال السدّيّ : و لله في

(١) الانبياء : ٣٣ .
(٢) النحل : ٥٠ :

كلّ سماء بيت يحجّ و يطوف به الملائكة كلّ واحد منها مقابل الكعبة بحيث لووقعت منه حصاة ما وقعت إلّا على الكعبة و لأهل كلّ سماء تكليف فمن الملائكة من هوفي القيام من أوّل خلق العالم إلى قيام القيامة و منهم ركوع لاينتصبون و منهم سجود لايرفعون فالمعنى خصّ كلّ سماء بالأمر المضاف إليه و الخلق عبارة عن الإيجاد و التكوين و قد يكون عبارة عن التقدير و التقدير في حقّ الله هو حكمه بأنّه سيوجده و قضاؤه بذلك .

قوله : [وزيّنّا السماء الدنيا بمصابيح] و المراد من السماء الدنيا أقرب السماوات إلى أهل الأرض سمّي الكواكب بمصابيح لأنّه يقع الاهتداء بها و خصّ كلّ واحد بضوء معيّن و سير معيّن و اقتضاء مخصوص لايعرفها إلّا الله .

ثمّ قال : [وحفظاً] أي حفظناها حفظاً من الشياطين الّذين يسترقون السمع فأعدّ كلّ شيطان نجماً يرميه و لا يخطئه فمنها ما يحرق و منها ما يقتل و منها ما يجعله مخبّلاً .

و لمّا ذكر سبحانه هذه التفاصيل قال : [ذلك تقدير العزيز العليم] ذلك الّذي ذكر من عجائب الخلقة تقدير الّذي هو غالب في أمره لا يمتنع عليه شيء العليم بمصالح خلقه و لا يخفى عليه شيء .

قوله تعالى : [فإن أعرضوا] مع هذه الحجج الدالّة على كمال قدرته ووحدانيّته [فقل] يامحمّد لهم : [أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود] خوّفتكم الصاعقة ، والصاعقة النائرة المهلكة لأيّ شيء كان و قرىء صعقة عاد و هي المرّة من الصعق و هي في العرب اسم للنار الّتي تنزل من السماء فتحرق .

[إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم] «إذ» متعلّقة بقوله : «صاعقة» والتقدير نزلت بهم حين أتتهم الرسل من قبلهم و من بعدهم عن ابن عبّاس يعني به الرسل الّذين جاءوا آباءهم والرسل الّذين جاءوهم في أنفسهم لأنّهم كانوا خلف من جاء آباءهم من الرسل فيكون حينئذ الضمير في «خلفهم» راجعاً إلى الرسل و قيل : معناه من تقدّم زمانهم ومن تأخّر و يمكن أن يكون المراد أنّ أخبار الرسل أتتهم من ههنا وههنا .

فإن قيل: الرسل الّذين جاءوا من قبلهم و من بعدهم كيف يمكن وصفهم بأنّهم جاءوهم ؟ نعم مثلاً قد جاءهم هود و صالح داعيين إلى الإيمان و صدّقا الرسل الّذين قبلهما فأتيا بما أتى الرسل و كذلك فكان جميع الرسل قد جاءوهم بالأمر على الإيمان و كلّهم كانوا يأمرون الناس بالتوحيد.

بأن [لا تعبدوا إلّا الله] أي إنّ الشأن و الحديث قولنا لكم النهي عن عبادة غير الله.

ثمّ حكى سبحانه عن جواب الكفّار [قالوا لوشاء ربّنا لأنزل ملائكة فإنّا بما اُرسلتم به كافرون] و استدلّوا على كذب الأنبياء بأنّه سبحانه لوشاء إرسال الرسل إلى البشر لجعل رسله من زمرة الملائكة و قد كفروا بالرسل وجحدوا نبوّاتهم.

روي أنّ أباجهل قال في ملأ من قريش: التبس علينا أمر محمّد فلو التمستم لنا رجلاً عالماً بالشعر و السحر و الكهانة فكلّمه ثمّ أتانا بخبر عن أمره فقال عتبة بن ربيعة: و أنا لقد سمعت الشعر و السحر و الكهانة و علمت من ذلك علماً و ما يخفى عليّ و ذلك أنّه كان يحضر بعض الأندية و يستمع.

فأتاه فقال: يا محمّد أنت خير أم هاشم ؟ أنت خير أم عبدالمطّلب ؟ أنت خير أم عبدالله ؟ لمَ تشتم آلهتنا وتضلّلنا فإن كنت تريد الرياسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيساً و إن يكن بك البائة زوّجناك عشر نسوة تختارهنّ أيّ بنات ممّن شئت من قريش وإن كان المراد المال جمعنا لك ما تستغني به، ورسول الله ساكت.

فلمّا فرغ عتبة من كلامه قال صلّى الله عليه وآله وسلّم: « بسم الله الرحمن الرحيم * حم * تنزيل من الرحمن الرحيم » إلى قوله: « صاعقة مثل صاعقة عاد و ثمود » فأمسك عتبة على فيه وناشده بالرحم و رجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش فلمّا احتبس عنهم قالوا: لانرى عتبة إلّا قد صبأ فانطلقوا إليه و قالوا: يا عتبة ما حبسك عنّا إلّا أنّك قد صبأت فغضب أو قسم وقال: ولقد كلّمته فأجابني بشيء ماهو بشعر ولاسحر ولا كهانة و لمّا بلغ «صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود» أمسكت بفيه وناشدته بالرحم و لقد علمت أنّ محمّداً إذا قال شيئاً لم يكذب فخفت أن ينزل بكم العذاب.

و بالجملة ثمّ فصّل الله أخبار الجاحدين بقوله : [فأمّا عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحقّ] و أظهروا النخوة والكبر والاستعلاء و استخدامهم غيرهم بغير حقّ جعله الله لهم بل للكفر و البغي الصرف و اغترّوا بقوّتهم و كانوا مخصوصين بكبر الأجسام .

[و قالوا من أشدّ منّا قوّة أو لم يروا أنّ الله الّذي خلقهم هو أشدّ منهم قوّة] فلو شاء أهلكهم فإن كانت الزيادة في القوّة توجب كون الناقص في طاعة الكامل فهذا الأمر توجب كونهم منقادين مطيعين لله لأنّه هو أقوى منهم [و كانوا بآياتنا] و دلائلنا [يجحدون] ولا يعترفون .

و لمّا ثبت بالعقل أنّ مجامع الخصال الحميدة للعبد التعظيم للخالق و المولى و الإحسان إلى خلقه فقوله : « و كانوا بآياتنا يجحدون » مضادّ لتعظيم الخالق فقوله : « فاستكبروا في الأرض بغير الحقّ » مضادّ للإحسان إلى الخلق فهم قد بلغوا في الصفات الخبيثة المذمومة الموجبة للنفي و الإبطال وإلى الغاية القصوى حبّاً للدنيا .

فلهذا المعنى سلّط الله العذاب عليهم فقال سبحانه :

فأرسلنا عليهم ريحا صرصرا فى ايام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى فى الحيوة الدنيا ولعذاب الاخرة أخزى وهم لاينصرون (١٦) و أما ثمود فهدينا هم فاستحبوا العمى على الهدى فاخذهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون (١٧) و نجينا الذين آمنوا و كانوا يتقون (١٨) و يوم يحشر اعداء الله الى النار فهم يوزعون (١٩) حتى اذا جاءوها شهد عليهم سمعهم و أبصارهم و جلودهم بما كانوا يعملون (٢٠) .

فأخبر سبحانه عن إهلاكهم بقوله : [فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً] عاصفاً شديدة الصوت من الصرّة وهي الصيحة «فأقبلت امرأته في صرّة» أو البرد بحيث شدّة البرد تحرق كما تحرق النار واشتقاق الصرصر من الصرير ضوعف اللفظ إشعاراً بمضاعفة المعنى، وصرّر قلبت أحد الراءين صاداً كما يقال : نهه نهنهه و كفف كفكف .

[في أيّام نحسات] قرىء بسكون الحاء و كسرها أي مشئومة عليهم و قيل : شديدة البرد و المعنى كان إرسال الريح في أيّام نكدات مشئومات ذوات نحوس أو ذوات غبار

و تراب حتّى لا يكاد يرى بعضهم بعضاً و على كون النحسات شديدة البرد لأنّ العرب تسمّي البرد نحساً .

روي عن رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّه قال : الرياح ثمان ؛ أربع منها عذاب : العاصف و الصرصر و العقيم و السموم ، و أربع منها رحمة : الناشرات و المبشّرات و المرسلات و الذاريات .

قوله تعالى : [لنذيقهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا] و عن ابن عبّاس قال : ما أرسل الله من الريح عليهم إلّا قدر خاتمي وفعلنا ذلك بهم عذاب الهوان والذلّ وهو العذاب الّذي يجزون في الدنيا في مقابلة استكبارهم .

[و لعذاب الآخرة أخزى] و أفضح من ذلك [و هم لا ينصرون] و لا يدفع عنهم أبداً قيل : إرسال الريح عليهم في الأيّام النحسات كنّ آخر شوّال من الأربعاء إلى الأربعاء و ما عذّب قوم إلّا في يوم الأربعاء و قرىء «لتذيقهم» بالتاء أي الريح أو الأيّام .

و استدلّ الأحكاميّون من المنجّمين بهذه الآية على أنّ بعض الأيّام قد يكون نحساً و بعضها قد يكون سعداً و قالوا : الآية صريحة في هذا المعنى .

وأجاب المتكلّمون بأنّ المعنى أنّ الأيّام ذوات غبار و تراب وأيضاً قالوا : كون هذه الأيّام نحسات لأنّ الله أهلكهم فيها لأنّها بذواتها نحسة .

و أجاب الأحكاميّون بأنّ النحسات في وضع اللغة هي المشئومات لأنّ النحس يقابله السعد و الكدر يقابله الصافي . و أيضاً أجابوا عن الجواب الثاني: إنّ الله أخبر عن إيقاع ذلك العذاب في تلك الأيّام النحسات فوجب أن يكون كون تلك الأيّام نحسة مغايراً لذلك العذاب الّذي وقع فيها .

فإن قيل : كيف أنذر قومه مثل صاعقة عاد و ثمود مع العلم بأنّ ذلك لا يقع في اُمّة محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و قد صرّح الله بذلك في قوله : « وماكان الله ليعذّبهم و أنت فيهم[1] » وجاء في الأحاديث الصحيحة أنّ الله رفع عن هذه الاُمّة هذه الأنواع من العذاب ؟

فالجواب أنّ قومه صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا شاركوا و ساووا قوم عاد و ثمود بسبب إنكارهم التوحيد

---

(١) الانفال : ٣٣ .

و النبوّة فاستحقّوا مثل تلك الصاعقة و تخويفهم بالعذاب مثل اُولئك و جاز حدوث ما يكون من جنس ذلك .

قوله تعالى : [وأمّا ثمود فهديناهم] أي بيّنّا لهم سبيل الخير و الشرّ و نصبنا الدلائل [فاستحبّوا العمى على الهدى] و اختاروا الدخول في الضلالة على الدخول في الهداية و هذه الآية تدلّ على أنّهم من عند أنفسهم أتوا بذلك العمى فهذا يدلّ على أنّ الكفر و الإيمان يحصلان من العبد بصرف الاختيار من غير شائبة القهر و الكره .

[فأخذتهم صاعقة العذاب الهون] و الهون الهوان وصف به العذاب مبالغة أو اُبدل منه [بما كانوا يكسبون] بسبب شركهم و تكذيبهم صالحاً و عقرهم الناقة « و ثمود » قرىء بضمّ الثاء و قرىء منوّناً و غير منوّن بالرفع و النصب و الرفع أفصح لوقوعه بعد حرف الابتداء .

والعجب أنّ الرازيّ لمّا عثر على استدلال المعتزلة بالآية في الردّ على الجبريّة استدلّ على صحّة مذهب أهل الجبر بدليل أضعف من حجّة نحويّ وهو أنّه أثبت مدّعاه بقوله : إنّ أحداً لايحبّ العمى والجهل مع العلم بكونه جهلاً وغرض الرازيّ أنّ جهله بإجبار الله إيّاه و يجعل الآية من دلائل مدّعاه .

و الانصاف أنّ كلامه ما أقربه إلى الشعوذة ! لأنّه بهذه التقريرات قد أثبت أنّ الكفر والإيمان يحصلان من الله لامن العبد ونظره أنّ أحداً لايختار العمى مع العلم فحينئذ يلزم أنّ جميع المعاصي الصادرة من العباد غير مأخوذ بها لأنّهم لا يعتقدون أنّها جهل وعماية و كلّ حزب بمالديهم فرحون .

قوله : [و نجّينا الّذين آمنوا و كانوا يتّقون] الشرك أي و نجّينا صالحاً و من آمن به من العذاب .

ثمّ أخبر سبحانه عن حال الكفّار يوم القيامة فقال : [و يوم يحشر أعداء الله إلى النار فهم يوزعون] أي يحبس أوّلهم على آخرهم ليتلاحقوا ولايتفرّقوا والمعنى إذا اجتمعوا وقفوا [حتّى إذا جاءوها] أي جاءوا إلى النار الّتي حشروا إليها و المقصود بيان أنّهم إذا اجتمعوا سئلوا عن أعمالهم [شهد عليهم سمعهم وأبصارهم و جلودهم] أي شهد عليهم

سمعهم بما قرعه من الدعوة إلى الحقّ فأعرضوا عنه و أبصارهم بما رأوا من الآيات الدالّة على وحدانيّته فلم يؤمنوا وسائر جلودهم بما باشروا من المعاصي .

وفي شهادة الجوارح قولان : أحدهما أنّه يخلق الفهم والنطق فيشهد ، والثاني أن يظهر في تلك الأعضاء أحوالاً يدلّ على صدور تلك الأعمال من صاحبها و تلك الأمارات تسمّى شهادة كما يقال : يشهد هذا العالم بتغيّرات أحواله على حدوثه فسمّي شهادة مجازاً قال ابن عبّاس : المراد من الجلود هنا الفروج على طريق الكناية كما قال سبحانه : «ولكن لاتواعدوهنّ سرّاً [1]» و أراد النكاح و قال : «أو جاء أحد منكم من الغائط [2]» و المراد قضاء الحاجة .

قوله تعالى : و قالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة و اليه ترجعون (٢١) و ما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم و لكن ظننتم أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون (٢٢) و ذلكم ظنكم الذى ظننتم بربكم ارداكم فاصبحتم من الخاسرين (٢٣) فان يصبروا فالنار مثوى لهم و ان يستعتبوا فماهم من المعتبين (٢٤) وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين ايديهم و ما خلفهم و حق عليهم القول فى امم قدخلت من قبلهم من الجن و الانس انهم كانوا خاسرين (٢٥) .

ثمّ حكى الله عنهم أنّهم يقولون لتلك الأعضاء : [لم شهدتم علينا] فتقول الأعضاء : [أنطقنا الله الّذي أنطق كلّ شيء و هو خلقكم أوّل مرّة و إليه ترجعون] يعني إنّ القادر على خلقكم و إنطاقكم في المرّة الاُولى حال ما كنتم في الدنيا أنطقكم و بعثكم في المرّة الثانية .

[و ما] نافية [كنتم تسترون أن يشهد عليكم] أي لم يكن تهيّأ لكم أن تستروا أعمالكم عن هذه الأعضاء لأنّكم كنتم بها تعملون قال أبو السعود : معنى الآية حكاية لماسيقال لهم يوم القيامة من جهته تعالى بطريق التوبيخ أي ما كنتم تستترون في الدنيا عند مباشرتكم

(١) البقرة ٢٣٥ .

(٢) النساء : ١٤٢ .

الفواحش مخافة أن تشهد عليكم جوارحكم بذلك كما كنتم تستترون من الناس مخافة الافتضاح بل كنتم جاحدين بالبعث والجزاء رأساً .

[و لكن ظننتم أنّ الله لايعلم كثيراً ممّا تعملون] من القبائح فلذلك اجترأتم على ما فعلتم عن ابن مسعود قال : كنت مستتراً بأستار الكعبة فدخل ثلاثة نفر ان ثقفيّان وقرشيّ فقال أحدهم : أترون الله يسمع مانقوله ؟ فقال الآخر: يسمع إن جهرنا ولايسمع إن أخفينا فذكرت ذلك للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله «وما كنتم تستترون» الآية ، وكان الكفّار يقولون : إنّ الله لايعلم ما في أنفسنا ولكنّه يعلم ما يظهر .

و حاصل المعنى إثبات أنّهم كانوا يستترون عند الإقدام على القبائح إلّا أنّ استتارهم ما كان لأجل خوفهم من شهادة الجوارح وأنّ الله يعلمه بل لأجل أنّهم كانوا يظنّون أنّ الله لايعلم مستوراتهم من المعاصي و إنّما يعلم تعالى ما ظهر منهم علناً .

[ذلكم ظنّكم الّذي ظننتم بربّكم أرداكم] أي هذا الظنّ الفاسد بربّكم أهلككم [فأصبحتم من الخاسرين] إذ جعلوا بظنّهم الفاسد ما منحوا الاستعداد به في الدارين سبباً لشقاء المشركين .

القمّيّ عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ آخر عبد يؤمر به إلى النار فإذا اُمر به التفت فيقول الجبّار جلّ جلاله ردّوه فيردّونه فيقول الله : لمَ التفت إليّ فيقول : يا ربّ لم تكن ظنّي بك هذا فيقول : و ما كان ظنّك بي ؟ فيقول العبد : يارب كان ظنّي بك أن تغفر لي خطيئتي و تسكنني جنّتك قال : فيقول الجبّار يا ملائكتي لا وعزّتي و جلالي و آلائي و علوّي و ارتفاع مكاني ماظنّ بي عبدي هذا ساعة من خير قطّ ولو ظنّ بي ساعةً من خير ماروّعته أجزوا له كذبه و أدخلوه الجنّة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ليس من يظنّ بالله عزّوجل خيراً إلّا كان عند ظنّه به وذلك قوله : «و ذلكم ظنّكم الّذي ظننتم بربّكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين » .

قال الصادق عليه السلام : ينبغي للمؤمن من أن يخاف الله خوفاً كأنّه يشرف على النار ويرجوه رجاءً كأنّه من أهل الجنّة إنّ الله يقول : « و ذلكم ظنّكم الّذي » الآية ، ثمّ قال عليه السلام : إنّ الله عند ظنّ عبده إن خيراً فخيرو إن شرّاً فشرّ .

ثمّ أخبر سبحانه عن حالهم فقال : [و إن يصبروا فالنار مثوى لهم] أي فإن يصبر هؤلاء على النار وآلامها وليس المراد به الصبر المحمود ولكنّه الإمساك عن الشكوى فالنار مسكن لهم [وإن يستعتبوا فماهم من المعتبين] يعني وإن يطلبوا العتبى والرضى من الله أن يرضى منهم فليس لهم طريق إلى الرضاء وماهم ممّن يقبل عذرهم ويرضى عنهم أي إن صبروا وسكتوا أوجزعوا فالنار مأواهم كقوله تعالى : « فاصبروا أو لا تصبر و اسواء عليكم [٢]» والمعتب من يقبل عذره ويجاب إلى ماسأل أو المعنى و إن يستغيثوا فماهم من المغاثين .

[وقيّضنالهم قرناء] أي هيّأنا لهم قرناء من الشياطين أوبدّلناهم قرناء سوء من الجنّ والإنس مكان قرناء الصدق الّذي اُمروا بمقارنتهم فلم يعملوا [فزيّنوالهم ما بين أيديهم وما خلفهم] أي إنّ القرناء زيّنوالهم أعمالهم الّتي يعملونها و يشاهدونها بين أيديهم وما خلفهم أي يعملونها بعد وقيل : معناه زيّنوالهم مابين أيديهم من أمرالآخرة أنّه لابعث ولاجنّة ولانار وما خلفهم من أمرالدنيا فزيّنوا أنّ الدنيا قديمة وأنّه لافاعل ولاصانع إلّا الطبائع والأفلاك وقيل : المعنى إنّ القرناء زيّنوالهم مامضى من أعمالهم الخبيثة ومابقي من أعمالهم الخسيسة .

ثمّ قال تعالى : [وحقّ عليهم القول في اُمم قدخلت من قبلهم من الجنّ والإنس إنّهم كانوا خاسرين] قوله : « في اُمم » في محلّ النصب على الحال من الضمير في « عليهم » و المعنى وجب عليهم الوعيد و العذاب حال كونهم كائنين في جملة اُمم من المتقدّمين المكذّبين بين أنّهم كانوا خاسرين الجنّة والثواب واستحقّوا العذاب .

قوله تعالى : وقال الذين كفروا لاتسمعوا لهذا القرآن و الغوافيه لعلكم تغلبون (٢٦) فلنذيقن الذين كفروا عذا با شديدا و لنجزينهم أسوء الذى كانوا يعملون (٢٧) ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بايا تنا يجحدون (٢٨) وقال الذين كفروا ربنا ارنا اللذين اضلا نا من الجن والانس نجعلهما تحت اقدامنا ليكونا من الاسفلين (٢٩) ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة الاتخافوا ولاتحزنوا و أبشروا بالجنة التى كنتم توعدون (٣٠) .

المعنى : ثمّ عطف على ما تقدّم من ذكر الكفّار: [وقال الّذين] الآية قال رؤساؤهم للأتباع أو قال بعضهم لبعض يعني كفّار قريش : [لاتسمعوا لهذا القرآن] الّذي يقرؤه محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم ولا تصغوا إليه [والغوافيه] أي عارضوه باللغوو الباطل [لعلّكم تغلبون] لتغلبوه بالباطل فلايتمكّن أصحابه من الاستماع و الغوا بالتخليط من كلامكم الفاسد والمكاء والصفير وقيل : ارفعوا أصواتكم في وجهه بالشعروالرجز .

ثمّ أوعدهم الله فقال : [فلنذيقنّ الّذين كفروا عذاباً شديداً] في الدّنيا بالأسرو القتل [ولنجزينّهم أسوء الّذي كانوا يعملون] أي نجازيهم في الآخرة بأقبح الجزاء على أقبح معاصيهم وهوالكفروالشرك .

[ذلك] أي ما تقدّم من الوعيد [جزاء أعداء الله] الّذين عادوه بالعصيان و الكفر وعادوا الأنبياء والمؤمنين [النار] فبيّن سبحانه أنّ ذلك الأسوء الّذي جعل جزاء أعداء الله هوالنار .

ثمّ قال : [لهم فيها دارالخلد] أي دار العذاب الدائم لهم [جزاءً بماكانوابآياتنا يجحدون] في مقابلة جحودهم بآياتنا وهو جحودهم بأنّ القرآن ليس من عندالله .

قوله : [وقال الّذين كفروا] أي و سيقول الكفّار فيالنار : [ربّنا أرنا اللّذين أضلاّنا من الجنّ و الإنس] يعنون إبليس الأبالسة و قابيل بن آدم أوّل من أبدع المعصية و إنّ أوّل من أبدع الكفر إبليس و القتل بغيرالحقّ سنّة قابيل و قرىء « أرنا » بسكون الراء لثقل الكثرة كما قالوا : في فخذ فخذ وقيل : معناه أعطنا اللّذين أضلاّنا قال الخليل : إذا قلت : أرني ثوبك بالكسر فالمعنى بصّرنيه و إذا قلته بالسكون فهو استعطاء معناه أعطني ثوبك .

[نجعلهما تحت أقدامنا] أي يكونان أسفل منّا في النار [ليكونا من الأسفلين] تمنّوا لشدّة عداوتهم لهم و بغضهم إيّاهم بما أضلّوهم أن يجعلوهم تحت أقدامهم في الدرك الأسفل ندوسهما و نطؤهما بأقدامنا إذلالاً لهم حتّى يكون عذابهم أشدّ من عذابنا .

و لمّا ذكر سبحانه وعيدالكفّارعقّبه بذكر الوعد للمؤمنين الأبرارفقال : [إنّ

الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا] أي وحّدوا الله و صدّقوا أنبياءه ثمّ استمرّوا على هذا الأمر و لم يشكّوا به شيئاً أو المراد أنّهم استقاموا على طاعته و أداء فرائضه و قيل : معناه ثمّ استقاموا في أفعالهم كما استقاموا في أقوالهم مخلصاً و لم يعملوا عملاً لغيرالله بل لبست عبادته كما لبست معاصيه خوفاً من الرياء .

قيل : إنّ أيّوب النبيّ كان يحيي الليل كلّه فإذا كان عندالصباح رفع صوته كأنّه قائم تلك الساعة . وكان بعض السالكين مثل إبراهيم النخعيّ إذا قرأ في المصحف و دخل داخل غطّاه وكان الآخر إذا دخل و هو يصلّي اضطجع على فراشه و حكي أنّ إبراهيم بن أدهم إذا مرض يجعل عند رأسه ما يأكله الأصحّاء لئلاّ يشبه بالمرضى و ليس عليهم اعتراض فإنّ أهل الدار أدرى بالدار .

روي عن أنس قال : قرأ علينا رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم هذه الآية ثمّ قال : قد قالها فآمن ثمّ كفر أكثرهم فمن قالها حتّى يموت فهو ممّن استقام عليها . و روى محمّد بن الفضيل قال : سالت أباالحسن الرضا عليه السلام عن الاستقامة فقال : هي و الله ما أنتم عليه ومن المعلوم بالضرورة أنّ الاستقامة في الّدين هي أن يعتقد بقلبه أنّ لهذا العالم إلهاً موصوفاً بجميع صفات الكمال و منزّهاً عن النقائص و يقرّ بلسانه وأن يوافق عمله قوله و عقيدته و يبقى مستقيماً عليه و لم يتغيّر بسبب من الأسباب و أن لا يتوغّل في جانب النفي إلى حيث ينتهي إلى التعطيل ولا يتوغّل في جانب الإثبات إلى حيث ينتهي إلى التشبيه ، و يبقى على الخطّ المستقيم الفاصل بين التشبيه والتعطيل و بين الجبر و التفويض و كذا في الرجاء والخوف .

قوله تعالى : [تتنزّل عليهم الملائكة] يعني عندالموت روي ذلك عن أبي عبدالله وقيل : تستقبلهم الملائكة إذا خرجوا من قبورهم في الموقف بالبشارة من الله و قيل : إنّ البشرى تكون في ثلاثة مواطن : عندالموت و في القبر و عندالبعث .

[ألّا تخافوا و لا تحزنوا] أي تقول الملائكة لهم لاتخافوا عقاب الله ولا تحزنوا على ورائكم و على ما خلّفتم من أهل و ولد و قيل : المراد لا تحزنوا على ذنوبكم فإنّ الله يغفرها لكم و قيل : إنّ الخوف يتناول المستقبل و الحزن يتناول الماضي فكان «لا تخافوا»

فيما يستقبل و «لا تحزنوا» على مامضى [و أبشروا بالجنة الّتي كنتم توعدون] بها في دار الدنيا .

قوله تعالى : نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا و فى الاخرة ولكم فيها ما تشتهى أنفسكم و لكم فيها ما تدعون (٣١) نزلا من غفور رحيم (٣٢) و من أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحا وقال انني من المسلمين (٣٣) و لاتستوى الحسنة و لا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك و بينه عداوة كأنه ولى حميم(٣٤)ومايلقىها الا الذين صبروا ومايلقىها الا ذو حظ عظيم(٣٥) .

ثمّ إنّ الملائكة تقول للمؤمنين الّذين استقاموا بعد البشارة : [نحن] معاشر الملائكة [أولياؤكم] وأحبّاؤكم في الحياة الدنيا نتولّى إيصال الخيرات إليكم من قبل الله وفي الآخرة لا نفارقكم حتّى ندخلكم الجنّة أو كنّا نتولّى حفظكم في الدنيا بأنواع المعرفة و في الآخرة نتولّاكم بأنواع الإكرام ، و قيل : المعنى نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا و نحرسكم وعند الموت وفي الآخرة عن أبى جعفر عليه‌السلام و هذا في مقابلة قوله تعالى و ما ذكره في الوعيد للكفّار حيث قال : « وقيّضنا لهم قرناء » .

و للملائكة تأثيرات في الأرواح البشريّة بالإلهامات والمكاشفات والمقامات الحقيقيّة كما إنّ للشياطين تأثيرات في الأرواح بإلقاء الوساوس وتخييل الأباطيل إليها ؛ فالملائكة أولياء للأرواح الطيّبة ، والشياطين أولياء للأرواح الخبيثة العاصية . قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم : لولا أنّ الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماوات . واعلم أنّ جوهر النفس القدسيّ من جنس الملائكة و التعلّقات الجسمانيّة هي الّتي تحول بينها وبين الملائكة .

قوله تعالى : [و لكم فيها] أي في الآخرة [ماتشتهي أنفسكم] من الملاذّ [ولكم فيها ما تدّعون] و حاصل فإنّ الله يحكم لكم بذلك [نزلاً من غفور رحيم] أي هذا الموعود به مع جلالته عطاء لكم ورزق يجري عليكم و كرامة لكم ممّن يغفر الذنوب رحمة منه لعباده .

[و من أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله] المعنى : أمن المعلوم أنّ مراتب السعادات اثنتان : التامّ وفوق التامّ أمّا التامّ فهو أن يكتسب من الصفات الفاضلة مالأجلها يصير

كاملاً في ذاته فإذا فرغ من هذه الدرجة اشتغل بتكميل الناقصين و هو درجة فوق التامّ فقوله : « إنّ الّذين قالو ربّنا الله ثمّ استقاموا » إشارة إلى المرتبة الاُولى فإذا فرغ من هذه المرتبة ينتقل إلى المرتبة الثانية و ذلك إنّما يكون بدعوة الخلق إلى دين الله و هو المراد من قوله : «ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله».

و صورة الكلام صورة الاستفهام و المعنى النفي تقديره : و ليس أحدٌ أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله و إلى طاعته [و عمل صالحاً] أي أضاف إلى الدعوة الأعمال الصالحة [و قال إنّني من المسلمين] و يقول : أنا من المنقادين لأمر الله كما قال إبراهيم : « وأنا أوّل المسلمين » وفي الآية دلالة على أنّ الدعاء إلى الله من أعظم الطاعات . وفيها دلالة على أنّ الداعي يلزم أن يكون عاملاً بعلمه ليكون الناس إلى القبول منه أقرب و إليه أسكن .

ومن الناس من قال : المراد من قوله : « و من أحسن قولاً » هو رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عن الحسن وابن زيد والسدّي وقيل : هم المؤذّنون وقيل : هو وجميع الأئمّة الدعاة الهداة إلى الحقّ ، العيّاشيّ إنّها في علي عليه السلام .

وبالجملة لعلّ يدخل في الآية من دعا إلى طريق الحقّ وللدعوة مراتب فالكاملين في الدعوة هم الأنبياء ودعوتهم راجحة على دعوة غيرهم لأنّهم جمعوا في الدعوة بين الحجّة والسيف وقلّما يتّفق لغيرهم الجمع بين هذين الطريقين ثمّ العلماء العاملين فإنّهم يبنون دعوتهم على دعوة الأنبياء ولهذا السبب قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : علماء اُمّتي كأنبياء بني إسرائيل فنفوس الأنبياء قد حصلت لها مزيّتان الكمال في الذات والتكميل للغير فكانت قوّتهم على الدعوة أقوى وكانت درجاتهم أفضل وأكمل فالأنبياء لهم صفتان : العلم والقدرة و العلماء هم نوّاب الأنبياء في العلم في الجملة و الملوك إذا استجمعت الشرائط لهم فهم نوّاب الأنبياء في القدرة والقدرة توجب الاستيلاء على الأجساد و العلم يوجب الاستيلاء على الأرواح .

والعلماء على ثلاثة أصناف : العلماء بالله و العلماء بصفات الله و العلماء بأحكام الله أمّا العلماء بالله فهم الحكماء الّذين قال الله في حقّهم : « يؤتي الحكمة من يشاء و من

يؤت الحكمة فقد أُوتي خيراً كثيراً»[1] وهم الأنبياء الّذين اصطفاهم الله لدينه و معرفته و لإرشاد الخلق إلى مصالح معادهم ومعاشهم وليس المراد من الحكماء المتقوّلين في الجواهر والأعراض وأمّا العلماء بصفات الله فهم أصحاب الأُصول و أمّا العلماء بأحكام الله فهم الفقهاء فثبت من هذا التقرير أنّ أكمل من صدق عليه هذه الآية من الخلق محمّد صلّى الله عليه وآله وسلّم و علي عليه السلام ثمّ الأمثل فالأمثل.

قوله تعالى: [ولا يستوي الحسنة ولا السيّئة] أي الملّة الحسنة الّتي هي الإسلام والملّة السيّئة الّتي هي الكفر أو لا تستوي الأعمال الصالحة والأعمال القبيحة أو لا تستوي الخصلة الحسنة والسيّئة مثل أن لا يستوي الحلم و الغضب و العلم و الجهل و المداراة و الغلظة والعفو والانتقام.

ثمّ بيّن سبحانه ما يلزم على الداعي من الرفق بالمدعوّ فقال: [ادفع بالّتي هي أحسن] أي ادفع بحقّك باطلهم بحلمك ورفقك و بعفوك إساءتهم [فإذا الّذي بينك وبينه عداوة كأنّه وليّ حميم] فإنّك إذا دفعت خصومك بلين ومداراة صار عدوّك الّذي يعاديك في الّدين بصورة وليّك القريب ويصير كأنّه حميمك في النسب و روي عن أبي عبد الله عليه السلام إنّ الحسنة التقيّة و السيّئة الإذاعة.

[وما يلقّاها] أي وما يلقّى هذه الفعلة والحالة و هي دفع السيّئة بالحسنة [إلّا الّذين صبروا] على كظم الغيظ و احتمال المكروه و صبروا في الدنيا على الأذى عن الصادق عليه السلام.

ولا يؤتاها [إلّا ذو حظّ عظيم] أي ذو نصيب وافر من الرأي و العقل و قيل: إلّا ذو نصيب من الثواب والخير والجنّة.

أقول: إنّ من آتاه الله قريحة قويّة ونصاباً وافياً من العلوم في القرآن عرف أنّه سبحانه كيف علّم نبيّه في إقامة الدعوة وآداب المناظرة.

وجمع في الآية طريق السلوك مع النفوس القاصرة والجدل في إثبات حجج الحقّ وكيف أدّب نبيّه بمكارم الأخلاق.

(١) البقرة: ٢٦٩.

قوله تعالى : واما ينزغنك من الشيطان نزغ فاستعذ بالله انه هو السميع العليم (٣٦) ومن آياته الليل والنهار و الشمس و القمر لاتسجدوا للشمس وللقمر واسجدوا لله الذى خلقهن ان كنتم اياه تعبدون (٣٧) فان استكبروا فالذين عند ربك يسجدون له بالليل و النهار و هم لا يسأمون (٣٨) و من آياته انك ترى الارض خاشعة فاذا انزلنا عليها الماء اهتزت و ربت ان الذى احياها لمحى الموتى انه على كل شيء قدير (٣٩) ان الذين يلحدون فى آياتنا لايخفون علينا أفمن يلقى فى النار خير ام من يأتى آمنا يوم القيامة اعملوا ما شئتم انه بما تعملون بصير (٤٠) ان الذين كفروا بالذكر لما جاءهم و انه لكتاب عزيز (٤١) لايأتيه الباطل من بين يديه و لا من خلفه تنزيل من حكيم حميد (٤٢) .

النزغ شبه النخس و الشيطان ينزغ الإنسان و ينخسه ويبعثه على مالاينبغي .

أي و إن صرفك عماشرعت من الدفع بالّتي هي أحسن [فاستعذ بالله] من شرّه و لا تطعه و امض على شأنك و اطلب الاعتصام من شرّه بالله [إنّه سميع] بأقوالكم [عليم] بنيّاتكم .

ثمَّ ذكر دلائل التوحيد بقوله : [ومن آياته] و حججه الدالّة على توحيده و صفاته الّتي باين خلقه بها [الليل و النهار] بذهاب الشمس عن بسيط الأرض و بطلوعها على وجهها على وجه مستقرّ ونظام مستمرّ [والشمس والقمر] ومااختصّا به من النور و ظهر فيهما من التدبير و للتسيير و التصرّف في العالم .

[لا تسجدوا للشمس و للقمر] و إن كان فيها منافع كثيرة لأنّهما ليسا بخالقين [واسجدوا لله الّذي خلقهن] و أنشأهنّ و إنّما قال : « خلقهنّ » لأن الضمير يرجع إلى الآيات لأنّه قال : و من آياته هذه الأشياء ، و الضمير راجع إلى الليل و النهار و الشمس و القمر و حكم جماعة ما يعقل حكم الأُنثى يقال للأقلام : بريتها و بريتهنّ .

و إنّما قال : [إن كنتم إيّاه تعبدون] لأنّ ناساً كانوا يسجدون للشمس والقمر كالصابئين في عبادتهم الكواكب و يزعمون أنّهم يقصدون بالسجود لها السجود لله فنهوا عن هذه الواسطة و أُمروا أن لايسجدوا إلّا لله الّذي خلق هذه الأشياء و المرويّ عن ابن

عبّاس و جماعة أنّ موضع السجود عند قوله : « و هم لا يسأمون » و عن ابن مسعود و جماعة أنّ الموضع عند قوله : « إن كنتم إيّاه تعبدون » وهو اختيار أبي عمرو بن العلاء وهو المرويّ عن أئمّتنا عليهم السلام .

ثمّ قال سبحانه : [فإن استكبروا] عن توجيه العبادة إلى الله وحده [فالّذين عند ربّك] وهم الملائكة [يسبّحون له بالليل و النهار وهم لا يسأمون]أي لا يملّون ولا يفترون ولا ينفكّون عن العبادة و التسبيح لحظة واحدة .

والمشبّهة تمسّكوا بظاهر الآية بقوله : «عند ربّك» على إثبات المكان والجهة لله تعالى .

و الجواب أنّه قال : عند الملك من الجند كذا و كذا ولا يراد به قرب المكان فكذا ههنا ويقال : عند الشافعيّ لا يقتل المسلم بالذمّي .

و كذا استدلّ بعض بهذه الآية بأنّ الملك أفضل من البشر وهو استدلال الأعلى على حال الأدون .

و الجواب عدم تسليم الأعلويّة أوّلاً ثمّ داعية الترك في البشر وليس داعية الترك في العبادة في الملك .

قوله تعالى : [و من آياته] أي من الأدلّة الدالّة على ربوبيّته [أنّك ترى الأرض خاشعة] غبراء دارسة متهشّمة حالها حال المتواضع و قيل : المراد إنّها ميّتة يابسة لا نبات فيها قال الأزهريّ : إذا يبست الأرض ولم تمطر قيل : قد خشعت [فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزّت] أي تحرّكت بالنبات و ارتفعت قبل أن تنبت [و ربت] بكثرة ريعها و انتفخت .

ثمّ قال : [إنّ الّذين أحياها لمحي الموتى] يعني إنّ القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو القادر على إحياء هذه الأجساد بعد موتها [إنّه على كلّ شيء قدير] لأنّ عودة التأليف و التركيب إلى تلك الأجزاء المتفرّقة المحفوظة في علم الله ممكن لذاته والله قادر على جميع الممكنات فوجب أن يكون قادراً على إعادة الحياة والقدرة و العقل والفهم إلى تلك الأجزاء و قد أخبر سبحانه بوقوعها فوجب وقوعها و هذا هو الدليل الأصليّ في المعاد .

قوله تعالى : [و إنّ الّذين يلحدون في آياتنا لا يخفون علينا] أي إنّ الّذين يميلون عن الإيمان بآياتنا لا يخفون علينا بأشخاصهم و أقوالهم و أفعالهم و قيل : المراد من الإلحاد في الآيات تبديلهم ذلك و وضعه في غير موضعه وتحريف دلائل التوحيد من الآيات و ترك الاستدلال بها .

ثمّ قال سبحانه على وجه الإنكار و التهجين لهم : [أفمن يلقى في النار خير أم من يأتي آمناً يوم القيامة] أي إنّ الملحد الّذي يلقى في النار مثل أبي جهل خير والّذي يأتي آمناً يوم القيامة رسول الله ، قال عكرمة : هو عمّار بن ياسر والصحيح أنّه على العموم من المؤمن و الكافر .

ثمّ قال : [اعملوا ما شئتم] اللفظ الأمر و معناه الوعيد أي إذا علمتم أنّهما لا يستويان قال أمير المؤمنين عليه السلام : فليختر كلّ واحد منكم لنفسه ما شاء من الأمرين فإنّ العاقل لا يختار الإلقاء في النار فإذا لم يختر ذلك فلابدّ أن يؤمن بالآيات [إنّه بما تعلمون بصير] وعالم بأعمالكم .

ثمّ قال متهجّناً لهم : [إنّ الّذين كفروا بالذكر] الّذي هو القرآن [لمّا جاءهم] أي حين جاءهم ثمّ أخبر سبحانه في وصف الذكر و ترك خبر « إنّ » على تقدير « إنّ الّذين كفروا بالذكر » يجازون بكفرهم و نحو ذلك و قيل : إنّ خبره : «اُولئك ينادون من مكان بعيد » [و إنّه لكتاب عزيز] الضمير في « إنّه » راجع إلى الذكر و القرآن أي إنّه يجب أن يعزّ و يجلّ لأنّه لا يقدر أحد من العباد أن يأتي بمثله و عزيز بإعزاز الله إيّاه إذ حفظه من التغيير و التبديل و جعله الله على أتمّ الصفات في الإحكام .

[و لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه] وقيل : في هذا المعنى أقوال :

أحدها : إنّ الباطل الشيطان أي لا يقدر الشيطان أن ينقص منه حقّاً أو يزيد فيه باطلاً .

و ثانيها : أنّه لا يأتيه ما يبطله من بين يديه أي من الكتب الّتي قبله ولا من خلفه أي لا يجيء من بعده كتاب ينسخه .

و ثالثها : أنّه ليس في أخباره عمّا مضى باطل ولا في أخباره عمّا يكون في المستقبل

باطل بل أخباره كلّها موافقة لمخبراتها و هو المرويّ عن الصادق و الباقر عليهما السلام .

و رابعها : لايأتيه الباطل من أوّل تنزيل ولا من آخره .

وخامسها : لايأتيه الباطل من جهة من الجهات فلاتناقض في ألفاظه و لا يعارض و لايزاد فيه ولايغيّر بل هو محفوظ حجّة على المكلّفين إلى يوم القيامة .

[تنزيل من حكيم حميد] أي هو تنزيل من حكيم عالم بوجوه الحكمة والمصالح « حميد » مستحقّ للحمد على خلقه بالإنعام عليهم ، والقرآن هو من أعظم نعمه فاستحقّ به الحمد و الشكر .

قوله تعالى : ما يقال لك الا ما قد قيل للرسل من قبلك ان ربك لذو مغفرة و ذو عقاب أليم (٤٣) و لو جعلناه قرآناً اعجمياً لقالوا لو لافصلت آياته ءاعجمى وعربى قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء و الذين لايؤمنون فى آذانهم و قرو هو عليهم عمى اولئك ينادون من مكان بعيد (٤٤) و لقد آتينا موسى الكتاب فاختلف فيه ولو لا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم وانهم لفى شك منه مريب (٤٥) .

ثمّ عزّى نبيّه على تكذيبهم فقال :

[ما يقال لك] أي ما يقول هؤلاء الكفّار لك [إلّا ما قد قيل] للأنبياء قبلك من الجحد و التكذيب لنبوّتهم و قيل : المعنى ما يقول الله لك [إلّا ما قد] قاله [للرسل من قبلك] و هو الأمر بالتوحيد و لزوم طاعته فهذا القرآن موافق لما قبله من الكتب و قيل : معناه ما حكاه بعده و هو [إنّ ربّك لذو مغفرة و ذو عقاب أليم] فيكون على جهة الوعد لمن آمن والوعيد لمن كفر فمن الحقّ أن يرجوه أهل طاعته ويخافه أهل معصيته .

قوله : [و لو جعلناه قرآناً أعجميّاً] أي إنّا لو أنزلنا هذا القرآن بلغة العجم لكان لهم أن يقولوا كيف أرسلت الكلام العجميّ إلى القوم العرب و يصحّ لهم فرضاً أن يقولوا : قلوبنا في أكنّة ممّا تدعونا إليه و في آداننا و قر لأنّا لا نفهمه ولا نحيط بمعناه [لقالوا لو لافصّلت آياته] أي هلّاتبيّنت عباراته بلسان العرب حتّى نفهمه .

[ءأعجميّ و عربيّ] أي كتاب أعجميّ ونبيّ عربيّ ؟ و هذا استفهام على وجه

الإنكار و كانوا يقولون المنزل عليه عربيّ و المنزل أعجميّ و كان ذلك أشدّ لتكذيبهم و كان بزعمهم لهم عذراً لعدم قبولهم . وتسمّي العرب من لم يبيّن كلامه من أيّ صنف كان من الناس: أعجم وقال أبوعلي : الأعجميّ الّذي لايفصح في كلامه من العرب كان أو من العجم قالوا « زياد الأعجم» لآفة كانت في لسانه وكان عربيّاً و قالوا : صلاة النهار عجماء أي تخفى فيها القراءة ولاتبيّن .

و بالجملة بيّن الله إنّه أنزل الكتاب بلغتهم و أرسل الرسول من عشيرتهم ليكون أبلغ في الحجّة وأقلع للمعذرة .

[قل] يا محمّد : [هو] أي القرآن [للّذين آمنوا هدى] من الضلالة [و شفاء] للقلوب من كلّ ريب و شبهة و سمّي اليقين شفاء كما سمّي الشك مرضاً كما قال سبحانه : «في قلوبهم مرض » .

قوله : [و الّذين لا يؤمنون في آذانهم وقر] ثقل وصمم عن سماعه فلاينتفعون به فكأنّهم صمّ عنه [و هو عليهم عمي] و عميت قلوبهم عنه لأنّهم لمّا ضلّوا عنه و جازوا عن تدبّر القرآن فكأنّه عمي لهم [اُولئك ينادون من مكان بعيد] أي إنّهم لايسمعون و لايفهمون كما أنّ من دعي من مكان بعيد لم يسمع ولم يفهم لبعد أفهامهم و شدّة اعتراضهم و بعد قلوبهم عنه .

و الغرض من البيان في الآية تمثيل لهم في عدم قبولهم و استماعهم للقرآن بمن ينادي من مسافة نائية لايكاد يسمع من مثلها الأصوات .

قوله تعالى : [و لقد آتينا موسى الكتاب] أي التوراة [فاختلف فيه] لأنّه آمن به قوم و كذّب به آخرون و هذه تسلية للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم عن جحود قومه له و إنكار نبوّته بأنّ الاختلاف في شأن الكتب عادة قديمة للاُمم غير مختصّ بقومك .

[و لولا كلمة سبقت من ربّك] في حقّ اُمّتك المكذّبة و هي العدة بتأخير عذابهم و الفصل بينهم و بين المؤمنين يوم القيامة حيث قال سبحانه : « بل الساعة موعدهم [١] » و قوله تعالى : « ولكن يؤخّرهم إلى أجل مسمّى [٢] » و أنّه سبحانه لايعذّبهم و أنت

(١) القمر : ٤٦ .
(٢) النحل : ٦١ .

فيهم [لقضي بينهم] أي لحكم باستيصالهم و عذابهم [و إنّهم لفي شكّ منه مريب] أي إنّ قومك لفي شكّ ممّا ذكرناه موقع لهم الريبة و هو أفظع الشكّ . و الضمير في «منه» راجع إلى القرآن .

قوله تعالى : من عمل صالحا فلنفسه و من أساء فعليها و ما ربك بظلام للعبيد (٤٦) اليه يرد علم الساعة و مايخرج من ثمرات من اكمامها وماتحمل من انثى و لاتضع الا بعلمه و يوم يناديهم اين شركائى قالوا آذناك ما منا من شهيد (٤٧) و ضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص (٤٨) لايسأم الانسان من دعاء الخير و ان مسه الشر فيؤس قنوط (٤٩) و لئن اذقناه رحمة منا من بعد ضراء مسته ليقولن هذا لى وما اظن الساعة قائمة ولئن رجعت الى ربى ان لى عنده للحسنى فلننبئن الذين كفروا بما عملوا ولنذيقهم من عذاب غليظ (٥٠) .

ثمّ بيّن حال من عمل صالحاً و آمن بالكتاب بموجبها فلنفسه بعلمه و نفعه راجع إلى نفسه [و من أساء] ضرره راجع إليه لالغيره و لايؤخذ أحد بذنب غيره [و ما ربّك بظلّام للعبيد] و هذا الكلام على وجه المبالغة في نفي الظلم عن نفسه للعبيد و إنّما قال ذلك مع أنّه سبحانه لا يظلم مثقال ذرّة لأنّ من فعل الظلم و إن قلّ و هو عالم بقبحه و بأنّه غنيّ عن فعله لكان ظلّاماً كما أنّه لو صدر أمرٌ جزئيّ من القباحة من شخص كامل شريف لكان ذلك القبيح الجزئيّ من ذلك الشريف كثيراً و عظيماً جدّاً .

ثمّ بيّن سبحانه أنّه العالم بوقت القيامة فقال : [إليه يردّ علم الساعة] الّتي يقع فيها الجزاء للمطيع و العاصي و لمّا هدّد الكفّار بأنّ جزاء كلّ أحد يصل إليه يوم القيامة كأنّ سائلاً يقول : ومتى يكون ذلك اليوم للجزاء فقال : لاسبيل للخلق إلى معرفة ذلك الوقت إليه يردّ ذلك العلم .

ثمّ مثّل من علمه بمثالين فقال : [و ما يخرج من ثمرة] وإفراد الثمرة يدلّ على الكثرة واستغنى به عن الجمع أي عمّا يخرج ثمرة من أوعيتها وعلقها ، و الأكمام جمع كم و كم جمع كمّه و هي الكفريّ .

[و ما تحمل من أُنثى ولاتقع إلّا بعلمه] هذا هو المثال الثاني أي لاتحمل أُنثى

من حمل ذكراً كان أم أنثى إلّا في الوقت الّذي علم سبحانه أنّها تحمل فيه فيعلم قدر الثمار و كيفيّتها وأجزاءها وطعومها وروائحها و يعلم ما في بطون الحبالى و كيفية انتقالها حالاً بعد حال وأنّه عالم بالجزئيّات .

[و يوم يناديهم] أي ينادي الله المشركين [أين شركائي] في قولكم و زعمكم [قالوا آذنّاك ما منّا من شهيد] أي يتبرّءون يومئذ من أن يكون مع الله شريك قال ابن عبّاس : « آذنّاك » أي أسمعناك كقوله : « و أذنت لربّها و حقّت [1] » بمعنى سمعت أي أعلمناك ما من أحد منّا يشهد لهم بالشركة إذ تبرّأنا عنهم لمّا عاينّا الحال ، أو المعنى إنّه ما منّا من يشاهد الشركاء لأنّهم ضلّوا عنّا وضلّت عنهم آلهتهم لا يبصرونها و قيل : المعنى أنّك علمت من قلوبنا و عقائدنا الآن أنّا لا نشهد تلك الشهادة الباطلة بالشركة لأنّه إذا علمه من نفوسهم فكأنّهم أعلموه أو المعنى الإنشاء لا الإخبار بما قد كان قبل ذلك .

[وضلّ عنهم ما كانوا يدعون] أي يعبدون [من قبل] و ظهر عدم نفعهم فكان حضورهم كغيبتهم [و ظنّوا ما لهم من محيص] فبطل عنهم ما كانوا أملوه من أصنامهم و علموا و تيقّنوا أن لا مخلص من عذاب الله و قد يعبّر بالظنّ عن اليقين فيما طريقه الخبر دون العيان و قيل : ظنّوا أوّلاً ثمّ أيقنوا أنّه لا محيص لهم عن النار .

ثمّ بيّن سبحانه حال الإنسان و قيل : المراد الإنسان في الآية الكافر وهو متبدّل الأحوال متغيّر المنهج فإن أحسن بخير و نعمة انتفخ و تعظّم و إن أحسن ببلاء و محنة ذبل و تصغّر كما قيل في المثل : هو كالقرلّي إن رأى خيراً تدلّى و إن رأى شرّاً تولّى فقال سبحانه :

[لا يسأم الإنسان من دعاء الخير و إن مسّه الشرّ فيؤس قنوط] أي إنّه في حال الإقبال و مجيء المراد لا ينتهي قطّ إلى درجة إلّا و يطلب الزيادة عليها و يطمع بالفوز بها و بأكثر منها و في حال الإدبار و الحرمان يصير آيساً قانطاً و الحاصل إنّه لا يزال يسأل الخير الّذي هو المال و الغنى والصحّة والولد وإن مسّه الشر أي الشدّة و الفقر فهو شديد اليأس قنوط من الرحمة و من إجابة الدعاء وقيل : القنوط سيّىء الظنّ بربّه .

(١) الانشقاق : ٢ و ٥ .

[ولئن أذقناه رحمة منّا] أي خيراً و عافية و غنى [من بعد ضرّاء مسّته ليقولنّ هذالي] أي هذا بعملي و محقوق به و قيل : هذا لي أبداً دائماً[و ما أظنّ الساعة قائمة] أي كائنة [و لئن رجعت إلى ربّي] أي لست على يقين من البعث فإن كان الأمر على ما يقولون و حمل البعث و رددت في القيامة [إنّ لي عنده الحسنى] أي الحالة الحسنة و هي الجنّة أي سيعطين في الآخرة مثل ما اُعطيت في الدنيا .

ثمّ هدّد سبحانه من هذه صفته أن قال : [فلننبّئنّ الّذين كفروا بما عملوا] أي لنقفنّهم يوم القيامة على مساوي أعمالهم و عقايد هم [و لنذيقنّهم من عذاب غليظ] شديد متراكم .

قوله تعالى : و اذا انعمنا على الانسان اعرض و نأى بجانبه واذامسه الشر فذودعاء عريض (٥١) قل ارايتم ان كان من عندالله ثم كفرتم به من اضل ممن هو فى شقاق بعيد (٥٢) سنريهم آياتنا فى الافاق و فى انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد (٥٣) الا انهم فى مرية من لقاء ربهم الا انه بكل شيء محيط (٥٤) .

ثمّ أخبر عن حال الإنسان الّذى تقدّم ذكره فقال :

[وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض] عن الشكر [و نأى] وصرف وجهه وتجبّر عن الاعتراف بنعم الله و من قرأ «ناء» فمقلوب «نائي» كقول الشاعر : « أقول وقد ناءت به غربة النوى »

[و إذا مسّه الشرّ] أي الفقر أو المرض و الشدّة فهو [ذودعاء عريض] كثير و إنّما قال : «عريض» و لم يقل : طويل لأنّه أبلغ فإن العرض يدلّ على الطول و الطول لا يدلّ على العرض إذ قد يصحّ طويل و لا عرض له و لا يصحّ عريض ولا طول له فإنّ العرض الانبساط في خلاف جهة الطول والطول الامتداد في أيّ جهة كان و حاصل المعنى أنّ الكافر سيّال ربّه بالتضرّع أن يكشف ما به من الضرّ و البلاء و يعرض عن الدعاء في الرخاء و النعمة و الخصب قوله تعالى : [قل أرأيتم أن كان من عندالله ثمّ كفرتم به] قل يا محمّد لهم : أخبروني إن كان القرآن من عندالله ثمّ كفرتم به فبتقدير أن يكون صحيحاً يكون دفعكم و إصراركم في عدم قبوله مع تعاضد موجبات الإيمان به [من أضلّ ممّن هو في شقاق بعيد]أي من أضلّ منكم فوضع الموصول موضع الضمير

تعليلاً لمزيد ضلالهم .

ثمّ قال سبحانه : [سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم] الأُفق ناحية من نواحي الأرض و كذلك آفاق السماء نواحيها و أطرافها و المراد من آيات الآفاق الآيات الفلكيّة و الكوكبيّة و آيات الليل و النهار و الأضواء والأظلال وعالم العناصر الأربعة قال ابن عبّاس : « في الآفاق » أي منازل الأمم الخالية و آثارهم و « في أنفسهم » يوم بدر و قيل : في الآفاق ما يفتح الله له ﷺ من القرى و « في أنفسهم » فتح مكّة و قيل : « في أنفسهم » المراد ما دبّر سبحانه من لطيف صنعه و بديع حكمته في تكوين الأجنّة في ظلمات الأرحام و التركيبات الغريبة .

[حتّى تبيّن لهم أنّه الحقّ] أي يظهر أنّ تعالى الحقّ و نريهم في هذه الدلائل مرّة بعد أُخرى إلى أن تزول الشبهات عن قلوبهم و يحصل فيها الجزم و القطع بوجود الإله القادر .

فإن قيل : أنّ كلمة «سنريهم» يقتضي إنه تعالى ما اطّلعهم على تلك الآيات إلى الآن و سيطّلعهم عليها بعد ذلك و الآيات الموجودة في العالم الأعلى و الأسفل قد كان الله اطّلعهم عليها قبل ذلك .

فالجواب أنّ القوم و إن كانوا قدرأوا هذه الأشياء العجيبة إلّا أنّ عجائبها ممّا لا نهاية لها فهو تعالى يطّلعهم على تلك العجائب زماناً فزماناً و كلّما يزداد المتأمّل في هذه التركيب يزداد وقوفاً فصحّ هذا الكلام .

قوله : [أولم يكف بربّك أنّه على كلّ شيء شهيد] و المعنى أولم يكفهم أنّ ربّك شهيد على الأشياء و محقّق لكلّ شيء و قوله : « بربّك » في موضع الرفع على الفاعليّة أوالبدليّة و قيل : المعنى أولم يكف ربّك شاهداً أنّ القرآن من عندالله .

[ألا إنّهم في مرية من لقاء ربّهم] «ألا» كلمة تنبيه وتأكيد بأنّ الكفّار في شكّ من لقاء ربّهم و عقابه أي في شكّ من مجازاة ربّهم[ألا إنّه] تعالى [بكلّ شيء] محيط أي أحاط علمه بكلّ شيء فلا يخفى عليه شيء . تمّت السورة بعون الله .

انتهى الجزء التاسع ويتلوه العاشر ان شاء الله

الجزء العاشر

من كتاب التفسير

المسمى بمقتنيات الدرر

تأليف

الحاج مير سيد علي الحائري الطهراني

اعلى الله مقامه

المعروف بالمفسر

الناشر

الشيخ محمد الآخوندي

مدير

دار الكتب الاسلامية

بازار سلطاني - طهران

مطبعة الحيدري بطهران

١٣٣٩ هـ ش

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذى نزل القرآن نوراً و سراجاً و قمراً منيرا . والصلاة و السلام على رسوله الذى انزل عليه الكتاب بيانا للناس و هدى و موعظة للمتقين ، و على آله الطيبين ثانى الثقلين . ولعنة الله على أعدائهم أجمعين .

و بعد فقد بذل علماء الاسلام قديماً و حديثاً جهدهم فى تفسير علوم القرآن و تبيين لغاته ومشكلاته ، فقريق فسروا ألفاظه وبينوا حقائقه من مجازه ، و جمع جمعوا أحكامه و بينوا حلاله و حرامه ، وطائفة كشفوا عن تأويلاته قناعه ؛ وكيفماكان ما و صلوا الا الى مبلغ علمهم و منتهى هممهم ، و أنى لهم الوصول الى حقائق التنزيل و دقائق التأويل ؟ لان القرآن هو النور الذى أنزله الله على قلب حبيبه محمد صلى الله عليه و آله . الا أن المتمسكين بولاء أهل بيت الوحى المستضيئين بنورعلمهم الماموريين بالتمسك بهم فى حديث الثقلين قداغترفوا من بحارعلوم أهل بيت النبى غرفاً وغاصوا فيها واقتنوامنها درراً .

وهاهى المقتنيات الدرر ، قد اقتناها علم من الاعلام ثمرة الشجرة الطيبة و النخبة من السلالة الطاهرة : « الحاج الميرسيد على الحائرى » تغمده الله بغفرانه ، واوتى كتابه هذا بيمينه ، قداقتنى من الدرر أغلاها و من الغرر أسناها فحقيق أن يتنافس المتنافسون فى الاستفادة منها .

وقد وفق الله تلميذه المستضىء بنورعلمه المقتفى أثره : الحاج ميرزا عبدالحسين المعروف بمحسنيان لبذل الجهد باحياء هذا السفرالجليل القيم .

هذا ومنّ الله سبحانه على عبده الزاكى صاحب الهمة القعساء و ارومة الفضل : الحاج محمود الكاشانى ؛ فأنعم عليه و شرفه باعطاء نفقة طبع الكتاب خدمة للدين و اتحافاً للطيفة و الده السعيد الحاج محمد حسين الكاشانى طيب الله رمسه ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء .

ونشكر جميل مساعى الشاب الفاضل الاريب السيد الكاظم الموسوى المياموى حيث بذل جل أوقاته لمقابلة اجزاء الكتاب مع نسخة الاصل و تخريج الايات المنثورة فى ثناياه و اسناد مايهم من رواياته و بعض الاصلاح فيه . ونسأل الله تعالى أن يوفقنا لاتمامه بمحمد و اله .

محمد الاخوندى

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

سورة حمعسق

و تسمّى سورة الشورى و هي مكّيّة إلّا أربع آيات منها نزلن بالمدينة و الأربع أوّلها : « قل لا أسألكم عليه أجراً » قال ابن عبّاس ؛ ولمّا نزلت هذه الآية قال رجل : ما أنزل الله هذه الآية فأنزل الله « أم يقولون افترى على الله كذباً » ثمّ إنّ الرجل تاب وندم فنزل « وهو الّذي يقبل التوبة عن عباده » إلى قوله : « لهم عذاب شديد » .

فضلها : عن اُبيّ بن كعب عن النبيّ ﷺ من قرأ سورة حمعسق كان ممّن يصلّي عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون . وروى سيف بن عميرة عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من قرأ حمعسق بعثه الله يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر حتّى يقف بين يدي الله فيقول : عبدي أدمنت قراءة حمعسق ولم تدري ما ثوابها أما لو دريت ماهي وما ثوابها لما مللت من قراءتها ولكن ساُجزيك جزاءك : أدخلوه الجنّة وله فيها قصر من ياقوتة حمراء أبوابها وشرفها ودرجها منها يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وله فيها حوراً من الحور العين وألف جارية وألف غلام من الولدان المخلّدين الّذين وصفهم الله .

التفسير : ختم الله سورة السجدة بذكر القرآن وافتتح هذه السورة بذكره أيضاً فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) عسق (٢) كذلك يوحى اليك و الى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم (٣) له ما فى السموات وما فى الارض وهو العلى العظيم (٤) تكاد السموات يتفطرن من فوقهن و الملائكة يسبحون بحمد ربهم و يستغفرون لمن فى الارض ألا ان الله هو الغفور الرحيم (٥) .

[حم عسق] في المعاني عن الصادق عليه السلام معناه الحكيم المثيب العالم السميع القادر القويّ . والقمي عن الباقر عليه السلام : هو حروف من اسم الله الأعظم المقطوع يؤلّفه الرسول أو الإمام بعلمه فيكون الاسم الأعظم الّذي إذا دعي الله به أجاب . وعنه عليه السلام في عسق عدد سني القائم عليه السلام ، وقاف جبل يحيط بالدنيا من زمرّدة خضراء فخضر السماء من ذلك الجبل وعلم كلّ شيء في عسق.

نقل عن ابن عبّاس أنّه قال : لا نبيّ صاحب كتاب إلّا وقد اُوحي إليه حم عسق .

قيل : وإنّما فصّلت هذه السورة من الحواميم بعسق لأنّ جميعها استفتح بذكر الكتاب على التصريح إلّا هذه فذكر عسق ليكون دلالة على الكتاب تضميناً لا تصريحاً لأنّها اسم للسورة والسورة هي القرآن . وقال عطا : هي حروف مقطّعة من حوادث آتية فالحاء من حرب والميم من تحويل ملك والعين من عدوّ مقهور والسين من الاستئصال بسنين كسني يوسف والقاف من قدرة الله وأمثال هذه البيانات مرّت في سورة البقرة .

قوله : [كذلك يوحي إليك] الكاف معناه المثل و ذا للإشارة إلى شيء سبق ذكره فيكون المعنى في مثل هذه السورة المسمّاة حم عسق اُوحي إليك في سائر السور وإلى من قبلك من الرسل في كتبهم على أنّ المناط في المماثلة ما يتبيّن فيها من الدعوة إلى التوحيد

والإرشاد إلى المعاد وما فيه صلاح الخلائق والعدل .

فحاصل المعنى أنّ مثل الكتاب والسورة المسمّاة حم عسق يوحي الله إليك وإلى كلّ من قبلك من الأنبياء . قال الزمخشريّ : أتى بلفظ المضارع ليدلّ على أنّ إيحاء مثله عادته .

وقرىء «يوحى» بفتح الحاء على مالم يسمّ فاعله وقرىء بالنون على التكلّم والأكثر قرءوا بكسر الحاء فعلى القراءة الأولى الرافع لاسم الله ما دلّ عليه يوحى كأنّ قائلاً قال : من الموحي؟ فقيل : الله فإن قيل : فما رافعه إذا كان بالنون ؟ فحينئذ الرفع بالابتداء والعزيز وما بعده إخبار والعزيز الحكيم صفتان والخبر الجملة الظرفيّة، وعلى القراءة الكسر فالرفع على الفاعليّة .

وبالجملة كونه عزيزاً يدلّ على كونه قادراً على ما لا نهاية له وكونه حكيماً يدلّ على كونه عالماً بجميع المعلومات غنيّاً عن جميع الحاجات نعم ما قيل :

الحمد لله ذي الآلاء والنعم * والفضل والجود والإحسان والكرم
منزّه الفعل عن عيب وعن عبث * مقدّس الملك عن عزل وعن عدم

[له ما في السماوات وما في الأرض وهو العليّ العظيم] فهو سبحانه موصوف بقدرة نافذة في جميع أجزاء السماوات والأرض على عظمتها وسعتها بالإيجاد والإعدام والتكوين والإبطال «وهو العليّ العظيم» ولا يجوز أن يكون المراد علوّ المكان والجهة لمّا ثبتت الدلالة على فساده وكذلك لا يجوز أن يكون المراد من العظيم العظمة بالجثّة وكبر الجسم لأنّ ذلك يقتضي كونه مؤلّفاً من الأجزاء والأبعاض وذلك ضدّ قول الله : «أحد» فالمراد من العليّ المتعالي عن مشابهة الممكنات والمحدثات ومن العظيم العظمة بالقدرة والقهر بالاستعلاء والكمال .

ثمّ قال :[تكاد السماوات يتفطّرن من فوقهنّ] وقرىء بالياء في تكاد وبالتاء في «يتفطّرن» أي قرب السماوات يتشقّقن من عظمة الله تعالى وقيل : من دعاء الولد له كما في سورة مريم «أن دعوا للرحمن ولداً [1] » «من فوقهنّ» أي يبتدىء التفطّر من جهتهنّ الفوقانيّة فعلى كون الانشقاق من العظمة لما أنّ أعظم الآيات وأدلّها على العظمة والجلال من جهة

---

(١) الآية : ٩١

الفوق والملأ الأعلى وعلى كون سبب التشقّق نسبة الولد للدلالة على التفطّر من تحتهنّ بالطريق الأولى لأنّ تلك كلمة الشنعاء الواقعة في الأرض حيث أثّرت في جهة الفوق فلأن تؤثّر في جهة التحت أولى. وقيل: الضمير في قوله: « فوقهنّ » راجع إلى الأرضين أي من فوق الأرضين وهذا على طريق التمثيل والمعنى: لوكانت السماوات تتفطّر لشيء لانفطرت لهذه العظمة أولهذا الكلام الفاسد.

ثمّ قال: [والملائكة يسبّحون بحمد ربّهم] أي ينزّهون الله ممّا لا يليق به ولا يجوز في صفاته وأفعاله [ويستغفرون لمن في الأرض] من المؤمنين، القمّي قال: للمؤمنين من الشيعة التوّابين خاصّة، ولفظ الآية لوكان عامّاً فالمعنى خاصّ لقوله تعالى: « ويستغفرون للّذين آمنوا ».

ثمّ قد ثبت بدليل منفصل أنّ الكفّار ليسوا قابلين للمغفرة وللشفاعة فاختصّ المعنى بالمؤمن لأنّه تعالى قال: « اُولئك عليهم لعنة الله و الملائكة » فكيف يكونون لاعنين ومستغفرين لهم ؟

ثمّ إنّ قوله تعالى: « لمن في الأرض » لعلّه لا يفيد العموم لأنّه يصحّ أن يقال: أنّهم استغفروا لكلّ من في الأرض وأن يقال: إنّهم استغفروا لبعض من في الأرض دون البعض ولوكان قوله: « لمن في الأرض » صريحاً في العموم لما صحّ ذلك التقسيم.

وتأمّل أيّها المتأمّل في هذا الترتيب الشريف العالي في نظم القرآن فإنّ الموجودات على ثلاثة أقسام مؤثّر لا يقبل الأثر وهو الله سبحانه وهو أشرف الأقسام ومتأثّر لا يؤثّر وهو القابل وهو الجسم وهو أخسّ الأقسام وموجود يقبل الأثر من القسم الأوّل ويؤثّر في القسم الثاني وهو الجواهر الروحانيّات المقدّسة وهو المرتبة المتوسّطة فهذه الجواهر الروحانيّة لها تعلّقان تعلّق بعالم الجلال والكبرياء و هو تعلّق القبول والاستفاضة لأنّ الأضواء الصمدانيّة إذا أشرقت على الجواهر الروحانيّة استضاءت جواهرها فلمّا استفادت تلك القوى الروحانيّة قويت بها على الاستيلاء على عوالم الجسمانيّات فقوله: « يسبّحون بحمد ربّهم » إشارة إلى الوجه الّذي إلى عالم الكبرياء وقوله: « ويستغفرون لمن في الأرض » إشارة إلى الإفاضة وإيصال الخير إلى عالم الأجسام.

فالجهة العلويّة اشتملت على أمرين : أحدهما التسبيح والتنزيه وثانيهما التحميد والتسبيح مقدّم على التحميد لأنّه جهة التخلية والتحلية مقدّمة على التجلية لأنّ كونه تعالى منزّهاً في ذاته عمّا لا ينبغي مقدّم في الرتبة على كونه فيّاضاً للخيرات والسعادات لأنّ وجود الشيء مقدّم على إيجاد غيره و حصوله في نفسه مقدّم على تأثيره في حصول غيره فلهذا السبب كان التسبيح مقدّماً على التحميد .

وأمّا الجهة الثانية فالإشارة إليها بقوله : « ويستغفرون » والمراد إفاضتهاوتأثيراتها الخيريّة في عالم الجسمانيّات من الفيّاض المطلق و ذلك الفيض الّذي يصدر منهم أيضاً لشفقة الله على خلقه لأنّه سبحانه خلق الداعية في قلوبهم بطلب المغفرة للمؤمنين فكلّ الخير منسوب إليه تعالى شأنه ولولا الله خلق تلك الداعية في قلوبهم لما أقدموا على الطلب فالغفور المطلق والرحيم المطلق هوالله كما شهد لنفسه بذلك بقوله : [ألا إنّ الله هوالغفور الرحيم] والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : والذين اتخذوا من دونه أولياء الله حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل (٦) وكذلك أوحينا اليك قرآناً عربياً لتنذر ام القرى و من حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير (٧) ولوشاء الله لجعلهم امة واحدة ولكن يدخل من يشاء في رحمته والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير (٨) أم اتخذوا من دونه اولياء فالله هو الولي وهو يحيي الموتى و هو على كل شيء قدير (٩) وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه الى الله ذلكم الله ربي عليه توكلت و اليه انيب (١٠) .

ثمّ أخبر سبحانه عن إمهاله الكفّار بعد تقديم الإنذار فقال : [والّذين اتّخذوا من دونه أولياء] أي آلهة عبدوها من كفّار مكّة وغيرهم أي إنّ الّذين آمنوابالله يستغفرون لهم الملائكة وإنّه تعالى يعطي المغفرة الّتي طلبوها لهم ويضمّ إليها الرحمة التامّة و أمّا الّذين جعلوا له شريكاً وأنداداً [الله حفيظ عليهم] ورقيب على أحوالهم لا يفوته منها شيء [و ما أنت] يا محمّد بمفوّض إليك أمرهم ولا مقتسرهم علىالإيمان إنّما أنت منذر فحسب .

قوله تعالى : [و كذلك أوحينا] أي مثل ما أوحينا إلى من تقدّمك من الأنبياء بالكتب الّتي أنزلناها عليهم بلغة قومهم و بلسانهم أوحينا إليك قرآناً بلغتهم لتنذر أهل مكّة ومن حولها من الخلق.وقرى الأرض،وسمّيت مكّة أُمّ القرى و كنّيت بهذه الكنية إجلالاً لها لأنّ فيها البيت وأُمّ الأرض لأنّها دحيت من تحت موضعها والعرب تسمّي أصل كلّ شيء أُمّه مثل أن يقال : هذه القصيدة من أُمّهات القصائد .

فإن قيل : إنّ ظاهر الآية يقتضي أنّ الله إنّما أوحى إليه لينذر أهل مكّة و أهل القرى المحيطة بمكّة وهذا يقتضي أن يكون صلى الله عليه وآله رسولاً إليهم فقط وأن لا يكون رسولاً إلى كلّ العالمين .

فالجواب أنّ التخصيص بالذكر لا يدلّ على نفي الحكم عمّا سواه نعم سلّمنا أنّ هذه الآية تدلّ على كونه رسولاً إلى هؤلاء خاصّة فقوله : « وما أرسلناك إلّا كافّة للناس » يدلّ صريحاً على كونه رسولاً إلى كلّ العالمين .

وأيضاً دليل آخر وهو أنّه لمّا ثبت كونه رسولاً إلى أهل مكّة وجب كونه صادقاً فلمّا ثبت بالتواتر أنّه كان يدّعي الرسالة إلى العالمين وجب تصديقه لأنّ الرسول صادق فيما أخبر به و إلّا لم يكن رسولاً ووجب تصديقه فثبت أنّه رسول إلى كلّ العالمين .

ثمّ قال سبحانه : [و تنذر يوم الجمع] أي تنذرهم بيوم القيامة فيجمع الله فيه الأوّلين والآخرين وأهل السماوات والأرضين ، ويوم الجمع مفعول ثان لتنذر [لا ريب فيه] ولا شكّ في كونه وحصوله .

ثمّ قسّم سبحانه أهل الجمع فقال : [فريق في الجنّة] بطاعتهم وقبولهم الأوامر [وفريق في السعير] بمعصيتهم [ولو شاءالله لجعلهم أُمّة واحدة] أي ولوشاء الله لحملهم على دين واحد وهوالإسلام بأن يضطرّهم ويلجئهم إليه لفعله ولكنّه لم يفعل لأنّه يؤدّي إلى إبطال التكليف والتكليف إنّما يتحقّق مع الاختيار.وقيل : معناه ولو شاء الله لسوّى بين الناس في المنزلة بأن يخلقهم في الجنّة ولكنّه اختار لهم أعلى الدرجتين وهو استحقاق الثواب والجنّة .

[ولكن يدخل من يشاء في رحمته] بسبب قبولهم الإيمان و الطاعة [و الظالمون

ما لهم من وليّ ولا نصير] بسبب ظلمهم و كفرهم وليسوا قابلين لنصرة الله و ولايته وما أدخلهم في رحمته .

[أم اتّخذوا من دونه أولياء] استفهام إنكاريّ وجملة مفسّرة من أن يكون للظالمين وليّ أو نصير والمراد نفي الولاية للّذين اتّخذوهم لهم أولياء [فالله هو الوليّ] جواب شرط مقدّر محذوف كأنّه قيل بعد إبطال ولاية ما اتّخذوه أولياء : إن أرادوا وليّاً في الحقيقة فالله هو الوليّ لا وليّ سواه لأنّه المالك للنفع والضرّ [وهو يحيي الموتى وهو على كلّ شيء قدير] لأنّه يحيي الموتى فهو الحقيق بأن يتّخذ وليّاً دون من لا يقدر على شيء ، ثمّ قال : [وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله] أي وما اختلفتم فيه شيء في اُمور كم وتنازعتم فتحاكموا فيه إلى رسول الله ولا تؤثروا حكومة غيره على حكومته و قيل : المعنى : وما وقع بينكم فيه خلاف من الاُمور الّتي لا مدخليّة لها بتكليفكم ولا طريق لكم إلى علمه كحقيقة الروح فقولوا: الله أعلم .

[ذلكم] الحاكم العظيم الشأن [الله ربّي] ومالكي [عليه توكّلت] في مجامع اُموري خاصّة دون غيره [وإليه اُنيب] أرجع في مهمّات اُموري وحيث كان التوكّل أمراً واحداً مستمرّاً والإنابة متعدّدة متجدّدة حسب تجدّد موادّها عبّر في الأوّل بصيغة الماضي وفي الثاني بصيغة المستقبل .

واحتجّ نفاة القياس بهذه الآية . وقوله : « ذلكم الله » معترضة بين الصفة والموصوف .

ثمّ وصف سبحانه نفسه بقوله :

فاطر السموات و الارض جعل لكم من أنفسكم ازواجا و من الانعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير (١١) له مقاليد السموات و الارض يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر انه بكل شيء عليم (١٢) شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذين اوحينا اليك و ما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن اقيموا الدين ولاتتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه الله يجتبي اليه من يشاء و يهدي اليه من ينيب (١٣) وما تفرقوا الامن بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم و لولا كلمة سبقت من ربك الى اجل مسمى لقضى بينهم وان الذين اورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب (١٤) فلذلك فادع واستقم كما امرت ولاتتبع اهواءهم وقل آمنت بما انزل الله من كتاب و امرت لا عدل بينكم الله ربنا وربكم لنا اعمالنا ولكم اعمالكم لاحجة بيننا و بينكم الله يجمع بيننا واليه المصير (١٥) .

قوله : [فاطر السماوات] قرىء بالرفع على أنّه خبر « ذلكم » أو خبر مبتدء محذوف و بالجرّ على أنّه بدل من قوله : « فحكمه إلى الله » أي الله خالق السماوات و الأرض و مبتدعها .

[و جعل لكم من أنفسكم] من جنسكم من الناس [أزواجاً] أي ذكوراً و إناثاً و أشكالاً يأنس بعضهم ببعض [ومن الأنعام أزواجاً] ذكوراً وإناثاً لتكمل منافعكم بها أي و خلق أيضاً للأنعام من أنفسها أزواجاً .

[يذرؤكم] أي يكثّركم يقال : ذرأ الله الخلق أي كثّرهم . وقوله : [فيه] أي في هذا التدبير في الخلقة من الزوجيّة توجب التكاثر والتناسل والضمير في «يذرؤكم» يرجع إلى المخاطبين غلب جانب العقلاء على غيرهم ولم يقل : يذرؤكم به ، وقال : فيه ، كأنّه جعل هذا التدبير كالمعدن لهذا التكثير كما قال : « ولكم في القصاص حياة(١) » .

ثمّ قال : [ليس كمثله شيء وهو السميع البصير] أي مثله شيء والكاف زائدة مؤكّدة لمعنى النفي قال أوس بن حجر :

و قتلى كمثل جذوع النخيـ * ـل يغشاهم سبل منهمر

وقيل : الكاف ليست بزائدة فالمعنى حينئذ أنّه لو قدّر لله تعالى مثل لم يكن لذلك المثل مثل والصحيح هو الأوّل .

واحتجّ علماء التوحيد قديماً وحديثاً بهذه الآية في نفي كونه تعالى جسماً مركّبا من الأعضاء والجوارح والأجزاء وحاصلاً في المكان والجهة فضلاً عن البراهين القاطعة عن نفي جسميّته وتحيّزه قالوا : لو كان تعالى جسماً لكان مثلاً لسائر الأجسام فيلزم حصول الأمثال والأشباه له وذلك باطل بصريح قوله : «ليس كمثله شيء» والمراد بالمماثلة المساواة في حقيقة الذات والمعنى أنّ شيئاً من الذوات لا يساوي الله في الذاتيّة ولا يماثله فلو كان الله جسماً لكان كونه جسماً ذاتاً لا صفة والأجسام متماثلة في كونها متحيّزة مثلاً أو طويلة أو عريضة وعميقة فحينئذ تكون سائر الأجسام مماثلة لذات الله في كونه ذاتاً و النصّ ينفي ذلك فوجب بالنصّ أن لا يكون جسماً .

هذا تمام الكلام في نفي الجسميّة عنه سمعاً ولو أنّ في صفاته أيضاً لا يماثله و لا

---

(١) البقره : ١٧٩ .

يساويه شيء قطعاً لكن لعلّ بعض الجهلة يناقشون في بعض الصفات بأن يقولوا : إنّ العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين كما أنّ الله يوصف بذلك مثل أنّه تعالى قال في هذه الآية: « وهو السميع البصير » وقال في حقّ الإنسان : « فجعلناه سميعاً بصيراً » وأمثال ذلك لكن هذا قياس مع الفارق فالمثليّة في الذات غير منقول وغير معقول بالكلّيّة لأنّ المثلين هما اللّذان يقوم كلّ واحد منهما مقام الآخر في حقيقته و ماهيّته .

والفرق بين المثل والمثل أنّ المثل هو الّذي يكون مساوياً للشيء في تمام الماهيّة والمثل هو الّذي يكون مساوياً له في بعض الصفات الخارجة عن الذات والماهيّة و إن كان مخالفاً في تمام الماهيّة واختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات البتّة لأنّا نرى الجسم الواحد كان ساكناً ثمّ يصير متحرّكاً ثمّ يسكن بعد ذلك فالذوات باقية في الأحوال كلّها على نهج واحد ونسق واحد والصفات متعاقبة متزايلة فاختلاف الصفات و الأعراض لا يوجب اختلاف الذوات وأنّ علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام في الذوات والحقيقة وعلى هذا ظهر أنّه لو كان إله العالم جسماً لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام إلّا أنّ هذا باطل بالعقل والنقل أمّا العقل فلأنّ ذاته إذا كانت مساوية لذوات الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصحّ على سائر الأجسام من القبول للتفرّق و التمزّق و الفناء و العدم ويلزم كونه محدثاً وأمّا النقل فقوله : «ليس كمثله شيء» .

ولمّا ثبت أنّ الأجسام متماثلة في تمام الماهيّة فلو كانت ذاته جسماً لكان ذلك الجسم متماثلاً ومساوياً لسائر الأجسام ويلزم أن يكون كلّ جسم مثلاً له لما بيّنّا أنّ المعتبر في حصول المماثلة اعتبار الحقائق من حيث هي هي لا اختلاف الصفات القائمة بها .

ثمّ ههنا بحث وهو أنّ ظاهر قوله : «ليس كمثله شيء» يقتضي إثبات المثل ويقتضي نفي المثل عن مثله لا عنه وذلك يوجب إثبات المثل له تعالى .

و الجواب أنّ العرب يقول: مثلك لا يبخل أي أنت لا تبخل، فنفوا البخل عن مثله وهم يريدون نفيه عنه ويقال : لا يقال لمثلي هكذا أي لا يقال لي هكذا، أو المراد بهذه العبارة المبالغة لأنّه إذا كان ذلك الحكم منتفياً عن من كان مشابهاً بسبب كونه مشابهاً له فلأن يكون منتفياً عنه كان ذلك أولى فحينئذ فالمعنى ليس كهو شيء على سبيل المبالغة بطريق الوجه المذكور و

لم يكن هذا اللفظ ساقطاً عديم الأثر بل أبلغ .

وفي الآية بيان آخر وهوأن يقال : إنّ المراد من الجمع بين حرفي التشبيه الدلالة على كونه منزّهاً عن المثل لأنّه لوكان لهمثل مثل نفسه لكان مساوياً لمثله في تلك الماهيّة ومبايناً له في نفسه وما به المشاركة غير ما به المباينة فيكون ذات كلّ واحد منهما مركّباً فلمّا حصل لواجب الوجود مثل حصل التركيب وانتفى الواجبيّة ، انتهى .

[و هو السميع البصير] سامعاً للمسموعات مبصراً للمرئيّات ولكن رؤيته تعالى و سماعه لايحصل بالقرع في الصماخ والتموّج في الهواء وتأثّر الحدقة بصورة المرئي لأنّ ذلك على الله محال .

قوله تعالى : [له مقاليد السماوات والأرض] أي مفاتيح أرزاق السماوات و الأرض وأسبابها وموجباتها فتمطر السماء بأمره وتنبت الأرض بإذنه . وقيل : المعنى : له خزائن السماوات والأرض والمراد أنّ الأصنام الّتي تعبدونها ليست موصوفة بهذه الصفات [يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر] أي يوسّع ويقتر لمن يشاء على ما يعلمه من المصالح للعباد [إنّه بكلّ شيء عليم] فيفعل ذلك على وجه الحكمة .

ثمّ خاطب سبحانه [شرع لكم من الدين ماوصّى به نوحاً] أي بيّن لكم و نهج و أوضح من التوحيد والدين والبراءة من الشرك « ماوصّى به نوحاً » و الخطاب إلى اُمّة محمّد ﷺ أي شرع الله لكم يا أصحاب محمّد من الّدين ما وصّى به نوحاً و محمّداً و إبراهيم و موسى وعيسى .

وإنّما خصّ هؤلاء الخمسة بالذكر لأنّهم أكابر الأنبياء وأصحاب الشرائع العظيمة والأتباع الكثيرة . والمراد من الدين الأخذ بالشريعة المتّفق عليها بين الكلّ من التوحيد والمعاد والإلهيّات غير التكاليف والأحكام المتعلّقة بالأنبياء لأنّها مختلفة متفاوتة كما قال سبحانه : «لكلّ جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً[1]» فيجب أن يكون المراد منه الاُمور الّتي لايختلف باختلاف الشرائع [والّذي أوحينا إليك] يا محمّد [و] هو [ما وصّينا به إبراهيم و موسى وعيسى] .

(١) المائدة : ٥١ .

ثمّ شرح ذلك بقوله : [أن أقيموا الدّين و لا تتفرّقوا فيه] والمراد من إقامة الدين التمسّك به والعمل بموجبه والدوام عليه والدعوة به للخلق «ولاتتفرّقوا» أي ائتلفوا فيه ولاتختلفوا و كونوا عباد الله إخواناً متّفقين في الدّين كما قال يوسف عليه السلام : «أأرباب متفرّقون خير أم الله الواحد القهّار[1]» وقال تعالى : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلّا نوحي إليه أنّه لا إله إلّا أنا فا عبدون[2]» .

واحتجّ بعضهم بقوله : « شرع لكم » على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله في أوّل الأمر كان مبعوثاً بشريعة نوح والجواب ما بيّنّاه .

قوله : [كبر على المشركين ماتدعوهم إليه] من توحيد الله والإخلاص له خاصّة و رفض الأوثان لأنّهم قالوا : «أجعل الآلهة إلهاً واحداً» فثقل هذا الأمر عليهم ولذلك عظم اختيارنا لك في النبوّة وتخصيصك بالوحي من دونهم .

فبيّن سبحانه أنّه ليس لهم الاختيار [الله يجتبي إليه من يشاء] لرسالته على حسب ما يعلم من قيامه بأعباء الرسالة،واشتقاق لفظ الاجتباء يدلّ على الضمّ والجمع ومنه جبى الخراج وجبى الماء في الحوض فقوله : «الله يجتبي إليه» أي يضمّه إليه ويقرّبه منه تقريب الشرف والرحمة وهو كما روي في الخبر:من تقرّب منّي شبراً تقرّبت منه ذراعاً ومن أتاني بمشي أتيته هرولة [ويهدي اليه من ينيب] أي من أقبل إليّ بطاعته أقبلت إليه بهدايتي بأن أشرح له صدره ولمّا بيّن أنّه سبحانه أمر كلّ الأنبياء والاُمم بالأخذ بالدين كان لقائل أن يقول : فما السبب أن نجد الاُمم متفرّقين ؟

فأجاب الله عنهم بقوله : [وما تفرّقوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم] لأنّهم فعلوا ذلك التفرّق للبغي و طلب الرياسة فحملتهم الحميّة النفسانيّة على أن ذهب كلّ طائفة إلى مذهب و دعا الناس إليه فصار ذلك سبباً لوقوع الاختلاف .

ثمّ أخبر سبحانه أنّهم استحقّوا العذاب بسبب هذا الفعل إلّا أنّه أخّر عذابهم لأنّ لكلّ عذاب عنده أجل مسمّى و وقتاً معلوماً فقال : [و لو لا كلمة سبقت من

---

(١) يوسف : ٣٩ .

(٢) يوسف : ١٠٩ . و يس : ٤٣ . و الانبياء : ٢٥ . و الحج: ٥٢ . و الزخرف : ٢٣ .

ربك إلى أجل مسمى لقضي بينهم] و الأجل المسمى قد يكون في الدنيا و قد يكون في القيامة .

واختلفوا في الذين اُريدوا بهذه الصفة من هم؟ فقال الأكثرون : هم اليهود والنصارى والدليل عليه قوله في آل عمران : « وما اختلف الذين اُوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم» وقال سبحانه أيضاً في سورة لم يكن : «وما تفرق الذين اُوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم البينة» وهو لائق بأهل الكتاب .

وقال آخرون : إنهم هم العرب وهذا القول باطل لأنه سبحانه بعده قال : [وإن الذين اُورثوا الكتاب من بعدهم لفي شك منه مريب] فهم أهل الكتاب الذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ ففي شك من كتابك و كتابهم لا يؤمنون به حق الايمان لأن كتابهم أنت منعوت فيه .

[فلذلك فادع واستقم كما اُمرت] أي فلأجل ذلك التفرق و لأجل ما حدث من الاختلاف الكثيرة فادع إلى الاتفاق على الملة الحنيفة واستقم عليها كما أمرك الله [ولا تتبع أهواءهم] الباطلة المختلفة .

[وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب] أي بأي كتاب صح أنه منزل من عنده لأن كلها يدل على وجوب الايمان بالله [واُمرت لأعدل بينكم] في الحكم إذا تخاصمتم قال القفال المروزي : معناه إن ربي أمرني أن لا اُفرق بين نفسي و أنفسكم بأن آمركم بما لا أعمله أو اُخالفكم إلى ما نهيتكم عنه واُسوي بينكم من الأكابر و الأصاغر فيما يتعلق بحكم الله .

ثم قال : [الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير] أي إن إله الكل واحد و كل واحد مرهون بعمل نفسه فإن الله يجمع الكل في يوم القيامة ولا جدال ولا خصومة بيننا فقد ظهر الحق والباطل لأن أمركم قد ظهر فيه البغي والعداوة علينا ولستم تطلبون المعرفة بالدليل حتى يظهر المحق من المبطل فإذا عاند الانسان في البغي والعداوة سقط الحجاج بينه وبين أهل الحق .

واعلم أن هذه الآية قبل أن يؤمر ﷺ بقتالهم وكانت المتاركة محدودة إلى أن نزلت

آية السيف . وقيل : هذا البيان محاجرة في مواقف المجاوبة لا متاركة في مواطن المحاربة حتّى يصار إلى النسخ بآية القتال و ليس المراد تحريم المحاجّة بل المراد أنّ المحاجّة و إتيان الدليل ليس بنافع لكم لأنّ قوله : «ادع إلى سبيل ربّك» و قوله : «وجادلهم بالّتي هي أحسن [(١)]» و أمثال تلك الآيات دالّة على وجود إقامة الدليل في الحقّ بل الغرض من قوله : «لا حجّة بيننا و بينكم» أنّكم عرفتم بالحجّة صدق قولي ولكنّكم تركتم التصديق بغياً و عناداً .

قوله تعالى : و الذين يحاجون فى الله من بعد ما استجيب له حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد(١٦) الله الذى أنزل الكتاب بالحق و الميزان وما يدريك لعل الساعة قريب (١٧) يستعجل بها الذين لايؤمنون بها والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون انها الحق ألا ان الذين يمارون فى الساعة لفى ضلال بعيد (١٨) الله لطيف بعباده يرزق من يشاء وهو القوى العزيز (١٩) من كان يريد حرث الاخرة نزدله فى حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله فى الاخرة من نصيب (٢٠) .

لمّا تقدّم ظهور الحجّة وانقطاع المحاجّة لأنّها من غير فائدة ذكر حال من يحاجّ بالباطل فقال :

[و الّذين] الآية أي الّذين يخاصمون رسول الله في إثبات دينه [من بعد ما] دخل الناس في الإسلام وأجابوه ﷺ إلى مادعاهم إليه [حجّتهم داحضة] و باطلة حيث زعموا أنّ دينهم أفضل من الإسلام وذلك أنّ اليهود قالوا : ألستم تقولون أنّ الأخذ بالمتّفق أولى من الأخذ بالمختلف؟فنبوّة موسى عليه السلام و حقيّة التوراة معلومة بالاتّفاق ونبوّة محمّد ﷺ ليست متّفقة عليها فإذا كان الأخذ بالمتّفق أولى فوجب أن يكون الأخذ باليهوديّة أولى فبيّن سبحانه أنّ هذه الحجّة فاسدة وذلك أنّ اليهود أطبقوا على أنّه إنّما وجب الإيمان بموسى لأجل ظهور المعجزات على وفق قوله وههنا أيضاً ظهرت المعجزات على وفق قول محمّد ﷺ واليهود شاهدوا تلك المعجزات فإن كان المناط ظهور المعجزة و يدلّ

---

(١) النحل : ١٢٥ .

على الصدق فههنا أيضاً يجب الاعتراف بنبوّة محمّد وإن كان لايدلّ على الصدق وجب في حقّ موسى أن لايقرّوا بنبوّته وأمّا الإقرار بنبوّة موسى و الإصرار على إنكار نبوّة محمّد مع استوائهما في ظهور المعجزة يكون متناقضاً.

وقيل: معنى الآية «والّذين يحاجّون في الله» بنصرة مذهبهم «من بعد ما استجيب» للنبيّ ﷺ دعاؤه في كفّار بدر حتّى قتلهم الله بأيدي المؤمنين واستجيب أيضاً دعاؤه على أهل مكّة حتّى قحطوا، ودعاؤه للمستضعفين حتّى خلصهم الله من أيدي قريش و غير ذلك ممّا يطول شرحه وتعداده ومن بعد ما استجيب لمحمّد ﷺ دعاؤه في إظهار المعجزات و إقامتها.

[وعليهم غضب] أي غضب الله عليهم لأجل كفرهم [ولهم عذاب شديد] دائم يوم القيامة.

[الله الّذي أنزل الكتاب بالحقّ والميزان] أي أنزل القرآن بالحقّ والصدق فيما أخبر به من ماض ومستقبل وأمر ونهي وفرائض و أحكام كلّه حقّ من الله. و الميزان عبارة عن العدل كنّي به عن العدل لأنّ الميزان آلة الإنصاف والتسوية بين الحقّ. وقيل: أراد به الميزان المعروف وأنزله الله من السماء وعرّفهم كيف يعملون به بالحقّ و كيف يزنون به وقيل: الميزان محمّد يقضي بينهم بالقرآن و يكون المعنى على التوسّع و التشبيه.

ثمّ خوّفهم بعذاب القيامة فقال: [وما يدريك لعلّ الساعة قريب] أي متى تفاجئهم؟ وإنّهم لايعلمون وقتها، ومتى كان الأمر كذلك وجب على العاقل أن يتحرّز ضرر المظنون فضلاً عن المقطوع وما يعلّمك يا محمّد ولاغيرك لعلّ مجيء الساعة قريب، وخفي وقت مجيئها على العباد ليكونوا على خوف وليبادروا على التوبة ولو عرفهم مجيئها لكانوا مغرين بالقبائح قبل ذلك تعويلاً على التلافي بالتوبة.

ولمّا كان الرسول ﷺ يهدّدهم بمجيء القيامة وأكثر القول في ذلك وأنّهم ماراوا منه أثراً قالوا على سبيل السخريّة: فمتى يقوم القيامة وليتها قامت حتّى يظهر لنا أنّ الحقّ مانحن عليه أو الّذي عليه محمّد وأصحابه فقال سبحانه: [يستعجل بها الّذين لايؤمنون بها والّذين آمنوا مشفقون منها] وإنّما يشفقون ويخافون لعلمهم أنّ عندها تمتنع التوبة

و أمّا منكرو البعث فلأنّه لايحصل لهم هذا الخوف .

[ألا إنّ الّذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد] فنبّه سبحانه الّذين يدخلهم المرية والشكّ في وقوع الساعة ويمارون فيها ويجحدون في نهاية من الضلالة لأنّ استيفاء حقّ المظلوم من الظالم أمر واجب في العدل فلولم يحصل القيامة لزم إسناد الظلم إلى الله و هذا من المحالات فلاجرم كان إنكار القيامة ضلالاً بعيداً .

ثمّ قال : [الله لطيف بعباده] أي كثير الإحسان بهم لأنّه أنزل عليهم الكتاب المشتمل على ماينفعهم ومايضرّهم فكان ذلك لطفاًلهم. وقيل : المراد من اللطيف العالم بخفيّات الأُمور . والمراد ههنا الموصل إلى العباد المنافع على وجه يدقّ إدراكه وذلك في الأرزاق الّتي قسّمها لعباده وصرف الآفات عنهم وإيصال الملاذّ إليهم .

ثمّ قال : [يرزق من يشاء] أي يوسّع الرزق على من يشاء ويجعله في خفض ودعة ومن يشاء في كدّ ومشقّة و كلّ من رزقه الله من ذي روح فهو ممّن شاء الله أن يرزقه [وهو القويّ] أي القادر الّذي لا يعجز [العزيز] الغالب الّذي لا يغالب .

قوله تعالى : [من كان يريد حرث الآخرة نزدله في حرثه] ولمّا بيّن أنّه تعالى كثير الإحسان بعباده أمرهم بالكسب و السعي في طلب الخيرات و في الاحتراز عن القبائح فقال : « من كان يريد» كسب الآخرة نضاعف له ثواب عمله و نعطيه على الواحد عشرة و نزيد على ذلك ما نشاء ويسمّى الكسب و مايعمله العامل من أُمور يطلب بها الفائدة حرثاً على سبيل المجاز .

[ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب] أي ومن كان يعمل عملاً يكون قصده فائدة في الدنيا ونفع منها نعطه نصيباً من الدنيا لاجميع ما يريده بل على حسب مايقتضيه الحكمة وليس له في الآخرة نصيب وحظّ . وقيل : معناه من قصد بالجهاد وجه الله فله سهم الغانمين والثواب في الآخرة ومن قصد به الغنيمة لم يحرم ذلك وحصل له سهم الغنيمة ولكن ليس له نصيب من الثواب في الآخرة .

وفي الكافي عن الصادق عَلَيْهِ السَّلَامُ في معنى قوله : « الله لطيف بعباده يرزق من يشاء » قال : ولاية أمير المؤمنين ، وقوله : « من كان يريد حرث الآخرة » قال : معرفة أمير المؤمنين

والأئمة و « نزدله في حرثه » أي نزيده منها و نستوفي نصيبه من دولتهم « ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب » قال عليه السلام : ليس له في دولة الحق مع الإمام نصيب وله النار .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال : من كانت نيته الدنيا فرق الله عليه أمره و جعل الفقر بين عينيه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ومن كانت نيته الآخرة جمع الله شمله و جعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة وقيل : من كان يعمل للآخرة نال الدنيا والآخرة ومن عمل للدنيا فلاحظ له من ثواب الآخرة لأن الأعلى لايجعل تبعاً للأدون .

و كلمة « من » في الآية للتبعيض تدل على أن من طلب كسب الدنيا لا يعطى إلا الشيء القليل، وكذلك الآية مشعرة بأن منافع الآخرة والدنيا ليست حاضرة بل لابد في البابين من الحرث والحرث لايتأتى إلا بتحمل المشاق في البذر ثم التسقية وإصلاح الأرض والتنمية ثم الحصد ثم التنقية فلما سمى الله كلا القسمين حرثاً علمنا أن كل واحد منهما لايحصل إلا بتحمل المتاعب والمشاق .

قوله تعالى : أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله ولولا كلمة الفصل لقضى بينهم وان الظالمين لهم عذاب اليم (٢١) ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع بهم والذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنات لهم مايشاءون عند ربهم ذلك هو الفضل الكبير (٢٢) ذلك الذى يبشر الله عباده الذين آمنوا و عملوا الصالحات قل لااسئلكم عليه اجرا الا المودة في القربى ومن يقترف حسنة نزدله فيها حسنا ان الله غفور شكور (٢٣) أم يقولون افترى على الله كذبا فان يشأ الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته انه عليم بذات الصدور (٢٤) وهو الذى يقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات ويعلم ماتفعلون (٢٥) .

ولما بين سبحانه القانون الأعظم والقسطاس الأقوم في أعمال الآخرة والدنيا أردفه في هذه الآية على ماهو الأصل في باب الضلالة والشقاوة فقال :

[أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله] الاستفهام للتقريع أي بل لهم شركاء من الشياطين شرعوا لهم بالتسويل من الدين مالم يأذن به الله كالشرك و إنكار

البعث وشركاؤهم شياطينهم الّذين زيّنوا لهم الشرك والعمل للدنيا،وقيل : الشركاء أوثانهم وإنّما اُضيفت إليهم لأنّهم هم الّذين اتّخذوها شركاء لله ولمّا كانت سبباً لضلالتهم جعلت شارعة لدين الضلالة كما قال إبراهيم عليه السلام : « ربّ إنّهنّ أضللن كثيراً من الناس [1] » والمراد من قوله : « شرعوا لهم من الدين مالم يأذن به الله » يعني أنّ تلك الشرائع بأسرها على ضدّ دين الله .

ثمّ قال سبحانه : [ولولا كلمة الفصل] أي القضاء السابق بتأخير الجزاء ، أو ولولا الوعد بأنّ الفصل يكون يوم القيامة [لقضي بينهم] بين الكافرين والمؤمنين في الدنيا وحاصل المعنى أنّه لولا حكم الله بتأخير العذاب لهذه الاُمّة إلى الآخرة لعذّبهم [وإنّ الظالمين] الّذين يكذّبونك في الدنيا [لهم] في الآخرة [عذاب أليم] .

ثمّ ذكر سبحانه أحوال أهل العقاب وأهل الثواب أمّا الأوّل فهو قوله : [ترى الظالمين مشفقين] خائفين [ممّا كسبوا و هو واقع بهم] من المعاصي وهو العقاب الواقع بهم لا محالة ولا ينفعهم خوفهم والإشفاق الخوف من جهة الرقّة على المخوف عليه من وقوع الأمر يريد سبحانه أنّ وباله واقع بهم سواء أشفقوا أو لم يشفقوا وأمّا الجزء الثاني فهو أحوال أهل الثواب .

[والّذين آمنوا وعملوا الصالحات في روضات الجنّات] لأنّ روضات الجنّة أطيب بقعة فيها ، قال الرازيّ في المفاتيح: في الآية تنبيه على أنّ الفسّاق من أهل الصلاة كلّهم في الجنّة إلّا أنّه خصّ الّذين آمنوا و عملوا الصالحات في البقاع الشريفة من الجنّة فالأمكنة الّتي دون الروضات لابدّ وأن تكون مخصوصة بمن كان دون اُولئك الّذين آمنوا وعملوا الصالحات.

ثمّ قال : [لهم ما يشاءون عند ربّهم] و هذا يدلّ على أنّ كلّ الأشياء حاضرة مهيّأة لهم ثمّ عظّم هذه الدرجة وقال [ذلك هو الفضل الكبير] والأشاعرة استدلّوا بهذه الآية على أنّ الثواب غير واجب على الله وإنّما يحصل بطريق الفضل من الله قالوا : وهذا تصريح بأنّ الجزاء المرتّب على العمل إنّما حصل بطريق الفضل لا بطريق الاستحقاق.

---

(١) ابراهيم : ٣٦ .

ثمّ أعاد البشارة [1] فقال : [ذلك الّذي يبشّر الله عباده] أي ذلك الثواب والفضل الكبير الّذي يبشّر الله به عباده المؤمنين العاملين بالأعمال الصالحة ليستعجلوا بذلك السرور في الدنيا وكيف لا يكون ذلك الثواب فضلاً كبيراً إذ نالوا نعيماً لا ينقطع بعمل قليل منقطع ؟

قوله تعالى: يا محمّد [قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى] روي أنّه اجتمع المشركون في مجمع لهم فقال بعضهم لبعض : أترون أنّ محمّداً يسأل على ما يتعاطاه أجراً فنزلت الآية أي لا أطلب منكم على ما أنا عليه من التبليغ نفعاً و أجراً إلّا المودّة في القربى . وقيل : الاستثناء منقطع أي لا أطلب الأجر لكن أسألكم المودّة .

واختلف في معناه على أقوال :

أحدها : لا أسألكم على التلبيغ وتبليغ الشريعة أجراً إلّا التوادّ و التحابّ فيما يقرّب إلى الله من العمل الصالح عن الحسن والجبّائي وأبي مسلم قالوا : المراد هو التقرّب إلى الله والتودّد إليه بالطاعة .

وثانيها : أنّ معناه إلّا أن تودّوني في قرابتي منكم وتحفظوني لها ، عن ابن عبّاس و قتادة و مجاهد و جماعة ، قال الشعبيّ : سألنا ابن عبّاس عن الآية قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان واسط النسب من قريش ليس بطن من بطونهم إلّا وقد ولّده ، فقال الله : قل لا أسألكم على ما أدعوكم إليه أجراً إلّا أن تودّوني لقرابتي منكم فيصير المعنى : إنّكم قومي وأحقّ من إجابتي وإطاعتي فإذا قد أبيتم ذلك فاحفظوا حقّ النسب ولا تؤذوني ولا تهيّجوا عليّ .

القول الثالث : روى الكلبيّ عن ابن عبّاس قال : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا قدم المدينة كانت تعروه نوائب وحقوق وليس في يده سعة فقال الأنصار : إنّ هذا الرجل صلى الله عليه وآله

---

(١) بل البشارة انما هى باعتبار ما بعدها من أجر الرسالة و لذلك قال فى أول السورة ان الاية وما بعدها الى أربع آيات نزلت بالمدينة فالبشارة للمؤمنين المصاحبين لاجل انه لم يسأل على اداء رسالته أجراً بل ألزمهم المودة فى القربى فقط وهى عبادة وحسنة وأما ما قيل من أن المراد من القربى قرابته من قريش فهذا غلط فان المخاطبين بذلك القول المسلمون وهم يحبونه صلى الله عليه لمقام الرسالة والهداية لا لقرابة النسب، والنسب فى جنب الرسالة والهداية شىء لا يعبأ به مع ان محبة المسلمين له صلى الله عليه وآله أمر ثابت لا يحتاج الى أى تشويق .

قد هداكم الله على يده وهو ابن اُختكم وجاركم في بلدكم فأجمعوا له طائفة من أموالكم ففعلوه ثمّ أتوه به فردّه عليهم فنزل قوله تعالى : « قل لا أسألكم . الآية » أي إنّي على الإيمان لست أطلب منكم أجراً إلّا أن تودّوا أقاربي وحثّهم على مودّة أقاربه .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام مايقرب هذا المعنى قال عليه السلام : لمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وآله من حجّة الوداع وقدم المدينة أتته الأنصار فقالوا : يارسول الله إن الله عزّ وجلّ قد أحسن إلينا وشرّفنا بك وبنزولك بين ظهرانينا فقد فرّح الله صديقنا وكبّت عدوّنا وقد يأتيك وفود فلا تجد ما تعطيهم فيشمت بك العدوّ فنحبّ أن تأخذ ثلث أموالنا حتّى إذا قدم عليك وفد مكّة وجدت ماتعطيهم فلم يردّ رسول الله عليهم شيئاً وكان صلّى الله عليه وآله ينتظر ما يأتيه من ربّه فنزل عليه جبرئيل و نزلت الآية ولم يقبل أموالهم فقال المنافقون : ما أنزل الله هذا على محمد وما يريد إلّا أن يرفع ابن عمّه و يحمل علينا أهل بيته يقول أمس من كنت مولاه فعليّ مولاه ، واليوم (١) « قل لا أسألكم » الآية ، ولمّا قال المنافقون هذا الكلام و هو إنكارهم أنّ هذه الآية نزلت من الله ، نزلت « أم يقولون افترى على الله كذباً (٢) » فأرسل صلى الله عليه وآله إليهم فتلاها عليهم فبكوا واشتدّ عليهم فنزلت « وهو الّذي يقبل التوبة عن عباده » الآية .

وعنه عليه السلام عن آبائه عليهم السلام : لمّا نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وآله قام رسول الله فقال : إنّ الله تعالى قدفرض لي عليكم فرضاً فهل أنتم مؤدّوه ؟ قال : فلم يجبه أحد منهم فانصرف فلمّا كان من الغد قام فقال مثل ذلك فلم يجبه أحد ، و كذلك في الثالث فلم يتكلّم أحد فقال : أيّها الناس إنّه ليس من ذهب ولا فضّة ولا مطعم ولا مشرب ، قالوا : فألقه إذن،قال : إنّ الله تبارك وتعالى أنزل عليّ « قل لا أسألكم عليه أجرا إلّا المودّة في القربى » فقالوا : أمّا هذه فنعم قال الصادق عليه السلام : فوالله ما وفي بها إلّا سبعة نفر سلمان و أبوذرّ وعمّار والمقدادبن الأسود الكنديّ وجابر بن عبدالله الأنصاري و مولى لرسول الله يقال له الثبيت وزيدبن أرقم .

وفي العيون عن الرضا عليه السلام مايقرب من هذا الحديث .

---

(١) وذلك لانه صلى الله عليه وآله قدقال ذلك القول مرارا قبل يوم الغدير .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه قال: مايقول أهل البصرة في هذه الآية؟ قيل: إنّهم يقولون إنّها لأقارب رسول الله قال: كذبوا إنّما نزلت فينا خاصّة في أهل البيت في عليّ وفاطمة والحسن والحسين أصحاب الكساء عليهم السلام.

وفي كتاب شواهد التنزيل لقواعد التفضيل مرفوعاً إلى أبي أمامة الباهليّ قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: إنّ الله خلق الأنبياء من أشجار شتّى و خلقت أنا و عليّ من شجرة واحدة فأنا أصلها وعليّ فرعها وفاطمة لقاحها والحسن والحسين ثمارها و أشياعنا أوراقها فمن تعلّق بغصن من أغصانها نجى ومن زاغ عنها هوى ولو أنّ عبداً عبدالله بين الصفا و المروة ألف عام ثمّ ألف عام ثمّ ألف عام حتّى يصير كالشنّ البالي ثمّ لم يدرك محبّتنا أكبّه الله على منخريه في النار ثمّ تلا هذه الآية.

وروى زاذان عن عليّ عليه السلام قال: فينا في آل حم آية لايحفظ مودّتنا إلّا كلّ مؤمن ثمّ قرأ هذه الآية وإلى هذا أشار الكميت في شعره حيث يقول:

وجدنا لكم في آل حم آية * تأوّلها منّا تقيّ و معرب

وبالجملة فإن قيل: إنّ طلب الأجرة على تبليغ الوحي والرسالة لايجوز لأنّه كان واجباً عليه صلى الله عليه وآله وطلب الأجرة على الأمر الواجب غير جائز كما قال نوح عليه السلام: «وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلّا على ربّ العالمين» على أنّ طلب الأجر كان يوجب التهمة وذلك ينافي القطع بصحّة النبوّة وظاهر الآية أنّه جعل المودّة في القربى أجر التبليغ.

فالجواب من وجهين: الأوّل أنّ الاستثناء منقطع فحينئذ «إلّا» بمعنى بل والثاني أنّ الاستثناء متّصل لكنّه لمّا كانت المودّة في القربى أمر واجب في الإسلام فلا يكون أجراً للنبوّة والتبليغ وهو من باب قول النابغة:

ولاعيب فيهم غير أنّ سيوفهم * بها من قراع الدارعين فلول [1]

فيصير المعنى في الآية أنا لا أطلب منكم إلّا هذا، و هذا في الحقيقة ليس أجراً لأنّ حصول المودّة بين المسلمين أمر واجب قال تعالى: «و المؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء

(١) كذا في التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازي من غير نسبة الى النابغة والمشهور الصحيح في قول النابغة: بهن فلول من قراع الكتائب.

بعض[1] » وقال ﷺ : المؤمنون كالبنيان يشدّ بعضهم بعضاً فإذا كان حصول المودّة بين المسلمين واجباً فحصولها في حقّ أشرف المسلمين وأكابرهم أولى فحينئذ المودّة في القربى ليست أجراً فرجع الحاصل إلى أنّه لاأجر .

ونقل صاحب الكشّاف عن النبيّ ﷺ أنّه قال : من مات على حبّ آل محمّد ﷺ بشّره ملك الموت بالجنّة ثمّ منكر ونكير ، ألاومن مات على حبّ آل محمّد يزفّ إلى الجنّة كما تزّف العروس إلى بيت زوجها ، ألا ومن مات علىحبّ آل محمّد فتح له في قبره بابان إلى الجنّة ، ألاومن مات على حبّ آل محمّد جعلالله قبره مزار ملائكة الرحمة ألا ومن مات على حبّ آل محمّد مات علىالسنّة والجماعة ، ألا ومن مات على بغض آل محمّد جاء يوم القيامة مكتوباً بين عينيه آيس من رحمةالله ألا ومن مات على بغض آل محمّد مات كافراً ألا ومن مات على بغض آلمحمّد لم يشمّ رائحة الجنّة .

قال الرازيّ : الآل هم الّذين يؤول أمرهم إليه و معلوم أنّ كلّ من كان أمرهم إليه أشدّ وأكمل كانواهم الآل،ولاشكّ أنّ فاطمة وعليّاً والحسن و الحسين كان التعلّق بينهم وبين رسولالله أشدّ التعلّقات وهذا هوالمعلوم بالنقل المتواتر فوجب أن يكونوا هم الآل،وأيضاً اختلف الناس فيالآل فقيل : هم الأقارب و قيل : هم اُمّته فإن حملناه على القرابة فهم الآل وإن حملناه على الاُمّة الّذ ين قبلوا دعوته فهم أيضاً آل فثبت أنّ على جميع التقادير هؤلاءهمالآل وأمّا غيرهم فهل يدخلون تحت لفظ الآل فمختلف فيه،انتهى كلام الرازيّ .

وروى صاحبالكشّاف أنّه لمّا نزلتهذه الآيةقيل : يارسولالله من قرابتكهؤلاء الّذين وجبت علينا مودّتهم فقال ﷺ : عليّ و فاطمة وابناهما فثبت بهذا أنّ هؤلاء الأربعة أقاربالنبيّ وهممخصوصون بمزيد التعظيم وقال ﷺ : فاطمة بضعةمنّييؤذيني مايؤذيها . وثبت بالنقل المتواتر عن النبيّ ﷺ أنّه كان يحبّ عليّاً وفاطمة والحسن و الحسين ولمّا ثبت ذلك وجب على كلّ الاُمّة مثله لقوله : « واتّبعوه لعلّكم تهتدون[2] »

(١) المائده : ٥٤ .

(٢) البقره : ٥٣ و ١٥٠ .

ولقوله سبحانه: « لقد كان لكم في رسول الله اُسوة حسنة » و الدعاء منصب عظيم و فريضة ولذلك جعل هذا الدعاء خاتمة التشهّد في الصلاة وهو قوله: اللهم صلّ على محمّد و آل محمّد وهذا التعظيم لم يوجد في حقّ غير الآل فثبت أنّ حبّ آل محمّد واجب قال الشافعيّ:

يارا كبا قف بالمحصّب من منى * واهتف بساكن خيفها و الناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى * فيضاً كما نظم الفرات الفائض
إن كان رفضاً حبّ آل محمّد * فليشهد الثقلان أنّي رافضي

وبالجملة فإن قيل: لمَ قال: « إلّا المودّة في القربى » ولم يقل: إلّا المودّة للقربى؟ لأنّ المعنى أنّهم جعلوا مكان محبّة الاُمّة ومحلّها.

قوله تعالى: [ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً] أي من فعل طاعة نزد له في تلك الطاعة حسناً بأن نوجب له الثواب وذكر أبو حمزة الثماليّ عن السدّيّ أنّه قال: إنّ اقتراف الحسنة المودّة لآل محمّد. وصحّ عن الحسن بن عليّ أبي طالب عليه السلام أنّه خطب الناس يوماً وقال في خطبته: أنا من أهل البيت الّذين افترض الله مودّتهم على كلّ مسلم فقال: « قل لا أسألكم عليه أجراً إلّا المودّة في القربى ومن يقترف حسنة نزد له فيها حسناً » فاقتراف الحسنة مودّتنا أهل البيت وروى إسماعيل بن عبد الخالق عن الصادق عليه السلام أنّه قال: إنّها نزلت فينا أهل البيت أصحاب الكساء.

[إنّ الله غفور] للسيّئات [شكور] للطاعات يعامل عباده معاملة الشاكر في توفية الحقّ كأنّه ممّن وصل إليه النفع فشكره.

قوله: [أم يقولون افترى على الله كذباً] أي بل يقولون افترى محمّد على الله كذباً في ادّعائه الرسالة عن الله أو إثبات المودّة للقربى ، فرية افترى محمّد على الله فنزلت « أم يقولون افترى » الآية ، قال صاحب الكشّاف: « أم » منقطعة و معنى الاستفهام فيه التوبيخ كأنّه قيل: أيجري في ألسنتهم أن نسبوا مثله إلى الافتراء على الله ، والفرية أقبح أنواع الكذب وأفحشها.

[فإن يشأ يختم على قلبك] المعنى استشهاد على بطلان مانسبوا إليه من الافتراء أي كأنّه قيل: لوكان افتراء عليه تعالى لشاء عدم صدوره عنك و إن يشأ ذلك يختم على قلبك بحيث لم يخطر ببالك معنى من معاني القرآن ولم تنطق بحرف من حروفه وحيث

لم يكن الأمر كذلك بل تواتر الوحي حيناً بعد حين تبيّن أنّه من عندالله تعالى . وقيل : المعنى: فإن يشأالله يربط على قلبك بالصبر على أذاهم حتّى لا يشقّ عليك قولهم وأباطيلهم من قبيل: إنّه ساحر ومفتر .

ثمّ أخبر سبحانه أنّه يذهب ما يقولونه باطلاً فقال : [ويمح الله الباطل] أي يزيله و يرفعه بإقامة الدلائل على بطلانه وحذف الواو من يمحو في المصاحف كما حذف من قوله : « سندع الزبانية » على اللفظ في ذهابها دون المعنى لالتقاء الساكنين و ليس بعطف على قوله : « يختم » لأنّه مرفوع يدلّ عليه قوله [ويحقّ الحقّ بكلماته] أي و يثبت الحقّ بأقواله الّتي ينزّلها على نبيّه وهو هذا القرآن المعجز . و قيل : المراد من الكلمات الأئمّة والقائم من آل محمّد [إنّه عليم بذات الصدور] و بضمائر القلوب .

[وهو الّذي يقبل التوبة عن عباده] وقد ذكرت قبيل هذا شأن نزول الآية أي إنّ الله يقبل التوبة عنهم وإن جلّت معاصيهم لأنّهم نسبوا الافتراء إلى محمّد ﷺ ومع ذلك قبلت توبتهم وإن جلّت معاصيهم [ويعفو عن السيّئات ويعلم ما تفعلون] من خير و شرّ فيجازيهم على ذلك .

قوله تعالى : ويستجيب الذين آمنوا وعلموا الصالحات و يزيدهم من فضله والكافرون لهم عذاب شديد (٢٦) ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الارض ولكن ينزل بقدر مايشاء انه بعباده خبير بصير (٢٧) وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهوالولي الحميد (٢٨) و من آياته خلق السموات والارض ومابث فيهما من دابة و هو على جمعهم اذا يشاء قدير (٢٩) وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت ايديكم ويعفو عن كثير (٣٠) .

ولمّا تقدّم في الآيات السابقة وعيد أهل العصيان وأرجاهم بقبول التوبة ولو كانت معاصيهم عظيمة وبيان التوبة قد سبق في سورة البقرة ولا يحتاج إلى التكرار و أقلّ ما لابدّ فيه الندم على الماضي والترك في الحال والعزم الراسخ على عدم العود في المستقبل كما يفصح عن هذا المعنى حديث رواه جابر من أنّ أعرابيّاً دخل مسجد رسول الله ﷺ وقال : اللّهمّ إنّي أستغفرك وأتوب إليك و كبّر فلمّا فرغ من صلاته قال له أميرالمؤمنين

علي عليه السلام : يا هذا إنّ سرعة اللسان بالاستغفار توبة الكذّابين فتوبتك يحتاج إلى توبة فقال : ياأميرالمؤمنين وما التوبة ؟ فقال عليه السلام : التوبة اسم يقع على ستّة أشياء : على الماضي من الذنوب : الندامة ، ولتضييع الفرائض : الإعادة ، وردّ المظالم ، وإذابة النفس في الطاعة كما ربّيتها في المعصية ، وإذاقة النفس مرارة الطاعة كما أذقتها حلاوة المعصية ، و البكاء بدل كلّ ضحك ضحكته .

ومسألة التوبة بين الأشاعرة والمعتزلة في أنّ قبولها على الله من باب التفضّل أو الوجوب خلافيّة قالت المعتزلة : يجب على الله عقلاً وقالت الأشاعرة : لايجب على الله شيء وكلّما يفعله بالكرم و التفضّل .

واحتجّت الأشاعرة على صحّة قولهم بقوله : « وهو الّذي يقبل التوبة » و قالوا : إنّه تعالى يمدح بقبول التوبة ولوكان ذلك القبول واجباً لما حصل التمدّح العظيم ألا ترى أنّ من مدح نفسه بأن لايضرب الناس ظلماً ولا يقتلهم غضباً كان ذلك مدحاً قليلاً أمّا إذا قال : إنّي أُحسن إليهم مع أنّ ذلك لايجب عليّ كان ذلك مدحاً و ثناء .

وبالجملة فقوله تعالى : [ويستجيب الّذين آمنوا وعملوا الصالحات] معناه يجيبهم إلى مايسألونه وقيل : ويجيبهم الله في دعاء بعضهم لبعض عن معاذبن جبل وقيل : المعنى إنّ الله يقبل طاعاتهم و عباداتهم ويزيدهم من فضله على ما يستحقّونه من الثواب و قيل : معنى «ويستجيب الّذين آمنوا » أنّ يشفّعهم في إخوانهم .

[ويزيدهم من فضله] أي ويشفّعهم في إخوانهم عن ابن عبّاس روي عن الصادق عليه السلام قال : قال رسول الله : في قوله : « ويزيدهم من فضله » الشفاعة لمن وجبت له النار ممّن أحسن إليهم في الدنيا وقيل : إنّ قوله : « الّذين آمنوا » رفع على أنّه فاعل تقديره ويجيب المؤمنون الله فيما دعاهم الله إليه لكنّ الباقين قالوا : إنّ محلّه النصب و الفاعل مضمر وهوالله وتقديره ويستجيب الله للمؤمنين إلّا أنّه حذف اللام كما حذف في قوله : «و إذا كالوهم » وهذا القول مطابق للمعاني المذكورة وأوجه لأنّ الخبر فيما قبل و بعد عن الله لأنّ ماقبل الآية قوله : «وهو الّذي يقبل التوبة عن عباده و يعفو عن السيّئات » وما بعدها قوله : « ويزيدهم من فضله » فيزيد عطف على «ويستجيب» .

فلو قيل : إنّه تعالى قد يستجيب دعاء الكافر فما فائدة التخصيص للمؤمنين ؟

فالجواب إنّ اجابة دعاء المؤمنين وذكر التخصيص على سبيل التشريف لكن إجابة دعاء الكافر في الدنيا دون الآخرة وهي على سبيل الاستدراج بل [و الكافرون لهم عذاب شديد] .

ولمّا بيّن أنّه يزيد المؤمنين من فضله أخبر أنّ توسعة الأرزاق و تغيّرها تكون على حسب المصالح فقال : [ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض] أي لو وسع الرزق على حسب ما يطلبونه لبطروا وتغالبوا وظلموا في الأرض وخرجوا عن الاستقامة في دنياهم وتغلّب بعضهم على بعض قال ابن عبّاس : بغيهم في الأرض طلبهم منزلة بعد منزلة ودابّة بعد دابّة وملبساً بعد ملبس ولا يقفون على حدّ وهذه الآية كأنّها جواب عن قوله : « ويستجيب» وهو أنّ المؤمن قد يكون في شدّة و محنة وفقر ثمّ يدعو فلا يجاب ولا يشاهد أثر الإجابة فأجاب سبحانه « ولو بسط الله الرزق» .

قال بطل الاعتزال الجبّائي : إنّ هذه الآية تدلّ على بطلان قول المجبّرة من وجهين :

الاول : أنّ حاصل الكلام أنّه تعالى لو بسط الرزق لعباده لبغوا في الأرض فالبغي في الأرض غير مراد فبسط الرزق لهذه الجهة غير حاصل و هذا الكلام يصحّ ويتمّ إذا قلنا إنّه لايريد البغي في الأرض فثبت فساد قول المجبّرة .

الثاني أنّه تعالى بيّن أنّه إنّما لم يرد بسط الرزق لأنّه يفضي إلى المفسدة فلمّا بيّن أنّه لايريد ما يفضي إلى المفسدة فبأن لايكون مريداً للمفسدة أولى و بالجملة فالعقل يحكم بحصول البغي في بسط الرزق و أقلّ مافيه خراب العالم في انتظامه لأنّه لو بسط الرزق وسوّى في الرزق بين الكلّ لامتنع كون البعض خادماً للبعض ولو صار الأمر كذلك لتعطّلت المصالح وانفصمت الأمور بالكلّيّة .

ثمّ إنّ النفوس إذا كانت شريرة فاقدة الآلات والأدوات كان الشرّ يصدر منه قليلاً كما أنّ العرب كانت كلّما اتّسع أرزاقهم ووجدوا من ماء المطر ما يرويهم و من الكلاء و العشب مايشبعهم أقدموا على الغارات والنهب والإنسان متكبّر بالطبع فإذا وجد الغنى

والقدرة عاد إلى مقتضى خلقته الأصليّة وهوالتكبّر والتطاول وإذا وقع في الشدّة عادإلى الطاعة والتواضع .

[ولكن ينزّل بقدر ما يشاء] أي ينزّل من الرزق قدر صلاحهم ما يشاء نظراً منه تعالى لهم بالرأفة و يؤيّده الحديث الّذي رواه أنس عن النبيّ ﷺ عن جبرئيل عن الله تعالى:إنّ من عبادي من لايصلحه إلّا السقم ولو صحّحته لأفسده و إنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا الصحّة ولو أسقمته لأفسده ، وإنّ من عبادي من لايصلحه إلّا الغنى ولو أفقرته لأفسده ، وإنّ من عبادي من لا يصلحه إلّا الفقر ولو أغنيته لأفسده وذلك أنّي اُدبّر عبادي لعلمي بقلوبهم والحديث طويل.

فلو قيل : إنّا نرى كثيراً ممّن يوسّع عليه الرزق يبغي في الأرض .

قلنا:إنّا إذا علمنا على الجملة أنّه سبحانه يدبّر اُمورعباده بحسب مايعلم مصالحهم يمكن أنّ هؤلاء يستوي حالهم في البغي وسّع عليهم أو لم يوسّع عليهم ولو لم يوسّع عليهم لكانوا أسوأحالاً في البغي فلذلك وسّع عليهم .

[إنّه بعباده خبيرٌ بصير] عليم بأحوالهم بصير بمايصلحهم وما يفسدهم .

قوله : [وهوالّذي ينزّل الغيث من بعد ما قنطوا] ولمّا بيّن أنّه تعالى لا يعطيهم ما زاد على قدر حاجتهم لأجل أنّه علم أنّ تلك الزيادة تضرّهم في دينهم بيّن أنّهم إذا احتاجوا إلى الرزق فإنّه لا يمنعهم منه فقال : « وهوالّذي » الآية ، و إنزال الغيث بعد القنوط أدعى إلى الشكر أي ينزّله عليهم من بعد ما يئسوا من نزوله والغيث ما كان نافعاً في وقته والمطر قد يكون ضارّاً في وقته وغير وقته ووجه إنزال بعد القنوط لأنّه أدعى إلى المعرفة بموقع إحسانه .

[وينشر رحمته] ويفرّق نعمته ويبسطها بإخراج النبات والثمار الّتي يكون سببها المطر [وهوالوليّ] الّذى يتولّى تدبير عباده وتقديراُمورهم المالك لهم [الحميد] المحمود على جميع أفعاله .

[و من آياته] الدالّة على وحدانيّته وصفاته الّتي باين بها خلقه [خلق السماوات والأرض] لأنّه لا يقدر على ذلك غيره لما فيهما من العجائب [وما بثّ فيهما من دابّة]

والدابّة ما تدبّ فيدخل فيه جميع الحيوانات وقوله : « من دابّة » أي من حيّ وذي حيات فيصحّ الإطلاق على الملائكة ويمكن أن يكون للملائكة مشي مع الطيران وقد روي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال : فوق السماء السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض ثمّ فوق ذلك ثمانية أوعال بين ركبهنّ وأظلافهنّ كما بين السماء والأرض ثمّ فوق ذلك العرش العظيم .

[وهو على جمعهم إذا يشاء قدير] أي إنّه تعالى على حشرهم إلى الموقف بعد إماتتهم قادر لا يتعذّر عليه ذلك وكلمة « إذا » عند كونها بمعنى الوقت تدخل على المستقبل كما تدخل على الماضي مثل « واللّيل إذا يغشى » .

واحتجّ الجبّائي بقوله تعالى : « إذا يشاء قدير » على أنّ مشيّته محدثة بأن قال إنّ كلمة « إذ » تفيد ظرف الزمان وكلمة « يشاء » صيغة المستقبل فلو كانت مشيّته قديمة لم يكن تخصيصها بذلك الوقت المعيّن من المستقبل فائدة ولمّا دلّ قوله : « إذا يشاء قدير » على هذا التخصيص علمنا أنّ مشيّته محدثة قال أبو السعود : قوله : « إذا يشاء » متعلّق بما قبله لا بقوله « قدير » .

ثمّ قال سبحانه : [وما أصابكم] معاشر الخلق [من مصيبة] من بلوى في نفس أو مال [فبما كسبت أيديكم] من المعاصي [ويعفو عن كثير] منها فلا يعاقب بها قال أهل التحقيق: الآية مخصوصة بالمجرمين وإن خرج مخرج العموم لأنّ الأطفال والمجانين ومن لا ذنب له من المؤمنين قد يصابون بمصائب شديدة مع أنّه لا ذنب لهم وإنّ الأنبياء والأئمّة يمتحنون بالمصائب وليس ذلك لأجل الذنوب بل لأسباب اُخر منها تعريض للثواب العظيم والدرجات العالية .

وروي عن عليّ عليه السلام أنّه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : يا عليّ خير آية في كتاب الله هذه الآية ؛ ما من خدش عود ولا نكبة قدم إلّا بذنب وما عفا الله عنه في الدنيا فهو أكرم من أن يعود فيه وما عاقب عليه في الدنيا فهو أعدل من أن يثنّي على عبده .

قوله تعالى : وما أنتم بمعجزين في الارض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير (٣١) ومن آياته الجوار في البحر كالاعلام (٣٢) ان يشأ يسكن

الريح فيظللن رواكد على ظهره ان في ذلك لايات لكل صبار شكور (٣٣) أويوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير (٣٤)ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص (٣٥) .

قال الواحديّ في البسيط : إنّ قوله تعالى في الآية السابقة : « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم و يعفو عن كثير » أرجى آية في كتاب الله للمؤمنين المذنبين لأنّ الله تعالى جعل ذنوب المؤمنين صنفين صنف كفّره عنهم بالمصائب في الدنيا ، وصنف عفي عنه في الدنيا وهو كريم لا يرجع عن عفوه وهذه سنّته مع المؤمنين .

وأمّا الكافر فلأنّه لا يعجل عليه عقوبة ذنوبه حتّى يوافي يوم القيامة فقال : [فما أنتم بمعجزين في الأرض] أي يا معاشر الكفّار أنتم لاتعجزونني حيث ما كنتم ولا تسبقونني بسبب هربكم في الأرض [وما لكم من دون الله من وليّ ولا نصير] قال الرازيّ : والمراد بهم من يعبد الأصنام و بيّن أنّه لا فائدة فيها البتّة والنصير هو الله فلا جرم هو الّذي تحسن عبادته .

قوله : [و من آياته الجوار] قرىء الجواري بالياء في الوقف و الوصل وقرىء بإثبات الياء في الوصل والحذف ، وإن كانت لاماً قد كثر في كلامهم وذكر من آياته السفن الجواري (فحذف الموصوف لعدم الالتباس) و هي تجري على وجه البحر عند هبوب الرياح .

والغرض من الآية الاستدلال على وجود القادر ، والمعرفة بأنّ هذه النعم العظيمة من الله للعباد، والمراد من «الأعلام » الجبال ؛ قالت الخنساء ترثي أخاها :

وإنّ صخراً لتأتمّ الهداة به * كأنّه علم في رأسه نار

ونقل أنّ النبيّ ﷺ استنشد قصيدتها هذه فلمّا وصل الراوي إلى هذا البيت قال ﷺ : قاتلها الله (١) ما رضيت بتشبيهها له بالجبل حتّى جعلت على رأسه ناراً .

والحاصل أنّ هذه السفن الّتي كالجبال تجري على وجه البحر عند الهبوب على أسرع الوجوه وعند سكون الرياح تقف ومحرّك الرياح ومسكّنها هو الله إذ لا يقدر أحد

(١) ليس ذلك دعاء عليها فان الخنساء اسلمت واستشهدلها اربعة بنين في القادسية ، بل استعجاب واستحسان .

على تحريكها من البشر ولا على تسكينها ، و ذلك يدلّ على وجود الإله القادر و إنّ الله تعالى خصّ كلّ جانب من الأرض بنوع من الأمتعة وبهذه الآلة يحصل المنافع العظيمة للناس وهذا الإنسان الّذي كان في مبدء أمره لا يميّز التبر من التبن جعله ذا قوّة عاقلة بحيث يصدر منه هذه الصناعة وأمثالها وليس ذلك إلّا بحكمته الوافية .

[إنّ في ذلك لآيات لكلّ صبّار شكور] أي في ذلك الّذي ذكر من الدلائل و الآيات آيات دالّة لكلّ صبّار على بلاء الله شكور على آلائه ، و المقصود أنّ المؤمن يجب أن لا يكون غافلاً على التقديرين .

ثمّ قال : [أو يوبقهنّ بما كسبوا ويعف عن كثير] المعنى إن يشأ إسكان الريح يسكن أو إن يشأ يجعل الريح عاصفة يهلك أهل السفن بالغرق عقوبة لهم بما كسبوا من المعاصي ويعف عن كثير من أهلها فلا يغرقهم ولا يعاجلهم بالعقوبة . وقوله : « أو يوبقهنّ » عطف على قوله : « يسكن » أي إن يشأ يهلك ناساً وينج ناساً على طريق العفو منهم ومن قرأ « ويعفو » بالواو فقد استأنف الكلام .

ثمّ قال : [ويعلم الّذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص] قرىء يعلم بالرفع على الاستيناف و بالنصب فللعطف على تعليل محذوف تقديره : لينتقم منهم و يعلم الّذين يجادلون في آياتنا والعطف على التعليل المحذوف كثير في القرآن مثل قوله : « خلق السماوات و الأرض بالحقّ و لتجزى كلّ نفس بما كسبت » أي ليعلم الّذين يجادلون في إبطال آياتنا ما لهم ملجأ يلجؤون إليه . وقرىء بالجزم عطفاً على يعف والمعنى : وإن يشأ يجمع بين إهلاك قوم وإنجاء قوم وتحذير قوم .

قوله تعالى : فما اوتيتم من شيء فمتاع الحيوة الدنيا وما عند الله خير وأبقى للذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون (٣٦) والذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش واذا ما غضبوا هم يغفرون (٣٧) والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلوة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون (٣٨) والذين اذا أصابهم البغي هم ينتصرون (٣٩) وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفى وأصلح فأجره على الله انه لا يحب الظالمين (٤٠) .

ثمّ خاطب سبحانه من تقدّم وصفهم فقال :

[وما أُوتيتم من شيء] ممّا يرغبون و يتنافسون فيه فهو متاع تتمتّعون به مدّة حياتكم ثمّ تموتون فيبقى عنكم أو يهلك المال قبل موتكم [وما عند الله] من ثواب الآخرة [خير] ذاتاً [وأبقى] زماناً حيث لا يزول كهذه المنافع الفانية [الّذين آمنوا] وصدّقوا بتوحيد الله وبما يجب التصديق به [وعلى ربّهم يتوكّلون] وهم متوكّلون ومفوّضون أمرهم إلى الله والتوكّل على الله تفويض الأُمور إليه بأنّها جارية من قبله على أحسن التدبير .

و هذه الخيريّة المذكورة في الآية بقوله : « و ما عند الله خيرٌ » لا تحصل إلّا بشرائط :

الاول : أن يكون العبد من المؤمنين لقوله « للّذين آمنوا » .

الثاني : أن يكون من المتوكّلين على فضل الله لقوله : « وعلى ربّهم يتوكّلون » .

الثالث : أن يكون مجتنباً لكبائر الإثم والفواحش ، عن ابن عبّاس : كبير الإثم هو الشرك وقيل : المراد بكبائر الإثم ما يتعلّق بالبدع و استخراج الشبهات وبالفواحش ما يتعلّق بالقوّة الشهويّة و بقوله : [و إذا ما غضبوا هم يغفرون] ما يتعلّق بالقوّة الغضبيّة .

الرابع : [والّذين استجابوا لربّهم] والمراد تمام الانقياد والرضاء بقضاء الله من صميم القلب و أن لا يكون في قلبه معارضة و منازعة في أمر من الأُمور ويجيبون ما أمر الله إيّاهم .

[وأقاموا الصلاة] وأداموا عليها في أوقاتها وشرائطها [وأمرهم شورى بينهم] أي إذا وقعت بينهم واقعة تشاوروا ولا يتفرّدوا برأي والشورى مصدر كالفتيا بمعنى التشاور ومعنى قوله : « وأمرهم شورى » أي ذو شورى وهي المفاوضة في الكلام ليظهر الحقّ وقيل : المعنى والمقصود بالآية : الأنصار كانوا إذا أرادوا أمراً تشاوروا قبل الإسلام وكان ذلك قبل قدوم النبيّ اجتمعوا وتشاروا ثمّ عملوا عليه فأثنى الله عليهم بذلك . وقيل : هو تشاورهم حين سمعوا بظهور النبيّ صلى الله عليه وآله وورود النقباء حتّى اجتمعوا في دار أبي أيّوب على الإيمان

به ﷺ والنصرة له وقد روي أنّه قال : ما من رجل يشاور أحداً إلّا هدي إلى الرشد [وممّا رزقناهم ينفقون] في طاعة الله وسبيل الخير .

الخامس : [والّذين إذا أصابهم البغي] من غيرهم [هم ينتصرون] ممّن بغى عليهم من غير أن يعتدوا أي يقتصرون في الانتصار على ما يجعله الله لهم ولا يتعدّونه .

وقيل : ينتصرون أي يتناصرون وينصر بعضهم بعضاً نحو يختصمون ويتخاصمون.

وقيل : المعنيّ في الآية المؤمنون الّذين أخرجهم الكفّار من مكّة وبغوا عليهم ثمّ مكّنهم الله في الأرض حتّى انتصروا من ظلمهم .

و قيل : جعل الله المؤمنين صنفين صنفاً يعفون عمّن ظلمهم وهم الّذين ذكروا قبل هذه الآية وهو قوله : « إذا ما غضبوا هم يغفرون » وصنفاً ينتصرون ممّن ظلمهم وهم الّذين ذكروا في هذه الآية والّذي أخذ بحقّه ولم يجاوز في ذلك ما حدّ الله فهو مطيع لله ومن أطاع الله فهو محمود ولا منافاة و تناقض بين الآيات مثل قوله : « وأن تعفوا أقرب للتقوى[1] » وقوله « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين[2] » وقوله تعالى : « و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم فهو خير للصابرين »[3] .

وبيّن هذه الآية من قوله : « والّذين إذا أصابهم البغي هم ينتصرون » أنّ العفو على قسمين قسم يصير سبباً لتسكين الفتنة و رجوع الجاني عن جنايته وقسم يصير سبباً لمزيد الجاني جرءته على الجناية وتلك الآيات في العفو محمولة على القسم الأوّل وهذه الآية محمولة على القسم الثاني فلا منافاة .

و عن النخعيّ أنّه كان إذا قرأها قال : كانوا يكرهون أن يذلّوا أنفسهم فيجترىء عليهم السفهاء قال الشاعر :

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته * و إن أنت أكرمت اللّئيم تمرّدا

فوضع الندى في موضع السيف بالعلى * مضرّ كوضع السيف في موضع الندى

ألا ترى أنّ العفو عن المصرّ يكون كالإغراء له .

---

(١) البقرة : ٢٣٧ .

(٢) الاعراف : ١٩٨ .

(٣) النحل : ١٢٦ .

روي أنّ زينب أقبلت على عائشة فشتمها فنهاها النبيّ صلى الله عليه وآله عنها فلم تنته فقال النبيّ صلى الله عليه وآله لعائشة : دونك فانتصري .

ثمّ إنّه تعالى لم يرغب في الانتصار بل بيّن أنّه مشروع فقط ثمّ بيّن بعده أنّ شرعه مشروط برعاية المماثلة ثم بيّن أنّ العفو أولى بقوله : فمن عفى .

قوله : [وجزاء سيّئة سيّئة مثلها] أي إنّ جزاء سيّئة مثلها فإنّ الأفعال مستتبعة بأجزيتها حتماً نحن زوّجنا الفعال بالجزاء فقيّد سبحانه إنّ الانتصار لابدّ و أن يكون مقيّداً بالمثل فإنّ النقصان حيف و الزيادة ظلم و التساوي عدل و به قامت السماوات والأرض .

فإن قيل : إنّ جزاء السيّئة مشروع مأذون فيه فكيف سمّي بالسيّئة ؟

أجاب صاحب الكشّاف عنه أنّ كلتا الفعلتين الأولى وجزاؤها سيّئة لأنّها تسوء من ينزل به قال الله : «و إن تصبهم سيّئة يقولوا هذه من عندك[١] » يريد ما يسوؤهم من المصائب والبلايا .

و أجاب غيره بأنّه لمّا جعل أحدهما في مقابلة الأخرى أطلق اسم أحدهما على الآخر على سبيل المجاز .

وهذه الآية أصل كبير في علم الفقه فإنّ مقتضاها أن يقابل كلّ جناية بمثلها وقد تأكّد هذا النصّ بنصوص أخر مثل قوله : « و إن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم[٢] » و قوله : « ومن عمل سيّئة فلا يجزى إلّا مثلها[٣] » و قوله تعالى : « كتب عليكم القصاص في القتلى[٤] » .

والقصاص عبارة عن المساواة و المماثلة وقوله : « و الجروح قصاص » فوجب رعاية المماثلة مطلقاً إلّا فيما لا يمكن المماثلة أو خصّه الدليل المنفصل . والتخصيص يقع في صور كثيرة مثلاً إذا قال له : أخزاك الله فليقل مثله أخزاك الله أمّا إذا قذفه قذفاً يوجب الحدّ

---

(١) النساء : ٧٨ .
(٢) النحل : ١٢٦ .
(٣) المؤمن : ٤٠ .
(٤) البقرة : ١٧٨ :

فليس له مثل ذلك بل الحدّ الّذي أمر الله به .

ثمّ قال سبحانه : [فمن عفا و أصلح فأجره على الله إنّه لايحبّ الظالمين] فإذا عفا بشرط القربة لله فيقع أجره على الله وقد روي عن النبيّ ﷺ أنّه قال : إذا كان يوم القيامة نادى مناد : من كان أجره على الله فليدخل الجنّة فيقال : من ذا الّذي أجره على الله ؟ فيقال : العافون عن الناس فيدخلون الجنّة بغير حساب .

قوله تعالى : ولمن انتصر بعد ظلمه فاولئك ماعليهم من سبيل (٤١) انما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الارض بغير الحق اولئك لهم عذاب اليم (٤٢) ولمن صبر وغفران ذلك لمن عزم الامور (٤٣) ومن يضلل الله فماله من بعده و ترى الظالمين لما رأوا العذاب يقولون هل الى مرد من سبيل (٤٤) وتراهم يعرضون عليها خاشعين من الذل ينظرون من طرف خفى وقال الذين آمنوا ان الخاسرين الذين خسروا انفسهم واهليهم يوم القيمة ألا ان الظالمين فى عذاب مقيم (٤٥) .

ثمّ ذكر سبحانه حال المنتصر فقال : من انتصر لنفسه وانتصف من ظالمه [بعد ظلمه] أي بعد أن ظلم وتعدّى عليه فأخذ لنفسه بحقّه فالمنتصرون [ماعليهم] من إثم وعقوبة وذمّ وهنا إضافة المصدر إلى المفعول .

[إنّما السبيل] الإثم والعقاب [على الّذين يظلمون الناس] أي يبدءون بالإضرار أو يعتدون في الانتقام [و يبغون في الأرض بغير الحقّ] و يتكبّرون فيها علوّاً و فساداً [اُولئك] الموصوفون بما ذكر [لهم عذاب أليم] مولم .

[ولمن صبر] وتحمّل المشقّة في رضاء الله [وغفر] فلم ينتصر و لم يعاقب [إنّ ذلك] الصبر و التحمّل [لمن عزم الاُمور] أي الاُمور الثابتة الّتي يحبّها الله و أمر بها فلم ينسخ .

وقيل : عزم الاُمور الأخذ بأصوبها وأعلاها في باب نيل الثواب .

[و من يضلل الله فما له من وليّ من بعده] أي ومن يضلله عن رحمته وجنّته فما له معين سواه و قيل : من عذّبه الله عقوبة له على عناده ليس له وليّ يلي أمره و يدفع عذاب الله عنه .

قوله : [وترى الظالمين لمّا رأوا العذاب] أي تراهم يا محمّد إذا شاهدوا عذاب النار [يقولون هل إلى مردّ من سبيل] ورجوع في الدنيا وذلك تمنّياً منهم .

[وتراهم] يا محمّد [يعرضون عليها] أي على النار قبل دخولهم النار [خاشعين من الذلّ] ساكتين متواضعين في حال العرض [ينظرون من طرف خفيّ] أي خفيّ النظر و يسارقون النظر إلى النار خوفاً منها و ذلّة في نفوسهم كأنّهم ينظرون من عين لا تفتح كلّها و إنّما نظروا ببعضها إلى النار كالمصبور ينظر إلى السيف .

[وقال الّذين آمنوا إنّ الخاسرين] أي المتّصفين بصفة الخسران في الحقيقة هم [الّذين خسروا أنفسهم] بأن فوّتوا عن أنفسهم الانتفاع بنعيم الجنّة وذلك القول من المؤمنين حين ما رأوا عظيم ما نزل بالظالمين قوله : [وأهليهم] أي خسروا أنفسهم و أولادهم و أزواجهم و أقاربهم .

[ألا إنّ الظالمين في عذاب مقيم] إمّا من تمام كلامهم أو تصديق من الله تعالى لهم ، و استدلّ القاضي عبد الجبّار بهذه الآية على أنّ الكافر و الفاسق يدوم عذابهما ، وأجاب الرازيّ أنّ لفظ الظالم المطلق في القرآن مخصوص بالكافر قال تعالى : « و الكافرون هم الظالمون» .

وماكان لهم من اولياء ينصرونهم من دون الله ومن يضلل الله فماله من سبيل (٤٦) استجيبوا لربكم من قبل أن ياتي يوم لامردله من الله مالكم من ملجأ يومئذ وما لكم من نكير (٤٧) فان اعرضوا فما ارسلناك عليهم حفيظاً ان عليك الا البلاغ و انا اذا اذقنا الانسان منا رحمة فرح بها و ان تصبهم سيئة بما قدمت ايديهم فان الانسان كفور (٤٨) لله ملك السموات و الارض يخلق مايشاء يهب لمن يشاء اناثا ويهب لمن يشاء الذكور (٤٩) او يزوجهم ذكرانا واناثا ويجعل من يشاء عقيما انه عليم قدير(٥٠) .

ثمّ أخبر سبحانه عن الظالمين الّذين ذكرهم فقال :

[وماكان لهم من أولياء] أي ماكان لهم من دون الله من أنصار يدفعون عنهم عقاب الله ومن يضلله الله عن طريق الجنّة فليس له سبيل إليها .

ثمّ قال : [استجيبوا لربّكم] أي أجيبوا داعي ربّكم يعني محمّداً فيما دعاكم إليه و

رغّبكم فيه من المصير إلى طاعته والانقياد لأمره [من قبل أن يأتي يوم لامردّ له من الله] أي لارجوع بعده إلى الدنيا .

وقيل : معناه لا يقدر أحد على ردّه و دفعه و هو يوم القيامة عن الجبّائيّ . وقيل : معناه لايردّ ولا يؤخّر وقته وهو يوم الموت .

[مالكم من ملجأ يومئذ] أي معقل يعصمكم من العذاب [وما لكم من نكير] أي إنكار وتغيّر للعذاب أونصيرمنكر مايحلّ بكم ولايردّه الله بعد ماحكم به ويجوز أن يكون المراد من قوله : « نكير » الإنكار أي لا تقدرون أن تنكروا شيئاً ممّا اقترفتموه من الأعمال .

[فإن أعرضوا] هؤلاء الّذين أمرتهم بالاستجابة ولم يقبلوا هذا الأمر [فماأرسلناك عليهم حفيظاً] بأن تحفظ أعمالهم وتحصيها [إن عليك إلّاالبلاغ] وليس عليك إلّاالإيصال إلى أفهامهم والبيان لمافيه رُشدهم .

[وإنّا إذا أذقنا الإنسان منّا رحمة فرح بها] أي إذا وجدوا في الدنيا سعادة وفوزاً بنعيمها فرح واسترّ بها ، ونعم الله فيالدنيا وإن كانت عظيمة إلّا أنّها بالنسبة إلىالسعادة المعدّة في الآخرة كالقطرة بالنسبة إلى البحر فلذلك سمّاها ذوقاً والمراد أنّه إذا فاز بهذا القدر الحقير الّذي حصل في الدنيا فإنّه يعظم سروره ويقع في العجب والكبر ويظنّ أنّه فاز بكلّ المنى .

ثمّ بيّن أنّه متى أصابته سيّئة و شيء يسوؤه كالمرض و الفقر فقال : [و إن تصبهم سيّئة بما قدّمت أيديهم فإنّ الإنسان كفور]والكفور مبالغة في الكفران ولم يقل : فإنّه كفور ليبيّن أنّ طبيعةالإنسان تقتضي هذه الحالة إلّا إذا أدّب نفسه بأدبالله .

قوله : [لله ملك السماوات والأرض] والمقصود منهأنلايغترّالإنسان بما ملكه من المال والجاه بل إذا علم أنّالكلّملكالله وهو تعالى ملّكه و أنعم عليه فيصير ذلكحاملاً له على مزيد الطاعة و العبادة و أمّا إذا اعتقد أنّ تلك النعم إنّما حصلت بسبب عقله وجدّه بقي مغروراً بنفسه معرضاً عن طاعةالله .

ثمّ ذكر من أقسام تصرّفه تعالى في العالم وقال : [يخلق ما يشاء] يخصّ البعض

بالأولاد الإناث والبعض بالذكور فقال : [يهب لمن يشاء إناثاً ويهب لمن يشاء الذكور أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً] أي يجمع لهم بين البنين والبنات تقول العرب : زوّجت إبلي أي جمعت بين صغارها وكبارها . قال مجاهد : وهو أن تلد المرأة غلاماً ثمّ جارية . وقيل : هو أن تلد توأماً ذكراً وأنثى أو ذكراً وذكراً أو أنثى وأنثى . وقيل : هو أن يجمع الرحم الذكر والأنثى عن محمّد بن الحنفيّة قوله : [ويجعل من يشاء عقيماً] أي يجعل البعض محروماً عن الكلّ من الرجال والنساء [إنّه عليم] بما خلق [قدير] على ما يريد وعبّر سبحانه في الآية عن الإناث بلفظ التنكير وعن الذكور بلفظ التعريف للتنبيه على أشرفيّة الذكور على الإناث .

قال ابن عبّاس : في قوله : «يهب لمن يشاء إناثاً» يريد لوطاً وشعيباً عليهما‌السلام ولم يهب لهما إلّا البنات «ويهب لمن يشاء الذكور» يريد إبراهيم لم يكن له إلّا الذكور. وقوله : «أو يزوّجهم ذكراناً وإناثاً» يريد محمّداً صلى‌الله‌عليه‌وآله كان له من البنين أربعة القاسم والطاهر وعبدالله وإبراهيم ومن البنات أربعة زينب ورقيّة وأمّ كلثوم وفاطمة عليها‌السلام «ويجعل من يشاء عقيماً» يريد عيسى ويحيى .

قوله : وماكان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا اومن وراء حجاب أويرسل رسولا فيوحى باذنه مايشاء انه على حكيم (٥١) وكذلك اوحينا اليك روحا من أمرنا ماكنت تدرى ماالكتاب ولا الايمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا و انك لتهدى الى صراط مستقيم (٥٢) صراط الله الذى له ما فى السموات و ما فى الارض ألا الى الله تصير الامور (٥٣) .

المعنى : لمّا ذكر نعمه السابقة على خلقه ذكر في هذه الآية أجلّ النعم وهي النبوّة فقال :

[وماكان لبشر] أي ليس لأحد من البشر [أن يكلّمه الله إلّا] أن يوحي إليه [وحياً] مثل داود أُوحي في صدره فزبر الزبور أو يكون بطريق الإلهام والقذف في القلب أو المنام كما أوحى الله إلى أمّ موسى وإبراهيم في ذبح ولده أو يسمعه كلامه تعالى [أو من وراء حجاب] وهو موسى في الطور [أو يرسل رسولاً] وهو جبرئيل [فيوحي بإذنه ما يشاء] أي

إرسال ملائكته بكلامه و كتبه إلى أنبياء .

والمراد من قوله : «أومن وراء حجاب» هو أن يحجب ذلك الكلام عن جميع خلقه إلّا من يريد أن يكلّمه به نحو كلامه لموسى لأنّه حجب ذلك عن جميع الخلق إلّا عن موسى وحده و في المرّة الثانية حجبه عن جميع الخلق إلّا عن موسى و السبعين نفراً الّذين كانوا معه ويمكن أن يقال : إنّه تعالى حجب عنهم موضع الكلام الّذين أقام الكلام فيه فلم يكونوا يدرون من أين يسمعونه لأنّ الكلام عرض لايقوم إلّا في جسم ولايجوز أن يكون أراد بقوله : «من وراء حجاب» تكلّمه عباده لأنّ الحجاب لايجوز إلّا على الأجسام .

[إنّه عليّ حكيم] عليّ عن الإدراك بالأبصار حكيم في أفعاله .

قالت المعتزلة والإماميّة : إنّ هذه الآية تدلّ على أنّه تعالى لايرى وذلك لأنّه تعالى حصر أقسام وحيه في هذه الثلاثة ولوصحّت رؤية الله لصحّ من الله أن تتكلّم مع العبد حال مايراه العبد فحينئذ يكون ذلك قسماً رابعاً زائداً على هذه الأقسام الثلاثة والله تعالى نفى القسم الرابع .

وأمّا الّذين يدّعون الرؤية يزيدون في الآية قيداً ، ولعجزهم عن أوّله نفي الرؤية زادوا هذا القيد وقالوا : تقدير الكلام في الآية : وماكان الله لبشر أن يكلّمه الله في الدنيا .

وهذا القول و التقدير خلاف الظاهر وهب أنّهم التزموا بهذا التقدير في الآية و اثبتوا مدّعاهم فماذا يصنعون بتلك الدلائل المنفصلة في نفي الرؤية من وقوع التجسّم و التمكّن والتركيب و أمثالها المباينة لمعنى الاُلوهيّة؟ و بالجملة إنّه تعالى لايرى لا في الدنيا ولا في القيامة .

قوله تعالى : [و كذلك أوحينا إليك] أي مثل ما أوحينا إلى الأنبياء من قبلك أوحينا إليك [روحاً من أمرنا] ومعنى الروح القرآن لأنّ فيه الحياة من موت الكفر والاهتداء بالحياة السليمة عن الآفات. وقيل : المراد من الروح هو روح القدس وهو ملك أعظم من جبرئيل وميكائيل كان مع رسول الله ﷺ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام قالا : ولم يصعد إلى السماء وإنّه لفينا الأئمّة .

[ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان] أي ما كنت يا محمّد قبل الوحي وقبل أن

نعلّمك بالوحي ما القرآن ولا الشرائع ومعالم الإيمان؟وقيل : معناه ولا أهل الإيمان أي من الّذي يؤمن ومن الّذي لايؤمن وهذا من باب حذف المضاف .

[ولكن جعلناه] أي جعلنا الروح الّذي هو القرآن [نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا] لأنّ فيه معالم الدّين.وقيل : المعنى جعلنا الإيمان نوراً . القمّي عن الباقر عليه‌السلام في قوله : « ولكن جعلناه نوراً » قال : يعني عليّاً عليه‌السلام و عليّ هو النور هدى به من هدى من خلقه .

[و إنّك لتهدي إلى صراط مستقيم] أي كما أنّ القرآن يهدي إلى الصراط المستقيم فأنت تهدي الخلق وعلي نفسك وصنوك فهو أيضاً كذلك قال الصادق عليه‌السلام حين سئل عن معنى الآية : يعني إنّك لتأمر بولاية عليّ وتدعو إليها وعليّ هو الصراط المستقيم .

ثمّ فسّر ذلك الصراط بقوله : [صراط الله الّذي له ما في السماوات وما في الأرض] أي إنّ الصراط صراط الله ولا يجوز عبادة غيره . ثمّ قال : [ألا إلى الله تصير] و ترجع [الأمور] دون غيره .

توضيح لو قيل : إنّ الإجماع منعقدٌ على أنّه لايجوز أن يقال : إنّ الرسل كانوا قبل الوحي على الكفر فكيف التطبيق مع قوله : « ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان»؟

والتطبيق ماذكرنا في تفسير الآية إن كنت عرفت معناه وهو أنّ المراد من الكتاب القرآن ومن الإيمان الصلاة لقوله تعالى : «وماكان الله ليضيع إيمانكم » أي صلاتكم .

والجواب الثاني مابيّنّا من حذف المضاف أي ما كنت تدري ما الكتاب ومن أهل الإيمان يعني من الّذي يؤمن ومن الّذي لا يؤمن .

والجواب الثالث ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان حتّى كنت طفلاً في المهد و معلوم أنّ علم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله ماكان قديماً بل علّمه الله .

و الجواب الرابع أنّ الإيمان عبارة عن الإقرار بجميع ما كلّف الله به
وإنّه قبل النبوّة ماكان عارفاً بجميع جزئيّات الشريعة
بل إنّه كان عارفاً بالله تعالى تمّت السورة .

سورة الزخرف

مكية كلها

وقيل : إلّا آية منها «واسأل من أرسلنا» الآية ، نزلت ببيت المقدس . عن النبيّ صلى الله عليه وآله من قرأ سورة الزخرف كان ممّن يقال له : « ياعباد لاخوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون ادخلوا الجنّة بغير حساب » .

وعن أبي بصير عن الباقر عليه السلام من أدمن قراءة الزخرف آمنه الله في قبره من هوامّ الأرض ومن ضغطة القبر حتّى يقف بين يدي الله ثمّ جاءت حتّى تكون هي الّتي تدخله الجنّة بأمر الله .

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) والكتاب المبين (٢) انا جعلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون (٣) وانه في ام الكتاب لدينا لعلي حكيم (٤) افنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوما مسرفين (٥) .

[حم] أي هذه السورة مسمّاة بحم أو أنّ حم هو القرآن وعلى هذا التقدير فقوله : [والكتاب المبين] بالجرّ على أنّه مقسم به إمّا ابتداء أو بإضمار باء القسم ،أقسم سبحانه بالكتاب المبين [إنّا جعلناه قراناً عربيّاً] فيكون المقسم عليه هو قوله : « إنّا جعلناه قرآناً » وعلى تقدير : هذه سورة حم ، فيكون القسم واقعاً على أنّ هذه السورة هي سورة حم وعلى هذا التقدير فقوله : « إنّا جعلناه » ابتداء لكلام آخر .

وفي وصف الكتاب بكونه مبيناً لأنّه المبين للذين أُنزل إليهم لأنّه بلغتهم و لسانهم أو لأنّه مبين طريق الهدى من طريق الضلالة وأبان كلّ باب عمّا سواه و وصف الكتاب بكونه مبيناً مجاز لأنّ المبين هو الله وسمّي القرآن بذلك توسّعاً من حيث إنّه حصل البيان عنده وهو إنّما سمّي قرآناً لأنّه جعل بعضه مقروناً ببعض و يصدّق بعضه بعضاً .

[لعلّكم تعقلون] وتتدبّرون و كلمة لعلّ للتمنّي والترجّي وهو لايليق بمن كان عالماً بالعواقب فكان المراد منها هنا « كي » أي أنزلناه قراناً عربيّاً لكي تعقلوا معناه وتحيطوا بفحواه .

قالت المعتزلة : و كلمة « إنّا جعلناه » تدلّ على حدوث القرآن لأنّ المجعول هو المصنوع المخلوق . فإن قيل : إنّ المراد من قوله : « جعلناه » أي سمّيناه عربيّاً ؛ فهذا الكلام مدفوع لأنّه لوكان المراد بالجعل هذا لوجب أنّ من سمّاه عجميّاً أن يصير عجميّاً وإن كان بلغة العرب ومعلوم أنّ هذا باطل .

ثمّ إن كان المراد من الجعل التسمية وصرف إلى هذا المعنى لزم كون التسمية مجعولة والتسمية أيضاً من كلام الله وذلك يوجب أنّ بعض كلامه مجعول وإذا صحّ ذلك في البعض صحّ في الكلّ على أنّه سمّي قرآناً لأنّ بعضه مقرون ببعض وما كان كذلك كان مصنوعاً معمولاً وكونه عربيّاً أي اختصّت بمسمّياتها بوضع العرب واصطلاحاتهم و ذلك أيضاً يدلّ على كونه مصنوعاً .

وأيضاً يستنبط دليل آخر على حدوث الكلام وهو أنّ القسم بغيرالله لايجوز كما روي عن النبيّ ﷺ إنّه كان يقول : ياربّ طه و يس و ياربّ القرآن العظيم فحينئذ صار القرآن مربوباً مخلوقاً فتمّ الدليل .

وأيضاً قالت المعتزلة : إنّ حاصل معنى قوله تعالى : « إنّا جعلناه قرآناً عربيّاً لعلّكم تعقلون » على ما فسّرتم و فسّرنا هو أنّا جعلناه قرآناً عربيّاً لكي تعقلوا وهذا يفيد أمرين : أحدهما أنّ أفعال الله معلّلة بالأغراض والدواعي . والثاني أنّه تعالى إنّما أنزل القرآن ليهتدي به الناس وذلك يدلّ على أنّه تعالى أراد من الكلّ الهداية والمعرفة خلاف قول من يقول : إنّه تعالى أراد من البعض الكفر و الإعراض ، والقائلين بالجبر هم الأشاعرة .

وبالجملة قوله : « قرآناً عربيّاً » أي بلسان العرب ومذاهبها في الحروف و المفهوم ومع ذلك لايتمكّن أحدٌ منهم من إنشاء مثله ومايقاربه من علوّ طبقته في الفصاحة والبلاغة إمّا لعدم علمهم بذلك أولأنّهم صرفوا عنه قهراً على الخلاف بين العلماء كالمرتضى وأمثاله.

قوله [وإنّه في أمّ الكتاب]أي إنّ القرآن في اللوح المحفوظ وإنّما سمّي باللوح المحفوظ لأنّ سائر الكتب ينسخ منه أو أنّ أصل كلّ شيء أمّه و القر آن مثبت في اللوح المحفوظ كما قال تعالى : «بل هوقرآن مجيد * في لوح محفوظ [1] » وهوالكتاب الّذي كتب الله مايكون إلى يوم القيامة لما رأى في ذلك صلاح ملائكته بالنظر فيه وعلم فيه من لطف المكلّفين بالإخبار عنه .

[لدينا] أي الّذي عندنا [لعليّ] أي عال في البلاغة أو يعلو كلّ كتاب بمااختصّ

---

(١) البروج : ٢١

به من كونه ناسخاً للكتب ويوجب العمل به وبإدامته وبما تضمّنه من الفوائد عظيم الشأن تعظمه الملائكة والمؤمنون [حكيم] مظهر للحكمة فهو بمنزلة الحكم الّذي لا ينطق إلّا بالحقّ والصواب .

وقد وصف الله تعالى القرآن بهاتين الصفتين لأنّهما من صفات الحيّ ، و في المعاني عن الصادق عليه السلام : هو أمير المؤمنين كما قيل في سورة الفاتحة في قوله : « اهدنا الصراط المستقيم » هو أمير المؤمنين ومعرفته ثمّ خاطب سبحانه من لم يعتبر بالقرآن وجحد ما فيه من الحكمة فقال : [أفنضرب عنكم الذكر صفحاً] والمراد بالذكر القرآن أي أفنترك عنكم الوحي (وذكر الانتقام) صفحاً وإعراضاً إذا كنتم متجاوزين عن الحدّ . و«أن» قيل : بمعنى «إذ» مثل قوله : « وذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين (١) » و تقدير الآية على كون إنّ بمعناها لا بمعنى « إذ » : إن كنتم مسرفين لا نضرب عنكم الذكر صفحاً و عفواً وقرىء أن بفتح الألف على التعليل أي لأن كنتم مسرفين .

وحاصل معنى الآية أفنمسك عن إنزال الوحي و القرآن ونهملكم فلا نعرّفكم ما يجب عليكم من أجل سرفكم في كفركم والتعبير في الآية بالضرب لأنّ الدابّة إذا أرادوا أن يصرفوا وجهها عن طريق إلى طريق تضرب بالسوط فوضع الضرب موضع الصرف و العدل . وقيل : إنّ الذكر بمعنى العذاب فالمعنى أحسبتم أنّا لا نعذّبكم أبداً ؟

قال صاحب الكشّاف : الفاء في قوله : « أفنضرب » للعطف على محذوف تقديره : أنهملكم فنضرب عنكم الذكر .

قوله تعالى : وكم ارسلنا من نبى فى الاولين (٦) و ما يأتيهم من نبى الا كانوا به يستهزءون (٦) فاهلكنا اشد منهم بطشا ومضى مثل الاولين(٧) و لئن سألتهم من خلق السموات و الارض ليقولن خلقهن العزيز العليم (٩) الذى جعل لكم الارض مهدا وجعل لكم فيها سبلا لعلكم تهتدون (١٠) .

ثمّ عزّى نبيّه بقوله : [وكم أرسلنا من نبيّ في الأوّلين] أي في الأمم الماضية [وما يأتيهم من نبيّ إلّا كانوا به يستهزءون] . يعني إنّ الأمم الخالية الّتي ذكرناها كفرت بالأنبياء وسخرت منهم لفرط جهالتهم و غباوتهم واستهزئت بهم كما استهزأ قومك

(١) البقرة : ٢٧٨ .

بك فلم نضرب عنهم صفحاً بسبب استهزائهم بالرسل بل كرّرنا الحجج و أعدنا الرسل [فأهلكنا] من اُولئكم الاُمم بأنواع العذاب من كان أشدّ قوّة ومنعة من قومك فلايغترّ هؤلاء بالقوّة و النجدة .

ثمّ قال : [ومضى مثل الأوّلين] أي سلف في القرآن غير مرّة ذكر قصّتهم الّتي حقّها أن تسير مسير المثل و حاصل المعنى أنّ كفّار مكّة سلكوا في الكفر و التكذيب مسلك من كان قبلهم فليحذروا أن ينزّل بهم من الخزي مثل مانزل بهم فقد ضربنا لهم مثلهم كما قال : « و كلاًّ ضربنا له الأمثال[1] » .

قوله : [ولئن سألتهم] أي إن سألت قومك يا محمّد [من خلق السماوات والأرض] و أنشأهما واخترعهما [ليقولنّ خلقهنّ العزيز العليم] أي لم يكن جوابهم في ذلك إلّا أن يقولوا : خلقهنّ يعني السماوات والأرض القادر الّذي لايقهر ولا يغلب العليم بمصالح الخلق وهوالله لأنّهم لايمكنهم أن يحيلوا في ذلك على الأصنام و الأوثان و هذا إخبار عن جهلهم إذ اعترفوا بأنّ الله خلقهنّ ثمّ عبدوا معه غيره و أنكروا قدرته على البعث .

ثمّ وصف بقوله : [الّذي جعل لكم الأرض مهداً] وقرىء مهاداً أي مقرّاً ومسكناً [وجعل لكم فيها سبلاً] لتسلكوها [لعلّكم تهتدون] أي لكي تهتدوا إلى مقاصدكم في أسفاركم.وقيل : معناه لتهتدوا إلى الحقّ في الدين باعتبار النظر والتدبّر فيها . وقال سبحانه : « مهداً » لأجل كونها واقفة ساكنة يمكن الانتفاع بها في الزراعة وبناء الأبنية ولمّا كان المهد موضع الراحة للصبيّ وهي موضع الراحة للخلق عبّر بالمهد .

قوله تعالى : والذى نزل من السماء ماء بقدر فانشرنا به بلدة ميتا كذلك تخرجون (١١) والذى خلق الازواج كلها وجعل لكم من الفلك و الانعام ماتركبون (١٢) لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم اذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذى سخرلنا هذا وماكناله مقرنين (١٣) و انا الى ربنا لمنقلبون (١٤) وجعلوا له من عباده جزء ان الانسان لكفور مبين (١٥) .

ثمّ أكّد سبحانه بقوله : [و الّذي نزّل من السماء ماءً] أي غيثاً و مطراً بقدر الحاجة لازائداً عليها فيفسد ، ولاناقصاً عنها فيضرّ وفي ذلك دلالة على أنّه واقع من حكيم

(١) الفرقان : ٣٩ .

قادر مختار قد قدّره على ما يقتضيه الحكمة لعلمه بذلك .

[فأنشرنا] أي فأحيينا [به] أي بذلك الماء [بلدة ميتاً] والنشر الحياة قال الأعشى :

لو أسندت ميتاً إلى نحرها * عاش و لم ينقل إلى قابر
حتّى يقول الناس ممّا رأوا * يا عجباً للميّت الناشر

و المراد من البلد الميّت أي جافّة يابسة و إحياؤها بإخراج النبات و الأشجار و الثمار .

[كذلك تخرجون] أي مثل ما أخرج النبات من الأرض اليابسة تخرجون من قبوركم يوم البعث .

[والّذي خلق الأزواج كلّها] يعني أزواج الحيوان من ذكر وأنثى . وقيل : معناه خلق الأشكال جميعها من الحيوان والجماد فمن الحيوان الذكر والأنثى ومن غير الحيوان ممّا هو كالمقابل مثل الحلو والمرّ والرطب واليابس والشتاء والصيف واللّيل والنهار والشمس والقمر والسماء والأرض والجنّة والنار .

[وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون] أي السفن والبقر والإبل . وقيل : المراد في هذه الآية من الأنعام خصوص الإبل أي ما تركبون في البرّ والبحر [لتستووا على ظهوره] هي الغرض في خلق ما ذكر : لأن تستووا وتستقيموا بركوبكم على ظهوره فالضمير في ظهوره يعود إلى لفظ « ما » [ثمّ تذكروا نعمة ربّكم إذا استويتم عليه] فتشكروا على تلك النعمة الّتي هي تسخير ذلك المركب وتعترفوا بنعته منزّهين عن شبه المخلوقين [و تقولوا سبحان الّذي سخّر لنا هذا] المركب و ذلّله لنا حتّى ركبناه [و ما كنّا له مقرنين] أي مطيقين ومقاومين في القوّة به وتقولوا [وإنّا إلى ربّنا لمنقلبون] أي ولتقولوا أيضاً ذلك ومعناه و إنّا إلى الله راجعون في آخر عمرنا على مركب آخر وهو الجنازة .

وكان رسول الله ﷺ إذا استوى على بعيره خارجاً في سفر كبّر ثلاثاً وقال : « سبحان الّذي سخّر لنا هذا و ما كنّا له مقرنين و إنّا إلى ربّنا لمنقلبون اللّهمّ إنّا نسألك في سفرنا هذا البرّ والتقوى والعمل بما ترضى اللّهمّ هوّن علينا سفرنا واطوعنا بعده اللّهمّ أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل والمال اللّهمّ إنّي أعوذ بك من وعثاء السفر

وكآبة المنقلب وسوء المنظر في الأهل والمال» وكان صلى الله عليه وآله إذا رجع قال : آئبون تائبون لربّنا حامدون ، أورده مسلم في الصحيح .

وروى العيّاشيّ بإسناده عن الصادق عليه السلام قال : ذكر النعمة أن تقول : الحمد لله الّذي هدانا للإسلام وعلّمنا القرآن ومنّ علينا بمحمّد صلى الله عليه وآله وتقول بعده : سبحان الّذي سخّر لنا هذا إلى آخره .

ثمّ رجع سبحانه إلى ذكر الكفّار الّذين تقدّم ذكرهم فقال : [و جعلوا له من عباده جزءاً إنّ الإنسان لكفور مبين] ومعنى الجعل في الآية الحكم بأنّ بعض عباده وهم الملائكة له أولاد؛ قال ابن عبّاس: زعموا أنّ الملائكة بنات الله . وقيل : إنّ معناه وجعلوا لله من مال عباده نصيباً وهو كقوله: «وجعلوا لله ممّا ذرأ من الحرث والأنعام نصيباً[1]» فحذف المضاف وعلى المعنى الأوّل أثبتوا التركيب له سبحانه حيث جعلوا الله ذا أجزاء وأبعاض كما قال صلى الله عليه وآله : فاطمة بضعة منّي والولد أصله ينفصل من الوالد فجزؤه وبعض منه ومتى كان الأمر كذلك فإنّه يقبل الاتّصال والانفصال والاجتماع والافتراق ولازم هذه الأمور الحدوث وتباين القديميّة والأزليّة .

[إنّ الإنسان لكفور مبين] أي جاحد لنعم الله مظهر لكفره غير مستتر .

قوله تعالى : أم اتخذ مما يخلق بنات و أصفاكم بالبنين (١٦) و اذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسوداً وهو كظيم (١٧) أومن ينشؤ فى الحلية و هو فى الخصام غير مبين (١٨) و جعلوا الملائكة الذين هم عباد الرحمن اناثاً اشهدوا خلقهم ستكتب شهادتهم ويسألون (١٩) و قالوا لوشاء الرحمن ما عبدناهم مالهم بذلك من علم ان هم الا يخرصون (٢٠) .

ثمّ أنكر سبحانه عليهم فقال : على سبيل التوبيخ بل [اتّخذ ممّا يخلق بنات] لنفسه سبحانه [وأصفاكم] أي أخلصكم بالبنين .

ثمّ زاد في الاحتجاج عليهم بأن قال : [و إذا بشّر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً] أي بما جعل لله شبهاً وذلك أنّ ولد كلّ شيء شبهه و جنسه فالمعنى إنّه إذا أُخبر أحدهم

---

(١) الانعام : ١٣٦ .

بولادة ابنة له [ظلّ وجهه مسوداً] بما يلحقه من الغمّ والحزن [وهو كظيم] مملوّ من الكرب والغيظ .

ثمّ وبّخهم بما افتروه فقال : [أومن ينشّأ في الحلية] أي أو جعلوا من ينشّأ في زينة النساء يعني البنات ومن شأنه أن يربّى في الزينة و هو عاجز عن أن يتولّى لأمره بنفسه فجعلوا ينسبون شيئاً هم يستنكفون منه إلى الله وحاصل المعنى أنّهم ينسبون البنات إلى الله والّذي يربّى في الحلية و هو ناقص الذات لأنّه لولا نقص في ذاتها لما احتاجت تزيّن نفسها بالحلية .

ثمّ بيّن نقص حالها بطريق آخر وهو قوله : [وهو في الخصام غير مبين] يعني إنّها إذا احتاجت المخاصمة والمنازعة عجزت و كانت غير مبين و ذلك لضعف لسانها و قلّة عقلها و بلادة طبعها ، و يقال : قلّما تكلّمت امرأة فأرادت أن تكلّم بحجّتها إلّا تكلّمت بما كانت حجّة عليها فهذه الوجوه دالّة على نقصها فكيف يجوز إضافتهنّ بالولديّة إليه سبحانه ؟

قال الرازيّ : والآية تدلّ على أنّ التحلّي مباح للنساء وأنّه حرام للرجال لأنّه تعالى جعل ذلك من المعائب وموجبات النقصان وإقدام الرجل عليه يكون إلقاء لنفسه في الذلّ وذلك حرام لقوله ﷺ : ليس للمؤمن أن يذلّ نفسه ، و إنّما زينة الرجل الصبر على طاعة الله والتزيّن بزينة التقوى وإنّما قال : «وهو في الخصام» و لم يقل : وهي،لأنّه حمله على لفظ «من» .

قوله : [و جعلوا الملائكة الّذين هم عباد الرحمن إناثاً] بأن زعموا أنّهم بنات الله [أشهدوا خلقهم]هذا أي أحضروا حتّى علموا أنّهم إناث،وهذا كقوله : «أم خلقنا الملائكة إناثاً و هم شاهدون[1]» و المراد أنّ هذا الأمر الّذي يزعمون ليس له طريق إلى ثبوته بالدلائل العقليّة و أما الدلالة النقليّة فكلّها متفرّعة على إثبات النبوّة و هم منكرون للنبوّة فلاسبيل إلى إثبات هذا المطلوب إلّا بالعيان فأنكر سبحانه عيانهم فثبت أنّ دعواهم غير محقّقة لابضرورة ولابدليل وقرىء «عند الرحمن» .

(١) الصافات : ١٥٠ .

واستدلّ الّذي قال بتفضيل الملائكة على البشر بهذه الآية على قراءة النون فقال: إنّ العنديّة لاشكّ أنّها عنديّة القرب والفضل ولفظة « هم » يوجب الحصر فالمعنى أنّهم هم الموصوفون بهذه العنديّة لاغيرهم .

ثمّ هدّدهم بقوله : [ستكتب شهادتهم] بذلك ويسألون عنها يوم القيامة .

[وقالوا لوشاء الرحمن ماعبدناهم] ثمّ حكى سبحانه نوعاً آخر من كفرهم و شبهاتهم وهو أنّهم نسبوا هذه العبادة إلى ارادة الله وإشائته والآية تدلّ على فساد قول المجبّرة في أنّ كفر الكافر يقع بإرادة الله فأبطل سبحانه وزيّف هذا الاعتقاد بقوله تعالى : [ما لهم بذلك من علم] أي لايعلمون صحّة مايقولونه لأنّه دعوى من غير دليل [إن هم إلّا يخرصون] أي ماهم إلّا كاذبون وكذّبهم الله لأنّهم أشركوا بالله بإضافة الولد إليه وفارقوا العدل و نسبوا الظلم إلى الله بإضافتهم الكفر إلى مشيّة الله ، قاله أبو حامد .

قوله تعالى : ام اتيناهم كتابا من قبله فهم به مستمسكون (٢١) بل قالوا انا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مهتدون (٢٢) وكذلك ما ارسلنا من قبلك فى قرية من نذير الاقال مترفوها انا وجدنا آباءنا على امة و انا على آثارهم مقتدون (٢٣) قال اولو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا انا بما ارسلتم به كافرون (٢٤) فانتقمنا منهم فانظر كيف كان عاقبة المكذبين (٢٥) .

لمّا حكى سبحانه تخرّص من أضاف عبادة الأصنام و الملائكة إلى مشيّة الله قال : على سبيل الاستفهام الإنكاريّ وقرّر خطاءهم بقوله :

[أم آتيناهم كتاباً] والتقدير ،هذا الّذي ذكروه شيء تخرّصوه وافتعلوه أم آتيناهم كتاباً [من قبله فهم به مستمسكون] أي بذلك الكتاب المؤتى عليهم فإذا لم يمكنهم ادّعاء أنّ الله أنزل بذلك كتاباً علم أنّ ذلك من تخرّصهم .

ثمّ أعلم سبحانه أنّهم اتّبعوا الضلالة .

فقال : ليس الأمر كذلك [بل قالوا إنّا وجدنا آباءنا على أمّة] أي على ملّة وطريقة ، عن ابن عبّاس وجماعة وقيل : أي على جماعة أي كانوا امجتمعين على هذه الطريقة [وإنّا على آثارهم

مهتدون] نهتدي بهداهم .

ثمّ قال : [وكذلك] أي مثل ما قال هؤلاء في الحوالة على تقليد آبائهم في الكفر [ما أرسلنا من قبلك] يا محمّد صلى الله عليك [في قرية] ومجمع من الناس [من نذير] ومن زائدة ومؤكّدة [إلّا قال مترفوها] هم المتمتّعون الّذين آثروا الترفّه على طلب الحجّة يريد الرؤساء [إنّا وجدنا آباءنا على اُمّة وإنّا على آثارهم مقتدون] فلا نخالفهم فأحال سبحانه حال جميعهم على التقليد للآباء فقط دون الحجّة والتقليد قبيح في العقول إذ لو كان جائزاً لكان يلزم أن يكون الحقّ في الشيء وفي نقيضه فكلّ فريق يقلّد أسلافه مع أنّ كلاً منهم يعتقد أن من سواه على خطأ و ضلال و هذا باطل و لابدّ من الرجوع إلى حجّة عقليّة أوسمعيّة .

ثمّ خاطب سبحانه للتذير [قال] قل [لهم أولو جئتكم بأهدى ممّا وجدتم عليه آباءكم] تتّبعون ماوجدتم عليه آباءكم ولاتقبلون ما جئتكم به أي أتقبلون ما جئتكم به أم لاتقبلون وتبقون على ضلالتكم وتقليدكم أيضاً وفي هذا البيان حسن التلطّف في الاستدعاء إلى الحقّ لأنّ ما جئتكم به من الحقّ إذا كان أهدى ممّا تزعمون أنّه الهداية كان أوجب أن يتّبع ويرجع إليه .

ثمّ اخبر سبحانه أنّهم أبوا أن يقبلوا ذلك [وقالوا إنّا بما اُرسلتم به] أيّها الرسل [كافرون فانتقمنا منهم] فلمّا تمّت الحجّة و ما نفعت أهلكناهم وعجّلنا عقوبتهم [فانظر كيف كان عاقبة المكذّبين] لأنبياء الله والجاحدين لهم فدلّت الآية على أنّ العاقبة المحمودة للمصدّقين بحججه ورسله والعاقبة المذمومة للمكذّبين بالرسل والآيات .

قوله تعالى : واذ قال ابراهيم لابيه وقومه اننى براء مما تعبدون (٢٦) الا الذى فطرنى فانه سيهدين (٢٧) و جعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون (٢٨) بل متعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين(٢٩) ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحروانا به كافرون (٣٠).

واذكر يا محمّد لهم وقت قول [إبراهيم لأبيه وقومه] والمراد من الأب العمّ والتعبير بالأب عن العمّ مرّ ذكره قبلُ قال : [إنّني براءٌ] أي تبرّأ عليه السلام منهم ومن مسلكهم و

«براء» مصدر عبّربه مبالغة ولذلك يستوي فيه الواحد والجمع والمذكّر والمؤنّث أي إنّني بريء من عبادتكم أومعبودكم.

[إلّا الّذي فطرني] و ابتدأني و أظهرني من العدم إلى الوجود و يجوز أن يكون الاستثناء منقطعاً أومتّصلاً لأنّهم كانوا يعبدون الله والأصنام أي أنا بريء من آلهة تعبدونها غير الّذي فطرني [فإنّه سيهدين] أى سيثبتني على الهداية إلى طريق الجنّة بلطفه، و فيه بيان ثقته عليه السلام بالله تعالى والمعنى أنّه كان هداني قبل ذلك فسيهديني بعدذلك والأقرب أنّ السين للتّأكيد دون التّسويف و صيغة المضارع للدّلالة على الاستمرار.

[وجعلها كلمة باقية في عقبه] أي وجعل إبراهيم عليه السلام كلمة التوحيد الّتي عبّر بها كلمة باقية في ذرّيّته حيث وصّاهم بها كما نطق به قوله تعالى: «ووصّى بها إبراهيم» الآية» فلا يزال فيهم من يوحّدالله إلى يوم القيامة. وقيل: المراد بالكلمة الباقية الإمامة عن أبي عبدالله عليه السلام واختلف في عقبة من هم؟ فقيل: ذرّيّته وولده وقيل: هم آل محمّد عليهم السلام لأنّهم من نسله و ذرّيّته.

[لعلّهم يرجعون] ويتوبون ويرجعون عمّا هم عليه إلى الاقتداء بأبيهم إبراهيم في توحيدالله كما اقتدى الكفّار بآبائهم.

ثمّ ذكر سبحانه نعمه على قريش فقال: [بل متّعت هؤلاء وآباءهم حتّى جاءهم الحقّ ورسول مبين] المعنى إضراب عن محذوف ينساق إليه الكلام كأنّه قيل جعلها كلمة باقية في عقبه رجاء أن يرجع إليها من أشرك منهم بدعوته فلم يحصل ما رجاه بل متّعت قومك هؤلاء و آباءهم فاُمهلوا و متّعوا حتّى جاءهم القرآن والآيات الدالّة على الصدق و بعثنا رسولاً مبيناً يبيّن الحقّ و هو محمّد صلّى الله عليه وآله و لمّا جاءهم الحقّ أي القرآن قابلوا هذه النعم بالتكذيب [وقالوا هذا] القرآن [سحر] وحيلة خفيّة وتمويه [وإنّا به كافرون] جاحدون أنّه من قبل الله.

وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم (٣١) أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحيوة الدنيا و رفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً و رحمة ربك

خير مما يجمعون (٣٢) ولولا ان يكون الناس امة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة و معارج عليها يظهرون (٣٣) ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون (٣٤) وزخرفا وان كل ذلك لما متاع الحيوة الدنيا و الاخرة عند ربك للمتقين (٣٥) .

المعنى : هذا نوع آخر من كفرياتهم وهو أنّهم قالوا : إنّ رسالة الله منصب عظيم شريف فلا يليق إلّا برجل شريف و قد صدقوا في ذلك إلّا أنّهم ضمّوا إليه مقدّمة فاسدة وهي أنّ الرجل الشريف هو الّذي يكون كثير المال و الجاه و محمّد ليس كذلك فلا يليق رسالة الله به وإنّما يليق هذا المنصب برجل عظيم الجاه كثير المال في إحدى القريتين وهي مكّة والطائف. قال المفسّرون : والّذي بمكّة هو الوليد بن المغيرة والّذي بالطائف هو عروة ابن مسعود الثقفيّ.

فأبطل الله شبهتهم بقوله : [أهم يقسمون رحمة ربّك] تعجيب من تحكّمهم والمراد من الرحمة النبوّة أي إنّه سبحانه يقسّم النبوّة و ليس بأيديهم مفاتيح النبوّة فيضعونها حيث شاءوا .

ثمّ قال : [نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا] على حسب ما علمناه من المصلحة وليس لأحد أن يتحكّم في شيء من ذلك فكما فضّلنا بعضهم على بعض في الرزق فكذلك اصطفينا للرسالة من نشاء [ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات] أفقرنا البعض وأغنينا البعض فتلقى ضعيف الحيلة عيّ اللسان وهو مبسوط له و تلقى شديد الحيلة بسيط اللّسان و هو مقتر عليه :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه * كم جاهل جاهل تلقاه مرزوقاً

وحاصل المعنى أنّ رزق الدنيا مع قلّة خطره لم يفوّض إليهم بل جعلناه على وفق ما توجبه الحكمة و المصلحة فكيف نفوّض اختيار النبوّة إليهم مع عظم محلّها و شرف قدرها ؟

قوله : [ليتّخذ بعضهم بعضاً سخريّاً] أي إنّ الحكمة في اختلاف الرزق بين العباد زيادة على ما فيه من المصالح فيه تسخير من بعض العباد لبعض بإحواجهم إليه ليستخدم

بعضهم بعضاً فينتفع أحدهم بعمل الآخر له فينتظم قوام أمر العالم وقد جعلنا هذا التفاوت بين العباد في القوّة والضعف والعلم والجهل والحذاقة والبلاهة والشهرة والخمول وإنّما فعلنا ذلك لأنّا لو سوّينا بينهم في كلّ هذه الأحوال لم يخدم أحد أحداً ولم يصر أحد منهم مسخّراً لغيره وحينئذ يفضي ذلك إلى خراب العالم ثمّ إنّ أحداً من الخلق لم يقدر على تغيير حكمنا ولا على خروج من قضائنا فإن عجزوا عن الاعتراض على حكمنا في أحوال الدنيا مع قلّتها ودناءتها فكيف يمكنهم الاعتراض على حكمنا وقضائنا في أمر النبوّة ومنصب الرسالة؟ وما ظنّهم بأنفسهم في تدبير أمر الدين وهو أبعد من مناط العيّوق وأعزّ من بيض الأنوق فمن أين لهم البحث عن التعيين في شخص الرسول ؟

[ورحمة ربّك خير ممّا يجمعون] أي النبوّة وما يتبعها من سعادة الدارين خير ممّا يجمعون من حطام الدنيا الدنيّة الفانية فهذه الرحمة الخاصّة وهي النبوّة خير من الأموال الّتي يجمعونها لأنّ الدنيا فانية ورحمته باقية أبد الآباد .

قوله تعالى : [ولولا أن يكون الناس اُمّة واحدة] ولولا أن يجتمع الناس على الكفر فيكونوا كلّهم كفّاراً على دين واحد لميلهم إلى الدنيا وحرصهم عليها ولو لا أن يجتمع الناس على اختيار الدنيا على الدين [لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفاً من فضّة] أي كنّا جعلنا لبيوت من يكفر بالرحمن سقفاً من فضّة ، السقف جمع السقيفة مثل السفن جمع السفينة. وقيل : اللام الثانية بمعنى «على» فحينئذ المعنى لجعلنا لمن يكفر بالرحمن على بيوتهم سقفاً من فضّة [ومعارج عليها يظهرون] أي وجعلنا سلاليم ودرجاً من فضّة عليها يعلون ويصعدون .

[ولبيوتهم أبواباً وسرراً] من فضّة على تلك السرر يتّكئون [وزخرفاً] قال ابن عبّاس وجماعة : الزخرف الذهب وهو عطف على محلّ من فضّة . وقيل : الزخرف النقوش وقيل : الفرش ومتاع البيت. وتكرير ذكر بيوتهم لزيادة التقرير والتأكيد . وبالجملة لولا وقوع كثرة الكفر لكنّا نعطي الكافر غاية ما يتمنّاه في الدنيا لقلّتها وحقارتها لكنّه لم يفعل سبحانه لما فيه من المفسدة .

ثمّ أخبر أنّ جميع ذلك إنّما يتمتّع به في الدنيا فقال : [وإن كلّ ذلك لمّا متاع

الحياة الدنيا] أي وما كلّ ماذكر من البيوت المفصّلة والزخازف إلّا شيء يتمتّع به في الدنيا [والآخرة] أي الجنّة الباقية [عند ربّك للمتّقين] خاصّة لهم .

قال بعض أهل التحقق : والله لقدمالت الدنيا بأكثر أهلها إلى الكفر وما فعل سبحانه ذلك فكيف لوفعله ؟

وفي الآية دلالة على اللطف وإنّه تعالى لايفعل المفسدة وما يدعو إلى الكفر و إذا لم يفعل مايؤدّي إلى الكفر فلأن لايفعل الكفر ولايريده أولى تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً فثبت بطلان مذهب الجبر .

وعلى قراءة من خفّف «لما» قال الواحديّ : مازائدة و التقدير لمتاع الحياة الدنيا و صحّح قراءة التخفيف الكسائي"(١) .

فإن قيل : إنّ الله لم يفعل بالكافرين الفعل المذكور و بيّن السبب أنّ المانع لذلك اجتماع الناس على الكفر فلم لم يفعل ذلك بالمسلمين حتّى يصير ذلك سبباً لاجتماع الناس على الإسلام ؟

فالجواب أنّ الناس على هذا التقدير كانوا يجتمعون على الإسلام لطلب الدنيا و هذا الإيمان لا ينفع وهو إيمان المنافقين .

قوله تعالى : ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانا فهو له قرين (٣٦) وانهم ليصدونهم عن السبيل و يحسبون انهم مهتدون (٣٧) حتى اذا جاءنا قال ياليت بيني وبينك بعد المشرقين فبئس القرين (٣٨) ولن ينفعكم اليوم اذ ظلمتم انكم في العذاب مشتركون (٣٩) أفأنت تسمع الصم أو تهدي العمي ومن كان في ضلال مبين (٤٠) .

لمّا تقدّم ذكر الوعد للمتّقين بيّن الوعيد لمن هو على ضدّ صفتهم فقال :

[ومن يعش عن ذكر الرحمن] أي يعرض عنه ويعم، شبّههم بالأعشى لمّا لم يبصروا الحقّ والقرآن والذكر القرآن أوالآيات والأدلّة [نقيّض له شيطاناً فهو له قرين] أي نخلّ بينه وبين الشيطان الّذي يغويه ويدعوه إلى الضلالة فيصير قرينه عوضاً عن ذكر الله

(١) لانه انكر مجيء لما بمعنى الافحكم بان قراءة التخفيف صحيح لاغير .

وهو الخذلان عقوبة له عن الإعراض. وقيل : معناه نقرن به شيطاناً في الآخرة يلازمه فيذهب به إلى النار كما أنّ المؤمن يقرن به ملك فلا يفارقه حتّى يصير به إلى الجنّة . و قيل : أراد به شياطين الإنس نحو علماء السوء ورؤساء الضلالة يصدّونهم عن سبيل الله فيتّبعونهم .

[وإنّهم] يعني وإنّ الشياطين، وإنّما جمع لأنّ الكلام في معرض الجمع (لأنّ المغوين كثيرون) وإن كان اللفظ على الواحد [ليصدّونهم] أي يصرفون هؤلاء الكفّار [عن السبيل] عن طريق الهداية والجنّة [ويحسبون أنّهم مهتدون] و يحسب الكفّار أنّهم على الهدى فيطيعونهم .

[حتّى إذا جاءنا] وقرىء «جاءانا » على التثنية فالمعنى : الشيطان المغوي والمغتوي الضالّ، ومن قرأ على التوحيد فالمعنى : حتّى إذا جاءنا الكافرون يوم القيامة الّذي يتولّى سبحانه حساب الخلق فيه قال الكافر حينئذ لقرينه الّذي أغواه : [ياليت بيني وبينك بعد المشرقين] يعني بعد ما بين المشرق والمغرب فغلب أحدهما على الآخر كما قال الشاعر الفرزدق :

أخذنا بآفاق السماء عليكم * لنا قمراها و النجوم الطوالع

يعني الشمس و القمر ، و قيل : يعني محمّداً وإبراهيم ، وقيل : أراد بالمشرقين مشرق الشتاء ومشرق الصيف أي هذا البعد مسافة حتّى لم أرك ولا اغتررت بك .

روي أنّ الكافر إذا بعث يوم القيامة من قبره أخذ شيطانه بيده فلم يفارقه حتّى يصيّرهما الله إلى النار .

قال الرازيّ في وجوه تفسير المشرقين : إنّ الحسّ يدلّ على أنّ الحركة اليوميّة إنّما تحصل بطلوع الشمس من المشرق إلى المغرب و أمّا القمر فإنّه يظهر في أوّل الشهر في جانب المغرب من الشمس ثمّ لايزال يتقدّم إلى جانب المشرق وذلك يدلّ على أنّ مشرق حركة القمر هو المغرب فالجانب المسمّى بالمشرق هو مشرق الشمس ولكنّه مغرب القمر والجانب المسمّى بالمغرب هو مشرق القمر و مغرب الشمس و بهذا التقدير يصحّ تسمية المشرق والمغرب بالمشرقين وهذا مبالغة كاملة في بعد المسافة .

[فبئس القرين] أنت اليوم لي ، لأنّهما يكونان مشدودين في سلسلة واحدة زيادة عقوبة وغمّ .

ثمّ يقول الله في ذلك اليوم [ولن ينفعكم اليوم إذ ظلمتم أنّكم في العذاب مشتركون] أي لا يخفّف الاشتراك عنكم شيئاً من العذاب وذلك لأنّ الإنسان قد يتسلّى عن العذاب والمحنة إذا رأى أنّ عدوّه في مثلها أو أنّ المصيبة إذا عمّت طابت وسهلت أي ليس الأمر كذلك وبيّن سبحانه أنّ حصول الاشتراك بينهما لا يفيد التخفيف مثل أحوال أهل الدنيا وذلك لشدّة العذاب فاشتغال كلّ واحد بنفسه يذهله عن حال الآخر حتّى يفرح بعذاب عدوّه فيكون التسلية له أو لأنّ القوم إذا اشتركوا في العذاب أعان كلّ واحد منهم صاحبه .

ثمّ خاطب سبحانه نبيّه [أفأنت تسمع الصمّ أو تهدي العمي] شبّه الكفّار في عدم انتفاعهم بما يسمعونه ويرونه بالصمّ والعمى [ومن كان في ضلال مبين] ظاهر أي فلا يضيقنّ صدرك فإنّك لا تقدر على إكراههم على الإيمان وكان ﷺ يجتهد في دعوة قومه وهم لا يزيدون إلّا تصميماً على الكفر ، تأمّل في دقائق القرآن فإنّه سبحانه وصفهم في أوّل الأمر إلى العشى ثمّ لمّا تمادى كفرهم انتقلوا من العشى إلى العمى ولمّا بلغوا في النفرة عن استماع القرآن نسبهم إلى الصمم،وإنّما أضاف هذه الأوصاف إليهم بسبب كونهم في الضلالة .

ثمّ سلّى نبيّه بعد أن ظهر منهم عدم الأثر في قبول الدعوة فقال :

فاما نذهبن بك فانا منهم منتقمون (٤١) أو نرينك الذى وعدناهم فانا عليهم مقتدرون (٤٢) فاستمسك بالذى اوحى اليك انك على صراط مستقيم (٤٣) وانه لذكرلك ولقومك وسوف تسألون (٤٤) واسأل من ارسلنا من قبلك من رسلنا اجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون (٤٥) .

المعنى : يسلّي سبحانه نبيّه بأنّه إن قبضناك و توفّيناك و متّ قبل أن نبصرك عذابهم ونشفّي بذلك صدرك [فإنّا منهم منتقمون] لا محالة له في الآخرة وما في قوله : «فإمّا» زائدة مؤكّدة بمنزلة لام القسم في أنّها لا تفارق النون المؤكّدة مثل والله لأفعلنّ .

قوله : [أو نرينّك الّذي وعدناهم] أي أو أردنا أن نريك العذاب الّذي أوعدناهم [فإنّا عليهم مقتدرون] بحيث لا مناص لهم من قهرنا و لقد أراه سبحانه يوم بدر قال الحسن و

قتادة : إنّ الله ألزم نبيّه بأن لم يره تلك النقمة ولم يره في اُمّته إلّا ماقرّت به عينه وقد كان بعده نقمة شديدة وقد روي أنّه اُري ماتلقى اُمّته بعده فما زال منقبضاً ولم ينبسط ضاحكاً حتّى لقى الله .

وروى جابر بن عبدالله الأنصاريّ قال : إنّي لأدناهم من رسول الله صلى الله عليه وآله في حجّة الوداع حتّى قال صلى الله عليه وآله : لا ألفينّكم ترجعون بعدي كفّاراً يضرب بعضكم رقاب بعض و أيم الله لئن فعلتموها لتعرفنّي في الكتيبة الّتي تضاربكم ثمّ التفت صلى الله عليه وآله إلى خلفه فقال : أوعليّ أوعليّ ثلاث مرّات فرأينا أنّ جبرئيل غمزه فأنزل الله على أثر ذلك : « فإمّا نذهبنّ بك فإنّا منهم منتقمون » بعليّ بن أبي طالب .

قال الفيض قدّس سرّه : إنّما يكون ذلك في الرجعة و القمّي عن الصادق قال : فإمّا نذهبنّ بك يامحمد من مكّة إلى المدينة فإنّا رادّوك إليها و منتقمون منهم بعليّ بن أبي طالب .

قوله تعالى : [فاستمسك بالّذي اُوحي إليك إنّك على صراط مستقيم] القمّي عن الباقر عليه السلام إنّك على ولاية عليّ وعليّ هو الصراط المستقيم . وقيل : فاستمسك بالقرآن بأن تتلوه حقّ تلاوته وتتّبع أوامره ونواهيه، إنّك على صراط مستقيم على دين الحقّ والصواب و هو دين الإسلام و هذا المعنى يؤول إلى مارواه القمّي معنى لأنّهما لا يفترقان حتّى يردا عليّ الحوض .

قوله : [وإنّه لذكر لك ولقومك] أي وإنّ القرآن الّذي اُوحي إليك لشرف لك ولقومك لقريش أوالعرب لأنّه نزل بلغتهم ثمّ يختصّ بذلك الأخصّ فالأخصّ من العرب حتّى يكون الشرف لقريش أكثر من غيرهم ثمّ لبني هاشم أكثر ممّا يكون لقريش [وسوف تسألون] عن شكر ماجعله الله لكم من الشرف وقيل : تسألون عن القرآن و عمّا يلزمكم من القيام بحقّه .

قوله تعالى : [واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا] أي اسأل مؤمني أهل الكتاب الّذين أرسلنا إليهم الرسل هل جاءتهم الرسل إلّا بالتوحيد والتقدير سل اُمم من أرسلنا فحذف المضاف، وقيل : إنّ المراد سل أهل الكتابين التوراة والإنجيل و إن كانوا كفّاراً

فإنّ الحجّة تقوم بتواتر أخبارهم والخطاب وإن توجّه إلى النبيّ فالمراد به الأُمّة .

[أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون] أي هل جعلنا فيما مضى معبوداً سوى الله يعبده قوم فإنّهم يقولون إنّا لم نأمرهم بذلك.وقيل : معنى الآية سل الأنبياء وهم الّذين جمعوا له ليلة الأسرى في بيت المقدس وكانوا تسعين نبيّاً أو أكثر منهم موسى و عيسى ولم يسألهم لأنّه صلى الله عليه وآله كان أعلم بشرائع الله منهم .

وفي الكافي عن الباقر عليه السلام : نحن قومه ونحن المسئولون وعن الصادق عليه السلام إيّانا عنى ونحن أهل الذكر ونحن المسئولون · وعنه عليه السلام : الذكر القرآن ونحن قومه ونحن المسئولون . وفي البصائر عن الباقر عليه السلام في هذه الآية قال : رسول الله صلى الله عليه وآله وأهل بيته أهل الذكر وهم المسئولون .

وفي الكافي والقمّي عن الباقر عليه السلام إنّه سئل عن هذه الآية وهي « و اسأل من قبلك من رسلنا » من ذا الّذي سأل محمّد صلى الله عليه وآله و كان بينه و بين عيسى خمسمائة سنة فتلا هذه الآية « سبحان الّذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الّذي باركنا حوله لنريه من آياتنا » قال : فكان من الآيات الّتي أراها الله محمّداً صلى الله عليه وآله حين اُسرى به إلى البيت المقدّس أن حشر الله له من الأوّلين والآخرين من النبيّين والمرسلين ثمّ أمر جبرئيل فأذّن شفعاً ثمّ أقام شفعاً ثمّ قال في إقامته حيّ على خير العمل ثمّ تقدّم محمّد صلى الله عليه وآله فصلّى بالقوم فأنزل الله « واسأل من أرسلنا الآية » فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله على ما تشهدون وما تعبدون ؟ فقالوا : نشهد أن لا إله إلّا الله وحده لا شريك له وأنّك رسول الله اُخذت على ذلك مواثيقنا وعهودنا .

وفي الاحتجاج عن أمير المؤمنين عليه السلام في حديث وأمّا قوله : « واسأل من أرسلنا » الآية ، فهذا من براهين نبيّنا الّذي آتاه الله و أراه من الآيات و أوجب به الحجّة على سائر خلقه لأنّه لمّا جعله الله رسولاً إلى جميع الخلق خصّه بالارتقاء إلى السماء عند المعراج وجمع له يومئذ الأنبياء فعلم منهم ما أرسلوا به وحملوا من عزائم الله وآياته فأقرّوا أجمعين بفضله وفضل أوصيائه في الأرض من بعده وفضل شيعة وصيّه من الخلق من المؤمنين

والمؤمنات الّذين لم يستكبروا عن أمرهم وعرف من أطاعهم وعصاهم من أُممهم وسائر من مضى ومن غبر أو تقدّم أو تأخّر .

قوله تعالى : ولقد أرسلنا موسى بآياتنا الى فرعون و ملائه فقال انى رسول رب العالمين (٤٦) فلما جاءهم بآياتنا اذا هم منها يضحكون (٤٧) و ما نريهم من آية الا هى اكبر من اختها و أخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون (٤٨) و قالوا يا أيه الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك اننا لمهتدون (٤٩) فلما كشفنا عنهم العذاب اذا هم ينكثون (٥٠) و نادى فرعون فى قومه أليس لى ملك مصر وهذه الانهار تجرى من تحتى افلا تبصرون (٥١) ام أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين (٥٢) فلولا القى عليه أسورة من ذهب اوجاء معه الملائكة مقرنين (٥٣) فاستخف قومه فاطاعوه انهم كانوا قوماً فاسقين (٥٤) .

المقصود من إعادة قصّة موسى و فرعون في هذا المقام أنّ كفّار قريش لمّا طعنوا في نبوّة محمّد ﷺ بسبب كونه فقيراً عديم المال والجاه بيّن الله أنّ موسى بعد أن أورد المعجزات القاهرات الباهرات الّتي لا يشكّ فيها عاقل أورد فرعون عليه هذه الشبهة الّتي ذكرها كفّار قريش فقال : إنّي غنيّ كثير المال وأمّا موسى فإنّه فقير مهين وهذه الشبهة مثل شبهة قريش و كفّار مكّة حيث قالوا : « لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

والحاصل قوله : [ولقد أرسلنا موسى بآياتنا] أي بحججنا [إلى فرعون] وأشراف قومه وخصّ الملأ بالذكر و إن كان أيضاً مرسلاً إلى غيرهم لأنّ من عداهم تبع لهم [فقال] موسى : [إنّي رسول ربّ العالمين] أرسلني إليكم .

[فلمّا جاءهم بآياتنا] أي فلمّا أظهر المعجزات الّتي هي اليد البيضاء والعصاء [إذا هم منها يضحكون] أى فاجأوا وقت ضحكهم من الآيات واستهزءوا بها أوّل ما رأوها ولم يتأمّلوا فيها استخفافاً وجهلاً منهم .

[وما نريهم من آية إلّا هي أكبر من اُختها] والمراد بذلك ما ترادف عليهم من

الطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم والطمس وكانت كلّ آية من هذه الآيات أكبر من الّتي قبلها [وأخذناهم بالعذاب] و هي العذاب المذكور [لعلّهم يرجعون] لكي يتوبوا ويرجعوا عمّا هم عليه لأنّهم عذّبوا بهذه الآيات فكانت الآيات عذاباً لهم ومعجزات لموسى عليه السلام.

فغلب عليهم الشقاء ولم يؤمنوا [و قالوا يا أيّه الساحر] يعنون بذلك يا أيّها العالم وكان الساحر عندهم عظيماً يعظّمونه ولم تكن عندهم صفة ذمّ وقيل : إنّما قالوا : يا أيّها الساحر استهزاء بموسى و أرادوا أيّها الّذي غلبنا بسحره [ادع لنا ربّك بما عهد عندك] أي بما زعمت أنّه عهد عندك وهو أنّه ضمن لنا أنّا إذا آمنّا بك أن يكشف العذاب عنّا [إنّنا لمهتدون] أي راجعون إلى الحقّ الّذي تدعونا إليه متى كشف العذاب عنّا وفي الكلام حذف والتقدير فدعا موسى وسأل ربّه أن يكشف العذاب عنهم فكشف الله عنهم ذلك [فلمّا كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون] وينقضون العهد .

[ونادى فرعون في قومه] و لمّا رأى فرعون أمر موسى يزيد على الأيّام ظهوراً واعتلاء خاف على ملكه وأظهر الخداع فخطب الناس بعد ما اجتمعوا و قال : [أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي أفلا تبصرون] فأظهر اللّعين بسطته في الملك والمال وهذه الأنهار والمراد الأنهار الّتي فصلوها من النيل ومعظمها كانت أربعة نهر الملك و نهر طولون ونهر دمياط ونهر تنيس كانت الأنهار تجري تحت قصره .

فلمّا اجتجّ بقوّة جاهه قال : [أم أنا خير من هذا الّذي هو مهين] والغرض بأنّ موسى فقير ضعيف الحال ومهين ولا يعتنى به لضعف حاله وعنى بقوله : [ولا يكاد يبين] حبسة ورتّة كانت في لسانه عليه السلام ولا يكاد يفصح بكلامه و قيل : كانت الرتّة والعقدة لكن زالت عن لسانه حين أرسله الله كما قال : مخبراً عن نفسه « واحلل عقدة من لساني[1] » ثمّ قال الله تعالى : « قد أُوتيت سؤلك[2] » وإنّما عيّره اللّعين بما كان في لسانه قبل ذلك والمهين الفقير الّذي يمتهن نفسه في جميع ما يحتاج إليه ليس له من يكفيه أمره وقيل .كان

---

(١) طه : ٢٧ .

(٢) طه : ٣٦ .

في لسانه لثغة فرفعه الله وبقي فيه ثقل .

قوله : « أم أنا » اختلفوا في معنى « أم » قال أبوعبيدة منقطعة معناها بل أنا خيرٌ وعلى هذا فقد تمّ الكلام عند قوله : « أفلا تبصرون » ثمّ ابتدأ فقال : « أم خيرٌ » بمعنى بل أنا خير وقال الأكثرون : أم هذه متّصلة وأنّ المعنى أفلا تبصرون أم تبصرون إلّا أنّه وضع قوله : أنا خير موضع تبصرون وقالوا في الآية : إنّ تمام الكلام عند قوله : « أم » وقوله : « أنا خيرٌ » ابتداء كلام والتقدير أفلا تبصرون أم تبصرون لكنّه اكتفى فيه بذكر أم كماتقول لغيرك أتأكل أم أي أتأكل أم لاتأكل تقتصر على ذكر أم إيثاراً للاختصار فكذا ههنا .

قوله : [فلولا اُلقي عليه اُسورة من ذهب] أي هلاّ طرح عليه أسورة من ذهب إن كان صادقاً في نبوّته وهلاّ اُلقي إليه مقاليد الملك لما أنّهم كانوا إذا سوّدوا رجلاً سوّروه بسوار من ذهب .

قال أميرالمؤمنين عليه السلام : ولقد دخل موسى بن عمران ومعه أخوه هارون على فرعون وعليهما مدارع الصوف وبأيديهما العصا فشرطا له إن أسلم بقاء ملكه فقال : ألا تعجبون من هذين يشترطان لي دوام الملك وهما بما ترون فهلاّ اُلقي عليهما أسورة و طوّقا بطوق من ذهب . وأسورة جمع سوار وقرىء أساورة جمع أسوار بمعنى السوار على تعويض التاء من ياء أساوير ، وقرىء ألقى على البناء للفاعل وهوالله .

وحاصل المعنى أنّ فرعون كان يقول : أنا أكثر منه مالاً و جاهاً فوجب أن أكون أفضل منه فيمتنع أن يكون رسولاً لأنّ منصب النبوّة يقتضي المخدوميّة والأخسّ لايكون مخدوماً للأشرف وهي عين المقدّمة الّتي تمسّك بها كفّار قريش في قولهم : « لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم » .

ثمّ قال : [أو جاء معه الملائكة مقترنين] متتابعين يعينونه على أمره الّذي بعث له و يشهدون له بصدقه متناصرين متعاضدين قال الزجّاج معناه : يمشون معه و يدلّون ويشهدون بصحّة نبوّته .

ثمّ قال : [فاستخفّ قومه فأطاعوه] أي إنّ فرعون استخفّ عقول قومه فأطاعوه فيما دعاهم إليه لأنّه احتجّ عليهم بما ليس بدليل وهو « أليس لي ملك مصر » إلى آخره ، لأنّ الدليل الّذي يدلّ على النبوّة وصدق الرسل هو المعجز [إنّهم كانوا قوما فاسقين] خارجين عن طاعة الله حيث أطاعوا ذلك الجاهل الفاسق .

قوله تعالى: فلما آسفونا انتقمنا منهم فاغرقناهم اجمعين(٥٥) فجعلناهم سلفاً ومثلا للاخرين(٥٦)ولما ضرب ابن مريم مثلا اذا قومك منه يصدون(٥٧) وقالوا ءآلهتنا خير أم هو ماضربوه لك الا جدلا بل هم قوم خصمون (٥٨) ان هو الا عبد أنعمنا عليه و جعلنا مثلا لبني اسرائيل (٥٩) و لو نشاء لجعلنا منكم ملائكة في الارض يخلفون (٦٠) .

ثمّ أخبر سبحانه عن انتقامه من فرعون وقومه فقال :

[فلمّا آسفونا] أي أغضبونا عن ابن عبّاس وجماعة وغضب الله على العصاة إرادة عقوبتهم ، ورضاه عن المطيعين إرادة ثوابهم الّذي يستحقّونه وقيل: آسفوا رسلنا لأنّ الأسف لا يجوز على الله [انتقمنا منهم] أي انتقمنا لأوليائنا منهم [فأغرقناهم أجمعين] ما نجا منهم أحد .

[فجعلناهم سلفاً] أي متقدّمين إلى النار والسلف كلّ شيء قدّمته من عمل أو قرض أو المتقدّم على غيره قبل مجيء وقته ومنه السلف في البيع والسلف نقيض الخلف [ومثلاً] أي جعلناهم مثلاً يتمثّلون بهم و عبرة وموعظة [للآخرين] أي لمن جاء بعدهم والمعنى أنّ حال غيرهم يشبه حالهم إذا أقاموا على العصيان .

قوله : [ولمّا ضرب ابن مريم مثلا] قال أبو عليّ الفارسيّ : المثل واحد يراد به الجمع ويطلق على أكثر من واحد لقوله تعالى : « ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه[١] » فأريد بالمثل مثلين.

وبالجملة اختلف في وجوه معنى الآية :

الاول : أنّه لمّا ضرب الله المسيح مثلاً بآدم في قوله : « إنّ مثل عيسى عندالله كمثل

(١) النحل : ٧٥ .

آدم خلقه من تراب[1]» أي كما أنّه تعالى أنشأ آدم من تراب وجعله إنساناً من غير أب وأمّ كذلك أنشأ المسيح من غير أب فهو مخلوق مربوب مثل آدم ولا ينبغي أن يعبد.

وبعد أن نزلت : «إنّكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنّم » جادل ابن الزبعرى رسول الله ﷺ في هذه الآية وقال : أهذا لنا ولآلهتنا أو لجميع الأمم فقال ﷺ : هو لكم و لآلهتكم و لجميع الأمم فقال : خصمتك و ربّ الكعبة أليس النصارى يعبدون المسيح و اليهود عزيزاً و بنو مليح الملائكة فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ففرح المشركون وضحكوا وارتفعت أصواتهم و ذلك معنى قوله : [إذا قومك منه يصدّون] أي قومك قريش من هذا المثل يرتفع لهم ضجيج وجلبة جدلا وضحكاً بسبب ما رأوا من سكوت رسول الله .

وقرىء بضمّ الصاد و هو قراءة عليّ عليه السلام و بكسر الصاد و هو قراءة الباقين أمّا الضمّ فمن الصدود أي من أجل هذا المثل يصدّون عن الحقّ ويعرضون عنه وأمّا بالكسر فمن الضجيج والصياح.

[وقالوا ءآلهتنا خيرٌ أم هو] يعنون أنّ آلهتنا عندك ليست خيراً من عيسى فإذا كان عيسى من حصب جهنّم كان أمر آلهتنا أهون وسكوته ﷺ ليس من باب الإفحام وغلبتهم في الحجّة ولكن كان ينتظر الحجّة من الوحي وقد روي أنّه لمّا قال ابن الزبعرى : خصمتك وربّ الكعبة قال ﷺ : ما أجهلك بلغة قومك ؟ أما فهمت أنّ «ما» لما لا يعقل .

ثمّ بعد هذه المجادلة أنزل الله قوله : « إنّ الّذين سبقت لهم منّا الحسنى اُولئك عنها مبعدون » ونزلت هذه الآية .

ثمّ قال تعالى : [ما ضربوه لك إلّا جدلاً] أي ما بيّنوا هذا العنوان والمثل لك إلّا ليخاصموك ويدفعوك به عن الحقّ [بل هم قوم خصمون] أي جدلون في دفع الحقّ بالباطل .

الوجه الثاني : في بيان الآية أنّ الكفّار لمّا سمعوا أنّ النصارى يعبدون عيسى

---

(١) آل عمران : ٥٩ .

قالوا : إذا عبدوا عيسى فآلهتنا خيرٌ من عيسى و إنّما قالوا ذلك لأنّهم كانوا يعبدون الملائكة .

الوجه الثالث : في تفسير الآية و هو أنّ النبيّ ﷺ لمّا حكى أنّ النصارى عبدوا المسيح إلهاً لأنفسهم قال كفّار مكّة : إنّ محمّداً ﷺ يريد أن يجعل لنا إلهاً كما جعل النصاري عيسى إلهالأنفسهم ثمّ عند هذا قالوا : أآلهتناخيرٌ أم هو يعني آلهتنا خيرٌ أم محمّد و إنّما ذكروا ذلك لأجل أنّهم قالوا : إنّ محمّداً يدعونا إلى عبادة نفسه وآباؤنا زعموا أنّ عبادة الأصنام واجبة فعبادة هذه الأصنام متطابقة لقول آبائنا فقبول هذه العبادة منالأصنام أولى من قبولقول محمّد .

ثمّ بيّن سبحانه أنّ الاشتغال بعبادة المسيح باطل مثل عبادة الأصنام فإنّ عيسى عليه السلام عبد أنعمنا عليه فقال : [إنّ هو إلّا عبد أنعمنا عليه] أي وما عيسى إلّا كعبد من العبيد فصار من أمره أنّه ممّن أنعمنا عليه بالنبوّة وخصّصناه ببعض الخواصّ البديعة بأن خلقناه بوجه بديع وقد خلقنا آدم بوجه أبدع منه فأين هومن رتبة الربوبيّة ومن أين يتوهّم صحّة مذهب عبدته حتّى تفتخر عبدة الملائكة بكونهم أهدى منهم .

وفي خلقةعيسى آيةلهم ودلالة يعرفون بها قدرةالله فقال: [وجعلناه مثلاً لبني إسرائيل] أي جعلنا عيسى آية لهم حتّى يرون من أعاجيب صنع الله .

ثمّ قال سبحانه : [ولو نشاء لجعلنا منكم] أي لو أردنا لجعلنا بدلاً منكم معاشر بني آدم [ملائكة في الأرض يخلفون] بني آدم أي كنّا نجعل الملائكة بدلاً من بني آدم في الأرض أي نهلككم يا بني آدم وجعلنا الملائكة سكّان الأرض يعمرونها و يعبدون الله ومثل قوله : «منكم» مافي قول الشاعر :

فليت لنا من ماء زمزم شربة * مبرّدة باتت على الطهيان

وقيل : معنى الآية ولو نشاء لجعلناكم أيّها البشر ملائكة إشارة إلى قدرته تعالى على تغيير بنية البشر إلى بنية الملائكة ، يخلفون أي بعضهم بعضاً .

وانه لعلم للساعة فلا تمترن بها واتبعون هذا صراط مستقيم (٦١) ولا يصدنكم الشيطان انه لكم عدو مبين (٦٢) ولما جاء عيسى بالبينات قال قد

جئتكم بالحكمة ولابين لكم بعض الذى تختلفون فيه فاتقوا الله واطيعون (٤٣) ان الله ربى وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم (٦٤) فاختلف الاحزاب من بينهم فويل للذين ظلموا من عذاب يوم اليم (٦٥) .

يعني أنّ نزول عيسى من السماء لعلم و تصديق وموجب ليقين وقوع الساعة ، و تسميته علماً لحصول العلم به أوبحدوثه بغير أب أو بإحيائه الموتى وآثاره الّتي صدرت منه عليه السلام يستدلّ على صحّة البعث الّذي ينكره الكفّار وقرئ «لعلم» أي علامة وفي الحديث إنّ عيسى ينزل على ثنيّة في الأرض المقدّسة يقال لها أفيق و بيده حربة و بها يقتل الدجّال فيأتي بيت المقدس و النّاس في صلاة الصبح و الإمام يؤمّ بهم فيتأخّر الإمام فيقدّمه عيسى و يصلّي خلفه على شريعة محمّد صلى الله عليه وآله ثمّ يقتل الخنازير و يكسر الصليب و يخرب البيع و الكنايس ويقتل النصارى إلاّ من آمن بشريعة أحمد والقرآن .

وقيل : إنّ الضمير في قوله : «وإنّه» يعود إلى القرآن ومعناه أنّ القرآن لدلالة على قيام الساعة والبعث لأنّه آخر الكتب أنزل على آخر الأنبياء [فلا تمترنّ بها] أي لا تشكّوا في وقوعها [واتّبعون] هداي أوشريعتي أورسولي [هذا] أي القرآن وما أدعوكم به [صراط مستقيم] أي هذا الّذي أنا عليه طريق واضح قيّم .

[ولا يصدنّكم الشيطان] ولا يصرفنّكم بوساوسه عن دين الله [إنّه لكم عدوّ مبين] بيّن العداوة يدعوكم إلى مافيه هلاككم .

ثمّ أخبر سبحانه عن حال عيسى حين بعثه الله رسولاً فقال : [ولمّا جاء عيسى بالبيّنات والمعجزات الدالّة على نبوّته أوالمراد منها الإنجيل [قال لهم قد جئتكم بالحكمة] أي بالنبوّة والعدل والتوحيد و الشرائع [و لأُبيّن لكم بعض الّذي تختلفون فيه] أي قد جئتكم لأُبيّن مختلفاتكم .

والمراد من البعض في الآية الكلّ كقول لبيد : « أويخترم بعض النفوس حمامها » أي كلّ النفوس وذلك إنّ قوم موسى كانوا قد اختلفوا في أشياء من أحكام التكاليف واتّفقوا على أشياء فجاء عيسى ليبيّن لهم الحقّ في الخلافيّات و بالجملة فالحكمة معناها أُصول الدين وبعض الّذي يختلفون فيه فروع الدّين .

فإن قيل : لم يقل ولم بيّن لهم كلّ الّذي يختلفون فيه ؟ فالجواب أنّ النّاس قد يختلفون في أشياء لاحاجة لهم إلى معرفتها فلايجب على الرسول بيانها قال الزجّاج : و الصحيح أنّ البعض لا يكون في معنى الكلّ والّذي جاء به عيسى في الإنجيل إنّما هو بعض الّذي اختلفوا فيه وبيّن لهم في غير الإنجيل ماالحتاجوا إليه و قول لبيد إنّما عنى نفسه أوالمراد من البعض مختلفات اُمورالدين دون اُمور الدنيا .

[فاتّقوا الله] بأن تجتنبوا معاصيه [وأطيعون]في ما أدعوكم إليه .

[إنّ الله هو ربّي وربّكم] الّذي يحقّ له العبادة [فاعبدوه] خالصاً ولا تشركوا به معبوداً [هذا صراط مستقيم] يفضي بكم إلى الجنّة وثواب الله .

[فاختلف الأحزاب من بينهم] أي الفرق المتحزّبة بعد عيسى عليه السلام وهم الملكانيّة واليعقوبيّة والنسطوريّة بعدعيسى وقيل : اليهود والنصارى اختلفوا في أمر عيسى والضمير في « من بينهم » يرجع إلى الّذين خاطبهم عيسى في قوله : « قد جئتكم بالحكمة » المبعوث عليهم .

[فويل للّذين ظلموا من عذاب يوم أليم] مرّ تفسيره هو يوم القيامة ويجوز أن يكون وعيداً بيوم الأحزاب .

قوله تعالى : هل ينظرون الاالساعة أن تاتيهم بغتة وهم لايشعرون(٦٦) الاخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين (٦٧) ياعباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون (٦٨) الذين امنوا بآياتنا وكانوامسلمين (٦٩)ادخلوا الجنة انتم وازواجكم تحبرون (٧٠) يطاف عليهم بصحاف من ذهب واكواب وفيها ما تشهيه الانفس وتلذ الاعين و انتم فيها خالدون (٧١) وتلك الجنة التى اورثتموها بما كنتم تعملون (٧٢)لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون(٧٣) ان المجرمين في عذاب جهنم خالدون (٧٤) لا يفتر عنهم و هم فيه مبلسون (٧٥) .

ثمّ وبّخ سبحانه الكفّار بقوله : [هل ينظرون] أي هل ينتظرون هؤلاء الكفّار بعد ورود الرسل والقرآن [إلّا الساعة] أي القيامة [أن تأتيهم بغتة] أي فجاءة [وهم لايشعرون]

أي لا يدرون وقت مجيئها .

[الأخلاّء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ] أي إنّ الّذين تواصلوا و تحابّوا في الدنيا يكون بعضهم أعداء بعض ذلك يوم القيامة وهم الّذين تخالّوا في الكفر والمعصية واتّحدوا في مخالفة الرسول ؛ لما يرى كلّ منهم من العذاب بسبب تلك المصادقة .

ثمّ استثنى من جملة الأخلاّء المتّقين فقال : [إلّا المتّقين] الموحّدين الّذين خالّ بعضهم بعضاً على الإيمان والتقوى فإنّ تلك الخلّة تتأكّد بينهم ولا تنقلب عداوة و من المعلوم أنّ المحبّة أمر لا يحصل إلّا عند حصول خير أو دفع شرّ و ضرر فمتى حصل هذا الأمر حصلت المحبّة لا محالة ومتى حصل اعتقاد أنّه يوجب ضرراً حصل البغض والنفرة إذا عرفت هذا فذلك الخير الّذي كان اعتقاد حصوله يوجب حصول المحبّة إمّا أن يكون قابلاً للتغيّر والتبدّل أو لا يكون كذلك فإن كان القسم الأوّل وجب أن تبدّل تلك المحبّة إلى النفرة لأنّ تبدّل العلّة يوجب تبدّل المعلول لأنّ حصول المودّة بسبب الخير والراحة فإذا زال ذلك الاعتقاد وتحقّق عقيبه الضرر والألم وجب أن تتبدّل المحبّة بالبغضة أمّا إذا كان الخير الموجب للمحبّة أبديّاً باقياً غير قابل للتغيّر كانت المحبّة باقية كمحبّة المؤمنين بعضهم بعضاً وليست لغرض فان بل هي نافعة وثابتة ولا توجب البغضة لأنّ خيرها ونفعها باق فحينئذ الأخلاّء يومئذ بعضهم لبعض عدوّ إلّا المتّقين.

قوله تعالى : [يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون] و من أحكام يوم القيامة قوله : « يا عباد» الآية ، وقد جرى عادة القرآن بتخصيص لفظ العباد بالمؤمنين (١) كأنّ الله يخاطبهم ويقول لهم : يا عبادي لاخوف عليكم اليوم ولا حزن .

وفي هذا الخطاب أنواع كثيرة ممّا يوجب الفرح: أوّلها أنّه تعالى خاطبهم وميّزهم عن غيرهم من غير واسطة . والثاني أنّه وصفهم بالعبوديّة وهذا تشريف عظيم لأنّه لمّا أراد سبحانه أن يشرف محمّداً ﷺ ليلة المعراج قال : « سبحان الّذي أسرى بعبده» .

---

(١) يقول ذلك المؤلف قدس سره تبعا للفخر الرازى وهو وهم لانه تعالى عزوجل قال : « أأنتم اضللتم عبادى ام هم ضلوا السبيل » وقال عز من قائل «ياحسرة على العباد ما يأتيهم من رسول انا كانوا به يستهزؤن » وغير ذلك .

والثالث نفي الخوف والحزن عنهم بقوله : « لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون » .

ثمّ قال : [الّذين آمنوا بآياتنا وكانوا مسلمين] أي أعني الّذين صدّقوا بحججنا ودلائلنا واتّبعوها وقوله : « يا عباد » حكاية لما ينادى به المتّقون المتحابّون في الله ، وقوله : « الّذين آمنوا » منصوب المحلّ صفة لعبادي لأنّه منادى مضاف ، أي العباد الموصوفين بالتصديق بآياتنا وجاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا وقبول حججنا وقيل : إذا بعث الله الناس فزع كلّ واحد فينادي مناد يا عباد فيرجوها الناس كلّهم ثمّ يتبعها بقوله : « الّذين آمنوا » فييأس الناس غير المسلمين المتّقين وينكس أهل الأديان الباطلة رؤسهم .

ويمرّ حساب المتّقين على أسهل الوجوه و يحاسب حساباً يسيراً ثمّ يقال لهم : [ادخلوا الجنّة أنتم و أزواجكم تحبرون] أي أزواجكم اللاّتي كنّ مؤمنات مثلكم وقيل: المراد من الأزواج أزواج الجنّة من الحور العين « تحبرون » أي تسرّون وتكرمون والحبرة المبالغة في الإكرام بحيث يظهر حباره وأثره على وجوههم كقوله : « تعرف في وجوههم نضرة النعيم(١) ».

[يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب] أي يدور عليهم بقصاع من ذهب فيها ألوان الأطعمة و كيزان لا عروة لها مستديرة الرأس ليس لها خرطوم والكوب بحكم الكأس للشراب واكتفى سبحانه بذكر الصحاف والأكواب عن ذكر الطعام والشراب .

[وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين] وقرىء بحذف الهاء من تشتهيه و حسن الحذف في أمثاله كقوله : « أهذا الّذي بعث الله رسولاً (٢) » وقوله : « وسلام على عباده الّذين اصطفى (٣) » أي و في الجنّة المدخولة ما يميل النفس إليه من أنواع النعيم من المأكول والمشروب والملبوس والمشموم وما تلذّ الأعين بالنظر إليه و أضاف الالتذاذ إلى الأعين مع أنّ المتلذّذ هو الإنسان لأنّ التذاذ الأعين سبب التذاذ الإنسان .

وقد جمع الله سبحانه بقوله : « ماتشهيه الأنفس وتلذّ الأعين » ما لواجتمع الخلائق

(١) المطففين : ٢٤ .
(٢) الفرقان : ٤١ .
(٣) النمل : ٥٣ .

كلّهم على أن يصفوا ما في الجنّة من أنواع النعيم لم يزيدوا على ما انتظمه هاتان الصفتان .

[وأنتم فيها] أي في الجنّة و هذه النعم دائمون [خالدون و تلك الجنّة الّتي اُورثتموها بما كنتم تعملون] وتلك الجنّة مبتدء وخبر أو مبتدء وخبره «الّتي اُورثتموها» واُعطيتموها ، أوالّتي اُورثتموهاصفة وبما كنتم تعملون خبره قال ابن عبّاس : الكافر يرث نار المؤمن والمؤمن يرث جنّة الكافر لقوله : « اُولئك هم الوارثون » .

[لكم فيها فاكهة كثيرة منهاتأكلون] فجمع سبحانه في الوصف بين الطعام والشراب والفواكه والدوام فهذه غاية الاُمنيّة .

ثمّ أخبر عن أحوال أهل النار فقال : [إنّ المجرمين في عذاب جهنّم خالدون] ودائمون [لا يفتّر عنهم] العذاب ولا يخفّف [وهم فيه] أي في العذاب [مبلسون] آيسون من كلّ خير ويجعل المجرم في تابوت من النار ثمّ يقفل عليه فيبقى خالداً لا يرى ولا يُرى وهذه الترغيبات والترهيبات تكميلاً لرغباتهم ودواعيهم في الطاعات و تحذيراً عن الشرك و المعاصي .

قوله تعالى : وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين (٧٦) و نادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال انكم ماكثون (٧٧) لقد جئناكم بالحق و لكن أكثركم للحق كارهون (٧٨) أم أبرموا أمرا فانا مبرمون (٧٩) أم يحسبون أنا لانسمع سرهم ونجواهم بلى ورسلنالديهم يكتبون(٨٠) قل ان كان للرحمن ولد فأنا اول العابدين (٨١) سبحان رب السموات والارض رب العرش عما يصفون(٨٢) فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذى يوعدون(٨٣) وهو الذى فى السماء اله وفى الارض اله وهوالحكيم العليم (٨٤) وتبارك الذى له ملك السموات والارض وما بينهما و عنده علم الساعة و اليه ترجعون (٨٥) .

لمّا بيّن سبحانه ما يفعل بالمجرمين بيّن سبحانه أنّه لم يظلمهم بذلك فقال :

[وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين] لنفوسهم بما جنوا عليها من العذاب .

[ونادوا يامالك] أي ويدعون خازن جهنّم فيقولون يامالك وقرىء يامال بالترخيم

على قراءة ابن مسعود فقيل لابن عبّاس : إنّ ابن مسعود كذلك يقرء فقال ابن عبّاس: ما أشغل أهل النار عن هذا الترخيم وأُجيب بأنّ غاية العذاب والضعف سبب ترخيمهم بحيث لا يمكنهم أن يذكروا من الكلمة إلّا بعضها لا من باب العربيّة قال ابن جنّي : إنّ قولهم : يا مال في هذا الموضع سرّ وهو أنّه لعظيم عذابهم فنيت قواهم وقصر كلامهم .

[ليقض علينا ربّك] أي ليمتنا ربّك حتّى نتخلّص ونستريح من هذا العذاب قال ابن عبّاس وجماعة : إنّما يجيبهم مالك بذلك بعد ألف سنة و قيل : بعد أربعين عاماً وما يدرى أمن سني الدنيا أم من سني الآخرة فقول مالك مجيباً لهم : [إنّكم ماكثون] أي لابثون دائماً وقوله : « ليقض » من قضى عليه إذا أماته كقوله : « فوكزه موسى فقضى عليه (١) » والمراد سل ربّك أن يقضي علينا .

فإن قيل : كيف قال : « ونادوا يا مالك » بعد ما وصفهم بالإبلاس (٢) ؟ فالجواب تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدّة فيختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتاً لغلبة اليأس وعلمهم بعدم الفرج ويغوثون تارة لشدّة ما بهم وقوله : « ماكثون » استهزاء و إلّا فالمكث يستعمل في الزمان القليل .

قوله : [لقد جئناكم بالحقّ ولكنّ أكثركم للحقّ كارهون] أي يقول الله : لقد أرسلنا إليكم الرسل بالحقّ ، وأضافه سبحانه إلى نفسه لأنّه كان بأمره . و قيل : يقول المالك : وإنّما قال : « جئناكم » لأنّه من الملائكة وهم من جنس الرسل والمراد من الحقّ القرآن والإسلام أي ولكنّكم معاشر الخلق أكثركم للحقّ كارهون لأنّ الحقّ خلاف مشتهياتكم فكرهتموه والباطل موافق لها فألفتموها و كرهتم مفارقته .

قوله : [أم أبرموا أمراً] أم منقطعة كلام مبتدء ناع على المشركين ما فعلوا من الكيد برسول الله ﷺ معناها بل للانتقال في توبيخ المشركين أي بل أحكموا أمراً في كيد محمّد والمكر به ﷺ [فإنّا مبرمون] محكمون أمراً في مجازاتهم و كيدهم لأنّهم كانوا يتشاورون في إهلاكه ﷺ وإيذائه في دار الندوة وهو قوله تعالى : « وإذ يمكر بك

(١) القصص : ١٥ .
(٢) اى فى قوله مبلسون .

الّذين كفروا [1] » .

ثمّ قال تعالى : [أم يحسبون أنّا لا نسمع سرّهم ونجواهم] والنجوى ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال والمعنى بل يظنّ هؤلاء الكفّار أنّا لانسمع مايسرّون ومعنى السرّ ما يضمره الإنسان في نفسه ولا يظهره لغيره والنجوى ما يحدث به المحدث غيره في الخفية [بلى] نسمع ذلك و ندركه .

[ورسلنا لديهم يكتبون] ما يقولونه ويفعلونه يعني الحفظة من الملائكة قال: يحيى ابن معاذ : من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للّذي لا يخفى عليه شيء في السماوات فقد جعله أهون الناظرين وهو من علامات النفاق .

[قل إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل العابدين] وقرىء «وولد» بضمّ الواو وسكون اللام واختلف في معناه :

أحدها : أنّ معناه « إن كان للرحمن ولد » في زعمكم « فأنا أوّل العابدين » أي الموحّدين لله المكذّبين لقولكم بإضافة الولد إليه .

و ثانيها : أنّ معناه لوكان له ولد لكنت أنا أوّل الآنفين من عبادته لأنّ من كان له ولد لا يكون إلّا جسماً محدثاً ومن كان كذلك لا يستحقّ العبادة معنى العابد في الأنف مأخوذ من قولهم : عبدت من الأمر أي أنفت منه قال الفرزدق :

أُولئك قومي إن هجوني هجوتهم * و أعبد أن تهجى كليب بدارم
ولكن نصفاً إن سببت و سبّني * بنو عبد شمس من قريش وهاشم

و ثالثها : أنّ «إن» بمعنى ما النفي والمعنى ماكان للرحمن ولد فأنا أوّل العابدين لله المقرّين بذلك .

ورابعها أنّه يقول : كما إنّي كنت أوّل من عبدالله كذلك ليس لله ولد وهذا كما تقول : إن كنت كاتباً فأنا حاسب تريد لست كاتباً ولاحاسباً .

وخامسها أنّ معناه لوكان له ولد لكنت أوّل من يعبده بسبب أنّ له ولد و لكن لاولد له وحاصل المعنى لودلّ الدليل على أنّ له ولداً لقلت به ولكنّه لايدلّ فيكون المعنى

(1) الانفال: ٣٠ .

تحقيقاً لنفي الولد وتبعيداً له لأنّه تعليق محال بمحال .

قال الزمخشريّ : معنى الآية : إن صحّ و ثبت ذلك بالبرهان و بحجّة واضحة توردونها فأنا أوّل من يعظّم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته كما يعظّم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه والكلام وارد على سبيل الفرض والغرض المبالغة في نفي الولد وذلك أنّه علّق العبادة بكينونة الولد و هي محال في نفسها فكان المعلّق بها محالاً مثلها فالبيان في صورة إثبات الكينونيّة والعبادة وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها وهذا المعنى هو الوجه الخامس من الوجوه المذكورة .

قال الرازيّ في المفاتيح : إنّهم ظنّوا أنّ قوله : « إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل العابدين » لو أجريناه على ظاهره فإنّه يقتضي و قوع الشكّ في إثبات الولد لله لاجرم عدلوا إلى التأويل لكن لايحتاج البيان عن العدول عن الظاهر لأنّ القضيّة الشرطيّة لاتفيد إلّا كون الشرط مستلزماً للجزاء وليس فيها إشعار بكون الشرط حقّاً أو باطلاً أو يكون الجزاء واقعاً أوغير واقع بل القضيّة الشرطيّة مركّبة من قضيّتين سواء كانتا حقّتين أو باطلتين أومن شرط باطل وجزاء حقّ أومن شرط حقّ وجزاء باطل فهذا التركيب في الآية لايدلّ بإثبات الولد والعبادة مثل قوله : «لوكان فيهما آلهة إلّا الله لفسدتا[1]» فالشرط في الكلام قوله : «فيهما آلهة» والجزاء هو قوله : «لفسدتا» فالشرط في نفسه باطل وغير واقع والجزاء أيضاً باطل و غير واقع لأنّه ليس فيهما آلهة فحينئذ الشرط و الجزاء غير واقع و باطل فكذلك في هذه الآية فلم يحصل الشكّ للنبيّ ﷺ لأنّ حصول الشكّ في هذا الأمر مع معرفته بالله سبحانه غير ممكن ومحال وبالجملة فأجرى الآية على ظاهرها وأيّد المعنى الآخر ، انتهى .

[سبحان ربّ السماوات والأرض ربّ العرش] العظيم [عمّا يصفون] ثمّ نزّه نفسه عن ذلك فقال: «سبحان الآية» أي تنزيهاً عن الوالديّة وإله العالم هو الواجب الوجود لذاته و كلّ ماكان كذلك فهو فرد مطلق لايقبل التجزيّ بوجه من الوجوه والولد عبارة عن أن ينفصل عن الشيء جزء من أجزائه فيصير ذلك الجزء شخصاً مثله و هذا إنّما يعقل فيما يكون ذاته قابله للتجزّي والتبعّض وإذا كان ذلك محالاً في حقّ إله العالم فامتنع إثبات الولد له .

(١) الانبياء : ٢٢ .

ولمّا بيّن هذا البرهان قال : [فذرهم يخوضو ويلعبوا حتّى يلاقوا يومهم الّذي يوعدون] أي فاتركهم يغمروا في باطلهم و يلعبوا حتّى يضلّوا ويروا العذاب الأبد و هو عذاب القيامة .

قوله : [وهو الّذي في السماء إله وفي الأرض إله] أي هو تعالى في السماء والأرض على سبيل الإلهيّةوالربوبيّة لاعلى معنى الاستقرار وفي الكلام نفي الآلهة الّتيكانتتعبد فيحقّ له العبادة خاصّة وتكرار لفظ «إله» للتأكيد وتمكّن المعنى في النفس و إفادة أنّ العبادة يجب علىالملائكة وعلى أهل الأرض منالجنّوالإنس [وهوالحكيم] فيجميعأفعاله [العليم] بمصالح خلقه .

[وتبارك الّذيله ملك السماوات والأرض وما بينهما] أيدامت بركته فمنهالبركات والسعادات ، مأخوذ من بروك الإبل [وعنده علم الساعة] أي علم يوم القيامة ولايعلم وقته على التعيين غيره [وإليه ترجعون] فيجازي كلاًّ على عمله .

قوله تعالى ولايملك الذين يدعون مندونه الشفاعة الامنشهد بالحق وهم يعلمون (٨٦) .

ولمّا كانوا يزعمون أنّ آلهتهم لأمورهم شفعاء فذكر سبحانه أنّه لاشفاعة و لا أثر لمعبودهم فقال : [ولا يملك الّذين يدعون من دونه] أي الّذي يدعوه المشركون إلهاً و يوجّهون عبادتهم إليه من الأصنام [الشفاعة إلّا من شهد بالحقّ] و هم عيسى وعزير و الملائكة استثناهم سبحانه ممّن عبد من دون الله فإنّ لهم منزلة الشفاعة و قيل : المعنى لايملك أحد من الملائكة وغيرهم الشفاعة إلّا لمن شهد بالحقّ أيشهد أنلاإله إلّاالله وذلك لأنّ النضربن الحرث ونفراً من قريش قالوا : إن كان مايقوله محمّد حقّاً فنحننتولّى الملائكة وهم أحقّ بالشفاعة لنا منه فنزلت الآية فالمعنىأنّهم يشفعون للمؤمنينبإذن الله [وهم يعلمون] بقلوبهم ماشهدوا بألسنتهم .

وفي الآية دلالة على أنّحقيقة الإيمان هو الاعتقاد بالقلب لانّالله شرطمعالشهادة العلم بحيث لا يتشكّك إذا شكّك و لا يضطرب إذا حرّك و احتجّ القائلون بأنّ إيمان المقلّد لاينفع بهذه الآية .

والاستثناء في قوله : « إلّا من شهد بالحق » يمكن أن يكون منقطعاً أي لكن من شهد بالتوحيد و الحقّ و يمكن أن يكون متّصلا لأنّ في جملة الّذين يدعون من دون الله الملائكة والمسيح وعزير لكن يشفعون للّذين شهدوا بالتوحيد .

قوله : ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون (٨٧) وقيله يا رب ان هؤلاء قوم لا يؤمنون (٨٨) فاصفح عنهم و قل سلام فسوف يعلمون (٨٩) .

[ولئن سألتهم] يا محمّد [من خلقهم] من أخرجهم من العدم إلى الوجود أي إذا سألت العابدين و المعبودين من أوجدهم [ليقولنّ الله] لتعذّر الإنكار لغاية بطلانه [فأنّى يؤفكون] أي كيف يصرفون عن عبادته إلى عبادة غيره مع اعترافهم بكون الكلّ مخلوقاً له ؟

[وقيله يا ربّ إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون] قرىء بالحركات الثلاث ؛ قال الأخفش : النصب عطف على « أم يحسبون أنّا لانسمع سرّهم ونجواهم » و قيله أي قول الرسول و الضمير راجع إلى النبيّ صلى الله عليه وآله أي قول الرسول يا ربّ الخ ، فإنّ القول و القيل و القال كلّها مصادر . والرفع على الابتداء والخبر ما بعده . والجرّ على العطف بقوله : «علم الساعة» على تقدير حذف المضاف والتقدير وعنده علم الساعة وعلم قيله . قال الزمخشريّ : والأقوى أن يكون الجرّ و النصب على إضمار حرف القسم ، أو النصب على محلّ الساعة لأنّ قوله : «وعنده علم الساعة» معناه أنّه تعالى علم الساعة وقيله .

قال ابن عبّاس في تفسير الآية في قوله : « وقيله يا ربّ » المراد : وقيل يا ربّ والهاء زائدة عن أبي زيد : يقال ما أحسن قيلك وقالك وقولك ومقالك ومقالتك خمسة أوجه .

وبالجملة إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا ضجر من قومه و عرف إصرارهم على كفرهم أخبر عنهم أنّهم قوم لا يؤمنون وهذا القول قريب من قول نوح حيث قال : « ربّ إنّهم عصوني واتّبعوا من لم يزده ماله وولده إلّا خساراً » .

ثمّ إنّه تعالى قال له صلى الله عليه وآله : [فاصفح عنهم] أي صفّح وجهك يا محمّد عنهم [وقل سلام] ندبه سبحانه إلى الحلم أي المداراة والمتاركة .

وقيل : هو سلام هجر ومجانبة لاسلام محبّة و كرامة كقوله : «سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين[1]» .

وقيل : معناه قل يا محمد : سلام ، تسلم من شرّهم وأذاهم وهذا منسوخ بآية السيف و لكن إذا كان المعنى و اصفح عن سفههم و لا تقابلهم بمثله فذلك مما علّمه سبحانه من مكارم الأخلاق فلا يكون منسوخاً . قوله : [فسوف يعلمون] هدّدهم بيوم القيامة إذا عاينوا ما يحلّ بهم من العذاب . تمّت السورة بعونه .

(١) القصص : ٥٥ .

سورة الدخان

(مكية)

عن النبي صلى الله عليه وآله قال : من قرأ الدخان في ليلة الجمعة غفر له .

قال أبو هريرة : عن النبي صلى الله عليه وآله من قرأ سورة الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك .

وعنه عن النبي صلى الله عليه وآله قال : ومن قرأها في ليلة الجمعة أصبح مغفوراً له .

أبوامامة عن النبي صلى الله عليه وآله قال: من قرأ سورة الدخان ليلة الجمعة ويوم الجمعة بنى الله له بيتاً في الجنّة .

وروى أبو حمزة الثمالي عن أبي جعفر عليه السلام قال : ومن قرأ سورة الدخان في فرائضه و نوافله بعثه الله من الآمنين يوم القيامة و أظلّه تحت ظلّ عرشه وحاسبه حساباً يسيراً و اُعطي كتابه بيمينه .

بسم الله الرحمن الرحيم

حم(١) والكتاب المبين(٢) انا انزلناه في ليلة مباركة انا كنا منذرين(٣) فيها يفرق كل امرحكيم (٤) امرا من عندنا انا كنا مرسلين (٥) رحمة من ربك انه هو السميع العليم (٦) رب السموات و الارض و ما بينهما ان كنتم موقنين (٧) لااله الاهو يحيي ويميت ربكم ورب آبائكم الاولين (٨) بل هم في شك يلعبون (٩) فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين (١٠) يغشى الناس هذا عذاب اليم (١١) .

في [حم] وجوه الاحتمال : أوّلها أن يكون التقدير هذه حم [والكتاب المبين] والواو واو القسم كقولك : هذا زيد والله . والثاني أن يكون الكلام قد تمّ عند قوله : «حم» أي هذه سورة حم ثمّ قال : والكتاب المبين إنّا أنزلناه فيكون إنّا أنزلناه جواباً للقسم و أنكر الطبرسيّ هذا المعنى وقال : إنّ جواب القسم قوله : «إنّا كنّا منذرين» قال : ولايصحّ أن يكون جواب القسم قوله «إنّا أنزلناه» لأنّك لاتقسم بالشيء على نفسه والمنزل هو الكتاب. والوجه الثالث أن يكون التقدير : «وحم» بحذف حرف القسم والكتاب المبين فيكون قسمين متواليين على شيء واحد .

و بالجملة أقسم سبحانه بالقرآن الدالّ على صحة نبوّة نبيّنا و هو مبين فيه بيان الأحكام والفصل بين الحلال والحرام .

[إنّا أنزلنا] القرآن [في ليله مباركة] والليلة المباركة هي ليلة القدر عن ابن عبّاس وجماعة و هو المرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام . قيل : ليلة القدر هي ليلة النصف من شعبان عن عكرمة قال الطبرسيّ : والأصحّ الأوّل و يدلّ عليه قوله : « إنّا أنزلناه في ليلة القدر[1]» و كذلك قوله : «شهر رمضان الّذي أنزل فيه القرآن[2]» .

---

(١) القدر : ١ .
(٢) البقرة : ١٨٥ .

واختلف في كيفيّة إنزاله فقيل : أنزل إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ثمّ أنزل نجوماً إلى النبيّ ﷺ وقيل : إنّه كان ينزل جميع ما يحتاج في سنة في تلك الليلة ثمّ كان ينزله جبرئيل عليه السلام شيئاً فشيئاً وقت وقوع الحاجة . وقيل : كان بدو نزوله في ليلة القدر . وروى ابن عبّاس وقال : قد كلّم الله جبرئيل في ليلة واحدة و هي ليلة القدر فسمعه جبرئيل و حفظه بقلبه و جاء به إلى السماء الدنيا إلى الكتبة و كتبوه ثمّ أنزل على محمّد بالنجوم في ثلاث وعشرين سنة وقيل : في عشرين سنة .

وإنّما وصف سبحانه هذه الليلة بالمباركة لأنّ فيها يقسّم نعمه على عباده من السنة إلى السنة فيدوم بركاتها و البركة نماء الخير وثبوته وقيل : بينها و بين ليلة القدر أربعون ليلة ولها أربعة أسماء الليلة المباركة وليلة البراءة وليلة الصلاة وليلة الرحمة ووجه التسمية بالبراءة لأنّ البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة كذلك يكتب الله لعباده المؤمنين البراءة والصكّ .

قال الزمخشريّ : وهي مختصّة بخصال : تفريق كلّ أمر حكيم وفضيلة العبادة فيها قال رسول الله ﷺ : من صلّى في هذه اللّيلة مائة ركعة أرسل الله إليه مائة ملك : ثلاثون يبشّرونه بالجنّة و ثلاثون يؤمّنونه من عذاب النار و ثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان . ونزول الرحمة قال ﷺ : إنّ الله يرحم اُمّتي في هذه اللّيلة بعدد شعر أغنام بني كلب وحصول المغفرة قال ﷺ : إنّ الله يغفر للمؤمنين جميعاً في تلك اللّيلة إلّا لكاهن أو ساحر أو مشاحن صاحب البدعة التارك للجماعة أو مدمن خمر أو عاقّ للوالدين أو مصرّ على الزناء وقد اُعطي فيها رسول الله ﷺ من تمام الشفاعة وذلك أنّه ﷺ سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في اُمّته فاُعطي الثلاث منها وسأل ﷺ ليلة الرابع عشر فاُعطي الثلاث ثمّ سأل ليلة الخامس عشر فاُعطي الجميع إلّا من شرد عن الله شراد البعير ومن عادة الله في هذه اللّيلة أن يزيد في ماء زمزم زيادة ظاهرة ولا يخفى أنّ هذا الكلام ينطبق عند القائلين بأنّ ليلة القدر النصف من شعبان انتهى كلامه .

قوله : [إنّا كنّا منذرين] أي مخوّفين بما أنزلناه من تعذيب العصاة [فيها يفرق كلّ أمر حكيم] أي في هذه اللّيلة يفصّل ويبيّن ويقضي كلّ أمر محكم لا يلحقه الزيادة

والنقصان وهو أنّه يقسم فيها الآجال والأرزاق وغيرها من اُمور السنة إلى مثلها من العام القابل قال ابن عبّاس : إنّك ترى الرجل يمشي في الأسواق وقد وقع اسمه في الموتى .

في الصافي في قوله : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم » أي يقدّر الله في تلك اللّيله من اُمور تلك السنة ولكن فيه البداء والمشيّة يقدّم ما يشاء ويؤخّر ما يشاء وينقص ويزيد ويلقيه إلى رسوله الله وهو صلى الله عليه وآله يلقيه إلى أميرالمؤمنين وهو يلقيه إلى الأئمّة حتّى ينتهي إلى القائم ويشترط فيه البداء .

و في الكافي عن الباقر عليه السلام قال : قال الله عزّ وجلّ : « فيها يفرق كلّ أمر حكيم » أي فيها ينزل كلّ أمر حكيم والحكيم والمحكم شيء واحد فمن حكم بما ليس فيه اختلاف فحكمه من حكم الله و من حكم أمراً فيه اختلاف فرأى أنّه مصيب فقد حكم بحكم الطاغوت إنّه سبحانه لينزل في ليلة القدر إلى وليّ الأمر تفسير الأمور يؤمر فيها في أمر نفسه بكذا و كذا وفي أمر الناس بكذا و كذا وإنّه ليحدث لولي الأمر سوى ذلك كلّ يوم علم الله الخاصّ والمكنون المخزون مثل ما نزل في ليلة القدر من الأمر ثمّ قرأ عليه السلام : «ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام[1]» الآية .

وعنه : يا معشر الشيعة خاصموا بحم و الكتاب المبين إنّا أنزلناه . الآية ، فإنّها لولاة الأمر خاصّة بعد رسول الله .

قال الكاظم عليه السلام : حم محمّد صلى الله عليه وآله والكتاب المبين أميرالمؤمنين عليه السلام واللّيلة المباركة فاطمة عليها السلام فيها يفرق كلّ أمر حكيم يخرج منها خير كثير ورجل حكيم ورجل حكيم ورجل حكيم الحديث .

[أمراً من عندنا] يعني أنّا نأمر ببيان ذلك ونسخه من اللّوح المحفوظ [إنّا كنّا مرسلين] محمّداً إلى عبادنا كمن كان قبله من الأنبياء [رحمة من ربّك] أي رأفة منّا بخلقنا و نعمة عليهم بما بعثنا إليهم من الرسل [إنّه هو السميع] لمن دعاه [العليم] بمصالح الخلق .

تذييل: في بيان اللّيلة المباركة: اعلم أنّه اختلفوا في اللّيلة المباركة فقال الأكثرون :

---

(١) لقمان : ٢٧ .

إنّها ليلة القدر ، و قال بعض : إنّ اللّيلة المباركة ليلة البراءة و هي ليلة النصف من شعبان .

أمّا الأوّلون فقد احتجّوا على صحّة قولهم بوجوه :

الاول : أنّه تعالى قال : « إنّا أنزلناه في ليلة القدر » وفي هذه الآية قال : « إنّا أنزلناه في ليلة مباركة » فوجب أن يكون هذه اللّيلة المباركة هي تلك المسمّاة بليلة القدر لئلاّ يلزم التناقض .

الثاني : أنّه تعالى قال في صفة ليلة القدر : « تنزّل الملائكة والروح فيها بإذن ربّهم من كلّ أمر سلام هي[1] » وقال : أيضاً ههنا « فيها يفرق كلّ أمرٍ حكيم » وهذا الكلام موافق ومناسب لقوله : « تنزّل الملائكة والروح » وأيضاً ههنا قال : « أمراً من عندنا » وقال في تلك الآية : « بإذن ربّهم من كلّ أمرٍ » و قال ههنا : « رحمة من ربّك » وقال في تلك السورة : « سلام هي » وإذا تقاربت الأوصاف وتساوت وجب القول بأنّ إحدى اللّيلتين هي الأُخرى .

والثالث : من الوجوه نقل محمّد بن جرير الطبريّ في تفسيره عن قتادة أنّه قال : نزلت صحف إبراهيم في أوّل ليلة من رمضان والتوراة لستّ ليال منه والزبور لاثنتي عشرة ليلة مضت والإنجيل لثمان عشرة ليلة مضت منه والقرآن لأربع وعشرين ليلة مضت من رمضان واللّيلة المباركة هي ليلة القدر .

الرابع : أنّه إنّما سمّيت بالقدر لأنّ شرفها وقدرها عظيم و معلوم أنّه ليس بسبب نفس ذلك الزمان لأنّ الزمان شيء واحد في الذات والصفات فيمتنع كون بعضه أشرف من بعض لذاته بل إنّما شرفه بسبب أنّه حصل فيه أُمور شريفة عالية ومعلوم أيضاً أنّ منصب الدين أعلى وأعظم من منصب الدنيا ، وأعلا منصباً في الدين هو القرآن لأجل أنّ به ثبت النبوّة وبه ظهر الفرق بين الحقّ والباطل وبه ظهرت درجات أرباب السعادات ودركات أرباب الشقاوات فعلى هذا لا شيء إلّا والقرآن أعظم قدرا وأعلى شرفاً فلو كان نزوله وقع في ليلة أُخرى سوى ليلة القدر لكانت ليلة القدر هي هذه الثانية لا الأُولى و حيث

---

(١) القدر : ٤-٥ .

أطبقوا على أنّ ليلة القدر هي الّتي وقعت في رمضان لأنّه سبحانه قال : « شهر رمضان الّذي اُنزل فيه القرآن » علمنا أنّ القرآن إنّما اُنزل في تلك اللّيلة .

وأمّا القائلون بأنّ المراد من اللّيلة المباركة المذكورة في الآية هي ليلة النصف من شعبان فبما نقلوه عن رسول الله بقوله وما اُعطي فيها رسول الله من تمام الشفاعة فإن صحّ ذلك عن رسول الله فلامزيد عليه وإلّا فالحقّ هو الأوّل لقوّة الدليل انتهى .

قوله تعالى : [ربّ السماوات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين] أي خالقهما وخالق ما بينها إن كنتم موقنين بهذا الخبر محقّقين له إنّه [لا إله إلّا هو] يستحقّ العبادة ولا يستحقّ غيره العبادة [يحيي ويميت] أي يحيي بعد موتهم ويميتهم بعد إحيائهم [ربّكم] الّذي خلقكم [وربّ آبائكم الأوّلين] الّذين سبقوكم .

ثمّ ذكر سبحانه حال الكفّار فقال : ليس هؤلاء بموقنين بما قلناه [بل هم في شكّ] ممّا أخبرناك [يلعبون] مع ذلك ويستهزءون بك وبالقرآن إذا قرىء عليهم أن يشتغلوا بالدنيا وهو المراد من اللّعب .

ثمّ خاطب نبيّه ﷺ فقال : [فارتقب] أي فانتظر يا محمّد [يوم تأتي السماء بدخان مبين] فانتظر يا محمّد صلّى الله عليك اليوم الّذي تأتي السماء بالدخان وهو ظاهر ولا يشكّ أحد في أنّه دخان .

واختلف في الدخان فعن عليّ عليه السلام أميرالمؤمنين وبه أخذ جماعة أنّه دخان يأتي من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة حتّى يكون الواحد منهم كالرأس الحنيذ ويعتري المؤمن منه كهيئة حال المزكوم وتأخذه الزكمة وتكون الأرض كلّها كبيت اُوقد فيه ليس فيه خصاص .

وعن رسول الله ﷺ أوّل الآيات الدخان ونزول عيسى عليه السلام ونار يخرج من قعر عدن أبين (اسم رجل ينسب إليه عدن) يسوق الناس إلى المحشر قال حذيفة : يا رسول الله وما الدخان فتلا رسول الله ﷺ الآية وقال يملأ مابين المشرق والمغرب يمكث أربعين يوماً وليلة أمّا المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمة وأمّا الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه واُذنيه ودبره .

وقيل: المراد بالدخان دخان المجاعة و ذلك أنّ قريشاً لمّا استعصت على رسول الله ﷺ و أصرّوا على تكذيبه قال: و دعا ﷺ عليهم: اللهمّ سنيناً كسني يوسف اللهمّ اشدد وطأتك على مضر فأجدبت الأرض فاصابت قريشاً المجاعة وكان الرجل لما به من الجوع يرى بينه و بين السماء كالدخان و أكلوا العظام و الجيف والعلهز و كان يحدث الرجل فيسمع كلامه ولايراه من الدخان فمشى إليه ﷺ أبوسفيان ونفر من قريش معه و ناشده الله والرحم و واعدوه إن دعا لهم و كشف عنهم أن يؤمنوا فلمّا كشف عنهم رجعوا إلى شركهم فسأل الله لهم بالخصب والسعة فكشف عنهم ثمّ عادوا إلى الكفر.

[يغشى الناس هذا عذاب أليم] يعني أنّ الدخان يعمّ جميع الناس على القول الأوّل وأهل مكّة على القول الثاني وهم الّذين يقولون هذا عذاب أليم أي قائلين ذلك.

قوله تعالى: ربنا اكشف عنا العذاب انا مؤمنون(١٢) أنى لهم الذكرى وقدجاءهم رسول مبين(١٣) ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون(١٤) انا كاشفوا العذاب قليلا انهم عائدون(١٥) يوم نبطش البطشة الكبرى انا منتقمون(١٦) ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم(١٧) ان ادوا الى عباد الله انى لكم رسول امين(١٨) وان لاتعلوا على الله انى آتيكم بسلطان مبين(١٩) و انى عذت بربى و ربكم أن ترجمون(٢٠) وان لم تؤمنوا لى فاعتزلون(٢١)

لمّا أخبر سبحانه أنّ الدخان يغشى الناس عذاباً لهم قالوا: أويقولون ـ على مافيه من الخلاف في الدخان ـ: هذا عذاب أليم [ربّنا اكشف عنّا العذاب إنّا مؤمنون] بمحمّد والقرآن.

فأنكر سبحانه عليهم بقوله: [أنّى لهم الذكرى] أي من أين لهم الاتّعاظ و التذكّر و كيف يتذكّرون؟ [وقد جاء هم رسول مبين] والحالة أنّهم قدجاءهم رسول ظاهر الصدق والدلالة [ثمّ تولّوا عنه] و أعرضوا ولم يقبلوا قوله: [وقالوا معلّم مجنون] أي يعلّمه بشر ونسبوه إلى الجنون، القمي قال: قالوا ذلك لأنّه لمّا كان ينزل عليه الوحي يأخذه الغشي فقالوا مجنون و تولّوا عنه و بهتوه بأنّ عداس غلاماً أعجميّا لبعض ثقيف هوالّذي علّمه.

ثمّ قال سبحانه : [إنّا كاشفو العذاب قليلاً إنّكم عائدون] أي حيثما انكشف عنكم العذاب وأنتم تعودون إلى شرككم لاتلبثون بعد الكشف على ما أنتم عليه من التضرّع .

فإن قيل : كيف يستقيم على قول من جعل الدخان قبل يوم القيامة قوله : « إنّا كاشفو العذاب قليلاً » ؟

فالجواب إذا أتت السماء بالدخان تضوّر المعذّبون به من الكفّار و المنافقين و تعوّلوا و قالوا : « ربّنا اكشف عنّا العذاب إنّا مؤمنون » منيبون فيكشفه الله عنهم بعد أربعين يوماً فحيثما يكشفه عنهم يرتدّون .

ثمّ قال سبحانه : [يوم نبطش البطشة الكبرى] يريد يوم القيامة كقوله : « فإذا جاءت الطامّة الكبرى »(١)

و قيل : البطشة الكبرى يوم بدر والبطش التناول والأخذ بصولة [إنّا منتقمون] منهم ذلك اليوم .

قوله : [و لقد فتنّا قبلهم] أقسم سبحانه أنّه فتّن قبل كفّار قوم النبيّ [قوم فرعون] فاختبرهم وشدّد عليهم التكليف لأنّ الفتنة شدّة التعبّد وأصلها الإحراق بالنار لخلاص الذهب من الغشّ أي اختبرنا قوم فرعون بالإمهال و توسيع الرزق عليهم [وجاءهم رسول كريم] على الله وعلى عباده المؤمنين و كريم في نفسه لأنّ الله لايبعث نبيّاً إلّا من سراة قومه و كرامهم وكان موسى عليه السلام كذلك .

[أن أدّوا إليّ] هي أن المفسّرة أو المخفّفة من المثقّلة أي جاءهم بأنّ الشأن والقصّة أدّوا إليّ [عباد الله] وهم بنو إسرائيل يقول : أرسلوهم معي . و يجوز أن يكون نداءلهم والتقدير: أدّوا إليّ يا عبادالله ماهو واجب عليكم من قبول دعوتي و اتّباع سبيلي و علّل ذلك بأنّه [رسول أمين] قد ائتمنه الله على وحيه و رسالته .

[و أن لاتعلوا على الله] أن هذه مثل الأولى في كونها مفسّرة أو مخفّفة أي لاتتكبّروا على الله بإهانة وحيه ورسوله [إنّي آتيكم بسلطان مبين] بحجّة بيّنة يعترف بها كلّ عاقل .

---

(١) النازعات : ٣٤ .

فلمّا قال عليه السلام هذا الكلام توعّدوه بالقتل والرجم فقال : [وإنّي عذت بربّي و ربّكم أن ترجمون] أي لذت بمالكي و مالككم والتجأت به من أن ترجموني بالحجارة أوالمراد من الرجم الشتم كقولهم : هو ساحر كذّاب [و إن لم تؤمنوا لي فاعتزلون] فلا موالاة بيني و بينكم و تنحّوا عنّي أو المعنى فخلّوني ولا تتعرّضوا عليّ بشرّكم و أذاكم .

قوله تعالى : فدعا ربه ان هؤلاء قوم مجرمون (٢٢) فاسر بعبادى ليلا انكم متبعون (٢٣) واترك البحر رهوا انهم جند مغرقون (٢٤) كم تركوا من جنات وعيون(٢٥) وزروع ومقام كريم(٢٦) ونعمة كانوا فيها فاكهين(٢٧) كذلك واورثناها قوماً آخرين(٢٨) فما بكت عليهم السماء والارض وماكانوا منظرين(٢٩) .

ثمّ ذكر سبحانه قصّة موسى أي فلمّا يئس موسى أن يؤمنوا به دعا موسى [ربّه] فقال :

[إنّ هؤلاء قوم مجرمون] مشركون لايؤمنون فكأنّه قال عليه السلام : اللّهمّ عجّل لهم ممّا يستحقّون بكفرهم وما دعا عليهم إلّا بعد أن أذن له في ذلك و قوله : [فأسر بعبادي] الفاء وقعت موقع الجواب فاُجيب بأن قيل له : فأسر وقرىء بقطع الهمزة من أسرى ووصلها من سرى أي فاسر ببني إسرائيل أي أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي [ليلاً إنّكم متّبعون] أي يتّبعكم فرعون وقومه ويصير ذلك سبباً لهلاكهم .

[واترك البحر رهواً] وفي الرهو قولان: أحدهما أنّه الساكن يقال : عيس راهٍ إذا كان حافظاً ساكناً قال الأعشى :

يمشين رهواً فلا الأعجاز خاذلة ❊ ولا الصدور على الأعجاز تتّكل

أي مشياً ساكناً على تؤدة و قرار ، و الثاني أنّ الرهو هو الفرجة الواسعه أي اُترك الطريق كما كان حتّى يدخل قوم فرعون فيغرقوا وذلك لأنّه أراد موسى لمّا جاوز البحر أن يضرب بعصا لينطبق كما ضرب به فانفلق فأمره الله بأن يتركه ساكناً على حاله ليدخله القبط فإذا حصلوا فيه أطبقه الله . وحاصل المعنى أن اتركه على حاله منفرجاً [إنّهم

جند مغرقون] وقرىء أنّهم بالفتح بمعنى لأنّهم .

ثمّ قال : [كم تركوا من جنّات و عيون * و زروع ومقام كريم] فأخبر أنّهم بعد غرقهم تركوا هذه النعم والمراد بالمقام الكريم ماكان لهم من المجالس والمنازل الحسنة وقيل : المنابر الّتي كانوا يمدحون فرعون عليها [ونعمة كانوا فيها فاكهين] و النعمة بالفتح من النون حسنه ونضارته و بالكسر من إنعام الله أي تركوا سعة في العيش ونعماً كانوا بها متنعّمين ومتمتّعين كما يستلذّ الآكل بأنواع الفواكه .

[كذلك وأورثناها قوماً آخرين] معناه كذلك أفعل بمن عصاني وإيراث النعمة تصييرها إلى الثاني بعد الأوّل بغير مشقّة فلمّا كانت نعمة قوم فرعون وصلت بعد إهلاكهم إلى غيرهم كان ذلك ميراثاً من الله لهم والمراد بقوم آخرين بني إسرائيل لأنّهم رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون .

[فما بكت عليهم السماء والأرض] اختلف في معناه على وجوه : أحدها : لم يبك عليهم أهل السماء والأرض لكونهم مسخوطاً عليهم، بحذف المضاف مثل قوله تعالى[1] : «حتّى تضع الحرب أوزارها » أي أصحاب الحرب قال ذو الرمّة :

لهم مجلس صهب السبال أذلّة * سواسية أحرارها وعبيدها

أي لهم أهل مجلس. والثاني : المراد في البيان تصغير قدرهم فإنّ العرب إذا أخبرت عن عظم المصاب بالهالك قالت : بكاه السماء والأرض وأظلم لفقده الشمس والقمر قال جرير : يرثي عمر بن عبد العزيز :

الشمس طالعة ليست بكاسفة * تبكي عليك نجوم اللّيل والقمرا

وقالت الخارجيّة :

أيا شجر الخابور مالك مورقاً * كأنّك لم تجزع على ابن طريف

و ذلك على سبيل الاستعارة التخييليّة مبالغة في وجوه الجزع و البكاء و كذلك ما حكي عن ابن عبّاس أنّه سئل عن هذه الآية و قيل : و هل يبكيان على أحد ؟ قال : نعم مصلّى المؤمن في الأرض ومصعد عمله في السماء وروى أنس بن مالك عن النبيّ ﷺ قال : ما

---

(١) محمد : ٤

من مؤمن إلّا وله باب يصعد عمله وباب ينزل رزقه فإذا مات بكيا عليه فعلى هذا يكون معنى البكاء في هذا المورد والإخبار عن الاختلال بعده كما قال مزاحم العقيلي :

بكت دارهم من أجلهم فتهلّلت * دموعي فأيّ الجازعين ألوم

أمستعبراً يبكي من الهون والبلى * أم آخر يبكي شجوه و يهيم

وروى زرارة بن أعين عن الصادق عليه السلام أنّه قال : بكت السماء على يحيى بن زكريّا وعلى الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام أربعين صباحاً ولم تبك إلّا عليهما ، قلت : و ما بكاؤها ؟ قال : كانت الشمس تطلع حمراء وتغيب حمراء . وقال السدّي : لمّا قتل الحسين بكت السماء عليه ، وبكاؤها حمرة أطرافها . وبالجملة فالمراد من قوله : « فما بكت عليهم السماء » التهكّم واستصغار القدر .

ثمّ قال : [وما كانوا منظرين] أي لمّا جاء وقت هلاكهم لم ينظروا إلى وقت آخر التوبة وتدارك تقصير .

قوله تعالى : ولقد نجينا بنى اسرائيل من العذاب المهين (٣٠) من فرعون انه كان عالياً من المسرفين (٣١) ولقد اخترناهم على علم على العالمين (٣٢) وآتيناهم من الايات ما فيه بلاء مبين (٣٣) ان هؤلاء ليقولون (٣٤) ان هى الا موتتنا الاولى ومانحن بمنشرين (٣٥) فاتوا بآبائنا ان كنتم صادقين (٣٦) أهم خير أم قوم تبع والذين من قبلهم اهلكناهم انهم كانوا مجرمين (٣٧) وما خلقنا السماء والارض ومابينهما لاعبين (٣٨) ماخلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون (٣٩) ان يوم الفصل ميقاتهم اجمعين (٤٠) .

ثمّ أقسم سبحانه بقوله : [ولقد نجّينا بني إسرائيل] الّذين آمنوا بموسى [من العذاب المهين] يعني قتل الأبناء واستخدام النساء والاستعباد وتكليف المشاقّ [من فرعون إنّه كان عالياً] متكبّراً متغلّباً [من المسرفين] المجاوزين الحدّ في الطغيان والغالي في الإساءة .

[ولقد اخترناهم] أي اخترنا موسى وبني إسرائيل وفضّلناهم بالتوراة و كثرة الأنبياء منهم [على علم] أي على بصيرة منّا باستحقاقهم التفضّل [على العالمين] أي على

عالمي زمانهم . و قيل : الآية عامّ دخله التخصيص بقوله : « كنتم خير أُمّة أُخرجت للناس[1]»

ثمّ قال : [وآتيناهم من الآيات] مثل فلق البحر وتظليل الغمام و إنزال المنّ والسلوى وغيرها من الآيات القاهرة [ما فيه بلاء مبين] اختبار ظاهر لتمييز الصديق عن الزنديق وههنا آخر الكلام في قصّة موسى .

ثمّ ذكر سبحانه كفّار مكّة ورجع الكلام فيهم حيث قال : « بل هم في شكّ يلعبون» ورجع إلى حديثهم حيث كانوا منكرين للبعث فقال : [إنّ هؤلاء ليقولون * إن هي إلّا موتتنا الأُولى وما نحن بمنشرين] .

فإن قيل : القوم كانوا ينكرون الحياة الثانية فكان من حقّهم أن يقولوا إن هي إلّا حياتنا الأُولى وما نحن بمنشرين .

فالجواب أنّه قيل لهم : إنّكم تموتون موتة تعقبها حياة كما تقدّمتكم موتة و تعقّبتها حياة وذلك قوله «و كنتم أمواتاً فأحياكم ثمّ يميتكم ثمّ يحييكم[2]» فحينئذ قالوا : « إن هي إلّا موتتنا الأُولى » أي ما هذه الصفة الّتي تصفون بها الموتة من تعقيب الحياة إلّا الموتة الأُولى خاصّة فلا فرق إذن بين هذا الكلام و بين قوله : «إن هي إلّا حياتنا الدنيا» أو المراد منهم في هذا الكلام أنّه لا تأتينا شيء من الأحوال إلّا الموتة الأُولى أي لاتأتينا الحياة الثانية ثمّ صرّحوا فقالوا : « وما نحن بمنشرين » وقيل : المعنى ليست الموتة الّتي تعقّبها حياة إلّا هذه الموتة دون الموتة الّتي تعقّب حياة القبر وما نحن بمنشرين أي لا نحيا في القبر ولا نبعث في القيامة و نحيا كما تزعمون .

[فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين] خطاب لمن وعدهم بالنشور من الرسول والمؤمنين قالوا : إن كان الأمر على ما تقولون فعجّلوا لنا إحياء من مات من آبائنا . قيل : طلبوا من النبيّ ﷺ أن يدعو الله حتّى ينشر قصيّ بن كلاب ليشاوروه في صحّة نبوّة محمّد و في صحّة البعث . و قيل : إنّ المقترح بهذا القول كان أبوجهل ولمّا كانت المصلحة غير مقتضية

(١) آل عمران : ١١٠ .
(٢) البقرة : ٢٨ .

لقبول اقتراحهم عدل سبحانه عن إجابتهم إلى الوعظ والوعيد فقال :

[أهم خيرٌ أم قوم تبّع] الحميريّ ، أي أمشركو قريش أكثر أموالاً وأعزّ في القوّة والقدرة أم قوم تبّع الّذي حيّر الحيرة وسيّر بالجيوش من اليمن إلى سمرقند فهدمها ثمّ حفر خندقها وبناها قيل : اسمه شمر بن افريقش وسمرقند معرب شمر كندوقيل : اسمه أسعد أبو كرب وسمّي تبّعاً لكثرة أتباعه .

روى سهل بن سعد عن النبيّ ﷺ أنّه قال : لا تسبّوا تبّعاً فإنّه كان قد أسلم . وقال كعب : نعم الرجل الصالح ذمّ الله قومه ولم يذمّه . وروى الوليد بن صبيح عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إنّ تبّعاً قال للأوس والخزرج : كونوا ههنا أي في يثرب حتّى يخرج هذا النبيّ أمّا أنا لو أدركته لخدمته وخرجت معه والتبّع ليس اسم وعلم الفرد بل لقب ملوك اليمن كما يقال لملك الترك خاقان ولملك الروم قيصر وكان تبّع إذا كتب كتاباً كتب بسم الّذي ملك برّاً وبحراً . وقيل : هو الّذي كسا البيت و يقال لملوك اليمن التبابعة لأنّهم يتبعون كما يقال : الأقيال لأنّهم يتقيّلون وسمّي الظلّ تبّعاً لأنّه يتبع الشمس .

قوله : [والّذين من قبلهم] أي من تقدّمهم من قوم نوح وعادٍ وثمودٍ [أهلكناهم] أي ليسوا بأقوى وأفضل منهم وقد أهلكناهم بكفرهم وهؤلاء مثلهم بل اُولئك كانوا أكثر قوّة وعدداً فإهلاك هؤلاء أيسر [إنّهم كانوا مجرمين] أي إنّهم كانوا كافرين فليحذر قومك أن ينالهم مثل ما نال اُولئك .

[وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين] أي لم نخلق لغواً و عبثاً بل لأن ننفع المكلّفين بذلك بضروب المنافع واللّذات فذكر الدليل القاطع على صحّة البعث والقيامة أي ولو لم يحصل البعث لكان هذا الخلق لعباً وعبثاً .

[ما خلقناها إلّا بالحقّ] أي لغرض صحيح وعلى الحقّ الّذي يستحقّ به الحمد خلاف الباطل الّذي يستحقّ به الذمّ [و لكنّ أكثرهم لا يعلمون] صحّة ما قلناه لعدولهم عن التدبير والنظر والطّاعة .

[إنّ يوم الفصل كان ميقاتهم أجمعين] يعني ذلك اليوم يفصل فيه بين المبطل والمحقّ

ويوم القيامة يوم الحكم بين الأقوام المذكورة من قوم فرعون وقوم تبّع ومن قبلهم وقومك أجمعين .

قوله تعالى : يوم لا يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم ينصرون (٤١) الا من رحم الله انه هو العزيز الرحيم (٤٢) ان شجرة الزقوم (٤٣) طعام الأثيم (٤٤) كالمهل يغلي في البطون (٤٥) كغلي الحميم (٤٦) خذوه فاعتلوه الى سواء الجحيم (٤٧) ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم (٤٨) ذق انك أنت العزيز الكريم (٤٩) ان هذا ما كنتم به تمترون (٥٠) .

المعنى : شرح سبحانه يوم الفصل فقال :

[يوم لا يغني مولىً عن مولىً شيئاً] والمولى الصاحب الّذي من شأنه أن يتولّى معاونة صاحبه على أُموره فيدخل في ذلك ابن العمّ والقرابة والناصر والحليف وغيرهم ممّن يتّصف بهذه الصفة .

وحاصل المعنى أنّ ذلك اليوم لا يغني فيه وليّ عن وليّ شيئاً ولا يقدر أن يدفع المكروه عنه [ولا هم ينصرون] و هذا المعنى لا ينافي الشفاعة و إثباتها للنبيّ صلى الله عليه وآله والأئمّة والمؤمنين لأنّ الشفاعة لا تحصل إلّا بأمر الله و إذنه والآية تدلّ على أنّه ليس لهم من يدفع عن عذاب الله وينصرهم من غير إذن الله ، وقد بيّن هذا بما أُشير إليه باستثنائه بقوله : [إلّا من رحم الله] أي إلّا الّذين رحمهم الله من المؤمنين فإنّه إمّا أن يسقط عذابهم ابتداءً أو يأذن بالشفاعة فيهم لمن علت درجته عنده فيسقط عقاب المشفوع له بشفاعته [إنّه هو العزيز] في انتقامه من أعدائه [الرحيم] بالمؤمنين.

ثمّ أردف بالوعيد للكفّار والوعد للأبرار فقال : [إنّ شجرة الزقّوم طعام الأثيم] وقد ذكرنا اشتقاق الزقّوم في سورة والصافّات .

«طعام الأثيم» قالت المعتزلة : الآية تدلّ على أنّ هذا الوعيد حاصل للأثيم والأثيم هو الّذي صدر عنه الإثم ، قال الرازيّ : ليس كذلك لأنّا بيّنّا في أُصول الفقه أنّ اللفظ المفرد الّذي دخل عليه حرف التعريف الأصل فيه أن ينصرف إلى المعهود و المذكور السابق ولا يفيد العموم وههنا المذكور السابق الكافر فينصرف إليه، انتهى كلامه .

قيل : إنّ المراد من الأثيم في الآية أبوجهل روي أنّه أتى بتمر وزبد فجمع بينهما و أكل مع جماعة و قال هذا هو الزقّوم الّذي يخوّفكم به محمّد نحن نتزقّم به أي نملأ أفواهنا منه وقد فعل اللعين ذلك بعد أن نزل « أذلك خيرٌ أم شجرة الزقّوم» و كان أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر التزقّم فنزلت : «إنّ شجرة الزقّوم طعام الأثيم» .

[كالمهل] قرئ بضمّ الميم و فتحها و هو درديّ من الزيت و يدلّ عليه قوله تعالى : «يوم يكون السماء كالمهل» مع قوله : «فكانت وردةً كالدهان» و قيل : المهل مذاب النحاس و ساير الفلزّات وهو ما يمهل في النار حتّى يذوب [يغلي في البطون] الزقّوم [كغلي الحميم] الماء الفائر الشديد الفور . ولا يجوز أن يحمل الغلي على المهل لأنّ المهل مشبّه به وإنّما يغلي ما يشبه بالمهل لا المهل وهو الزقّوم وقرئ تغلي بالتاء باعتبار الشجرة .

روي أنّ أهل جهنّم لمّا أكلوا الزقّوم والضريع غليا فيطلبون الماء فيسقون من الأشربة ثمّ قال سبحانه : [خذوه] أي خذوا الأثيم ، يأمر سبحانه الزبانية [فاعتلوه] والعتل أن تأخذ لمنكب الرّجل و تجرّه إليك و تذهب به إلى حبس أو محنة و لذلك القود العنيف تسمّى عتلاً و قيل : معناه جرّوه على وجهه [إلى سواء الجحيم] أي إلى وسطه .

[ثمّ صبّوا فوق رأسه من عذاب الحميم] قال مقاتل : إنّ خازن النار يمرّ به على رأسه فيذهب دماغه عن رأسه ثمّ يصبّ فيه من ماء الّذي انتهى حرّه ويقوله له [ذُق إنّك أنت العزيز الكريم] وذلك أنّ أباجهل قال لرسول الله ﷺ : ما[1] بين جبليها أعزّ وأكرم منّي فوالله ماتستطيع أنت ولاربّك أن تفعلا بي شيئاً وأنا أعزّ أهل الوادي فيقول له الملك ذق العذاب أيّها المتعزّز المتكرّم وهذا على طريق التهكّم . و معنى «إنّك» لأنّك ، قرأ به الحسن بن عليّ عليه السلام .

ثمّ قال : [إنّ هذا ما كنتم به تمترون] أي هذا العذاب الّذي كنتم تشكّون فيه في دار الدنيا والجمع باعتبار المعنى لأنّ المراد نوع الأثيم .

ثمّ شرح سبحانه ما أعدّ للمتّقين بقوله :

---

(١) «ما» نافية ، اى ليس بين جبلى مكة اعزمنى .

ان المتقين في مقام أمين (٥١) في جنات وعيون (٥٢) يلبسون من سندس واستبرق متقابلين (٥٣) كذلك وزوجناهم بحور عين (٥٤) يدعون فيها بكل فاكهة آمنين (٥٥) لا يذوقون فيها الموت الا الموتة الاولى ووقهم عذاب الجحيم (٥٦) فضلا من ربك ذلك هو الفوز العظيم (٥٧) فانما يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون (٥٨) فارتقب انهم مرتقبون (٥٩).

بشّر عباده [إنّ المتّقين] الّذين يجتنبون معاصي الله لكونها قبائح ويفعلون الطاعات لكونها طاعات [في مقام] أي مكان [أمين] أمنوا فيه من الغير والموت و الفناء والحوادث و قيل : أمنوا من الشيطان و الأحزان و المقام بالفتح أقوى و معناه موضع القيام أي المكان و بضمّ الميم موضع السّكون و الإقامة [في جنّات و عيون] أي بساتين و عيون ماء نابعة فيها .

[يلبسون من سندس واستبرق] والسُندس مارقّ من الديباج والاستبرق ماغلظ منه وهو تعريب سطبر بالفارسيّة أي غليظ .

فإن قلت : كيف ساغ أن يقع في القرآن العربيّ المبين لفظ عجميّ ؟

فالجواب إذا عرّب خرج من أن يكون عجميّا لأنّ معنى التعريب تغييره عن منهاجه وإجراؤه على أوجه الأعراب . وقيل : السندُس مايلبسونه والإستبرق مايفترشونه وبالجملة خاطب العرب فوعدهم بما عظم عندهم واشتهته أنفسهم وعلى هذا لايقدح من أن يكون اللفظ أصلاً عجميّاً فعرّب .

[متقابلين] في المجالس لا ينظر بعضهم إلى بعض من القفا ، بل يقابل بعضهم بعضاً .

[كذلك] حال أهل الجنّة [وزوّجناهم بحور عين] وقرنّاهم بحور عين قيل : هنّ عجائز كم الدرد المؤمنات ينشئهنّ الله خلقاً آخر وقرئ بالإضافة والمعنى بالحور من العين لأنّ العين إمّا أن يكون حوراء أو غير حوراء فهؤلاء من الحور العين لا من شهلهنّ و في قراءة عبدالله بن مسعود بعيس عين والعيساء البيضاء تعلوها حمرة والحور في العين أن يكون

البياض في العين غاية البياض و السواد فيها غاية السواد و العين جمع العيناء وهي العظيمة العينين .

قوله : [يدعون فيها بكلّ فاكهة آمنين] أي يستدعون فيها أيّ ثمرة شاءوه واشتهوه غير خائفين فوتها و آمنين من مضرّتها وأسقامها وأوجاعها .

[لايذوقون فيها الموت إلّا الموتة الاُولى] والاستثناء منقطع بمعنى لكن والتقدير: لايذوقون فيها الموت لكنّ الموتة الاُولى قدذاقوها . و على كون الاستثناء متّصلاً و أنّهم ماذاقوا الموتة الاُولى في الجنّة فكيف حسن هذا الاستثناء ؟ قال صاحب الكشّاف : اُريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتّة فوضع قوله : إلّا الموتة الاُولى موضع ذلك المعنى لأنّ الموتة الماضية محال في المستقبل فهو من باب التعليق بالمحال كأنّه قيل : إن كانت الموتة الاُولى يمكن ذوقها في المستقبل فإنّهم يذوقونها انتهى كلامه .

فإن قيل : أليس أهل النار أيضاً لايموتون ولايذوقون الموت فلم بشّر أهل الجنّة بهذا مع أنّ أهل النار يشاركونهم في هذا الأمر ؟

فالجواب أنّ البشارة ليست بدوام الحياة بل بدوام الحياة مع سابقة الخيرات واللذّات فظهر الفرق .

[ووقاهم ربّهم عذاب الجحيم] وصرف عنهم العذاب على سبيل التأبيد .

[فضلاً من ربّك] أي فعل الله ذلك بهم تفضّلاً منه لأنّه سبحانه خلقهم وأنعم عليهم وركّب فيهم العقل وبيّن لهم من الآيات والرسل ما استدلّوا به على وحدانيّة الله وحسن الطاعات فكلّ هذه الاُمور تفضّل منه تعالى إليهم فاستحقّوا النعم العظيمة بهذه الاُمور ثمّ جزاهم بالحسنة عشر أمثالها فكان ذلك فضلاً أيضاً وإنّما سمّاها فضلاً وإن كانوا مستحقّين بالطّاعات لأنّ سبب الاستحقاق هذه الاُمور الّتي ذُكرت من اُمور التكليف وهو فضل منه و لولاها لما نالوا هذه الدرجة [ذلك هو الفوز العظيم] أي الظفر بالمطلوب العظيم الشأن .

[فإنّما يسّرناه بلسانك] أي سهّلنا القرآن أي ذكّرهم بالكتاب المبين فإنّا

هوّنا عليك ذكره حيث أنزلناه عربيّا بلغتك و لغة قومك إرادة أن تفهم ويفهم قومك فيذّكّروا [فارتقب] أي فانتظر إن أعرضوا عن قبوله و ارتقب مجيء ما وعدناك [إنّهم مرتقبون] لأنّ المحسن يترقّب عاقبة الإحسان و المسيء ينتظر عاقبة الإساءة و قيل : المعنى انتظر لهم عذاب الله فإنّهم ينتظرون بك الدوائر أو انتظر نصرك عليهم فإنّهم منتظرون قهرك بزعمهم . تمّت السورة بحمدالله .

***

سورة الجاثية

٭(وتسمى سورة الشريعة) ٭

مكّيّة إلّا آية «قل للذين آمنوا يغفروا» الآية .

فضلها اُبيّ بن كعب قال : قال النبيّ صلى الله عليه وآله : من قرأ الجاثية ستر الله عورته وسكّن روعته عند الحساب . وروى أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال : من قرأ الجاثية كان ثوابها أن لا يرى النار أبداً ولا يسمع زفير جهنّم ولا شهيقها وهو مع محمّد صلى الله عليه وآله .

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢) ان في السموات و الارض لايات للمؤمنين (٣) و في خلقكم و ما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون (٤) واختلاف الليل والنهار وما انزل الله من السماء من رزق فاحيا به الارض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون (٥) .

ذكر في قوله : [حم تنزيل الكتاب] وجوهاً : الأوّل أنّ «حم» مبتدء مخبر عنه وتنزيل الكتاب خبره ولابدّ من حذف مضاف والتقدير : تنزيل حم تنزيل الكتاب و [من الله] متعلّق وصلة للتنزيل ، الثاني أن يكون التقدير : هذه حم ثمّ يقول : تنزيل الكتاب واقع من الله . الثالث أن يكون حم قسماً و جواب القسم «إنّ في السماوات» والتقدير : و حم الّذي هو تنزيل الكتاب إنّ الأمر كذا و كذا و الأولى أنّ حم اسم للسورة و خبر لمبتدء محذوف أي هذه السورة مسمّى بحم فيكون هذه حم و تنزيل الكتاب خبر بعد خبر و مصدر أُطلق على المفعول .

وقوله : [العزيز الحكيم] يمكن أن يكون صفة لله ويمكن أن يكون صفة للكتاب و كونه صفة لله أولى لأنّ ذلك بالنسبة إلى الله على سبيل الحقيقة و إذا جعلناهما صفة الكتاب كان ذلك مجازاً والحقيقة أولى من المجاز على أنّ القرب يوجب الرجحان .

ثمّ قال : [إنّ في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين] الّذين يصدّقون بالله و بأنبيائه وهم المنتفعون من الآيات إذا نظروا في السماوات والأرض النظر الصحيح علموا أنّها مصنوعة ولابدّ لها من صانع و كذلك إذا نظروا في خلق أنفسهم و تنقّلها من حال إلى حال ومن هيئة إلى هيئة .

[وما يبثّ من دابّة] و كذلك إذا نظروا في خلق ماهو مبثوث على وجه الأرض من صنوف الحيوان و عجائب ما خلقه على اختلاف أنواعها و أجناسها و منافعها المقصودة

منها ، دلالات و شواهد و [آيات لقوم يوقنون] و يطلبون اليقين بالتّدبّر والتعمّق .

[واختلاف الليل والنهار] أي و كذلك اختلافهما في القصر والطول وفي أنّ أحدهما نور والآخر ظلمة ومجيئهما على وتيرة واحدة [و ما أنزل الله من السماء من رزق] أراد به المطر الّذي ينبت به النبات الّذي هو رزق الخلائق سمّي رزقاً لأنّه سبب الرزق [فأحيا به الأرض بعد موتها] وبسبب ذلك المطر أحيا الأرض بعد يبسها وجفافها [وتصريف الرياح] بجعلها سبحانه مرّةً شمالاً ومرّةً جنوباً ومرّةً صبا وأُخرى دبوراً و تارةً رحمة و تارةً عذاباً [آيات لقوم يعقلون] - قرىء آيات بالرفع أي هي آيات ، وقرأ حمزة والكسائيّ آيات بكسر التاء - أي يتدبّرونها فيعلمون أنّ لهذه الحوادث محدثاً مدبّراً حكيماً لا يشبهه شيء .

و كلّ هذه الأمور المذكورة دلالات على وجود الإله القادر لأنّها مركّبة من الأجزاء وتلك الأجزاء أجسام وقد ذكر غير مرّة أنّ الأجسام من حيث هي متماثلة ووقوع تلك الأجزاء والأجسام بعضها في العمق دون السطح وبعضها في السطح دون العمق لابدّ لها من مخصّص ومرجّح لأنّك ترى أنّ الأفلاك والعناصر مع تماثلها في تمام الماهيّة الجسميّة اُختصّ كلّ واحد منها بصفة معيّنة كالحرارة والبرودة واللّطافة والكثافة من الفلكيّة والعنصريّة وإنّ أجرام الكواكب مختلفة في الألوان مع تماثلها في الجسميّة مثل كمودة زحل و بياض المشتري وحمرة المرّيخ والضوء الباهر للشمس ودرّيّة الزهرة وصفرة عطارد و كون بعضها سعدة و بعضها نحسة و بعضها نهاريّاً ذكراً و بعضها ليليّاً اُنثى فجعل هذه الاختلافات والخواصّ لابدّ و أن يكون من أمر خارج عنها فهي مسخّرة لذلك الأمر والوضع و ذلك بتقدير العزيز العليم .

و كذلك كون كلّ فلك مختصّاً بحركة من جهة إلى جهة وسرعة وبطوء مع أنّ الحركة مثلاً من جهة المشرق إلى المغرب بالنسبة إلى ذلك الفلك أوذلك الكوكب ليس بأولى من حركته من جانب المغرب إلى المشرق فهذا الاختصاص والتعيين في المدار من غير تخلّف دليل على الفاعل المدبّر المختار .

قوله تعالى : تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأى حديث بعد الله

وآياته يؤمنون (٦) ويل لكل أفاك اثيم (٧) يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها فبشره بعذاب اليم (٨) واذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزوآً اولئك لهم عذاب مهين (٩) من ورائهم جهنم ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله اولياء ولهم عذاب عظيم (١٠) .

أي ما ذكرناه أدلّة الله الّتي نصبها للمكلّفين نقرؤها عليك يا محمّد لتقرأها عليهم [بالحقّ] دون الباطل والتلاوة الإتيان بالثاني في أثر الأوّل في القراءة وقوله : « نتلوها عليك » في محلّ الحال أي متلوّة عليك [فبأيّ حديث بعد الله وآياته يؤمنون] أي هؤلاء الكفّار إن لم يصدّقوا بما نتلوها عليك فبأيّ حديث و كلام بعد حديث الله وهو القرآن و آياته يصدّقون وينتفعون .

والفرق بين الحديث الّذي هو القرآن وبين الآيات أنّ الآيات هي الأدلّة الفاصلة بين الحقّ والباطل فقط أو أنّ الغرض من العطف عطف التفسيريّ ومناط العطف التغاير العنوانيّ يؤمنون ويصدّقون وقرىء تؤمنون على الخطاب .

[ويلٌ لكلّ أفّاك أثيم] الويل كلمة وعيد يتلقّى بها الكفّار وقيل: هو واد سائل من صديد جهنّم . والأفّاك يطلق على من يعظم كذبه أو يكثر كذبه وإن كان في خبر واحد ككذب مسيلمة في ادّعائه النبوّة والأثيم كثير الآثام يعني الويل لمثل هذا الموصوف .

[يسمع آيات الله تتلى عليه ثمّ يصرّ مستكبراً] ويبقى ويقيم على كفره مستكبراً عن الإيمان بالآيات معجباً بما عنده قيل : نزلت في النضر بن الحرث كان يشتري من قصص الأعاجم مثل رستم واسفنديار ويشغل الناس بها عن استماع القرآن والآية عامّة في كلّ من كان موصوفاً بهذه الصفة و يشمل حال القصّاصين الباطل [كأن لم يسمعها] أي هذا الموصوف بالاستكبار بعد أن سمع الآيات مثل أن لم يسمعها [فبشّره بعذاب أليم] مؤلم .

[وإذا علم من آياتنا شيئاً اتّخذها هزوآً] أي إذا بلغه شيء من آياتنا ينتقل من مقام الاستكبار إلى مقام الاستهزاء واتّخذ ذلك المعلوم هزوآً وخاض في الاستهزاء بجميع الآيات ولم يقتصر بذلك المعلوم بل يستهزىء بالآيات [اُولئك لهم عذاب مهين] إشارة إلى

الموصوفين بهذه الصفات .

[من ورائهم جهنّم] الوراء اسم يقع على القدّام والخلف وما توارى عنك فهو وراك خلفك كان أو أمامك فالمعنى قدّامهم جهنّم وقيل : المعنى من وراء ما هم من التعزّز والمال والتلذّذ بالدنيا جهنّم .

ثمّ بيّن سبحانه أنّ ما ملكوه في الدنيا لا ينفعهم فقال : [ولا يغني عنهم ما كسبوا شيئاً] وكذلك إنّ أصنامهم لاتنفعهم فقال : [ولا ما اتّخذوا من دون الله أولياء] أي إنّ الآلهة الّتي عبدوها ليكون لهم شفعاء ما نفعتهم [ولهم] مع ذلك [عذاب عظيم] .

قوله تعالى : هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز اليم (١١) الله الذى سخر لكم البحر لتجرى الفلك فيه بأمره ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون(١٢) وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه ان فى ذلك لايات لقوم يتفكرون (١٣) قل للذين آمنوا يغفروا للذين لا يرجون ايام الله ليجزى قوماً بما كانوا يكسبون (١٤) من عمل صالحاً فلنفسه ومن اساء فعليها ثم الى ربكم ترجعون (١٥) .

أي [هذا] القرآن الّذي تلوناه والحديث الّذي ذكرناه [هدىً] ودلالة موصولة إلى التميّز بين الحقّ والباطل من أمور الدين والدنيا [والّذين كفروا] وجحدوا بالآيات لهم أشدّ العذاب والرجز هو أشدّ أنواع العذاب و «من» تبيينيّة للعذاب وتنوين عذاب في المواقع الثلاثة للتفخيم .

ثمّ نبّه سبحانه خلقه بالدلائل على توحيده فقال : [الله الّذي سخّر لكم البحر لتجري الفلك فيه بأمره] أي جعله على هيئة لتجري السفن فيه مثل أنّه وضعه أملس السطح يطفوا عليه مافيه التخلخل كالأخشاب وغيره ولايمنع الغوص والخرق لميعانه كذلك سخّره لكم لتركبوا في الفلك وتجري الفلك فيه [و لتبتغوا] و تطلبوا التجارة والانتقال والرزق من الغوص والصيد وغيرها [من فضله و لعلّكم تشكرون] أي لكي تشكروا النعم المرتّبة على ذلك .

[و سخّر لكم ما في السماوات وما في الأرض جميعاً منه] أي و سخّر و ذلّل لكم

معاشر الخلق ما في السماوات من الأُمور العلويّة من الشمس والقمر والنجوم و الأمطار والثلوج وما في الأرض من الدوابّ والأشجار والنبات والأثمار والأنهار ، ومعنى تسخيرها لنا بأن خلقها بوضع يمكن انتفاعنا منها على الوجه المضبوط ولو أنّه تعالى أوقف أجرام السماوات والأرض في مقارّها وأحيازها ، أوكان يجعل الأرض من الذهب أوالفضّة أوالحديد ماكان يحصل منها الانتفاع لها و قوله : « جميعاً منه » واقع موقع الحال أي كائنة هذه الأُمور من عنده وحكمته وهو مسخّرها لخلقه أي كل ذلك منه تعالى .

[إنّ في ذلك] أي فيما ذكر من النعم العظيمة [لآيات] عظيمة الشأن [لقوم يتفكّرون] في بدائع صنع الله تعالى .

ولمّا بيّن دلائل وحدته وقدرته أتبع ذلك بتعليم الأخلاق الفاضلة والأفعال الحميدة بقوله : [قل للّذين آمنوا يغفروا للّذين لا يرجون أيّام الله] أمرهم بالعفو عن الّذين لا يتوقّعون وقائع الله بأعدائه ، من قولهم لوقائع العرب: أيّام العرب مثل قولهم يوم حليم و يوم ذي قار و هذا الاصطلاح شائع في لسان العرب قال ابن عبّاس : المراد من قوله : « لا يرجون أيّام » أي أيّام ثواب الله ولا يخافون عقابه و لا يخشون مثل عقاب الأُمم الماضية وقال أكثر المفسّرين : إنّ الآية منسوخة بآية السيف .

و حاصل المعنى العفو عن الّذين نالوكم بالأذى والمكروه ولا يرجون ثوابه بالكفّ عنكم ومعنى « يغفروا » تركوا مجازاتهم ولا يكافئوهم ليتولّى الله مجازاتهم . القميّ : قال: يقول الله لأئمّة الحقّ : لاتدعوا على أئمّة الجور حتّى يكون الله هو الّذي يعاقبهم . و عن الصادق عليه السلام معنى الآية قل للّذين آمنوا و مننّا عليهم بمعرفتنا أن يعرّفوا و يعلّموا الّذين لايعلمون فإذا عرّفوهم فقد غفروا لهم .

[ليجزي قوماً بما كانوا يكسبون] أي ليجزي الله الصابر بسبب صبره و تحمّله والكافر بسبب إساءته وبيان الجزاء في قوله : [من عمل صالحا] أي طاعةً و برّاً [فلنفسه] و يعود ثواب عمله عليه [ومن أساء فعليها] أي و بال اساءته على نفسه [ثمّ إلى ربّكم ترجعون] و يكون إليه رجوعكم يوم القيامة إلى حيث لايملك أحد الانفاع و الاضرار والأمر والنهي غيره فيجازي كلاً على قدر عمله .

قوله تعالى : ولقد اتينا بني اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات و فضلناهم على العالمين (١٦) و آتيناهم بينات من الامر فما اختلفوا الامن بعد ماجاءهم العلم بغيا بينهم ان ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون (١٧) ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ولاتتبع اهواء الذين لايعملون (١٨) انهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً وان الظالمين بعضهم اولياء بعض والله ولي المتقين (١٩) هذا بصائر للناس و هدى و رحمة لقوم يوقنون (٢٠) .

المقصود بيان أنّه حال قومك كحال من تقدّم فقال :

[ولقد آتينا بني إسرائيل] نعماً كثيرةً والنعم على قسمين نعم الدين ونعم الدنيا و نعم الدّين أفضل من نعم الدنيا فبدأ بذكر نعم الدين بأن قال: آتيناهم [الكتاب] وهو التوراة [والحكم] يجوز أن يكون المراد العلم بفصل الحكومات والمعرفة بأحكام الله [والنبوّة] وهي معلومة .

و أمّا نعم الدنيا فهي المراد بقوله : [و رزقناهم من الطيّبات] و ذلك لأنّه تعالى وسّع عليهم في الدنيا فأورثهم أموال فرعون و قومه وديارهم ثمّ أنزل عليهم المنّ والسلوى و أعطاهم نصيباً وافراً .

قال : [و فضّلناهم على العالمين] أي كانوا أرفع درجةً ممّن سواهم في وقتهم و عالمي زمانهم .

ثمّ قال : [وآتيناهم بيّنات من الأمر] قال ابن عبّاس : يعني بيّن لهم من أمر النبيّ أنّه يهاجر من تهامة إلى يثرب ويكون أنصاره أهل يثرب وقيل: المراد من البيّنات آتيناهم أدلّة على اُمور الدنيا وأعطيناهم حدساً وفهماً في اُمور دنياهم يترتّبون بها أشغالهم وقيل : المراد وآتيناهم معجزات قاهرة على صحّة نبوّتهم .

[فما اختلفوا إلّا من بعد ما جاءهم العلم] أي فما وقع بينهم الخلاف في الدّين إلّا من بعد ماجاءهم ماهو موجب لزوال الخلاف وهو العلم بكتب الله و إنّما اختلفوا و حدث البغي بينهم للعداوة والحسد والأنفة وطلب الرياسة وقيل : المعنى [بغياً] على محمّد وجحوداً لما في كتابهم من نبوّته وصفاته و هذا المعنى قريب من معنى الأوّل .

والمقصود من هذا الكلام التعجّب من هذه الحالة لأنّ حصول العلم يوجب ارتفاع الخلاف و ههنا صار مجيئه سبباً لحصول الخلاف وذلك لأنّهم لم يكن مقصودهم من العلم الهداية وإنّما المقصود منه التقدّم والرياسة فلأجل هذا المقصود بغوا و عاندوا و أظهروا الخلاف فقال سبحانه : [إنّ ربّك يقضي بينهم يوم القيامة] في مختلفاتهم .

[ثمّ جعلناك على شريعة من الأمر] يا محمّد جعلناك على دين ومنهاج و طريقة بعد موسى وقومه فأمره سبحانه أن يتمسّك بدينه وطريقة كتابه و هو القرآن [فاتّبعها] أي فاتّبع شريعتك والشريعة السنّة الّتي من سلك طريقها أدّته إلى البغية كالشريعة الّتي هي طريق إلى الماء فهي علامة منصوبة على الطريق من الأمر والنهي يؤدّي إلى الجنّة كما يؤدّي تلك إلى الوصول إلى الماء .

[ولاتتّبع أهواء الّذين لايعلمون] الحقّ و لا يفصلون بينه وبين الباطل من أهل الكتاب الّذين غيّروا التوراة اتّباعاً لهواهم وحبّاً للرياسة واستتباعاً للعوامّ ولاالمشركين الّذين اتّبعوا أهواءهم في عبادة الأصنام [إنّهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً] أي لن يدفعوا عنك شيئاً من عذاب الله إن اتّبعت أهواءهم .

[وإنّ الظالمين بعضهم أولياء بعض] أي إنّ الكفّار بأجمعهم متّفقون على معاداتك وبعضهم أنصار بعض عليك [والله وليّ المتّقين] وناصرهم وحافظهم فلاتشغل قلبك بتعاونهم عليك .

[هذا بصائر للناس] أي هذا الّذي أنزلته عليك من القرآن معالم في الدين وعظات وعبر للناس يبصرون بها من أمور دينهم [وهدىً] أي دلالة واضحة [ورحمةٌ] أي نعمة من الله [لقوم يوقنون] بثواب الله و عقابه لأنّهم المنتفعون به . قال الكلبيّ : إنّ رؤساء قريش اجتمعوا وقالوا للنبيّ صلى الله عليه وآله وهو بمكّة: ارجع إلى ملّة أقوامك فهم كانوا أفضل وأقدم منك فأنزل الله هذه الآية «إنّهم لن يغنوا عنك من الله» الآية .

قوله : ام حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا و عملوا الصالحات سواء محياهم و مماتهم ساء ما يحكمون (٢١) و خلق الله السموات والارض بالحق ولتجزى كل نفس بما كسبت وهم لايظلمون(٢٢)

أفرأيت من اتخذ الهه هواه و اضله الله على علم وختم على سمعه و قلبه و جعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعدالله افلا تذكرون (٢٣) و قالوا ماهي الاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم انهم الا يظنون (٢٤) واذا تتلى عليهم آياتنا بينات ماكان حجتهم الا ان قالوا ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين (٢٥) .

«أم» منقطعة بمعنى بل و الهمزة للاستفهام الإنكاري و الاجتراح الاكتساب و منه الجوارح لأنّها كاسبة قال سبحانه : «ويعلم ماجرحتم بالنهار[1]» .

وقيل : أم متّصلة وهي كلمة وضعت للاستفهام عن شيء حال كونه معطوفاً على شيء آخر سواء كان ذلك المعطوف مذكوراً أومقدّراً فحينئذ تقدير الآية : هذا القرآن بصائر للناس مؤدّية إلى الخير أفعلموا ذلك أم حسب الّذين اكتسبوا الشرك والمعاصي أن يجعل منزلتهم منزلة الّذين آمنوا وصدّقوا لله و رسوله [سواء محياهم ومماتهم] ؟ أي أحسبوا أنّ موتهم وحياتهم كحياة المؤمنين وموتهم ؟ [ساء ما يحكمون] أي بئس ما حكموا على الله فإنّه تعالى لا يسوّي بينهم بل ينصر الله المسلمين و يخذل الكافرين ينزّل الملائكة عند الموت على المؤمنين بالبشرى وعلى الكافرين يضربون وجوههم وأدبارهم وقيل : أراد محياهم بعد البعث ومماتهم عند حضور الملائكة لقبض أرواحهم . و قيل : المراد إنّ المؤمنين محياهم على الإيمان والطاعة ومماتهم كذلك ومحيى الكافرين على الشرك و المعصية و مماتهم كذلك يموتون مشركين فلا يستويان .

قال الكلبيّ : نزلت الآية في ثلاثة من المؤمنين:عليّ عليه السلام وحمزة وأبي عبيدة بن الجرّاح[1] وثلاثة من المشركين عتبة وشيبة والوليد بن عتبة لأنّهم قالوا : للمؤمنين ما أنتم على شيء ونحن لوكان على ما تقولون الأمر لنكون في الآخرة أفضل منكم كما أنّا في الدنيا أفضل منكم فنزلت «أم حسب الّذين »الآية، و نظيره «أفمن كان فاسقاً كمن كان

---

(١) الانعام : ٦٠ .

(١) هكذا في تفسير الامام الرازي ، و عتبة و شيبة ابنا ربيعة و الوليد بن عتبة هم الثلاثة الذين برزوا الى المسلمين يوم بدر فخرج اليهم ثلاثة فتية من الانصار ولما علموا انهم من الانصار نادوا يامحمد أخرج إلينا اكفاءنا من قومنا فامر رسول الله حمزة وعليا و عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بالبراز ، و من هنا يستأنس ان ابى عبيدة ابن الجراح سهو و الصحيح عبيدة بن الحارث .

مؤمناً لا يستوون[١]» و كان الفضيل بن عياض إذا يقرء هذه الآية جعل يردّدها و يبكي و يقول : يافضيل ليت شعري من أيّ الفريقين أنت ؟

قوله : [وخلق الله السماوات والأرض بالحقّ ولتجزى كلّ نفس بما كسبت وهم لا يظلمون] معطوف على قوله : «خلق الله» لأنّ فيه معنى التعليل أي خلق الله السماوات و الأرض للدلالة على وجوده وقدرته «ولتجزى كلّ نفس» بعمله إن خيراً فخير و إن شرّاً فشرّ من غير ظلم .

[أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه] وقرئ آلهته . وفي الآية معنى التعجّب من حال من ترك متابعة الهدى إلى مطاوعة الهوى فكأنّه عبده ، أي أنظرت ورأيته يتّخذ دينه مايهواه ولا يؤمن بالله ولا يخافه ولا يحجزه تقوى ؟ وما يهواه يعبده وكان أحدهم يعبد الحجر فإذا رأى ماهو أحسن منه وأزين رمى به وعبد الآخر فقد عبد آلهة شتّى .

[وأضلّه الله على علم] أي خذله الله عالماً بضلاله وتبديله لفطرة الله الّتي فطره عليها وخلاه وما اختاره جزاء له على كفره وترك تدبّره وقيل : معنى «أضلّه الله» أي وجده ضالّاً بسبب علمه كما يقال : أحمدت فلاناً أي وجدته حميداً كقول عمرو بن معدي كرب : «قاتلناهم فما أجبنّاهم و سألناهم فما أبخلناهم » أي ما وجدناهم جبناء بخلاء . و قيل : معنى « أضلّه الله » أي ضلّ عن الله قال الشاعر :

هبوني امرءاً منكم أضلّ بعيره * له ذمّة إنّ الذمام كبير

أي ضلّ عنه بعيره .

[وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكّرون] أي ختم الله على سمعه وقلبه وعينه من بعد تعاميه عن الهدى وتماديه في الغيّ بسوء اختياره و كفره فمن بعد ضلاله . من يهديه من بعد الله أفلا تتّعظون بهذه المواعظ و هذا استبطاء بالتذكّر منهم أي تذكّروا .

ثمّ أخبر سبحانه عن منكري البعث فقال : [وقالوا ماهي إلّا حياتنا الدنيا] أي ليس الحياة إلّا حياتنا الّتي نحن فيها في الدنيا ولا يكون بعد الموت بعث ولا حساب [نموت و

(١) الم السجدة : ١٨ .

نحيا] و قرىءنحيا بضمّ النون في معناه أقوال : أحدها يعني نحيا و نموت فقدّم وأخّر و الثاني نموت بأنفسنا ونحيا ببقاء أولادنا والثالث يموت بعضنا و نحيا بعضنا ويمكن أن يريد به التناسخ فإنّه عقيدة أكثر عبدة الأوثان .

ثمّ جمعوا بين إنكار الإله والبعث والقيامة بقولهم : [وما يهلكنا إلّا الدهر] ومقصودهم أنّ تولّد الأشخاص إنّما كان بسبب حركات الأفلاك الموجبة لامتزاجات الطبائع و إذا وقعت تلك الامتزاجات على وجه خاص حصلت الحياة وإذا وقعت على وجه آخر حصل الموت فالموجب للحياة و الموت تأثيرات الطّبائع فهذا هو المراد من قولهم : « ما يهلكنا إلّا الدهر».

فقال سبحانه : [وما لهم بذلك من علم] نفى عنهم العلم لجهلهم بسبب نسبتهم ذلك إلى الدهر [إن هم إلّا يظنّون] ماهم فيما ذكروه إلّا ظانّون وقد روي في الحديث قال صلّى الله عليه و آله و سلّم : لاتسبّوا الدهر فإنّ الله هو الدهر أي فإنّ الله هو الآتي بالحوادث لاالدهر لأنّ الدهر هو مخلوق مقهور و كان أهل الجاهليّة ينسبون الحوادث و البلايا النازلة إلى الدهر ويقولون : فعل الدهر كذا و كانوا يسبّون الدهر فقال صلّى الله عليه و آله و سلّم : لا تسبّوا الدهر فإنّ الدهر لايحدث أمراً فلا تسبّوا فاعلها ونسبة الحوادث إلى الدهر كان شائعاً فيهم قال الأصمعيّ : ذمّ أعرابيّ رجلاً فقال : هو أكثر ذنوباً من الدهر وقال كثيّر :

و كنت كذي رجلين رجل صحيحة * و رجل رمى فيها الزمان فشلّت

ثمّ قال سبحانه : [وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات ماكان حجّتهم إلّا أن قالوا ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين] وذكروا هذه الشبهة الضعيفة حجّة بزعمهم وأنكروا البعث بقولهم: فائتوا بآبائنا الّذين ماتوا ليشهدوا لنا بصحّة البعث وليس هذه الكلمة الواهية بشيء لأنّه ليس كلّ مالا يحصل في الحال وجب أن يكون ممتنع الحصول فإنّ حصول كلّ واحد منّا كان معدوماً من الأزل إلى الوقت الّذي حصلنا فيه و لو كان عدم الحصول في وقت معيّن يدلّ على امتناع الحصول لكان عدم حصولنا كذلك وذلك باطل بالاتّفاق .

ثمّ قال سبحانه :

قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم الى يوم القيمة لاريب فيه و لكن اكثر الناس لايعلمون (٢٦) ولله ملك السموات و الارض ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون (٢٧) وترى كل امة جاثية كل امة تدعى الى كتابها اليوم تجزون ما كنتم تعملون (٢٨) هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون (٢٩) فاما الذين امنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم فى رحمته ذلك هو الفوز المبين (٣٠)

ثمّ خاطب سبحانه نبيّه وقال :

[قل] يا محمّد: [الله يحييكم] في دار الدنيا ولايقدر أحد على الإحياء غيره [ثمّ يميتكم] عند انقضاء آجالكم [ثمّ يجمعكم إلى يوم القيامة] بأن يبعثكم ويعيدكم أحياء [لا ريب فيه] ولاشكّ في وقوعه لأنّ من قدر على فعل الحياة في وقت قدر على فعلها في كلّ وقت [ولكنّ أكثر الناس لايعلمون] بعدولهم عن النظر الموجب للعلم بصحّته ولمّا بيّن أنّه القادر على الإحياء والإماتة عمّم الدليل فقال : [ولله ملك السماوات والأرض] أي له القدرة على جميع الممكنات .

ثمّ ذكر تفاصيل أحوال القيامة في الجملة :

فأولها : [ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون] وعامل النصب في يوم فعل يخسر و يومئذ بدل من يوم يقوم واعلم أنّ الحياة و العقل و الصحّة رأس المال للإنسان في تحصيل السّعادة كتصرّف التّاجر في رأس ما له في التجارة و طلب الرّبح و المبطلون أسرفوا رأس ما لهم في الكفر وطلب الشّقاوة فما وجدوا إلّا الخذلان فكان ذلك نهاية الخسران .

وثانيها : [وترى كلّ أمّة جاثية] والجثوّ الجلوس على الركب كما يجثى بين يدي الحاكم وقرىء «جاذية» والجذوّ أشدّ من الجثوّ لأنّ الجاذي هو الّذي يجلس على أطراف الأصابع ، والحاصل أنّ الأمّة مجتمعة مرتقبة لما يعمل بها .

ثمّ قال تعالى : [كلّ أمّة تدعى إلى كتابها] أي إلى صحائف أعمالها فاكتفى باسم الجنس و يقال لهم : [اليوم تجزون ما كنتم تعملون هذا كتابنا] و نسبة الكتاب

إليهم لأنّه المشتمل على أعمالهم ونسبة الكتاب إليه تعالى أيضاً لأنّه هو الّذي أمر الملائكة بكتبه .

[ينطق عليكم] ويشهد بما عملتم من غير زيادة ونقصان [إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون] أي نستكتب الملائكة أعمالكم .

و في الكافي والقمي عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن هذه الآية فقال : إنّ الكتاب لم ينطق ولن ينطق ولكن رسول الله هو الناطق بالكتاب قال الله تعالى : «هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق» بضمّ الياء و فتح التاء فقيل : إنّا لانقرؤها هكذا فقال عليه السلام : هكذا والله أنزل بها جبرئيل على محمد و لكنّه ممّا حرّف من كتاب الله وعن الصادق عليه السلام أنّه سئل عن « ن والقلم » قال : إنّ الله خلق القلم من شجرة في الجنّة يقال له : الخلا ، ثمّ قال : لنهر في الجنّة : كن مداداً فجمد النهر وكان أشدّ بياضاً من الثلج وأحلى من الشهد ثمّ قال: للقلم : أُكتب فقال : يارب وما أكتب؟ قال : أُكتب ماكان وما هو كائن إلى يوم القيامة فكتب القلم في رق أشدّ بياضاً من الفضّة و أصفى من الياقوت ثمّ طواه فجعله في ركن العرش ثمّ ختم على فم القلم فلم ينطق ولا ينطق أبداً فهو الكتاب المكنون الّذي منه النسخ كلّها أولستم عرباً فكيف لاتعرفون معنى الكلام وأحدكم يقول لصاحبه:انسخ ذلك الكتاب أوليس إنّما ينسخ من كتاب آخر هو الأصل و هو قوله : « إنّا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون » .

و في سعد السعود في حديث الملكين الموكّلين بالعبد إنّهما إذا أرادا النزول صباحاً ومساء ينسخ لهما إسرافيل عمل العبد من اللوح المحفوظ فيعطيهما ذلك فإذا صعدا صباحاً و مساء يدنوان عمل العبد قابله إسرافيل بالنسخ الّتي استنسخ لهما حتّى يظهر أنّه كان كما نسخ منه .

قوله : [فأمّا الّذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلهم ربّهم في رحمته] أي في جنّته وثوابه [ذلك هو الفوز المبين] أي الفلاح الظاهر .

و أما الذين كفروا أفلم تكن آياتى تتلى عليكم فاستكبرتم و كنتم قوماً مجرمين (٣١) واذا قيل ان وعدالله حق والساعة لاريب فيها قلتم ماندرى

ما الساعة ان نظن الاظنا و ما نحن بمستيقنين (٣٢) وبدالهم سيئات ماعملوا وحاق بهم ماكانوا به يستهزءون(٣٣) وقيل اليوم ننسكم كمانسيتم لقاء يومكم هذا ومأواكم النار ومالكم من ناصرين (٣٤) ذلكم بانكم اتخذتم آيات الله هزؤا وغرتكم الحيوة الدنيا فاليوم لايخرجون منها ولاهم يستعتبون (٣٥) فلله الحمد رب السموات و رب الارض رب العالمين (٣٦) وله الكبرياء في السموات والارض وهو العزيز الحكيم(٣٧) .

قالت المعتزلة في قوله تعالى : [فأمّا الّذين آمنوا و عملوا الصالحات فيدخلهم ربّهم في رحمته] : إنّه سبحانه ذكر بعد وصفهم بالإيمان كونهم عاملين للصالحات فوجب أن يكون عمل الصالحات مغايراً للإيمان زائداً عليه وعلّق الدخول في رحمته على كونه آتياً بالإيمان والأعمال الصالحة والمعلّق على مجموع أمرين يكون عدماً عند عدم أحدهما فعند عدم الأعمال الصالحة وجب أن لايحصل الفوز بالجنّة .

و أجاب الأشاعرة بأنّ تعليق الحكم على الوصف لايدلّ على عدم الحكم عند عدم الوصف. انتهى.

قوله : [وأمّا الّذين كفروا أفلم تكن آياتي تتلى عليكم] أي يقال لهم : أفلم تكن بيّناتي وحججي تقرء عليكم [فاستكبرتم و كنتم قوماً مجرمين] أي تعظّمتم عن قبولها و صرتم بسبب الاستكبار كافرين كما قال سبحانه : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين » .

قالت الأشاعرة : إنّه تعالى علّل استحقاق العقوبة بأنّ آياته تليت عليهم فاستكبروا ، و هذا يدلّ على أنّ استحقاق العقوبة لا يحصل إلّا بعد مجيء الشرع فالواجبات لاتجب إلّا بالشرع خلافاً لما يقوله المعتزلة من أنّ بعض الواجبات قد تجب بالعقل .

أقول : و في كلام الأشاعرة نظر لأنّ بعض الواجبات والمحرّمات ثبت وجوبه و حرمته بالعقل مع قطع النظر عن الشرع كحسن الإحسان وقبح الظلم .

فإن قيل : كيف يحسن وصف الكافر بكونه مجرماً في معرض الذمّ له قيل: والمراد أنّ الكفّار قد يكونون عدولاً في أديانهم و هؤلاء فسّاق في ذلك الدين و جواب الاستفهام

محذوف والفاء في « أفلم تكن » يدلّ عليه و التقدير : فأمّا الّذين كفروا فيقال لهم : « أفلم تكن الآية » .

[و إذا قيل إنّ وعدالله حقّ] أي إنّ ما وعدالله من الثواب و العقاب كائن ثابت لامحالة [والساعة] آتية [لاريب] فيوقوعها [قلتم] معاشر الكفّار [ماندري ما الساعة] و أنكرتموها [إن نظنّ إلّا ظنّاً وما نحن بمستيقنين] و ذلك لأنّ القوم كانوا فيهذه المسألة على قولين منهم من كان قاطعاً بنفي البعث والقيامة وهم الّذين ذكرهم الله في الآية السابقة بقوله : « وقالوا ماهي إلّا حياتنا الدنيا » و منهم من كان يظهر التحيّر فيوقوعه و لكثرة ماسمعوه من الرسول صاروا يظهرون الشكّ فيه وهم الّذين ذكرهم الله فيهذه الآية والّذي يدلّ على هذا المعنى أنّه تعالى حكى مذهب اُولئك القاطعين ثمّ أتبعه بحكاية قول هؤلاء فوجب كون هؤلاء مغايرين للفريق الأوّل .

[و بدا لهم سيّئات ماعملوا] أي ظهر لهم جزاء معاصيهم الّتي عملوها في الآخرة وقد كانوا يعدّونها حسنات [وحاق بهم ماكانوا به يستهزئون] ونزل بهم وثبت واستقرّلهم جزاء تكذيبهم و استهزائهم و هذا كالدليل على أنّ هذه الفرقة لمّا قالوا : « إن نظنّ إلّا ظنّاً » إنّما ذكروه على وجه السخريّة فعلى هذا الوجه فهذا الفريق شرّ من الفريق الأوّل لأنّهم ضمّوا إلى الإنكار الاستهزاء .

ثمّ قال تعالى : [وقيل اليوم ننساكم كما نسيتم لقاء يومكم] أي نترككم في العذاب كما نسيتم لقاء يومكم هذا اليوم وتركتم التأهّب للقاء يومكم ونحلّكم في العذاب محلّ المنسيّ كما أحللتم هذا اليوم عندكم محلّ المنسيّ [ومأواكم النار] أي مستقرّكم جهنّم [ومالكم من ناصرين] يدفعون عنكم عذاب الله .

[ذلكم بأنّكم اتّخذهم آيات الله هزوًا] أي ذلكم الّذي فعلنابكم لأجل أنّكم استهزأتهم بآيات الله تسخرون بها وبسبب أنّكم استغرقتم في حبّ الدينا والإعراض بالكلّيّة عن الآخرة وهوالمراد من قوله : [وغرّتكم الحياة الدنيا] وخدعتكم بزينتها [فاليوم لا يخرجون منها ولا هم يستعتبون] وقرأ حمزة والكسائي بفتح الباء في «ولاهم يستعتبون » أي لا يطلب منهم أن يعتبوا ربّهم أي يرضوه وغير مأذونين في الاعتذار لأنّ التكليف قد

زال وقيل : معناه : لا يقبل منهم العتبى .

[فلله الحمد ربّ السماوات وربّ الأرض ربّ العالمين] أي احمدوا الله حمداً وشكراً تامّاً أو الحمد التامّ والمدحة الّتي لا يوازيها مدحة لله الّذي خلق السماوات والأرض و دبّرهما وخلق العالمين [وله الكبرياء] أي السلطان القاهر والعلوّ والشأن في السماوات والأرض ولا يستحقّه أحدٌ غيره وفي الحديث قال الله سبحانه : الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني ألقيته في جهنّم [وهو العزيز] في حكمه وجلاله [الحكيم] في أفعاله وقيل : معناه العزيز في انتقامه من الكفّار والحكيم في ما يفعله بالمؤمنين والكلام مفيد للحصر .

تمّت السورة والحمد لله حمداً دائماً طيّباً مباركاً مخلّداً مؤبّداً كما يليق بشأنه وعظيم إحسانه والصلاة على الأرواح الطاهرة المقدّسة من ساكني أعالي السماوات ونجوم الأرضين من الملائكة والأنبياء والأولياء خصوصاً على خير خلقه محمّد و خلفائه الأئمّة المرضيّين صلوات عليه وعليهم أجمعين .

سورة الاحقاف

مكّيّة إلّا آية منها نزلت بالمدينة « قل أرأيتم إن كان من عند الله » الآية نزلت في عبدالله بن سلام .

عن اُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : و من قرأ سورة الأحقاف اُعطي من الأجر بعدد كلّ رمل في الدنيا عشر حسنات و محي عنه عشر سيّئات و رفع له عشر درجات .

وعن عبدالله بن أبي يعفور عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من قرأ كلّ ليلة أو كلّ جمعة سورة الأحقاف لم يصبه الله بروعة في الدنيا وآمنه من فزعة يوم القيامة .

بسم الله الرحمن الرحيم

حم (١) تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم (٢) ما خلقنا السموات والارض وما بينهما الا بالحق و أجل مسمى والذين كفروا عما انذروا معرضون (٣) قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أروني ما ذا خلقوا من الارض أم لهم شرك السموات ائتوني بكتاب من قبل هذا أواثارة من علم ان كنتم صادقين (٤) ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له الى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون (٥) .

قوله : [حم تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم] مرّ تفسيره [ما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما إلّا بالحقّ] أي ما خلقناهما عبثاً ولا باطلاً وإنّما خلقناهما لنتعبّد سكّانها بالأمر والنهي و نعرضهم الثواب وضروب النعم والخلق عبارة عن التقدير وآثار التقدير ظاهرة في السماوات والأرض .

قالت المعتزلة : هذا يدلّ على أنّ كلّ ما في السماوات والأرض من القبائح فهو ليس من خلقه بل هو من أفعال عباده و إلّا لزم أن يكون خالقاً لكلّ باطل وذلك ينافي قوله : « ما خلقناهم إلّا بالحقّ » .

وأجاب الأشاعرة بأنّه هو الّذي خلق الباطل إلّا أنّه خلق ذلك الباطل بالحقّ لأنّ ذلك تصرّف منه تعالى في ملك نفسه وتصرّف المالك في ملك نفسه يكون بالحقّ لا بالباطل و قالوا : إنّ أعمال العباد من جملة ما بين السماوات والأرض فهي مخلوقة لله .

والجواب: أنّ أفعال العباد أعراض والأعراض لا توصف بأنّها حاصلة بين السماوات والأرض ثمّ إنّ الله خلق السماوات والأرض وما بينهما بالحقّ وما خلق الباطل والّذي خلقه هو الحقّ لكن سوء اختيار العبد غيّر الحقّ وجعله باطلاً ومثاله أنّ الطاهي يصنع طعاماً يتّخذ من اللّحوم والأبازير ويطبخه على أحسن تركيب ويقدّمه للضيف فيتسرّع

إليه طفل أو مجنون فيلقي في ذلك الطعام جفنة من علقم أو ملح فغيّره بحيث لا يؤكل من ذلك الطعام بل لايمكن الذوق منه لفرط مرارته فهل يمكن أن يقال : إنّ الطاهي أفسد هذا الطعام وأضاعه فكذا هنا، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

قوله : [وأجل مسمّى] يعني يوم القيامة فإنّه أجلٌ مسمّىً عنده سبحانه ومطويٌّ عن العباد علمه إذا انتهى إليه تناهى وقامت القيامة وقيل : هو مسمّىً للملائكة وفي اللّوح المحفوظ [والّذين كفروا عمّا أُنذروا معرضون] أي إنّ الكافرين عمّا أُنذروا من القيامة والجزاء معرضون وعادلون عن قبوله والتفكّر فيه .

[قل] يا محمّد -صلّى الله عليك- لهؤلاء الّذين كفروا : [أرأيتم ما تدعون من دون الله] أي أخبروني من الأصنام الّتي تعبدونها [أروني] تأكيد لأرأيتم [ماذا خلقوا من الأرض] وما الّذي أبدعوه وأظهروه من العدم إلى الوجود [أم لهم شرك في السماوات] في خلقها وتركيبها .

ثمّ قال سبحانه : قل لهم : [ائتوني بكتاب الله من قبل هذا] أي قبل هذا القرآن أنزله الله يدلّ على صحّة قولكم [أو أثارة من علم] أي بقيّة من علم يؤثر من كتب الأوّلين تعلمون به أنّهم شركاء لله أو خبر من الأنبياء السالفة يقولون بهذا الأمر فيكون يتوهّم لهم شائبة استحقاق المعبوديّة فائتوا به [إن كنتم صادقين] قال المبرّد : الأثارة ما يؤثر و يبقى من علم لقولك : هذا الحديث مأثور عن فلان و من هذا المعنى سمّيت الأخبار بالآثار كأنّها بقيّة يستخرج فيؤثر و قرىء «أثرة» أي من شيء أُوثرتم و خصّصتم به .

قوله : [ومن أضلّ ممّن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة] أي من أضلّ عن طريق الصواب ممّن يدعو غير الله شيئاً لودعاه إلى يوم القيامة لم يجبه ولم يغثه ولا يستجيب له أبداً [وهم عن دعائهم غافلون] أي المعبودون مع ذلك عن دعاء العابدين غافلون وجاهلون لأنّهم جمادات وليس لها إدراك و كنّي عن الأصنام بجمع العاقل على زعمهم نحو « رأيتهم لي ساجدين » .

قوله تعالى: وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين(٦)

واذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين(٧)ام يقولون افتراه قل ان افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً هو اعلم بما تفيضون فيه كفى به شهيدا بينى و بينكم وهو الغفور الرحيم(٨)قل ما كنت بدعا من الرسل وما ادرى ما يفعل بى ولا بكم ان اتبع الا ما يوحى الى وما انا الا نذير مبين (٩) قل ارايتم ان كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بنى اسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم ان الله لا يهدى القوم الظالمين(١٠)

المعنى : ذكر سبحانه أنّه إذا قامت القيامة صارت آلهتهم الّتي عبدوها أعداء لهم مثل قوله تعالى : « ويكونون عليهم ضداً (١) » [وكانوا بعبادتهم كافرين] أي إنّ هذه الأوثان الّتي عبدوها ينطقهم الله حتّى يجحدوا ويكفروا بعبادة الكفّار لهم .

ثمّ وصفهم الله سبحانه فقال : [وإذا تتلى عليهم آياتنا بيّنات قال الّذين كفروا للحقّ] أي للقرآن والمعجزات الّتي ظهرت على يدي النبيّ [هذا سحر مبين] أي حيلة لطيفة ظاهرة وخداع بيّن .

[أم يقولون افتراه قل إن افتريته] و لمّا بيّن سبحانه أنّهم يسمّون المعجزة بالسحر بيّن أنّهم متى سمعوا القرآن قالوا : إنّ محمّد افتراه واختلقه من عند نفسه ومعنى الهمزة في « أم » للإنكار والتعجّب كأنّه قيل : دع هذا واسمع القول المنكر العجيب بأنّهم أضربوا عن الكلام القبيح الأوّل من تسميتهم الآيات سحراً إلى ذكر قولهم إنّ محمّداً افتراه ، قل يا محمّد لهم : إن اختلقته على سبيل الفرض وكذبت على الله كما زعمتم عاجلني الله لا محالة بعقوبة الافتراء ولا تقدرون على كفّه عن عقوبته سبحانه إيّاي [فلا تملكون لي من الله شيئاً] ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عنّي فكيف أتعرّض لعقابه ؟

ثمّ قال : [هو أعلم بما تفيضون فيه] أي إنّ الله أعلم بما تقولون و تخوضون في القرآن من التكذيب به والقول فيه بأنّه سحر [كفى به شهيداً بيني وبينكم] أي كفى به سبحانه شاهداً أنّ القرآن جاء من عنده [وهو الغفور الرحيم] في تأخير العقاب عنكم حين لا يعجل بالعقوبة وهو وعد لمن رجع عن الكفر وتاب واستعان بحكم الله عليهم مع عظم ما ارتكبوه .

---

(١) مريم : ٨٣ .

[قل] ما كنت بدعاً من الرسل] أي لست بأوّل رسول بعث ، والبدع الأوّل من الأمر ، فلا ينبغي أن تنكروا إخباري بأنّي رسول الله إليكم ولا تنكروا دعوتي لكم إلى التوحيد ونهيي عن عبادة الأصنام فإنّ كلّ الرسل إنّما بعثوا بهذا الطريق وذلك أنّهم كانوا يعيبونه بأنّه يأكل الطعام ويمشي في الأسواق و بأنّه فقير وبأنّ أتباعه فقراء فقال سبحانه : « قل ما كنت بدعاً من الرسل » بل كانوا كلّهم بهذه المثابة فهذه الأشياء لا تقدح في نبوّتي كما لا تقدح في نبوّتهم .

ثمّ قال : [وما أدري ما يفعل بي ولا بكم] في تفسير الآية وجهان :

الأوّل أن تحمل على أحوال الدنيا أي لا أدري ءأموت أم اُقتل ولا أدري أيّها المكذّبون مايفعل بكم أترمون بالحجارة من السماء أم يخسف بكم الأرض أم ليس يفعل بكم ما فعل بالاُمم المكذّبة وهذا هو في الدنيا وأمّا في الآخرة فانّه علم بسبب خبر الله أنّه في الجنّة أو المعنى لست أدّعي غير الرسالة ولا أدّعي علم الغيب ولا معرفة لي فيما يفعل الله بي ولا بكم من الإحياء والإماتة والمنافع والمضارّ إلّا أن يوحى إليّ وقيل : المعنى ما أدري ما اُؤمر به ولا ما تؤمرون به في باب التكليف والشرائع إلّا ما أوحاه الله إليّ وقيل : ما أدري أاُترك بمكّة أو اُخرج منها .

قال : ابن عبّاس : في رواية الكلبيّ عنه لمّا اشتدّ البلايا بأصحاب رسول الله ﷺ بمكّة رأى في المنام ﷺ أنّه يهاجر إلى أرض ذات نخل وشجر وماء فقصّها على أصحابه فاستبشروا بذلك ورأوا أنّ ذلك فرج ممّا هم فيه من أذى المشركين ثمّ إنّهم مكثوا بذلك برهة من الزمان لا يرون أثر ذلك فقالوا : يا رسول الله ما رأينا الّذي قلت و متى نهاجر إلى الأرض الّتي رأيتها في المنام ؟ فسكت النبيّ ﷺ فأنزل الله الآية « ما أدري ما يفعل بي ولا بكم » .

وأمّا الوجه الثاني أنّ المراد من الآية يكون في أحوال الآخرة كما زعم بعض و هذا القول ضعيف جدّاً قال ابن عبّاس لمّا نزلت هذه الآية فرح المشركون و المنافقون واليهود وقالوا : كيف نتّبع نبيّاً لا يدري ما يفعل به وبنا فأنزل الله « إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك» إلى قوله : « فوزاً عظيماً » فبيّن سبحانه ما يفعل

به وبمن اتّبعه وشرحت هذه الآية وأرغم الله أنف المنافقين والمشركين .

و اعلم أنّ أكثر المحقّقين أنكروا الوجه الثاني و هو كون المراد في معنى الآية الأحوال الآخرة لوجوه :

الاول أنّ النبيّ ﷺ لابدّ وأن يعلم كونه نبيّاً و متى علم كونه نبيّاً علم أنّه لاتصدر عنه الكبائر وأنّه مغفور له وإذا كان كذلك امتنع كونه شاكّاً في أنّه هل هو مغفور له أم لا ؟

الثاني لاشكّ أنّ الأنبياء أرفع حالاً وشأناً من الأولياء فلمّا قال سبحانه : «إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا فلاخوف عليهم ولا هم يحزنون» فكيف يعقل أن يبقى الرسول الّذي هو رئيس الأتقياء وقدوة الأنبياء والأولياء شاكّاً في أنّه هل هو من المغفورين أو من المعذّبين ؟

الثالث أنّه تعالى قال : «الله أعلم حيث يجعل رسالته» والمراد منه كمال حاله ونهاية قربه من حضرة الله تعالى ومن هذا حاله كيف يليق به أن يبقى شاكّاً في أنّه من المعذّبين أو من المغفورين ؟ فثبت أنّ هذا ضعيف . و قرأ الزّمخشريّ بفتح الياء في « يفعل » على المعلوم .

ثمّ قال : [إن أتّبع إلّا ما يوحى إليّ] أي لاأقول قولاً ولاأعمل عملاً إلّا بمقتضى الوحي [وما أنا إلّا نذير مبين] كانوا يطالبونه ﷺ بالمعجزات العجيبة و يقترحون منه وبالإخبار عن الغيوب فقال سبحانه : قل « وما أنا إلّا نذير مبين » بيّن الإنذار اُنذركم عقاب الله .

واحتجّ نفاة القياس بهذه الآية قالوا : النبيّ ﷺ ما قال قولاً ولا عمل عملاً إلّا بالنصّ الّذي أوحاه الله إليه فوجب أن يكون حالنا كذلك لقوله تعالى : «واتّبعوه» وقوله تعالى : «فليحذر الّذين يخالفون عن أمره[1]» .

قوله تعالى : [قل أرأيتم إن كان من عند الله و كفرتم به] ثمّ قال سبحانه : «قل» يا محمّد لهم : أرأيتم أي أخبروني وماذا تقولون إن كان هذا القرآن من عند الله هو أنزله؟ «و كفرتم

(١) النور : ٦٣ .

به» حال بإضمار «قد» وجواب الشرط ههنا محذوف تقديره: إن كان القرآن من عندالله والحال أنـكم كافرين به ألستم ظالمين وخاسرين ؟

ويدلّ على هذا المحذوف قوله : «إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين» وجواب الشرط قد يحذف مثل هذه الآية ومثل قوله تعالى : «ولو أنّ قرآناً سيّرت به الجبال[1]» الآية ، وقد يذكر مثل قوله : «قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء[2]» .

قوله : [وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله] والضمير في مثله راجع إلى القرآن وهو التوراة من المعاني المطابقة لمعاني القرآن من التوحيد والوعد والوعيد وغير ذلك ويدلّ عليه «وإنّه لفي زبر الأولين[3]» و «إنّ هذا لفي الصحف الأُولى[4]» وقوله : «وكذلك يوحي إليك وإلى الّذين من قبلك[5]» . ويجوز أن يكون المعنى إن كان من عندالله وكفرتم به وشهد شاهد على نحو ذلك يعني كونه من عند الله .

والمراد في الآية من الشاهد قيل : عبدالله بن سلام وقيل : الشاهد موسى شهد على التوراة كما شهد النبيّ على القرآن . وقالوا : لا يمكن أن يكون الشاهد عبد الله بن سلام لأنّ السورة مكّيّة وعبدالله أسلم في المدينة . وأُجيب عن ذلك بأنّ الآية مدنيّة والسورة مكّية وكانت الآية تنزل فيؤمر رسول الله بأن يضعها في سورة كذا فهذه الآية نزلت في المدينة وإنّ الله أمر رسوله بأن يضعها في هذه السورة المكّيّة في هذا الموضع المعيّن .

قال صاحب الكشّاف : إنّه لمّا قدم رسول الله ﷺ المدينة فأتاه عبدالله بن سلام ونظر إلى وجه النبيّ ﷺ وتأمّله فعرف أنّه ﷺ ليس بوجه كذّاب وتحقّق أنّه هو النبيّ ﷺ المنتظر .

---

(١) الرعد : ٣٣ :
(٢) القصص : ٧٢ .
(٣) الشعراء : ١٩٦ .
(٤) الاعلى : ١٨ ،
(٥) الشورى : ٢ .

فقال له عبدالله : إنّي سائلك عن ثلاث ما يعلمهن إلّا النبيّ : ما أوّل أشراط الساعة وما أوّل طعام يأكله أهل الجنّة والولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمّه؟ فقال ﷺ : أمّا أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم وتجمعهم من المشرق إلى المغرب وأمّا أوّل طعام يأكله أهل الجنّة فزيادة كبد الحوت وأمّا الولد فإذا سبق ماء الرجل نزع له وإن سبق ماء المرأة نزع لها فقال عبدالله : أشهد أنّك لرسول الله حقّاً .

ثمّ قال عبدالله : يارسول الله إنّ اليهود قوم بهت وإن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم عنّي بهتوني عندك فجاءت اليهود فقال لهم النبيّ ﷺ : أيّ رجل عبدالله عندكم ؟ فقالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيّدنا و ابن سيّدنا و أعلمنا وابن أعلمنا فقال : أرأيتم إن أسلم عبد الله فقالوا : أعاذه الله من ذلك فخرج عليهم عبد الله وقال : أشهد أن لا إله إلّا الله و أشهد أنّ محمّداً رسول الله فقالوا : شرّنا و ابن شرّنا و انتقصوه فقال عبد الله : هذا ما كنت أخاف يا رسول الله .

فقال سعد بن أبي وقّاص : ما سمعت رسول الله يقول لأحد يمشي على وجه الأرض أنّه من أهل الجنّة إلّا لعبد الله بن سلام و فيه نزل « و شهد شاهد من بني إسرائيل على مثله » .

لكن بعض أنكروا هذا المعنى كما ذكرنا قبل هذا في أوّل الآية و قالوا : إنّ الإخبار عن المسائل الثلاث إخبار عن وقوع شيء من الممكنات العاديّات وما يكون هذا سبيله فإنّه لا يعرف صدقه إلّا إذا عرف أوّلاً كون المخبر صادقاً فلو أنّا عرفنا صدق المخبر بكون ذلك الخبر صدقاً لزم الدور وإنّه محال . ثمّ إنّ الجوابات المذكورة عن الأسئلة لا يبلغ العلم بها إلى حدّ الإعجاز .

لكن يمكن الجواب عن هذا الإيراد أنّه جاء في بعض كتب الأنبياء أو التوراة أنّ رسول آخر الزمّان يُسأل عن هذه المسائل و هو يجيب بهذه الجوابات و كان عبدالله عالماً بهذا المعنى فلمّا سأل النبيّ و أجاب ﷺ عرف بهذا الطريق كونه رسولاً حقّاً، انتهى .

ثمّ أخبر سبحانه و قال: [فآمن واستكبرتم] أي آمن الشاهد و كفرتم [إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين] بسبب قبولهم الظلم و هو الكفر و إنّما منعهم الهداية لفعل القبيح الّذي صدر منهم لكونهم ظالمين أنفسهم.

قوله تعالى: وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ماسبقونا اليه واذلم يهتدوا به فسيقولون هذا افك قديم (١١) ومن قبله كتاب موسى اماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا و بشرى للمحسنين (١٢) ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١٣) اولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون (١٤) و وصينا الانسان بوالديه احسانا حملته امه كرها ووضعته كرها وحمله وفصاله ثلاثون شهرا حتى اذا بلغ اشده وبلغ اربعين سنة قال رب اوزعني ان اشكر نعمتك التي انعمت علي وعلى والدي وان اعمل صالحا ترضه واصلح لي في ذريتي اني تبت اليك واني من المسلمين (١٥)

هذه شبهة اُخرى للقوم في إنكار نبوّته ﷺ وذلك أنّه لمّا أسلمت جهينة وأسلم و غفار قال بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع وهم كانوا أقوياء: لو كان هذا خيراً ماسبقنا إليه هؤلاء رعاء البهم، و هؤلاء الصعاليك والفقراء والأراذل مثل عمّار و صهيب و ابن مسعود و أمثالهم.

وقيل: إنّه كانت أمة لعمر أسلمت قبل أن يسلم عمرو كان عمر يضربها حتّى يفتر و يقول: لولا إنّي فترت لزدتك ضرباً فكان كفّار قريش يقولون: لو كان مايدعو محمّد حقّاً ما سبقتنا إلى قبول دينه فلانة.

وقيل: كان اليهود يقولون هذا الكلام عند إسلام عبدالله بن سلام.

قوله: [وإذلم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم] أي فإن لم يهتدوا بالقرآن من حيث لم يتدبّروه فسيقولون هذا القرآن كذب متقادم و أساطير الأوّلين و القديم في اللغة ماتقادم وجوده وفي عرف المتكلّمين هو الموجود الّذي لاأوّل لوجوده.

ثمّ قال سبحانه: [ومن قبله كتاب موسى] أي و تقدّمه كتاب موسى و هو التوراة

[إماماً ورحمةً] يقتدى به كما يقتدى بالإمام و رحمة من الله للمؤمنين به قبل القرآن و في الكلام حذف والتقدير و كان قبل القرآن كتاب موسى فلم يهتدوا به ودلّ على المحذوف قوله تعالى في الآية الأولى : «وإذ لم يهتدوا به» وذلك أنّ المشركين لم يهتدوا بالتوراة فيتركوا عبادة الأوثان ويعرفوا منه صفة محمّد كما هو مذكور فيه .

ثمّ قال : [وهذا كتاب] أي القرآن [مصدّق] للكتب الّتي قبله [لساناً عربيّاً] و ذكر اللسان تأكيداً كما تقول : جاءني زيد رجلاً صالحاً فذكر رجل للتأكيد أي إنّ هذا القرآن مصدّق لكتاب موسى في أنّ محمّداً رسول حقّ من عندالله لكونه ﷺ مذكور النعت في التوراة [لينذر الّذين ظلموا] فإسناد الإنذار إلى الكتاب كما أسند إلى الرسول وقرئ بالتاء على الخطاب [وبشرى للمحسنين] وبشارة لهم أو ويبشّر الكتاب بشرىً أوفي موضع الرفع أي وهو بشرى للموحّدين .

[إنّ الّذين قالوا ربّنا الله ثمّ استقاموا] بيان صفة الموحّدين أي الّذين وحّدوا الله و استقاموا في اُمور الدين على العمل به و في الآية دلالة على تراخي مرتبة العمل عن التوحيد ووجوب العمل [فلا خوف عليهم] من لحوق مكروه [ولاهم يحزنون] من فوات محبوب وقال أهل التحقيق : خوف العقاب زائل عنهم وأمّا خوف الجلال والهيبة فلايزول عن العبد البتّة ألاترى أنّ الملائكة مع علوّ درجاتهم وعصمتهم لايزول الخوف عنهم فقال تعالى : «يخافون ربّهم من فوقهم» .

قوله : [اُولئك أصحاب الجنّة] أي هؤلاء الموصوفين ملازمون الجنّة [خالدين فيها] مؤبّدين [جزاءً بما كانوا يعلمون] أي يجزون جزاءً في الدنيا من الطاعات والأعمال الصالحة .

[ووصّينا الإنسان بوالديه إحساناً] قرئ «إحساناً»«حسناً» بضمّ الحاء وسكون السين و فمن قرأ إحساناً فحجّته مثل قوله تعالى في سورة بني إسرائيل « وبالوالدين إحساناً [(١)] » والإحسان ضدّ الإساءة ومن قرأ حسناً فالمعنى أمرناه بأن يوصل إليهما فعلاً حسناً وسمّي ذلك الفعل الحسن بالحسن على سبيل المبالغة كما يقال : زيدٌ عدلٌ و هذا الرجل علمٌ و كرمٌ .

---

(١) الاية ٢٣ .

[حملته أُمّه كرهاً ووضعته كرهاً] قرىء كرهاً بضمّ الكاف و بفتحها هما لغتان مثل الضعف والضعف في المصادر ، وفي غير المصادر مثل الدفّ والدُفّ والشهد والشُهد فما كان مصدراً أو في موضع الحال فالفتح أحسن مثل قوله : « أن ترثوا النساء كرهاً[1] » وما كان اسماً كان الضمّ أحسن مثل قوله : « كتب عليكم القتال وهو كُرهٌ لكم »[2].

قال المفسّرون : حملته أُمّه كرهاً أي حملته على مشقّة وليس يريد ابتداء الحمل فإنّ ذلك لا يكون مشقّة لأنّه تعالى قال : « فلمّا تغشّاها حملت حملاً خفيفاً » يريد ابتداء الحمل فإنّ حمل النطفة والعلقة والمضغة لا يكون مشقّة فاذا أثقلت فحينئذ حملته كرهاً ووضعته كرهاً يريد شدّة الطلق .

[وحمله وفصاله ثلاثون شهراً] والمراد من الفصال الرضاع التامّ المنتهى به فإذا كان المراد من الآية مدّة الحمل والرضاع فكيف عبّر عنه بالفصال لأنّ الرضاع ينتهي إلى الفصال ويتمّ الرضاع بالفصال و يؤول إليه فسمّي فصالاً كما سمّي المدّة بالأمد . قال الشاعر :

كلّ حيّ مستكمل مدّة الـ * ـعمر وبور إذا انتهى أمده

و في الآية دلالة على أنّ أقلّ الحمل ستّة أشهر لأنّه لمّا كان مجموع مدّة الحمل والرضاع ثلاثون شهراً و قال : « والوالدات يرضعن أولادهنّ حولين كاملين[3] » فإذا أسقطت الحولين وهي أربعة وعشرون شهراً من الثلاثين بقي مدّة الحمل ستّة أشهر .

قال الرازيّ : روي عن عمر أنّ امرأة رفعت إليه وكانت قد ولدت بستّة أشهر فأمر عمر برجمها فقال عليّ أمير المؤمنين عليه السلام : لا رجم عليها وذكر الآية وعن عثمان أنّه همّ أيضاً بذلك فقرأ ابن عبّاس عليه ذلك فامتنع عن الرجم .

واعلم أنّ الآية دالّة على أنّ حقّ الأُمّ أعظم لأنّه تعالى ذكرهما أوّلاً « ووصّينا الإنسان بوالديه حسناً » فذكرهما معاً ثمّ خصّ الأُمّ بالذكر فقال : « حملته أُمّه »

---

(١) النساء : ١٨ .

(٢) البقرة : ٢١٦ .

(٣) البقرة : ٢٣٣ .

الآية ، وذلك يدلّ على أنّ حقّها أعظم لأنّ وصول المشاقّ إليها أكثر والأخبار كثيرة في هذا الباب .

قوله : [حتّى إذا بلغ أشدّه] وهو ثلاث وثلاثون سنة على قول ابن عبّاس : وقيل : بلوغ الحلم وقيل : وقت قيام الحجّة عليه وقيل : هو أربعون سنة وذلك وقت نزول الوحي على الأنبياء إلّا عيسى بن مريم فإنّ الله جعله نبيّاً من أوّل عمره و روي أنّه جاء جبرئيل إلى النبيّ فقال : يؤمر الحافظان أن ارفقا بعبدي في حداثة سنّه حتّى إذا بلغ الأربعين قيل لهما : احفظا وحقّقا ولذلك فسّر به [وبلغ أربعين سنة] وذلك بيان لزمان الأشدّ و أراد بذلك أنّه يكمل له عقله ورأيه عند الأربعين و ذلك إذا اكتهل .

و حكي عن ارسطاطاليس أنّه قال : أزمنة الولادة و حبل الحيوان مضبوطة سوى الإنسان فربّما وضعت الحبلى لسبعة أشهر و ربّما وضعت في الثامن وقلّما يعيش المولود في الثامن إلّا في بلاد معيّنة مثل مصر وقد يكون لستّة أشهر ومن المعلوم أنّ مراتب سنّ الحيوان ثلاثة لأنّ الحرارة الغريزيّة والرطوبة الغريزيّة غالبة في أوّل العمر وناقصة في آخر العمر والانتقال من الزيادة إلى النقصان لا يعقل حصوله إلّا إذا حصل الاستواء في وسط هاتين المدّتين . فمدّة العمر منقسمة إلى ثلاثة أقسام :

أوّلها أن تكون الرطوبة الغريزيّة زائدة على الحرارة الغريزيّة و حينئذٍ يكون الأعضاء قابلة للتمدّد في ذواتها وللزيادة في الطول والعرض والعمق وهذا هو سنّ النشوء والنماء .

والمرتبة الثانية وهي المرتبة المتوسّطة أن تكون الرطوبة الغريزيّة وافية بحفظ الحرارة الغريزيّة من غير زيادة ولا نقصان وهذا هو سنّ الوقوف وهو سنّ الشباب .

والمرتبة الثالثة وهي المرتبة الأخيرة أن تكون الرطوبة الغريزيّة ناقصة عن الوفاء بحفظ الحرارة الغريزيّة والنقصان خفيّ و هو سنّ الكهولة و جليّ ظاهر و هو سنّ الشيخوخة .

ثمّ ههنا بيان آخر وهو أنّ دور القمر إنّما يتمّ في مدّة ثمانية و عشرين يوماً و

شيء ، فإذا قسمناهذه المدّة بأربعة أقسام كان كلّ قسم منها سبعة فلهذا السبب قدّروا الشهر بالأسابيع الأربعة ولهذه الأسابيع تأثيرات عظيمة في اختلاف أحوال هذا العالم فكذلك عالم عمر الإنسان ينقسم إلى أربعة أسابيع و يحصل للآدمي بحسب انتهاء كلّ اُسبوع من هذه الأسابيع الأربعة نوع من التغيّر يؤدّي إلى كماله .

أمّا عند تمام الاُسبوع الأوّل من العمر فتصلب أعضاؤه بعض الصلابة وتقوى أفعاله مثل أن تتبدّل أسنانه الضعفية الواهية مثلاً بالقويّة و قوّة الهضم كذلك أقوى من قبل .

وأمّا في نهاية الاُسبوع الثاني يتقوّى الحرارة وتقلّ الرطوبات وتتّسع المجاري وتقوى الأعضاء و تتصلّب صلابة كافية ويتولّد فيه مادّة الزرع وعند هذا يحكم الشرع عليه بالبلوغ لأنّ الدماغ قد اعتدل و كمل القوى النفسانيّة الّتي هي الفكر والإدراك فلا جرم يتوجّه إليه التكاليف الشرعيّة فما أحسن قول من ضبط البلوغ الشرعيّ بخمس عشرة سنة وهو تكميل اُسبوعين على البيان الّذي قرّرنا .

و يتفرّع على حصول هذه الحالة أمارات ظاهرة و علائم بيّنة منها انفراق طرف الأرنبة ونتوء الحنجرة و غلظ الصوت لأنّ الحرارة الّتي تنهض في ذلك الوقت توسّع الحنجرة فتنتؤ ويغلظ الصوت و ثالثها تغيّر ريح الإبط وهي الفضلة العفنيّة الّتي يدفعها القلب الى ذلك الموضع لأنّ القلب لمّا قويت حرارته لاجرم قويت على إنضاج المادّة و دفعها إلى اللحم الغدديّ الرخو الّذي في الإبط و كذلك نبات الشعر و حصول الاحتلام والاغتلام لأنّ الحرارة كلّما قويت قدرت على توليد الأبخرة المولّدة للشعر و على توليد مادّة الزرع ولهذا في هذا الوقت تتحرّك الشهوة في الصبايا و ينهد ثديهنّ وينزل حيضهنّ لأنّ الحرارة الغريزيّة الّتي فيهنّ قويت في آخر هذا الاُسبوع .

و أمّا في الاُسبوع الثالث فيبلغ في حدّ الكمال فيزداد الحسن و أمّا في الاُسبوع الرابع هذه الأحوال متكاملة متزايدة .

وعند انتهاء الاُسبوع الرابع لايظهر الازدياد ويدخل الإنسان في سنّ الوقوف في الاُسبوع الخامس اُسبوع واحد فيكون المجموع خمسة و ثلاثين سنة .

ولمّا كانت هذه المدّة المذكورة إمّا قد تزادوإمّا قد تنقص بحسب ضعف الأمزجة وقوّتها جعل الغاية فيه مدّة أربعين سنة فإنّ هذا الوقت تسكن أفعال القوى الطبيعيّة بعض السكون وتنتهي له أفعال القوّة الحيوانيّة غايتها وتأخذ القوى الطبيعيّة والحيوانيّة في الانتقاص و تأخذ القوّة النطقيّة والعقليّة في الاستكمال وهذا أحد الدلائل من أنّ النفس غير البدن فإنّ البدن عند أربعين يأخذ في الانتقاص والنفس من الأربعين يأخذ في الاستكمال ولو كانت النفس عين البدن لحصل لشيء الواحد في الوقت الواحد الكمال والنقصان وذلك محال وهذا بيان قوله : [حتّى إذا بلغ أشدّه وبلغ أربعين سنة قال ربّ أوزعني أن أشكر] أي ألهمني ، و أصله أو معنى من أوزعه بكذا [أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ وعلى و الديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذرّيّتي] أي اجعل لي خلف صدق ولك عبيد [إنّي تبت إليك و إنّي من المسلمين] المنقادين لأمرك و هذا الدعاء تصريح بأنّ القوّة النفسانيّة العقليّة تستكمل في هذا الوقت .

وفي الكافي عن الصادق عليه السلام قال : لمّا حملت فاطمة عليها السلام بالحسين عليه السلام جاء جبرئيل عليه السلام إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال : إنّ فاطمة ستلد غلاماً يقتله اُمّتك من بعدك فلمّا حملت فاطمة عليها السلام بالحسين كرهت حمله وحين وضعته كرهت وضعه قال عليه السلام : لم تر في الدنيا أمّ تلد غلاماً تكرهه و لكنّها كرهت لما علمت أنّه سيقتل قال عليه السلام : و فيه نزلت هذه الآية .

و في رواية اُخرى ثمّ هبط جبرئيل عليه السلام فقال : يا محمّد إنّ ربّك يقرؤك السلام ويبشّرك بأنّه جاعل في ذرّيّته الإمامة والولاية والوصيّة فقال عليه السلام : إنّي رضيت ثمّ بشّر فاطمة بذلك فرضيت قال : فلولا أنّه قال : « أصلح في ذرّيّته » لكانت ذرّيّته كلّهم أئمّة قال : ولم يرضع الحسين من فاطمة ولامن اُنثى كان يؤتى به النبيّ صلى الله عليه وآله فيضع إبهامه في فيه فيمصّ منها ما يكفيه اليومين والثلاث فنبت لحم الحسين عليه السلام من لحم رسول الله صلى الله عليه وآله و دمه من دمه ولم يولد لستّة أشهر إلّا يحيى بن زكريّا والحسين عليهما السلام .

قوله تعالى : اولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا و نتجاوز عن سيئاتهم فى أصحاب الجنة وعد الصدق الذى كانوا يوعدون (١٦) والذى

قال لوالديه اف لكما اتعداني أن اخرج وقد خلت القرون من قبلي و هما يستغيثان الله ويلك امن ان وعدالله حق فيقول ماهذا الا أساطير الاولين(١٧) اولئك الذين حق عليهم القول في امم قد خلت من قبلهم من الجن والانس انهم كانوا خاسرين (١٨) ولكل درجات مما عملوا وليوفيهم أعمالهم و هم لا يظلمون (١٩) ويوم يعرض الذين كفروا على النار اذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا واستمعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بماكنتم تستكبرون في الارض بغيرالحق وبماكنتم تفسقون (٢٠).

ثمّ أخبر الله سبحانه بما يستحقّه هذا الإنسان و مثل هذا الإنسان من الثّواب فقال :

[أُولئك] يعني أهل هذا القول [الّذين نتقبّل] وقرىء بالياء على البناء للمجهول [عنهم أحسن ماعملوا] بإيجاب الثواب لهم أحسن أعمالهم وهو ما يستحقّ به من الثواب في الواجبات والمندوبات فإنّ المباح أيضاً من الحسن ولا يوصف بأنّه متقبّل [ونتجاوز عن سيّئاتهم] الّتي اقترفوها [في أصحاب الجنّة] أي في جمع ممّن نتجاوز عن سيّئاتهم وهم أصحاب الجنّة فيكون قوله : « في أصحاب الجنّة » في موضع النّصب على الحال .

[وعد الصدق الّذي كانوا يوعدون]أي وعدهم وعدالصدق وهوما وعدأهل الإيمان يتقبّل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم إذا شاء أن يتفضّل عليهم بإسقاط عذابهم أو إذا تابوا ، الوعد الّذي كانوا يوعدونه في الدنيا على ألسنة الرسل .

قوله : [والّذي قال لوالديه أُفّ لكما] لمّا وصف الولد البارّ بوالديه في الآية المتقدّمة وصف الولدالعاقّ لوالديه في هذه الآية فقال : « والّذي » الآية ، قيل : إنّها نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر قال له أبواه : أسلم وألحّا عليه فقال : أحيوا لي عبدالله بن جذعان ومشايخ قريش حتّى أسألهم عمّا تقولون عن ابن عبّاس وجماعة . و قيل : عامّة في كلّ كافر عاقٍّ لوالديه كما أنّ الآية الأُولى عامّة لكلّ بارّ لوالديه و ليس المراد بشخصاً معيّناً .

وكلمة « أف » صوت يصدر عن المرء عند تضجره و اللام لبيان المؤفف له كما في هيت لك وبيان أن هذا التأفيف لكما خاصة وقرىء « أف » بالفتح والكسر بغير تنوين وبالحركات الثلاث مع التنوين والصحيح أن أف لكما مبتدء وخبر وتقديره هذه الكلمة التي يقال : عند الأمور المكروهة كائنة لكما .

قوله : [أتعدانني أن أخرج] من القبر وأحيا وأبعث [وقد خلت القرون من قبلي] ومضت أمم وماتوا قبلي فما أخرجوا ولا أعيدوا وقيل : معناه خلت القرون والأجيال على هذا المذهب ينكرون البعث [وهما] أي والديه [يستغيثان الله] أي يطلبان من الله الغوث ويقولان له [ويلك آمن] بالقيامة وبما يقوله النبي [إن وعد الله حق] بالبعث والنشور والثواب والعقاب فيقول هو في جوابهما : [ما هذا] القرآن [إلا أساطير الأولين] أي إن هذا القرآن و ما تخبرونه من أخبار الأولين وأحاديثهم التي سطروها ليس لها حقيقة .

[أولئك الذين حق عليهم القول في أمم] أي القائلون هذه المقالات الباطلة الذين حق عليهم القول والقول قوله لإبليس : « لأملأن جهنم منك وممن تبعك منهم أجمعين[1] » و قوله : في أمم » أي مع أمم قد مضوا على مثل حالهم وعقائدهم [من الجن والإنس] وهذه الآية خلاف من يزعم أن الجن لا يموتون إلا حين انقراض الدنيا ثم أخبر سبحانه عن حالهم [إنهم كانوا خاسرين] لأنفسهم إذ أهلكوها بالمعاصي .

قوله : [ولكل درجات مما عملوا] أي لكل واحد ممن تقدم ذكره من المؤمنين البررة والكافرين الفجرة درجات على مراتب حالهم و مقادير أعمالهم فدرجات الأبرار في عليين ودركات الفجار في سجين و قيل : المعنى لكل مطيع درجات ثواب و إن تفاضلوا في مقاديرها أو المعنى لكل من ولد البار والعاق الفاجر درجات فإن قيل : كيف يجوز ذكر لفظ الدرجات في أهل النار وقد جاء في الخبر الجنة درجات والنار دركات ؟ فيمكن حمل الكلام على التغليب أو المراد بالدرجات المراتب المتزائدة إلا أن زيادات أهل الجنة في الخيرات وزيادات أهل النار في السيئات .

[وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون] وقرىء بالنون ، أي وليوفيهم الله أعمالهم أي جزاء أعمالهم « وهم لا يظلمون » بعقاب لا يستحقونه أو بمنع ثواب يستحقونه .

قوله تعالى : [ويوم يعرض الّذين كفروا على النار] أي يوم القيامة يعرضون على النار ويدخلونها كما يقال : عرض فلان على السوط ويجوز أن يكون المعنى يعرض النار عليهم قبل أن يدخلوها ليروا من أهوالها [أذهبتم طيّباتكم في حياتكم الدنيا] أي يقال لهم آثرتم لذّاتكم في الدنيا على طيّبات الجنّة [واستمتعتم بها] وتلذّذتم من لذّاتها منهمكين فيها وأنفقتموها في شهواتكم ولم تنفقوها في مرضات الله و قرأ ابن عامر بهمزتين أأذهبتم والباقون بلفظ الخبر .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله أنّه دخل على أهل الصفّة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعاً فقال صلى الله عليه وآله : أنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلّة ويروح في أخرى ويغدّي عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى ويستر بيته كما يستر الكعبة قالوا : نحن يومئذ خيراً قال صلى الله عليه وآله : بل أنتم اليوم خير . انتهى الحديث .

ولمّا وبّخ الله الكفّار بالتمتّع بالطيّبات واللذّات في الدنيا آثر النبيّ وأمير المؤمنين الزهد واجتناب الترفّه والنعمة ، وفي الحديث إنّ عمر قال : استأذنت على رسول الله فدخلت في حجرة أمّ إبراهيم وإنّه صلى الله عليه وآله لمضطجع على خصفه وأنّ بعضه على التراب وتحت رأسه وسادة محشوّة ليفاً فسلّمت عليه ثمّ جلست فقلت يارسول الله أنت نبيّ الله وصفوته و خيرته من خلقه و كسرى وقيصر على سرر الذهب وفرش الديباج والحرير فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أولئك قوم عجلت طيّباتهم وهي وشيكة الانقطاع وإنّما أخّرت لنا طيّباتنا .

وكذلك كان حال عليّ عليه السلام وهو يقول : في بعض خطبه و الله لقد رقعت مدرعتي هذه حتّى استحييت من راقعها ولقد قال لي قائل : ألا تنبذها؟ فقلت : أعزب عنّي فعند الصباح يحمد القوم السرى .

وروى محمّد بن قيس عن الباقر عليه السلام أنّه قال : و الله إنّه كان ليأكل أكلة العبد و يجلس جلسة العبد وإن كان يشتري القميصين فيخيّر غلامه خيرهما ثمّ يلبس الآخر فإذا جاز أصابعه قطع الزائد وإذا جاز كعبه حذفه ولقد ولي قرب خمس سنين ما وضع آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة وما ترك صفراء ولا حمراء وأن كان ليطعم الناس خبز البرّ واللحم و ينصرف إلى منزله فيأكل خبز الشعير والزيت أو الخلّ وما ورد عليه أمران كلاهما لله

رضيّ إلّا أخذ بأشدّهما على بدنه ولقد أعتق ألف مملوك من كدّ يمينه تربت يداه منه وعرق فيه وجهه وما أطاق عمله أحد من الناس وإنّه كان ليصلّي في اليوم والليلة ألف ركعة وكان أقرب النّاس شبيهاً به في العبادة عليّ بن الحسين عليه السلام ما أطاق عمله أحد من الناس بعده .

وقد اشتهر في الرواية أنّه لمّا دخل على العلاء بن زياد بالبصرة يعوده قال له العلاء: يا أمير المؤمنين أشكو إليك أخي عاصم بن زياد لبس العباءة و تخلّى من الدنيا فقال عليّ عليه السلام : عليّ به فلمّا جيء به قال : ياعديّ نفسه لقد استهام بك الخبيث أما رحمت أهلك وولدك أترى الله أحلّ لك الطيّبات وهو يكره أن تأخذها أنت أهون على الله من ذلك قال عاصم : يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك و جشونة مأكلك قال : و يحك إنّي لست كأنت إنّ الله تعالى فرض على أئمّة الحقّ أن يساووا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيّغ بالفقير فقره ، انتهى .

قوله تعالى : [فاليوم تجزون عذاب الهون] أي عذاب الّذي فيه الذلّ و الخزي و الهوان [بما كنتم تستكبرون] باستكباركم عن الانقياد للحقّ في الدنيا وتكبّركم على الأنبياء [بغير الحقّ] من دون حقّ لكم في الترفّع والإنكار [وبما كنتم تفسقون] وبخروجكم من طاعة الله إلى معاصيه وذلك اليوم عظيم .

قوله : واذكر اخا عاد اذ انذر قومه بالاحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه الا تعبدوا الا الله انى اخاف عليكم عذاب يوم عظيم (٢١) قالوا اجئتنا لتأفكنا عن الهتنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين (٢٢) قال انما العلم عند الله وابلغكم ما ارسلت به ولكنى أريكم قوما تجهلون (٢٣) فلما راوه عارضا مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب اليم (٢٤) تدمر كل شيء بامر ربها فاصبحوا لايرى الا مساكنهم كذلك يجزى القوم المجرمين (٢٥) .

و لمّا بيّن سبحانه أنواع الدلائل في التوحيد و النبوّة و كان المشركون بسبب استغراقهم في لذّات الدنيا واشتغالهم بطلبها لم يلتفتوا إلى الدلائل أمر نبيّه أن يذكر

هذه القصة ههنا ليعتبروا و يقبلوا على طلب الدين لأن من أراد تقبيح أمر عند قوم كان الطريق فيه ضرب الأمثال ليعلموا ضرره ويتركوا ماهم عليه .

[واذكر] يامحمد لقومك [أخا عاد] يعني هوداً ومن انتسب إلى طائفة يقال له : أخو فلان مثل أن يقول : أخو سليم وأخو قيس [إذ أنذر قومه بالأحقاف] وخوفهم من عذاب الله ومخالفته ودعاهم إلى طاعته و الأحقاف وادٍ من الرمل بين عمان وحضر موت مشرفة على ساحل البحر [وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه] أي وقد مضت الرسل من قبل هود ومن بعده .

[ألا تعبدوا إلا الله] بأن لاتعبدوا وحاصل المعنى إني لم أبعث قبل هود ولا بعده إلا بالأمر بعبادة الله وحده وهذا اعتراض وقع بين إنذار هود و كلامه لقومه .

ثم عاد إلى كلام هود لقومه فقال هود : [إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم] و تقدير الكلام أنذر هود قومه بالأحقاف فقال : «إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم» .

ثم حكى سبحانه ماأجاب به قومه بقوله : [قالوا أجئتنا لتأفكنا عن آلهتنا] أي أجئتنا لتصرفنا وتلفتنا عن عبادة آلهتنا [فأتنا بما تعدنا] من العذاب [إن كنت من الصادقين] أن العذاب نازل بنا وهذا الكلام منهم في استعجال العذاب تكذيباً لهود عليه السلام .

[قال إنما العلم عند الله] فقال لهم هود : لاعلم لي بالوقت الذي يحصل فيه العذاب وإنما علم ذلك عند الله [وأبلغكم ما أرسلت به] وأنا أحذركم من وقوعه [ولكني أراكم قوماً تجهلون] حيث تصرون في الجهل المفرط وطلب العذاب وهذا جهل عظيم .

[فلما راوه عارضاً مستقبل أوديتهم] والضمير في «رأوه» إما إلى غير مذكور وبينه قوله : «عارضاً» مثل قوله : «ماترك على ظهرها من دابة[1]» و لم يذكر الأرض لكونها معلومة فكذا ههنا الضمير عائد إلى السحاب فالمعنى فلما رأوا السحاب عارضاً و يجوز أن يكون الضمير عائداً إلى ما في قوله : « فأتنا بما تعدنا » فلما رأوا ما وعدوا به عارضاً و العارض السحابة التي ترى في ناحية السماء ثم تطبق .

قال المفسرون :كانت عاد قد حبس عنهم المطر أياماً فساق الله إليهم سبحانه سوداء

(١) فاطر : ٤٥ .

فخرجت عليهم من وادٍ يقال له : المغيث فلمّا رأوه مستقبل أوديتهم استبشروا وقالوا : «هذا عارض ممطرنا» أي سحاب ممطر إيّانا .

فقال هود عليه السلام : ليس الأمر كما زعمتم [بل هو ما استعجلتم به] هو الّذي وعدتكم به وطلبتم تعجيله ثمّ فسّره فقال : [ريح فيها عذاب أليم] وقيل : هو من كلام الله ووصف ماهيّة الريح بقوله : [تدمّر كلّ شيء] أي يهلك كلّ شيء من النّاس والحيوان والنبات وليس المراد من الكلّ كلّ موجود و أطلق الكلّ على البعض والمراد من قوله : [بأمر ربّها] أنّ هذا ليس من الأُمور العادية ومن تأثيرات الكواكب والقرانات مثل الأنواء بل هو أمر عظيم حدث بقدرة الله لأجل تعذيبكم .

[فأصبحوا لايرى إلّا مساكنهم] وتذكير الفعل في قوله : «لايرى» أحسن من إلحاق علامة التأنيث بالفعل من أجل الجمع لأنّه يحمل الكلام على المعنى مثل قولهم : ما قام إلّا هند و لم يقولوا : ما قامت إلّا هند لأنّ المعنى ما قام أحد إلّا هند و قرىء «مسكنهم» .

روي أنّ الريح كانت تحمل الفسطاط فترفعها في الجوّ حتّى يرى كأنّها جرادة و أوّل من أبصر العذاب امرأة منهم قالت : رأيت ريحاً فيها كشهب النار .

وروي أنّ أوّل ماعرفوا به أنّه عذاب أليم أنّهم رأوا ماكان في الصحراء من رجالهم و مواشيهم يطير به الريح بين السماء و الأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم وأحال الله عليهم الأحقاف فكانوا تحتها سبع ليالٍ وثمانية أيّام لهم أنين ثمّ كشفت الريح عنهم فاحتملتهم وطرحتهم في البحر ولمّا أحسّ هود عليه السلام بالريح خطّ على نفسه وعلى المؤمنين خطّ على جنب عين تنبع فكانت الّتي تصيبهم ريحاً ليّنةً هادية طيّبة والريح الّتي تصيب قوم عاد ترفعهم من الأرض و تطيرهم إلى السماء ويضربهم على الأرض وأثر المعجزة إنّما ظهر في تلك الريح من هذا الوجه .

وعن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : ما أمر الله خازن الرياح أن يرسل على عاد إلّا مثل مقدار الخاتم وذلك القدر أهلكهم بكليّتهم و كان النبيّ صلى الله عليه وآله إذا رأى الريح فزع وقال : اللّهمّ إنّي أسألك خيرها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك من شرّها ومن شرّ ما أرسلت به .

قوله تعالى : [كذلك نجزي القوم المجرمين] والمقصود تخويف كفار مكة أي مثل ما أهلكنا أهل الأحقاف نجزي الكافرين الّذين يسلكون مسالكهم . فإن قيل : لمّا قال الله: «وماكان الله ليعذّبهم وأنت فيهم[1]» فكيف يبقى التخويف حاصلاً ؟

فالجواب أنّ قوله : « و ما كان الله » إنّما نزل في آخر الأمر و كان التخويف قبل ذلك .

ثمّ بيّن سبحانه فضل قوم عاد بالقوّة والجسم على كفّار مكّة فقال سبحانه :

ولقد مكناهم فيما ان مكناكم فيه وجعلنا لهم سمعا وابصارا و افئدة فماأغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولاأفئدتهم من شيء اذ كانوا يجحدون بايات الله وحاق بهم ماكانوا به يستهزءون (٢٦) ولقد اهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الايات لعلهم يرجعون (٢٧) فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم و ذلك افكهم و ما كانوا يفترون (٢٨) واذ صرفنا اليك نفرا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا انصتوا فلما قضى ولوا الى قومهم منذرين (٢٩) قالوا ياقومنا انا سمعنا كتابا انزل بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى الى الحق والى صراط مستقيم (٣٠) .

[ولقد مكّنّا] قوم عادٍ في أُمورٍ ما مكّنّاكم فيها بمعنى أنّهم كانوا أقوى منكم جسماً وأكثر أموالاً قال المبرّد : كلمة «ما» في قوله : «فيما» بمنزلة الّذي و كلمة «إن» بمنزلة «ما» وقال ابن قتيبة كلمة «إن» زائدة والتقدير ولقد مكّنّاهم فيما مكّنّاكم فيه قال الرازي وهذا غير صحيح لأنّ الحكم بأنّ حرفاً من كتاب الله عبث لايقول به عاقل ثمّ إنّ المقصود من الكلام أنّهم كانوا أقوى منكم و أنّهم مع زيادة القوّة ما نجوا من عذاب الله فكيف يكون حالكم ؟ وهذا المعنى لايتمّ مع ماقاله ابن قتيبة . و يؤيّد قول المبرّد آيات كثيرة مثل قوله : « هم أحسن أثاثاً ورئياً[2] » و قوله : « كانوا أكثر منهم وأشدّ قوّة وآثاراً في الأرض[3]» .

---

(١) الانفال : ٣٣ .

(٢) مريم : ٧٤ .

(٣) المؤمن ٨٢ .

وبالجملة ثمّ قال سبحانه : [وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً و أفئدة] أي فتحنا عليهم أبواب المعرفة والنعمة ليستمعوا الآيات والدلائل وليبصروا الأشياء ليعتبروا وأعطيناهم أفئدة ليتفكّروا فما استعملوا هذه الجوارح في طلب معرفة الله بل صرفوا هذه القوى إلى طلب الدنيا ولذّاتها .

فلاجرم [ما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم] لأنّهم [كانوا يجحدون بآيات الله] وذكر « إذ » في مثل هذا المقام للتعليل كقولك : صرمته إذ أساء أي لأنّه أساء فإذا كان اُولئك مع قوّتهم نزل بهم عذاب الله فأهل مكّة مع عجزهم و ضعفهم أولى بأن يحذروا العذاب .

قوله : [ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى] يا أهل مكّة ما حولكم و هم قوم هود وكانوا باليمن وقوم صالح وهم بالحجر وقوم لوط على طريقهم إلى الشام [وصرّفنا الآيات] وتصريف الآيات تارة باختلاف أنواع المعجزات وتارة في الإهلاك وتارةً في التذكير بالنعم والنقم وتارةً بوصف الأبرار ليقتدوا بهم وتارة بتوبيخ الكفّار ليجتنبوا مثل فعلهم [لعلّهم يرجعون] لكي يرجعوا عن الكفر والمعاصي .

[فلولا نصرهم الّذين اتّخذوا من دون الله قرباناً آلهةً] أي فهلاّ نصر هؤلاء الّذين أهلكهم الله و هم عابد وهم و كان العابدون يزعمون بعبادتهم إيّاهم يتقرّبون إلى الله بهذه العبادة والمعبودين يشفعون لهم فلم غابوا عن نصرتهم وذلك لأنّهم كانوا يعبدون الآلهة للتقرّب إلى الله ويجعلونها شركاء لله قرباناً .

[بل ضلّوا عنهم] أي ضلّت آلهتهم وقت حاجتهم إليها ولم تنفعهم وقت نزول العذاب بهم [وذلك إفكهم] أي اتّخاذهم الآلهة دون الله كذبهم وافترائهم [وما كانوا يفترون] أي من مفترياتهم .

ثمّ بيّن سبحانه أنّه كما في الإنس مؤمن وكافر كذلك في الجنّ مؤمن وكافر فقال: [وإذ صرّفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن] و اذكر ولينته علمك يا محمّد إذ وجّهنا إليك جماعة من الجنّ تستمع القرآن قال سعيد بن جبير : كانت الجنّ تستمع وتسترق من

(١) ص ٥٨ .

السماء فلمّا رجعوا قالوا : هذا الّذي حدث في السماء إنّما حدث لشيء في الأرض فذهبوا يطلبون السبب .

وكان قد اتّفق أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا أيس من أهل مكّة أن يجيبوه خرج إلى الطائف ليدعوهم إلى الإسلام فلمّا انصرف إلى مكّة وكان صلى الله عليه وآله ببطن نخل قام يقرء القرآن في صلاة الفجر فمرّ به نفر من أشراف جنّ نصيبين وذلك أنّ إبليس بعثهم ليعرفوا السبب الّذي أوجب الله حراسة السماء بالرجم فسمعوا القرآن وعرفوا أنّ ذلك هو السبب .

قال الزهريّ : لمّا توفّي أبو طالب عليه السلام اشتدّ البلايا على رسول الله صلى الله عليه وآله فعمد ليقف بالطائف رجاء أن يأووه فوجد ثلاثة نفر من بني عبد ياليل فعرض صلى الله عليه وآله عليهم نفسه فقال أحدهم : أنا أسرق ثياب الكعبة إن كان الله بعثك بشيء قطّ وقال الآخران كلمات يتشابه الأوّل و تهزّءوا به صلى الله عليه وآله و أفشوا في قومهم ما راجعوه به فقعدوا به صفّين على طريقه .

فلمّا مرّ النبيّ صلى الله عليه وآله بين صفّيهم جعلوا لا يرفع صلى الله عليه وآله رجليه ولا يضعهما إلّا رضخوهما بالحجارة فخلص منهم وهما يسيلان دماً إلى حائط من حوائطهم و استظلّ في ظلّ شجرة منه وهو صلى الله عليه وآله مكروب موجع تسيل رجلاه دماً .

فإذا في الحائط عتبة بن ربيعة و شيبة بن ربيعة فلمّا رآهما كره مكانهما لما يعلم صلى الله عليه وآله من عداوتهما لله ورسوله فلمّا رأياه أرسلا إليه غلاماً لهما يقال له عداس وهو نصرانيّ من أهل نينوى فلمّا جاء قال له رسول الله : من أيّ أرض ؟ فقال : من أهل نينوى قال صلّى الله عليه وآله وسلّم : من مدينة العبد الصالح ابن متى فقال له عداس : وما يدريك من يونس فقال : أنا رسول الله والله أخبرني خبر يونس فلمّا أخبره بما أوحى الله إليه من شأن يونس خرّ عداس ساجداً لرسول الله وجعل يقبّل قدميه وهما يسيلان الدماء فلمّا بصره عتبة وشيبة ما يصنع غلامهما سكتا فلمّا أتاهما قالا : ماشأنك سجدت لمحمّد وقبلت قدميه ولم نرك فعلت ذلك بأحد منّا قال : هذا رجل صالح أخبرني بشيء عرفته من شأن رسول بعثه الله إلينا يدعى يونس بن متى فضحكا وقالا : لا يفتننّك عن نصرانيّتك فإنّه رجل خدّاع فرجع رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مكّة حتّى إذا بنخلة قام يصلّي ويقرء القرآن في صلاته فمرّ به

نفرٌ من الجنّ فاستمعوا له وهذا أحد القولين في تفسير الآية مثل سعيد بن جبير و جماعة و قال آخرون : أمر النبيّ ﷺ أن ينذر الجنّ و يدعوهم إلى الله و يقرء عليهم القرآن فصرف الله إليه نفراً من الجنّ ليستمعوا منه القرآن وينذروا قومهم ونقل أنّهم كانوا يهوداً لأنّ في الجنّ مللاً كما في الإنس من اليهود و المجوس و النّصارى و عبدة الأصنام .

وأطبق العلماء المحقّقون على أنّ الجنّ مكلّفون وسئل ابن عبّاس هل للجنّ ثواب فقال : نعم لهم ثواب وعليهم عقاب يلتقون في الجنّة ويزدحمون على أبوابها .

قال الزمخشريّ : النفر دون العشرة ويجمع على أنفار .

وعن ابن عبّاس أنّ اُولئك الجنّ كانوا سبعة من أهل نصيبين فجعلهم رسول الله رسلاً إلى قومهم وعن قتادة أنّهم صرفوا إليه من ساوة .

قال القاضي عبد الجبّار في تفسيره عن أنس بن مالك قال : كنت مع رسول الله ﷺ في جبال مكّة فإذاً شيخ يتوكّأ على عكازه فقال النبيّ ﷺ شية جنّي و نغمته فقال الشيخ : أجل فقال ﷺ : من أيّ الجنّ أنت فقال : أنا هامة بن هيم بن قيس بن لاقيس بن إبليس فقال ﷺ : لاأرى بينك وبين إبليس إلّا أبوين فكم أتى عليك ؟ فقال : أكلت عمر الدنيا إلّا أقلّها و كنت وقت قتل قابيل هابيل أمشي بين الآكام و ذكر كثيراً ممّا مرّ به و ذكر في جملته أن قال : قال لي عيسى بن مريم : إن لقيت محمّداً فاقرأه منّي السلام وقد بلّغت سلامه و آمنت بك فقال ﷺ : على عيسى السلام وعليك يا هامة ماحاجتك ؟ فقال : إنّ موسى علّمني التوراة وعيسى علّمني الانجيل فعلّمني القرآن فعلّمه ﷺ عشر سور و قبض ﷺ انتهى .

ثمّ بعد تصريف الله نفراً من الجنّ إليه ﷺ يستمعوا القرآن [فلمّا حضروه] و الضمير راجع إلى القرآن و قيل : إلى النبيّ أي لمّا حضر هؤلاء النفر من الجنّ قيل : كان مجيئهم من نينوى قرب الموصل فقال ﷺ : إنّي اُمرت أن أقرء على الجنّ الليلة فأيّكم يتبعني فاتّبعه عبدالله بن مسعود قال عبد الله : ولم يتبعه ﷺ أحد غيري فانطلقنا حتّى إذا كنّا بأعلى مكّة فدخل النبيّ شعبا الجحون وخطّ لي خطّا ثمّ أمرني أن أجلس

وقال : لا تخرج منه حتّى أعود إليك ثمّ انطلق حتّى قام فافتتح بالقرآن و السورة الّتي تلاها عليهم اقرء باسم ربّك فغشته اُسودة كثيرة حتّى حالت بيني و بينه حتّى لم أسمع صوته ثمّ انطلقوا وطفقوا ينقطعون مثل قطع السحاب ذاهبين حتّى بقي منهم رهط و فرغ رسول الله مع العجز فانطلق فبرز ثمّ قال : هل رأيت شيئاً فقلت : نعم رأيت رجالاً ذوي ثياب بيض .

قال ابن عبّاس : كان ذلك الرهط سبعة نفر من جنّ نصيبين فجعلهم صلى الله عليه وآله رُسلاً إلى قومهم وروى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبدالله قال : لمّا قرء رسول الله سورة الرحمن على الناس سكتوا ولم يقولوا شيئاً ، فقال رسول الله : الجنّ كانوا أحسن جواباً منكم لمّا قرأت «فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان» قالوا : لاولابشيء من آلائك ربّنا نكذّب .

وبالجملة [قالوا أنصتوا] أي قال بعضهم لبعض : أنصتوا واسكتوا مستمعين .

[فلمّا قضي] و فرغ صلى الله عليه وآله من القراءة [ولّوا إلى قومهم منذرين] ينذرون قومهم قالوا ياقومنا : [إنّا سمعنا كتاباً اُنزل من بعد موسى مصدّقاً لما بين يديه يهدي إلى الحقّ وإلى صراط مستقيم] ووصفوا القرآن بوصفين :

الاول كونه مصدّقاً لكتب الأنبياء أي كما أنّ كتب الأنبياء مشتملة على الدعوة إلى التوحيد والنبوّة والمعاد وتهذيب الأخلاق فكذلك هذا الكتاب .

الثاني قوله : «يهدي إلى الحقّ وإلى صراط مستقيم» و مطالب عالية شريفة يعلم كلّ أحد بصريح عقله أنّه صدق وحقّ .

فإن قيل : كيف قالوا : «من بعد موسى» ؟ لأنّهم كانوا على اليهوديّة وعن ابن عبّاس أنّ الجنّ ماسمعت أمر عيسى فلذلك قالوا : من بعد موسى .

ثمّ إنّ الجنّ لمّا وصفوا القرآن قالوا :

ياقومنا اجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم (٣١) ومن لايجب داعي الله فليس بمعجز في الارض وليس له من دونه اولياء اولئك في ضلال مبين (٣٢) اولم يروا أن الله الذي خلق السموات والارض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى انه على كل شيء

قدير (٣٣) ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق قالوا بلى وربنا قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (٣٤) فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ولا تستعجل لهم كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهلك إلا القوم الفاسقون (٣٥) .

ثمّ بيّن سبحانه حكاية قول الجنّ [ياقومنا أجيبوا داعي الله] يعنون محمّداً إذ دعاهم إلى خلع الأنداد دونه وصدّقوا بتوحيد الله وآمنوا به [يغفر لكم من ذنوبكم] أي فإنّكم إن آمنتم بالله ورسوله . وإنّما بعّض في الآية لأنّ من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كذنوب المظالم و نحوه .

واختلف بأنّ هل للجنّ ثواب كما للإنسان قيل نعم : وقيل : لا ثواب لهم إلّا النجاة من النار لقوله : [و يجركم من عذاب أليم] و الصحيح أنّهم في حكم بني آدم لأنّه قال عليّ بن إبراهيم : فجاءوا إلى رسول الله يطلبون شرائع الإسلام فأنزل الله على نبيّه «قل أُوحي إليّ أنّه استمع نفرٌ من الجنّ» إلى آخر السورة ، فآمنوا إلى رسول الله .

وفي هذا دلالة على أنّه كان مبعوثاً إلى الجنّ كما كان مبعوثاً إلى الإنس ولم يبعث الله قبله نبيّاً إلى الإنس والجنّ .

[ومن لا يجب داعي الله فليس بمعجز في الأرض] أي لا يعجز الله فيسبقه ويفوته ولا مهرب له منه [وليس له من دونه أولياء] أي لا يكون له أنصار يمنعونه من عذاب الله إذا نزل بهم هذا من كلام رسل الجنّ ويجوز أن يكون من كلام الله تعالى ابتداء ثمّ قال : [أُولئك في ضلال مبين] أيّ الّذين لا يجيبون داعي الله في عدولٍ عن الحقّ وفي ضلالة واضحة .

ثمّ قال منبّهاً على قدرته على البعث والإعادة : [أولم يروا] ولم يعلموا [أنّ الله خلق السماوات و الأرض] و أنشأهما [ولم يعي بخلقهنّ] أي لم يصبه في خلق ذلك أعباء ولا تعب يقال : عيّ فلان بأمره إذا لم يقدر عليه [بقادرٍ] الباء زائدة وموضعه رفع بأنّه خبر أنّ [على أن يحيي الموتى] أي خلق السماوات والأرض أعجب من إحياء الموتى .

ثمّ قال : [بلى إنّه على كلّ شيء قدير] ثمّ عقّبه بذكر الوعيد فقال : [ويوم يعرض الّذين كفروا على النار أليس هذا بالحقّ] أي يقال لهم على وجه التهكّم : أليس هذا

الّذي جوزيتم به واقعاً وحقّاً [قالوا] فيقولون : نعم [و ربّنا] و اعترفوا بذلك و حلفوا بعد أن كانوا منكرين في الدنيا [قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون] فيقال لهم : ذوقوا بسبب كفركم وجحودكم .

ثمّ قال لنبيّه : [فاصبر كما صبر أُولوالعزم من الرسل] أي فاصبر يامحمّد على أذى قومك وعلى ترك إجابتهم لك كما صبر الرسل و «من» ههنا لتبيّن الجنس و على هذا القول فيكون جميع الأنبياء هم أُولو العزم لأنّهم عزموا على أداء الرّسالة و تحمّل أعبائها و قيل : إنّ من ههنا للتبعيض وهو قول أكثر المفسّرين و الظاهر في روايات أصحابنا .

ثمّ اختلفوا فقيل : أُولوالعزم من الرّسل من أتى بشريعة مستأنفة نسخت شريعة من تقدّمه وهو خمسة أوّلهم نوح عليه السلام ثمّ إبراهيم ثمّ موسى ثمّ عيسى ثمّ محمّد صلى الله عليه وآله عن ابن عبّاس وجماعة وهو المرويّ عن الباقر والصادق عليهما السلام قال : وهم سادة النبيّين وعليهم دارت رحى المرسلين وقيل : هم ستّة نوح صبر على أذى قومه وإبراهيم صبر على النار و إسحاق صبر على الذبح أوإسماعيل،ويعقوب صبر على فقد الولد وذهاب البصر ، ويوسف صبر على البئر و السجن ، و أيّوب صبر على الضرّ و البلوى . و قيل : هم الّذين أُمروا بالجهاد والقتال وجاهدوا العدوّ في الدين وقيل : هم إبراهيم وهود ونوح ورابعهم محمّد صلى الله عليه وآله .

والمراد بالعزم الوجوب والختم وأُولوالعزم من الرسل هم الّذين شرعوا الشرايع و أوجبوا على الناس الأخذ بها والانقطاع عن غيرها .

قوله تعالى : [ولاتستعجل لهم كأنّهم يوم يرون مايوعدون] أي ولا تستعجل لهم العذاب فإنّه كائن لامحالة وواقع بهم وما هو آت فهو قريب «كأنّهم يوم يرون مايوعدون» من العذاب في الآخرة [لم يلبثوا] في الدنيا [إلّا ساعة من نهار] أي إذا عاينوا العذاب طول لبثهم في الدنيا والبرزخ مثل ساعة من نهار لأنّ مامضى كأن لم يكن وإن كان طويلاً وتمّ الكلام .

ثمّ قال : [بلاغ] أي هذا القرآن و ما فيه من البيان بلاغ للنّاس أي تبليغ

للنّاس وقرىء بلاغاً أي بلغوا بلاغاً . و قيل : معناه ذلك اللبث و مكثهم في الدّنيا بلاغ ويسير .

قوله : [وهل يهلك إلّا القوم الفاسقون] أي لايقع العذاب إلّا بالعاصين الخارجين من أمر الله وقيل : المعنى لايهلك إلّا هالك مشرك ولّي ظهره الإسلام أومنافق صدّق بلسانه وخالف بقلبه وعمله وقيل : لا يهلك مع رحمة الله إلّا القوم الخارجون عن دين الله . قال الزجّاج و ما جاء في القرآن في الرجاء لرحمة الله شيء أقوى من هذه الآية تمّت السورة

بحمد الله

سورة محمد صلى الله عليه وآله

وتسمى سورة القتال .

مدنية إلا آية منها نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وهو يريد التوجه إلى المدينة من مكة وجعل صلى الله عليه وآله ينظر إلى البيت وهو يبكي حزناً فنزلت « وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك » الآية .

فضلها أُبي بن كعب قال : قال النبي صلى الله عليه وآله : من قرأ سورة محمد كان حقاً على الله أن يسقيه من أنهار الجنة .

وروى أبو بصير عن الصادق عليه السلام قال : من قرأها لم يدخله شك في دينه أبداً و لم يزل محفوظاً من الشرك والكفر أبداً حتى يموت فإذا مات وكل الله به في قبره ألف ملك يصلون في قبره ويكون ثواب صلاتهم له ويشيعونه حتى يوقفوه موقف الآمن من عندالله ويكون في أمان الله وأمان محمد . وقال الصادق عليه السلام : من أراد أن يعرف حالنا وحال أعدائنا فليقرء سورة محمد فإنه يراها آية فينا وآية فيهم .

بسم الله الرحمن الرحيم

الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله اضل أعمالهم (١) والذين آمنوا و عملوا الصالحات وآمنوا بما انزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم و اصلح بالهم (٢) ذلك بان الذين كفروا اتبعوا الباطل و ان الذين امنوا اتبعوا الحق من ربهم كذلك يضرب الله للناس امثالهم (٣) فاذ القيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا اثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب اوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم و لكن ليبلو بعضكم ببعض و الذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل اعمالهم (٤) سيهديهم ويصلح بالهم (٥) ويدخلهم الجنة عرفها لهم (٦) .

المعنى : ختم الله تلك السّورة بوعيد الكفّار و افتتح هذه السّورة بمثلها فقال :

[الّذين كفروا] بتوحيد الله وعبدوا معه غيره [وصدّوا] الناس [عن سبيل] الإيمان والإسلام باستدعائهم إلى الباطل و الشرك و تكذيب النبيّ ﷺ [أضلّ أعمالهم] أي أحبط الله أعمالهم الّتي كان في زعمهم أنّها أعمال وقربة وتنفعهم كالعتق والصدقة وقري الضيف والمعنى أنّه أذهبها إذلم يروا لها في الآخرة ثواباً .

قيل : نزلت في المطعمين ببدر وكانوا عشرة أنفس منهم أبوجهل والحرث ابنا هشام وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وغيرهم . وقيل : المراد كفّار قريش . و قيل : أهل الكتاب أو هو عامّ يدخل فيه كلّ كافر والمراد بالصدّ صدّ أنفسهم ومنع عقولهم من اتّباع الدليل والحقّ أوصدّوا غيرهم عن اتّباع الحقّ .

فإن قيل : إنّ المستضعفين كانوا أتباعاً و لم يصدّوا غيرهم فيقتضي أن لا يضلّ أعمالهم .

فالجواب أنّ التخصيص بالذكر لا يدلّ على نفي ماعداه . ثمّ إنّ كلّ من كفر صادّ لغيره من بعده لأنّ المستضعف بمتابعته أثبت لمتبوعه بالمنعيّة من اتّباع الرسول لأنّه بعد ما يكون متبوعاً يشقّ عليه بأن يصير تابعاً على أنّ كلّ من كفر صار صادّاً لأنّ عادة الناس اتّباع المتقدّم كما قال سبحانه عنهم : «إنّا وجدنا آباءنا على أمّة وإنّا على آثارهم مهتدون» فعلى هذا كلّ كافر صادّ .

فإن قيل : فما الفائدة حينئذ من ذكر الصدّ في الآية بعد الكفر ؟

فالجواب أنّه من باب ذكر المسبّب عليه كقولك : أكلت كثيراً وشبعت .

والكفر سبب الصدّ و في المصدود عنه وجوه : الأوّل عن الإيمان . الثاني عن الإنفاق على محمّد و أصحابه . الثالث الاتّباع عن دينه و قد ذكرناها في صدر تفسير الآية .

وفي الإضلال في أعمالهم أيضاً وجوه :

الاول : الإبطال أي يوازن بسيّئاتهم الحسنات الّتي صدرت منهم ويسقطها بالموازنة في الدنيا ويبقى لهم سيّئات محضة لأنّ الكفر يزيد على غير الإيمان من الحسنات والإيمان تترجّح على غير الكفر من السيّئات .

الثاني : أنّ الإبطال بسبب فقد شرط ثبوتها ؛ لأنّ الإيمان شرط قبول العمل للآخرة قال الله : «من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن(١)» وإذا لم يقبل الله العمل لا يكون له وجود لأنّها أعراض لا بقاء له في نفسه بل يعدم عقيب ما يوجد في الحقيقة غير أنّ الله يكتب عنده بفضله إنّ فلاناً عمل صالحاً و عندي جزاؤه فيبقى حكماً و هذا البقاء الحكمي خير من البقاء الذمّي للأجسام الّتي هي محلّ الأعمال حقيقة فإنّ الأجسام و إن بقيت غير أنّ مآلها إلى الفناء والعمل الصالح من الباقيات عند الله أبداً فتبيّن أنّ الله بالقبول متفضّل وقد أخبر سبحانه أنّي لا أقبل إلاّ من مؤمن فحينئذ من عمل وتعب من غير سبق إلى الإيمان فهو المضيّع تعبه لا الله تعالى .

الثالث : أنّ الكافر لم يعمل عمله لوجه الله خاصّة فلم يأت بخير «و من يعمل مثقال

---

(١) النحل : ٩٧ .

ذرّة خيراً يره» والكافر لم يعمل الخير فكيف يره ؟ انتهى .

قوله : [والّذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل على محمّد و هو الحقّ من ربّهم] أي الّذين صدّقوا بتوحيدالله وأضافوا إلى الإيمان الأعمال الصالحة وآمنوا وقبلوا بما نزّل على محمّد من القرآن والعبادات وخصّ الإيمان بمحمّد في الذكر مع دخوله في الأوّل تشريفاً وتعظيماً له عليه‌السلام و لئلّا يقول أهل الكتاب : نحن آمنّا بالله و بأنبيائنا و كتبنا .

وقوله : «وهو الحقّ من ربّهم» أي ما نزل على محمّد هوالحقّ من ربّهم لأنّه ناسخ للشرائع والناسخ هوالحقّ، وقيل : إنّ الضمير راجع إلى محمّد أي محمّد الحقّ من ربّهم دون مايزعمون من أنّه سيخرج في آخر الزمان نبيّ من العرب وليس هذا هو فردّالله سبحانه ذلك القول عليهم بذكر اسمه .

[كفّر عنهم سيّئاتهم] أي سترها عنهم بأن غفرها لهم السيّآت المتقدّمة بإيمانهم [وأصلح بالهم] أي أصلح حالهم في معاشهم و معادهم بأن نصرهم على أعدائهم في الدنيا و يدخلهم الجنّة في العقبى .

ثمّ بيّن سبحانه إنّما قسّم هذا القسمين فقال : [ذلك بأنّ الّذين كفروا اتّبعوا الباطل وإنّ الّذين آمنوا اتّبعواالحقّ من ربّهم] أيذلك الضلال والإصلاح بسبباتّباع الكافرين الكفر و عبادة الشيطان و الباطل و بسبب اتّباعالمؤمنين التوحيد و القرآن و ما أمرالله باتّباعه .

[كذلك يضربالله للناس أمثالهم] أي كالبيان الّذي ذكرنا يبيّن الله للناس أمثال حسنات المؤمنين وسيّئات الكافرين وقوله : ضربت لكمثلاً أي بيّنت لك ضرباً منالأمثال وأضاف المثل إلى الناس لأنّه مجعول ليعتبروا .

ثمّ أمر سبحانه بقتال الكفّار فقال : [فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرقابحتّى إذا أثخنتموه] فإذا لقيتم معاشر المؤمنين الّذين كفروا في دار الحرب . و وجه تعلّق الفاء بما قبله في قوله : «فإذا» لأنّه لمّا بيّن سبحانهبأنّ الّذين كفروا أضلّ الله أعمالهم ومعلوم أنّ اعتبار الإنسان بالعمل ومن لم يكنله عمل فهوهمجٌ فإن صار مع ذلك يؤذي ويفسد

حسنٌ إعدامه بل وجب .

فإذا لقيتم الّذين ظهرمنهم هذه الصفة فاضربوا أعناقهم ، و حذف الفعل و اُنيب المصدر منابه مضافاً إلى المفعول و نسبة الضرب إلى الرقاب لأنّ أكثر مواضع القتل ضرب العنق و إن كان يجوز الضرب في سائر المواضع و المقصود دفعهم عن وجه الأرض وتطهّر الأرض من رجسهم لأنّ الأرض جعلها الله لاُمّة محمّد مسجداً والمشركون نجس و المسجد يطهّر من النجاسة .

[حتّى إذا أثخنتموهم] و حتّى لبيان غاية الأمر لا لبيان غاية القتل أي وجوب القتل متعيّن إلى حدّ الإثخان لكنّ الجواز في القتل باقٍ ولو كانت حتّى لبيان القتل لما جاز القتل بعد الإثخان و الحالة أنّ القتل جائز أيضاً بعده و المعنى اذا أثقلتموهم بالجراح وظفرتم بهم و بالغتم في قتلهم حتّى ضعفوا [فشدّوا الوثاق] أي احملوا الوثاق و الوثاق بالفتح والكسر اسم مايوثق بهأي فأسروهم و أحكموا و ثاقهم و ليكن الأسر بعد المبالغة في القتل والإثخان فيهم ليذلّوا ولايكون الأسر إلّا بعد القتل كما قال سبحانه : «ماكان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض(١)» .

فبعد القتل والأسر [فإمّا منّاً وإمّا فداء] أي إمّا أن تمنّوا عليهم منّاً فتطلقوهم بغير عوض وإمّا تفدوهم فداء و تأخذون فداءً و عوضاً و المراد التخيير للإمام بعد الأسر بين المنّ أي الإطلاق و بين أخذ الفداء والعوض .

في الكافي والتهذيب عن الصادق عليه السلام قال : كان أبي يقول : إنّ للحرب حكمين و هو أنّه إذا كانت الحرب قائمة ولم تضع أوزارها و أثقالها كالسلاح و الكراع و لم يثخن أهلها فكلّ أسيرٍ اُخذ في تلك الحال فانّ الإمام فيه بالخيار إن شاء ضرب عنقه وإن شاء قطع يده ورجله من خلاف وتركه يتشحّط في دمه حتّى يموت وهو قول الله : «إنّما جزاء الّذين يحاربون الله الآية» . قال عليه السلام : والحكم الآخر هو بعد أن وضع الحرب أوزارها وبعد أن أثخن أهلها فكلّ أسير اُخذ على تلك الحال ووقع في أيديهم فالإمام فيه مخيّر إن شاء منّ عليهم بالإطلاق فأرسلهم و إن شاء فاداهم أنفسهم و إن شاء استعبدهم فصاروا

(١) الانفال : ٦٧ .

عبيداً فإذا أسلموا في الحالين سقط جميع ذلك وكان حكمهم حكم المسلمين .

قوله : [حتّى تضع الحرب أو زارها] وفي تعلّق «حتّى» وجهان : أحدهما تعلّقها بالقتل أي اقتلوهم حتّى تضع أهل الحرب أسلحتهم فلا يقاتلون و قيل : المعنى حتّى لا يبقى أحد من المشركين وقيل : حتّى لايبقى دين غيردين الإسلام و قيل : أي حتّى تضع حربكم وقتالكم أوزار المشركين وقبائح أعمالهم بأن يسلموا ولاتبقى إلّا الإسلام ولا يعبد الأصنام و هذا كما جاء في الحديث والجهاد ماض مذبعثني الله إلى أن يقاتل آخر اُمّتي الدجّال قال الفرّاء : المعنى حتّى لايبقى إلّا مسلم أومسالم قال الزجّاج : المعنى اقتلوهم وأسروهم حتّى يؤمنوا فما دام الكفر الحرب قائمة أبداً .

[ذلك و لو يشاء الله لانتصر منهم] أي الأمر و الواجب ذلك الّذي ذكرناه و لا يريد سبحانه غير هذا الترتيب و لو أراد لفعل من خسف أو غرق و لكن أمركم بالقتال للامتحان .

قوله تعالى : [ليبلو بعضكم ببعض] أي هذه الأحكام ليمتحن بعضكم ببعض فيظهر المطيع عن العاصي والمعنى أنّه لوكان الغرض زوال الكفر فقط لأهلك الله سبحانه الكفّار بما يشاء من أنواع الهلاك و لكن أراد مع ذلك أن تستحقّوا الثواب و ذلك لا يحصل إلّا بالتعبّد وتحمّل المشاقّ .

[والّذين قتلوا في سبيل الله] أي الّذين قتلوا في الجهاد من المسلمين ، وقرىء قاتلوا فالمعنى جاهدوا سواء قتلوا أولم يقتلوا [فلن يضلّ أعمالهم] أي لن يضيّع الله أعمالهم بل يقبلها و يجازيهم عليها ثواباً دائماً والقتل ليس بإهلاك بالنسبة إلى المؤمن بل يورث الحياة الأبديّة وبتقدير أن يقتل أويقتل فهو مكرم بخلاف الكافر .

[سيهديهم ويصلح بالهم] يهتدون إلى طريق الجنّة والثواب ويصلح حالهم وشأنهم والوجه في تكرير قوله . «بالهم» أنّ المراد بالأوّل أنّه أصلح بالهم في الدين والدنيا و بالثاني المراد نعيم العقبى فالأوّل سبب النعيم والثاني نفس النعيم .

قوله : [و يدخلهم الجنّة عرّفها لهم] أي بيّنها لهم حتّى عرفوها إذا دخلوها و تفرّقوا إلى منازلهم وكانوا أعرف بها من أهل الجمعة إذا انصرفوا إلى منازلهم وقيل : معناه

بيّنها الله لهم وأعلمهم بوصفها على مايشوّق إليها فيرغبون فيها ويسعون لها . وقيل : معناه من العرف وهو العطر والرائحة الطيّبة أي طيبت الجنّة لهم بالعطر .

روي أنّ الملك الّذي وكّل بحفظ عمله في الدنيا يمشي بين يديه فيعرّفه كلّ شيء أعطاه الله و فيه وجه آخر وهو أن يقال : عرّفها لهم قبل موت الشهيد فإنّ الشهيد قبل وفاته يعرض عليه منزلته في الجنّة فيشتاق إليه و ذكر وجوه اُخر لاحاجة إلى الإطالة .

ثمّ لمّا بيّن ثواب المجاهدين وعدهم بالنصر في الدنيا فقال :

ياأيها الذين آمنوا ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٧).

أي إن تنصروا دين الله و طريقه و حزبه و فريقه و تنصروا النبيّ ﷺ ينصركم على عدوّكم ويشجّعكم و يقوّي قلوبكم لتثبتوا أوينصركم في الآخرة و يثبت أقدامكم على الصراط و عندالحساب أويثبت أقدامكم في الدارين وهوالوجه قال بعض العلماء حقّ على الله أن ينصر من نصره و أن يزيد من شكره لقوله : « لئن شكرتم لأزيدنّكم » و أن يذكر من ذكره كقوله : « فاذكروني أذكركم » وأن يفي بعهد من أقام على عهده لقوله : « وأوفوا بعهدي اُوف بعهدكم » .

قوله تعالى : والذين كفروا فتعساً لهم و أضل أعمالهم (٨) ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم (٩) أفلم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم دمر الله عليهم وللكافرين أمثالها (١٠) .

[و الّذين كفروا فتعساً] و مكروهاً لهم وسوء ، يريد في الدنيا القتل و في الآخرة التردّي في النار والمعنى أتعس الّذين كفروا واُقضي بهم بالتعس يريد أنّ العثور والانحطاط لهم لا الانتعاش والثبوت [وأضلّ أعمالهم] مرّ معناه .

[ذلك بأنّهم كرهوا ما أنزل الله] على نبيّه أي ذلك التعس بسبب أنّهم كرهوا القرآن وما أنزل الله فيه من التكاليف و الأحكام لأنّهم ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذّ فشقّ عليهم ذلك وخالفوا ذلك و قال أبوجعفر عليه السلام : كرهوا ما أنزل الله في حقّ عليّ فكشطوا اسم عليّ [فأحبط أعمالهم] لأنّها لم يقع على الوجه المأمور به ولمّا أعرضوا عن القرآن لاجرم لم يعرفوا العمل الصالح و كيفيّة الإتيان به فأتوا بالباطل و

أشركوا و الشرك محبط للعمل قال : « لئن أشركت ليحبطنّ عملك » (١) وكلّ ماسوى وجه‌الله هالك محبط .

ثمّ نبّههم على الاستدلال على صحّة ما دعاهم إليه من التوحيد فقال : [أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم] حين أرسل‌الله إليهم الرسل فلم يقبلوا منهم و عصوهم أي هلّا ساروا وراعوا عواقب اُولئك [دمّر الله عليهم] أي أهلكهم .

ثمّ قال : [و للكافرين] بك يا محمّد [أمثالها] من العذاب إن لم يؤمنوا أي إنّهم يستحقّون أمثالها وإنّما يؤخّر الله عذابهم تفضّلاً منه .

قوله تعالى : ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا و ان الكافرين لامولى لهم(١١) ان الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجرى من تحتها الانهار والذين كفروا يتمتعون و يأكلون كما تأكل الانعام و النار مثوى لهم (١٢) و كاين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك اهلكناهم فلا ناصر لهم (١٣) أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله و اتبعوا اهواءهم(١٤) مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وانهار من لبن لم يتغير طعمه وانهار من خمر لذة للشاربين وانهار من عسل مصفى و لهم فيها من كل الثمرات و مغفرة من ربهم كمن هو خالد فى النار وسقوا ماء حميماً فقطع امعاءهم(١٥) .

و المعنى [ذلك] الّذي فعلنا في الفريقين [بأنّ الله مولى الّذين آمنوا] به ويتولّى نصرهم و حفظهم و يدفع عنهم [وأنّ الكافرين لامولى لهم] ينصرهم ولا أحد يدفع عنهم العذاب والمولى في هذه الآية بمعنى الناصر و في قوله : « وردّوا إلى الله مولاهم الحقّ » معناه الربّ فلاتناقض .

روي أن النبيّ ﷺ كان في الشعب يوم اُحد وقد فشت في المسلمين الجراحات وفيه نزلت « وإنّ الكافرين لامولى لهم» فنادى المشركون : اُعل هبل فنادى المسلمون: الله أعلى وأجلّ، فنادى المشركون: يوم بيوم والحرب سجال «إنّ لنا عزّى ولا عزّى لكم » فقال

---

(١) القصص : ٧٢ .

رسول الله : قولوا.«الله مولانا ولامولى لكم» إنّ القتلى مختلفة فقتلانا أحياء يرزقون و أمّا قتلاكم إلى النار يعذّبون .

ثمّ ذكرسبحانه حال الفريقين فقال : [إنّ الله يدخل الّذين آمنوا وعملواالصالحات جنّات تجري من تحتها الأنهار] أي من تحت أشجارها وأبنيتها [والّذين كفروا يتمتّعون و يأكلون كما تأكل الأنعام والنارمثوىً لهم] أي الكفّاريتمتّعون من الدينا ولذّاتها و يأكلون مثل ما تأكل الأنعام أي كما أنّ الأنعام همّها الأكل لاغير كذلك الكافر ولا تستلذّ الأنعام بالمأكول على خالقها كذلك الكافر لكنّ المؤمن في الدنيا مسجون ولا يتمتّع من لذائذها بل يأكل ليعمل صالحاً و يقوى عليه و ما أعدّ الله له في الجنّة من الطيّبات ذلك الّذي ينبغي أن يقال : يتمتّع ويستلذّ منه فنعمة الدنيا بالنسبة إلى المؤمن كنسبة غيظة و أجمة[1] فيها من بعض الثمار العفصة والمياه الكدرة و فيها سباع و حشرات و مؤذيات كثيرة فالمؤمن لايتمتّع منها و حاله في الدنيا حال مسجون في بئر مظلمة بخلاف الكافر فإنّ متاع الدنيا للكافر بالنسبة إلى مايصله من العذاب في الآخرة نهاية اللذّة وإنّ متاعها بالنسبة إلى عذاب الآخرة جنّة عدن كما قال سبحانه : « والنار مثوىً لهم» أي مقرّ ومقام لهم .

قوله : [وكأيّن من قرية هي أشدّ من قريتك الّتي أخرجتك أهلكنا هم فلا ناصر لهم] ثمّ سلّى نبيّه ﷺ وقال : و كثيرٌ من أهل القرى الّذين هم كانوا أشدّ من أهل مكّة أهلكناهم كذلك نفعل بأهل قريتك ، فاصبر كما صبر رسلهم . وقوله : « فلا ناصر لهم » . فلو قيل : إنّ الاهلاك كان سابقاً وماضٍ و كلمة « ناصر » للحال والاستقبال ؟ قال الزمخشريّ : إنّه محمول على الحكاية و الحكاية كالحال و يمكن أن يكون المعنى لا ناصر لهم من عذاب الّذي يعذّبون .

ثمّ قال سبحانه على وجه التوبيخ للكفّار والمنافقين : [أفمن كان على بيّنة من ربّه] ويقين على دينه وعلى حجّة واضحة في اعتقاده من التوحيد والشرائع [كمن زيّن له سوء عمله] زيّن الشيطان المعاصي وأغواه [واتّبعوا أهواءهم] وشهواتهم وما تدعوهم إليه طباعهم

(١) مجتمع الشجر.

وهو وصف كمن زين له سوء عمله وهم المشركون والمنافقون وقيل : المراد هم المنافقون عن أبي جعفر عليه السلام .

ثمّ وصف الجنّات الموعودة بها للمؤمنين بقوله :

[مثل الجنّة الّتي وعد المتّقون فيها أنهار من ماء غير آسن] أي غير متغيّر طعمه لطول المكث كما تتغيّر مياه الدنيا [وأنهار من لبن لم يتغيّر طعمه] فهو غير حامض ولا يعتريه شيء من العوارض الّتي تصيب الألوان و الأشربة في الدنيا .

[وأنهار من خمر لذّة للشاربين] يلتذّون بشربها ولا يتعاقبون من شربها بصداع و نحوه بخلاف خمر الدنيا و كذلك [أنهار من عسل مصفّى] خالص من الشمع والرغوة ومن جميع العيوب الّتي تكون لعسل الدنيا .

[ولهم فيها من كلّ الثمرات] أي ممّا يعرفون اسمها وممّا لا يعرفون اسمها مبرّاة من كلّ مكروه يكون لثمرات الدنيا [ومغفرة من ربّهم] وهو أنّه يستر ذنوبهم وينسيهم سيّئاتهم حتّى لا يتنقّص عليهم نعيم الجنّة .

أي أفمن كان على بيّنة من ربّه [كمن هو خالد في النار وسقوا ماء حميماً فقطّع أمعاءهم] قوله : « كمن » يتعلّق بقوله « مثل الجنّة » الموصوفة الإقامة كمقام من هو خالد ومقيم ومؤبّد في النار فوقعت المقابلة في الكلام بين من يكون على بيّنة من ربّه وبين من زيّن له سوء عمله وبين من في الجنّة الموصوفة وبين من هو خالد في النار سقوا وبين المقابلة بين اللّبن والأنهار من الخمر والعسل وبين سقاية الماء الحميم المفيور في جهنّم ، فوقعت المقابلة في طرفي التضادّ والتباعد . قوله : « فقطّع أمعاءهم » بسبب شدّة الحرارة أو بسبب آخر كالسمومة وغيرها .

وتأمّل كيف سبحانه وصف بعض نعيم الجنّة الّتي أعدّت للمتّقين فاختار الأنهار من الأجناس الأربعة بمشروبهم وذلك لأنّ المشروب إمّا أن يشرب لطعمه و إمّا لأمر عائد إلى الطعم فإن كان الشرب للطعم فالطعوم تسعة في الدنيا : المرّ والمالح والحريف والحامض والعفص والقابض والتفه والحلو والدسم ومن المعلوم أنّ ألذّ الطعوم المذكورة الحلو والدسم وأحلى الأشياء في الحلاوة العسل فذكر سبحانه العسل و كذلك أدسم

الأشياء الدهن لكنّ الدسومة إذا تمحّضت لا يطيب للأكل ولا للشرب فإنّ الدهن لا يشرب في الغالب لكنّ الدسومة الكائنة في غيرها طيّب للأكل والشرب فذكره الله تعالى « وأنهار من لبن » وأمّا ما يشرب لا لأمر عائد إلى الطعم فالماء والخمر، فهو الماء والخمر فإنّ الخمر فيها أمر يشربها الشارب لأجل ذلك الأمر لا للطعم وهي كريهة الطعم فعرى سبحانه إيّاها عن صفات النقص بقوله : « غير آسن » وبقوله : « لذّة للشاربين » وكذلك العسل بقوله : « مصفّى »

قوله تعالى : ومنهم من يستمع اليك حتى اذا خرجوا من عندك قالوا للذين اوتوا العلم ماذا قال آنفاً اولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم (١٦) والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم (١٧) فهل ينظرون الا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها فأنى لهم اذا جاءتهم ذكراهم (١٨) فاعلم انه لا اله الا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم (١٩) ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فاذا انزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون اليك نظر المغشي عليه من الموت فأولى لهم (٢٠)

القمّي : إنّ الآية نزلت في المنافقين من أصحاب الرسول ومن كان إذا سمع شيئاً لم يكن يؤمن به ولم يعه فإذا خرج قال للمؤمنين : ماذا قال محمّد ؟ وقال صاحب المجمع : قال أمير المؤمنين عليه السلام : إنّا كنّا عند رسول الله صلى الله عليه وآله فيخبرنا بالوحي فأعيه أنا و من يعيه فإذا خرجنا قالوا : ماذا قال آنفاً يعني الساعة .

وإفراد الضمير باعتبار لفظ « من » كما أنّ جمعه فيما سيأتي باعتبار معناها و كانوا يقولون على سبيل الاستهزاء وإن كان كلامهم بصورة الاستفهام وأنف الشيء لما تقدّم معه مستعار عن الجارحة وهو ظرف بمعنى وقتاً ومؤتنفاً .

[قالوا ماذا قال آنفاً] وقالوا : تحقيراً لقوله صلى الله عليه وآله ويحتمل أن يكونوا سألوا رياءً ونفاقاً أي ماذا قال ؟ أعده عليّ لأحفظه [اُولئك الّذين طبع الله على قلوبهم] بسمة الكفّار أو المعنى خلّى بينهم و بين اختيارهم [واتّبعوا أهواءهم] و شهوات أنفسهم و مالت إليه طباعهم .

ثمّ وصف سبحانه المؤمنين فقال : [والّذين اهتدوا] بما سمعوا من الرسول أو من قراءة القرآن والنبيّ [زادهم] الله [هدى] أو أنّ فاعل «زاد» استهزاء المنافقين أي زاد المؤمنين استهزاء المنافقين إيماناً وعلماً وبصيرة وتصديقاً للنبيّ [وآتاهم تقواهم] أي وفّقهم للتقوى وقيل : المعنى وآتاهم ثواب تقواهم .

[فهل ينظرون إلّا الساعة] أي الكافرون والمنافقون بعد أنّ البراهين قد صحّت والاُمور اتّضحت وهم لم يؤمنوا فليس ينتظرون إلّا إتيان الساعة [بغتة] وفجأة والمعنى إلّا إتيان الساعة إيّاهم بغتة [فقد جاء أشراطها] و علاماتها والنبيّ ﷺ من أشراطها قال ﷺ : بعثت أنا والساعة كهاتين.وأعلام الساعة انشقاق القمر والدخان وخروج النبيّ ونزول آخر الكتب ، والشرط بالتحريك العلامة وأصحاب الشرط سمّوا بذلك للبسهم لباساً يكون علامة لهم ، والشرط في البيع علامة بين المتبايعين .

قوله : [فأنّى لهم إذا جاءتهم ذكراهم] أي فمن أين لهم الذكر والاتّعاظ والتوبة إذا جاءتهم الساعة . وموضع ذكراهم رفع،الذكر بأمرالله أن يتذكّروا به ، و حاصل المعنى و كيف لهم بالنجاة إذا جاءتهم الساعة ؟ فإنّه لا ينفعهم في ذلك الإيمان لزوال التكليف عنهم . ثمّ قال لنبيّه والمراد به جميع المكلّفين :

[فاعلم أنّه لا إله إلّا الله] أي اقسم على هذا العلم واثبت عليه واعلم في مستقبل عمرك ما تعلمه الآن ويدلّ عليه ما روي عن النبيّ ﷺ قال : من مات و هو يعلم أنّه لا إله إلّا الله دخل الجنّة أورده المسلم في الصحيح ، و قيل : إنّ هذا إخبار بموته ﷺ والمراد فاعلم أنّ الحيّ الّذي لا يموت هوالله وحده . وقيل : إنّه كان ضيّق الصدر من أذى قومه فقيل له : فاعلم لا كاشف لذلك إلّا الله .

[واستغفر لذنبك] الخطاب له والمراد به الاُمّة و إنّما خوطبوا بذلك لتستنّ اُمّته بسنّته والمراد الانقطاع إلى الله فإنّ الاستغفار عبادة يستحقّ به الثواب ويمكن أن يكون المراد توفيق العمل الحسن واجتناب العمل السيّىء لأنّ الاستغفار طلب الغفران والغفران هو الستر عن القبيح ومن عصم فقد ستر عليه قبائح الهوى ومعنى طلب الغفران أن لا تفضحنا وذلك قد يكون بالعصمة منه فلا يقع فيه واستغفاره من هذا القبيل و لطلب

هذا العنوان وقد يكون بالستر عليه بعد الوجود كما هو في حقّ المؤمنين كأنّه للنبيّ صلّى الله عليه وآله ثلاثة أحوال مع الله وحال مع نفسه وحال مع غيره ، فأمّا مع الله فوحّده وأمّا مع نفسك فاطلب العصمة وبقاءها وأمّا مع المؤمنين فاستغفر لهم من الله .

قوله : [وللمؤمنين والمؤمنات] أكرمهم الله بهذا إذ أمر نبيّه أن يستغفر لذنوبهم وهو الشفيع المجاب فيهم [والله يعلم متقلّبكم ومثواكم] فعلم سبحانه حالكم في الدنيا وفي الآخرة ويعلم منصرفاتكم في الدنيا ومصيركم في الآخرة إلى الجنّة أو إلى النار . وقيل : يعلم متقلّبكم أي في أصلاب الآباء إلى أرحام الاُمّهات ومثواكم أي مقامكم في الأرض أو المعنى متصرّفاتكم بالنهار ومضجعكم باللّيل والحاصل أنّه عالم بجميع أحوالكم وقيل: المراد أنّ الله يعلم متقلّبكم في معائشكم ومتاجركم ويعلم حيث تستقرّون في منازلكم في الدنيا والآخرة ومثواكم في الجنّة أو إلى النار ، ومثله حقيق بأن يخشى ويتّقى منه وإن يستغفر ويسترحم له فلا يأمركم إلّا بما هو خير لكم فيها فبادروا إلى الامتثال بما أمركم به فإنّه المهمّ لكم في المقامين .

مستدرك وتذييل في بعض أشراط الساعة ذكره الفيض في الصافي، من كتاب الخصال عن الصادق عليه السلام قال : سئل رسول الله صلّى الله عليه وآله عن الساعة قال : عند إيمان بالنجوم وتكذيب بالقدر .

و في العلل عن النبيّ صلّى الله عليه وآله في أجوبة مسائل عبدالله بن سلام أمّا أشراط الساعة فنار يحشر الناس من المشرق إلى المغرب .

و في الكافي عن الصادق عليه السلام قال : قال النبيّ صلّى الله عليه وآله : من أشراط الساعة أن يفشو الفالج وموت الفجاءة .

وفي روضة الواعظين عن النبيّ صلّى الله عليه وآله :إنّ من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل ويشرب الخمر ويفشو الزنا ويقلّ الرجال وتكثر النساء حتّى أنّ الخمسين امرأة فيهنّ واحد من الرجال .

والقمّي عن ابن عبّاس قال : حججنا مع رسول الله صلّى الله عليه وآله حجّة الوداع فأخذ بحلقة باب الكعبة ثمّ أقبل علينا بوجهه فقال : ألا اُخبركم بأشراط الساعة فكان أدنى الناس منه

منه ﷺ يومئذ سلمان رحمة الله عليه فقال : بلى يا رسول الله فقال : إن من أشراط القيامة إضاعة الصلاه واتباع الشهوات والميل مع الأهواء وتعظيم أصحاب المال وبيع الدين بالدنيا فعندها يذاب قلب المؤمن في جوفه كما يذاب الملح في الماء مما يرى من المنكر فلايستطيع أن يغيره .

قال سلمان : و إن هذا لكائن يا رسول الله ؟ قال ﷺ : إي و الذي نفسي بيده يا سلمان إن عندها يتولاهم أمراء جورة و وزراء فسقة و عرفاء ظلمة و أمناء خونة .

فقال سلمان : وإن هذا لكائن ؟ قال ﷺ : إي والذي نفسي بيده يا سلمان إن عندها يكون المنكر معروفاً والمعروف منكراً يؤتمن الخائن ويخون الأمين ويصدق الكاذب ويكذب الصادق .

قال سلمان : و إن هذا لكائن ؟ قال : إي ثم عندها تكون إمارة النساء و مشاورة الإماء و قعود الصبيان على المنابر و يكون الكذب طرفا و الزكاة مغرماً و الفيء مغنماً و يجفو الرجل والديه ويبر صديقه ويطلع الكواكب المذنبة .

قال سلمان : وإن هذا لكائن ؟ فقال ﷺ : إي وربي وعندها ياسلمان تشارك المرأة زوجها في التجارة و يكون المطر غيضاً و يحتكر الرجل المعسر فعندها تكسد الأسواق إذ قال هذا لم أبع شيئاً وقال هذا لم أربح شيئاً فلاترى إلا ذاماً لله .

قال سلمان : وإن هذا لكائن ؟ قال : إي فعندها يتولاهم أقوام إن تكلموا قتلوهم و إن سكتوا استباحوهم ليسأثروا بفيئهم و ليطؤا حرمتهم و ليسفكن دمائهم و ليملئن قلوبهم رعبا فلاتراهم إلا خائفين مرعوبين مرهوبين ياسلمان إن عندها فالويل لضعفاء أمتي منهم والويل لهم من الله لا يرحمون صغيراً ولا كبيراً ولايوقرون كبيراً ولا يتجافون عن مسيء ، جثثهم جثث الآدميين و قلوبهم قلوب الشياطين و عندها يكتفي الرجال بالرجال والنساء بالنساء ويغار على الغلمان كما يغار على الجارية في بيت أهلها و يشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال ويركب ذوات الفروج على السروج فعليهن من أمتي لعنة الله ياسلمان عندها تزخرف المساجد كما تزخرف البيع والكنائس و تحلى المصاحف

وتطول المنارات وتكثر الصفوف، قلوب متباغضه وألسن متوافقة وعندها تحلّي ذكور اُمّتي بالذهب ويلبسون الحرير والديباج ويتّخذون جلود النمور.

قال سلمان : وإنّ هذا لكائن ؟ قال : إي والّذي نفسي بيده و عندها يظهر الرباء و يتعاملون بالرشا ويوضع الّدين وترفع الدنيا ويكثر الطلاق فلايقام لله حدّ و لن يضرّوا اللهشيئاً وعنده يظهر القينات والمعازف ويتولّاهم أشرار اُمّتي وتحجّ أغنياء اُمّتي للنزهة وتحجّ أوساطها للتجارة و فقراؤهم للرياء و السمعة فعندها يكون أقوام يتعلّمون القرآن لغيرالله ويتّخذونه مزامير و يكون أقوام يتفقّهون لغير الله ويكثر أولاد الزنا و يتغنّون بالقرآن ويتهافتون بالدنيا ياسلمان ذاك إذا انتهك المحارم واكتسب المآثم وسلّط الأشرار على الأخيار يفشو الكذب ويظهر اللحاجة و الفاقة ويتباهون في اللباس ويمطرون في غير أوان المطر و يستحسنون الكوبة و المعازف وينكرون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتّى يكون المؤمن في ذلك الزمان أضلّ من الأمة و يظهر قرّاؤهم و عبّادهم فيما بينهم التلاوة فاُولئك يدعون في ملكوت السماوات الأرجاس الأنجاس فعندها لا يجود الغنيّ على الفقير حتّى أنّ السائل يسأل فيما بين الجمعتين لا يصيب أحداً يضع في كفّه شيئاً فعندها يتكلّم الرويبضة فقال سلمان : وما الرويبضة يا رسول الله قال ﷺ يتكلّم في اُمور العامّة من لم يكن يتكلّم فلم يلبثوا إلّا قليلاً حتّى تخور الأرض خورة فلا يظنّ كلّ قوم إلّا أنّها خارت في ناحيتهم فيمكثون ماشاء الله ثمّ ينكثون في مكثهم يلقي بهم الأرض أفلاذ كبدها ذهباً وفضّة ثمّ أومأ بيده ﷺ إلى الأساطين فقال : هذا، فيومئذ لاينفع ذهب ولا فضّة فهذا معنى قوله : «فقد جاء أشراطها» انتهى.

قوله تعالى : [و يقول الّذين آمنوا لولا نزّلت سورة] أي هلّا نزّلت لأنّهم كانوا يأنسون بنزول القرآن ويستوحشون لابطائه ليعلموا أوامرالله [فإذا اُنزلت سورة محكمة] ليس فيها متشابه ولاتأويل وقيل : المعنى سورة ناسخة لما قبلها قال قتادة : كلّ سورة ذكر فيها الجهاد فهي محكمة وهي أشدّ القرآن على المنافقين وقيل : المراد من المحكمة المقرونة بالوعيد المؤكّد كقوله : «إلّا تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً» وقيل : محكمة الوضوح ألفاظها و على هذا فالقرآن كلّه محكم وقيل : المحكمة هي الّتي تتضمّن نصّاً لم يختلف تأويله ولم

يتعقّبه نصّ وفي قراءة ابن مسعود سورة محدثة أي مجدّدة .

[وذكر فيها القتال] أي وأوجب عليهم فيها أي في السورة القتال وأُمروا به [رأيت] يا محمد [الّذين في قلوبهم مرض] وشكّ ونفاق [ينظرون إليك نظر المغشيّ عليه من الموت] يريد أنّهم يشخصون نحوك بأبصارهم و ينظرون إليك نظراً شديداً كما ينظر الشاخص ببصره عند الموت لثقل ذلك عليهم و عظمه في نفوسهم [فأولى لهم] هذا الكلام تهديد و وعيد قال الأصمعيّ : معنى هذا الكلام أي ولّاك وقارنك ما تكره ، قتادة : أي العقاب و الوعيد لهم وعلى هذا فأولى اسم للتهديد و الوعيد فأولى لهم مبتدء و خبر و لا ينصرف «أولى» لأنّه على و زن الفعل و صار اسماً للوعيد و قيل : المعنى أولى لهم طاعة لله و لرسوله و قولٌ معروفٌ بالإجابة أحسن فحينئذ يكون المعنى لو أطاعوا فأجابوا كانت الطاعة و الإجابة أولى لهم وهذا المعنى قول ابن عبّاس في رواية عطا ، و اختار الكسائيّ هذا القول فعلى هذا المعنى طاعة وقول معروف متّصل بما قبله وعلى القول الأوّل يكون طاعة وقول معروف مبتدأ محذوف الخبر تقديره طاعة وقول معروف أحسن و أمثل أو خبر مبتدء محذوف وتقديره أمرنا طاعة وقول معروف .

قوله تعالى : طاعة وقول معروف فاذا عزم الامر فلوصدقوا الله لكان خيراً لهم (٢١) فهل عسيتم ان توليتم أن تفسدوا فى الارض و تقطعوا أرحامكم (٢٢) اولئك الذين لعنهم لله فاصمهم واعمى ابصارهم (٢٣) افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها (٢٤) ان الذين ارتدوا على ادبارهم من بعدما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم (٢٥) .

المعنى في قوله : «طاعة وقول» فذكر المعنيان [فإذا عزم الأمر] وجوابه محذوف تقديره فإذا عزم ووجب الأمر تخلّفوا وخالفوا كأنّه يقولون في أوّل الأمر سمعاً وطاعة وعند آخر الأمر خالفوا و نسب العزم إلى الأمر و المراد لصاحب الأمر [فلو صدقوا] أي لوصدقوا الله فيما أمرهم به و امتثلوا أمره [لكان خيراً لهم] و على كون المعنى في قوله : «طاعة وقول معروف» خيرلهم وأحسن فمعنى قوله : «لوصدقوا» في إيمانهم واتّباعهم الرسول «لكان خيراً لهم» .

ثمّ قال تعالى : [فهل عسيتم إن تولّيتم أن تفسدوا في الأرض وتقطّعوا أرحامكم] الاستفهام للتقرير المؤكّد لأنّ الكفّار كانوا يقولون كيف نقاتل و القتل إفساد والعرب ذوو أرحامنا و قبائلنا فقال تعالى : « إن تولّيتم » لايقع منكم إلّا الفساد في الأرض فإنّكم تقتلون من يقدرون عليه وتنهبونه والقتال واقع منكم أليس قتلكم ووأدكم البنات إفساداً وقطعاً للرحم فلايصحّ تعلّلكم بالجهاد بقولكم : القتل إفساد لأنّكم تقتلون وتنهبون مع أنّه خلاف ما أمرالله والجهاد مع أنّه طاعة ومعروف من الله فكيف تنكرونه ؟

في الكافي والقمي عن عليّ عليه السلام أنّها نزلت في بني اُميّة .

قال الزمخشري : معنى « فهل عسيتم » الآية ، هل يتوقّع منكم الاالفساد ؟ لأنّكم اختبرتم . وقيل : المعنى إن أعرضتم وتولّيتم و أدبرتم عن دين رسول الله أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهليّة من التناهب والمقاتلة وقطع الأرحام .

وفي قراءة عليّ أميرالمؤمنين إن تولّيتم على المجهول أن تولّاكم ولاة غشمة ظلمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم و اُفسدتم بإفسادهم .

[اُولئك الّذين لعنهم الله] إشارة إلى المذكورين المخاطبين لعنهم الله وأبعدهم من رحمته لإفسادهم وخذلهم حتّى صمّوا عن استماع الموعظة [وأعمى أبصارهم] عن إبصار طريق الهدى .

[أفلا يتدبّرون القرآن] و يتفكّرون فيه فيعتبروا به و يقضوا ماعليهم من الحقّ عن أبي عبدالله وأبي الحسن [أم على قلوب أقفالها] وتنكير القلوب إرادة قلوب هؤلاء ومن كان مثلهم من غيرهم مثل قلوب المنافقين الّتي انقلعت عن الهدى والإيمان فلا تنفتح وقرىء إقفالها بصيغة المصدر والمراد أنّ بعض القلوب بسبب عدم تدبّرها وقبولها لايصل إليها ذكر ولاينكشف لها اُمور الهداية .

قوله : [إنّ الّذين ارتدّوا على أدبارهم] أي رجعوا عن الحقّ و الإيمان [من بعد ما تبيّن لهم الهدى] وظهر لهم طريق الحقّ وهم المنافقون عن ابن عبّاس والضحّاك وجماعة كانوا يؤمنون عند النبيّ ثمّ يظهرون الكفر فيما بينهم فتلك ردّة وقيل : هم كفّار أهل الكتاب كفروا بمحمّد صلّى الله عليه وآله وقد عرفوا نعته و وجدوه مكتوباً في التوراة و الإنجيل

في الكافي عن الصادق عليه السلام في هذه الآية قال : الّذين ارتدّوا عن الإيمان في ترك ولاية أميرالمؤمنين قال : والله نزلت فيهم وفي أتباعهم .

[الشيطان سوّل لهم وأملى لهم] أي زيّن وسهّل لهم عملهم و خطاياهم أو دعاهم إلى مايوافق مرادهم و هواهم ، وأملى لهم أي طوّل لهم أملهم وأوهم الأمن في المكاره وأبعد لهم في الأمل والأمنيّة .

قوله تعالى : ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا مانزل الله سنطيعكم فى بعض الامر والله يعلم اسرارهم (٢٦) فكيف اذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وادبارهم (٢٧) ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فاحبط أعمالهم (٢٨) ام حسب الذين فى قلوبهم مرض ان لن يخرج الله اضغانهم (٢٩) ولو نشاء لاريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم فى لحن القول والله يعلم اعمالكم (٣٠) .

ثمّ بيّن سبحانه سبب استيلاء الشيطان عليهم فقال :

[ذلك] أي ذلك التسويل والإملاء بأنّهم قالوا للّذين كرهوا ولاية عليّ : [مانزّل الله] من القرآن وما فيه من الأمر والنهي و الأحكام و منعتهم الرياسة عن اتّباع محمّد و القرآن والمرويّ عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام أنّهم بنو اُميّة كرهوا ما نزّل الله في ولاية عليّ بن أبي طالب قوله : [سنطيعكم في بعض الأمر] سنطيعكم في التظاهر على عداوة رسول الله أوفي ترك ولاية عليّ و القعود عن الجهاد [والله يعلم إسرارهم] أي ما أسرّه بعضهم إلى بعض من القول وما أسرّوه من الاعتقاد في أنفسهم .

[فكيف إذا توفّتهم الملائكة] أي كيف حالهم إذا قبضت الملائكة أرواحهم و إنّما حذف تفخيماً لشأن ما ينزل بهم في ذلك الوقت من عظم العذاب و الشدّة [يضربون وجوههم وأدبارهم] على وجه العقوبة لهم .

ثمّ ذكر السبب فقال : [ذلك بأنّهم اتّبعوا ما أسخط الله] من المعاصي الّتي يكرهها الله ويعاقب عليها [و كرهوا رضوانه] أي سبب رضوانه وهو الإيمان وطاعة الرسول [فأحبط

الله أعمالهم] الّتي كانوا يعملونها من البرّ و الصدقات و غيرها لأنّها في غير إيمان ولا فائدة فيها .

ثمّ قال : [أم حسب الّذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم] أي لا يبيّن الله أحقادهم على المؤمنين ولا يبدي معائبهم للنبيّ صلى الله عليه وآله .

[ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم] بأعيانهم يا محمّد حتّى تعرفهم بعلاماتهم وأشخاصهم لكي تعرفهم بها [ولتعرفنّهم في لحن القول] أي و تعرفهم الآن في فحوى كلامهم لأنّ كلام الإنسان يدلّ على ما في ضميره .

وعن أبي سعيد الخدريّ قال : لحن القول بغضهم عليّاً . قال : و كنّا نعرف المنافقين على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله ببغضهم عليّ بن أبي طالب و روي مثل ذلك عن جابر بن عبدالله الأنصاريّ وعن عبادة بن الصامت قال : كنّا نبور أولادنا بحبّ عليّ بن أبي طالب فإذا رأينا أحدهم لا يحبّ عليّاً علمنا أنّه لغير رشد .

وقال أنس : ما خفي منافق على عهد رسول الله بعد هذه الآية .

[والله يعلم أعمالكم] ظاهرها وباطنها والفرق بين اللامين في قوله : « لعرفتهم » أنّ الأولى جواب «لو » مثل الّتي في لأريناكهم واللام الثانية فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف .

ومعنى اللحن أن تميله إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبه مثل التورية والتعريض وبعض مفادات الكلام قال الشاعر :

ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا * و اللحن يعرفه ذوو الألباب

و يقال للمخطيء لاحن لأجل أنّه يعدل بالكلام عن الصواب

قوله : و لنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم و الصابرين و نبلو اخباركم (٣١) ان الذين كفروا و صدوا عن سبيل الله و شاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً و سيحبط اعمالهم (٣٢) يا ايها الذين آمنوا اطيعوا الله واطيعوا الرسول ولا تبطلوا اعمالكم (٣٣) ان الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم (٣٤) فلا

تهنوا وتدعوا الى السلم وانتم الاعلون والله معكم ولن يتركم اعمالكم(٣٥)

ثمّ أقسم سبحانه فقال :

[ولنبلونّكم] أي نعاملكم معاملة المختبر بما نكلّفكم من الأُمور الشاقّة [حتّى نعلم المجاهدين منكم و الصابرين] أي نتميّز المجاهدين في سبيل الله من جملتكم و الصابرين على الجهاد وقيل : المعنى حتّى يعلم أولياؤنا المجاهدين منكم . و أضاف العلم إلى نفسه تعظيماً لهم كما قال : « إنّ الّذين يؤذون الله ورسوله » أي يؤذون أولياء الله و قيل : المعنى حتّى نعلم جهادكم موجوداً لأنّ الغرض أن تفعلوا الجهاد فيثيبكم على ذلك [ونبلو أخباركم [أي نختبر أسراركم بما يستقبلونه من أفعالكم .

[إنّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله] أي امتنعوا عن اتّباع دين الله ومنعوا غيرهم عن اتّباعه تارة وبالإغواء أُخرى قيل : المراد هم أهل الكتاب قريضة والنضير وقيل : المراد كفّار قريش يدلّ على القول الأوّل قوله تعالى : « من بعد ما تبيّن لهم الهدى » قوله : « من بعد ما تبيّن لهم الهدى » تبيّن لهم صدق محمّد وهو نعته صلى الله عليه وآله في التوراة [وشاقّوا الرسول] أي خالفوه وعاندوه وعادوه [من بعد ما تبيّن لهم الهدى] أي بعد ماعرفوا أنّه رسول الله [لن يضرّ الله بذلك شيئاً] وإنّما ضرّوا أنفسهم [و سيحبط الله أعمالهم] فلا يرون لها ثواباً في الآخرة .

وفي هذه الآية دلالة على أنّ هؤلاء الكفّار كانوا قد تبيّن لهم الهدى فارتدّوا عنه ولم يقبلوه عناداً وهم المنافقون وقيل : المراد رؤساء الضلالة جحدوا الهدى طلباً للجاه والرياسة لأنّ العناد يضاف إلى الخواصّ .

فإن قيل : إنّ في أوّل السورة قال سبحانه : « أحبط أعمالهم » بصيغة الماضي فكيف قال : يحبط أعمالهم في المستقبل ؟

فالجواب أنّ المراد من قوله : « الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله » في أوّل السورة المراد المشركون وهم من أوّل الأمر كانوا مبطلين وكانت أعمالهم على غير شريعة و المراد من الّذين كفروا في هذه الآية أهل الكتاب وكانت لهم أعمال قبل الرسول فأحبطها بسبب تكذيبهم الرسول ولا ينفعهم إيمانهم ويجوز أن يكون المراد من الأعمال في هذه الآية

الأخيرة مكايدهم في القتال و ذلك قد تحقّق منهم والله سيبطله حيث يكون النصر للمؤمنين .

قوله تعالى : [ياأيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم] إشارة إلى حصول العمل بعد حصول العلم ، ودوموا على الإطاعة والعمل ولاتشركوا فتبطل أعمالكم أوالمعنى لا تتركوا طاعة الرسول فيبطل أعمالكم كما أبطل أهل الكتاب بسبب عدم طاعتهم للرسول وتكذيبهم إيّاه و يؤيّد المعنى الثاني قوله تعالى : « ياأيّها الّذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط اعمالكم و أنتم لا تشعرون » و قيل : المراد أن تبطلوا أعمالكم بالرياء و قيل : المراد بالكبائر .

قوله : [إنّ الّذين كفروا وصدّوا عن سبيل الله ثمّ ماتوا وهم كفّار فلن يغفرالله لهم «إنّ الّذين» مرّ تفسيره « ثمّ ماتوا وهم كفّار » أي صبروا على الكفر حتّى ماتوا على كفرهم « فلن يغفر الله لهم » أبداً لأنّ لفظ «لن» للتأبيد .

[فلا تهنوا] أي لا تتولّوا ولاتضعفوا عن القتال [وتدعوا إلى السلم] أي ولاتدعوا الكفّار إلى المسالمة والمصالحة [وأنتم الأعلون] أي و أنتم القاهرون الغالبون و قيل : إنّ الواو للحال أي إذا كنتم غالبين وتكون الغلبة لكم لا تصالحوهم فعلى المعنى الأوّل إخبار من الله على غلبتهم على الكافرين أي أنتم أيّها المؤمنون أعلى يداً و قدرة و منزلة آخر الأمر و إن غلب الكفّار في بعض الأحول [والله معكم] بالنصرة [ولن يتركم أعمالكم] أي لن ينقصكم من ثوابكم شيئاً والترة النقص من و ترت الرجل إذا قتلت له قتيلا من أخ أوحميم والمعنى مأخوذ من أفردته من قريبه يشبه أضاعة عمل العامل بوتر الواتر، ومنه قوله عليه السلام : من فاتته صلاة العصر فكأنّما وتر أهله وماله أي افرد عنهما قتلاً ونهباً .

قوله تعالى : انما الحيوة الدنيا لعب ولهو وان تومنوا وتتقوا يؤتكم اجوركم ولا يسألكم أموالكم (٣٦) ان يسألكموها فيحفكم تبخلوا و يخرج اضغانكم (٣٧) هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا فى سبيل الله فمنكم من يبخل و

من يبخل فانما يبخل عن نفسه والله الغنى وانتم الفقراء وان تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لايكونوا أمثالكم (٣٨) .

ثمّ حثّ الله سبحانه على طلب الآخرة فقال :

[إنّما الحياة الدنيا لعب ولهو] أي سريعة الفناء و الانقضاء و من اختار الفاني على الباقي كان جاهلاً ومنقوصاً و الّذي خلقها هو أعلم بها [وإن تؤمنوا] بالله و رسوله و تتّقوا معاصيه [يؤتكم أُجوركم] وجزاء أعمالكم في الآخرة .

[ولا يسألكم أموالكم] كلّها في الصدقة وإن أوجب عليكم الزكاة في بعض أموالكم و قيل : معنى الآية لا يسألكم أموالكم لأنّ الأموال كلّها لله فهو أملك لها وهو المنعم باعطائها و قيل : لا يسألكم الرسول على أداء الرسالة أموالكم أن تدفعوها إليه [إن يسألكموها فيحفكم] يقال : أحفى شاربه إذا استأصله وأحفى في المسألة إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح وبالغ فيه أي إن يسألكم جميع أموالكم ويجهدكم بمسألة جميعها [تبخلوا] بها ولا تعطونها و يظهر بغضكم وعداوتكم لله ولرسوله ولكنّه فرض عليكم ربع العشر والضمير في [يخرج] راجع إلى الله وقرىء نخرج بالنون وبالتاء مع فتح التاء والراء ورفع [أضغانكم] .

قوله : [ها أنتم هؤلاء] أي أنتم أيّها المخاطبون هؤلاء الموصوفون [تدعون] فيه توبيخ عظيم وتحقير لشأنهم [لتنفقوا] في سبيل الله أي إنّما اُمرتم باخراج ذلك للانفاق [في سبيل الله] وطاعته وهو يعمّ الزكاة والغزو وصرفه إلى المستحقّين من إخوانكم .

[فمنكم من يبخل] بما فرض الله عليه [ومن يبخل فإنّما يبخل عن نفسه] لأنّه يحرمها مثوبة جسيمة ثمّ يلزمه عقوبة عظيمة والمراد أنّ معطي المال أحوج إليه من الفقير الآخذ فبخله بخل على نفسه وذلك أشدّ البخل لأنّه إنّما يبخل بالخير والفضل في الآخرة عن نفسه كمن يبخل عن اُجرة الطبيب وثمن الدواء وهو مريض ثمّ حقّق ذلك بقوله : [والله الغنيّ] عمّا عندكم من الأموال [وأنتم الفقراء] إلى ما عند الله من الخير والرحمة ولا يأمركم بالانفاق لحاجة ولكن لتنفعوا بذلك الانفاق في الآخرة .

[وإن تتولّوا] وتعرضوا عن طاعته وعن أمر رسوله [يستبدل قوماً غيركم] أمثل

وأطوع منكم في أوامر الله [ثمّ لا يكونوا أمثالكم] بل يكونوا خيراً منكم وروى أبو هريرة أنّ ناساً من أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله قالوا : يا رسول الله من هؤلاء الّذين ذكرهم الله؟ وكان سلمان إلى جنب رسول الله صلّى الله عليه وآله فضرب يده إلى فخذ سلمان فقال : هذا و قومه والّذي نفسي بيده لو كان الإيمان منوطاً بالثريّا لتناوله رجال من فارس و روى أبو بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : إن تتولّوا يا معشر العرب يستبدل قوماً غيركم يعني الموالي. القمي قوله : «وإن يتولّوا» عطف على« إن لا تؤمنوا » أي إن تتولّوا عن ولاية أمير المؤمنين يستبدل قوماً خيراً منكم يقومون مكانكم ولا يكونون أمثالكم في معاداتكم و خلافكم و ظلمكم لآل محمّد صلّى الله عليه وآله .

***

سورة الفتح

(مدنية)

فضلها : اُبيّ بن كعب قال : من قرأها فكأ نّما شهد مع محمّد صلى الله عليه وآله فتح مكّة .

و في رواية اُخرى فكأ نّما بايع محمّد تحت الشجرة قال عمر بن الخطّاب : كنّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله في سفر فقال صلى الله عليه وآله : نزلت عليّ البارحة سورة هي أحبّ إليّ من الدنيا ومافيها : إنّا فتحنا إلى قوله : «وماتأخّر» أورده البخاري في الصحيح. عن أنس بن مالك قال : لمّا تراجعنا من غزوة الحديبية وقد حيل بيننا وبين نسكنا فنحن بين الحزن والكآبة إذا أنزل الله تعالى : إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً فقال صلى الله عليه وآله : لقد اُنزلت عليّ آية هي أحبّ إليّ من الدنيا كلّها .

و عن عبدالله بن مسعود قال : أقبل رسول الله من الحديبية فجعلت ناقته تثقل فقدّمنا فأنزل الله إنّا فتحنا لك فتحاًمبيناً ، فأدركنا رسول الله و به من السرور ما شاء الله فأخبر صلى الله عليه وآله أنّها اُنزلت عليه عبدالله بكير عن أبيه قال : قال أبوعبدالله عليه السلام : حصّنوا أموالكم ونساءكم وما ملك أيمانكم من التلف بقراءة إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً فإنّه من كان يدمن قراءتها ناداه مناد يوم القيامة حتّى يسمع الخلائق أنت من عبادي المخلصين ألحقوه بالصّالحين من عبادي فأسكنوه جنّات النّعيم و اسقوه الرّحيق المختوم بمزاج الكافور .

بسم الله الرحمن الرحيم

انا فتحنا لك فتحا مبينا (١) ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً (٢) وينصرك الله نصراً عزيزاً (٣) هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا ايماناً مع ايمانهم ولله جنود السموات و الارض وكان الله عليماً حكيما (٤) ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الانهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً (٥) .

المعنى : الفتح ضدّ الإغلاق وهو الأصل ثمّ استعمل في معان كثيرة فمنها الحكم والقضاء والحكومة والنصر ومنها فتح البلدان ومنها العلم نحو قوله : « وعنده مفاتيح الغيب » من ذلك .

[إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً] أي قضينا لك قضاءً ظاهراً وقيل : معناه يسّرنا لك يسراً بيّناً وقيل : أعلمناك علماً ظاهراً وفي الفتح وجوه أحدها فتح مكّة وثانيها فتح الروم وغيرها وثالثها صلح الحديبية والأظهر الأنسب فتح مكّة للمناسبة .

و الربط الآخر السورة المتقدّمة لأنّه سبحانه لمّا قال : « هاأنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله » إلى أن قال : « و من يبخل فإنّما يبخل على نفسه » بيّن تعالى أنّه فتح لهم مكّة وغنموا ديارهم وحصل لهم أضعاف ماأنفقوا ولو بخلوا لضاع عليهم ذلك و كذلك لمّا قال : « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم » وكان معناه لاتسألوا الصلح من عندكم بل اصبروا فإنّهم يسألون الصلح ويجتهدون فيه كما كان يوم الحديبية .

فلو قيل : إن كان المراد فتح مكّة فمكّة حينئذ لم تكن فتحت فكيف قال : « فتحنا لك » بلفظ الماضي ؟ والمعنى قدّرنا فتحها وحكمنا وماقدّره الله فهو كائن لا محالة .

نزلت الآية عند مرجع النبيّ ﷺ عن الحديبية بشّر في ذلك الوقت بفتح مكّة .

وعن جابر قال : ما كنّا نعلم فتح مكّة إلّا يوم الحديبية وذلك أنّ المشركين اختلطوا بالمسلمين فسمعوا كلامهم فتمكّن الإسلام في قلوبهم وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير فكثر بهم سواد الإسلام والحديبية بئر روي أنّه نفد ماؤها وظهر فيها من أعلام النبوّة ما اشتهرت به الروايات .

قال البراء بن عازب : تعدّون الفتح فتح مكّة وقد كان فتح مكّة فتحاً و نحن نعدّ الفتح بيعة الرضوان يوم الحديبية كنّا مع النبيّ ﷺ أربع عشر مائة والحديبية بئر نزحناها فما وجد فيها قطرة فبلغ ذلك إلى النبيّ ﷺ فأتاها وجلس على شفيرها ثمّ دعا بإناء من ماء فتوضّأ ، ثمّ تمضمض و دعا ، ثمّ صبّه فيها وتركها ثمّ إنّها أصدرتنا نحن و ركابنا .

وعن محمّد بن إسحاق بن يسار عن الزهريّ عن عروة بن الزبير عن المسوّر بن مخرمة إنّ رسول الله خرج لزيارة البيت لا يريد حرباً فذكر الحديث إلى أن قال : قال رسول الله انزلوا فقالوا : يا رسول الله ما بالوادي ماء فأخرج من كنانته سهماً فأعطاه رجلاً من أصحابه فقال له : انزل في هذا القليب فاغزره في جوفه ففعل فجاش بالماء الرواء .

وعن عروة وذكر خروج النبيّ قال : و خرج قريش من مكّة فسبقوه إلى بلدح وإلى الماء فنزلوا عليه فلمّا رأى النبيّ ﷺ أنّه سبق نزل ﷺ على الحديبية وذلك في حرّ شديد وليس فيها إلّا بئر واحد فأشفق القوم من الظماء والقوم كثير فنزل فيها رجال يمتحنوها ودعا النبيّ بدلو من ماء فتوضّأ من الدلو ومضمض فاه ثمّ مجّ فيه وأمر أن يصبّ في البئر ونزع سهماً من كنانته وألقاه في البئر فدعا الله ففارت بالماء جعلوا يغترفون بأيديهم منها وهم جلوس على شفتها .

وروى سالم بن أبي الجعد قال : قلت لجابر بن عبدالله : كم كنتم يوم الشجرة ؟ قال كنّا ألفاً وخمس مائة ، و ذكر عطشاً أصابهم قال : فأتى رسول الله بماء في تور فوضع يده فيه فجعل الماء يخرج من بين أصابعه كأنّه العيون قال : فشربنا وسقنا و كفانا قال : قلت كم كنتم ؟ قال : لو كنّا مائة ألف لكفانا كنّا ألفاً وخمس مائة .

وروي عن مجمع بن حارثة الأنصاريّ أنّ المراد فتح خيبر قال : شهدنا الحديبية مع رسول الله فلمّا انصرفنا عنها إذا الناس يهزّون الأباعر فقال بعض الناس لبعض : ما بال الناس قالوا : أُوحي إلى رسول الله فخرجنا نوجف فوجدنا النبيّ واقفاً على راحلته عند كراع الغميم فلمّا اجتمع الناس إليه قرأ «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً» السورة ، فقال عمر: أفتح هو يا رسول الله؟ قال : نعم والّذي نفسي بيده إنّه لفتح فقسمت خبر على أهل الحديبية لم يدخل فيها أحداً إلّا من شهدها .

قوله تعالى [ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر] وقد فسّر بعض الحشويّة بعض التفاسير الباطلة الّتي لا يقبلها ذو دين مثل أن حملوا الآية على ظاهرها ونسبوا إليها الصغيرة وأمثالها .

وقال ابن عطاء الخراسانيّ لمّا بلغ سدرة المنتهى ليلة المعراج قدّم هو ﷺ وتأخّر جبرئيل فقال لجبرئيل : تتركني في هذا الموضع وحدي فعاتبه الله حين سكن إلى جبرئيل فقال : «ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك و ما تأخّر» فيكون كلّ من الذنبين بعد النبوّة .

وقال سفيان الثوريّ : ماتقدّم أي ممّا عملت في الجاهليّة وما تأخّر ممّا لم تعمله ويذكر مثل ذلك على طريق التأكيد مثل قولهم : ضرب من لقاه و من لم يلقه و المعلوم من كلام الثّوريّ أنّه من الحشويّة و إلّا ما حشافاه بهذا التّبن ، فالثور ثور و إن عبد .

وقيل : إنّ ماتقدّم من الذنب بالنسبة إليه يوم بدر وما تأخّر يوم حنين أمّا يوم بدر حيث قال : اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة لاتعبد في الأرض أبداً فعوتب ﷺ من أين تعلم أنّي إن أهلكتها لاأُعبد أبداً ؟ فكان الذنب المتقدّم هذا وقال يوم حنين بعد أن هزم الناس و رجعوا إليه : لولم أرمهم بكفّ الحصى لم يهزموا فأنزل الله «وما رميت إذ رميت» وهو الذنب المتأخّر .

والصحيح أي ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنب أُمّتك وما تأخّر بشفاعتك .

وقيل : المراد الوعد بالعصمة قبل الفتح و بعد الفتح والإشارة إلى عموم العصمة كقولهم

اضرب من لقيت ومن لاتلقاه مع أنّ من لا يلقى لايمكن ضربه و هو إشارة إلى العموم و وكقول القائل لغيره : « صفحت عن السالف و الآنف » و حسنت إضافة ذنوب اُمّته إليه للاتّصال والسبب بينه وبين اُمّته ويؤيّد هذا المعنى مارواه المفضّل بن عمر عن الصادق عليه السلام قال : سأله رجل عن هذه الآية فقال : والله ماكان له ذنب ولكنّ الله ضمن له أن يغفر ذنوب شيعة عليّ ماتقدّم من ذنبهم وما تأخّر .

وقيل : ماتقدّم من ذنب أبويك آدم وحوّاء ببركتك ، وإضافة الذنب إليه لأنّه صلى الله عليه وآله كان في صلبه . قوله : « وما تأخّر » أي من ذنوب اُمّتك بشفاعتك .

و قيل : استغفار الأنبياء لا يكون عن ذنب كذنوبنا وإنّما هو عن أمر يدقّ عن عقولنا .

و قيل : إنّ نسبة الذنب إليه من حيث إنّ شريعته حكمت بأنّه ذنب في شريعته مثل الغيبة مثلاً فإنّه صلى الله عليه وآله حكم بأنّها ذنب فحسن الإضافة فذنوب اُمّته يضاف إليه وإلى شريعته بهذا التقرير فهذا اطمينان له في اُمّته ولو بعد عقوبة .

و روى عمرو بن يزيد قال : قلت لأبي عبد الله عليه السلام عن قول الله : « ليغفر لك الله الآية » قال : ما كان له ذنب و لا همّ بذنب و لكنّه حمله ذنوب شيعته ثمّ غفرها له .

وقال المرتضى قدّس الله روحه : إنّ الذنب مصدر والمصدر يجوز إضافته إلى الفاعل والمفعول معاً فيكون هنا مضافاً إلى المفعول والمراد ما تقدّم من ذنبهم إليك في منعهم إيّاك عن مكّة و صدّهم لك عن المسجد الحرام فيكون معنى المغفرة على هذا المعنى الإزالة و النسخ لأحكام أعدائه أي يزيل الله ذلك عنك ويستر عليك تلك الوصمة بما يفتح لك من مكّة ولذلك جعله جزاء على جهاده . قال : ولو أنّه أراد مغفرة ذنوبه لم يكن لقوله : «إنّا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله» معنىً معقول لأنّ المغفرة للذنوب لاتعلّق لها بالفتح فلايكون غرضاً فيه وأمّا قوله : «ما تقدّم وما تأخّر» فلايمتنع أن يريد به ما تقدّم زمانه من فعلهم القبيح بك وبقومك .

وقيل في تأويل الآية : إنّ معناه لوكان لك ذنب قديم أوحديث لغفرناه لك أوالمراد بالذنب ترك المندوب و الأفضل و حسن ذلك لأنّ من لا يخالف الأوامر فجاز أن يسمى ذنباً منه ما لـو وقع من غيره لم يسمّ ذنباً و ذلك الأمر لعلوّ قدره ﷺ و رفعة شأنه .

قوله : [ويتمّ نعمته عليك] في الدنيا بإخلاء الأرض لك عن معانديك بإظهارك على عدوّك ونصرة دينك وبقاء شرعك وفي الآخرة برفع محلّك فإنّ يوم الفتح لم يبق للنبيّ عدوّ ذو اعتبار فإنّ بعضهم كانوا أُهلكوا يوم بدر و الباقون آمنوا و استأمنوا يوم الفتح .

[و يهديك صراطاً مستقيماً] أي يديمك و يثبتك على الصراط المستقيم أو المعنى أن جعل الفتح سبباً للهداية إلى الصراط المستقيم لأنّ الجهاد سبب سلوك سبيل الله للمؤمنين .

قوله : [وينصرك الله نصراً عزيزا] ظاهراً غالباً لأنّ بالفتح ظهر النصر واشتهر الأمر إذ صيّر دينه ﷺ أعزّ الأديان وسلطانه أعظم السلطان .

قوله : [هوالّذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين] والسكينة أن يفعل الله بهم اللطف الّذي يحصل لهم عنده من البصيرة بالحقّ ما تسكن إليه نفوسهم و ذلك بكثرة ما ينصب لهم من الأدلّة فهذه النعمة التامّة خاصّة للمؤمنين و أمّا غيرهم فيضطرب نفوسهم لأوّل عارض من شبهة ترد عليهم إذ لا يجدون برد اليقين وروح الطمأنينة في قلوبهم،والسكينة هو سبب ذكرهم الله كما قال : « ألا بذكر الله تطمئنّ القلوب » و قيل : معنى السكينة النصرة للمؤمنين لتسكن بذلك نفوسهم ويثبتوا على القتال .

[ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم] أي يقيناً إلى يقينهم بما يرون من الفتوح وعلوّ كلمة الإسلام و يزدادوا تصديقاً بشرائع الإسلام و هو أنّهم كلّما أُمروا بشيء من الشرائع و الفرائض كالصلاة والصيام والصوم والصدقات صدّقوا به وذلك بالسكينة الّتي أنزلها الله في قلوبهم ليزدادوا معارفاً على المعرفة الحاصلة عندهم .

[ولله جنود السماوات والأرض] يعني الملائكة والجنّ والإنس والشياطين يعني لو

شاء لأعانكم به و في الآية بيان أنّه لوشاء لأهلك الكافرين لكنّه عالم بهم و بما يخرج من أصلابهم فأمهلهم لعلمه بالعاقبة و لم يأمر بالقتال عن عجز و احتياج لكن ليعرض المجاهدين الثواب [وكان الله عليماً حكيماً] فكلّ أفعاله حكمة وصواب .

قوله : [ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار] تقدير الآية إنّا فتحنا لك ليغفر لك الله إنّا فتحنا لك ليدخل المؤمنين و المؤمنات جنّات و لذلك لم يدخل واو العطف في ليدخل إعلاماً بالتفصيل تجري من تحتها الأنهار أي من تحت أشجارها الأنهار خالدين مؤبّدين لايزول عنهم نعيماً .

[و يكفّر عنهم سيّئاتهم] وعقاب معاصيهم الّتي فعلوها و يجوز أن يكون المعنى أنزل السكينة على المؤمنين ليزدادوا إيماناً بسبب الإنزال ليدخلهم بسبب الإيمان جنّات .

فإن قيل : فقوله : «يعذّب» عطف على قوله : ليدخل، وازدياد إيمانهم لايصلح سبباً لتعذيبهم ، بلى و المعنى أنّكم بسبب ازديادكم في الإيمان يدخلكم في الآخرة جنّات و بسبب عدم إيمانهم ومخالفتهم لكم وعدم اتّباعهم يزداد الكافر كفراً فيعذّبه به .

[وكان ذلك عندالله فوزاً عظيماً] أي ماذكر من الإدخال و التكفير عندالله أي كائن في علمه وهو فوز عظيم لايقدّر قدره لأنّه منتهى ما يمتدّ إليه أعناق الهمم من جلب نفع ودفع ضرّ وتقديم الإدخال في الذكر على التكفير مع أنّ الترتيب في الوجود على العكس للمسارعة إلى ماهو المطلب الأعلى .

قوله تعالى : ويعذب المنافقين و المنافقات و المشركين و المشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم و أعد لهم جهنم وساءت مصيرا (٦) ولله جنود السموات والارض وكان الله عزيزا حكيما (٦) انا ارسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا (٨) لتؤمنوا بالله ورسوله و تعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة واصيلا (٩) ان الذين يبايعونك انما يبايعون الله يدالله فوق ايديهم فمن نكث فانما ينكث على نفسه ومن اوفى بما عاهد عليه الله فسيوتيه اجرا عظيما (١٠)

قدّم سبحانه ذكر المنافقين على المشركين في مواضع من القرآن لأنّهم كانوا أشدّ على المؤمنين من الكافر وأضرّ عليهم لأنّ المؤمن يتوقّى الكافر في معاشرته ولكن يخالط المنافق لعدم علمه بنفاقه [الظانّين بالله ظنّ السوء] ظنّ السوء ظنّهم أنّ الله لا ينصر الرسول والمؤمنين ولا يرجعهم إلى مكّة ظافرين [عليهم دائرة السوء] أي ما يتربّصونه بالرسول والمؤمنين فهو حالق بهم ودائر عليهم .

والسوء بالضمّ الهلاك والدمار وقرىء بالفتح أي الدائرة الّتي يذمّونها ويسخطونها فهي عندهم دائرة سوء وعند المؤمنين دائرة صلاح وصدق وهل فرق بين السُوء والسَوء ؟ هما كالكره والكره و الضعف و الضعف من ساء إلّا أنّ الفتح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمّه من كلّ شيء وإمّا السوء بالضمّ فمعناه جار مجرى الشرّ الّذي هو نقيض الخير ، يقال : أراد به السوء وأراد به الخير ولذلك اُضيف الظنّ إلى المفتوح لكونه مذموماً و أمّا دائرة السوء بالضمّ فلأنّ الّذي أصابهم مكروه وشدّة فصحّ أن يقع عليه اسم السوء كقوله تعالى: «إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة(١)» أو السوء المصدر والسوء الاسم وهو أيضاً على التقرير المذكور وقيل : على قراءة الضمّ المراد دائرة العذاب وبالفتح المراد ماجعله للمؤمنين من قتلهم وغنيمة أموالهم قوله: [وغضب الله عليهم ولعنهم] أي أبعدهم من رحمته [وأعدّ لهم جهنّم] يجعلهم فيها [وساءت مصيراً] أي مآلاً ومرجعاً [ولله جنود السماوات والأرض] وإنّما كرّر فذكرهم أوّلاً لبيان الرحمة بالمؤمنين فقال بعده [وكان الله عزيزاً حكيماً] والثاني لبيان العذاب على الكافرين فقال : «وكان الله عزيزاً حكيماً» وفيه إشارة إلى ذكر العذاب و لذا ذكر العزّة كقوله : «أليس الله بعزيز ذي انتقام (٢)» و قال : « فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر» (٣)

ولا بأس بذكر بعض قصّة الحديبية وهي أنّ رسول الله اُمر في النوم أن يدخل المسجد الحرام و يطوف ويحلّق مع المحلّقين فأخبر أصحابه وأمرهم بالخروج فخرجوا من المدينة فلمّا نزل ذا الحليفة أحرموا بالعمرة وساقوا البدن وساق رسول الله ستّة وستّين بدنة فأحرموا

---

(١) الاحزاب : ١٧ .
(٢) الزمر : ٣٧ .
(٣) القمر: ٤٢ .

من ذي الحليفة ملبّين بالعمرة وقد ساق منهم الهدي مشمرات مجلاّت

فلمّا بلغ قريشاً ذلك بعثوا خالد بن الوليد في مائتي فارس كميناً لتستقبل رسول الله ﷺ وكان يعارضه على الجبال فلمّا كان في بعض الطريق حضرت صلاة الظهر فأذّن بلال فصلّى رسول الله بالناس فقال خالد : لو كنّا حملنا عليهم في الصلاة لأصبناهم فإنّهم لا يقطعون صلاتهم ولكن تجيء الآن لهم صلاة اُخرى أحبّ إليهم من ضياء أبصارهم فإذا دخلوا في الصلاة أغرنا عليهم فنزل جبرئيل على رسول الله بصلاة الخوف في قوله : «و إذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة [1] » الآية ، وهذه الآية في سورة النساء .

فلمّا كان في اليوم الثاني فنزل النبيّ ﷺ الحديبية وهي على طرف الحرم و كان صلّى الله عليه وآله يستنفر الأعراب في طريقه معه فلم يتّبعه أحد منهم ويقولون : أيطمع محمّد وأصحابه أن يدخلوا الحرم وقد غزتهم قريش في عقر ديارهم فقتلوا فلا يرجع محمّد وأصحابه إلى المدينة .

فلمّا نزل رسول الله الحديبية خرجت قريش يحلفون باللاّت و العزّى لا يدعون رسول الله يدخل مكّة وفيهم عين تطرف فبعث إليهم رسول الله أنّي لم آت لحرب و إنّما جئت لأقضي مناسكي وأنحر بدني واُخلّي بيني وبينكم و بين لحماتها فبعثوا عروة بن مسعود الثقفيّ و كان عاقلاً لبياً و هو الّذي أنزل الله فيه : « وقالوا لولا نزّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم» فلمّا أقبل إلى رسول الله قال : يا رسول الله تركت قومك وقد ضربوا الأبنية وأخرجوا العود المطافيل يحلفون باللاّت والعزّى لا يدعوك تدخل مكّة و فيهم عين تطرف أفتريد أن تبترّ أهلك وقومك ؟ فقال النبيّ ﷺ : ماجئت إلّا لأقضي مناسكي فقال : عروة والله مارأيت أحداً كاليوم صدّ كماصددت .

ثمّ رجع إلى قريش وأخبرهم فقالت قريش : والله لئن دخل محمّد مكّة و تسامعت به العرب لنذلّنّ ولتجترئنّ علينا العرب فبعثوا حفص بن أحنف وسهيل بن عمرو فلمّا نظر إليهما النبيّ ﷺ قال : ويح قريش قد نهكتهم الحرب إلّا خلّوا بيني وبين العرب فإن أك صادقاً فإنّما أجرّ الملك إليهم مع النبوّة وإن أك كاذباً كفيتهم ذؤبان العرب ، لا يسألني اليوم أحد

---

(١) النساء : ١٠١

من قريش حاجة ليس لله فيها سخط إلّا أجبتهم .

فلمّا وافى الرجلان قالا : يا محمّد ألا ترجع منّا عامك هذا إلى أن ننظر إلى ما يصير أمر العرب ؟ فإنّ العرب قد تسامعت بمسيرك فإذا دخلت بلادنا وحرمنا استذلّتنا العرب واجترأت علينا ونخلّي لك في العام المقبل في هذا الشهر ثلاثة أيّام حتّى تقضي منسكك و تنصرف عنّا فأجابهم النبيّ إلى ذلك وقالوا له : تردّ إلينا كلّ من جاءك من رجالنا ونردّ إليك كلّ من جاءنا من رجالك فقال رسول الله : من جاءكم من رجالنا فلا حاجة لنا فيه ولكن على أنّ المسلمين بمكّة لا يؤذون في إظهارهم الإسلام ولا يكرهون ولا ينكر عليهم شيء يفعلونه من شرائع الإسلام فقبلوا ذلك .

فلمّا أجابهم رسول الله إلى الصلح أنكر عامّة أصحابه وأشدّ ما كان إنكار عمر فقال : يا رسول الله ألسنا على الحقّ وعدوّنا على الباطل ؟ فقال نعم : قال : أتعطي الذلّة في ديننا فقال : إنّ الله عزّ وجلّ قد وعدني فلن يخلفني قال : ولو أنّ لي أربعين رجلاً لخالفته .

فرجع سهيل بن عمرو وحفص بن الأحنف إلى قريش فأخبراهم بالصلح فقال عمر : يا رسول الله ألم تقل لنا أن ندخل المسجد الحرام ويحلّق مع المحلّقين ؟ فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : أمن عامنا هذا وعدتك ؟ قلت لك : إنّ الله عزّ وجلّ قد وعدني أن أفتح مكّة وأطوف وأسعى وأحلق مع المحلّقين

فلمّا أكثروا عليه قال : إن لم تقبلوا الصلح فحاربوهم فمرّوا نحو قريش وهم مستعدّون للحرب وحملوا عليهم فانهزم أصحاب رسول الله هزيمة قبيحة ومرّوا برسول الله فتبسّم صلى الله عليه وآله ثمّ قال : يا عليّ خذ السيف واستقبل قريشاً فأخذ أمير المؤمنين سيفه وحمل على قريش فلمّا نظروا إلى أمير المؤمنين تراجعوا ثمّ قالوا : أبدا لمحمّد فيما أعطانا ؟ فقال : لا .

وتراجع أصحاب رسول الله مستحيين وأقبلوا يعتذرون إلى رسول الله فقال صلى الله عليه وآله لهم ألستم أصحابي يوم بدر إذ أنزل الله فيكم «إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّي ممدّكم بألف من الملائكة مردفين[1]» ألستم أصحابي يوم أُحد : «إذ تصعدون ولا تلوون على أحد و

(١) الانفال : ٩ .

الرسول يدعوكم في أخراكم [(١)] ألستم أصحابي يوم كذا ، ألستم أصحابي يوم كذا ؟ فاعتذروا إلى رسول الله وندموا على ما كان منهم وقالوا : الله أعلم ورسوله فاصنع ما بدا لك .

ورجع حفص بن الأحنف وسهيل بن عمرو إلى رسول الله فقالا : يا محمد قد أجابت قريش إلى ما اشترط من إظهار الاسلام وأن لا يكره أحد على دينه فدعا رسول الله بالكتب و دعا أمير المؤمنين وقال له : اكتب فكتب بسم الله الرحمن الرحيم فقال سهيل : لا نعرف الرحمن اكتب كما كان يكتب آباؤك بسمك اللهم فقال رسول الله : اكتب بسمك اللهم فإنه اسم من أسماء الله ثم كتب هذا ما تقاضى عليه محمد رسول الله ﷺ والملأ من قريش فقال سهيل بن عمرو : لو علمنا أنك رسول الله ما حاربناك اكتب هذا ما تقاضى عليه محمد بن عبدالله أتأنف من نسبك يا محمد ؟ فقال النبي ﷺ: أنا رسول الله وإن لم تقروا ، ثم قال: امح يا علي واكتب محمد بن عبدالله فقال علي عليه السلام : ما أمحو اسمك من النبوة فمحا رسول الله بيده ثم كتب :

هذا ما اصطلح عليه محمد بن عبدالله والملأ من قريش و سهيل بن عمرو و اصطلحوا على وضع الحرب بينهم عشر سنين على أن يكف بعضنا عن بعض ، و على أنه لا إسلال ولا إغلال [(٢)] ، وأن بيننا غيبة مكفوفة ، وأن من أحب أن يدخل في عهد محمد وعقده فعل ، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش و عقدها فعل ، و أنه من أتى محمداً بغير إذن وليه رده ، و أنه من أتى قريشاً من أصحاب محمد لم يرده إليه وأن يكون الإسلام ظاهراً بمكة ولا يكره أحد على دينه ولا يؤذى ولا يعير وأن محمداً يرجع عامه هو وأصحابه ثم يدخل علينا في العام القابل مكة فيقم فيها ثلاثة أيام ولا يدخل عليها بسلاح إلا سلاح المسافر و كتب علي بن أبي طالب وشهد على الكتاب المهاجرون والأنصار .

قال النبي ﷺ : يا علي إنك أبيت أن تمحو اسمي من النبوة فوالذي بعثني بالحق نبياً لتجيبن أبناءهم إلى مثلها و أنت مضيض مضطهد [(٣)] فلما كان يوم صفين و رضوا بالحكمين كتب هذا ما اصطلح عليه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب و معاوية بن

---

(١) آل عمران ١٥٣

(٢) بهامش الاصل : الاغلال: الخيانة ، والاسلال : الاغارة .

(٣) اورده القلقشندي في صبح الاعشى عند نقله صلح صفين والتراضي بالحكمين .

أبي سفيان فقال عمرو بن العاص : لوعلمنا أنك أمير المؤمنين ماحاربناك و لكن اكتب هذا ما اصطلح عليه علي بن أبي طالب و معاوية بن أبي سفيان فقال أمير المؤمنين : صدق الله ورسوله أخبرني بذلك رسول الله .

وبالجملة فلما كتبوا الكتاب قامت خزاعة فقالت : نحن في عهد محمد رسول الله وعقده وقامت بنو بكر فقالت : نحن في عهد قريش و عقدها و كتبوا نسختين : نسخة عند رسول الله و نسخة عند سهيل و رجع سهيل و حفص إلى قريش فأخبروهم و قال رسول الله ﷺ لأصحابه : انحروا بدنكم واحلقوا رءوسكم فامتنعوا وقالوا : كيف ننحر ولم نطف بالبيت ولم نسع بين الصفا والمروة؟ فاغتم لذلك الرسول وشكا ذلك إلى أم سلمة فقالت : يارسول الله انحر أنت واحلق فنحر رسول الله و حلق فنحر القوم على يقين و شك و ارتياب فقال النبي ﷺ تعظيماً للبادن : رحم الله المحلّقين وقال قوم : لم يسوقوا البدن يارسول الله والمقصّرين لأن من لم يسق هدياً لم يجب عليه الحلق فقال رسول الله : ثانياً رحم الله المحلّقين الّذين لم يسوقوا الهدي فقالوا : يا رسول الله والمقصّرين فقال : رحم الله المقصّرين .

ثم رحل ﷺ نحو المدينة فرجع إلى التنعيم و نزل تحت الشجرة فجاء أصحابه الّذين أنكروا عليه الصلح واعتذروا وأظهروا الندامة على ماكان منهم و سألوا رسول الله أن يستغفر لهم فنزلت آية الرضوان وهذه القصة مذكورة في روضة الكافي عن الصادق بزيادة و نقصان من أرادها فليراجع .

قوله : [إنّا أرسلناك شاهداً و مبشّراً و نذيراً] ثم خاطب نبيه فقال : « إنّا أرسلناك » يا محمد شاهداً على أمتك بما عملوه من طاعة ومعصية وقبول و رد « شاهداً » تبليغ الحكم والتكليف « ومبشّراً » بالجنة لمن أطاع « و نذيراً » من النار لمن عصى ثم بيّن الغرض من الإرسال [لتؤمنوا] وقرىء بالياء فالمعنى ليؤمن هؤلاء الكفار [بالله و رسوله و تعزّروه و توقّروه] والهاء راجع إلى النبي أي تنصروه بالسيف واللسان و تعظّموه و تجلّوه [و تسبّحوه بكرةً وأصيلاً] أي و تصلّوا لله بالغداة والعشي فالضمير في تسبّحوه راجع إلى الله وقيل : معناه و تنزّهوا الله عمّا لايليق به .

وكثير من القرّاء اختاروا الوقف على قوله : «وتوقّروه» لاختلاف الضمير فيه وفيما بعده وقيل : الضمائر راجعة إلى الله أي لتعظّموا الله وتطيعوه كقوله : «لا ترجون لله وقاراً» قال الزمخشري : الضمائر لله ومن فرّق فقد أبعد ، و قرىء تعزروه بالتخفيف وكسر الزاي قال ابن عبّاس : المراد من قوله : «وتسبّحوه بكرة وأصيلاً» صلاة الفجر و صلاة الظهر والعصر .

وفي هذه الآية دلالة على بطلان مذهب الجبر لأنّه سبحانه صرّح هنا أنّه يريد من جميع المكلّفين الإيمان والطاعة .

قوله : [إنّ الذين يبايعونك] المراد بالبيعة هنا بيعة الحديبية وهي بيعة الرضوان بايعوا رسول الله ﷺ على الموت [إنّما يبايعون الله] أي يبايعون لأجل الله ولوجهه لأنّ طاعتك طاعته وإنّما سمّيت بيعة لأنّها عقدت على بيع أنفسهم الجنّة للزومهم في الحرب وباعوا أنفسهم .

[يد الله فوق أيديهم] كأنّهم في هذه البيعة بايعوا الله من غير واسطة و قوّة الله في نصرة نبيّه فوق أيديهم في النصرة ، أي ثق بنصرة الله لك لا بنصرتهم و إن بايعوك أو أنّ يد رسول الله التي تعلو أيدي المبايعين هي يد الله والله منزّه عن الجوارح وعن صفات الأجسام وإنّما المعنى تقرير أنّ عقد الرسول ﷺ والميثاق معه كعقده مع الله من غير تفاوت في الأجر كقوله : «من يطع الرسول فقد أطاع الله [1]» .

[فمن نكث] أي نقض ما عقد من البيعة [فإنّما ينكث على نفسه] أي يرجع ضرر ذلك النقض عليه وليس له الجنّة والكرامة .

[ومن أوفى بما عاهد عليه الله] وقرىء عهد والمعنى من ثبت على العهد يقال : وفيت وأوفيت بالعهد وهي لغة تهامة ومن هذه اللغة قوله : «أوفوا بالعقود» [فسيؤتيه أجراً عظيماً] وقرىء بالنون على التكلّم أي ثواباً جزيلاً .

قوله تعالى : سيقول لك المخلفون من الاعراب شغلتنا أموالنا واهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً

---

(١) النساء : ٧٩

ان أراد بكم ضرا أوأرادبكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيرا (١١) بل ظننتم ان لن ينقلب الرسول والمؤمنون الى اهليهم ابدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوما بورا (١٢) ومن لم يؤمن بالله ورسوله فانا اعتدنا للكافرين سعيرا (١٣) ولله ملك السماوات والارض يغفر لمن يشاء و يعذب من يشاء وكان الله غفورا رحيما (١٤) سيقول المخلفون اذا انطلقتم الى مغانم لتاخذوها ذرونا نتبعكم يريدون ان يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل فسيقولون بل تحسدونا بل كانوا لا يفقهون الا قليلا (١٥) .

ثمّ أخبر سبحانه عمّن تخلّف عن نبيّه فقال :

[سيقول المخلّفون من الأعراب] أي الّذين تخلّفوا عن صحبتك وذلك أنّه لمّا أراد ﷺ المسير إلى مكّة عام الحديبية معتمراً وكان في ذي القعدة سنة ستّ من الهجرة استنفر من أطراف المدينة في الخروج معه ﷺ وهم غفار وأسلم وأشجع ومزينة حذراً من قريش من أن يعرضوا له بحرب أو يصدّ، وأحرم بالعمرة وساق معه الهدي ليعلم الناس أنّه لا يريد حرباً .

فتثاقل عنه كثير من الأعراب وقالوا : نذهب معه إلى قوم قد جاءوه فقتلوا أصحابه فتخلّفوا عنه واعتلّوا بالشغل فشرح الله حالهم للنبيّ ﷺ فقال سبحانه : إنّهم يقولون لك إذا عاتبتهم على التخلّف عنك [شغلونا أموالنا وأهلونا] وقرىء بالتشديد عن الخروج معك [فاستغفر لنا] في قعودنا عنك فكذّبهم الله فقال : [يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم] في الاعتذار بما أخبر عن ضمائرهم أي إنّهم كاذبون في الاعتذار وطلب الاستغفار .

[قل] يا محمّد لهم : [فمن يملك من الله شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً] أي فمن يمنعكم من عذاب الله إن أراد بكم سوءاً أو نفعاً وغنيمة ؟ وذلك أنّهم ظنّوا أنّ تخلّفهم عن النبيّ ﷺ يدفع عنهم الضرّ أو يحصل لهم النفع بالسلامة من المال والأهل [بل كان الله بما تعملون خبيراً] أي إنّه عالم في تخلّفكم وسببه .

[بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً] أي ظننتم أنّهم لا

يرجعون إلى من خلّفوا بالمدينة من الأهل والمال و ان العدوّ يستأصلوهم و يصطلمهم [و زيّن ذلك في قلوبكم] أي زيّن الشيطان ذلك الظنّ في قلوبكم و سوّله لكم [وظننتم ظنّ السوء] في هلاك النبيّ ﷺ وأصحابه و كلّ هذه الأخبار من الغيب وما كان يطّلع عليها إلّا الله فصار معجزاً للنبيّ ﷺ [و كنتم قوماً بوراً] أي هلكى لاتصلحون الخير وفاسدين .

[ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإنّا أعتدنا للكافرين سعيراً] أي ومن يظنّ بأنّ الله يخلف وعده أو الرسول كاذب فيما قاله فله نار مسعرة معدّة في الآخرة [ولله ملك السماوات والأرض يغفر لمن يشاء] ذنوبه [ويعذّب من يشاء] إذا استحقّ العقاب [وكان الله غفوراً رحيماً] .

ثمّ قال سبحانه : [سيقول لك المخلّفون] أي هؤلاء المتخلّفون أوضح كذبهم بأنّهم إذا أحسّوا بالغنيمة يقولون من تلقاء أنفسهم : [ذرونا نتّبعكم] فإذا كان أموالهم وأهلوهم شغلتهم يوم دعوتكم إيّاهم إلى أهل مكّة فما بالهم لا يشتغلون بأموالهم يوم أخذ الغنيمة والمراد من المغانم مغانم أهل خيبر وفتحها وغنم المسلمون ولم يكن معهم إلّا من كان معه في المدينة ، ووعد الموافقين بالغنيمة والمتخلّفين بالحرمان و وعدهم الله فتح خيبر لمن شهد الحديبية فلمّا انطلقوا إليها قال هؤلاء المخلّفون : ذرونا نتّبعكم.

فقال سبحانه : [يريدون أن يبدّلوا كلام الله] أي مواعيد الله لأهل الحديبية بغنيمة خيبر خاصّة أراد تغيير ذلك بأن يشاركوهم فيها وقيل : يريد أمر الله نبيّه أن لا يسيّر معه منهم أحداً .

[قل لن تتّبعونا كذلكم قال الله من قبل] بالحديبية قبل خيبر لمن شهد الحديبية يشركهم فيها غيرهم « كذلكم قال الله » أي نهى الله أن تتّبعوا أيّها المخلّفون إيّانا في المغانم .

وقال الجبّائي : أراد بقوله : « يريدون أن يبدّلوا كلام الله » قوله سبحانه : « قل لن تخرجوا معي أبداً ولن تقاتلوا معي عدوّاً [1] . »

(١) المائدة : ٦٤ .

وهذا غلط فاحش لأنّ هذه السورة نزلت بعد الانصراف من الحديبية وتلك الآية نزلت في الّذين تخلّفوا عن تبوك وكان منصرفه من تبوك في بقيّة رمضان من سنة تسع من الهجرة ولم يخرج بعد ذلك لقتال ولا غزو إلى أن قبضه الله فكيف يكون هذه الآية مرادة بقوله «كلام الله» وقد نزلت بعده بأربع سنين ؟

ثمّ قال : [فسيقولون بل تحسدوننا] أي فسيقول المخلّفون عن الحديبية لكم إذا قلتم لهم: لن تتّبعونا وسمعوا هذا النهي يقولون لكم ليس هذا النهي من الله بل تحسدوننا أن نشاركُكم في الغنيمة ثمّ قال سبحانه : ليس الأمر على ما قالوه [بل كانوا لا يفقهون] الحقّ وما تدعونهم إليه [إلّا قليلاً] أي إلّا فقهاً قليلاً وشيئاً قليلاً .

قوله تعالى : قل للمخلفين من الاعراب ستدعون الى قوم اولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فان تطيعوا يؤتكم الله اجرا حسنا وان تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذاباً اليماً(١٦) ليس على الاعمى حرج ولا على الاعرج حرج ولا على المريض حرج ومن يطع الله و رسوله يدخله جنات تجرى من تحتها الانهار ومن يتول يعذبه عذابا اليما (١٧) لقد رضى الله عن المؤمنين اذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فانزل السكينة عليهم واثابهم فتحاً قريباً (١٨) ومغانم كثيرة تأخذونها وكان الله عزيزاً حكيماً (١٩) وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فعجل لكم هذه وكف ايدى الناس عنكم و لتكون آية للمؤمنين و يهديكم صراطاً مستقيماً (٢٠) .

[قل] يا محمّد : للّذين تخلّفوا عنك في الخروج إلى الحديبية [من الأعراب] وهم قبائل متشعّبة [ستدعون] بعد ذلك [إلى قوم] ذوي النجدة والبأس قيل : المراد بالقوم هوازن و حنين وقيل : هوازن و ثقيف وقيل : هم بنو حنيفة مع مسيلمة الكذّاب و قيل : هم أهل فارس أوالروم وقيل : هم أهل صفّين أصحاب معاوية قال الطبريّ : والصحيح أنّ الداعي في قوله : « ستدعون » هو النبيّ صلى الله عليه وآله لأنّه قد دعاهم بعد ذلك إلى غزوات كثيرة و قتال أقوام ذوي البأس فلا معنى لحمل ذلك على ما بعد النبيّ صلى الله عليه وآله وبعد وفاته .

[تقاتلوهم أو يسلمون] معناه أحد الأمرين لابدّ أن يكون يقع لامحالة و تقديره أو

يسلمون ويقرّون بالإسلام و ينقادون لكم و في قراءة اُبيّ أو سلموا أي إلى أن يسلموا وعلى هذه القراءة لا يمكن أن يكون المراد من القوم فارس والروم لأنّهم يقبل منهم الجزية إذا لم يسلموا .

[فإن تطيعوا] وتجيبوا إلى قتالهم [يؤتكم الله أجراً حسناً] وجزاءً صالحا [و إن تتولّوا] عن القتال وتقعدوا عنه [كما تولّيتم من قبل] مثل يوم الحديبية [يعذّبكم عذاباً أليماً] في الآخرة .

[ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج] بيّن سبحانه من يجوز له التخلّف وترك الجهاد وما بسببه يجوز ترك الجهاد وهو ما يمنع من الكرّ و الفرّ وذلك بيان أصناف ثلاثة: الأوّل الأعمى فإنّه لا يمكنه الإقدام على العدو والطلب و لا يمكنه الاحتراز والهرب و الأعرج كذلك والمريض كذلك و في معنى الأعرج الأقطع والمقعد أي ليس على هؤلاء ضيق في ترك الخروج مع المؤمنين في الجهاد .

[ومن يطع الله ورسوله يدخله جنّات تجري من تحتها الأنهار] المراد من الإطاعة في الآية قبول القتال والجهاد [ومن يتولّ يعذّبه عذاباً أليماً] أي وإن قعدتم عن القتال و تولّيتم وما وافقتم النبيّ في جهاد العدوّ يعذّبكم في الآخرة عذاباً مولماً شديداً فقرن الله طاعته تعالى بطاعة رسوله و معصيته بمخالفة رسوله هذا هو الناموس الأكبر و الجاه الأوفر .

[لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة] يعني بيعة الحديبية وتسمّى بيعة الرضوان لهذه الآية والشجرة هي شجرة السمرة [فعلم ما في قلوبهم] من صدق النيّة لأنّه ﷺ بايعهم على القتال والصبر و الوفاء [فأنزل السكينة عليهم] و هي الطمأنينة و اللطف المقوّي لقلوبهم [وأثابهم فتحاً قريباً] يعني فتح خيبر وقيل : فتح مكّة [ومغانم كثيرة تأخذونها] يعني غنائم خيبر فإنّها كانت مشهورة بكثرة الأموال والعقار وقيل : غنائم هجر وهوازن بعد فتح مكّة [وكان الله عزيزاً] غالباً في أمره [حكيماً] في أفعاله ، حكم للمسلمين بالغنيمة ولأهل الخيبر بالهزيمة .

ثمّ ذكر سبحانه سائر الغنائم الّتي يأخذونها فيما بعد من الزمان فقال : [وعدكم الله

مغانم كثيرة تأخذونها]مع النبيّ ومن بعده إلى يوم القيامة[فعجّل لكم هذه] يعني غنيمة خيبر [و كفّ أيدي الناس عنكم] و ذلك أنّ النبيّ ﷺ لمّا قصد خيبر و حاصر أهلها همّت قبائل من أسد وغطفان أن يغيروا على أموال المسلمين وعيالهم بالمدينة فكفّ الله أيدهم عنهم بإلقاء الرعب في قلوبهم وقيل : إنّ مالك بن عوف وعيينة بن حصن مع بني أسد و غطفان جاءوا لنصرة اليهود فقذف الله الرعب في قلوبهم و انصرفوا .

[ولتكون] الغنيمة الّتي عجّلها لهم [آية للمؤمنين] على صدقك حيث وعدهم أن يصيبوها فوقع المخبر على طبق الخبر [ويهديكم صراطاًمستقيماً] فيكمل اعتقادكم ويقينكم و تفوّضون اُموركم إلى صراط الله العزيز و هو الثبات على دين الإسلام وتحمّل مشاقّ الطاعة .

قوله تعالى : واخرى لم تقدروا عليها قد احاط الله بها وكان الله على كل شيء قديراً (٢١) .

المعنى : ثمّ عطف سبحانه على ما تقدّم بعد النبيّ و المؤمنين فتوحاً اُخر فقال :

[واُخرى لم تقدروا عليها] أي ووعدكم الله مغانم اُخرى لم تقدروا عليها بعد فيكون «اُخرى» في محلّ النصب ، وقيل : المعنى و قرية اُخرى لم تقدروا عليها قد أعدّها الله لكم وهي مكّة و قيل : هي ما وعد الله لهم من بعد ذلك اليوم أو المراد بها فارس والروم عن ابن عبّاس وجماعة قال : كما أنّ النبيّ بشّرهم كنوز قيصر و كسرى وما كانت العرب على قتال فارس والروم بعد وفتح مدائنها بل كانوا خولاً لهم حتّى تمكّنوا وقدروا عليها بالإسلام .

[قد أحاط الله بها] قال الفرّاء : أحاط الله بها لكم حتّى يفتحها عليكم فكأنّه قد حفظها ومنعها عن غيركم حتّى تفتحوها وقدّرفتحها لكم وأحاط علمه سبحانه بذلك الأمر [وكان الله على كلّ شيء قديراً] من فتح القرى وغير ذلك .

ونذكر في هذا المقام نبذاً من قصّة خيبر : لمّا رجع ﷺ من الحديبية إلى المدينة مكث بها عشرين ليلة ثمّ خرج منها إلى خيبر ذكر ابن إسحاق باسناده عن أبي مروان الأسلمي عن أبيه عن جدّه قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر حتّى إذا كنّا قريباً

منها وأشرفنا عليها قال النبي ﷺ : قفوا فوقف الناس فقال : اللّهم ربّ السماوات السبع وما أظللن وربّ الأرضين السبع وما أقللن وربّ الشياطين وما أضللن إنّا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ونعوذ بك من شرّ هذه القرية وشرّ أهلها وشرّ ما فيها أقدموا باسم الله .

وعن سلمة بن الأكوع قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر فسرينا ليلاً فقال رجل من القوم لعامر بن الأكوع : ألا تسمعنا من هنيها تك وكان عامر رجلاً شاعراً فجعل يقول :

لاهمّ لولا أنت ما حجينا * ولا تصدّقنا ولا صلّينا

فاغفر فداء لك ما اقتنينا * وثبّت الأقدام إن لاقينا

وأنزلن سكينة علينا * إنّا إذا صيح بنا أتينا

وبالصباح عوّلوا علينا

فقال رسول الله ﷺ : من هذا السابق ؟ قالوا : عامر قال : يرحمه الله ، قال عمر - وهو على جمل - : يا رسول الله لولا أمتعتنا به ، وذلك أنّ رسول الله ما استغفر لرجل قطّ يخصّه إلّا استشهد قالوا : فلمّا جدّ الحرب وتصافّ القوم خرج يهوديّ وهو يقول :

قد علمت خيبر أنّي مرحب * شاكي السلاح بطل مجرّب

إذا الحروب أقبلت تلهّب

فبرز إليه عامر وهو يقول :

قد علمت خيبر أنّي عامر * شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين فوقع سيف اليهوديّ في ترس عامر وكان سيف عامر فيه قصر فتناول به ساق اليهوديّ ليضربه فرجع ضباب سيفه فأصاب ركبته والركبة أصل الصلبانة إذا قطعت واقع بين الفخذ والورك فمات منه قال : فإذا نفر من أصحاب رسول الله يقولون بطل عمل عامر قتل نفسه فقال النبيّ ﷺ : كذب اُولئك بل اُوتي عامر من الأجر مرّتين .

وبالجملة قال : فحاصرناهم حتّى أصابتنا مخمصة شديدة ثمّ إنّ الله فتحها علينا وذلك أنّ النبيّ ﷺ أعطى اللواء عمر بن الخطّاب ونهض من نهض معه من الناس فلقوا

أهل خيبر فانهزم عمر وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله يجبّنه أصحاب عمرو يجبّنهم و كان رسول الله صلى الله عليه وآله أخذته الشقيقة فلم يخرج إلى الناس فلمّا أفاق من وجعه سأل صلى الله عليه وآله ما فعل الناس بخيبر ؟ فأُخبره فقال : لأُعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّ الله و رسوله كرّاراً غير فرّار لا يرجع حتّى يفتح الله على يديه .

و روى البخاريّ و مسلم عن قتيبة بن سعيد قال : حدثنا يعقوب عن عبد الرحمن الإسكندرانيّ عن أبي حازم قال : أخبرني سعد بن سهل أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال : يوم خيبر لأُعطينّ الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله قال : فبات الناس يدركوا بجملتهم أيّهم يعطيها فلمّا أصبح الناس غدوا إلى رسول الله فقال صلى الله عليه وآله أين عليّ ؟ فقالوا : يارسول الله هو يشتكي عينيه قال : فأرسلوا إليه فأتى به عليه السلام فبصق رسول الله في عينيه ودعا له فبرىء كأن لم يكن به وجع فأعطاه الراية فقال عليّ عليه السلام : يا رسول الله أُقاتلهم حتّى يكونوا امثلنا ؟ قال : انفذ على رسلك حتّى تنزل بساحتهم ثمّ ادعهم إلى الإسلام وأخبرهم بما يجب عليهم من حقّ الله فوالله لأن يهدي الله بك رجلاً واحدا خير لك من أن يكون لك حمرا لنعم قال سلمة : فبرز مرحب وهو يقول :

«قد علمت خيبر أنّي مرحب»

الأبيات ، فبرز له عليّ وهو يقول :

أنا الّذي سمّتني أُمّي حيدره * ضرغام آجام و ليث قسوره
أكيلكم بالصاع كيل السندره

فضرب مرحباً ففلق رأسه فقتله و كان الفتح على يده عليه السلام أورده مسلم في الصحيح .

وروى أبوعبدالله الحافظ بإسناده عن أبي رافع مولى رسول الله قال : خرجنا مع عليّ حين بعثه رسول الله فلمّا دنا من الحصن خرج إليه أُهله فقاتلهم فضربه يهوديّ فطرح ترسه من يده فتناول عليّ عليه السلام باب الحصن فتترّس به عن نفسه فلم يزل في يده و هو يقاتل حتّى فتح الله عليه ثمّ ألقاه من يده فلقد رأيتني في نفر مع سبعة أنا منهم نجهد على أن نحرّك ذلك الباب فما استطعنا أن نقلبه .

وعن ليث بن أبي سليم عن أبي سليم عن أبي جعفر محمّد بن عليّ عليه السلام قال : حدّثني

جابر بن عبدالله الأنصاري أنّ عليّاً حمل الباب يوم خيبر حتّى صعد المسلمون عليه فافتتحوها وأنّه حرّك بعد ذلك فلم يحمله أربعون رجلاً . قال : وروي من وجه آخر عن جابر ثمّ اجتمع عليه سبعون رجلاً فكان جهدهم أن أعادوا الباب .

وبإسناده عن عبدالرحمن بن أبي ليلى قال : كان عليّ عليه السلام يلبس في الحرّ والشتاء القباء المحشوّ الثخين وما يبالي الحرّ فأتاني أصحابي فقالوا : إنّا رأينا من أمير المؤمنين شيئاً فهل رأيت ؟ فقلت : وما هو قالوا : رأيناه يخرج علينا في الحرّ الشديد في القباء المحشوّ وما يبالي الحرّ ويخرج علينا في البرد الشديد في الثوبين الخفيفين وما يبالي البرد فهل سمعت في ذاك شيئاً ؟ فقلت : لا فقالوا : فاسأل أباك عن ذلك فإنّه يسمر معه فقال : ماسمعت في ذلك شيئاً فدخل على عليّ عليه السلام فسمر معه ثمّ سأله عن ذلك فقال عليه السلام : أو ما شهدت خيبر ؟ قلت : بلى قال : أفما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله حين دعا أبا بكر فعقد له ثمّ بعثه إلى القوم فانطلق فلقى القوم ثمّ جاء بالناس وقد هزم فقال : بلى : قال : ثمّ بعث عمر فلقى القوم فقاتلهم ثمّ رجع وقد هزم فقال رسول الله : لأُعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله و رسوله ويحبّه الله ورسوله يفتح الله على يده كرّاراً غير فرّار فدعاني وأعطاني الراية ثمّ قال : اللّهمّ اكفه الحرّ والبرد فما وجدت بعد ذلك حرّاً ولا برداً وهذا كلّه منقول في كتاب دلائل النبوّة للإمام أبي بكر البيهقيّ .

وبالجملة ثمّ لم يزل رسول الله يفتح الحصون حصناً حصناً ويحوز الأموال حتّى انتهوا إلى حصن الوطيح والسلالم وكان آخر حصون خيبر وحاصرهم رسول الله صلى الله عليه وآله بضع عشرة ليلة .

قال ابن إسحاق لما افتتح حصن ابن أبي الحقيق اُتي رسول الله بصفيّة بنت حيّ بن أخطب وبأُخرى معها فمرّ بهما بلال وهو الّذي جاء بهما على قتلى يهود فلمّا رأتهم الّتي معها صفيّة صكّت وجهها وحثت التراب على رأسها فلمّا رآها رسول الله صلى الله عليه وآله قال: أغربوا عنّي هذه الشيطانة وأمر بصفيّة فخيّرت خلفه وألقى عليها رداءه فعرف المسلمون أنّه صلى الله عليه وآله قد اصطفاها لنفسه وقال صلى الله عليه وآله لبلال لمّا رأى من تلك اليهوديّة ما رأى : أنزعت منك الرحمة يا بلال حيث تمرّ بامرأتين على قتلى رجالهما ؟

وكانت صفيّة قد رأت في المنام وهي عروس بكنانة بن ربيع أبي الحقيق أنّ قمراً وقع في حجرها فعرضت رؤياها على زوجها فقال : ما هذا إلّا أنّك تتمنّين ملك الحجاز محمّداً ولطم وجهها لطمة اخضرّت عينها منها .

و لمّا أُتي بها إلى رسول الله وبها أثر منها فسألها النبيّ ﷺ : ماهو ؟ فأخبرته وأرسل ابن أبي الحقيق إلى رسول الله : انزل فأُكلّمك ، قال ﷺ : نعم فنزل وصالح رسول الله على حقن دمائهم في حصونهم من المقاتلة وترك الذرّيّة لهم ويخرجون من خيبر وأرضها بذراريهم و يخلّون بين رسول الله وبين ما كان لهم من مال وأرض وما يكون لهم من كلّ شيء من الصفراء والبيضاء والسلاح والكراع وعلى البزّ إلّا ثوب على ظهر الإنسان فقال رسول الله : فبرئت ذمّة الله وذمّة رسوله إن كتمتوني شيئاً ، فصالحوه على ذلك .

فلمّا سمع بهم أهل فدك قد صنعوا ما صنعوا بعثوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يحقن دماءهم ويخلّون بينه و بين الأموال ففعل ﷺ وكان ممّن يمشي بين رسول الله و بينهم في ذلك محيصة بن مسعود أحد بني حارثة .

فلمّا نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم الأموال على النصف وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها فصالحهم رسول الله على النصف على أنّا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم وصالحه أهل فدك على مثل ذلك فكانت أموال خيبر فيأً بين المسلمين و فدك خاصّة لرسول الله لأنّه لم يوجف عليها بخيل ولاركاب .

ولمّا اطمأنّ رسول الله أهدت له زينب بنت الحارث بن سلام وهي بنت أخي مرحب شاة مصلية وقد سألت أيّ عضو منها أحبّ إلى رسول الله ﷺ فقيل لها : الذراع ، فأكثرت فيها السمّ وسمّت سائر الشاة ثمّ جاءت بها فلمّا وضعتها بين يديه تناول الذراع فأخذها ولاك منها مضغة وانتهش منها و معه بشر بن البراء بن معروف تناول عظماً فانتهش منه فقال رسول الله ﷺ : ادفعوا أيديكم فإنّ كتف هذا الشاة يخبرني أنّها مسمومة ثمّ دعاها فاعترفت فقال : ما حملك على ذلك ؟ فقالت : بلغت من قومي مالم يخف عليك فقلت : إن كان نبيّاً فسيخبر وإن كان ملكاً استرحنا منه فتجاوز عنها رسول الله ومات بشر من أُكلته الّتي أكل .

ثمّ دخلت أُمّ بشر بن البراء على رسول الله ﷺ تعوده في مرضه الّذي توفّي فيه

فقال صلى الله عليه وآله : يا أمّ بشر مازالت أكلة خبز الّتي أكلت مع ابنك تعاودني فهذا أوان قطعت أبهري وكان المسلمون يرون أنّ رسول الله مات شهيداً مع ماأكرمه الله من النبوّة .

قوله تعالى : ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الادبار ثم لايجدون ولياً ولانصيرا (٢٢) سنت الله التى قدخلت من قبل ولن تجد لسنت الله تبديلا (٢٣) .

المعنى [ولو قاتلكم الّذين كفروا] من قريش يوم الحديبية يا معشر المؤمنين [لولّوا الأدبار] منهزمين بنصرة الله إيّاكم وخذلان الله إيّاهم وقيل : المراد بالّذين كفروا من أسد وغطفان الّذين أرادوا نهب ذراريّ المسلمين [ثمّ لايجدون وليّاً ولانصيراً] يواليهم و يدافع عنهم و هذا من الغيب و في ذلك إشارة إلى أنّ المعدوم معلوم في علم الله .

[سنّة الله الّتي قدخلت من قبل] أي هذه سنّتي في أهل طاعتي و أهل معصيتي و عادتي السالفة أنّ كلّ قوم إذا قاتلوا أنبياءهم انهزموا و قتلوا [ولن تجد لسنّة الله] و عادته [تبديلاً] .

و هو الذى كف ايدهم عنكم و ايدكم عنهم ببطن مكة من بعد ان اظفركم عليهم وكان الله بما تعملون بصيرا (٢٤) هم الذين كفروا و صدوكم عن المسجد الحرام و الهدى معكوفا ان يبلغ محله و لولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله في رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا اليما (٢٥) .

النزول : إنّ المشركين بعثوا أربعين رجلاً ـ وقيل : ثمانين رجلاً ـ عام الحديبية ليصيبوا المسلمين هبطوا من جبل التنعيم عند صلاة الفجر وقيل : خرج ثلاثون شابّاً عليهم السلاح فدعا عليهم النبيّ صلى الله عليه وآله فأخذ الله بأبصارهم فأخذهم أصحاب رسول الله فخلّى صلى الله عليه وآله سبيلهم فنزلت الآية .

المعنى : [وهو الّذي كفّ أيديهم] أي أيدي كفّار مكّة [وأيدكم عنهم ببطن مكّة] أي في الحديبية لأنّها من مكّة و ذلك أنّ عكرمة بن أبي جهل خرج في خمسمائة من المشركين إلى الحديبية فبعث رسول الله خالد بن الوليد[1] على جند فهزمهم حتّى

---

(١) ولا يستقيم هذا ، فان خالداً لم يسلم حتى الحديبية وقد مر انه كمن مع مائتى نفر يريدون الغيلة باصحاب النبى صلى الله عليه وآله فانزل الله صلاة الخوف ووقاهم شرهم .

أدخلهم حيطان مكّة ثمّ عاد و قيل : إنّ هذا الأمر كان يوم الفتح ' و به استشهد أبوحنيفة على أنّ مكّة فتحت عنوة لاصلحاً .

[من بعد أن أظفركم عليهم] فكفّ أيديهم عنكم بالفرار وأيديكم عنهم بالرجوع عنهم و تركهم وقوله : « من بعد أن أظفركم» منّة على المؤمنين بأنّ الظفركان لكم مع أنّ الظاهركان يقتضي كون الظفر لهم لكثرة عددهم و لكون البلاد لهم فكان هذا الأمر بعيداً لكونهم لابدّ لهم الذبّ عن أهليهم و أولادهم ولذا قال تعالى : « ببطن مكّة » وأمّا كفّ المسلمين عنهم أيضاً أمر بعيد لأنّهم بعد أن ظفروا بعدوّهم يقتضي أن يستأصلوهم كما هو عادة العدوّ والله تعالى بحسب علمه بالعاقبة كفّ اليدين [وكان الله بما تعملون بصيراً] يرى سبحانه من المصلحة .

ثمّ ذكر سبحانه المصلحة والسبب في الصلح فأشار إلى أنّ الكفّ لم يكن لأمر فيهم لأنّهم كفروا و منعوك والمسلمين عن المسجد الحرام و كلّ ذلك يقتضي قتالهم والمنع والكفّ عن القتال بالصلح في الحديبية ليس بسببهم لأنّهم كفروا وصدّوا وذلك يقتضي القتال لا الكفّ [ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤوهم] و جواب لولا محذوف تقديره لما كفّ الله و إنّما ذلك للرجال المؤمنين والنساء المؤمنات أي رجال غير معلومي الوطء و ما تعرفونهم و أنتم غير عالمين بأعيانهم لاختلاطهم مع المشركين أن تطؤوهم أي إذا أقدمتم على القتال توقّعوا بكم [فتصيبكم منهم] من جهتهم [معرّة] أي مشقّة و مكروه مثل الكفّارة بقتلهم و وجوب الدية والتأسّف عليهم و الإثم بالتقصير في البحث عنهم و أيضاً تعيّر المشركين إيّاكم بأنّكم قتلتم أهل دينكم و جواب لو محذوف أي لوطئتم رقاب المشركين وللزمكم القتال معهم فذكر الله أوّلاً المقتضي للقتال و هو الكفر والصدّ ثمّ ذكر ما امتنع لأجله مقتضاه وهو وجود الرجال .

وقوله : [والهدي معكوفاً أن يبلغ محلّه] عطف على كلمة« كم » في صدّوكم و قرئ الهدي بالجرّ عن المسجد و معكوفاً حال من الهدي أي منعهم و حبسهم الهدي أن يبلغ محلّه الّذي يكون أن ينحر فيه و الحاصل صدّهم الهدي عن محلّ المعهود الّذي هومنى و بالجملة لولا كراهة أن تهلكوا ناساً مؤمنين بين الكافرين غيرعالمين أنتم بهم فيصيبكم بذلك

مكروه لمّا كفّ الله أيدكم عنهم .

[ليدخل الله في رحمته] بذلك الكفّ المؤدّي إلى الفتح بعد ذلك [من يشاء] و اللام متعلّق بمحذوف دلّ عليه معنى الكلام تقديره فحال بينكم وبينهم ليدخل الله في رحمته من يشاء يعني من أسلم من الكفّار بعد الصلح .

[لو تزيّلوا لعذّبنا الّذين كفروا منهم] أي لو تميّز المؤمنون من الكافرين لعذّبنا الّذين كفروا من أهل مكّة [عذاباً أليماً] بالسيف والقتل بأيديكم ولكنّ الله يدفع بالمؤمنين عن الكفّار فلحرمة اختلاطهم بهم لم يعذّبهم ، اعرفوا قدر الصلحاء فإنّ كونهم فيكم مانع عنكم العذاب «ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدّمت صوامع وبيع» الآية .

قوله تعالى : اذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فانزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين والزمهم كلمة التقوى وكانوا احق بها واهلها وكان الله بكل شيء عليما (٢٦) لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لاتخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا (٢٧) هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيدا (٢٨) محمد رسول الله و الذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجدا يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الانجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار وعد الله الذين آمنوا و عملوا الصالحات منهم مغفرة واجرا عظيما (٢٩) .

المعنى : [إذ جعل الّذين الآية] «إذ» تتعلّق بقوله : «لعذّبنا الّذين كفروا» أو متعلّق بصدّوكم أو بفعل مقدّر أي اذكر جعل الكفّار حميّة الجاهليّة أي الحميّة الناشئة من جهلهم القديم جعلوا هذه الأنفة والعصبيّة ثابتة في قلوبهم وتلك الحميّة أن لا ينقادوا لأحد .

وذلك أنّ كفّار مكّة قالوا : قد قتل محمّد وأصحابه آباءنا وإخواننا ويدخلون علينا

في منازلنا فتتحدّث العرب أنّهم دخلوا علينا على رغم أنفنا واللاّت والعزّى لا يدخلونها علينا فهذه الحميّة الجاهليّة الّتي دخلت قلوبهم أوالمراد أنفتهم من الإقرار لمحمّد بالنبوّة والاستفتاح ببسم الله الرحمن الرحيم حيث أراد ﷺ يكتب كتاب الصلح في الحديبية .

فأنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين و لمّا جعل الكافرون لأنفسهم حميّة الجاهليّة وأنوفتها جعل الله للمؤمنين الطمأنينة في الإيمان والسكينة والتقوية في قلوبهم فما جعل للكافرين بجعلهم وما جعل للمؤمنين بجعل الله والفرق بين الفاعلين مالايخفى كما أنّ بين المفعولين مباينة تامّة وأين الحميّة الجاهليّة والسكينة الإلهيّة ؟

ثمّ تأمّل في حسن العبارة في قوله تعالى : « فأنزل » عبّر سبحانه بالفاء لا بالواو إشارة إلى أنّ ذلك كالمقابلة تقول : أكرمني فأكرمته للمجازاة والمقابلة ولوقلت :أكرمني وأكرمته لاينبىء عن هذا المعنى .

قوله : [وألزمهم كلمة التقوى] وهي قول لاإله إلّا الله عن ابن عبّاس و جماعة و في العلل عن النبيّ ﷺ أنّه قال في تفسير لا إله إلّا الله : و هي كلمة التقوى يثقل الله بها الموازين يوم القيامة وفي الكافي عن الصادق عليه السلام أنّه سئل عنها فقال : هي الإيمان وفي المجالس عن النبيّ ﷺ قال : إنّ عليّاً راية الهدى و إمام أوليائي ونور لمن أطاعني وهو الكلمة الّتي ألزمها المتّقين وقال عليّ عليه السلام في خطبة : أنا عروة الله الوثقى والكلمة التقوى .

قوله . [وكانوا أحقّ بها و أهلها] قيل في الآية تقديم و تأخير والتقدير كانوا أهلها وأحقّ بها أي كان المؤمنون أهل تلك الكلمة وأحقّ بها من المشركين وقيل : المعنى وكانوا أحقّ بنزول السكينة عليهم وأهلاً لها وقيل : وكان المؤمنون أحقّ بمكّة أن يدخلوها وأهلها وقد يكون حقّ أحقّ من غيره [و كان الله بكلّ شيء عليماً] فبيّن سبحانه علمه ببواطن سرائرهم وماينطوي عليه عقد ضمائرهم .

[لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ] و بيانه أنّ الله تعالى أرى نبيّه في المنام بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنّ المسلمين دخلوا المسجد الحرام فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا و حسبوا أنّهم داخلون مكّة عامهم ذلك فلمّا انصرفوا من الحديبية ولم يدخلوا مكّة قال المنافقون : ماحلّقنا وما قصّرنا ولادخلنا المسجد الحرام ، فأنزل الله هذه

الآية وأخبر أنّه أرى رسوله الصدق في منامه لاالباطل و أنّهم يدخلونه وأقسم على ذلك فقال :

[لتدخلنّ المسجد الحرام] يعني العام المقبل [إن شاء الله آمنين] استثنى الله ممّا يعلم ويستثني الناس في مالايعلمون وقيل : إنّ الاستثناء من الدخول و كان بين نزول الآية والدخول مدّة سنة و قدمات منهم اُناس في السنة فيكون تقدير الآية : ليدخلنّ كلّكم إن شاء الله لأنّه سبحانه علم أنّ منهم من يموت قبل السنة أويمرض فلا يدخلها فأدخل الاستثناء لأن لايقع في الخبر خلف و قيل : إنّ الاستثناء داخل على الخوف والأمن و هذه الأقوال الثلاثة للبصريّين . و قيل : إنّ إن في الآية بمعنى إذ هنا أي إذ شاء الله ذلك مثل قوله تعالى : « و أنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين » و معناه : إذ كنتم مؤمنين و هذا القول لايرتضيه البصريّون .

[محلّقين رؤوسكم و مقصّرين] أي محرمين يحلّق بعضكم رأسه أويقصّر ويأخذ بعض الشعر وفي الآية دلالة على أنّ المحرم عند التحلّل من الإحرام بالخيار إن شاء حلّق وإن شاء قصّر [لاتخافون] مشركاً حال من فاعل لتدخلنّ أومن آمنين أومن محلّقين أومن مقصّرين أواستيناف والمعنى لاتخافون بعد ذلك .

[فعلم مالم تعلموا] عطف على «صدّق» أي علم سبحانه عقيب ماأراه الرؤيا الصادقة اُموراً من الحكمة الداعية لتأخّر دخولكم في سنتكم كالسبب لوطوء المؤمنين و المؤمنات أومن المصالح المتجدّدة والمراد بعلمه العلم الفعليّ المتعلّق بأمر حادث بعد ذلك .

[فجعل] لأجل هذه المصلحة [من دون ذلك] أي من قبل دخولكم [فتحاً قريباً] والمراد إمّا صلح الحديبية و عمرة القضا أوفتح خيبر وقوله تعالى في الآية السابقة : « وكان الله بكلّ شيء عليماً » يدفع توهّم حدوث علمه من قوله : « فعلم » لأنّ قوله : « وكان الله بكلّ شيء عليما » يفيد سبق علمه العامّ لكلّ علم محدث .

[هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ] أي إنّ الله هو الّذي أرسل رسوله محمّد بالدليل الواضح وقيل : المراد بالهدى القرآن و دين الحقّ أي الإسلام [ليظهره على الدين كلّه] على جميع الأديان وقيل : إنّ تمام ذلك عند خروج القائم فلايبقى في الأرض

دين سوى دين الإسلام [وكفى بالله شهيداً] بذلك .

ثمّ قال : [محمّد رسول الله] نصّ على اسمه لتزول الشبهة وتمّ الكلام هنا .

ثمّ أثنى على المؤمنين فقال : [والّذين آمنوا معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم] قيل : بلغ من تشديد المؤمنين على الكفّار أن كانوا يحترزون من ثياب المشركين حتّى لا يلتصق بثيابهم وعن أبدانهم حتّى لا تمسّ أبدانهم قال الصادق عليه السلام : أوحى الله إلى نبيّ من أنبيائه قل لمن آمن بي: لا يلبسوا لباس أعدائي ولا يطعموا مطاعم أعدائي ولا يسلكوا ما سلك أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي ؛ وكان لا يرى مؤمن مؤمناً إلّا صافحه وعانقه ويظهرون لمن خالف دينهم الشدّة والصلابة ولمن وافقهم في الدين الرحمة والرأفة ولم يستذلّون ويتسخّرون وعلى الكافرين أقوياء ومتصلّبين .

[تراهم ركّعاً سجّداً] من طرق العامّة المراد عليّ وكان يسمع في كلّ ليلة ألف تكبيرة الإحرام من مصلّاه ، إخبار من الله في كثرة صلاتهم ومداومتهم عليها [يبتغون] بذلك [فضلاً من الله ورضواناً] ويطلبون نعم الله ورضاه [سيماهم في وجوههم من أثر السجود] أي علامتهم يوم القيامة أن يكون مواضع سجودهم أشدّ بياضاً قال شهر بن حوشب : يكون مواضع سجودهم كالقمر ليلة البدر وقيل : المراد من السيماء الصفرة والنحول في وجوههم وأبدانهم إذا رأيتهم حسبتهم مرضى وما بهم مرض [ذلك مثلهم في التوراة] أي إنّ ما ذكر من وصف المؤمنين هو ما وصفوا به في التوراة .

[ومثلهم في الإنجيل] ثمّ ذكر نعتهم في الإنجيل فقال : « ومثلهم في الإنجيل » وقيل: ليس بينهما وقف والمعنى ذلك مثلهم في التوراة والإنجيل جميعاً ووصفوا في الكتابين ومثّلوا بـ[زرع أخرج شطأه] أي فراخه ونبوغه وإنّ هذه الأفراخ لحقت الاُمّهات حتّى صارت مثلها فتهوّت [فآزره] أي فقوّى الزرع ذلك الشطء [فاستغلظ] أي متن وغلظ ذلك الزرع [فاستوى على سوقه] أي قام على قصبه واُصوله فاستوى الصغار مع الكبار وتناهى وبلغ الغاية .

[يعجب الزرّاع] أي يروع ذلك الزرع الزرّاع والأكرة الّذين زرعوه قال الواحديّ : هذا مثل ضربه الله فالزرع محمّد والشطء المؤمنون حوله وكانوا في ضعف وقلّة كما

يكون الزرع في أوّله دقيقاً ثمّ غلظ و قوي و تلاحق فكذلك المؤمنون قوّى بعضهم بعضاً فاستووا على أثر أمره صلى الله عليه وآله [يغيظ بهم الكفّار] وإنّما كثّرهم الله و قوّاهم ليكونوا غليظاً للكافرين بتظاهرهم واتّفاقهم على الطاعة .

ثمّ قال سبحانه : [وعدالله الّذين آمنوا و عملوا الصالحات] أي وعد من أقام على الإيمان و الطاعة [مغفرة] أي ستراً على ذنوبهم الماضية.

[و أجراً عظيماً] وثواباً جزيلاً دائماً .

سورة الحجرات

✡(مدنية الآية قوله « يا ايها الناس انا خلقناكم من ذكر و أنثى »)✡

فضلها عن اُبيّ بن كعب عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال : من قرأ سورة الحجرات اُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من أطاع الله ومن عصاه . الحسين بن أبي العلاء عن أبي عبدالله عليه السلام قال : من قرأ سورة الحجرات في كلّ يوم أو في كلّ ليلة كان زوّار محمّد صلى الله عليه وآله .

بسم الله الرحمن الرحيم

يا أيها الذين آمنوا لاتقدموا بين يديه الله ورسوله و اتقوا الله ان الله سميع عليم (١) يا أيها الذين آمنوا لاترفعوا اصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض ان تحبط اعمالكم وانتم لاتشعرون(٢) ان الذين يغضون اصواتهم عند رسول الله اولئك الذين امتحنهم الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة واجر عظيم (٣) ان الذين ينادونك من وراء الحجرات اكثرهم لايعقلون (٤) ولو انهم صبروا حتى تخرج اليهم لكان خيراً لهم والله غفور رحيم (٥) .

النزول : نزل قوله : « يا أيها الذين آمنوا » إلى قوله : « غفور رحيم » في وفد تميم وهم عطارد بن حاجب بن زرارة مع أشراف من بني تميم منهم الأقرع بن حابس و الزبرقان بن بدر وعمرو بن الأهتم وقيس بن عاصم في وفد عظيم فلمّا دخلوا المسجد نادوا من وراء الحجرات أن اخرج إلينا يا محمد فآذى ذلك رسول الله فخرج إليهم فقالوا : جئناك نفاخرك فأذن لشاعرنا و خطيبنا فقال صلى الله عليه وآله : قد أذنت فقام عطارد بن حاجب - وكان رجل الفصاحة - وقال : الحمد لله الّذي جعلنا ملوكاً الّذي له الفضل علينا والّذي وهب لنا أموالاً عظاماً نفعل بها المعروف وجعلنا أعزّ أهل المشرق وأكثر عدداً وعدّة فمن مثلنا في الناس فمن فاخرنا فليعدّ مثل ماعددنا ولو شئنا لأكثرنا من الكلام ولكنّا نستحيي من الإكثار ثمّ جلس .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لثابت بن قيس بن شماس : قم فأجبه فقام ثابت فقال : الحمد لله الّذي خلق السماوات والأرض خلقه فقضى فيه أمره و وسع كرسيّه علمه ولم يكن شيء قطّ إلّا من فضله أن جعلنا ملوكاً واصطفى من خير خلقه رسولاً أكرمه نسباً وأصدقه حديثاً وأفضله حسباً فأنزل الله عليه كتاباً وائتمنه على خلقه فكان خيرة الله على العالمين ثمّ دعا الناس إلى الإيمان بالله فآمن به المهاجرون من قومه و ذوي رحمه أكرم

الناس أحساباً وأحسنهم وجوهاً فكان أوّل الخلق إجابة و استجابة لله حين دعاه رسول الله نحن فنحن أنصار رسول الله وردؤه ؛ نقاتل الناس حتّى يؤمنوا فمن آمن بالله و رسوله منع ماله ودمه ومن نكث جاهدناه في الله أبداً و كان قتله علينا يسيراً ، أقول هذا و استغفر الله للمؤمنين والمؤمنات والسلام عليكم .

ثمّ قام الزبرقان بن بدر ينشد وأجابه حسّان بن ثابت .

فلمّا فرغ من قوله قال الأقرع : إنّ هذا الرجل خطيبه أخطب من خطيبنا وشاعره أشعر من شاعرنا وأصواتهم أعلى من أصواتنا فلمّا فرغوا أجازهم رسول الله وأحسن جوائزهم وأسلموا .

أقول : وهذا عمرو بن الأهتم والزبرقان بن بدر و قيس بن عاصم لمّا و ردوا على النبيّ صلى الله عليه وآله قال الميدانيّ في مجمع الأمثال : إنّه صلى الله عليه وآله سأل عمرو بن الأهتم عن الزبرقان أن يعرّفه فقال: عمرو إنّه مطاع في عشيرته شديد العارضة مانع لماوراء ظهره فقال الزبرقان : يارسول الله إنّه ليعلم منّي أكثر من هذا ولكنّه حسدني فقال عمرو : أما والله إنّه لزم المروءة ضيق العطن أحمق الوالد لئيم الخال والله يارسول الله ما كذبت في الأُولى ولقد صدقت في الآخرة ولكنّي رجل رضيت فقلت أحسن ما علمت و سخطت فقلت أقبح ما وجدت فقال صلى الله عليه وآله : إنّ من البيان لسحراً يعني إنّ بعض البيان يعمل السحر و معنى السحر إظهار الباطل في صورة الحقّ والبيان موضوعة اجتماع الفصاحة والبلاغة وذكاء القلب مع اللسان وإنّما شبّه بالسحر لحدّة أثره في سامعه و سرعة قبول القلب له ، انتهى كلام الميدانيّ .

وقيل : إنّ الوافد كانوا أُناساً من بني العنبر كان للنبيّ سبياً من ذراريّهم فأقبلوا إلى فدائهم فقدموا المدينة ودخلوا المسجد وعجّلوا أن يخرج إليهم النبيّ فجعلوا يقولون يا محمّد اخرج إلينا عن أبي حمزة الثماليّ عن عكرمة عن ابن عبّاس فنزلت « يا أيّها الّذين آمنوا » وروى زرارة عن أبي جعفر عليه السلام أنّه قال : ماسلّت السيوف ولا أُقيمت الصفوف في صلاة ولا زحوف ولاجهر بأذان ولا أنزل الله ياأيّها الّذين آمنوا حتّى أسلم أبناء الأوس والخزرج .

قوله : [لاتقدّموا بين يدي الله] و المراد من بين يدي الله الأمام لأنّ مابين يدي الإنسان أمامه والمعنى : لا تقطعوا أمراً ولا تعجلوا به دون الله و رسوله ولا تفعلوا ما تؤثرونه وتتركوا ما أمركم الله ورسوله به ولا تقدّموا أمراً على ماأمركم الله به والمفعول وهوأمرٌ محذوف و«قدّموا» في الآية بمعنى تقدّم وقيل : معنى الآية لاتقدّموا أعمال الطاعة قبل الوقت الّذي أمرالله ورسوله به حتّى قيل : لايجوز تقديم الزكاة قبل وقتها و قيل : المعنى : لا تمكّنوا أحداً يمشي أمام رسول الله بل كونوا له تبعاً و أخّروا أقوالكم واقعاً لكم عن قوله وفعله وقيل : نزلت في قوم ذبحوا الأضحيّة قبل صلاة العيد فأمرهم رسول الله ﷺ بالإعادة وقال ابن عبّاس : نهوا أن يتكلّموا قبل كلامه فالمعنى إذا كنتم جالسين في مجلس رسول الله ﷺ وسئل عن مسألة فلا تسبقوه بالجواب حتّى يجيب النبيّ ﷺ أوّلاً وقيل : معناه لاتسبقوه بقول ولابفعل حتّى يأمركم به .

والأصحّ حمل الآية على الجميع فإنّ كلّ شيء كان خلافاً لله ولرسوله إذا فعل فهو تقديم بين يدي الله ورسوله وذلك ممنوع .

[واتّقوا الله] أي اجتنبوا معاصيه [إنّ الله سميع] لأقوالكم [عليم] بأعمالكم فيجازيكم بها .

[يا أيّها الّذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبيّ] لأنّ فيه أحد الشيئين إمّا نوع استخفاف به فهو الكفر و إمّا سوء الأدب فهو خلاف تعظيم المأمور به .

[ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض] أي غضّوا أصواتكم وليّنوا عند مخاطبتكم إيّاه وفي مجلسه فإنّه ليس مثلكم إذ يجب توقيره من كلّ وجه وقيل : معناه لاتقولوا له : يامحمّد كما يخاطب بعضكم بعضاً بل خاطبوه بالتعظيم و التجليل و قولوا : يا رسول الله [أن تحبط أعمالكم] أي كراهة أن تحبط أولئلّا تحبط أعمالكم وقيل : إنّه في حرف عبدالله أبي مسعود فتحبط أعمالكم [و أنتم لاتشعرون] لا تعلمون أنّكم أحبطتم أعمالكم لأنّهم إذا عظّموه استحقّوا الثواب فلمّا فعلوا على خلاف ذلك الوجه استحقّوا العقاب وفاتهم ذلك الثواب فانحبط أعمالهم .

ثمّ مدح سبحانه من يعظّم رسوله ويوقّره فقال : [إنّ الّذين يغضّون أصواتهم عند

رسول الله] أصواتهم في مجلسه إجلالاً له [أُولئك الّذين امتحن الله قلوبهم للتقوى] أي أخلصها للتقوى مأخوذ من امتحان الذهب بالنار إذا اُذيب حتّى يذهب غشّه وتبقى خالصه وقيل : المعنى : إنّه علم خلوص نيّاتهم لأنّ الإنسان يمتحن الشيء ليعلم حقيقته وقيل : معناه عاملهم معاملة المختبر بما تعبّدهم به من هذه العبادة فخلصوا على الاختبار كما يخلص الذهب الجيّد بالنار [لهم مغفرة من الله] لذنوبهم وأجر عظيم على طاعتهم .

ثمّ خاطب النبيّ ﷺ فقال : [إنّ الّذين ينادونك من وراء الحجرات] وهم الجفاة من بني تميم لم يعلموا في أيّ حجرة هو ﷺ فكانوا يطوفون على الحجرات و ينادونه [أكثرهم لا يعقلون] وصفهم الله بالجهل وقلّة العقل و الفهم إذ لم يعرفوا قدر النبيّ ولا مااستحقّه من التوقير فهم بمنزلة البهائم .

[ولو أنّهم صبروا حتّى تخرج إليهم لكان خيراً لهم] من أن ينادونك من وراء الحجرات في دينهم فيما يحرزونه من الثواب و في دنياهم باستعمالهم حسن الأدب في مخاطبة الأنبياء ليعدّوا في زمرة العقلاء وقيل : معناه لأطلقت اُسراءهم بغير فداء فإنّ رسول الله كان سبى قوماً من بني العنبر فجاءوا في فدائهم فأعتق نصفهم وفادى النصف فيقول سبحانه : ولو أنّهم صبروا لكنت تعتق كلّهم [والله غفور رحيم] لمن تاب منهم .

يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين (٦) واعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الامر لعنتم ولكن الله حبب اليكم الايمان و زينه فى قلوبكم وكره اليكم الكفر والفسوق و العصيان اولئك هم الراشدون (٧) فضلا من الله و نعمة والله عليم حكيم (٨) وان طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فاصلحوا بينهما فان بغت احداهما على الاخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء الى امر الله فان فاءت فاصلحوا بينهما بالعدل و اقسطوا ان الله يحب المقسطين (٩) انما المؤمنون اخوة فاصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون (١٠) .

النزول : في قوله : « إن جاءكم فاسق » نزل في الوليد بن عقبة بن أبي معيط بعثه

رسول الله ﷺ في صدقات بني المصطلق فخرجوا يتلقّونه فرحاً به و كانت بينهم عداوة في الجاهليّة فظنّ الوليد أنّهم همّوا بقتله فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال : إنّهم منعوا صدقاتهم وكان الأمر بخلافه فغضب النبيّ وهمّ أن يغزوهم فنزلت الآية عن ابن عبّاس ومجاهد وجماعة .

وقيل : إنّها نزلت فيمن قال للنبيّ ﷺ إنّ مارية يأتيها ابن عمّ لها قبطيّ فدعا رسول الله عليّاً وقال : ياأخي خذ هذا السيف فإن وجدته عندها فاقتله ، فقال : يارسول الله أكون في أمرك إذا أرسلتني كالسكّة المحماة أمضي لما أمرتني أم الشاهد يرى مالايرى الغائب ؟ قال النبيّ ﷺ : بل الشاهد يرى مالايرى الغائب قال عليّ : فأقبلت متوشّحاً بالسيف فوجدته عندها فاخترطت السيف فلمّا عرف أنّي اُريده أتى نخلة فرقي إليها و شفر برجليه فإذا هو أجبّ أمسح وماله ماللرجال قليل ولا كثير وذلك بعد أن ألقى نفسه عن النخلة ، قال عليّ عليه السلام : فرجعت وأخبرت النبيّ ، فقال : الحمد لله الّذي يصرف عنّا السوء أهل البيت .

وبالجملة قوله تعالى : [ياأيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ] أي بخبر عظيم الشأن من فاسق خارج عن طاعة الله إلى معصيته [فتبيّنوا] صدقه من كذبه ولاتبادروا إلى العمل بخبره . ومن قرأ فتثبّتوا فالمعنى توقّفوا فيه وتأنّوا حتّى تثبت حقيقته عندكم [أن تصيبو قوماً بجهالة] أي حذراً من أن تصيبوا قوماً في أنفسهم و أموالهم بغير علم بحالهم وماهم عليه من الطاعة والإسلام [فتصبحوا على مافعلتم] من إصابتهم بالخطاء [نادمين] لايمكنكم تداركه .

وفي هذا دلالة على أنّ خبر الواحد لايوجب العلم ولا العمل لأنّ المعنى إن جاءكم من لاتأمنون أن يكون خبره كذباً فتوقّفوا فيه وهذا التعليل موجود في خبر من يجوز كونه في خبره كاذباً .

وقد استدلّ بعضهم بالآية على وجوب العمل بخبر الواحد إذا كان عدلاً من حيث إنّ الله أوجب التوقّف في خبر الفاسق فدلّ على أنّ خبر العدل لايجب التوقّف فيه لأنّ دليل الخطاب لايعوّل عليه عندنا وعند أكثر المحقّقين .

[واعلموا أنّ فيكم رسول الله] أي فاتّقوا الله أن تقولوا باطلاً عنده فإنّ الله يخبره بذلك فتفضحوا وقيل : معناه واعلموا بما أخبره الله من كذب الوليد أنّ فيكم رسول الله فهذه إحدى معجزاته [لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتّم] أي لو فعل ما تريدونه في كثير من الأمر لوقعتم في عنت وهلاك يقال : فلان يعنت فلاناً أي لطلب ما يؤدّيه إلى الهلاك وقد أعنت من العظم إذا هيض بعد الجبر وهذا يدلّ على أنّ بعض المؤمنين زيّنوا لرسول الله ﷺ الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد وتطير هذه الهناة كانت تفرط منهم والطاعة تراعى فيها الرتبة فلا يكون الإنسان مطيعاً لمن دونه في الدين وإنّما يكون مطيعاً لمن فوقه .

ثمّ خاطب المؤمنين الّذين لا يكذبون فقال : [ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان] أي جعله أحبّ الأديان إليكم بأن أقام الأدلّة على صحّته مثل وجود النبيّ ﷺ والكتاب وبما وعد من الثواب عليه [وزيّنه في قلوبكم] وجعل هذا الدين محبوباً عندكم بالألطاف الداعية إليه .

[وكرّه إليكم الكفر] بما وصف من العقاب عليه [والفسوق] أي الخروج عن الطاعة إلى المعاصي وعن القصد والعدل بظلم نفسه [والعصيان] أي الامتناع من الانقياد وهو شامل لجميع الذنوب والفسوق مختصّ بالكبائر [اُولئك هم الراشدون] أي المستثنين بقوله : « ولكنّ الله حبّب إليكم الإيمان » هم السالكون إلى الطريق السويّ الموصل إلى الحقّ .

وفي الآية تلوين وعدول حيث ذكر أوّل الآية على وجه الخطاب وآخرها على المغايبة حيث قال : « اُولئك هم الراشدون » ليعلم أنّ جميع من كان حاله هكذا فقد دخل في هذا المدح كما قال أبو اللّيث .

[فضلاً من الله ونعمة] وهذا الفضل والإنعام تعليل لقوله : « حبّب » ذكره للراشدين فإنّ الفضل والإنعام فعل الله والرشد وإن كان مسبّباً عن فعله وهو التحبّب والتكريه لكنّ السلوك والرشد إلى اطريق الهداية وقبولها مستند إليهم لأنّهم قبلوا هذا السلوك لأنّ الرشد قائم بالقوم والفضل والإنعام قائمان به تعالى وليس المراد من الفاعل

إلّا من قام به الفعل [والله عليم حكيم] عليم بما بينكم من التمايز والتفاضل حكيم يفعل كلّ ما يفعل بموجب المصلحة والشأن .

[وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما] أي فقاتلوا ، وأتى بلفظ الجمع باعتبار المعنى فإنّ كلّ طائفة جمع و الطائفة جماعة من الناس لكن دون الفرقة والفرقة أكثر عدداً من الطائفة .

نزلت الآية في الأوس والخزرج وقع بينهما قتال . وقيل : نزلت في رهط عبدالله بن اُبيّ بن سلول من الخزرج و رهط عبد الله بن رواحة من الأوس و السبب أنّ النبيّ ﷺ وقف على عبدالله بن اُبيّ فراث حمار رسول الله ـ أو بال ـ فأمسك عبدالله أنفه وقال : إليك عنّي فقال عبدالله بن رواحة : لبول حمار رسول الله أطيب ريحاً منك ومن أبيك فغضب قوم عبدالله بن اُبيّ و أعان ابن رواحة قومه و وقع بينهما ضرب بالحديد و الأيدي والنعال .

وبالجملة إن فريقان من المؤمنين قاتل أحدهما صاحبه فأصلحوا بينهما حتّى يصطلحا ولا دلالة في هذا على أنّهما إذا اقتتلا بقيا على الإيمان ويطلق عليهما هذا الاسم ولا يمتنع أن يفسّق إحدى الطائفتين أو يفسّقا جميعاً وطائفتان فاعل فعل محذوف وجوباً لا مبتدء لأنّ حرف الشرط لا يدخل إلّا على الفعل لفظاً أو تقديراً والتقدير : وإن اقتتل طائفتان من المؤمنين اقتتلوا ، واقتتلوا يفسّر الأوّل وحذف الأوّل لأنّ الفعل الثاني بيّنه .

[فأصلحوا بينهما] والصلاح الحصول على الحالة الحسنة النافعة والإصلاح بين الناس إذا تفاسدوا وكانوا مؤمنين من أعظم الطاعات وأتمّ القربات .

قال ﷺ : ألا اُخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة ؟ قالوا : بلى يا رسول الله قال : إصلاح ذات البين وفي الحديث المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ولا يخذله ولا يتطاول عليه في البنيان فيسترعنه الريح إلّا باذنه ولا يؤذيه بقتار قدره إلّا أن يغرف له منها ولا يشتر لبنيه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها .

ولمّا نزلت الآية قرأها رسول الله عليهم وأصلح بينهم .

فإن قيل : إنّ عبدالله بن اُبيّ كان منافقاً والآية في طائفتين من المؤمنين .

فالجواب أنّ طائفة عبدالله بن اُبيّ ما كانوا كلّهم منافقين و فيهم مؤمنون و الآية تناول المؤمنين .

وقال ابن بحير : القتال لا يكون بالنعال والأيدي وذلك كان كذلك وإنّما هذا في المنتظر من الزمان ، وهذا بعيد لأنّ المراد من القتل أمر يحصل به زهوق الروح و ذلك يحصل بأيّ شيء كان على أنّ القتال قد يستعمل مجازاً في المضاربة والمحاربة .

[وإن بغت إحداهما] وتعدّت واستطالت إحدى الطائفتين و كانت مبطلة [على الأُخرى] وكانت محقّة [فقاتلوا الّتي تبغي] أي قاتلوا الطائفة الباغية [حتّى تفيء] أي ترجع [إلى أمر الله] إلى حالة محمودة وهي المصالحة ورفع العداوة والرجوع إلى حكمه الّذي حكم له وإنّما اُطلق الفيء على الظلّ لرجوعه بعد إزالة الشمس فإنّ الشمس كلّما ازداد ارتفاعاً ازداد الظلّ انتساخاً وزوالاً وذلك إلى أن توازي الشمس خطّ نصف النهار فإذا زالت عنه وأخذت في الانحطاط أخذ الظلّ في الظهور والرجوع فلمّا كان الزوال سبباً لرجوع ما انتسخ من الظلّ اُضيف الظلّ إلى الزوال . فقيل : فيء الزوال ، ويطلق أيضاً على الغنيمة لرجوعها من الكفّار إلى المسلمين و تلك الأموال و إن لم تكن أوّلاً للمسلمين لكنّها لمّا كانت حقّهم لإيمانهم كأنّهم كانت لهم فرجعت إليهم .

و مرّ الأصمعيّ بحيّ من أحياء العرب فصحاء فوجد صبيّاً يلعب بالتراب مع الأتراب في الصحراء فقال الأصمعيّ : أين أباك يا صبيّ؟ فنظر إليه الصبيّ ولم يجب ثمّ قال الأصمعيّ : أين أبيك ؟ فنظر إليه ولم يجب كالأوّل ثمّ قال : أين أبوك ؟ فقال : قد فاء إلى الفيفاء ليطلب الفيء فإذا فاء الفيء فاء .

قوله تعالى: [فإن فاءت] أي فإن رجعت عن القتال وأنابت إلى طاعة الله [فأصلحوا بينهما] أي بينها وبين الطائفة الّتي على الإيمان [بالعدل] أي بالقسط والسواء ولايكون شطط بينهما من الأرش والجنايات [وأقسطوا إنّ الله يحبّ المقسطين] العادلين .

[إنّما المؤمنون إخوة] في الدين يلزم نصرة بعضهم لبعض والإخوة جمع الأخ وأصله المشارك الآخر في الولادة من الطرفين أو من أحدهما أو من الرضاع ويستعار لكلّ

مشارك لغيره في القبيلة أو في الدين أو في صفة أو في مودّة أو غيره من المناسبات وقال بعض أهل اللّغة : الإخوة جمع الأخ من النسب والأخوان جمع الأخ من الخلّة والصداقة والآية من قبيل التشبيه البليغ من تشبيه الإيمان بالأب في كونه سبباً للحياة كالأب [فأصلحوا بين أخويكم] و تخصيص الاثنين بالذكر لإثبات لزوم الإصلاح فيما فوق ذلك بطريق الأولويّة لتضاعف الفساد فيه .

[واتّقوا الله] في رعاية الحقوق والأوامر [لعلّكم ترحمون] راجين أن ترحموا على تقواكم أو لكي ترحموا و عن سالم عن أبيه أنّ رسول الله قال : المؤمن أخو المؤمن لا يظلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرج عن مسلم كربة فرّج الله عنه كربة من كروب يوم القيامة ومن سرّ مسلماً يسرّه الله يوم القيامة أورده البخاريّ و مسلم في صحيحيهما .

وفي وصيّة رسول الله صلى الله عليه وآله لعليّ بن أبي طالب أمير المؤمنين عليه السلام : يا عليّ سر ميلاً عد مريضاً وسر ميلين شيّع جنازة سر ثلاثة أميال أجب دعوة سر أربعة أميال زر أخاً في الله ، سر خمسة أميال أجب دعوة الملهوف ، سر ستّة أميال انصر المظلوم و عليك بالاستغفار .

قوله تعالى: يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيراً منهن ولا تلمزوا انفسكم ولا تنابزوا بالالقاب بئس الاسم الفسوق بعد الايمان ومن لم يتب فاولئك هم الظالمون (١١) يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ان بعض الظن اثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب احدكم ان يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله ان الله تواب رحيم (١٢) يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عندالله اتقاكم ان الله عليم خبير (١٣) قالت الاعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الايمان في قلوبكم وان تطيعوا الله و رسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً ان الله غفور رحيم (١٤) .

قوله : [يا أيّها الّذين] الآية قال ابن عبّاس : نزلت الآية في ثابت بن قيس بن

شماس كان في أُذنه وقر فكان إذا أتى مجلس رسول الله وقد سبقوه بالمجلس وسّعوا له حتّى يجلس في جنبه ﷺ ليسمع ما يقول فأقبل ذات يوم وقد فاتته ركعة عن صلاة الفجر فلمّا انصرف النبيّ أخذ أصحابه مجالسهم وضاق كلّ رجل بمجلسه فلا يكاد يوسّع أحد لأحد فكان الرجل إذا جاء لا يجد مجلساً فيقوم على رجليه فلمّا فرغ ثابت من الصلاة أقبل نحو رسول الله يتخطّى رقاب الناس و هو يقول : تفسّحوا تفسّحوا فجعلوا يتفسّحون حتّى انتهى إلى رسول الله بينه وبينه رجل فقال له : تفسّح فلم يفصل الرجل فقال ثابت : من هذا فقال له الرجل : أنا فلان فقال : بل أنت ابن فلانة يريد اُمّاً له كان يعيّر بها في الجاهليّة فخجل الرجل ونكس رأسه فنزلت الآية .

وروي أنّ قوله : [ولا نساء من نساء] نزل في نساء النبيّ عيّرن أمّ سلمة بالقصر أو أنّ عائشة قالت : إنّ اُمّ سلمة جميلة لولا أنّها قصيرة .

وقيل : إن الآية نزلت في عكرمة بن أبي جهل حين قدم المدينة مسلماً بعد فتح مكّة فكان المسلمون إذا رأوه قالوا : هذا ابن فرعون هذه الاُمّة فشكا ذلك للنبيّ فقال ﷺ : لا تؤذوا الأحياء بسبب الأموات فنزلت الآية ، ثمّ صارت الآية عامّة في الرجال والنساء فلا يجوز لأحد أن يسخر من صاحبه أو من أحد من خلق الله . وعن ابن مسعود: إنّي لأخشى لو سخرت من كلب أن اُحوّل كلباً وذلك لأنّ المؤمن ينبغي أن ينظر إلى الخالق فإنّه ضيّعه لا إلى المخلوق . قيل للقمان : ما أقبح وجهك ؟ فقال : تعيب بهذا على النقش أو على النقّاش ؟

وقيل : في قوله : « ولا نساء من نساء » نزل في نساء النبيّ سخرن من اُمّ سلمة وكانت لابسة ثوب أبيض وسدلت طرفه خلفها فكانت تجرّه فقالت عايشة لحفصة : انظري ماذا تجرّ خلفها كأنّه لسان كلب فهذا كانت سخر منها .

[عسى أن يكنّ خيراً منهنّ] أي يمكن أن تكون المطعونة بالعيب والسخريّة خيراً من العائبة عند الله [ولا تلمزوا أنفسكم] أي لا يعيب بعضكم بعضاً لأنّ المؤمنين كنفس واحدة . و قيل : اللّمز العيب في المشهد والهمز العيب في المغيب أو اللمز يكون باللّسان وبالعين وبالإشارة والهمز لا يكون إلّا باللّسان . وقيل : معنى «ولا تلمزوا أنفسكم»

أي لا يلعن بعضكم بعضاً ولا تنابزوا بالألقاب ، والمراد من اللقب لقب إذا دعي به الإنسان يكرهه، أمّا إذا لا يكرهه مثل الفقيه فلا بأس . وقيل : هو قول التعيّر مثل أن يعمل إنسان شيئاً من القبيح ثمّ يتوب منه فيعيّر بما سلف منه عن ابن عبّاس .

وروي أنّ صفيّة بنت حيّ بن أخطب جاءت إلى النبيّ تبكي فقال ﷺ : ماوراك؟ فقالت : إنّ عائشة تعيّرني و تقول : يهوديّة بنت يهوديّين فقال ﷺ : هلاّ قلت : أبي هارون وعمّي موسى وزوجي محمّد ؟ فنزلت الآية عن ابن عبّاس .

وبالجملة النبز القذف باللقب والحاصل أنّه لا تلقّبوا ولا يدعو بعضكم بعضاً بألقاب قبيحة [بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان] أي بئس الاسم اسم الفسوق بأن يقول له : يا يهوديّ مثلاً وقد آمن ، أو المعنى بئس الشيء اكتساب اسم الفسوق لنسبة العيب إلى المؤمنين .

قال صاحب روح البيان : الاسم في الآية ليس ما يقابل اللّقب والكنية ولا مقابل الفعل والحرف بل بمعنى الذكر المرتفع لأنّه من السموّ والمعنى في الآية بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا بالفسوق بعد دخولهم في الإيمان .

و قيل : المعنى بئس الاسم اسم يخرجهم عن الإيمان ويدخلهم في الفسوق مع أنّهم دخلوا في الإيمان و الطّاعة و هذا المعنى يطابق ما ذكرنا في نزول الآية في حقّ صفيّة .

[ومن لم يتب] من التنابز والمعاصي ويرجع إلى طاعة الله [فأُولئك هم الظالمون] نفوسهم بفعل ما يستحقّون به العقاب وفي الآية دلالة على أنّ الرجل بترك التوبة يدخل مدخل الظلمة .

[يا أيّها الّذين امنوا اجتنبوا كثيراً من الظنّ] قيل : هو أن يظنّ بأهل الخير سوءاً فأمّا أهل السوء والفسق فلنا أن نظنّ بهم مثل ماظهر منهم و قيل : إذا ظنّ بأخيه المسلم سوءاً لابأس به ما لم يتكلّم به فإن تكلّم بذلك الظنّ وأبراه أثم وهو قوله : [إنّ بعض الظنّ إثم] يعني ما أعلنه ممّا ظنّ بأخيه و هذا القول عن المقاتلين يعني مقاتل بن حسّان ومقاتل بن سليمان .وقيل : إنّما قال تعالى : « كثيراً من الظنّ » لأنّ من جملته ما

يجب العمل به ولايجوز مخالفته وإنّما يكون إثماً إذا عمل بظنّه وله طريق إلى العلم بدلاً منه فهذا ظنّ محرّم لايجوز فعله وأمّا ما لا سبيل إلى دفعه بالعلم بدلاً منه فليس بإثم و معناه يجب على المؤمن أن يحسن الظنّ ولا يسيئه في شيء يجد له تأويلاً جميلاً و إن كان ظاهره قبيحاً [ولاتجسّسوا] أي لاتتبّعوا عثرات المؤمنين قال أبوعبيدة: التجسّس والتحسّس واحد في المعنى وقرىء في الشواذّ بالمهملة قال الأخفش : و ليس يبعد أحدهما عن الآخر إلاّ أنّ بالجيم عمّا يكتم ومنه الجاسوس وبالحاء البحث عمّا تعرفه و حاصل المعنى أنّه لا تتّبعوا عيوب المسلمين العيوب الّتي هم ستروها ولاتبحثوا عمّا خفي .

[ولايغتب بعضكم بعضاً] والغيبة ذكر العيب بظهر القلب وفي الحديث إذا ذكرت الرجل بما فيه ممّا يكرهه فقد اغتبته وإذا ذكرته بما ليس فيه فقد بهتّه وعن جابر قال : قال رسول الله : إيّاكم والغيبة فإنّ الغيبة أشدّ من الزنا ثمّ قال : إنّ الرجل يزني ثمّ يتوب فيتوب الله عليه وإنّ صاحب الغيبة لايغفر له حتّى يغفر له صاحبه .

ونزلت الآية في رجلين من أصحاب النبيّ ﷺ اغتابا رفيقهما وهو سلمان الفارسيّ بعثاه إلى رسول الله ليأتي لهما بطعام فبعثه ﷺ إلى اُسامة بن زيد وكان خازن رسول الله على رحله فقال اُسامة : ماعندي شيء فعاد إليهما فقالا : بخل اُسامة وقالا لسلمان : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها ثمّ انطلقا يتجسّسان عند اُسامة ماأمر لهما به رسول الله فقال ﷺ : مالي أرى خضرة اللحم في أفواهكما ـ و العرب تسمّي الأسود أخضر و الأخضر أسود وخضرة اللحم من قبيل الأوّل ـ قالا : يا رسول الله ماتنا ولنا يومنا هذا لحماً قال : ظللتم تأكلون لحم سلمان واُسامة فنزلت الآية .

وعن أبي قلابة قال : إن عمر بن الخطّاب : حدّث أنّ أبامحجن الثقفيّ يشرب الخمر في بيته هو و أصحابه فانطلق عمر حتّى دخل عليه فإذا ليس عنده إلّا رجل واحد فقال أبومحجن : يا أميرالمؤمنين إنّ هذا لايحلّ لك قد نهاك الله عن التجسّس فقال عمر : ما يقول هذا ؟ قال زيد بن ثابت و عبد الله بن الأرقم : صدق يا أمير المؤمنين فخرج عمر و تركه .

و خرج عمر بن الخطّاب أيضاً ومعه عبد الرحمن بن عوف فتبيّنت لهما نار فأتيا و

استأذن ففتح لهما الباب فدخلا وإذا رجل وامرأة تغنّي وعلى يد الرجل قدح فقال عمر : من هذه منك؟ قال : امرأتي قال عمر : وما في هذا القدح ؟ قال : ماء ، فقال : للمرأة ما الّذي تغنّين ؟ قالت: أقول :

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه * و أرّقني ألّا حبيب ألاعبه
فوالله لولا خشية الله و التقى * لزعزع من هذا السرير جوانبه
ولكنّ عقلي و الحياء يكفّني * وأُكرم بعلي أن تنال مراكبه

ثمّ قال الرجل : ما بهذا أُمرنا يا أمير المؤمنين قال الله : ولا تجسّسوا ، فقال عمر: صدقت فانصرف .

[أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً] و التأويل أنّ ذكرك بالسوء أخاك المؤمن إذا كان غائبا بمنزلة أن تأكل لحمه وهو ميّت لا يحسّ بذلك [فكرهتموه] فكما كرهتم ذلك فاجتنبوا ذكره بالسوء غائباً والغيبة بكسر الغين اسم من الاغتياب وفتح الغين غلط إذ هو بالفتح مصدر بمعنى الغيبوبة .

وحاصل المعنى لا يذكر بعضكم بعضاً بالسوء في غيابه وخلفه والاغتياب هو أن يتكلّم إنسان خلف إنسان أمراً مستوراً يسوؤه ويكون فيه ويكون عيباً والتشبيه بأكل لحم الميّت لأنّ لحم الميّت هو المتناهي في كراهة النفوس عن أكله والطباع و كذلك كما أن الميّت لا يؤلمه قطع لحمه وأكله كذلك المغتاب لا اطّلاع له بمن اغتابه لكن إذا سمعه و اطّلع عليه تألّم قلبه جدّاً من قرض عرضه كما يتألّم من قرض لحمه بل الغالب عنده قرض لحمه أهون من قرض عرضه. وفي قوله : «فكرهتموه» الفاء لترتيب ما بعدها على ما قبلها من التمثيل فكأن يقول: و حيث كان الأمر كذلك فقد كرهتموه و تحقّق كراهتكم لأكل لحم الميّت فكذلك فليتحقّق نظيره الّذي هو الاغتياب .

[واتّقوا الله] معاصيه [إنّ الله توّاب رحيم] قابل التوبة رحيم بالمؤمنين .

[يا أيّها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأُنثى] زجر الله سبحانه عن التفاخر بالأنساب نزلت الآية حين أمر النبيّ ﷺ بلالاً ليؤذّن بعد فتح مكّة فعلا ظهر الكعبة و أذّن فقال عتاب بن أسيد و كان من الطلقاء : الحمد لله الّذي قبض أبي حتّى لم ير هذا اليوم

وقال الحارث بن هشام : أما وجد رسول الله سوى هذا الغراب ؟ يعنون بلالاً .

وقيل : الآية نزلت في أبي هند حين أمر رسول الله بني بياضة أن يزوّجوه امرأة منهم فقالوا : يا رسول الله نتزوّج بناتنا موالينا ؟ فنزلت وفي الآية إشارة إلى أنّ الكفاءة بالإيمان والتقوى خلقناكم جميعاً من آدم وحوّاء .

[و جعلناكم شعوباً و قبائل] و الشعب بفتح العين الجمع العظيم المنتسبون إلى أهل واحد وهو يجمع القبائل و القبيلة تجمع العمائر و العمارة بالكسر تجمع البطون والبطون تجمع الأفخاذ و الفخذ تجمع الفصايل والفصيلة تجمع العشائر وليس بعد العشيرة من يوصف به مثالها فخزيمة شعب و كنانة قبيلة وقريش عمارة وقصيّ بطن وهاشم والعبّاس فصيلة وسمّيت شعوباً لأنّ القبائل تنشعب منها كتشعّب أغصان الشجرة وسمّيت القبائل لأنّها يقبل بعضها على بعض من حيث كونها من أب واحد وقيل : الشعوب بطون العجم و القبائل بطون العرب و الأسباط من بني إسرائيل والشعوب من قحطان و القبائل من عدنان .

[لتعارفوا] أي جعلناكم كذلك لتتعارفوا ، و حذفت إحدى التاءين أي ليعرف بعضكم بعضاً بنسبه وأبيه وقومه ولولا ذلك لفسدت المعاملات وخربت الدنيا و يتعزّى أحد إلى غير آبائه وقد جعلنا خلقتكم كذلك لهذه المصلحة لا للتفاخر بالآباء و القبائل و بالتفاوت والتفاضل ولولم يكن هذا قرشيّاً و ذاك تميميّاً لم يتميّز بينهما و ذلك فيه فساد عظيم .

[إنّ أكرمكم عندالله أتقاكم] فالأكرم عنده سبحانه هو الأتقى وإن كان عبداً حبشيّاً مثل بلال ألا ترى إلى قوله ﷺ : أنا سيّد ولد آدم ولا فخر أي ليس الفخر لي بالسيادة بل بالعبوديّة فإنّها شرف أيّ شرف و كفى شرفاً تقديم العبد على الرسول في التشهّد [إنّ الله عليم] بكم وبأعمالكم [خبير] ببواطن أحوالكم .

ولمّا أبطل سبحانه اعتبار النسب مع أنّه ثابت مستمرّ غير مقدور التحصيل فبطلان اعتبار غيره كالمال والجاه بطريق أولى فغير المتّقي والمؤمن لا قدر له وإن كان قرشيّ النسب وقارون النشب إنّ أكثركم عملاً وأتقاكم لمعاصيه أكرم عند الله .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال: يقول الله سبحانه يوم القيامة: أمرتكم فضيّعتم ماعهدت إليكم فيه ورفعتم أنسابكم فاليوم أرفع نسبي وأضع أنسابكم أين المتّقون؟ إنّ أكرمكم عند الله أتقاكم.

أبو بكر البيهقيّ بالإسناد عن عباية بن ربعيّ عن ابن عبّاس قال: قال رسول الله: إنّ الله عزّ وجلّ جعل الخلق قسمين فجعلني في خيرهم قسماً وذلك قوله. وأصحاب اليمين والشمال فأنا من أصحاب اليمين وأنا خير أصحاب اليمين ثمّ جعل القسمين أثلاثاً فجعلني خيرها ثلاثاً وذلك قوله: «وأصحاب الميمنة، وأصحاب المشأمة، والسابقون السابقون» فأنا من السابقين وأنا خير السابقين ثمّ جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة وذلك قوله: «وجعلناكم شعوباً وقبائل» الآية فإنّي أتقى ولد آدم ولا فخر وأكرمهم على الله ثمّ جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً وذلك قوله عزّ وجلّ: «إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً» وأهل بيتي مطهّرون من الذنوب.

[قالت الأعراب آمنّا] الأعراب أهل البادية نزلت الآية في نفر من بني أسد قدموا المدينة في سنة حدب فأظهروا الشهادتين وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وآله: أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها وأتيناك بالعيال والذراريّ ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان و ويظهرون الإيمان لأخذ الصدقة ولم يكونوا مؤمنين في السرّ فأمره الله أن يخبرهم بذلك ليكون آية ومعجزة له صلى الله عليه وآله.

[قل] ردّاً لهم: [لم تؤمنوا] إذ الإيمان هو التصديق بالقلب ولم يحصل لكم ذلك [ولكن قولوا أسلمنا] أي دخلنا في السلم مثل أصبح وأمسى أي قولوا: دخلنا في السلم والصلح مخافة أنفسنا أو الطمع [ولمّا يدخل الإيمان في قلوبكم] أي قلوبكم في حال غير موطّأة للإيمان، وكلمة ما في «ولمّا» فيها معنى التوقّع مشعر بأنّ هؤلاء يؤمنون فيما بعد.

[وإن تطيعوا الله ورسوله] بالإخلاص وترك النفاق [لايلتكم من أعمالكم شيئاً] أي لاينقصكم من أعمالكم وأجورها وفي مادّة «لا يلتكم» أقوال: يقال: من ألته السلطان حقّه أشدّ الألت وهي لغة غطفان وأهل الحجاز وبنو أسد يقولون: من لاته ليتاً وقرىء

بالقرآن في اللّغتين لا يلتكم ولا يألتكم هكذا قال الزمخشري : قال رؤبة :

وليلة ذات ندى سربت * ولم يلتني عن هواها ليت

ألا تني عن حاجتي أي صرفني عنها وقرأ لا يألتكم في الآية وحجّته قوله تعالى : « وما ألتناهم » ومن قرأ يلتكم جعل مادّة الكلمة من لات يليت .

[إنّ الله غفور] لما فرط من المطيعين [رحيم] بالتفضّل عليهم .

قوله تعالى : انما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وانفسهم في سبيل الله اولئك هم الصادقون (١٥) قل اتعلمون الله بدينكم والله يعلم ما في السموات و ما في الارض والله بكل شيء عليم (١٦) يمنون عليك أن اسلموا قل لاتمنوا على اسلامكم بل الله يمن عليكم ان هداكم للايمان ان كنتم صادقين (١٧) ان الله يعلم غيب السموات والارض والله بصير بما يعلمون(١٨) .

أي إنّ المؤمنين الّذين ثبتوا على الإيمان ولم يقع في نفوسهم شكّ و ترديد فيما آمنوا به و فيه إشارة إلى أنّ فيهم مايوجب نفي الإيمان عنهم و هو الارتياب مطاوع راب إذا أوقعه المريب في الشكّ في الخبر مع التهمة للمخبر فظهر الفرق بهذا بين الريب والشكّ فإنّ الشكّ تردّد بين نقيضين لاتهمة فيه ، وفي كلمة « ثمّ » إشعار بأنّ اشتراط عدم الارتياب في اعتبار الإيمان ليس في حال إنشائه فقط بل و فيما يستقبل كما في قوله : « ثمّ استقاموا » .

قوله : [و جاهدوا بأموالهم و أنفسهم في سبيل الله] في طاعتهم على تكثير فنونها من العبادات البدنيّة المحضة و الماليّة والمشتملة عليهما معاً كالحجّ والجهاد والأمر بالمعروف [أولئك] الموصوفون بهذه الأوصاف الجميلة [هم الصادقون] في دعوى الإيمان لاغيرهم و في البيان قصر أفراد و تكذيب لأعراب بني أسد ولمّا نزلت الآيتان أتوا رسول الله يحلفون أنّهم مؤمنون صادقون في دعواهم الإيمان فأنزل الله تعالى .

[قل] يامحمّد : [أتعلّمون الله بدينكم] أي أتخبرون الله بالدين الّذي أنتم عليه وهو عالم بذلك وهو استفهام توبيخ أي كيف تعلّمون الله بدينكم؟ [والله يعلم مافي السماوات وما

في الأرض والله بكلّ شيء عليم] لأنّه العالم لنفسه ولايحتاج إلى علم يعلّم به كما أنّه إذا كان قديماً موجوداً في الأزل لنفسه استغنى عن موجد أوجده .

قوله تعالى : [يمنّون عليك أن أسلموا] يجعلون المنّة عليك بإسلامهم [قل] يامحمّد : [لاتمنّوا عليّ إسلامكم بل الله يمنّ عليكم أن هداكم للإيمان] وأرشدكم إليه بأن أزاح العلل و نصب لكم الأدلّة عليه و وفّقكم له [إن كنتم صادقين] في ادّعائكم الإيمان .

[إنّ الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما يعملون] من طاعة و معصية وإيمان و كفر. تمّت السورة .

قال النبيّ رسول الله ﷺ : فضّلني ربّي بالمفصّل من القرآن والمفصّل ماهو بعد الحواميم إلى آخر القرآن وسمّيت مفصّلاً لكثرة المفصولات فيها بسطر « بسم الله الرحمن الرحيم » لأنّها سور قصار يقرب فصل كلّ سورة من الاُخرى فكثر التفصيل فيها .

و أوّل من نقل الخطّ الكوفيّ إلى الخطّ المعروف بالنسخ عليّ بن مقلة وزير المقتدر بالله والقادر بالله العبّاسيّ ثمّ جاء ابن البوّاب وزاد في تحسين الخطّ النسخ وهذّب طريقة ابن مقلة و كساها بهجةً وحسناً ثمّ ياقوت المستعصميّ المعروف وختم فنّ الخطّ و أكمله بحيث لامزيد عليه إلى الآن .

قيل : أوّل من تكلّم بالعربيّة أوخطّ بالعربيّة يعرب بن قحطان
وكان يتكلّم بالعربيّة والسريانيّة .و قيل :
إسماعيل بن إبراهيم الخليل

سورة ق

السورة مكّية غير قوله : « و لقد خلقنا السماوات و الأرض » إلى قوله : « و قبل الغروب» . من قرأ سورة ق هوّن الله سكرات الموت .

عن أبي حمزة الثماليّ عن أبي جعفر عليه السلام قال : ومن أدمن في فرائضه ونوافله وسّع الله رزقه وأعطاه كتابه بيمينه وحاسبه حساباً يسيراً . لمّا ختم الله تلك السورة بذكر الإيمان وشرائطه للعبيد افتتح هذه السورة بذكر مايجب الإيمان به من القرآن و أدلّة التوحيد .

بسم الله الرحمن الرحيم

ق والقرآن المجيد(١) بل عجبوا ان جاءهم منذر منهم فقال الكافرون هذا شيء عجيب(٢) ءاذامتنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد(٣) قد علمنا ما تنقص الارض منهم و عندنا كتاب حفيظ (٤) بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في امر مريج (٥).

[ق] أي هذه السورة مسمّاة بق ، قال ابن عبّاس : هو اسم من أسماء الله . وقال محمّد بن كعب : هو مفتاح بعض أسماء الله مثل القادر والقدير والقديم والقاهر و القريب والقابض والقاضي والقدّوس والقيّوم فيكون التأويل : أنا القادر . وقيل : ق اسم من أسماء القرآن .

وقيل : قسم أقسم الله به أي بحقّ القائم .

وقيل : معناه قل يا محمّد : والقرآن المجيد .

و قيل : المعنى قف يا محمّد على أداء الرسالة و عند أمرنا و نهينا والعرب تقتصر من كلمة على حرف مثل قول الشاعر : « قلت لها : قفي ، فقالت : ق » أي وقفت .

وقيل : معناه قضي الأمر وما هو كائن .

و قيل : المراد بحقّ القلم الّذي يرقم القرآن في اللوح المحفوظ و في الصفائح. قال ابن عطا : أقسم سبحانه بقوّة قلب حبيبه حيث تحمّل الخطاب ولم يؤثّر ذلك فيه لعلوّ مقامه بخلاف موسى فإنّه خرّ صعقاً في الطور من سطوة تجلّي النور .

وقيل : ق جبل محيط بالأرض كإحاطة العين بسوادها وهو أعظم جبال الدنيا خلقه الله من زمرّدة خضراء منه خضرة السماء والسماء ملتزقة به فليست مدينة من المدائن و قرية من القرى إلّا وفيها عرق من عروقه وملك موكّل به واضع يده على تلك العروق فإذا أراد بقوم هلاكاً أوحى إلى ذلك الملك فحرّك عرقاً فخسف بأهلها . قال اُبيّ بن كعب الزلزلة لاتخرج إلّا من ثلاثة إمّا لنظر الله بالهيبة إلى الأرض و إمّا لكثرة الذنوب من بني آدم

و إمّا لتحريك الحوت الّذي عليه الأرضون السبع تأديباً و تنبيهاً للخلق . قيل : قال ذوالقرنين : ياقاف أخبرني بشيء من عظمةالله فقال : إنّ شأن ربّنا لعظيم و إنّ من ورائي مسيرة خمسمائة عام من جبال ثلج يحطم بعضها بعضاً لولا ذلك لاحترقت من نار جهنّم . قيل : لمّا خلق الأرض على الماء تحرّكت و مالت فخلق الله من الأبخرة الغليظة الصاعدة من الأرض بسبب هيجانها الجبال حتّى تسكن فسكن ميل الأرض و ذهبت تلك الحركة و طوّق سبحانه الأرض بجبل محيط بها وهومن صخرة خضراء وطوّق الجبل بحيّة عظيمة رأسها بذنبها .

و في الخبر إنّ لقاف في السماء سبع شعب لكلّ سماء شعبة منها فالسماوات السبع مقبّبة على شعبه و خلق الله ستّة جبال من وراء قاف و قاف سابعها و هي موتودة بأطراف الأرض على الصخرة وقاف وراءها على الهواء و كذلك بحر محيط بجبل قاف وحوله جبل قاف آخر والسماء الثانية مقبّبة عليهو كذلك من وراء ذلك بحار محدقات بجبل قاف على عدد السماوات السبع وإنّ كلّ سماء منها مقبّبة عليه وإنّ في هذه البحار و في سواحلها و بينها المحدقة بها ملائكة لا يحصى عددهم إلّاالله و يعبدون الله حقّ عبادته وما وراء جبل قاف فهو من حكم الآخرة لا من حكم الدنيا .

قال بعض المفسّرين : إنّ لله سبحانه من وراء جبل قاف أرضاً بيضاء كالفضّة المجلاة طولها مسيرة أربعين يوماً للشمس و يسير الشمس في طرفة عين مسافة ثلاثمائة وستّون ضعف وجه الأرض و في كلّ هذه الأمكنة المذكورة ملائكة شاخصون إلى العرش لا يعرف الملك منهم من يكون إلى جانبه من الملك من هيبةالله تعالى ولا يعرفون ما آدم وما إبليس هكذا حالهم إلى يوم القيامة و يوم القيامه تبدّل أرضنا هذه بتلك الأرض . روي أنّ الله تعالى خلق ثمانية آلاف عالم الدنيا منها عالم واحد وإنّ الله تعالى خلق في الأرض ألف اُمّة سوى الجنّ والإنس ستّمائة في البحر وأربعمائة في البرّ و كلّ مستفيض منه تعالى جلّ جلاله .

رجعنا إلى التفسير ؛ جواب القسم في قوله : « ق والقرآن المجيد » محذوف و يدلّ عليه « أئذا متنا و كنّا تراباً » وتقديره : إنّكم مبعوثون فقالوا : أنبعث إذا متنا و صرنا

تراباً وقيل: جواب القسم محذوف لكن تقديره والقرآن الكريم المعظّم الّذي هو ذو الشرف الواسع إنّ محمداً رسول الله ويدلّ على هذا المحذوف قوله :

[بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم] وحسبوا أنّه لايوحى إلّا إلى ملك ويعجبون أن جاءهم من جنسهم منذر و حاصل المعنى أنّه أقسم بجبل قاف الّذي به بقاء دنياكم وبالقرآن المجيد الّذي به بقاء دينكم أنّ فراعنة قريش ما كذّبوك ببرهان بل عجبوا لهذا الأمر أنّك منهم وأنّهم يحيون بعد البعث .

[فقال الكافرون هذا شيء عجيب] و الحالة أنّ إنكارهم لنبوّته ﷺ عجيب لأنّهم من فرط جهلهم عجبوا أن يكون الرسول بشراً وأوجبوا أن يكون الإله حجراً .

[أئذا متنا و كنّا تراباً] أي أحين نموت فتفارق أرواحنا أشباحنا و نصير تراباً لافرق بيننا وبين تراب الأرض نرجع ونبعث كما ينطق به النذير و الهمزة للإنكار أي لانرجع [ذلك] إشارة إلى محلّ النزاع أي هذا الخبر [رجع] وردّ [بعيد] جدّاً عن الأوهام والصدق وغير كائن .

[قد علمنا ماتنقص الأرض منهم] ردّ لاستبعادهم أي نحن على رجعهم في غاية القدرة فإنّ من عمّ علمه إلى حيث علم ماتنقص الأرض من أجساد الموتى و تأكل من لحومهم وعظامهم كيف يستبعد رجعه إيّاهم أحياء وعبّر بمن لأنّ الأرض لاتأكل على ماقيل عجب الذنب فإنّه كالبذر لأجسام بني آدم و في الحديث كلّ ابن آدم يبلى إلّا عجب الذنب فمنه خلق وفيه تركب و العجب بفتح العين و سكون الجيم أصل الذنب و مؤخّر كلّ شيء وهو ههنا عظم لاجوف له قدر ذرّة أوخردلة يبقى من البدن ولايبلى .

وقال الرقرائيّ : المراد من العجب جوهر فرد وجزء واحد وهوصورة هيولى النفس الحيوانيّة القابلة لأجزاء العناصر فإذا أراد الله الإعادة ركّب على ذلك العظم سائر البدن وأحياه غير أبدان الأنبياء و الصدّيقين و الشهداء فإنّها لاتبلى على مانصّ به الأخبار الصحيحة وحفظ ما تنقص الأرض إنّما هو ليعود بعينه يوم القيامه ولوكانت غيرها فكيف كان تشهد الجلود والأيدي و الأرجل على الكفرة ومن قال غيرها فقد خالف كتاب الله والحديث .

قال أهل الكلام : إنّ الله يجمع الأجزاء الأصليّة الّتي حصل وجود الإنسان معها حال التولّد وهي العناصر الأربعة ويعيد روحه إليه سواء سمّي ذلك الجمع إعادة المعدوم بعينه أولم يسمّ .

فإن قيل : إنّ البدن الثاني ليس هو الأوّل لما ورد في الحديث من أنّ أهل الجنّة جرد مرد وإنّ الجهنّمي ضرسه مثل جبل اُحد فيلزم التناسخ وهو تعلّق الروح ببدن إنسان آخر وهو باطل .

قلنا : إنّما يلزم إن لم يكن البدن الثاني مخلوقاً من الأجزاء الأصليّة للبدن الأوّل فلا يلزم التناسخ جدّاً والتغاير في الوصف لا يوجب التغاير في الذات كما أنّ الخضر عليه السلام يصير شابّاً على كلّ مائة وعشرين سنة مع أنّ البدن هو البدن الأوّل قال ابن عبّاس : إنّ إبليس إذا مرّت عليه الدهور وحصل له الهرم عاد إلى ثلاثين سنة .

قوله تعالى : [وعندنا كتاب حفيظ] أي حافظ لعددهم وأسمائهم وأشخاصهم وهو اللوح المحفوظ لا يشذّ عنه ومحفوظ من النسيان و الدروس .

ثمّ أخبر سبحانه بتكذيبهم فقال : [بل كذّبوا بالحقّ] وهو القرآن أو الرسول [فهم في أمر مريج] أي مختلط لأنّهم كانوا يقولون مجنون وتارة قالوا شاعر وتحيّروا في أمره لجهلهم ولم يثبتوا على أمر واحد و كذلك في القرآن تارة قالوا إنّه سحر و رجز و مرّة قالوا مفترى قال الحسن : ماترك قوم الحقّ إلّا مرج أمرهم و اختلط .

قوله تعالى : افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها و زيناها و مالها من فروج (٦) والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من كل زوج بهيج (٧) تبصرة وذكرى لكل عبد منيب (٨) و نزلنا من السماء ماء مباركا فانبتنا به جنات وحب الحصيد (٩) والنخل باسقات لها طلع نضيد (١٠) رزقاً للعباد واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج (١١) .

ثمّ أقام سبحانه الدلائل على كونه قادراً على البعث أي أفلم يتفكّروا في بناء السماء مع عظمها [كيف بنيناها] بغير علاقة ولا عماد [فوقهم] بحيث يشاهدونها متى ما نظروا [و زيّنّاها] بما فيها من الكواكب على نظام بديع [و مالها من فروج] و شقوق و

اختلاف وصدوع حتّى يختلف النظم .

والفرجة بضمّ الفاء معناها الشقّ و الصدع بالفتح التفصّي من الهمّ قال الشاعر :

ربّما تكره النفوس من الأ ❊ مر له فرجة كحلّ العقال

واستعير الفرج للشعر وفي عهد الحجّاج أتى ولّيتك الفرجين يعني الخراسان و سيستان والمراد موضع المخافة و المراد من قوله : « مالها من فروج » سلامتها من العيب لملاستها وهذا لاينافي وجود الأبواب والمصاعد وسمّي القباء المشقوق فرجاً .

[والأرض مددناها] أبسطناها و فرشناها على وجه الماء مسيرة خمسمائة عام من الكعبة وهذا دليل على أنّ الأرض مبسوطة وليست على شكل الكرة ولو أنّه يمكن لأنّه لامنافاة بين بساطتها و كرويّتها لسعتها .

[وألقينا فيها رواسي] أي جبالاً راسيات في الأرض ثوابت إذ لولم تكن لكانت مضطربة مائلة إلى الجهات المختلفة كماكانت قبلُ إذروي أنّ الله لمّا خلق الأرض جعلت تمور فقالت الملائكة : ماهي بمقرّ أحد على ظهرها فأصبحت وقد أُرسيت بالجبال لم تدر الملائكة ممّ خلقت والتعبير عن الجبال بالإرساء للإيذان بأنّ إلقاءها لإثبات الأرض بها و التأويل إلى رجال الله فإنّهم أوتاد الأرض والعمد المعنونة للسماء فإذا انقرضوا ولم يوجد في الأرض من يقول : اللهالله فسدت السماوات والأرض .

[و أنبتنا فيها من كلّ زوج بهيج] أي من كلّ صنف من النباتات ماهو حسن طيّب من الثمار والأشجار والبهجة حسن اللون وظهور السرور فيه .

[تبصرة وذكرى] علّتان للأفعال المذكورة معنى أي فعلناما فعلنا تبصيراً وتذكيراً [لكلّ عبد منيب] راجع إلى ربّه بالنظر و الاستدلال في بدائع صنائعه و التبصرة معرفة منن الله على العبد و الذكرى عدّها على نفسه في كلّ حال ليشتغل بالشكر ولا يذهل عنه .

[ونزّلنا من السماء ماء مباركا] أي كثير البركة والدوام والمنافع لحياة الأناسيّ والحيوان وغيرها [فأنبتنا به] بذلك الماء [جنّات] كثيرة أي أشجار ذوات أثمار فذكر المحلّ وأراد الحالّ [وحبّ الحصيد] و الحصيد المحصود بحذف الموصول نحو مسجد

الجامع لئلّا يلزم إضافة الشيء إلى نفسه والمعنى وحبّ الزرع الّذي شأنه أن يحصد من البرّ والشعير وأمثالهما ممّا يقتات به .

[والنخل باسقات لها طلع نضيد] أي طوالاً ومنه سبق فلان على أصحابه علاهم و يجوز أن يكون معناه حوامل من قولهم أبسقت الشاة إذا حملت فيكون من باب أفعل فهو فاعل « لها طلع نضيد » أي منضود بعضه فوق بعض و الطلع ما يطلع من النخلة وهو الكمّ قبل أن ينشقّ وما في الطلع شيء أبيض يشبهون الشعراء الأسنان به و رايحته كالمنيّ وقشر كلّ ثمرة وغلافه يسمّى الكفرّي بضمّ الكاف والفاء وتشديد الراء [رزقاً للعباد] أي لرزقهم .

[وأحيينا به] بذلك الماء [بلدة ميتاً] وتذكير ميتاً باعتبار البلد والمكان أي أرضاً جدبة لانماء فيها [كذلك الخروج] أي مثل تلك الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور وحاصل المعنى كما أنزلنا من السماء الماء فأخرجنا به النبات من الأرض وأحيينا البلدة الميّت رزقاً للعباد يكون خروجكم .

العيّاشي عن الصادق عليه السلام قال : أترى الله أعطى من أعطى من كرامته عليه ومنع من منع من هوان به عليه لا ولكنّ المال مال الله يضعه عند الرجل ودايع وجوّز لهم أن يأكلوا قصداً ويشربوا قصداً ويلبسوا قصداً وينكحوا قصداً ويعودوا بما سوى ذلك على فقراء المؤمنين ويلمّوا به شعثهم فمن فعل ذلك كان ما يأكل حلالاً وينكح ويركب حلالا ومن عدا ذلك كان عليه حراماً ثمّ تلا « ولا تسرفوا إنّ الله لا يحبّ المسرفين » أترى الله ائتمن رجلاً على مال خوّل له أن يشتري فرساً بعشرة آلاف و يجزيه فرس بمائة درهم ويشتري جارية بألف دينار ويجزيه جارية بعشرين ديناراً « ولا تسرفوا إنّ الله لا يحبّ المسرفين » .

قوله تعالى: كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود (١٢) وعاد وفرعون واخوان لوط (١٣) وأصحاب الايكة وقوم تبع وكل كذب الرسل فحق وعيد (١٤) أفعيينا بالخلق الاول بل هم في لبس من خلق جديد (١٥) ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن اقرب اليه من حبل الوريد (١٦) اذ يتلقى المتلقيان عن اليمين وعن الشمال قعيد (١٧) ما يلفظ من قول الا لديه

رقيب عتيد (١٨) و جاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد (١٩) ونفخ في الصور ذلك يوم الوعيد (٢٠) .

ذكر سبحانه الأمم المكذّبة تسلية للنبيّ ﷺ وتهديداً للكفّار فقال :

[كذّبت قبلهم] أي قبل أهل مكّة [قوم نوح] و كانوا بنو شيث و بنو قابيل [وأصحاب الرسّ] أيضاً كذّبوا .

قيل :كانت الرسّ بئراً بعدن لأمّة من بقايا ثمود و كان لهم ملك عادل حسن السيرة يقال له العليس- كزبير- وكانت البئر تسقي المدينة كلّها و باديتها وجميع ما فيها من الدوابّ والغنم والبقر وغير ذلك وكانت لها بكراة كثيرة منصوبة عليها ورجال كثيرون موكّلون بها و حياض كثيرة تملأ للناس وآخر للدوابّ وآخر للغنم والبقر و كذلك ولم يكن لهم ماء غيره فطال عمر الملك فلمّا جاءه الموت طلي جسده بدهن ليبقى صورته ولا تتغيّر و كذلك كانوا يفعلون بالشرفاء .

و بعد أن مات الملك شقّ ذلك عليهم و رأوا أنّ أمرهم قد فسد و ضجّوا بالبكاء واغتنمها الشيطان فدخل في جثّة الملك فكلّمهم بأنّي لم أمت ولكنّي نفيت عنكم حتّى أرى صنيعكم بعدي ففرحوا و أمر لخاصّته أن يضربوا له حجاباً بينه و بينهم و يكلّمهم الشيطان من ورائه كيلا يعرف الموت في صورته فنصبوه صنماً من وراء حجاب لا يأكل ولا يشرب وأخبرهم أنّه لا يموت أبداً وأنّه إله لهم وذلك كلّه تتكلّم به الشيطان على لسانه فصدّق كثير منهم وارتاب بعضهم وكان المؤمن المكذّب منهم أقلّ من المصدّق واتّفقوا على عبادته .

فبعث الله لهم نبيّاً كان الوحي ينزل عليه في النوم دون اليقظة وكان اسمه حنظلة ابن صفوان فأعلمهم أنّ الصورة صنم لا روح له و أنّ الشيطان فيه و أنّ الملك لا يجوز أن يكون شريكاً لله وأوعدهم ونصحهم وحذّرهم سطوة ربّهم فعادوه وآذوه و هو يتعهّدهم بالموعظة والنصيحة حتّى قتلوه وطرحوه في البئر وعند ذلك حلّت لهم النقمة فباتوا شباعاً رواء وأصبحوا والبئر قد غار ماؤها و تعطّل رشاؤها فصاحوا بأجمعهم وضجّت البهائم عطشاً حتّى عمّهم الموت و خلّفهم في أرضهم السباع والثعالب والضباع و تبدّلت جنّاتهم

بالسدر والشوك فلا تسمع فيها إلّا عزيف الجنّ وهو جرس يسمع في المفاوز باللّيل .

وقيل : الرسّ بئر قرب اليمامة أو بئر قرب آذربايجان أو واد نعوذ بالله من سطواته قال الله تعالى : « واتّقوا فتنة لا تصيبنّ الّذين ظلموا خاصّة[1] . »

قوله : [وثمود] أي وقوم ثمود كان نبيّهم صالح وهو ثمود بن عاد وهو الآخرة وعاد الأولى هو عاد الإرم [وعاد] أي قوم عاد وكان نبيّهم هود عليه السلام [وفرعون] وهو فرعون موسى [وإخوان لوط] لاشتراكهم معه في النسب بالمصاهرة وغيرها لا في الدين . قيل : ما من أحد من الأنبياء إلّا ويقوم معه قومه إلّا لوط يقوم وحده [وأصحاب الأيكة] وهم من بعث إليهم شعيب غير أهل مدين وكانوا يسكنون أيكة غيضة تنبت المقل والسدر والأراك [وقوم تبّع] الحميريّ ملك اليمن .

[كلّ كذّب الرسل] أي فيما أرسلوا به من الشرائع أي كلّ هؤلاء كذّبوا رسلهم وردّ جميع الرسل لاتّفاق الرسل على التوحيد والحشر و هؤلاء أشركوا و كذّبوا البعث فكذّبوا جميع الرسل ولو أن يكذّبوا رسولاً واحدا [فحقّ وعيد] أي فوجب عليهم وعيد وهي كلمة العذاب والوعيد يستعمل في الشرّ خاصّة والوعد في الخير والشرّ .

[أفعيينا بالخلق الأوّل] العيّ بالأمر العجز عنه والهمزة للإنكار والمعنى أفعجزنا عن الخلق الأوّل وهو الإبداء والإنشاء أوّل مرّة حتّى يتوهّم عجزنا عن الخلق الثاني وهو الإعادة وما اعتاض لنا خلقة بالأوّل حتّى نعني بإعادتهم بعثهم أي ليس كذلك مثل ما يزعمون [بل هم في لبس من خلق جديد] أي بل هم في ضلال وشكّ من إعادة الخلق جديداً واللبس منع من إدراك المعنى بما هو كالستر له وخلق جديد إشارة إلى النشأة الثانية وقوبل الجديد بالخلق لمّا كان المقصود بالجديد القريب العهد بالقطع من الثوب .

[و لقد خلقنا الإنسان] يعني نوع بني آدم [ونعلم ما توسوس به نفسه] أي ما يحدّث به قلبه ويكنّ في نفسه ولا يظهره لأحد من المخلوقين [ونحن أقرب إليه] بالعلم [من حبل الوريد] وهو عرق يتفرّق في البدن يخالط الإنسان في جميع أعضائه . وقيل : هو عرق الحلق أو هو عرق متعلّق بالقلب أي نحن أقرب إليه من قلبه بمنزلة ذلك العرق

(١) الانفال : ٢٥ .

في قربه للشخص وفي ذلك العرق مجاري الروح .

[إذ يتلقّى المتلقّيان] التلقّي الأخذ و التلقّن بالحفظ والكتابة أي يأخذ الحفيظان الموكّلان بالإنسان ما يتلفّظ به وفي الحديث أن مقعد ملكيك على ثنيّتك ولسانك قلمهما وريقك مدادهما وأنت تجري فيما لا يعنيك لا تستحيي من الله ولا منهما [عن اليمين] هو أشرف الجوارح وفيه القوّة التامّة [وعن الشمال] هو مقابل اليمين أي عن جانب اليمين [قعيد] أي قاعد فحذف الأوّل لدلالة الثاني عليه وقيل: يطلق الفعيل على الواحد و المتعدّد كقوله : « والملائكة بعد ذلك ظهير » .

[ما يلفظ من قول] ما يرى به من فيه من خير أو شرّ والقول أعمّ من الكلمة والكلام [إلّا لديه رقيب] ملك يرقب قوله ويكتبه والخير يكتبه صاحب اليمين والشرّ صاحب الشمال وهو [عتيد] أي مهيّأ لكتابة ما أُمر به و هذا التهيّؤ لكليهما والإفراد حيث لم يقل رقيبان عتيدان مع وقوفهما معاً لما أنّ كلاً منهما رقيب لما فُوّض إليه لا لما فوّض إلى صاحبه .

واختلف فيما يكتبانه فقيل: يكتبان كلّ شيء حتّى أنينه في مرضه . وقيل : إنّما يكتبان ما فيه أجر و وزر و هو الأظهر كما ينبىء عنه قوله : كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيّئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات آمر على كاتب السيّئات فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشراً وإذا عمل سيّئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعلّه يسبّح أو يستغفر .

وإنّ الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه وعند جماعه و لذكر الكلام في الجماع وعند قضاء الحاجة أشدّ كراهة لأنّ الحفظة تتأذّى من الحضور في ذلك الموضع الكريه لأجل كتابة الكلام ولذا يحمد الله بقلبه عند العطاس في بيت الخلاء و كذا الضحك في هذه الحالة .

في هذه الحديث أنّ ملائكة اللّيل و ملائكة النهار يصلّون معكم العصر فيصعد ملائكة النهار وتمكث ملائكة اللّيل فإذا كان الفجر نزل ملائكة النهار و يصلّون الصبح فيصعد ملائكة اللّيل وتمكث ملائكة النهار وما من حافظين يرفعان إلى الله ما حفظا فيرى الله

في أوّل الصحيفة خيراً و في آخرها خيراً إلّا قال للملائكته : اشهدوا أنّي غفرت لعبدي ما بين طرفي الصحيفة و في الحديث نظّفوا لثاثكم فأمر بتنظيفها لئلّا يبقى وضر الطعام فتتغيّر النكهة و يتأذّى الملكان الحافظان لأنّه طريق القرآن و مقعد الملكين عند نابيه .

وعن مجاهد قال : أبطأ جبرئيل على النبيّ ﷺ ثمّ أتاه فقال ﷺ : له ما حبسك يا جبرئيل ؟ قال : و كيف آتي و اُمّتك لا يقصّون أظفارهم ولا يأخذون من شواربهم ولا ينقو براجمهم ولا يستاكون و البرجمة بضمّي الباء والجيم و سكون الراء وهو ظهر عقدة كلّ مفصل من قصبة الأصابع فظهر العقدة يسمّى ببرجمة وما بين العقدتين يسمّى راجبة فلكلّ إصبع برجمتان وثلاث رواجب إلّا الابهام فإنّه له برجمة وراجبتين فأمر بتنقيته لئلّا يدرن فيبقى فيه الجنابة و يحول الدرن بين الماء والبشرة والجُنب لا يقربه الملائكة إلى أن يتطهّر .

قوله تعالى : [وجاءت سكرة الموت بالحقّ] السكرة استعارة لشدّة الموت وغمرته الذاهبة بالعقل وعبّر عن وقوعها بالماضي إيذاناً بتحقّقها وغاية اقترانها حتّى كأنّها قد أتت وحضرت كما قيل : قد أتاكم الجيش « بالحقّ » أي بأمر الله الّذي هو حقّ وواقع لا محالة .

[ذلك ما كنت منه تحيد] أي يقال له : يا إنسان « ذلك » أي ذلك الموت الّذي كنت منه تحيد وتهرب وتميل و كنت تفرّ منه . وقيل : إنّ نفس المؤمن المطيع تنسلّ انسلال القطرة من السقاء وينزل عند الموت أربعة من الملائكة ملك يجذب النفس من قدمه اليمنى وملك يجذبها من قدمه اليسرى وملك يجذبها من يده اليمنى وملك يجذبها من يده اليسرى فيجذبونها أطراف البنان ورؤوس الأصابع وأمّا الفاجر فينسلّ روحه كالسفّود من الصوف المبلول وهو يظنّ أنّ بطنه مُلئت شوكاً وكأنّ نفسه يخرج من ثقب إبرة وكأنّ السماء انطبقت على الأرض وهو بينهما .

فإن قيل : إنّ المحتضر مع هذه الشدّة لِمَ لا يصيح كما يصيح من به ألم من الضرب وغيره ؟

لأنّه إنّما يستغيث و يصيح المضروب لبقاء قوّته في قلبه وجوارحه و لسانه لكن

ينقطع صوت المحتضر من الشدّة لأنّ الكرب قد بولغ فيه وغلب على كلّ موضع من جسده فهو كلّ قوّة وأضعف كلّ جارحة ولم يترك له قوّة الاستغاثة و ربما كشف للميّت عن الأمر الملكوتيّ قبل أن يغرغر فعاين الملائكة على صور هي حقايق أعماله فإن كانت أعماله حسنة يراهم على صورة حسنة وإن كانت سيّئة فعلى صورة قبيحة فذلك الّذي يشخص بصره وقد تظهر صفات قبح الأعمال عند الموت فالمغتاب تقرض شفاهه بمقاريض من نار والسامع للغيبة يسلك في اُذنيه نارو آكل الحرام يقدّم له الزقّوم كذلك إلى آخر أعمال العبد .

قوله تعالى : [و نفخ في الصور] وهي نفخة الثانية نفخة البعث والنافخ إسرافيل وقد سبق الكلام في معنى الصور [ذلك] أي ذلك النفخ [يوم الوعيد] أي يوم إنجاز الوعيد الواقع في الدنيا عبارة عن العذاب الموعود به وتخصيص الوعيد بالذكر مع أنّه يوم الوعد أيضاً لبيان التهديد والتهويل .

قوله تعالى : كل نفس معها سائق وشهيد (٢١) لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد (٢٢) وقال قرينه هذا مالدى عتيد (٢٣) ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد (٢٤) مناع للخير معتد مريب (٢٥) الذى جعل مع الله إلها آخر فألقياه فى العذاب الشديد (٢٦) قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان فى ضلال بعيد (٢٧) قال لاتختصموا لدى وقد قدمت اليكم بالوعيد (٢٨) ما يبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد (٢٩) يوم نقول لجهنم هل امتلات وتقول هل من مزيد (٣٠) .

[وجاءت كلّ نفس] من النفوس البرّة والفاجرة [معها سائق وشهيد] ويختلف كيفيّة السوق والشهادة حسب اختلاف النفوس عملاً أي مع كلّ نفس ملكان أحدهما يسوقه إلى المحشر والآخر يشهد بعمله خيراً أو شرّاً ويمكن أن يسوق سائق الكافر إلى النار والشهيد يشهد بمعصيته ويسوق المؤمن إلى الجنّة ويشهد الشهيد بطاعته .

[لقد كنت في غفلة من هذا] الغفلة معنى يمنع الإنسان من الوقوف على حقيقة الأمر أو سهو يعتري من قلّة التحفّظ والتيقّظ أي يقال له : أيّها الشخص لقد كنت في الدنيا في غفله وذهول من هذا اليوم وغوائله والخطاب للكافر .

[فكشفنا] أي أزلنا [عنك غطاءك] الّذي كان على بصرك بسبب الغفلة والجهل وقيل : المراد من الغطاء القبر أي أخرجناك منه [فبصرك اليوم حديد] و نافذ تبصر ما كنت تنكره وتستبعده في الدنيا فأنت حينئذ حديد البصر والبصيرة والإنسان و إن خلق من عالمي الغيب والشهادة فالغالب عليه في البداية والشهادة وهي العالم الحسّي فيرى بالحواسّ الظاهرة العالم المحسوس وهو بمعزل عن إدراك عالم الغيب فمن الناس من يكشف الله غطاءه عن بصر بصيرته فيجعل بصره حديداً يبصر رشده وذلك بسبب إطاعته وقبوله الحقّ ومنهم من يكشف بصر بصيرته يوم القيامة وهم الكفّار .

[و قال قرينه] يعني الملك الشهيد عليه و هو المرويّ عن الباقر والصادق عليهما السلام وقيل : المراد من القرين الشيطان الّذي قبض له و قيل من الإنس [هذا ما لديّ عتيد] فلوكان المراد الملك الشهيد فالمعنى هذا حسابه حاضر لديّ في هذا الكتاب أي يقول لربّه : كنت وكّلتني به فما كتبت به من عمله حاضر عندي و إنّ المراد به الشيطان أو القرين من الإنس فالمعنى هذا العذاب حاضر عندي معدّ بسبب سيّئاته .

[ألقيا في جهنّم كلّ كفّار عنيد] هذا خطاب للملكين الموكّلين به وهما السائق والشهيد وبحذف الإسنادعن أبي سعيد الخدريّ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا كان يوم القيامة يقول الله لي ولعليّ : ألقيا في النار من أبغضكما وأدخلا الجنّة من أحبّكما وذلك قوله : «ألقيا في جهنّم كلّ كفّار عنيد» والعنيد الذاهب عن الحقّ ومعاند له والعناد أقبح الكفر والعنيد المعجب بما عنده ويميل عن الحقّ و يردّه وهو عارف به قيل : مشتقّ من العند وهو عظم يعترض في الحلق .

[منّاع للخير] الّذي أمرالله به من بذل المال في وجوهه [معتد مريب] ظالم معتد حدودالله ذوريب وشاكّ أوشاكّ في الله وفيما جاء من عنده قيل : الآية نزلت في الوليد بن المغيرة حين استشاره بنو أخيه في الإسلام فمنعهم فيكون المراد بالخير الإسلام .

[الّذي جعل مع الله إلهاً آخر] من الأصنام و الأوثان و غيرها [فألقياه في العذاب الشديد] هذا تأكيد للأوّل فكأنّه يقول سبحانه : افعلا ما أمرتكما به فإنّه مستحقّ لذلك و من طريق العامّة دليل ورد أيضاً من طريق الخاصّة بينما النّاس في الحساب إذ

بعث الله عنقاً من النار يتكلّم فيقول : ائتوني بثلاثة : بمن دعا مع الله إلهاً آخر و بمن قتل نفساً بغير حق و بجبار عنيد فيلقطهم من الناس كما يلقط الطير الحب الجيد ثم يصيرهم في نار جهنّم .

وأيضاً بهذا الطريق في الحديث يخرج عنق من النار قبل الحساب والناس وقوف قد ألجمهم العرق وتصدّعت القلوب لهول المطلع فإذا أشرف على الخلائق له عينان و لسان فصيح يقول : ياأهل الموقف إنّي و كّلت منكم بثلاثة وذلك ثلاث مرّات إنّي وكّلت بكلّ جبّار عنيد فتلقطهم من بين الصفوف كما تلقط الطير حبّ السمسم فإذا لم يترك أحداً في الموقف نادى نداءً ثانياً يا أهل الموقف إنّي و كّلت بمن أذى الله ورسوله فيلقطهم كذلك فإذا لم يترك أحداً منهم نادى ثالثاً يا أهل الموقف إنّي و كّلت بمن ذهب يخلق كخلق الله وهم الّذين يصوّرون الكنائس لتعبد تلك الصور و الّذين يصوّرون الأصنام و ينحتون الأحجار و الأخشاب ليعبدوها من دون الله فيلقطهم من بين الصفوف كما يلقط الطائر حبّ السمسم فإذا أخذهم الله عن آخرهم و بقي الناس و فيهم المصوّرون الّذين لا يقصدون بتصاويرهم عبادتها حتّى يسألوا عنها لينفخوا فيها أرواحاً تحيابها وليسوا بنافخين فيقفون ما شاء الله ينتظرون ما يفعل الله بهم والعرق قد ألجمهم .

[وقال قرينه] أي شيطانه الّذي أغواه وسمّي به قريناً لأنّه يقرنه في العذاب أو قرينه السوء من الإنس وهم علماء السوء من المتبوعين [ربّنا ما أطغيته] أي ما أضللته أي ما أوقعته في الطغيان باستكراه [ولكن كان في ضلال] من الإيمان [بعيد] وهذا مثل قول الشيطان «وما كان لي عليكم من سلطان[(١)]» .

قال الله لهم : [لاتختصموا لديّ] ولا يخاصم بعضكم بعضاً عندي [وقد قدّمت إليكم بالوعيد] في دار التكليف ولم تنزجروا وخالفتم أمري .

[ما يبدّل القول لديّ] إنّ الّذي قدّمت لكم في دار الدنيا من أنّي أعاقب من جحدني و كذّب رسلي لايبدّل بغيره ولايتخلّف [و ما أنا بظلاّم للعبيد] بل هو الظالم لنفسه وإنّما قال : «بظلاّم» على وجه المبالغة ردّاً على من أضاف الظلم إليه ولأنّه لوصدر

---

(١) ابراهيم : ٢٤ .

عنه تعالى ظلماً جزئيّاً بالنسبة إلى عدله كثيرٌ عظيم .

[يوم نقول لجهنّم هل امتلأت] يتعلّق يوم بقوله : «ما يبدّل القول» الآية، أو متعلّق باذكر ذلك اليوم الّذي نقول فيه لجهنّم هل امتلأت من كثرة ما اُلقي فيك من العصاة [وتقول] جهنّم : [هل من مزيد] أي تطلب الزيادة . وقيل : معناه الكفاية أي لم يبق مزيد لامتلائها وقيل : طلب الزيادة منها كان قبل دخول جميع أهل النار فيها . ويجوز أن يكون طلب الزيادة على أن يزاد في سعتها وأمّا الوجه في كلام جهنّم فقيل : خرج مخرج المثل مثل قوله :

امتلأ الحوض وقال قطني * مهلاً رويداً قد ملأت بطني

و قيل : يخلق لجهنّم آلة الكلام لأنّ من ينطق الأيدي و الأرجل و الجلود قادر على أن ينطق جهنّم و قيل : إنّه خطاب لخزنة جهنّم و معناه ما من مزيد كقوله : «هل من خالق غير الله[1]» .

و ازلفت الجنة للمتقين غير بعيد (٣١) هذا ما توعدون لكل اواب حفيظ (٣٢) من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب (٣٣) ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود (٣٤) لهم ما يشاءون فيها و لدينا مزيد (٣٥) و كم اهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشا فنقبوا فى البلاد هل من محيص (٣٦) ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب اوالقى السمع وهو شهيد (٣٧) ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما فى ستة ايام وما مسنا من لغوب (٣٨) فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب (٣٩) و من الليل فسبحه وادبار النجوم (٤٠) .

لمّا أخبر عمّا أعدّه للكافرين عقّبه بذكر ما أعدّه للمتّقين فقال :

[واُزلفت الجنّة] أي قربت الجنّة وازيّنت للذين اتّقوا الشرك و المعاصي [غير بعيد] تأكيد لقوله : «اُزلفت» أي مكاناً غير بعيد بحيث ينظرون إليها قبل دخولها وتقرّب الجنّة بأن يسهل للمتّقين مسيرهم إليها ويراد بهم الخواصّ .

وأهل الجنّة ثلاثة أصناف : قوم يحشرون إلى الجنّة مشاة وهم الّذين قال فيهم :

(١) فاطر : ٣ .

«وسيق الّذين اتّقوا ربّهم إلى الجنّة زمراً»(١) وهم عوامّ المؤمنين . وأمّا خاصّ الخاصّ فهم الّذين قال فيهم : «وأُزلفت الجنّة للمتّقين»(٢) .

[هذا ماتوعدون] أي يقال لهم من قبل الله أو على لسان الملائكة عند مشاهدة الجنّة [لكلّ أوّاب] بدل من المتّقين أي لكلّ توّاب رجّاع إلى الطاعة أو لكلّ مسبّح [حفيظ] لما أمر الله به متحفّظ من الخروج إلى مالا يجوز من سيّئة .

[من خشي الرحمن بالغيب] الخشية خوف يشوبه تعظيم وقيل : انزعاج القلب عند القلب عند ذكر السيّئة أي هو من خاف الله وأطاعه وآمن بثوابه وعقابه ولم يردّه وقيل : المراد من قوله : «بالغيب» أي في الخلوة بحيث لايراه أحد [وجاء بقلب منيب] أي دام على ذلك بالقلب والاعتقاد إذلاعبرة للإنابة إلّا إذا كان من القلب ومقبل عليه تعالى بالكلّيّة و معرض عمّن سواه .

[ادخلوها] يقال لهم : ادخلوا الجنّة [بسلام] أي متلبّسين بسلامة من العذاب أو بسلام من الله و ملائكته [ذلك] إشارة إلى الزمان الممتدّ الّذي وقع في بعض منه ماذُكر أو هذا اليوم يوم خلودكم و تأبيدكم في الجنّة وخلود الأمر بقاؤه على الحالة الّتي هو عليها .

[لهم ما يشاؤون] من فنون المفرّحات كائناً ماكان سوى الخبائث فإنّهم لايشاؤونها لأنّ الله يعصم أهل الجنّة من شهوة قبيحة مثلاً مثل اللواط وما شابهها [ولدينا مزيد] أي وعندنا زيادة على ما يشاؤونه ممّا لم يخطر ببالهم أوالزيادة على قدر استحقاقهم من الثواب بأعمالهم .

ثمّ خوّف كفّار مكّة فقال : [وكم أهلكنا قبلهم من قرن] أي كثيراً أهلكنا قبل هؤلاء الكفّار من القرون الّذين كذّبوا رسلهم [هم أشدّ منهم بطشاً] أي الّذين أهلكناهم كانوا أكثر عدداً وعدّة و لم يتعذّر علينا إهلاكهم و «كم» هنا للتكثير خبريّة وقعت مفعول أهلكنا [فنقّبوا في البلاد] أي فتحوا المسالك وخرقوا البلاد وقطعوا المفاوز ودوخوا

---

(١) آل عمران : ١٩٨ .

(٢) الشعراء : ٩ .

وأذلّوا وقهروا أهلها و تصرّفوا في أقطارها لشدّة بطشهم وسطوتهم [هل من محيص] أي هل كان لهم من محيص عن الموت ومنجاً من العذاب والمحيص المهرب .

[إنّ في ذلك] أي فيما ذكر في هذا البيان وفي هذه السورة [لذكرى] لتذكرة و وعظة [لمن كان له قلب] سليم يدرك به ما يضرّه وما ينفعه وله علم و فهم و عقل [أو ألقى السمع و هو شهيد] أي ألقى سمعه إلى ما يتلى عليه من الوحي و لكن بشرط أن يكون الملقي حاضر الذهن و كلمة «أو» لتقسيم المتفكّر إلى الفقيه والمتعلّم .

[ولقد خلقنا السماوات و الأرض وما بينهما في ستّة أيّام و ما مسّنا من لغوب] و المراد من «ما بينهما» من أصناف المخلوقات في ستّة أيّام ولو شاء لكان خلقها في أقلّ من لمح البصر ولكنّه تعالى منّ لنا التأنّي بذلك فإنّ العجلة من الشيطان إلّا في ستّة مواضع: أداء الصلاة إذا دخل الوقت ، ودفن الميّت ، وتزويج البكر إذا أدركت ، وقضاء الدين إذا وجب وحلّ ، وإطعام الضيف إذا نزل وتعجيل التوبة إذا أذنب .

[وما مسّنا من لغوب] اللّغوب التعب أي ما أصابنا من هذه الخلقة العظيمة نصب وتعب وعيّ .

[فاصبر على ما يقولون] أي ما يقوله المشركون في شأن البعث وإنكارهم فإنّ من فعل هذه الأفاعيل قادر على بعثهم وفي الآية إشارة إلى تربية النفوس بالصبر على مايقول الجاهل من كلّ نوع من المكروهات وبيان طريق تزكيتها من الصفات المذمومة بملازمة الذكر والتسبيحات والتحميدات بقوله :

[وسبّح بحمد ربّك] أي فنزّهه عن جميع مالاينبغي في ساحة جلاله [قبل طلوع الشمس وقبل الغروب] وقيل : هما وقت الفجر والظهر والعصر [ومن اللّيل فسبّحه] يعني المغرب والعشاء . وقيل : وسبّحه بعض اللّيل [وأدبار السجود] وأعقاب الصلاة وأواخرها إذا انقضت والركوع والسجود يعبّر بهما عن الصلاة لأنّهما أعظم أركانها كما يعبّر بالوجه عن الذات لأنّه أشرف أعضائها فحينئذ المراد التسبيح بعد كلّ صلاة . و قيل : المراد من أدبار السجود الركعتان قبل الفجر عن عليّ بن أبي طالب والحسن بن عليّ عليهما السلام

وجماعة . وقيل : المراد من النوافل بعد المفروضات وقيل : إنّه الوتر من آخر اللّيل روي ذلك عن الصادق عليه السلام .

قوله تعالى: واستمع يوم ينادى المناد من مكان قريب (٤١) يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج (٤٢) انا نحن نحيي و نميت و الينا المصير (٤٣) يوم تشقق الارض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير (٤٤) نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد (٤٥) .

أي و[استمع]حديث يوم النداء فحذف المضاف . واصغ إلى النداء أي بوقعه و ذلك يوم القيامة والبعث والنشور وهي النفخة الثانية وقيل : إنّه ينادي مناد من صخرة بيت المقدس أيّتها العظام البالية والأوصال المنقطعة قومي لفصل القضاء وما أعدّ الله سبحانه عزّ وجلّ لكم من الجزاء . وقيل : إنّ المنادي هو إسرافيل يقول : يا معشر الخلائق قوموا للحساب .

وإنّما قال : « من مكان قريب » لأنّ الخلائق يسمعون كلّهم على حدّ واحد في السماع ولا يخفى على أحد قريب ولا بعيد فكأنّهم نودوا من مكان يقرب النداء منهم . أو المكان القريب المراد قربه إلى السماء ، فإنّ بيت المقدس أقرب من جميع الأرض إلى السماء باثني عشر ميلاً أو عشر أميال .

[يوم يسمعون الصيحة بالحقّ] بدل من يوم ينادي والصيحة المرّة الواحدة من الصوت الشديد أي إنّها كائنة لا محالة [ذلك يوم الخروج] ذلك يوم الخروج من القبور وهو من أسماء يوم القيامة .

[إنّا نحن نحيي ونميت] أخبر سبحانه عن نفسه أنّه هو الّذي يحيي الخلق بعد أن كانوا جماداً أمواتاً وتكرير الضمير للتأثير والاختصاص والتفرّد [وإلينا المصير] للجزاء في الآخرة لا إلى غيرنا فليستعدّوا للقائنا .

[يوم تشقّق الأرض عنهم سراعاً] بحذف إحدى التاءين أي تتصدّع عن الناس والأموات ويخرجون من القبور متسرّعين إلى إجابة الداعي من غير التفات إلى يمين وشمال [ذلك حشر] أي هذا الإحياء من القبور بعث وجمع و سوق [علينا يسير] وهيّن

وهو كلام معادل لقول الكفّار حيث قالوا : « ذلك رجع بعيد » وتقديم الجارّ والمجرور لتخصيص اليسير به تعالى .

[نحن أعلم بما يقولون] من نفي البعث وتكذيب الآيات وفي الكلام تسلية للنبيّ ﷺ وتهديد للكفّار [وما أنت عليهم بجبّار] أي بمسلّط تقسرهم على الإيمان و إنّما أنت مذكّر .

[فذكّر بالقرآن من يخاف و عيد] أي عظهم بمواعظ القرآن من يخاف وعيدي فإنّهم المنتفعون به كما قال : « فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين [١] » وكما قال : « إنّما تنذر من اتّبع الذكر و خشي الرحمن بالغيب [٢] » و أهل القرآن أهل الله و خاصّته فيرون الحقّ بالحقّ ولا يتّعظ بمواعظ القرآن إلّا الخائفون على إيمانهم بل خائفون على كلّ من أنفاسهم وإنّما يتّعظ النفوس القابلة لتذكير القرآن ووعيده .

وكان رسول الله يخطب بسورة ق في كثير من الأوقات لاشتمالها على ذكر الله والثناء عليه و بيان علمه تعالى بما يوسوس به النفوس وما يكتبه الملائكة على الإنسان من طاعة ومعصية وتذكير الموت وسكرته وأحوال القيامة و أهوالها والشهادة على الخلق وأعمالهم وتذكير الجنّة و النار والصحّة و الخروج والمواظبة على الصلاة تمّت السورة

---

(١) الذاريات : ٥٥ .
(٢) يس : ١١ .

سورة الذاريات

٭(مكية)٭

قال أُبي بن كعب عن النبي من قرأها في يومه أو ليلته أصلح الله له معيشته وأتاه برزق واسع ونوّر له في قبره بسراج يزهر إلى يوم القيامة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

والذاريات ذروا (١) فالحاملات وقرا (٢) فالجاريات يسرا (٣) فالمقسمات أمرا (٤) انما توعدون لصادق (٥) وان الدين لواقع (٦) والسماء ذات الحبك (٧) انكم لفي قول مختلف (٨) يؤفك عنه من افك (٩) قتل الخراصون (١٠) الذينهم في غمرة ساهون (١١) يسئلون أيان يوم الدين (١٢) يوم هم على النار يفتنون (١٣) ذوقوا فتنتكم هذا الذى كنتم به تستعجلون (١٤).

ختم الله سورة ق بالوعيد وافتتح هذه السورة أيضاً بالوعيد روي أنّ ابن الكوّاء سأل أمير المؤمنين عليّاً وهو يخطب على المنبر فقال: ما الذاريات؟ قال: الرياح يقال ذرت الريح التراب إذا طيّرته قال ابن الكوّاء: فما الحاملات وقراً؟ قال عليه السلام: السحاب قال: فما الجاريات يسراً؟ قال: السفن قال: فالمقسّمات أمراً؟ قال: الملائكة.

وقيل: الجاريات هي السحاب تجري يسراً إلى حيث أمر الله إلى البقاع. وقيل: هي النجوم السبعة السيّارة: الشمس والقمر وزحل والمشتري والمرّيخ والزهرة و عطارد أقسم الله بهذه الأشياء لكثرة منافعها للعباد أو التقدير بربّ هذه الأشياء.

قال أبو جعفر والصادق عليهما السلام: إنّه لا يجوز لأحد أن يقسم إلّا بالله والله سبحانه يقسم بما يشاء من خلقه والذاريات صفة الرياح وحذفت الموصوفات والتقدير والرياح الذاريات ذرواً روي أنّه لو حبس الله الريح عن الأرض ثلاثة أيّام ما بقي على وجه الأرض إلّا نتن.

وعن أبي أُمامة قال: قال رسول الله: ليبيتنّ قوم من أُمّتي على أكل وشرب ولهو ولعب ثمّ ليمسخنّ قردة و خنازير وليصيبنّ أقواماً من أُمّتي خسف و قذف باتّخاذهم القيان وشربهم الخمور وضربهم الدفوف ولبسهم الحرير ولينسفنّ أحياء من أُمّتي الريح كما نسفت عاداً، والنسف القلع من الشيء من أصله.

ثمّ ذكر المقسم عليه بعد ذكر المقسم به فقال : [إنّما توعدون لصادق] من الثواب و العقاب صدق لابدّ من كونه اسماً وضع موضع المصدر والعائد محذوف أي إنّ الّذي توعدونه من الجزاء والبعث لذو صدق مثل قولهم : تامر ولابن [وإنّ الدين لواقع] أي إنّ الجزاء على الأعمال حاصل و كائن فإنّ من قدر على هذه الأفعال البديعة قادر على البعث والجزاء [والسماء ذات الحبك] والحبك جمع حباك والمعنى الطرائق الّتي هي مساير الكواكب ومسالك الملائكة .

فأقسم سبحانه بها وقال : [إنّكم] يا أهل مكّة [لفي قول مختلف] في شأن القرآن بقولهم : إنّه سحر أو شعر واختلاق وأساطير أو إنّكم في قول مختلف في حقّ محمّد فبعضكم يقول : شاعر وبعض يقول : ساحر كذّاب أو إنّكم منكم مكذّب به ومنكم مصدّق به ومنكم شاكّ فيه [يؤفك عنه من اُفك] و رجل مأفوك مصروف عن الحقّ إلى الباطل أي يصرف عن القرآن أو الرسول من انصرف بسبب عدم قبول الدلائل ويحرم نفسه من الإيمان وينصرف عن هذه السعادة لجحوده وإنكاره .

[قتل الخرّاصون] دعاء عليهم كقوله[1] : «قتل الإنسان ما أكفره» وجرى هذا الكلام مجرى لعن و قبح ، و الخرص تقدير القول بلا حقيقة ومنه خرص الثمار و كلّ قول مقول عن ظنّ وتخمين يقال : خرص من حيث إنّ صاحبه لم يقله عن علم بل اعتمد عليه بالتخمين كفعل الخارص في خرصه و كلّ من قال قولاً على هذا النحو يسمّى كاذباً و إن كان قوله مطابقاً للقول المخبر به فالخرّاصون في الآية المراد الكذّابون وتقدير الآية قتل هؤلاء الكذّابون .

[الّذين هم في غمرة] من الجهل والضلال، والغمرة معظم الماء أي الجهالة غمرتهم [ساهون] أي غافلون .

[يسألون أيّان يوم الدين] أي متى يوم الجزاء إنكاراً واستهزاءً و سؤالهم لا على وجه الاستفهام والاستفادة لمعرفته ، وحذف المضاف أي متى وقوع يوم القيامة فاُجيبوا بأن يقع .

[يوم هم على النار يفتنون] والظرف منصوب بفعل مقدّر أي يقع يوم هم على النار

(١) عبس : ١٧

يعذّبون كما يفتن الذهب بالنار .

[ذوقوا فتنتكم] أي مقولاً لهم هذا القول إذا عذّبوا والقائل خزنة النار : ذوقوا جزاء كفركم وقوله : « فتنتكم » أي كفركم مراداً بالكفرعاقبة الكفر وهو العذاب .

ان المتقين فى جنات و عيون (١٥) آخذين ما آتاهم ربهم انهم كانوا قبل ذلك محسنين (١٦) كانوا قليلا من الليل ما يهجعون (١٧) وبالاسحار هم يستغفرون (١٨) وفى أموالهم حق للسائل والمحروم (١٩) وفى الارض آيات للموقنين(٢٠) وفى انفسكم افلا تبصرون (٢١) وفى السماء رزقكم وما توعدون (٢٢) فورب السماء والارض انه لحق مثل ما انكم تنطقون (٢٣) .

ثمّ ذكر سبحانه ما أعدّه لأهل الجنّة فقال :

[إنّ المتّقين في جنّات و عيون] أي المحترزين عن الكفر والمعاصي والمتّصفين بالإيمان والمعرفة والطاعة في بساتين والتنكير للتعظيم أوللتكثيرمثلقولهم : إنّ له لإبلاً وإنّ له لغنماً ولي أنهارجارية .

[آخذين] قابلين لكلّ ما أعطاهم من الثواب متلقّين بالقبول لأنّه في غاية الجودة ومنه قوله(١) : « ويأخذ الصدقات » أي يقبلها و يرضاها ثمّ علّل استحقاقهم بقوله : [إنّهم كانوا قبل ذلك] أي قبل دخول الجنّة أي في الدنيا [محسنين] يفعلون الطاعات ويحسنون إلى غيرهم بضروب الإحسان .

[كانوا قليلاً من اللّيل ما يهجعون] الهجوع النوم أي كانوا يهجعون في طائفة قليلة من اللّيل و « ما» مزيدة لتأكيد معنى التقليل أي يذكرون ويصلّون أكثر اللّيل وينامون أقلّه و بعض فسّرواهذا الحديث «نوم العالم عبادة» قالوا : فمن يعبد لا يكون نائماً قيل : نزلت الآية في شأن الأنصار حيث كانوا يصلّون في مسجد النبيّ ﷺ ثمّ يمضون إلى قبا وبينهما ميلان .

[وبالأسحارهم يستغفرون] السحر السدس الأخير من اللّيل لاشتباهه بالضياء كالسحر يشبه الحقّ وهو باطل أي هم مع قلّة هجوعهم و كثرة تهجّدهم يداومون على الاستغفار

(١) التوبة : ١٠٥ .

في الأسحار وهذا دليل على أنّهم غير معجبين بأعمالهم وخائفين من التقصير وتقديم الظرف في الآية للاهتمام ورعاية الفاصلة ولعلّ يستغفرون استصغاراً لفعلهم .

قيل : يا رسول الله كيف الاستغفار ؟ قال ﷺ : قولوا : اللّهمّ اغفر لنا وارحمنا وتب علينا إنّك أنت التوّاب الرحيم . في الحديث إنّ أحبّ أحبّائي إليّ الّذين يستغفرون بالأسحار أُولئك الّذين إذا أردت بأهل الأرض سيّئاً صرفت بهم عنهم . وكان النبيّ ﷺ إذا قام من اللّيل يتهجّد قال : اللّهمّ لك الحمد أنت الحقّ ووعدك و لقاؤك حقّ و قولك حقّ والجنّة حقّ والنار حقّ والنبيّون حقّ ومحمّد حقّ والساعة حقّ اللّهمّ لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكّلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت فاغفر لي ما قدّمت وما أخّرت وما أسررت وما أعلنت أنت المقدّم وأنت المؤخّر لا إله إلّا أنت ولا حول ولا قوّة إلّا بك .

و في الحديث قال داود عليه السلام : يا جبرئيل أيّ من اللّيل أفضل قال : لا أدري إلّا أنّ العرش يهتزّ وقت السحر ولا يهتزّ العرش إلّا لكثرة تجلّيات رحمة الله فرحاً لأهل السهر وإمّا طرباً لأنين المذنبين والمستغفرين في ذلك الوقت وإمّا تعجّباً لكثرة عفو الله ومغفرته في ذلك الوقت وإمّا تعجّباً من حسن لطف الله على عباده الآبقين الهاربين منه مع غنائه عنهم ثمّ مع ذلك هم غافلون في نومهم وهو تعالى يتوجّه إليهم ويدعوهم بقوله : هل من سائل هل من مستغفر هل من تائب هل من نادم هل من من يقرض غير عدوم ؟ و إمّا تعجّباً من غفلات أهل الغفلة بنومهم في ذلك الوقت وحرمانهم من البركة واعلم أنّ الله أمر نبيّه بإحياء اللّيل لأنّ هذه الطريقة أقرب طرق إلى الله للمقبل الصادق وما يطيقها إلّا المتمكّن الصابر .

قال ﷺ : فرض عليّ قيام الليل ولم يفرض عليكم . قال أهل التحقيق : و ذلك لأنّه روح العالم ﷺ و مداره فكيف يكون لله وليّ كامل يبخل بنفسه على الله متكاسل وبتكاسله يخرب العالم ويشتدّ جهل أهله كما أنّ الروح إذا ضعف اختلّ الجسد وقواه من هنا تعرف شدّة توغّل الأنبياء والأتقياء في العبادات و كلّما قرب الإنسان من الكمال اشتدّ تكليفه .

قيل : إنّ إلياس النبيّ عليه السلام أتى إليه ملك الموت ليقبضه فبكى فقال له : أتبكي وأنت راجع إلى ربّك ؟ فقال : بل أبكي على ليالي الشتاء ونهار الصيف ؛ الأحباب يقومون ويصومون ويجذبون ويتلذّذون بمناجاة محبوبهم وأنا رهين التراب فأوحى الله إليه قد أجّلناك إلى آخر الدهر لحبّك خدمتنا فتمتّع .

[وفي أموالهم حقّ] أي نصيب وافر يوجبون على أنفسهم و يعدّونه واجباً عليهم تقرّباً إلى الله [للسائل] أي لطالب الجدوى و لحاجة المستجدي [والمحروم] أي المتعفّف الّذي يحسبه الناس غنيّاً فيحرم الصدقة أوالمحروم الممنوع من الخير والرزق بترك السؤال أوذهاب المال وخراب الضيعة أومدبّر الأيّام و لعلّ تخصيص الذكر بالسائل و المحروم ولم يذكر سائر المستحقّين لأنّ ذلك حقّ سوى الصدقة المفروضة كما قال صلى الله عليه وآله : إنّ في المال حقّاً سوى الزكاة أي قد يقع في المال حقّ واجب سوى الزكاة وهو الحقوق الّتي تلزم عند ما يعرض من الأحوال مثل النفقة على الوالدين إذا كانا فقيرين و ما يجب من إطعام المضطرّ وحمل المنقطع .

[وفي الأرض آيات للموقنين] أي دلائل واضحة على وجود الصانع و علمه و قدرته من حيث إنّها مدحوّة كالبساط الممهّد وفيها مسالك للمتقلّبين في أقطارها و السالكين في مناكبها و كيف وفيها سهلٌ و جبل وبرٌّ و بحر و عيون و معادن متفنّنة وألوان النبات و الألوان والطعوم والحيوان و دبّر سبحانه لكلّ تدبيراً لبقاء نوعه وإنّما خصّ الموقنين لأنّهم يتأمّلون فيها فيحصل لهم العلم بموجبها .

[وفي أنفسكم] أي وفي أنفسكم أيضاً آيات وشواهد على خالقيّته ووحدانيّته [أفلا تبصرون] أي أفلا ترون أنّكم منتقلون من صفة إلى اُخرى مثل أن كنتم نطفاً فصرتم أحياء جنيناً ثمّ كنتم أطفالاً فصرتم شباباً ثمّ كهولاً فهلاّ دلّكم ذلك على أنّ صانعاً و مقدّراً يقدّر ويدبّر هذه الاُمور فساعة تجوع وساعة تشبع و تغضب وترضى وهذه الاُمور كلّه من آيات الله وتصرّفه .

[وفي السماء رزقكم] فينزل الله إليكم بأن يرسل الغيث والمطر عليكم فيخرج به من الأرض أنواع ماتقتاتونه و تلبسونه وتنتفعون به و كذلك اختلاف المطالع و المغارب الّتي

يترتّب عليه اختلاف الفصول الّتي هي مبادي حصول الأرزاق [و ما توعدون] من الثواب لأنّ الجنّة على ظهر السماء السابقة تحت العرش قرب سدرة المنتهى أوأنّ كلّ ماتوعدون من الخير والشرّ والشدّة والرخاء وغيرها مكتوب مقدّر في السماء .

[فوربّ السماء و الأرض] أقسم سبحانه بنفسه ذكر الربّ لأنّه في بيان التربية بالرزق [إنّه لحقّ] أي ماتوعدون لحقّ وواقع قيل : إنّ رسول الله قال : قاتل الله أقواماً أقسم الله لهم بنفسه فلم يصدّقوه [مثل ما أنّكم تنطقون] أي كما أنّه لاشكّ لكم في أنّكم تنطقون ينبغي أن لاتشكّوا في حقيقته و إنّما اختصّ التمثّل بالنطق في التشبيه لأنّه مختصّ بالإنسان وهو أخصّ صفاته .

هل اتاك حديث ضيف ابراهيم المكرمين (٢٤) اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون (٢٥) فراغ الى اهله فجاء بعجل سمين (٢٦) فقربه اليهم قال ألا تأكلون (٢٧) فاوجس منهم خيفة قالوا لاتخف وبشروه بغلام عليم (١٨) فأقبلت امراته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم (٢٩) قالوا كذلك قال ربك انه هو الحكيم العليم (٣٠) قال فما خطبكم ايها المرسلون (٣١) قالوا انا ارسلنا الى قوم مجرمين (٣٢) لنرسل عليهم حجارة من طين (٣٣) مسومة عند ربك للمسرفين (٣٤) فاخرجنا من كان فيها من المؤمنين (٣٥) فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين (٣٦) وتركنا فيها آية للذين يخافون العذاب الاليم (٣٧) .

لمّا قدّم الوعد والوعيد ذكر بشارة إبراهيم عليه السلام ومهلك قوم لوط تخويفاً للكفّار فقال :

[هل أتاك] يا محمّد وهذا اللّفظ يستعمل إذا أخبر الناس بخبر ماض فيقال : هل سمعت خبر كذا وإن علم أنّه لم يأته [حديث ضيف إبراهيم المكرمين] عند الله و ذلك لأنّهم كانوا ملائكة كراماً . وقيل : المراد بالمكرمين لأنّ إبراهيم أكرمهم ورفع مجالستهم وخدمهم بنفسه وسمّاهم ضيفاً مع أنّهم لم يأكلوا من طعامه لأنّهم دخلوا مدخل الأضياف واختلف في عددهم فقيل :كانوا اثني عشر ملكاً وقيل : كان جبرئيل ومعه سبعة أملاك وقيل :

ثلاثة جبرئيل وميكائيل وملك آخر ·

والضيف في الأصل مصدر ضافه ولذلك يطلق على الواحد والجماعة و أصل معنى الضيف الميل وهو مأخوذ من مال إليك نزولاً بك .

وفي الراوية إنّ الله أوحى إلى إبراهيم ـ وهو أوّل من سنّ القرى ـ أكرم الضيف فكان يعدّ لكلّ من أضيافه شاة مشويّة فأوحى إليه أكرم أضيافك فجعله ثوراً فأوحى إليه أكرم فجعله جملاً فأوحى إليه أكرم فتحيّر فيه فعلم أنّ إكرام الضيف ليس في كثرة الطعام فخدمهم بنفسه فأوحى إليه : الآن أكرمت الضيف · قيل : لا عار للرجل ولو كان سلطاناً أن يخدم ضيفه وأبويه ومعلّمه .

[إذ دخلوا عليه] وتقديره هل أتاك حديثهم الواقع وقت دخولهم عليه [فقالوا سلاماً] أي نسلّم عليك سلاماً والفاء لبيان أنّ السلام وقع بعد الدخول [قال] إبراهيم: [سلام] أي عليكم سلام فحيّاهم إبراهيم بتحيّة أحسن من تحيّتهم لأنّ تحيّتهم كانت بالجملة الفعليّة الدالّة على الحدوث حيث نصبوا سلاماً وتحيّته بالجملة الاسميّة الدالّة على الثبوت والدوام [قوم منكرون] أي تصوّر إبراهيم في نفسه هؤلاء قوم منكرون لا أعرفهم وذلك أنّه عليه السلام ظنّ أنّهم من الإنس .

[فراغ إلى أهله] أي ذهب إليهم خفيّاً وإنّما راغ مخافة أن يمنعوه من تكلّف الأكل [فجاء بعجل سمين] وكان مشويّاً لقوله في آية اُخرى « حنيذ » فكان عامّة مال إبراهيم ذلك الوقت البقر فجاء به [فقرّبه إليهم] بأن وضعه لديهم ليأكلوا فلم يأكلوا [قال ألا تأكلون] عرض عليهم الأكل و امتنعوا من الأكل .

[فأوجس منهم خيفة] وظنّ أنّهم يريدون به سوءاً قيل: إنّهم قالوا : نحن لا نأكل بغير ثمن قال إبراهيم : كلوا وأعطوا ثمنه قالوا : وما ثمنه ؟ قال : إذا أكلتم فقولوا : بسم الله وإذا فرغتم قولوا : الحمد لله فعجبت الملائكة من قوله .

وبالجملة لمّا رآهم لا يأكلون أوجس في نفسه الخوف . والوجس الصوت الخفيّ في النفس وأضمر الخوف و ذلك أنّ من العادة من يجيء بالشرّ والضرّ أن لايتناول من طعام من يريد إضراره ومن المشهور: إنّ من لم يأكل طعامك لم يحفظ ذمامك .

ولمّا أحسّت الملائكة بخوفه [قالوا لا تخف] إنّا رسل الله. وقيل : مسح جبرئيل العجل بجناحه فقام يمشي حتّى لحق باُمّه فعرفهم إبراهيم وأمن منهم .

[وبشّروه بغلام عليم] والغلام المبشّر بهوإسماعيل وقيل : هو إسحاق لأنّه من سارة وهذه القصّة لها فلمّا سمعت سارة امرأة إبراهيم البشارة أقبلت في ضجّة (وقيل : في جماعةعن الصادق عليه السلام) وأخذت تصيح وتولول ومعنى الصرّة الصيحة الشديدةيقال : صرّ إذا صوّت ومنهصرير الباب وصرير القلم[فأقبلت امرأته في صرّة فصكّت وجهها]أي جمعت أصابعها فضربت جبينها تعجّباً ولطمت وجهها والصكّ ضرب الشيء بالشيء العريض [وقالت عجوز عقيم] أي أنا عجوز عاقر فكيف ألد ؟

[قالوا كذلك قال ربّكِ] أي كما قلنا لكِ إنّكِ ستلدين غلاماً [إنّه هو الحكيم العليم] بخفايا الاُمور .

[قال] إبراهيم لهم : [فما خطبكم] أي فما شأنكم ولأيّ أمر جئتم [أيّها المرسلون] كأنّه قال : قد جئتم لأمر عظيم ولا يستعمل الخطب إلّا في أمر عظيم [قالوا إنّا اُرسلنا إلى قوم مجرمين] متمادّين في الآثام . و قيل : المجرم فاعل الجرائم و هي صعاب المعاصي والمراد به قوم لوط .

[لنرسل عليهم] بعد ما قلبناقراهم و جعلنا عاليها سافلها [حجارة من طين] أي طين متحجّر وهو السجّيل طبخت بنار جهنّم مكتوب عليها أسماء القوم ولو لم يقل من طين لتوهّم من الحجارة البرد بقرينة إرسالها من السماء [مسوّمة] معلمة من السومة أي العلامة معلمة ببياض وحمرة أو بسيما يتميّز بها عن حجارة الأرض أو المراد من المسوّمة المرسلة من سوّمت الماشية أي أرسلتها لترعى [عند ربّك] أي في خزانة ربّك [للمسرفين] المجاوزين الحدّ في الفجور وقيل : المراد من السرف ههنا الشرك عن ابن عبّاس .

[فأخرجنا] الفاء فصيحة مفصحة عن محذوف كأنّه قيل : فباشروا ما اُمروا به فأخرجنا بقولنا : « فأسر بأهلك » الآية [من كان فيها] أي في قرى قوم لوط [من المؤمنين] وذلك أنّ الله أمر لوطاً بأن يخرج هو ومن معه من المؤمنين [فما وجدنا غير بيت من المسلمين] يعني لوطاً وبيته وصفهم الله بالإيمان والإسلام إذ كلّ مؤمن هو مسلم .

[وتركنا فيها] أي في مدائن قوم لوط أبقينا [آية] وعلامة [للذين يخافون العذاب الأليم] فيخافون مثل عذابهم ويعتبرون به دون من عداهم من ذوي القلوب الفاسدة بأنهم لا يعدونها آية كما أن أكثر الحاج حين المرور بمدائن لا يلتفتون وكان النبي يبكي حين المرور بمثل هذه المواضع وينكس رأسه ويأمر بالبكاء والتباكي .

واعلم أن المعتبر في باب النجاة الحشر مع أهل الصلاح وحسن اتباعهم بالاتصال المعنوي لا الاختلاط الصوري وإلا نجت امرأة لوط وابن نوح فعلى العاقل المسترشد باتباع الكامل والاحتراز عن أهل الفساد سيما الناقص في العقل والدين .

قوله تعالى : وفي موسى اذ ارسلناه الى فرعون بسلطان مبين (٣٨) فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون (٣٩) فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم وهو مليم (٤٠) و في عاد اذ ارسلنا عليهم الريح العقيم (٤١) ما تذر من شيء أتت عليه الا جعلته كالرميم (٤٢) وفي ثمود اذ قيل لهم تمتعوا حتى حين (٤٣) فعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون (٤٤) فما استطاعوا من قيام وما كانوا منتصرين (٤٥) وقوم نوح من قبل انهم كانوا قوماً فاسقين (٤٦) .

[وفي موسى] عطف على قوله : « وفي الأرض آيات للموقنين » فقصة إبراهيم ولوط معترضة بين المعطوف والمعطوف عليه .

أي وجعلنا في إرسال موسى إلى فرعون وإنجائه وما لحق فرعون وقومه من الغرق آية [إذ أرسلناه] أي وقت إرسالنا [إلى فرعون] صاحب ملك مصر [بسلطان مبين] هو ما ظهر على يده من المعجزات والسلطان مصدر يطلق على المتعدد وعلى الواحد .

[فتولى بركنه] أي أعرض فرعون وثنى عطفه والتولي كناية عن الإعراض والباء للتعدية مثل قوله : « نآى بجانبه » والركن بمعنى الطرف والجانب وقيل : المراد فتولى فرعون بما يتقوى به من الملك والعسكر والجنود فإن الركن اسم لما يركن إليه الإنسان والركن مستعار لجنوده نسبتهما بالركن الذي يتقوى البنيان به .

[وقال] هو أي موسى [ساحر أو مجنون] و أو في الآية بمعنى الواو كقوله[1] :

---

(١) الصافات : ١٤٧ .

« مائة ألف أو يزيدون » وتأمّل في حمق فرعون أنّه نسب إلى موسى صفتين متناقضتين لأنّ السحر لا يعلمه إلّا من له حذاقة وإدراك والجنون زوال هذه الأُمور .

[فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليمّ] النبذ طرح الشيء وإلقائه لقلّة الاعتداد به فطرحناهم في بحر القلزم وأخذناه والحال أنّه مستحقّ للملامة أو مليم نفسه .

[وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم] عطف على ما تقدّم أي وفي قوم هود وهم العاديّون آيات إذ أرسلنا على أنفسهم أصالة وعلى دورهم وأموالهم وأنعامهم تبعاً الريح العقيم،العقم هزمة يقع في الرحم فلايقبل التوليد شبّه إهلاكهم وقطع دابرهم بإعقام النساء الّتي لا يلدن ولا يعقبن استعارة تبعيّة،وهو الدبور كما قال ﷺ : نصرت بالصبا واُهلكت عاد بالدبور وهي تجيء من جانب المغرب فإنّ الصبا تجيء من جانب المشرق وقيل : هي الجنوب مقابل الشمال وتجيء من شمال من يتوجّه إلى المشرق .

[ما تذر] أي ما تترك ، وأماتوا ماضيه ومصدره واسم فاعله ومانطق بها [من شيء أتت عليه] أي جرت على ذلك الشيء [إلّا جعلته كالرميم] مثل الشيء البالي المتفتّت رمّ العظم أي بلي وفتّت قال ابن عبّاس : ما اُرسل على عاد من الريح إلّا مثل خاتمي هذا .

[وفي ثمود] أي وفي قوم صالح آيات جعلنا [إذ قيل لهم تمتّعوا] أي انتفعوا بالحياة الدنيا [حتّى حين] إلى وقت العذاب وهو آخر ثلاثة أيّام الأربعاء والخميس والجمعة فإنّهم عقروا الناقة يوم الأربعاء وهلكوا بالصيحة يوم السبت وقال لهم صالح : تصبح وجوهكم غداً مصفرّة وبعدغد محمرّة واليوم الثالث مسودّة ثمّ يصبحكم العذاب فكان كذلك ولون جهنّم أسود فعند الهلاك صاروا إلى لون جهنّم .

[فعتوا عن أمر ربّهم] فاستكبروا عن الامتثال به وأمر ربّهم على لسان صالح من قوله : « اعبدوا الله » وقوله : « فذروها تأكل في أرض الله » [فأخذتهم الصاعقة] ولمّا رأوا العلامات الّتي بيّنها صالح من تغيير ألوانهم حسب ما أوعد عمدوا إلى قتله فنجاه الله إلى أرض فلسطين وأخذتهم الصاعقة قيل : أتتهم صيحة من السماء فيها صوت صاعقة فتقطّعت قلوبهم و قيل : اُهلكوا بالصاعقة حقيقة بأن جاءت نار من السماء فأهلكتهم جميعاً [وهم ينظرون] إليها لأنّها جاءت معاينة بالنهار وهذا القول أقوى لأنّ الصيحة لا ينظر إليها

وإنّما تسمع بالأذن ويمكن الجمع بأنّ معها صيحة جبرئيل .

[فما استطاعوا من قيام] وهذا كقوله : « فأصبحوا في دارهم جاثمين(١) » فما قدروا على القيام فضلاً عن الهرب [وما كانوا منتصرين] بغيرهم .

[وقوم نوح] أي وأهلكنا قوم نوح [من قبل] هؤلاء [إنّهم كانوا قوماً فاسقين] خارجين عن الحدود في الكفر والمعاصي وهو علّة لإهلاكهم .

قوله تعالى: والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون (٤٧) والارض فرشناها فنعم الماهدون (٤٨) ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون (٤٩) ففروا الى الله انى لكم منه نذير مبين (٥٠) ولا تجعلوا مع الله الهاً آخر انى لكم منه نذير مبين (٥١) كذلك ما اتى الذين من قبلهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون (٥٢) اتواصوا به بل هم قوم طاغون (٥٣) فتول عنهم وما أنت بملوم (٥٤) وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين (٥٥) وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون (٥٦) ما اريد منهم من رزق وما اريد ان يطعمون (٥٧) ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين (٥٨) فان للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب اصحابهم فلا يستعجلون (٥٩) فويل للذين كفروا من يومهم الذى يوعدون (٦٠) .

نصب السماء على الاشتغال أي و بنينا السماء بأيدٍ أي بقدرة . والقوّة هٰهنا بمعنى القدرة بسبب قدرتنا لأنّ القوّة عبارة عن شدّة البنية وصلابتها المضادّة للضعف و الله منزّه عن ذلك لكنّ القدرة هي الصفة الّتي بها يتمكّن من الفعل وتركه بالإرادة تقول : أيد يأيد أيداً أي قوي و اشتدّ ولما في البدن من القوّة قيل : يد ، وأيّدتك أي قوّيتك وقوّيت يدك [وإنّا لموسعون] أي لقادرون بيان لسعة قدرته والمعنى موسعون السماء و جاعلوها واسعة أو موسعون الرزق .

[والأرض فرشناها] أي فرشناها ومهّدناها من تحت الكعبة ليستقرّوا عليها ويتقلّبوا كما يتقلّب أحدهم على فراشه ومهاده قال مكحول الشامي : إنّ ما بين أقصى الدنيا إلى أدناها مسيرة خمسمائة سنة مائتان من ذلك في البحر ومائتان ليس يسكنها أحد وثمانون

(١) الاعراف : ٧٧ .

فيها يأجوج ومأجوج وعشرون فيها سائر الخلق لكن هذا القول وأمثاله لا يوجب العلم به [فنعم الماهدون] أي فعلنا ذلك على حسب المصالح النافعة للعباد .

[ومن كلّ شيء] أي من أجناس الموجودات [خلقنا زوجين] صنفين ونوعين مختلفين كالذكر والأنثى والسماء والأرض والليل والنهار والصيف والشتاء والإنس والجنّ والأشياء كلّها مركّبة من تركيب يقتضي كونه مصنوعاً وإنّه لابدّ له من صانع [لعلّكم تذكّرون] أي فعلنا ذلك كلّه من البناء والخلقة ليعرفوا أنّه خالق الكلّ وأنّه المستحقّ للربوبيّة والخلق مستحقّ للعبوديّة وكلّ شيء في عالم الملك وهو عالم الأجسام له اتّصال بعالم الملكوت وهو عالم الأرواح وقائم به وملكوته قائم بقدرته تعالى .

[ففرّوا إلى الله] قل يا محمد لقومك : إذا كان الأمر كذلك وهو الخالق لكلّ شيء فاحذروا عصيانه وفرّوا إليه لتنجوا من عقابه كي تفوزوا بثوابه و حاصل المعنى فرّوا بما سوى الله إلى الله ومن المعصية إلى الطاعة ومن الجهل إلى العلم ومن العذاب إلى الرحمة [إنّي لكم منه نذير] لكم من أمره و جهته منذرٌ و مخوّفكم من عصيانه لا من قبل نفسي .

[ولا تجعلوا مع الله إلهاً آخر] كأنّه قيل : وفرّوا من أن تجعلوا معه إلهاً غيره [إنّي لكم منه] أي من هذا الجعل المنهيّ عنه [نذير مبين] وفي الآية تأكيد لما قبله لأنّ هذا الأمر مورد التأكيد لأنّه لا يغفر أن يشرك به .

[كذلك ما أتى الّذين من قبلهم] أي إنّ أمر الّذين من قبلهم من الأمم السالفة بالنسبة إلى رسلهم كذلك مثل تكذيب قريش والمشركين إيّاك [إلّا قالوا] في حقّ ذلك الرسول [ساحر أو مجنون] و أنت لا تأس على تكذيب قومك إيّاك فسلّى نبيّه صلى الله عليه وآله .

[أتواصوا به] إنكار و تعجّب من أمر المكذّبين أي أ أوصى الأوّلون الآخرين بهذا القول الشنيع حتّى اتّفقوا عليه ؟[بل هم قوم طاغون] إضراب عن التواصي واتّفاقهم على هذا الأمر لبعد الزمان وعدم تلاقيهم في وقت واحد وإثبات الطغيان الّذي هو قبيح لأنّ الطغيان شامل لكلّ قبيح وبيان أنّ نفوسهم متمرّدة عن قبول الخير فما أتاهم رسول إلّا استكبروا وأنكروا أمره .

[فتولّ عنهم] و أعرض عن جدالهم [فما أنت بملوم] على التولّي بعد ما بذلت المجهود و كرّرت لهم البيان والدليل ولست بملوم بسبب العجز عن هدايتهم و قبولهم الكفر .

قال المفسّرون : لمّا نزلت هذه الآية حزن رسول الله والمؤمنون وظنّوا أنّ الوحي قد انقطع وأنّ العذاب قد حلّ حتّى نزلت الآية [فذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين] فطابت نفوسهم والمعنى عظ بالقرآن من آمن من قومك فإنّ الذكرى تنفعهم كما قال : « إنّ في ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد[1] » .

والمذكّر يكون تذكيره بأُمور تسعة :

الاول أن يذكّرهم نعم الله عليهم حتّى يشكروا .

والثاني : أن يذكّرهم مثوبات المحن والبلايا حتّى يصبروا .

والثالث : يذكّرهم عقوبة المعاصي حتّى يمتنعوا ويتوبوا .

الرابع : أن يذكّرهم عداوة الشيطان و مكائده حتّى يحترزوا .

الخامس : أن يذكّرهم زوال نعمة الدنيا وفناءها حتّى ينقلعوا عن محبّتها .

السادس : أن يذكّرهم الموت حتّى يتداركوا ما فات .

السابع : أن يذكّرهم أهوال القيامة و وقوعها و أحوال النار و عقوباتها كي يخافوا ولا يطغوا .

الثامن : أن يصف لهم درجات الجنّة ونعيمها كي يرغبوا في الطاعة .

التاسع : أن يذكر لهم مقام القهر والعظمة والجلال ومقام الرحمة والإفضال كي يخافوا و يرجوا .

« وما خلقت الجنّ والإنس إلّا ليعبدون » وقرئ بياء المتكلّم في يعبدون ولعلّ تقديم ذكر الجنّ في الآية لتقدّمه على الإنسان في الوجود أي إنّ خلقهم لأجل إظهارهم العبوديّة والذلّة بالأفعال المخصوصة الّتي هي العبادة الوصفيّة حتّى يتخضّعوا لربّهم بالوجه المشروع الوارد لا بجعلهم من عند أنفسهم وهي رحمة منه وتفضّل على عباده بإيصال الخير

(١) ق ٣٧ .

إليهم بسبب الامتثال ويكفي في تحقّق معنى التعليل هذا الاعتبار في مدلول اللاّم و أنّه غنيّ عن عبادة كلّ عابد وإرادة الفاعل لها فليست من مقتضيات اللاّم حتّى يلزم من عدم صدور العبادة عن البعض تخلّف المراد عن الإرادة كما في قوله : « كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور [1] » و الخلقة لمعرفته والعبادة كاشفة عن المعرفة .

والأشاعرة أنكروا صحّة توجيه أفعال الله معنىً وإن كان واقعاً لفظاً تمسّكاً بأنّ الله مستغن عن المنافع فلايكون فعله لمنفعة راجعة إليه ولاإلى غيره لأنّه قادر على إيصال تلك المنفعة من غير توسيط العمل فلايصلح أن يكون غرضاً فعندهم لام التعليل يكون استعارة تبعيّة تشبيهاً لعادة العباد .

ولكنّ أكثر الفقهاء من العامّة وجلّ العلماء من الخاصّة والمعتزلة قالوا بصحّة توجيه تعليل أفعال الله لمنفعة عائدة إلى عباده تمسّكاً بأنّ الفعل الخالي من الغرض عبث والعبث من الحكيم محال وقالوا : إنّ مراد الله جائز أن يتخلّف عن إرادته إذا كان من الأفعال الاختياريّة للعباد ومصداق هذا القول هذه الآية بعينها لأنّ وضع اللام في ليعبدون بيان أنّ العبادة هي الغرض من خلق الجنّ و الإنس و معلوم أنّ بعضاً منهم لم يعبدوه فيخلف مراده عن إرادته ولايلزم من هذا البيان أنّه كان محتاجاً لهذا الغرض حتّى ينافي الاُلوهيّة و هو تعالى مستكمل بذاته قبل القبل في أزل الآزال لكن بروز آثار الأسماء يتحقّق بعد الكونيّة .

قوله تعالى : [وما اُريد منهم من رزق] أي تعالى شأنه متعالياً عن أن يكون كسائر السادة مع عبيدهم حيث يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معاشيهم وتهيّة أرزاقهم [و ما اُريد أن يطعمون] أي يطعموني أي مستغن عن جميع ذلك وما اُريد منهم رزقي بل أتفضّل عليهم برزقهم وفي الآية تعريض بأصنامهم فإنّهم كانوا يحضرون لها المآكل فربّما أكلتها الكلاب والثعالب ثمّ بالت عليها .

[إنّ الله هو الرزّاق] وهو من قصر الصفة على الموصوف أي لارازق إلاّ الله [ذو القوّة

(١) ابراهيم : ١ .

المتين] على جميع خلقه متين وشديد في القوّة والقوّة يعبّر بها عن القدرة والمتنان مكتنفا الصلب . قال أهل التحقيق : اعتبروا باللبيب الطالب للأرزاق وحرمانه وبالطفل العاجز وتواتر الأرزاق عليه لتعلموا أنّ الرزق طالب وليس بمطلوب ، قيل :من خاصيّة اسم الرزّاق لسعة الرزق أن يقرأ قبل صلاة الفجر في كلّ ناحية من نواحي البيت عشراً يبدء باليمين من ناحية القبلة قال السهروردي المداوم عليه يقضي حاجته من الملوك وولاة الأمر فاذا أراد ذلك وقف مقابلة المطلوب وقرأه سبع عشرمرّة ومن تلاه عشرين يوماً على الريق رُزق ذهناً جيّداً .

[فإنّ للّذين ظلموا] أنفسهم بتعريضها للعذاب الخالد بتكذيب رسول الله و وضعوا مكان التصديق تكذيباً و هم أهل مكّة [ذنوباً] أي نصيباً وافراً من العذاب [مثل ذنوب أصحابهم] أي مثل أنصباء نظرائهم من الأمم المحكيّة و هذا المعنى مأخوذ من مقاسمة السقاة الماء بالذنوب وهو الدلو العظيم قال : لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب [فلا يستعجلون] أصله بياء المتكلّم أي لا يطلبوا منّي أن أعجل في المجيء بالعذاب لأنّ له أجلاً معلوماً نازل بهم في وقته المحتوم و هو جواب لقولهم : «متى هذا الوعد» و كان المستعجل النضر بن الحارث وأصحابه فأمهل إلى يوم بدر ثمّ قتل في ذلك اليوم .

[فويل للّذين كفروا] والويل أشدّ من العذاب والشقاء وواد في جهنّم ووضع الموصول موضع ضميرهم إشعاراً بعلّة الحكم و هو الكفر [من يومهم الّذي يوعدون] وقيل : المراد من يوم يوعدونه يوم بدر وقيل : يوم القيامة و هو الأصحّ تمّت السورة

بحمد الله

سورة الطور

(مكية)

عن جبير بن مطعم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقرء الطور في المغرب .

روى محمد بن هشام عن أبي جعفر قال : من قرأ سورة الطور جمع الله له خير الدنيا و الآخرة .

بسم الله الرحمن الرحيم

والطور(١) وكتاب مسطور (٢) في رق منشور (٣) والبيت المعمور(٤) والسقف المرفوع (٥) والبحر المسجور (٦) ان عذاب ربك لواقع (٧) ماله من دافع (٨) يوم تمور السماء مورا(٩) وتسير الجبال سيراً (١٠) فويل يومئذ للمكذبين (١١) الذين هم في خوض يلعبون (١٢) يوم يدعون الى نار جهنم دعا (١٣) هذه النار التي كنتم بها تكذبون (١٤) افسحر هذا ام انتم لا تبصرون (١٥) اصلوها اليوم فاصبروا اولا تبصروا سواء عليكم انما تجزون ما كنتم تعملون (١٦) .

[والطور] الواو للقسم ، و الطور الجبل بالسريانيّة . قال ابن عبّاس : الطود كلّ جبل ينبت قال الشاعر :

لومرّ بالطور بعض ناعقة * ما أنبت الطور فوقه ورقه

وقيل : هو جبل محيط بالأرض ، الأظهر الأشهر هو جبل مخصوص و هو طور سنين يعني الجبل المبارك وهو جبل واقع بمدين سمع موسى عليه السلام فيه كلام الله ومحلّ قدم الأحباب وقت سماع الخطاب أوبين الشام و مدين بالقرب من أيلة كان إذا جاء موسى للمناجاة ينزل عليه غمام فيدخل في الغمام ويتكلّم وهو الجبل الّذي دكّ عند التجلّي وهناك خرّ موسى صعقاً وهذا الجبل قيل : إذا كسرت حجارته يخرج من وسطها شجر العوسج ويعظّم اليهود شجرة العوسج لهذا السبب .

[و كتاب مسطور] مكتوب على وجه الانتظام فإنّ السطر ترتيب الحروف المكتوبة والمراد به القرآن وقيل : هو الكتاب الّذي كتبه الله للملائكته في السماء يقرءون فيه ماكان وما يكون و آخر سطر في اللوح المحفوظ : سبقت رحمتي غضبي من أتاني بشهادة أن لا إله إلّاالله وأنّ محمّد رسول الله وأنّ عليّاً وليّ الله أُدخله الجنّة . وقيل : هو صحائف الأعمال الّتي

يخرج إلى بني آدم يوم القيامة لقوله : «ويخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً[(١)]» وقيل : هو التوراة كتبه الله لموسى وهو مناسب بالطور .

[في رقّ منشور] الرقّ الجلد الّذي يكتب فيه ، شبه كاغذ استعير لما يكتب فيه الكتابة من الصحيفة وهو ضدّ الغليظ والمنشور خلاف المطويّ نشر الثوب والصحيفة أي بسطها والتنكير للتفخيم .

[والبيت المعمور] قيل : هو الكعبة البيت الحرام معمور بالحاجّ والمعتمرين وقيل: هو بيت في السماء الرابعة بحيال الكعبة تعمره الملائكة قال أمير المؤمنين: يدخله كلّ يوم سبعون ألف ملك ثمّ لايعودون إليه أبداً و روي عن النبيّ ﷺ قال : البيت المعمور في السماء الرابعة فيه نهر يقال له الحيوان يدخل فيه جبرئيل كلّ يوم وإذا خرج انتفض منه انتفاضة جرت منه سبعون ألف قطرة يخلق الله من كلّ قطرة ملكاً يؤمرون أن يأتوا البيت المعمور فيصلّون ثمّ لايعودون أبداً و حرمته في السماء كحرمة الكعبة في الأرض و قيل: في السماءِ السابعة، وسمّي بالضراح ـ بضمّ الضادالمعجمة ـ من التنحية والإبعاد أي رفع وأبعد .

[والسقف المرفوع عن الأرض مقدار خمسمائة عام .

[والبحر المسجور] أي المملوء، وقيل : هو الموقد المحمى بمنزلة التنّور وتحمى البحار يوم القيامة فتجعل نيراناً يفجر بعضها في بعض ثمّ يفجر إلى النار ورد به الحديث، وعلى كون المراد من المسجور هو البحر المحيط الأعظم الّذي منه مادّة البحار و هو بحر لايعرف له ساحل والبحار الّتي على وجه الأرض خلجان منه وفي هذا البحر عرش إبليس وفيه مدائن يطغو على وجه الأرض و هي أهلة من الجنّ و فيه قصور تظهر على وجه الماء ثمّ تغيب و تظهر وفيه من الجزائر المسكونة و الخالية مالايعلمه إلّا الله، قال أمير المؤمنين عليه السلام : هو بحر تحت العرش عمقه كما بين سبع سماوات إلى سبع أرضين فيه ماء غليظ يقال له بحر الحيوان يمطر منه على الموتى ماء كالمنيّ بعد النفخة الأولى أربعين صباحاً فيبيتون في قبورهم .

[إنّ عذاب ربّك لواقع] لنازل بهم حتماً والمراد عذاب الآخرة للكفّار هو جواب

(١) الاسراء : ١٣ .

القسم [ماله من دافع] يدفعه و الفرق بين الدفع و الرفع أنّ الدفع يستعمل قبل الوقوع والرفع يستعمل بعد الوقوع ومعلوم أنّ كلّ معصية و فعل قبيح ووصف ذميم فهو عذاب حكميّ و نار معنويّ و العذاب الصوريّ أثر ذلك وليس من خارج عن الإنسان أمّا في الدنيا فلأنّ التلبّس بسبب الشيء تلبّس بالشيء .

[يوم تمور السماء موراً] يوم ظرف لواقع ، بيان لوقوع العذاب الأكبر في ذلك اليوم والمور الاضطراب قيل : تدور السماء كما تدور الرحى وتنكفيء بأهلها كما تنكفيء السفينة و قيل : يختلج أجزاؤها بعضها في بعض ويموج أهلها بعضهم في بعض ويختلطون وهم الملائكة وذلك من الخوف [وتسير الجبال سيراً] و تزول من أماكنها حتّى تستوي الأرض ، وتسير الجبال كما تسير السحاب ثمّ تنشّ أثناء السير حتّى تصير آخره كالعهن المنفوش لهول ذلك اليوم وتأكيد الفعلين بمصدر لهما للإيذان بغرابتها بحيث لايدرك كنه غرابتها .

[فويل يومئذ للمكذّبين] والفاء فصيحة أو بمعنى المجازاة و التقدير إذا وقع ذلك الأمر فويل لمن كذّب بآيات الله ورسله و كذّب بالبعث وهو لاينافي تعذيب غير المكذّبين من أهل الكبائر لأنّ الويل والعذاب الشديد إنّما هو للمكذّبين بالله ورسوله [الّذين هم في خوض يلعبون] خائضين في الدنيا بالتكذيب و الاستهزاء و الأباطيل من الأقوال و الأفعال شبّه التخبّط بالباطل بخوض الماء وغوصه .

[يوم يدعّون إلى نار جهنّم دعّاً] الدعّ الدفع الشديد أي يدفعون إليها ذلك اليوم دفعاً عنيفاً بأن تغلّ أيديهم إلى أعناقهم و يجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار دفعاً على وجوههم وفي أقفيتهم حتّى يردوها .

[هذه النار] يقال : لهم و القائل خزنة النار قبل الورود هذه النار [الّتي كنتم] في الدنيا [بها تكذّبون أفسحرٌ هذا] تقريع لهم حيث كانوا يسمّونه سحراً و كنتم تقولون : للقرآن النّاطق بهذا الخبر سحرٌ فهذا الأمر سحرٌ أيضاً و الفاء سببيّة لا عاطفة لئلّا يلزم عطف الإنشاء على الإخبار [أم أنتم لا تبصرون] أي أترون هذا العذاب أم لاترون .

ثمّ يقال لهم : [اصلوها] وقاسوا حرّها وشدائدها [فاصبروا أولا تصبروا] لاخلاص

لكم منها [سواء عليكم] خبر مبتدء محذوف دلّ عليه فاصبروا أولا تصبروا أي الأمر سواء عليكم في الصبر و عدمه [إنّما تجزون ما كنتم تعملون] تعليل للاستواء حيث إنّ الجزاء على كفرهم واجب الوقوع حتماً والغفلة عن خالق البريّات والشرك به توقد نار الحسرات .

وفي الآية إشارة إلى التحذير ومراتب الخوف كما أنّ الآية الّتى تليها إشارة إلى مرتبة الرجاء فإنّ الأمن والقنوط كلاهما ممنوع بل كفرٌ فقال : [إنّ المتّقين] عن الكفر و المعاصي [في جنّات و نعيم] النعيم الخفض و الدعة والترفّه والاسم النعمة بفتح النون والنعيم النعم الكثيرة أي إنّهم في لين عيش من الملبوس والمأكول ، وأيّة جنّات و أيّة نعيم كاملة الصفات ؟

ان المتقين في جنات و نعيم (١٧) فاكهين بما آتاهم ربهم ووقيهم ربهم عذاب الجحيم (١٨) كلوا واشربوا هنيئاً بما كنتم تعملون (١٩) متكئين على سرر مصفوفة وزوجناهم بحور عين (٢٠) والذين آمنوا و اتبعتهم ذريتهم بايمان الحقنا بهم ذريتهم وما التناهم من عملهم من شيء كل امرء بما كسب رهين (٢١) وامددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون (٢٢) يتنازعون فيها كأسا لا لغو فيها ولا تاثيم (٢٣) و يطوف عليهم غلمان لهم كانهم لؤلؤ مكنون (٢٤) و اقبل بعضهم على بعض يتساءلون (٢٥) قالوا انا كنا قبل فى أهلنا مشفقين (٢٦) فمن الله علينا ووقانا عذاب السموم (٢٧) انا كنا ندعو من قبل انه هو البر الرحيم (٢٨) .

[إنّ المتّقين] في الجنّة [فاكهين] متلذّذين من النعم [بما آتاهم ربّهم] من الكرامة [ووقاهم ربّهم عذاب الجحيم] صانهم الله عن عذاب النار و الجحمة شدّة تأجّج النار ومنه الجحيم [كلوا واشربوا] أي يقال لهم من قبل خزنة الجنّة دائماً : كلوا و اشربوا [هنيئاً] صفة لمصدر محذوف أي طعاماً وشراباً هنيئاً وترك الذكر لبيان تنوّعهما و كثرتهما والهنيء والمريء صفتان من هنؤ الطعام و مرؤ إذا كان سائغاً لا يورث الكور و الكسل [بما كنتم تعملون] فبيّن أنّ رتب الجنّة بحسب الأعمال لكن يمكن دخولها برحمة الله .

[متّكئين] حالٌ من ضمير كلوا و اشربوا أي معتمدين [على سرر] جمع السرير [مصفوفة] أي مصطفّة بعضها إلى جنب بعض أو المعنى مزيّنة بالذهب والفضّة و الجواهر

قال الكلبيّ : صفّ بعضها إلى بعض طولها مائة ذراع يتقابلون عليها في الزيارة و إذا أراد أحدهم القعود عليها اتّضعت و تطأطأت فإذا قعد عليها ارتفعت إلى أصل حالها .

[وزوّجناهم بحورعين] واحد الحور حوراء وواحد العين عيناء وإنّما سمّين حوراء لأنّ الطرف يحارفي حسنهنّ وعيناء لأنّهنّ الواسعات الأعين أوالحور كيفيّة في العين مثل أن يكون البياض في غاية البياض و سواد العين في غاية السواد و الباء للسببيّة أي الإلصاق والاتّصال وقع بسبب الحور فالتزويج حينئذ ليس على معنى العقد والنكاح فحينئذ تعدّى بالباء و إلّا فعل التزويج ممّا يتعدّى إلى مفعولين بلا واسطة كقوله تعالى : «زوّجناكها(١)» وحاصل المعنى وقرنّاهم بهنّ ، وفي الواقعات المحموديّة مذكور أنّ لأهل الجنّة بيوت ضيافة يعملون فيها الضيافة للأحباب يتنعّمون ولكنّ أهليهم لايظهرن لغير المحارم وعدم ظهورهنّ لامن حيث الحرمة لأنّ الحلّ و الحرمة من توابع التكليف و لا تكليف في الجنّة لكن لأجل تكميل اللذّة .

[و الّذين آمنوا] مبتدء و خبره « ألحقنا بهم » [واتّبعتهم ذرّيّتهم] أي نسلهم [بإيمان] متعلّق بالاتّباع والمعنى واتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمان في الجملة وفي الآية إيذان بثبوت الحكم في الإيمان الكامل إصالة لا إلحاقاً [ألحقنا بهم ذرّيّتهم] أي أولادهم الصغار في الدرجة قال النبيّ ﷺ : إنّ الله تعالى يرفع ذرّيّة المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقرّ عينهم بهم و يكمل سرورهم ثمّ تلا هذه الآية فحينئذ يحكم بإيمان الولد الصغير تبعاً لأحد أبويه فإنّه تعالى لمّا جعلهم تابعين لآبائهم ولاحقين بهم في أحكام الآخرة فينبغي أن يكونوا لاحقين بهم في أحكام الدينا أيضاً .

[وما ألتناهم] أي ما نقصنا الآباء بهذا الإلحاق من باب ألت يألت كضرب يضرب [من عملهم من شيء] أي لم ننقص الآباء من الثواب حين ألحقناهم ذرّيّاتهم و في أطفال المشركين و أهل الفترة والمجانين أقوال كثيرة . قيل : يرسل إليهم يوم القيامة رسول من جنسهم ويدعون إلى الإيمان ويمتحن المؤمن منهم بإيقاع نفسه في النار هناك فمن قبل

---

(١) الاحزاب : ٣٧ .

الدعوة ولم يمتنع عن الايقاع في النار خلص وإلّا دخل جهنّم و قيل في أطفال الكافرين يكونون خدّام أهل الجنّة وقيل يلحقون بآبائهم في النار تبعاً لآبائهم و هذا القول بعيد جدًّا وقال آخرون : إنّهم في الجنّة لكونهم غير مكلّفين وتوقّف طائفة فيه انتهى .

[كلّ امرئ] عاقل [بما كسب رهين] فهو بمكتسباته مرهون والرهن ما يوضع وثيقة للدين أي كلّ إنسان مرهون عند الله بالعمل الصالح والايمان اللّذين هما دين عليه فإن عمل به وأدّاه فكّ رقبته من الرهن و إلّا أهلكها قال النبيّ ﷺ لكعب بن عجزة لا يدخل الجنّة لحم نبت من السحت يا كعب الناس صنفان فمبتاع نفسه فمعتقها و بايع نفسه فموبقها .

[وأمددناهم بفاكهة ولحم ممّا يشتهون] والامداد الاتيان بالشيء وبعد الشيء أي أعطيناهم حالاً فحالاً من جنس الثمار ومن اللّحم من الجنس الّذي يشتهونه .

[يتنازعون فيها كأساً] يتعاطفون كأس الخمر والمراد التداول على طريق التجاذب تجاذب الملاعبة لفرط السرور والمحبّة وفي هذه الكيفيّة نوع لذّة ولا يكون التنازع في الآية بمعنى التخاصم إذ لا خصومة في الجنّة بل يعطون الكؤوس ويأخذونها بعضهم بعضاً والكأس لا تسمّى كأساً إلّا إذا كان فيه شراب كما لا تسمّى مائدة ما لم يكن عليها طعام فمعنى كأساً أي خمراً تسمية لها باسم محلّها .

[لا لغو فيها] والكأس مهموزة مؤنّثة أي لا لغو في شربها ولا يتكلّمون في أثناء الشرب بلغو الحديث واللّغو سقط الكلام وما لا يعتدّ به ويرد لا عن رويّة وفكر فيجري مجرى اللّغاء وهو في الأصل صوت العصافير ونحوها من الطيور [ولا تأثيم] أي ولا يفعلون ما يأثم به فاعله وينسب الاثم من الكذب والسبّ والفواحش كما هو ديدن المنادمين في الدنيا ولا يؤول حالهم في الشرب إلى ما يؤول حال أهل الدنيا .

[ويطوف عليهم] الطواف المشي حول الشيء أي ويدور على أهل الجنّة بالكأس [غلمان لهم] جمع غلام وهو الطار الشارب أي مماليك مخصوصون بهم [كأنّهم لؤلؤ مكنون] كالدرّ المصون المخزون في الصفاء والبياض والحسن والصباحة ومع ذلك للغلمان في خدمتهم حصول اللّذّة والسرور . قيل للنبيّ : يا رسول الله إذا كان الخادم كاللؤلؤ فكيف بالمخدوم ؟

فقال ﷺ : والّذي نفسي بيده إنّ فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب وعنه ﷺ إنّ أدنى أهل الجنّة منزلة من ينادي الخادم من خدّامه فيجيبه ألف خادم ببابه لبّيك لبّيك .

[وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون] أي يسأل بعض أهل الجنّة بعضاً آخر عن أحواله وأعماله على ما هو عادة أهل المجلس يشرعون في التحادث للأُنس و كلّهم سائلون و مسؤولون [قالوا] أي السائلون [إنّا كنّا قبل] أي قبل دخول الجنّة [في أهلنا] في الدنيا [مشفقين] خائفين من عصيان الله وجلين من العاقبة والمراد من الأهل الأزواج والأولاد والعبيد والإماء والأصحاب [فمنّ الله علينا] وأنعم بالرحمة [و وقانا عذاب السموم] و حفظنا من عذاب النار النافذة في المسامّ و ثقب الجسد مثل المنخر والفم والأُذن نفوذ الريح الحارّة الّتي تؤثّر تأثير ألم والإشفاق أرقّ من الخوف والخوف أصلب والشفقة نقيض الغلظة وأصله الضعف من قولهم ثوب شفيق أي رقيق النسج ومنه الشفق للحمرة عند غروب الشمس لأنّها حمرة ضعيفة .

[إنّا كنّا من قبل] المصير إلى الله يعنون في الدنيا [ندعوه] أي نعبده و نسأله الوقاية [إنّه هو البرّ] أي المحسن [الرحيم] كثير الرحمة والبرّ خلاف البحر وفي البرّ التوسّع فاشتقّ منه البرّ أي المتوسّع في فعل الخير و برّ الوالدين التوسّع في الإحسان إليهما .

قال علماء الأخلاق : لا يكون الفقير فقيراً حتّى يكون فيه خصلتان أحدهما الثقة بالله والثانية الشكر له فيما زوي عنه من الدنيا ممّا ابتلي به غيره ولا يكمل الفقير حتّى يكون نظره من الله له في المنع أفضل من نظره له في العطاء و علامة صدقه في ذلك أن يجد للمنع من الحلاوة ما لا يجد للعطاء .

قوله تعالى : فذكر فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون (٢٩) أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون (٣٠) قل تربصوا فاني معكم من المتربصين (٣١) أم تأمرهم احلامهم بهذا أم هم قوم طاغون (٣٢) أم يقولون تقوله بل لا يؤمنون (٣٣) فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين (٣٤) أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون (٣٥) أم خلقوا السموات و الارض بل لا

يوقنون (٣٦) أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون (٣٧) ام لهم سلم يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين (٣٨) ام له البنات و لكم البنون (٣٩) ام تسألهم اجرآفهم من مغرم مثقلون (٤٠) ام عندهم الغيب فهم يكتبون (٤١) ام يريدون كيدا فالذين كفروا هم المكيدون (٤٢) ام لهم اله غيرالله سبحان الله عما يشركون (٤٣) .

ثمّ خاطب نبيّه فقال :

[فذكّر] ولمّا بيّن سبحانه أنّ في الوجود قوماً يخافون الله فأمر نبيّه بالتذكير وفرّع بقوله : « فذكّر » واثبت على ما أنت عليه من العظمة بما اُنزل إليك من الآيات ولا تكترث بما يقولون من الأباطيل .

[فما أنت بنعمة ربّك] (نعمت) رسّمت بالتاء ووقف عليها بالهاء ، أي لست بسبب إنعامه عليك بالنبوّة وزيادة العقل [بكاهن] والكاهن من يبتدع القول ويخبر عمّا سيكون في غيروحي وقيل : الكاهن الّذي يخبر بالأخبار الماضية الخفيّة بضرب من الظنّ كالعرّاف الّذي يخبر عن الأخبار المستقبلة على نحو ذلك ولكون هاتين الصناعتين مبنيّتين على الظنّ الّذي يخطيء و يصيب قال ﷺ : من أتى عرّافاً أو كاهناً فصدّقه بما قال فقد كفر بما أنزل الله على محمّد لأنّ الغيب لا يعلمه إلّا الله .

ويجوز أن يكون الباء في قوله : « بنعمة » للقسم فأقسم سبحانه أنّه ﷺ ليس بكاهن كما يقولون [ولا مجنون] والجنون زوال العقل وستره وفساده و يحصل بحصول الحائل بين النفس والعقل و هو إذا حصل دائماً أو في أكثر أوقات السنة فمطبق و إلّا فدوريّ .

[أم يقولون شاعر] « أم» المكسورة في هذه الآيات منقطعة بمعنى بل لكنّ الخليل قال : ما في سورة الطور من ذكر أم كلمة استفهام وليست بعطف يعني ليست بمنقطعة للتوبيخ « شاعر » أي هو شاعر قال المرزوقيّ شارح الحماسة : تأخّر الشعراء عن البلغاء لأنّ ملوكهم قبل الإسلام وبعده ينجحّون بالخطابة ويعدّونها أكمل أسباب الرياسة ويعدّون الشعر دناءة لأنّ الشعر كان مكسبة وتجارة وفيه وصف اللّئيم عند الطمع بصفة

الكريم والكريم عند تأخر صلته بوصف اللئيم .

ومما يدل على شرف النثر أن الإعجاز وقع في النثر دون النظم لأن زمن النبي ﷺ زمن الفصاحة فلهذا السبب نسبوا الشعر إليه ﷺ وظنوا أنه كان يرجو الأجر على التبليغ و لذا قال الله تعالى : (١) «قل لا أسألكم عليه أجراً» وقال :(٢) «وما علمناه الشعر» و قوله : «أم يقولون شاعر» من باب الترقي لأن الشاعر أدخل في الكذب من الكاهن وقد قيل: أحسنه أكذبه وكانوا يقولون : لا نعارضه مخافة أن يغلبنا بقوة كلامه وإنما نصبر ونتربص موته وهلكه و حينئذ يتفرق أصحابه .

[نتربص به ريب المنون] والمراد بالريب الحوادث التي يترتب ضد مجيء الموت أو حوادث الدهر فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء .

ثم قال سبحانه : [قل] يا محمد : انتظروا حوادث الدهر [وتربصوا فإني معكم من المتربصين] المنتظرين وتربص الكفار بالنبي قبيح وتربص النبي والمؤمنين بالكفار حسن والكلام وإن كان بصورة الأمر ولكن معناه التهديد .

[أم تأمرأحلامهم] الحلم ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب والحكم وإن كان في الحقيقة ليس هو العقل لكن من مسببات العقل ولذا فسر بالعقل قال المفسرون : كانت عظماء قريش توصف بالأحلام و العقول فأزرى الله بعقولهم فقال : بل أتأمرهم عقولهم بما يقولونه لك هذه الأقوال السخيفة ولم تثمر عقولهم بأن غيروا الحق عن الباطل .

ثم أخبر عن طغيانهم فقال : [أم هو قوم طاغون] وقرىء بل هم قوم طاغون يتجاوزون الحدود في المكابرة والعناد .

[أم يقولون تقوله] هو ترق إلى ماهو أبلغ في القبح والإنكار وهو أن نسبوه إلى اختلاق القرآن من تلقاء نفسه وليس الأمر كما زعموا [بل لا يؤمنون] البتة لعنادهم فإن كان الأمر كما زعموا[فليأتوا بحديث مثله] ويأتوا بكلام مثل القرآن وإذا قرىء بحديث منونا فالضمير في «مثله» راجع إلى القرآن وإذا قرىء على طريق الإضافة فيكون الضمير راجعاً إلى النبي

(١) الانعام : ٩٠ .
(٢) يس : ٦٩ .

[إن كانوا] فيما يزعمون [صادقين] فإنّ صدقهم في قولهم يستدعي قدرتهم على الإتيان بمثله لمشاركتهم له ﷺ في العربيّة والبشريّة والفصاحة مع طول الممارسة لهم للخطب والأشعار وقدرتهم على أساليب النظم والنثر وحفظ الوقايع والأيّام ولهم مع ذلك دواع في الإتيان وقد عجزوا ولم يأتوا بمثله ولا بمثل بعضه لأنّ القرآن معجز من حيث معناه وأحكامه و تكاليفه بحيث أن لو اجتمع عقلاء الدنيا بأن يقنّنوا قانوناً في العالم لنظام العالم أكمل وأتمّ من القرآن لا يقدرون ومثله أيضاً لا يقدرون و كذلك معجز من جيث اللّفظ لأنّ القرآن متميّز من خطبة البلغاء ببلوغه حدّ الكمال من إنجاز اللّفظ و التنبيه الغريب والاستعارة البديعيّة وتلاؤم الحروف والكلمات وفواصل الآيات وتجانس الألفاظ وتعريف القصص والأحوال وتضمين الحكم والأسرار وحسن البيان في الطلب وتمهيد المصالح والأسباب والأخبار عمّا كان وما يكون مع أنّ مادّته ألفاظ العرب وألفاظه ألفاظهم و إنّه منظّم من ما ينظّمون به كلامهم وقد أعجزهم القرآن لفظاً ومعنىً .

[أم خلقوا من غير شيء] أي أم أحدثوا وقدروا هذا التقدير البديع من غير محدث وقيل: المعنى أم خلقوا من أجل لا شيء من عبادة وجزاء فحينئذ « من » للسببيّة [أم هم الخالقون] لأنفسهم فلذلك لا يعبدون الله ولا يطيعونه .

[أم خلقوا السماوات والأرض بل لا يوقنون] أي إذا سئلوا من خلقكم و خلق السماوات والأرض ؟ قالوا : الله ، وهم غير موقنين بما قالوا وإلّا لما أعرضوا و أشركوا بعبادته .

[أم عندهم خزائن ربّك] جمع خزانة بالكسر وهو محرز المال أي أعندهم خزائن رزقه ورحمته حتّى يرزقوا من شاءوا ويمسكوها عن من شاءوا حتّى يختاروا لها من اقتضت الحكمة اختياره للنبوّة .

[أم هم المسيطرون] الغالبون على الأمور ويدبّروا أمر الربوبيّة و مسلّطون على الناس فيجبرونهم على ما شاءوا مأخوذ من السطر كأنّه يخطّ للمسلّط عليه خطّاً لا يجاوزه .

[أم لهم سلّم] منصوب إلى السماء والسلّم اسم لما يتوصّل به إلى كلّ شيء رفيع

[يستمعون فيه] فيمن يستمعون معنى الصعود ، و«فيه» متعلّق بمحذوف هو حال من فاعل يستمعون وتقدير الكلام يستمعون صاعدين في ذلك السلّم ومفعول يستمعون محذوف أي إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتّى يكونوا واثقين بقولهم أو في بمعنى على كقوله : « في جذوع النخل» [فليأت مستمعهم] وهو أمر تعجيز أي فليأتوا ماسمعوا [بسلطان مبين] بحجّة واضحة تدلّ على صدق قولهم .

[أم له البنات ولكم البنون] في الكلام إنكار عليهم حيث جعلوا ما يكرهون لله وتركيك لعقولهم واختيارهم وذلك أنّ من جعل خالقه أدون حالاً منه بأن جعل له ما لا يرضى لنفسه كما قال : «وإذا بشّر أحدهم بالاُنثى ظلّ وجهه مسودّاً وهو كظيم[1]» ومن كان في عنوان هذه الخرافات لم يستبعد منه هذه الحماقات .

[أم تسألهم أجراً] رجوع إلى خطابه صلى الله عليه وآله وإعراضاً عنهم أي أتسألهم أجراً على تبليغ الرسالة [فهم من مغرم مثقلون] فهم لأجل إلزام الغرامة يحملون الثقل و في الكشّاف الغرم أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه من غير جناية منه أوما يلزم أدائه و كذلك المغرم والغريم من عليه الدين .

[أم عندهم الغيب] أي اللّوح المحفوظ المثبت فيه الغيوب [فهم يكتبون] ما فيه حتّى يتكلّموا في ذلك بنفي أو إثبات في أمر القيامة وغيرها .

[أم يريدون كيداً] أي يكتفون بهذه المقالات الفاسدة بل يريدون مع ذلك أن يكيدوا بك كيداً وهو كيدهم في دار الندوة وقد مرّ بيانه من القتل والحبس والإخراج في حقّه صلى الله عليه وآله والكيد هو الأمر الّذي يسوء من نزل به أو ضرب من الاحتيال وإرادة مضرّة الغير خفية ؛ وهو من الخلق الحيلة السيّئة ، ومن الله التدبير بالحقّ لمجازاة أعمال الخلق قال بعض المفسّرين مثل السدّي : المعنى أنّ هذا البيان من الأخبار بالغيب فإنّ السورة مكّيّة وذلك الكيد كان وقوعه ليلة الهجرة .

[فالّذين كفروا هم المكيدون] أي هم الّذين يحيق بهم كيدهم ويعود إليهم وبال كيدهم لا من أرادوا أن يكيدوه فإنّه صلى الله عليه وآله الغالب عليهم حجّة وسيفاً والمراد ما أصابهم يوم بدر.

(١) النحل : ٥٨ .

[أم لهم إله غير الله] غنيهم ويحرسهم من عذابه [سبحان الله عمّا يشركون] نزّه نفسه تعالى عمّا ينسبون إليه من الشرك .

قوله تعالى : وان يروا كسفا من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم(٤٤) فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذى فيه يصعقون (٤٥) يوم لايغنى عنهم كيدهم شيئاً ولاهم ينصرون (٤٦) وان للذين ظلموا عذابا دون ذلك ولكن اكثرهم لايعلمون (٤٧) واصبر لحكم ربك باعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم(٤٨) ومن الليل فسبحه وادبار النجوم (٤٩) .

[وإن يروا] قطعة من العذاب أو من السماء أي إن عذّبناهم بسقوط بعض من السماء عليهم لأن ينتهوا عن كفرهم قالوا : هو قطعة من السحاب من فرط طغيانهم و عنادهم والكفّ هوالتغطية كالكسوف والمركوم المتراكم الغليظ أي سحاب هذا تراكم واُلقي بعضها على بعض ولم يصدّقوا أنّه كسف ساقط للعذاب وحاصل المعنى مثل قوله : «ولو فتحنا عليهم باباً من السماء» حتّى شاهدوا بالعين لقالوا : «إنّما سكّرت أبصارنا» فالمعنى [فذرهم] يا محمّد ودعهم [حتّى يلاقوا يومهم الّذي فيه يصعقون] إلى أن يعاينوا اليوم الّذي فيه يهلكون و قرىء مجهولاً من صعقته الصاعقة [يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً] من العذاب بأن يتمكّنوا من ردّ العذاب عن أنفسهم [ولاهم ينصرون] بغيرهم في دفع العذاب عنهم .

[وإنّ للّذين ظلموا] أي لهؤلاء الظلمة من الكفّار مثل أبي جهل و أصحابه [عذاباً] آخر [دون ذلك] أي دون عذاب الآخرة والمراد يوم بدر من القتل والأسر وقيل: يريد عذاب القبر وقيل : المراد الجوع والقحط سبع سنين [ولكنّ أكثرهم لايعلمون] لفرط جهلهم وعنادهم وعلى العاقل أن يعتقد و يتعلّم علم الآخرة وهو من المعلوم الضروريّة الواجبة قال بعض المحقّقين : العلم علمان : علم تحتاج منه مثل مايحتاج من القوت فينبغي الاقتصار على قدر الحاجة منه و هو علم الأحكام فينبغي النظر فيه بقدر ما تمسّ الحاجة إليه في الوقت فإنّ تعلّق تلك العلوم إنّما هو بالأحوال الواقعة في الدنيا للعمل حتّى يكون على بصيرة فقط لا غير وعلمٌ ليس له حدّ يوقف عليه وهو العلم المتعلّق بمعرفة الله

ومواطن القيامة إن العلم بمواطنها يؤدّي العالم بها إلى الاستعداد لكلّ موطن بما يليق به لأنّ الله هو المطالب في ذلك اليوم وهو يوم الفصل فينبغي للإنسان أن يكون على بصيرة من أمره معدّاً للجواب عن نفسه وعن غيره في المواطن الّتي يعلم أنّه يطالب بالجواب.

ومن المواطن القبر ؛ فإنّ الله يحيي العبد المكلّف في قبره ويردّ الحياة إليه و يجعله من العقل في مثل الحال الّذي عاش عليه ليعقل مايسأل عنه وما يجيب به وقد سئل ﷺ لمّا أخبر بفتنة الميّت في قبره وسؤال منكر ونكير وهما الملكان : (قيل : إنّ السائل كان عمر) أيرجع عليّ عقلي؟ قال ﷺ : نعم و أنكره الملحدة ومن تمذهب من الإسلاميّين بمذهب الفلاسفة عذاب القبر لكنّهم بمعزل عن الدين القويم والمداد أعزّ من أن يصرفه الإنسان في الاستمداد ببيان سواد وجوههم وقباحة مذهبهم والأحاديث من رواة العامّة والخاصّة في بيان عذاب القبر و ضغطته أكثر من أن تحصى و كان ﷺ يدعو و يقول : اللّهم إنّي أعوذ بك من عذاب القبر ومن عذاب النار ومن فتنة المحيا والممات ومن فتنة المسيح الدجّال وينجي المؤمن من عذاب القبر وأهوا له خمسة أشياء : الأوّل الرباط في سبيل الله ولو يوماً وليلة والثاني الشهادة بأن يقتل في سبيل الله والثالث قراءة سورة الملك فإنّ من قرأها كلّ ليلة لم يضرّه القتال والرابع الموت مبطوناً فإنّه لايعذّب في قبره والخامس الوقت ففي الحديث من مات يوم الجمعة أو ليلة الجمعة (؟).

قوله : [واصبر لحكم ربّك] بإمهالهم إلى يومهم الموعود وحكم ربّك الّذي حكم به وألزمك التسليم له إلى أن يقع عليهم العذاب الّذي حكمنا عليهم [فإنّك بأعيننا] أي بمرءىً منّا وخبر استناد جمع العين للإيذان بغاية الاعتناء في الحفظ و بكثرة أسباب الحفظ وتأمّل بين الحبيب ودرجة الكليم حيث أفرد فيه العين و قال « و لتصنع على عيني » وعناية عين الله تعالى على محمّد مستمرّة لاينقطع لا في حياته ولو أنّ موته عين الحياة كما روي أنّه ينزل على قبر محمّد ﷺ كلّ صباح سبعون ألف ملك و يضربون أجنحتهم عليه ويحفظونه إلى المساء ثمّ ينزل سبعون ألفاً غيرهم فيفعلون به مافعل الأوّلون و هكذا إلى يوم القيامة روي عن رسول الله ﷺ أنّ من قال : أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم ثلاث مرّات وقرأ ثلاث آيات آخر سورة الحشر « هو الله الّذي لا إله إلّا

هو » إلى آخر السورة حين يصبح و كّل الله به سبعين ألف ملك يحرسونه و كذلك إذا قرأها حين يمسي و كّل الله به سبعين ألف ملك يحرسه قوله : [وسبّح] أي نزّهه تعالى عمّا لايليق به حال كونك متلبّساً [بحمد ربّك] على نعمائه [حين تقوم] من أيّ مقام قمت قال سعيد بن جبير : أي قل حين تقوم من مجلسك : سبحانك اللّهم وبحمدك أي سبّح الله متلبّساً بحمده فإن كان ذلك المجلس خيراً ازددت إحساناً وإن كان غير ذلك كان كفّارة له قال رسول الله ﷺ : من جلس مجلساً فكثر فيه لغطه ـ بالغين المعجمة و الطاء المهملة و هو الكلام الرديء واختلاط أصوات الكلام حتّى لايفهم ـ وقال قبل أن يقوم : سبحانك اللّهم وبحمدك أشهد أن لاإله إلّا أنت أستغفرك وأتوب إليك كان كفّارة له مالم يتعلّق بحقّ آدميّ كالغيبة وكان رسول الله إذا قام لصلاة الليل كبّر عشراً وحمد الله عشراً و سبّح الله عشراً وهلّل عشراً واستغفر عشراً ويتعوّذ من ضيق المقام يوم القيامة .

[ومن الليل فسبّحه] يعني صلاة الليل روى زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم عن الباقر والصادق عليهما السلام في هذه الآية قالا : إنّ رسول الله كان يقوم من الليل ثلاث مرّات فينظر في آفاق السماء ويقرء الخمس من آل عمران الّتي آخرها « إنّك لا تخلف الميعاد » ثمّ يفتتح صلاة الليل الخبر وقيل : معناه صلّ المغرب والعشاء الآخرة [وإدبار النجوم] بكسر الهمزة مصدر أدبر يعني الركعتين قبل صلاة الفجر عن ابن عبّاس وقتادة وهو المرويّ عن الصادقين والرضا عليهم السلام وذلك حين تدبر النجوم أي تغيب بضوء الصبح وقيل : يعني صلاة الفجر المفروضة و قيل : إنّ المعنى لا تغفل عن ذكر ربّك صباحاً ومساءً ونزّهه في جميع أحوالك ليلاً ونهاراً فإنّه لايغفل عنك .

وفي قوله تعالى : « ومن الليل فسبّحه » إشارة إلى أنّه أشقّ على النفس و أثوب وأبعد عن الرياء كما يلوح به تقديمه على الفعل و الليل زمان المعراج و الصلاة معراج المؤمن فمن أراد أن يتأسّى في الجملة برسول الله فليصلّ بالليل و الناس نيام و لشرف ذلك الوقت كان معراجه ﷺ فيه لأقرب الصباح لأنّ في قربه قد يستيقظ بعض النفوس للحاجات وفي ختم هذه السورة بالنجوم وافتتاح الآتية بالنجم أيضاً من حسن الانتهاء والابتداء تمّت بعون الله .

سورة النجم

مكيّة غير آية منها فإنّها نزلت بالمدينة. «الّذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش» الآية ، عدد آيها اثنتان وستّون آية .

فضلها : عن اُبيّ قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله : من قرأ سورة والنجم اُعطي من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بمحمّد ومن جحد به .

و عن الصادق عليه السلام قال : من كان يدمن قراءة والنجم في كلّ يوم أو في كلّ ليلة عاش محموداً بين الناس .

بسم الله الرحمن الرحيم

و النجم اذا هوى (١) ماضل صاحبكم وما غوى (٢) ومـا ينطق عن الهوى(٣)انهو الاوحى يوحى(٤) علمه شديدالقوى (٥) ذومرة فاستوى(٦) وهو بالافق الاعلى (٧) ثم دنى فتدلى (٨) فكان قاب قوسين أوأدنى (٩) فاوحى الى عبده ماأوحى (١٠).

قال صاحب تفسير روح البيان : إنّها أوّل سورة جهر بها رسول الله وجهر بقراءتها في الحرم والمشركون يستمعون نزلت في شهر رمضان من السنة الخامسة من النبوّة ولمّا بلغ ﷺ السجدة سجد معه المؤمنون والمشركون و الجنّ غير أبي لهب في رواية أنّه رفع من تراب حفنة إلى جبهته وقال : يكفيني هذا ، و في رواية كان ذلك الوليدبن المغيرة فإنّه رفع تراباً إلى جبهته فسجد عليه لأنّه كان شيخاً كبيراً لايقدر على السجود وإنّما سجد المشركون .

قال الشيخ إسماعيل الحقّي صاحب تفسير روح البيان : لأنّه ﷺ لمّا بلغ إلى قوله : « أفرأيتم اللات والعزّى * و منات الثالثة الأُخرى » ألحق الشيطان به قوله :

تلك الغرانيق العلى * منها الشفاعة ترتجى

فسمعه المشركون وظنّوا أنّه من القرآن فسجدوا لتعظيم آلهتهم و من ثمّ عجب المسلمون من سجود المشركين من غير إيمان و المراد بالغرانيق العلى الأصنام وشبّهت الأصنام بالغرانيق الّتي هي طائر الماء جمع غرنوق بكسر الغين المعجمة وإسكان الراء وهو طير طويل العنق أوالكركي ووجه الشبه بين الأصنام وتلك الطيور أنّ تلك الطيور تعلو وترفع في السماء فالأصنام مشبهة بها في علوّ القدر وارتفاعه .

أقول : وقد مرّ بيانه في تفسير سورة الحجّ و هذه الرواية رواها ابن عبّاس قال الطبرسيّ في المجمع : إن صحّ الخبر محمول على أنّه كان ﷺ يتلو القرآن فلمّا بلغ إلى هذا الموضع وذكر أسماء آلهتهم وقد علموا من عادته ﷺ أنّه يعيبها قال بعض الحاضرين من المشركين : تلك الغرانيق العلى و ألقى ذلك في تلاوته توهّم أنّ ذلك من القرآن فأضافه الله إلى الشيطان لأنّه إنّما حصل بإغوائه ووسوسته حيث يقول عزّ وجلّ : « و ما أرسلنا من قبلك من رسول ولانبيّ إلّا إذا تمنّى ألقى الشيطان في اُمنيّته»[1] أي في تلاوته . هكذا أورده المرتضى قدّس سرّه في كتاب التنزيه .

وبالجملة قوله تعالى : [والنجم إذاهوى] الواو للقسم أقسم بالنجم و المراد به الثريّا فإنّه اسم غالب عليها و منه قوله ﷺ : ماطلع النجم قطّ و في الأرض من العاهة شيء إلّا رفع يريد ﷺ الثريّا وتسمّى الثريّا أيضاً بالية الحمل لأنّها تطلع بعد بطن الحمل وهي سبعة كواكب ولايكاد يرى السابع منها لخفائه تمتحن به الأبصار وكانت قريش تعظمها و تقول : أحسن النجم في السماء الثريّا وكانت رجلتها عند طلوعها و سقوطها فإذا طلعت بالغداة عدّوها من الصيف و إذا طلعت بالعشيّ عدّوها من الشتاء « إذاهوى » إذا غرب والهويّ السقوط من علو إلى سفل .

و في تفسير قوله : « والنجم إذا هوى » أقوال :

الاول : أنّه تعالى أقسم بالنجم الثريّا إذا سقطت و غابت مع الفجر .

والثاني : أقسم بالقرآن إذا نزل نجوماً متفرّقةً على النبيّ في ثلاث وعشرين سنة فسمّى القرآن نجماً لتفرّقه في النزول والعرب يسمّي التفريق تنجيماً والمفرّق منجّماً .

والثالث : أنّ المراد به جماعة النجوم إذا هوت واُخفيت و أراد به الجنس وإشارة في أفول النجم إلى طلوعه لأنّ مايأفل يطلع فاستدلّ بأفوله و طلوعه إلى وحدانيّته تعالى وقيل : المراد بهويّه وسقوطه يوم القيامة .

والرابع : يعني به الرجوم من النجوم وهو ما يرمى به الشياطين عند استراق السمع وروت العامة عن جعفربن محمّد الصادق عليه السلام : أراد بالنجم محمّداً ﷺ إذا نزل ليلة

---

(١) الحج : ٥٢ .

المعراج والهويّ النزول نزل من السماء السابعة ليلة المعراج ولمّا نزلت السورة و قرأها رسول الله صلى الله عليه وآله جاء عتبة بن أبي جهل(١) إلى النبيّ وطلّق ابنته النبيّ صلى الله عليه وآله و تفل اللعين في وجهه صلى الله عليه وآله و قال : كفرت بالنجم وبربّ النجم فدعا صلى الله عليه وآله عليه و قال : اللهمّ سلّط عليه كلباً من كلابك فخرج عتبة مع أبيه إلى الشام فنزل في بعض الطريق و ألقى الله إليه الرعب فقال : لأصحابه أقيموني بينكم ليلا ففعلوا فجاء أسد أو كلب فافترسه من بين الناس .

الخامس : في المجالس عن ابن عبّاس قال : صلّينا العشاء الآخرة ذات ليلة مع رسول الله فلمّا سلّم أقبل إلينا بوجهه ثمّ قال : إنّه سينقضّ كوكب من السماء مع طلوع الفجر فيسقط في دار أحدكم فمن سقط ذلك الكوكب في داره فهو وصيّي وخليفتي والإمام بعدي فلمّا كان قرب الفجر جلس كلّ واحد منّا في داره فلمّا طلع الفجر انقضّ الكوكب في دار عليّ قال ابن عبّاس ـ وكان أطمع القوم في ذلك ـ: فقال رسول الله لعليّ : يا عليّ و الّذي بعثني بالنبوّة لقد وجبت لك الوصيّة والخلافة والإمامة بعدي فقال المنافقون : لقد ضلّ محمّد في محبّة ابن عمّه وغوى وما ينطق في شأنه إلّا بالهوى فأنزل الله تعالى : «والنجم إذا هوى ماضلّ صاحبكم وماغوى» يعني في محبّة عليّ [وما ينطق عن الهوى] في شأن عليّ [إن هو إلّا وحي يوحى] وعن الصادق عن آبائه عليهم السلام مايقرب منه والقمّي عن الرضا عليه السلام إنّ النجم رسول الله . وعن الباقر عليه السلام يقول : ما ضلّ في عليّ وما غوى وما ينطق فيه عن الميل والهوى وما كان ما قاله فيه إلّا عن الوحي الّذي اُوحي إليه و في الكافي عنه عليه السلام : أقسم سبحانه بمحمّد إذا قبض ما ضلّ صاحبكم بتفضيله أهل بيته و ما غوى وما ينطق بفضل أهل بيته بهواه و هو قول الله : « إن هو إلّا وحي يوحي» إليه .

وفي المجالس عن الصادق عليه السلام إنّ رضى الناس لايملك وإنّ ألسنتهم لاتضبط و كيف تسلمون ممّا لم يسلم منه رسول الله صلى الله عليه وآله و أنبيائه فنسبوا نبيّنا محمّداً إلى أنّه ينطق عن الهوى في ابن عمّه عليّ حتّى كذّبهم الله فقال : «وما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحي يوحى» .

---

(١) الصحيح : عتبة بن أبي لهب .

وبالجملة ماعدل صلى الله عليه وآله عن الحقّ وما فارق الهوى وما خاب عن إصابة الرشد . و قيل : ماخاب سعيه بل ينال ثواب الله و كرامته .

وقوله : «ماضلّ صاحبكم» جواب القسم . والوحي قد يكون اسماً بمعنى الكتاب الإلهيّ وقد يكون مصدراً وله معان الإرسال والإلهام والكتابة والإشارة إلى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قد فنى عن ذاته وصفاته وأفعاله في ذات الله وصفاته وأفعاله بحيث لم يبق منه لااسم ولارسم فكان ناطقاً بنطق الحقّ لا بنطق البشريّة فحينئذ لا يجري عليه الخطرات الشيطانيّة و الهواجس النفسانيّة به وهذا معنى قوله: لست كأحدكم أبيت عند ربّي يطعمني ويسقيني وقوله صلى الله عليه وآله : أنا من الله والمؤمنون منّي .

[علّمه شديد القوى] أي علّم القرآن الرسول و نزل به عليه وقرأه عليه و بيّنه له هذا على أن يكون الوحي بمعنى الكتاب وإن كان بمعني الإلهام فتعليمه بتبليغه إلى قلبه صلى الله عليه وآله فيكون كقوله : «نزل به الروح الأمين على قلبك(١)» «علّمه شديد القوى» من إضافة الصفة إلى فاعلها مثل حسن الوجه والموصوف محذوف أي ملك شديد قواه وهو جبرئيل عليه السلام ويكفيك دليلاً على شدّة قواه أنّه قطع قرى قوم لوط من الماء الأسود تحت الثرى وحملها على جناحه ورفعها إلى السماء حتّى سمع أهل السماء نباح الكلاب و صياح الديكة ثمّ قلبها و صاح بثمود صيحة فأصبحوا جاثمين و رأى جبرئيل إبليس يكلّم عيسى صلى الله عليه وآله في بعض عقبات الأرض المقدّسة فنفخه نفخة بجناحه وألقاه في أقصى جبلٍ في الهند وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده عليه السلام في أسرع من رجعة الطرف .

[ذومرّة] أي حصافة واستحكام في رأيه وعقله و متانة في دينه والمرّة بالكسر قوّة الخلق والعقل وفلان ذومرّة أي محكم الفتل وذومرّة جبرئيل .

[فاستوى] عطف على علّمه أي فاستقام و استقرّ بصورته الّتي خلقه الله عليها و له ستّمائة جناح دون الصورة الّتي كان يتمثّل بها كلّما هبط إلى الأرض كما كان يهبط بالوحي أحياناً بصورة دحية الكلبيّ وأتى إبراهيم في سورة الضيف و لداود في صورة الخصم وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أحبّ أن يراه في صورته الّتي جعل عليها و كان رسول الله صلى الله عليه وآله بجبل

(١) الشعراء : ١٩٣ .

حراء وهو الجبل المسمّى بجبل النور بقرب مكّة فقال جبرئيل : إنّ الأرض لاتسعني و لكن انظر إلى السماء فطلع له جبرئيل من المشرق فسدّ الأرض من المغرب وملأ الأفق فخرّ رسول الله كما خرّ موسى في جبل الطور فنزل جبرئيل في صورة الآدميّين فضمّه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه فإنّ الجسد وهو في الدنيا لايتحمّل رؤية ماهوخارج عن طور العقول .

وما رأى أحد من الأنبياء صورة جبرئيل بصورته غير نبيّنا صلى الله عليه وآله فإنّه رآه فيها مرّتين مرّة في الأرض وهي هذه ومرّة في السماء ليلة المعراج عند سدرة المنتهى . و روي أنّ حمزة بن عبدالمطّلب استدعى من رسول الله وقال : أرني جبرئيل في صورته فقال : إنّك لن تستطيع أن تنظر إليه قال: بلى يا رسول الله أرنيه فقعد و نزل جبرئيل على خشبة في الكعبة كان المشركون يضعون ثيابهم عليها إذا طافوا فقال صلى الله عليه وآله : ارفع طرفك يا حمزة فانظر فرفع عينه فإذاً قدماه كالزبرجد فخرّ مغشيّاً عليه ، وروي أنّه رآه على فرس والدنيا بين كلكلها وفي وجهه اُخدود من البكاء لو اُلقيت السفن فيه لجرت وإنّما رآه صلى الله عليه وآله مرّتين ليكمل له الأمر مرّة في عالم الكون والفساد واُخرى في المحلّ الأعلى وإنّما قام بصورته ليؤكّد أنّ ما يأتيه في صورة دحية هو هو .

فإن قيل : كيف يجوز أن يغيّر الملك صورة نفسه وهل يقدر غير الله على تغيير صورة المخلوقين وقد ثبت أنّ جبرئيل أتى رسول الله في صورة رجل وقد قيل : إنّ إبليس أتى قريشاً(١) في صورة شيخ نجديّ .

فالجواب عنه أنّ التغيير الصورة الّذي هو تغيير التركيب والتأليف لايقدر عليه إلّا الله لكن صفة جبرئيل بفعل الله وقد جعل الله لجبرئيل بأمره هذه القوّة وليس انتقاله عليه السلام من صورة إلى صورة يكون بنقض البنية وتفريق الأجزاء و تمزيقها حتّى إذا انقضت بطل الحياة واستحال وقوع الفعل من الجملة و يحتاج إلى إحياء ثان فيكون تلك القدرة من جبرئيل محال وأمّا إبليس فكان ذلك تخييلاً للناظرين وتمويهاً دون التحقيق كفعل السحرة بالعصيّ والحبال .

---

(١) عند اجتماعهم فى دار الندوة لاطفاء نور الله .

قال القاضي أبو يعلى ولا قدرة للشياطين على تغيير خلقهم والانتقال في الصورة إنّما يجوز أن يكونوا معلّمين كلمات وملقّنين ضرباً من ضروب الأفعال إذا فعله و تكلّم به نقله الله من صورة إلى صورة فيكون قادراً على التصوير و التخييل معنى أنّه قادر على قول إذا قاله أو على فعل إذا فعله نقله الله من صورة إلى صورة اُخرى والتمثّل بصورة رجل أو غيره ليس معناه أنّ ذاته انقلبت رجلاً بل معناه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن خاطبه والقدر الزائد لايزول ولايفنى بل يخفى على الرائي فقط وتعدّد الصور بالتخيّل والتشكّل ممكن كما هو حاصل للجانّ .

قوله: [وهو بالاُفق الأعلى] كناية عن جبرئيل بالاُفق المشرق وهو فوق جانب المغرب في صعيد الأرض لا في الهواء وكان النبيّ ﷺ بحراء جبل النور قرب مكّة وقد مرّ بيانه .

[ثمّ دنا فتدلّى] وقيل: فتدانى و تقديره قرب جبرئيل بعد بعده وعلوّه ثمّ تدلّى أي زاد في القرب مثل قولك : فلان قرب منّي و دنا وقيل : المعنى استوى أي اعتدل واقفاً في الهواء بعد أن كان نزل بسرعة ليراه النبيّ ﷺ بصورته وقيل : إنّ المعنى استوى جبرئيل أي ارتفع وعلا إلى السماء بعد أن علّم محمّداً وقيل : استوى جبرئيل و محمّد بالاُفق الأعلى يعني السماء ليلة المعراج وقيل : إنّ التدلّي استرسال مع التعلّق أي استرسل جبرئيل من الاُفق الأعلى مع تعلّقه به فدنا من النبيّ ﷺ .

[فكان] أي مقدار امتداد مابين رسول الله وجبرئيل و مسافة بينهما [قاب قوسين] و والقوس ما يرمي به وخصّت بالذكر على عادة العرب وقيل : المراد من القوس ما يقاس به الشيء والمراد مقدار ذراعين يقال : قاس الشيء يقوسه إذا قدّره و قوله : [أوأدنى] أو أقلّ من ذراعين أوأقلّ من سيتي القوسين ومسافتهما والعباد يخاطبون على لغتهم و هو كقوله : «أويزيدون[1]» فإنّ التشكيك لايصحّ على الله فأو للشكّ من جهة العباد كما أنّ كلمة لعلّ كذلك في مواضع القرآن والمعنى لورآهما راء منكم لقال : هو قدر قوسين في القرب

(١) الصافات : ١٤٧ .

أوأدنى والتبس القرب عليه و المراد بيان وتمثيل بملكة الاتصال و تحقيق استماعه صلى الله عليه وآله لما أُوحي إليه.

[فأوحى] أي جبرئيل [إلى عبده] أي محمّد و إضماره قبل الذكر لغاية ظهوره مثل قوله: «ماترك على ظهرها[1]» [ما أوحى] من الأُمور العظيمة الّتي لاتفي العبارة أوفأوحى الله بواسطة جبرئيل ما أوحى، وفي العلل عن السجّاد عليه السلام أنّه سئل عن الله هل يوصف بمكان فقال: تعالى الله عن ذلك قيل: فلم أُسري بنبيّه محمّد إلى السماء قال: ليريه ملكوت السماء وما فيها من عجائب صنعه وبدايع خلقه قيل: فقول الله: «ثمّ دنا فتدلّى فكان قاب قوسين أوأدنى» قال: ذلك رسول الله دنا من حجب النور فرأى ملكوت السماوات ثمّ تدلّى فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض حتّى ظنّ أنّه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى فحينئذ الضمير في قوله: «فدنا فتدلّى» راجع إلى النبيّ صلى الله عليه وآله.

وعن الصادق عليه السلام أوّل من سبق إلى الله وذلك أنّه أقرب الخلق إلى الله بالمكان الّذي قال له جبرئيل: لمّا سري به إلى السماء تقدّم يا محمّد فقد وطئت موطئاً ما وطئه ملك مقرّب ولا نبيّ مرسل.

وفي الأماليّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله قال: عرج بي إلى السماء ودنوت من ربّي كان بيني وبينه قاب قوسين أو أدنى فقال لي: يا محمّد من تحبّ من الخلق؟ قلت: يا ربّ عليّاً قال: فالتفت يا محمّد فالتفتّ عن يساري فإذا عليّ بن أبي طالب وفي الاحتجاج عن السجّاد قال: أنا ابن من علا فاستعلى فجاء سدرة المنتهى فكان من ربّه قاب قوسين أو أدنى. وفي الكافي عن الصادق أنّه سئل كم عرج برسول الله فقال: مرّتين فأوقفه جبرئيل موقفاً فقال له: مكانك يا محمّد فلقد وقفت موقفاً ما وقفه ملك ولا نبيّ إنّ ربّك يصلّي فقال: يا جبرئيل و كيف يصلّي قال: يقول سبّوح قدّوس أنا ربّ الملائكة والروح سبقت رحمتي غضبي فقال: اللّهمّ عفوك عفوك.

قال الصادق عليه السلام: ما جاء ولاية أمير المؤمنين من الأرض ولكن جاءت من السماء مشافهة قال الفيض: ولا تنافي بين هذه الأخبار و كلّها صدر من معدن العلم على مقادير

(١) فاطر: ٤٥.

الأفهام المخاطبين والمراد من الآية تمثيل المقدار القرب المعنوي الروحاني بالمقدار الصوري الجسماني المكاني تعالى الله عمّا يقول المشبّهون علوّاً كبيراً والمراد من قوسين مقدار طرفي القوس فيكون مقدار مجموع مقدار جعل الطرفين من القوس قوساً على حدة لا أنّه طرفي قوسين متعدّدين فيكون مقدار مجموع القوسين مقدار قوس واحد.

قوله تعالى : ما كذب الفؤاد ما رأى (١١) أفتمارونه على ما يرى (١٢) ولقد رآه نزلة اخرى (١٣) عند سدرة المنتهى (١٤) عندها جنة المأوى (١٥) اذ يغشى السدرة ما يغشى (١٦) ما زاغ البصر وما طغى (١٧) لقد رأى من آيات ربه الكبرى (١٨) أفرأيتم اللات والعزى (١٩) ومناة الثالثة الاخرى (٢٠) ألكم الذكر وله الانثى (٢١) تلك اذاً قسمة ضيزى (٢٢).

ثمّ بيّن سبحانه ما رآه النبيّ ليلة الأسرى وحقّق رؤيته فقال : لم يكذب فؤاد محمّد ما رآه بعينه وما أوهمه الفؤاد إنّه رأى ولم ير بل حقيقة رأى و صدّقه الفؤاد رؤيته . وقيل : المراد رأى محمّد ربّه بفؤاده وبصيرته لا بعينه روي ذلك عن محمّد بن الحنفيّة عن أبيه عليه السلام فحينئذ يكون بمعنى العلم أي علّمه علماً يقينيّاً بما رآه بعينه من الآيات الباهرة كقول إبراهيم : « ولكنّ ليطمئنّ قلبي[1] » وإن كان عالماً قبل ذلك وقيل : المراد ممّا رأى من صورة جبرئيل أي ما قال فؤاده لمّا رآه لم أعرفك لأنّه عرفه بقلبه كما رآه ببصره .

[أفتمارونه على ما يرى] أي أتكذّبون محمّداً فتجادلونه على ما يراه معاينة من صورة جبرئيل أو آيات جلال ربّه وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا أخبر بما رأى ليلة الأسرى أنكروا عليه وتعجّبوا و المماراة المجادلة بالباطل واشتقاقه من مرى الناقة سخت ضرعها لتدرّ ومريت الفرس إذا استخرجت ما عنده من الجري ولمّا كانت رؤية جبرئيل أو الآيات مستمرّة إلى وقت الانتقال صحّ أن يقال بصيغة المستقبل .

القمّي : سئل رسول الله عن ذلك الوحي فقال : اُوحي إليّ أنّ عليّاً سيّد المؤمنين وإمام المتّقين وأوّل خليفة استخلفه خاتم النبيّين فدخل القوم في الكلام فقالوا : أمن الله أو من رسوله فقال الله لرسوله : قل لهم : « ما كذب الفؤاد ما رأى » ثمّ ردّ عليهم فقال :

---

(١) البقرة : ٢٦٠ .

« أفتمارونه على ما يرى » فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : اُمرت أن أنصبه للناس فأقول : هذا وليّكم من بعدي و إنّه بمنزلة السفينة يوم الغرق من دخل فيها نجا و من خرج عنها غرق .

[ولقد رآه نزلة اُخرى] أي رأى جبرئيل في صورته الّتي خلق عليها مرّة اُخرى ونزلة منصوب على الظرف الّذي هو مرّة لأنّ الفعلة للمرّة من الفعل فكانت في حكمها في المعنى فيكون تقدير الكلام وبالله لقد رأى محمّد جبرئيل على صورته الأصليّة مرّة اُخرى من النزول وذلك أنّه كان للنبيّ عليه السلام ليلة المعراج عرجات لمسألة التخفيف في أعداد الصلاة المفروضة فيكون لكلّ عرجة نزلة فرأى جبرئيل بصورته الأصليّة في بعض تلك النزلات .

[عند سدرة المنتهى] أي كان جبرئيل عند السدرة و هي شجرة عن يمين العرش فوق السماء السابعة انتهى إليها علم كلّ ملك أو ينتهي ما يعرج إلى السماء وما يهبط من فوقها وهذه الشجرة حيث انتهى إليه الملائكة فاُضيفت إليه وقيل : هي شجرة طوبى وهو مقام جبرئيل وكان قد بقي هناك عند عروجه صلى الله عليه وآله إلى مستوى العرش فقال جبرئيل : لو دنيت أنملة لاحترقت والظاهر أنّ شجرة السدرة تبق في السماء السابعة عن يمين العرش ورقها كاُذان الفيلة نبع من أصلها الأنهار المذكورة في القرآن و ينتهي إليها الملائكة و جبرئيل رسول الملائكة إذا لم يتجاوزها فبالحريّ أن لا يتجاوزها غيره فأعلاها لجبرئيل كالوسيلة للنبيّ صلى الله عليه وآله و كما أنّ خواصّ الاُمّة يشتركون مع النبيّ في جنّة عدن بدون أن يتجاوزوا إلى مقامه المخصوص به فكذا الملائكة يشتركون مع جبرئيل في السدرة بدون أن يتعدّوا إلى ما خصّ به من المكان وإليها ينتهي علم الخلائق ولا يعلم أحد ما وراءها ولو أنّ ورقة من تلك السدرة وضعت لأهل الأرض لأضاءت الأرض وإضافة السدرة إلى المنتهى إضافة الشيء إلى مكانه كقولك :أشجار البستان وإذا كان الفرض أنّ الضمير المفعول في قوله : « رآه » راجع إلى الله كما أنّ المرئيّ هو الله يعني أنّ محمّداً رأى الله مرّة اُخرى يعني مرّتين كما كلّم موسى مرّتين فحينئذ كلمة «عند سدرة المنتهى» حال من الرائي لا من المرئيّ لأنّ الله منزّه عن أن يحلّ في مكان أو زمان و « عند » متعلّق برأى .

قال ابن برجان : الإسراء مرّتين الأولى بالفؤاد وهذه المرّة بالعين ولمّا كان ذلك لا يتأتّى إلّا ينزل بقطع مسافة البعد الّتي هي الحجب عبّر بقوله : « نزلة أخرى » وعبّر الوقت بتعيين المكان فقال : « عند سدرة المنتهى » ولكن جلّ المفسّرين جعلوا الضمير في قوله « رآه » كناية إلى جبرئيل لا إلى الربّ كما قالت عايشة : سألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال ﷺ : رأيت جبرئيل نازلاً في الأفق على صورته الأصليّة .

قال صاحب تفسير روح البيان : إنّ الشيخ الأكبر قال : إنّ معراجه ﷺ أربع و ثلاثون مرّة واحدة بجسده و الباقي بروحه . قال البقلي : بان الحقّ لحبيبه عند شجرة السدرة لا بالتجسّم كما بان لموسى من شجرة العنّاب .

وبالجملة فعظّم الله بيان شرف السدرة فقال : [عندها جنّة المأوى] وإضافة الجنّة إلى المأوى مثل إضافة مسجد الجامع أي قرب السدرة جنّة الخلد وهي في السابعة وقيل : هي الجنّة الّتي كان آوى إليه آدم عليه السلام وتصير إليها أرواح الشهداء . وقيل : هي الّتي يأوي إليه جبرئيل والملائكة وهذه الجنّة لا تقتضي الخلود لذاتها فلذلك أمكن خروج آدم منها .

[إذ يغشى السدرة ما يغشى] الغشيان بمعنى التغطية والستر و كلمة « إذ » ظرف زمان لرآه قال النبيّ ﷺ : رأيت السدرة رفرف أي جماعة من طيور خضر - وقيل : يغشاها فراش أو جراد من ذهب - ورأيت على كلّ ورقة ملكاً قائماً يسبّح الله فالطيور هم الملائكة . و قيل : يغشاها من النور والبهاء والصفاء الّذي يروق الأبصار ، و حاصل المعنى : إنّه صلّى الله عليه وآله رأى جبرئيل في الحال الّتي يغشى فيها السدرة من الملائكة بصورة الفراش يعبدون الله .

والتنكير في قوله : « ما يغشى » لتفخيم الأمر مثل قوله : « ما أوحى » . و قيل : المراد من قوله : « ما يغشى » المراد الملائكة الّذين استأذنوا للقاء النبيّ ﷺ فأذن لهم وقيل لهم : لا تأتوه بغير نثار فجاء كلّ واحد منهم بطبق من أطباق الجنّة عليه من اللّطائف فنثروه بين يديه . و في الحديث أنّه ﷺ أعطي عند السدرة ثلاثاً الصلوات الخمس وخواتيم سورة البقرة وغفر لمن مات من أمّته وهو غير مشرك بالله شيئاً .

[ما زاغ البصر] أي ما مال بصر رسول الله أدني ميل عمّا رآه [وما طغى] و ما تجاوز مع ما شاهد هناك من الأُمور العظيمة المدهشة للعقول وما عدل عن رؤية العجائب الّتي أُمر برؤيتها ويستفاد من الآية على أنّ رؤيته ﷺ الآيات كانت بعين بصره حقيقة ويقظة لا حكماً وقلباً ولو كانت الرؤية قلبيّة لقال ما زاغ قلبه ولو كان المراد بالبصر بصر قلبه فلابدّ له من القرينة وهي ههنا معدومة .

[لقد رأى من آيات ربّه الكبرى] أي و بالله لقد رأى محمّد ليلة المعراج الآيات الّتي هي كبراها وعظماها ما لا يحيط به نطاق العبارة الّتي منها ما ذكر في الرفارف والسدرة وصورة جبرئيل وغيرها واعلم أنّ القدم منزّه عن الحلول في المكان وكانت الشجرة مرآة لظهور جلاله تعالى جلّ جلاله وكان الإسراء ليلة السابع والعشرين من رجب في السنة الثانية عشر من النبوّة قبيل الهجرة .

قال صاحب تفسير روح البيان : إنّ وقوع الإسراء في هذا التاريخ فيه إشكال بل يكون قبل هذا التاريخ لأنّ هذه السورة على ما قيل : نزلت في السنة الخامسة من النبوّة .

وأوّل من رأى ﷺ في السماء ليلة الإسراء آدم في السماء الدنيا وكان آدم قبل ذلك في أمن الله وجواره فأخرجه عدوّه إبليس منها وما أشبه حاله ﷺ بحال آدم حين أخرجه أعداؤه من حرم الله وجوار بيته و كربته .

ثمّ رأى ﷺ في السماء الثانية عيسى و يحيى وهما الممتحنان باليهود أمّا عيسى فكذّبته اليهود وآذته وهمّوا بقتله فرفعه الله وأمّا يحيى فقتلوه كذلك يشبه حاله ﷺ بحالهما من أذى اليهود إيّاه ﷺ وهمّوا بإلقاء الصخرة عليه ليقتلوه وسمّوا في الشاة فلم تزل تلك الأكلة تعاوده حتّى قطعت أبهره .

و في السماء الثالثة لقاؤه ليوسف عليه السلام يشبه حاله حال يوسف و ذلك أنّ يوسف ظهر بإخوته بعد ما أخرجوه من بين ظهرانيهم فصفح عنهم و قال : « لا تثريب عليكم اليوم[1] » الآية ، وكذلك نبيّنا ﷺ أسر يوم بدر جملة من أقاربه الّذين أخرجوه من

(١) يوسف : ٩٢ .

مكّة وفيهم عمّه العبّاس وابن عمّه عقيل فمنهم من أطلق و منهم من فداه وظفر بعد ذلك عليهم عام الفتح فجمعهم وقال لهم : أقول لكم ما قال أخي يوسف : « لا تثريب عليكم » .

و كذلك لقاؤه صلى الله عليه وآله إدريس في السماء الرابعة وهو المكان الّذي سمّاه الله مكاناً عليّاً وهو أوّل من آتاه الله الخطّ بالقلم وهو مؤذّن بحاله رافعة وعلوّ شأنه حين أخاف الملوك و كتب صلى الله عليه وآله إليهم يدعوهم إلى طاعته حتّى قال أبو سفيان : وهو عند ملك الروم حين جاء كتاب النبيّ ورأى ما رأى من خوف هرقل لقد آل أمر ابن أبي[(١)] كبشة حتّى أصبح يخافه ملك ابن أبي الأصفر و كتب إلى بعض ملوك الأرض فمنهم من اتّبعه على دينه كالنجاشيّ و ملك عمّان ومنهم من هادنه وأهدى إليه و أتحفه كهرقل ملك الشام ومقوقس سلطان مصر ومنهم من تعصّى عليه فأظفر الله عليه فهذا مقام عليّ .

و لقاؤه في السماء السادسة لموسى عليه السلام يؤذن بحاله تشبه بحالة موسى حين أمر بغزوة الشام على الجبابرة بعد إهلاك فرعون كذلك النبيّ صلى الله عليه وآله غزا تبوك من أرض الشام وظهر على صاحب دومة الجندل حين صالحه على الجزية بعد أن أتى أسيراً وافتتح مكّة وأدخل أصحابه البلد الّذي خرجوا منه .

ثمّ لقاؤه في السماء السابعة لإبراهيم وهو الرافع لقواعد الكعبة المحجوجة ويؤذن بأنّه صلى الله عليه وآله يحجّ هو وأصحابه ويتبع إبراهيم بالحجّ وقيام أمره .

قال أهل التحقيق : إنّ الله لا يرى ولا يمكن أن يرى كما هو الحقّ وهذه الآيات دالّة على أنّ محمّداً لم ير الله ليلة المعراج وإنّما رأى آيات ربّه المعظمة لأنّه تعالى ختم قصّة المعراج برؤية الآيات حيث قال : « لقد رأى من آيات ربّه الكبرى » وقال في موضع آخر : « سبحان الّذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام[(٢)] » إلى أن قال : « لنريه من آياتنا » ولو كان رآه لكان ذلك أعظم ما يكون من الكرامة وكان يذكره و يختم به .

أقول : ورؤية ذاته تعالى أمر محال غير ممكن ولا يحصل أبداً في الدنيا ولا في الآخرة

---

(١) يلقبون به رسول الله صلى الله عليه وآله . لما سيأتي ذيل قوله تعالى : « وانه هو رب الشعرى » .

(٢) الاسراء : ١ .

ولكنّه أظهر سبحانه لحبيبه من قدرته المظاهر العظيمة و الآيات الكبرى الّتي مفاتيح الفيض من فيضه الأقدس سبحانه لحبيبه المنتخب من كلّ العالم بحيث صارت حياته ﷺ مادّة حياة العالم كلّه علويّة وسفليّة روحانيّة و جسمانيّة معدنيّة و نباتيّة حيوانيّة و إنسانيّة كما قال عزّ وجلّ : « وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين [1] » وقال : لولاك لما خلقت الأفلاك وقال ﷺ : أنا من الله والمؤمنون منّي .

و كذلك علمه ﷺ فقد علم الأوّلين والآخرين وفي رواية علم ما كان وماسيكون وصار ﷺ ببركة تجلّي صفاته تعالى شأنه له صار آدم بتبعيّته وخلافته خليفة العالم كما أخبر في كتابه العزيز « إنّي جاعل في الأرض خليفة » وأسجد الله الملائكة لتلألؤ نور هذا الحبيب في وجه آدم انتهى .

[أفرأيتم اللاّت والعزّى ومناة الثالثة الاُخرى] هي أصنام كانت لهم فاللاّت كانت لثقيف بالطائف وأصله من لويه لأنّهم كانوا يلوون عليها و يطوفون بها و هذا الأصل على قراءة الكسائيّ فإنّه كان يقف باللاّة بالهاء ويجعلها من هذه المادّة والباقون يقفون بالتاء وأصله من اللاّت وأصله من اسم رجل كان يبيت السويق للحجّاج بسمن وأقط إذا قدموا و كان رجلاً صالحاً وكانت العرب تعظم ذلك الرجل بإطعامه في كلّ موسم فلمّا مات اتّخذوا مقعده الّذي كان يبيت فيه السويق منسكاً ثمّ سنح لهم الأمر إلى أن عبدوا تلك الصخرة الّتي كان يقعد عليها ومثّلوها صنماً وسمّوها اللاّت أي ملتّ السويق .

والعزّى تأنيث الأعزّ كانت لغطفان وهي سمرة كانوا يعبدونها فبعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد فقطّعها وهو يقول :

يا عزّ كفرانك لا سبحانك * إنّي رأيت الله قد أهانك

قيل : فخرجت من أصلها شيطانة باشرة شعرها واضعة يدها على رأسها و هي تولول فجعل خالد يضربها بالسيف حتّى قتلها وقيل : صنم لاسمرة ، وأوّل من اتّخذها ظالم بن اسعد من ملوك اليمن قيل : كانوا يسمعون فيها الصوت فبعث إليها خالد فهدم البيت الّذي هي فيه وأحرق السمرة .

---

(١) الانبياء : ١٠٧ .

ومناة صخرة لهذيل وخزاعة سمّيت ، لأن دماء المناسك تمنى وتراق عندها و منه منى وفي إنسان العيون : مناة صنم كان للأوس والخزرج . أرسل رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأشهلي في عشرين فارساً إلى مناة ليهدم محلّها فلمّا وصلوا إلى ذلك الصنم قال السادن لسعد : ما تريد ؟ قال : هدم مناة قال : أنت وذاك فأقبل سعد إلى ذلك الصنم فخرجت إليه امرأة عريانة سوداء ثائرة الرأس تدعو بالويل وتضرب راسها فقال لها السادن : مناة دونك بعض عصاتك فضربها سعد فقتلها وهدم محلّها .

و وصف مناة بالثالثة تأكيداً لأنّها لمّا عطفت عليها علم أنّها ثالثتهما و الأخرى صفة ذمّ لها وهي المتأخّرة الوضيعة المقدار لأنّ الأخرى يستعمل في الضعفاء كقوله تعالى «قالت أخراهم لأولاهم[1]» أي ضعفاؤهم لرؤسائهم . والأخرى تأنيث الآخر بفتح الخاء و هو في الأصل المتأخّر في الوجود نقل في الاستعمال إلى المغايرة مع الاشتراك مع موصوفه فيما أثبت له و كانت الأوّلية و التقدّم عندهم للّات فيكون مناة من المتأخّر الرتبي .

وقيل : إنّ المشركين أرادوا أنّ لآلهتهم من الأسماء الحسنى فسمّوا في مقابلة اسم الله اللات وفي مقابلة العزيز العزّى وفي مقابلة المنّان المناة وكانوا يقولون : إنّ الملائكة وتلك الأصنام بنات الله .

والحاصل في معنى الآية : أخبروني عن حال آلهتكم الّتي تعبدونها و اتّخذتموها معبوداً هل وجدتم فيها صفة من صفات الأُلوهيّة من الإيجاد والإعدام والنفع والضرّ لا بل اتّخذتموها آلهة لغاية جهلكم وظلمكم على أنفسكم، والهمزة للإنكار والتبكيت و المفعول الثاني من رأيتم محذوف لدلالة الكلام عليه تقديره خالقة و كان بعض المشركين يقولون : إنّ الملائكة بنات الله وهذه الأصنام صورتها ويعبدونها فقال سبحانه على سبيل التوبيخ مثل توبيخ الأوّل :

[ألكم الذكر وله الأُنثى] أي الّذي تستنكفون منه تنسبونه إليه تعالى [تلك إذاً قسمة ضيزى] إشارة إلى القسمة القبيحة المستنبطة من الجملة الاستفهاميّة و ضيزى فعلى

---

(١) الاعراف : ٣٨ .

بضمّ الضاد من ضاز يضيز ضيزاً إذا جار في الحكم وضازه حقّه إذا بخسه ونقصه أي ماهذا إلّا قسمة الجور .

ان هى الا اسماء سميتموها أنتم واباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون الاالظن وما تهوى الانفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى (٢٣) ام للانسان ماتمنى (٢٤) فلله الاخرة والاولى (٢٥) وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئاً الامن بعد ان يأذن الله لمن يشاء ويرضى (٢٦) ان الذين لايؤمنون بالاخرة ليسمون الملائكة تسمية الانثى (٢٧) ومالهم به من علم ان يتبعون الا الظن ان الظن لايغنى من الحق شيئاً (٢٨) فاعرض عن من تولى عن ذكرنا ولم يرد الاالحياة الدنيا (٢٩) ذلك مبلغهم من العلم ان ربك هو اعلم بمن ضل عن سبيله وهو اعلم بمن اهتدى (٣٠) .

[إن هي إلّا أسماء] أي ليس تسميتكم هذه الأصنام بأنّها آلهة وأنّها بنات الله إلّا مجرّد الأسامي لامعاني لها ولامصاديق تحت هذه الأسماء لأنّه لاضرّ لها ولانفع وما هي إلّا مجرّد الأسامي لامعاني لها ولا مصاديق تحت هذه الأسماء لأنّه لاضرّ لها ولا نفع و ماهي إلّاأسماء اُلقيت على جمادات [ماأنزل الله بها من سلطان] أي لم ينزل الله حجّة وكتاباً لكم فيها و ليس لكم فيما تقولونه حجّة [سمّيتموها أنتم وآباؤكم] وأسماء خالية عن المسمّيات وضعتموها للأصنام أنتم ومن تقدّم منكم بمقتضى أهوائكم الباطلة .

[إن يتّبعون إلّا الظنّ] التفات إلى الغيبة للإيذان بأنّ تعداد قبائحهم اقتضى الإعراض عنهم وما يتّبعون إلّا توهّم أنّ ماهم عليه حقّاً [وما تهوى الأنفس] ويشتهونها تأسّياً بأفعال آبائهم و هوى أنفسهم [ولقد جاءهم من ربّهم الهدى] حال من فاعل يتّبعون وفيه تأكيد لبطلان اتباع الظنّ وهوى النفس والهدى القرآن والرسول ولم يهتدوا بهما مع أنّ القرآن و الرسول والمعجزات من موجبات الهدى وقد أعرضوا لجهلهم .

[أم للإنسان ماتمنّى] أي ليس للإنسان كلّ مايتمنّاه وتشتهيه نفسه من الاُمور الّتي من جملتها طمعهم الفاسد في شفاعة هؤلاء الجمادات .

ما كلّ مايتمنّى المرء يدركه ❊ تجري الرياح بما لاتشتهي السفن

و قيل : المعنى أم للإنسان ما اشتهى من طول الحياة وأن لابعث ولاحشر ولايتهيّأ له كلّ مايتمنّاه إذ كلّ ميسّر لما أراداللہ .

[فللّه الآخرة والأولى] تعليل لانتفاء أن يكون للإنسان مايتمنّاه فإنّ اختصاص أمور الآخرة والأولى به تعالى مقتض لانتفاء أن يكون له أمرٌ من الأمور التكوينيّة .

[و كم من ملك في السماء] إقناط لهم ماطمعوا من شفاعة الملائكة حيث عبدوها و كم خبريّة مفيدة للتكثير و محلّها الرفع على الابتداء و الخبر الجملة المنفيّة أي و كثير من الملائكة [لاتغني شفاعتهم] عنداللہ [شيئاً] من الإغناء ولاتنفع شيئاً من النفع و ليس المعنى أنّ الملائكة يشفعون فلاتنفع بل المعنى أنّهم لايشفعون لأنّه لايؤذن لهم في الشفاعة كما يفصح عن هذا المعنى [إلّا من بعد أن يأذن اللہ] لهم في الشفاعة [لمن يشاء] أن يشفعوا له [و يرضى] و يراه أهلاً للشفاعة و يكون مرضيّ الدين ومن أهل التوحيد والإيمان وأمّا من عداهم من أهل الكفر والنفاق فهم من إذن اللہ بمعزل فإذا كان حال الملائكة في أمر الشفاعة كذلك فحال الأصنام الجماديّة والنباتيّة معلومة .

[إنّ الّذين لايؤمنون بالآخرة] وبما فيها من العقاب على مايتعاطونه من الكفر والمعاصي [ليسمّون الملائكة] المنزّهين عن سمات النقص [تسمية الأنثى] أي تسمية مثل تسمية الأنثى .

فإن قيل : كيف يصحّ أن يقال : إنّهم لايؤمنون بالآخرة مع أنّهم كانوا يقولون : هؤلاء شفعاؤنا عنداللہ وكان من عادتهم أن يربطوا مركوب الميّت على قبره و يعتقدون أنّه يحشر عليه ؟

فالجواب أنّهم لايجزمون به بل كانوا يقولون : لانحشر فإنّ حشرنا فلنا شفعاء بدليل قوله حكاية عنهم : « و ما أظنّ الساعة قائمة ولئن رجعت إلى ربّي إنّ لي عنده للحسنى »(١) ثمّ إنّهم ماكانوا يعترفون على الوجه الّذي ورد به الرسل .

و اعلم أنّ الملائكة ليسوا بذكور ولا أناث يعني أنّه ليس لهم آلة الرجوليّة و لا آلة الأنوثيّة وما في الحديث من أنّه صلى الله عليه وآله قال : أتاني جبرئيل فعلّمني الوضوء والصلاة

(١) حم السجدة : ٥٠

فلمّا شرع في الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه أي محلّ الفرج من الإنسان .

[و ما لهم به من علم] أي يسمّون والحال أنّه لاعلم لهم بما يقولون أصلاً [إن يتّبعون] أي مايتّبعون [إلّا الظنّ] الفاسد وليس في الكلام تكرار لأنّ الأوّل متّصل بعبادتهم اللّات والعزّى ومناة والثاني بعبادتهم الملائكة [و إنّ الظنّ لايغني من الحقّ شيئاً] مرّ تفسيره والظنّ لا اعتداد به في شأن المعارف الأُصوليّة . والحقّ في الآية يجوز أن يكون بمعنى العلم وقيل : الحقّ في الآية بمعنى العذاب .

ثمّ خاطب نبيّه فقال : [فأعرض] يا محمّد [عن من تولّى عن ذكرنا] ولم يقرّ بتوحيدنا ومال إلى الدنيا و منافعها والمراد من الإعراض في الآية أن لاتقابلهم على أفعالهم و احتملهم ولاتدع مع هذا دعاءهم إلى الحقّ .

[ذلك مبلغهم من العلم] أي الإعراض عن التدبّر في أُمور الآخرة وصرف الهمّة إلى التمتّع باللذّات العاجلة منتهى علمهم و هو مبلغ خسيس لأنّه من طباع البهائم لا تنتظر العافية .

[إنّ ربّك هو أعلم] منك و من جميع الخلق [بمن ضلّ عن سبيله] و عدل عن سبيل الحقّ [وهو أعلم بمن اهتدى] فيجازي كلّاً على حسب أعمالهم .

ولله ما فى السموات والارض ليجزى الذين اساءوا بما عملوا ويجزى الذين احسنوا بالحسنى (٣١) الذين يجتنبون كبائر الاثم والفواحش الا اللمم ان ربك واسع المغفرة هو اعلم بكم اذ انشأكم من الارض و اذ انتم اجنة فى بطون امهاتكم فلاتزكوا انفسكم هو اعلم بمن اتقى (٣٢) أفرأيت الذى تولى (٣٣) واعطى قليلا و اكدى (٣٤) اعنده علم الغيب فهو يرى (٣٥) ام لم ينبأ بمافى صحف موسى (٣٦) وابراهيم الذى وفى (٣٧) الا تزر وازرة وزر اخرى (٣٨) و ان ليس للانسان الا ماسعى (٣٩) و ان سعيه سوف يرى (٤٠) ثم يجزاه الجزاء الاوفى (٤١) .

ثمّ أخبر سبحانه عن كمال قدرته فقال :

[ولله] ملك [السماوات] وهذا اعتراض بين الآية السابقة و بين قوله : [ليجزي

(١) حم السجدة : ٥٠ .

الّذين أساءوا بماعملوا] واللام في قوله : « ليجزي » متعلّق بمعنى الآية السابقة لأنّه إذا كان أعلم بهم جازى كلاًّ منهم بما يستحقّه واللام لام العاقبة و ذلك أنّ علمه تعالى بالفريقين أدّى إلى جزائهم باستحقاقهم و إنّما يقدر على مجازاة المحسن والمسيء إذا كان كثير الملك ولذلك أخبر به في قوله : « ولله ما في السماوات ومافي الأرض ليجزي » في الآخرة « الّذين أساءوا » وأشركوا وعملوا بالمعاصي .

[ويجزي الّذين أحسنوا] ووحّدوا ربّهم لأنّه يعلم حالهم فيعلم ضلال من ضلّ واهتداء من اهتدى [بالحسنى] أي بالمثوبة الحسنى الّتي هي الجنّة أو بسبب أعمالهم فالحسنى للزيادة المطلقة والباء لتعدية الجزاء أو المقابلة .

[الّذين يجتنبون كبائر الإثم] صفة للّذين أحسنوا أو بدل منه و كبائر الإثم ما يكبر عقابه من الذنوب و هو ما خصّ عليه الوعيد كالشرك والزنا وقتل النفس و أمثالها [والفواحش] جمع فاحشة وهي أقبح الذنوب وأفحشها واختلف في عدد الكبائر قال ابن عبّاس : هي إلى السبعين أقرب ، وقيل : إنّ الكبيرة ما أوعد الله عليها النار والفاحشة كلّ ذنب فيه الحدّ .

[إلّا اللّمم] والاستثناء منقطع لأنّ معنى اللّمم التقارب والنزول بقربه ويعبّر به عن الصغيرة والصغائر لا تدخل في الكبائر ويمكن أن يكون الاستثناء متّصلاً لأنّ الصغيرة داخلة في أفراد الذنوب وليس خارج عنه من حيث الذات بل متفاوتة بالصفة وحاصل المعنى إلّا ماقلّ وصغر فإنّه مغفور ممّن يجتنب الكبائر وإنّ الصلاة الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفّرات لما بينهنّ إذا اجتنب الكبائر قال سبحانه : « إن تجتنبوا كبائر ماتنهون عنه نكفّر عنكم سيّئاتكم (١) »

قيل في النزول : إنّ نبهان التمّار أتته امرأة لتشتري التمر فقال لها : أدخلي الحانوت فعانقها وقبّلها فقالت المرأة : خنت أخاك ولم تصب حاجتك فندم وذهب إلى رسول الله فنزلت الآية .

قال ابن عبّاس : المعنى إلّا أن يلمّ بالمعصية مرّة أو اتّفاقاً ثمّ يتوب ولم يثبت عليها

(١) النساء : ٣٠ .

وقال بعض المحقّقين : إنّ الذنوب كلّها كبائر على الحقيقة لأنّ الكلّ يتضمّن مخالفة أمر الله تعالى لكن بعضها أكبر من بعض عند الإضافة ولا كبيرة أعظم من الشرك و أمّا اللمم فهو من جملة الكبائر أيضاً إلّا أنّ الله أراد باللمم الفاحشة الّتي يتوب عنها مرتكبها وهذا قول جماعة من علماء العامّة مثل مجاهد والحسن .

[إنّ ربّك واسع المغفرة] حيث يغفر الذنوب قال ابن عبّاس : لمن فعل ذلك و تاب ومعناه أنّ رحمته تسع الذنوب مع التوبة ولاتضيق عنه .

ثمّ قال سبحانه : [هو أعلم] منكم [بكم] أي بأحوالكم قبل أن خلقكم [إذ أنشأكم من الأرض] أي أنشأ أباكم من أديم الأرض أو المراد جميع الخلق أي خلقكم من الأرض بسبب تناول الأغذية الّتي خلقها من الأرض فكأنّه أنشأهم منها [وإذ أنتم أجنّة في بطون اُمّهاتكم] أي علم سبحانه في وقت كونكم أجنّة في الأرحام ما أنتم صانعون و صائرون و إذا علم ذلك منكم قبل وجودكم فكيف لايعلم ماحصل منكم ؟

[فلا تزكّوا أنفسكم] الفاء لترتيب النهي عن تزكية النفس أي لاتمدحوها بحسن الأعمال ولاتصفوها بالتطهير من الآثام لأنّ كلّ واحد من التخلية والتحلية إنّما يعتدّ به إذا كان خالصاً لله وإذا كان هو سبحانه أعلم بأحوالكم فلاحاجة إلى التزكية للناس فهي شرك خفيّ ومعصية جليّة [هو أعلم بمن اتّقى] المعاصي والشرك وأعلم بمن برّ و أطاع و أخلص العمل من نفس العامل وتحقيق أعلميّة الله من نفس العامل هو أنّ الإنسان علمه ولو بنفسه علم إجماليّ ومقيّد بقواه البشريّة وهو متناه بحسب تناهي قواه البشريّة و علمه تعالى به علم مطلق إذ علمه عين ذاته في مقام الأحديّة والعلم المطلق أجمع وأكمل من العلم المقيّد .

[أفرأيت الّذي تولّى * وأعطى قليلاً وأكدى] نزلت الآيات السبع « أفرأيت الّذي ، الآيات » في عثمان بن عفّان كان يتصدّق وينفق ماله فقال أخوه من الرضاعة ، عبدالله بن سعد بن أبي سرح : ماهذا الّذي تصنع ؟ يوشك أن لايبقى لك مال فقال عثمان : إنّ لي ذنوباً وإنّي بما أصنع أطلب رضى الله فقال له عبدالله : أعطني ناقتك برحلها وأنا أتحمّل عنك ذنوبك كلّها فأعطاه وأمسك بعد ذلك عن الصدقة فنزلت : « أفرأيت الّذي

تولّى » أي يوم اُحد حين ترك المركز « وأعطى قليلاً » ثمّ قطع نفقته إلى قوله : « وإنّ سعيه سوف يرى » .

قوله : «وأكدى» من أكدى حافر البئر إذا بلغ الصلابة ولا يمكن الحفر أي قطع وأبخل بعطيّته وفي تاج المصادر أي قطع القليل .

وقيل : نزلت الآيه في الوليد بن المغيرة كان يتّبع رسول الله صلى الله عليه وآله وطمع النبيّ صلى الله عليه وآله في إسلامه فعيّره بعض المشركين وقال له : تركت دين الأشياخ و ضلّلتهم ؟ فقال : أخشى عذاب الله فضمن أن يتحمّل العذاب عنه وكلّ شيء يخافه في الآخرة إن أعطاه بعض ماله فارتدّ وتولّى عن استماع الكلام النبويّ و أعطاه بعض المشروط وبخل بالباقي . و الكلام لايخلو عن التوبيخ والتهكّم ، نعوذ بالله من الحور بعد الكور (١) ومن التنكير بعد التعريف .

[أعنده علم الغيب فهو يرى] أي أعنده علم ماغاب عنه من أمر العذاب فهو يرى و يعلم أنّ صاحبه يتحمّل عنه عذابه .

[أم لم ينبّأ بمافي صحف موسى* وإبراهيم الّذي وفّى] أي ألم يخبر ولم يحدّث بما في أسفار التوراة وبما في صحف إبراهيم الّذي أكمل وأتمّ عليه السلام ما اُمر به وماأوجب الله عليه من كلّ ما اُمر .

ثمّ بيّن سبحانه مافي صحفهما وهو [ألّا تزر وازرة وزر اُخرى] أي مكتوب في صحفهما أن لا تحمل نفسٌ حمل اُخرى ولاتؤخذ نفسٌ بإثم غيرها والصحيفة الّتي يكتب فيها ويجمع على صحائف وصحف والمصحف مثلّث الميم ما جمع فيه القرآن والصحف .

و عن أبي ذرّ الغفاريّ قال : سألت رسول الله كم من كتاب أنزل الله ؟ قال صلى الله عليه وآله : مائة كتاب وأربع كتب أنزل الله على آدم عشر صحائف وعلى شيث خمسين صحيفة و على إدريس ثلاثين صحيفة وعلى إبراهيم عشر صحائف وأنزل الله التوراة والإنجيل و الزبور و الفرقان .

قال أبوذرّ : قلت يارسول الله ماكانت في صحف إبراهيم عليه السلام ؟ قال : كانت مواعظ و

(١) اى النقص بعد الزيادة .

أمثالاً منها أيّها الملك المغرور المبتلى إنّي لم أبعثك لتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ولكن بعثتك كيلا تردّ دعوة المظلوم فإنّي لاأردّها وإن كانت من كافر ، وكان فيها أمثال منها : و على العاقل مالم يكن مغلوباً على عقله أن يكون له ساعات ساعة يناجي ربّه فيها و يفكّر في صنع الله وساعة يحاسب نفسه فيما قدّم وأخّر وساعة يخلو فيها بحاجته من الحلال في المطعم والمشرب وغيرهما وعلى العاقل أن يكون بصيراً بزمانه مقبلاً على شأنه حافظاً للسانه ومن علم أنّ كلامه من عقله قلّ كلامه إلّا فيما يفيده .

وإنّما قدّم سبحانه في الذكر صحف موسى على إبراهيم لأنّ التوراة عندهم أشهر وأكثر وإنّما وصف سبحانه إبراهيم بالتوفية لأنّه عليه‌السلام بالغ في الوفاء والابتلاء واحتمل اُموراً عظيمة كالصبر على نار نمرود بيقين ثابت حتّى أتاه جبرئيل حين اُلقي في النار فقال: ألك حاجة ؟ فقال : أمّا إليك فلا، وعلى ذبح الولد وعلى الهجرة وعلى ترك أهله وولده في واد غير ذي ذرع . روي أنّه عليه‌السلام كان يمشي كلّ يوم يرتاد ضيفاً فإن وجده أكرمه وإلّا نوى الصوم وقد بذل مهجته للنيران وقلبه للرحمن وولده للقربان وماله للإخوان .

وبالجملة [و أن ليس للإنسان إلّا ماسعى] عطف على قوله : « ألّا تزر » أي وهذا أيضاً مافي صحف موسى و إبراهيم أي ليس له من الجزاء إلّا جزاء عمله و السعي المشي الذريع دون العدو ويستعمل للجدّ في الأمر و «أن» مخفّفة أي إنّ الشأن ليس للإنسان في الآخرة إلّا سعيه في الدنيا من العمل وهو بيان أنّه لايؤخذ بذنب الغير ولا يعطى ثواب عمل الغير له . قيل : كان ذلك لقوم إبراهيم وموسى وأمّا هذه الاُمّة فلهم ماسعوا وماسعى لهم غيرهم وينفع الله الآباء في الأبناء و الأبناء في الآباء وعلى ذلك قوله تعالى : «آباؤكم وأبناؤكم لاتدرون أيّهم أقرب لكم نفعاً (١)» ولما روي أنّ امرأة رفعت صبيّاً لها من محفّه وقالت : يا رسول الله ألهذا حجّ؟ قال : نعم ولك أجره و المؤمن يصل إليه ثواب العمل الصالح من غيره .

والمراد من الآية أنّ أحداً لايقدر أن يدفع ويتحمّل عن غيره العقاب وهذا الحكم عامّ في كلّ الاُمم والأقرب أن يكون قوله : «وأن ليس للإنسان إلّا ماسعى» خالصاً في

---

(١) النساء : ١٠ .

السيّئة وأمّا في الحسنة فمن باب التفضّل من العشر إلى السبعمائة وأزيد بطوله ورحمته .

قيل : إنّ من اعتقد أنّ الإنسان لاينتفع إلّا بعمله كاد أن يخرق الإجماع من الفريقين العامّة والخاصّة و ذلك باطل من وجوه :

أحدها أنّ الإنسان ينتفع بدعاء غيره وهو انتفاع بعمل الغير .

والثاني أنّ النبيّ يشفع لأهل الموقف في الحساب ثمّ لأهل الجنّة في دخولها ولأهل الكبائر في الإخراج من النار أوقبل الدخول وهذا الانتفاع بسعي الغير .

والثالث أنّ كلّ نبيّ وصالح له شفاعة وذلك انتفاع بعمل الغير .

والرابع أنّ الملائكة يدعون ويستغفرون لمن في الأرض و ذلك منفعة بعمل الغير .

والخامس أنّ الله تعالى يخرج من النار من لم يعمل خيراً قطّ بمحض رحمته وهذا انتفاع بغير عملهم .

والسادس أنّ أولاد المؤمنين يدخلون الجنّة بعمل آبائهم ذلك انتفاع بمحض عمل الغير و كذا الميّت بالصدقة عنه و أنّ الحجّ المفروض يسقط عن الميّت بحجّ وليّه عنه ولو بغير ماله و كذا تبرأ ذمّة الإنسان من ديون الخلق إذا قضاها قاض و ذلك انتفاع بعمل الغير و كذا من عليه تبعات ومظالم إذا حلّل منها سقطت عنه .

والحاصل قال ابن عبّاس في رواية الوالبيّ : إنّ هذا منسوخ الحكم في شريعتنا لأنّه سبحانه يقول : « ألحقنابهم ذرّيّاتهم[1] » و رفع درجة الذرّيّة وإن لم يستحقّوها بأعمالهم ومن قال : غير منسوخ الحكم قال : الآية تدلّ على منع النيابة في الطاعات إلّا ماقام عليه الدليل كالحجّ وهو أنّ امرأة قالت : يارسول الله إنّ أبي لم يحجّ قال ﷺ : فحجّي عنه .

[وأنّ سعيه سوف يرى] أي مايفعله الإنسان ويسعى فيه لابدّ أن يرى فيما بعد ويجازى عليه وبيّن ذلك بقوله : [ثمّ يجزاه الجزاء الأوفى] والهاء في « يجزاه » عائد إلى السعي أي يرى العبد سعيه يوم القيامة ثمّ يجزى سعيه أوفى الجزاء .

قوله تعالى : وان الى ربك المنتهى (٤٢) وانه هو اضحك وابكى (٤٣)

---

(١) الطور : ٢١ .

وانه هو أمات وأحى (٤٤) وانه خلق الزوجين الذكر والانثى (٤٥) من نطفة اذا تمنى (٤٦) وان عليه النشأة الاخرى (٤٧) وانه هو أغنى واقنى (٤٨) و انه هورب الشعرى (٤٩) وأنه اهلك عاداالاولى (٥٠) وثمود فما ابقى (٥١) وقوم نوح من قبل انهم كانواهم أظلم واطغى (٥٢) والمؤتفكة اهوى(٥٣) فغشاها ما غشى (٥٤) فبأى آلاء ربك تتمارى (٥٥) هذا نذير من النذر الاولى (٥٦) ازفة الازفة (٥٧) ليس لها من دون الله كاشفة (٥٨) أفمن هذا الحديث تعجبون (٥٩) و تضحكون ولا تبكون (٦٠) و أنتم سامدون (٦١) فاسجدوا لله واعبدوا (٦٢) .

المنتهى مصدرأي انتهاء الخلق في رجوعهم إلى الله بعد الموت لا إلى غيره فيجازيهم على أعمالهم [وأنـه] تعالى [هو] خلق قوّتي الضحك والبكاء و فعل سبب السرور والحزن و قيل : المراد أضحك أهل الجنّة في الجنّة وأبكى أهل النار في النار . وقيل : أضحك الأشجار بالأنوار (١) وأبكى السحاب بالأمطار أوأضحك المطيع بالرحمة وأبكى العاصي بالسخطة والضحك انبساط الوجه من سرور النفس وعجبٌ في القلب والبكاء جريان الدمع على الخدّ عن غمّ في القلب وربّما كان عن فرح يمازجه تذكّر حزن .

قال النبيّ ﷺ لجبرئيل : مالي لم أرميكائيل ضاحكاً قطّ؟ قال : ماضحك ميكائيل منذ خلقت النار ولقي يحيى عيسى عليه السلام فتبسّم عيسى في وجه يحيى فقال يحيى : مالي أراك لاهياً كأنّك آمن ؟ فقال عيسى : مالي أراك عابساً كأنّك آيس ؟ فقالا : لانبرح حتّى ينزل علينا الوحي فأوحى الله تعالى أحبّكما إليّ أحسنكما ظنّاً بي وفي رواية أحبّكما إليّ الطلق البسّام .

[وأنـه هوأمات و أحيا] لايقدر على الإحياء والإماتة غيره لاخلقاً ولا كسباً فان أثر القاتل نقض البنيه وتفريق الاتّصالات لكن يحصل الموت عنده بفعل الله على العادة فللقاتل نقض البنية كسباً دون الإماتة وتقديم الإماتة على الإحياء لعلّ لمراعاة الفواصل و لتقدّم العدم قبل الوجود .

[وأنـه] سبحانه [خلق الزوجين] من كلّ الحيوان صنفين [الذكر والأنثى *

(١) جمع النور بالفتح منشأ الاثمار .

من نطفة] هي الماء القليل [إذا تمنى] وتدفّق وتصبّ في الرحم من أمنى يمنى إمناءً أو من مادّة قدر إذا اُلقي على قدر يتكوّن منه الولد بقدره المقدّرة بالحكمة البالغة و آدم وعيسى وحوّاء مستثنون من هذا الأمر .

[وأنّ عليه] أي على الله [النشأة الاُخرى] أي الخلقة الاُخرى وهو الإحياء بعد الإماتة وفاء بوعده و فيه تصريح بأنّ الحكمة الإلهيّة اقتضت النشأة الثانية للجزاء و وإيصال المؤمنين إلى كمالهم اللائق بهم ولو أراد تعجيل اُجورهم في الدنيا لضاقت ثواب واحد منهم و أقلّ المؤمنين منزلةً في الجنّة من له فيها مثل الدنيا عشر مرّات فما ظنّكم بالباقي .

[وأنّه هو أغنى] أعطى الغنى وأغنى بعض الناس بالأموال [و أقنى] و أعطى بعض الناس القنية واُصول المال وما يدّخرون و يخزنون زيادة عن الكفاية . و قيل : أغنى بالقناعة وأقنى بالرضا والاقتناء حفظ المال النفيس، يقال :ليس من لس درهماً صيرفيّاً ولا من اقتنى درّاً جوهريّاً وقيل : المعنى أغنى من شاء وأقنى أي حرم من شاء . وقيل : أغنى بالذهب و الفضّة والثياب وأقنى بالإبل والبقر و الغنم و الحشم ، وإفراد القنية بالذكر بعد قوله : «أغنى» لأنّها أشرف الأموال والأوفق من المعاني المذكورة في الإقناء الفقر مراعاة لصنعة الطباق ويكون الهمزة في باب الإفعال للسلب والإزالة أي أزال المال .

[وأنّه هو ربّ الشعرى] كانت خزاعة تعبدها وأوّل من عبدها أبو كبشة من أقوام أجداد النبيّ من قبل اُمّهاته وكان المشركون يسمّون النبيّ ابن أبي كبشة لمخالفته صلى الله عليه وآله إيّاهم في الدين كما خالف أبو كبشة غيره في عبادة الشعرى والشعرى كوكب معروف نيّر خلف الجوزاء يقال له العبور وهي أشدّ بياضاً من الغميصاء وإنّ الشعرى شعريان إحداهما اليمانيّة وهي المسمّاة بالعبور وثانيتها الشاميّة وهي المسمّاة بالغميصاء فصلت المجرّة بينهما،تزعم العرب أنّ الشعرويّين اُختا سهيل وأنّ الثلاثة كانت مجتمعة فانحدر السهيل نحو اليمن و تبعته العبور فعبرت المجرّة و لقيت سهيل و أقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل فغمصت عينها فكانت أقلّ نوراً من العبور فقال أبو كبشة وهو رجل من أشراف خزاعة : إنّ النجوم تقطع السماء عرضاً وهذه تقطع طولاً فليس نجم مثلها فاتّخذوها

معبوداً فقال سبحانه : إنّه خالق الشعرى وهو مربوب ولا يصلح للإلهيّة وكلّ من كان من أهل البدع من الزنادقة والضلالة يقال له : أبو كبشة .

[وأنّه أهلك عاداً الأُولى] هي قوم هود اُهلكوا بريح صرصر وعاد الأُخرى إرم ووصفهم بالأُولى لتقدّم هلاكهم بعد قوم نوح بحسب الزمان على هلاك سائر الأُمم وعاد الأخيرة هي الّتي قاتلها موسى بأريحاء كانوا تناسلوا من الهزيلة بنت معاوية وهي الّتي نجت من قوم عاد مع بنيها الأربعة عمر وعمرو وعامر والعتيد وكانت الهزيلة من العماليق فالعاد الأخيرة أيضاً من عاد الأُولى [وثمود فما أبقى] أي وأهلك ثمود قوم صالح فما أبقى أحداً منهم .

[وقوم نوح] عطف عليه أي أهلك قوم نوح [من قبل] إهلاك قوم عاد وثمود [إنّهم] أي قوم نوح [كانوا هم أظلم] لنبيّهم [وأطغى] من الفريقين لأنّهم كانوا يضربون نوحاً حتّى لايكون به حراك وما أثّرت فيهم دعوته قريباً من ألف سنة وما آمن معه إلّا قليل .

[والمؤتفكة] هي قرى قوم لوط ائتفكت بأهلها وانقلبت أي أهلك المؤتفكة وأهلها [أهوى] أي أسقطها إلى الأرض مقلوبة والأهواء بمعنى الإلقاء وألقاها في الهاوية [فغشّاها ما غشّى] من فنون العذاب أي أستر تلك المدائن وألبس الله المؤتفكة ما ألبسها من الحجارة المنضودة المسوّمة مثل قوله تعالى [(١)]: « فغشيهم من اليمّ ما غشيهم » .

قوله : [فبأيّ آلاء ربّك تتمارى] الآلاء النعم واحدها آلى والتماري المجادلة والمحاجّة والخطاب من باب التعريض بالغير مثل قوله : « لئن أشركت ليحبطنّ عملك » وجعل الأُمور المعدودة نعماً مع أنّ بعضها نقم لما أنّها أيضاً نعم من حيث إنّها نصرة للأنبياء والمؤمنين وفيها عظات وعبر للمعتبرين وهلاك أعداء الله من أعظم آلائه الواصلة إلى المؤمنين . وحاصل المعنى بأيّ هذه النعم يشكّون ويتردّدون ويتخاصمون والخطاب لأفراد الأُمّة ولذا اُفرد لاشتمال النبيّ ﷺ على اُمّته وفيه إشارة إلى أنّه كما نصرت إخوانك من الأنبياء الماضين وأهلكت أعداءهم فكذلك أفعل بك فلا تك قلبك في حرج من عنادهم .

---

(١) طه : ٧٨

[هذا نذير من النذر الأولى] إشارة إلى القرآن أي هذا القرآن إنذار كائن من قبيل الانذارات المتقدّمة أو إشارة إلى الرسول فحينئذ النذير بمعنى المنذر لا بمعنى المصدر الّذي هو نذير أي هذا الرسول نذير من جنس المنذرين المتقدّمين وكلّ منذر متأخّر فهو من قبيل النذير المتقدّم لاتّحاد كلمتهم ودعوتهم إلى الله على بصيرة فطوبى لمن تابع وويل لمن خالف .

[أزفت الآزفة] في إيراده عقيب المذكورات إشعار بأنّ تعذيبهم مؤخّر إلى يوم القيامة تعظيماً للنبيّ ﷺ والأزف ضيق الوقت وإشارة إلى قرب الساعة ودنوّها وكلّ ما هو آت قريب [ليس لها من دون الله كاشفة] إذا غشيت الخلق شدائدها وأهوالها لم يكشف عنهم أحد ولم يردّها أي لا يكون نفس كاشفة أو جماعة كاشفة ويجوز أن يكون مصدراً كالعافية والعاقبة والواقية فيكون المعنى ليس من دون الله كشف ولا يكشف عنها غيره كقوله : « لا يجلّيها لوقتها إلّا هو »[1] أي ليس لها أنفس قادرة على إزالتها وكشفها عند وقوعها في وقتها إلّا الله ويجوز أن يكون التاء للمبالغة كتاء علامة وقيامة ، العارفين بالله المخصوصين بالولاية الكلّيّة مشهودة عنهم ولا يتوقّف شهودهم على وقوع القيامة الظاهرة كما قال سيّد الأولياء أمير المؤمنين : لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً فطوبى لمن وصل إلى حقّ اليقين .

[أفمن هذا الحديث تعجبون] استفهام إنكاريّ والعجب حالة تعرض للإنسان عند الجهل بسبب الشيء قال بعض الحكماء : العجب ما لا يعرف سببه أي أمن هذا الأخبار المتقدّمة ذكرها تعجبون قال الصادق ﷺ : هذا المعنى أو أفمن هذا القرآن ونزوله من عند الله تعجبون أيّها المشركون وهذا دليل على حدوث القرآن .

[وتضحكون] استهزاءً ولا تبكون انزجاراً وتنبيهاً من الوعيد [وأنتم سامدون] ولاهون في الغفلة ، وقيل : معرضون . وقيل : المراد الغناء بلغة الحمير لأنّ المشركين كانوا إذا سمعوا القرآن عارضوه بالغناء ليشغلوا الناس عن استماعه روي أنّه ﷺ ما رئي ضاحكاً بعد نزول هذه الآية .

(١) الاعراف : ١٨٦ .

وعن أبي هريرة : لمّا نزلت هذه الآية بكى أهل الصفّة حتّى جرت دموعهم على خدودهم فلمّا سمع رسول الله حنينهم بكى معهم فبكينا لبكائه فقال ﷺ : لا يلج النار من بكى من خشية الله ولا يدخل الجنّة مصرّ على معصية الله ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ثمّ يغفر لهم . وفي تفسير روح البيان : إنّ النبيّ ﷺ نزل عليه جبرئيل وعنده رجل يبكي فقال جبرئيل : من هذا ؟ فقال : فلان فقال جبرئيل : إنّا نزن أعمال بني آدم كلّها إلّا البكاء فإنّ الله ليطفيء بالدمعة بحوراً من نيران جهنّم .

[فاسجدوا لله واعبدوا] الفاء لترتيب موجب الأمر على ما تقرّر من بطلان مقابلة القرآن بالإنكار والاستهزاء ووجوب تلقّيه بالإيمان وكمال الخضوع أي وإذا كان الأمر كذلك وحال الكفّار ما بيّنّاه « فاسجدوا لله » الّذي فعل هذه الأمور وأنزل هذا الحديث والقرآن ، واعبدوه ولا تعبدوا غيره من ملك أو بشر فضلاً عن جماد كالأصنام والكواكب . تمّت السورة بعون الله

سورة القمر

✿(مكية)✿

عن النبيّ صلى الله عليه وآله ومن قرأ سورة اقتربت في كلّ غبّ بعث يوم القيامة و وجهه على صورة القمر ليلة البدر ومن قرأها كلّ ليلة كان أفضل وجاء يوم القيامة ووجهه مسفرّ على وجوه الخلائق .

وروى بريد بن خليفة عن الصادق عليه السلام : من قرأ سورة اقتربت أخرجه الله من قبره على ناقة من نوق الجنّة ختم الله تلك السورة بذكر أزفت الآزفة وافتتح هذه السورة بمثله فقال :

بسم الله الرحمن الرحيم

اقتربت الساعة وانشق القمر (١) وان يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر (٢) وكذبوا واتبعوا أهواءهم وكل أمر مستقر (٣) ولقد جاءهم من الانباء ما فيه مزدجر (٤) حكمة بالغة فما تغن النذر (٥) فتول عنهم يوم يدع الداع الى شيء نكر (٦) خشعا أبصارهم يخرجون من الاجداث كأنهم جراد منتشر (٧) مهطعين الى الداع يقول الكافرون هذا يوم عسر (٨) كذبت قبلهم قوم نوح فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر (٩) فدعا ربه أني مغلوب فانتصر (١٠) .

الاقتراب لزيادة مبالغة في القرب كما في اقتدر مبالغة على قدر أي قربت الساعة الّتي تموت فيها الخلائق و تكون القيامة والساعة جزءاً من أجزاء الزمان عبّر بها عن القيامة تشبيهاً لها بذلك لسرعة حسابها أو لأنّها يقوم في آخر ساعة من ساعات الدنيا أو لأنّها ساعة خفيفة يحدث فيها أمرٌ عظيم .

قال ﷺ : إنّ الله جعل الدنيا كلّها قليلاً فما بقي منها قليل من قليل ومثل ما بقي منها مثل الغدير شرب صفوه وبقي كدره فالاقتراب في الآية يدلّ على مضيّ الأكثر ويمضي الأقلّ عن قريب كما مضى الأكثر .

قال صاحب تفسير روح البيان : وقد قيل : إنّ مدّة هذه الأمة تزيد على ألف بنحو خمسمائة سنة ولا يكون الزيادة إلى خمسمائة سنة بعد الألف من الهجرة لعدم ورود الأخبار في ذلك ؛ وقد قال ﷺ : مثلي ومثل الساعة كفرس رهان فإذاً وجوده ﷺ من أشراط الساعة فمعجزاته من انشقاق القمر تكون كذلك . قيل : إنّ آدم خاطبته الدنيا و قالت : يا آدم جئت وقد انقضى شبابي . فآدم على هذا التقدير جاء إلى الدنيا وقد انقضى عمرها وبقي شيء قليل منها وعلى هذا يحمل قول من قال : إنّ عمر الدنيا سبعون ألف سنة .

وأمّا تعيين وقت الساعة فقد انفرد الله بعلمه وأخفاه عن عباده وفي الحديث : إنّ بين يدي الساعة كذّابين فاحذروهم و المراد بالكذّابين الدجاجلة وهم الأئمّة المضلّون فكلّ كذّاب مبتدع فهو من مقدّمات الدجّال وأصحابه كما أنّ كلّ أهل صدق وحق من مقدّمات المهديّ انتهى كلام صاحب روح البيان .

قوله : [وانشقّ القمر] قال ابن عبّاس : اجتمع المشركون إلى رسول الله فقالوا : إن كنت صادقاً فانشقّ القمر فرقتين فقال لهم ﷺ : إن فعلت تؤمنون ؟ قالوا : نعم ، وكانت ليلة بدر فسأل رسول الله ربّه أن يعطيه ما قالوا فانشقّ القمر فرقتين ورسول الله ينادي يا فلان يا فلان اشهدوا قال عبدالله بن مسعود : انشقّ القمر على عهد رسول الله شقّتين فقال لنا رسول الله : اشهدوا اشهدوا . وروي أيضاً عن ابن مسعود أنّه قال : والّذي نفسي بيده لقد رأيت الحراء بين فلقي القمر . وعن جبير بن مطعم قال : انشقّ القمر على عهد رسول الله فرقتين على هذا الجبل وهذا الجبل فقال ناس : سحرنا محمّد .

وقد روى حديث انشقاق القمر جماعة كثيرة من الصحابة منهم عبدالله بن مسعود و أنس بن ملاك وحذيفة بن يمان وابن عمر و ابن عبّاس وجبير بن مطعم وعبدالله عمر و عليه جماعة من المفسّرين إلّا ما روي عن عثمان بن عطا عن أبيه أنّه قال : سينشقّ القمر و أنكره الباقون .

قال البلخيّ : هذا لا يصحّ لأنّ المسلمين أجمعوا على ذلك فلا يعتدّ بخلاف من خالف فيه لأنّ اشتهاره بين الصحابة يمنع من القول بخلافه .

و من طعن في ذلك بأنّه لو وقع انشقاق القمر لما كان يخفى على أحد من أهل الأقطار فقول باطل لأنّه يجوز أن يكون الله قد حجبه عن أكثرهم لمصلحة لا نعرفها وقد رآه المقترحون . وفي كتاب فتح الباري لابن حجر : إنّ الجذع وانشقاق القمر نقل مستفيضاً يفيد القطع عند من يطّلع على طرق الحديث وأسند أبو إسحاق الزجّاج عشرين حديثاً إلّا واحداً في تفسيره في انشقاق القمر ، قال سعدي المفتي : وقد رواه ستّون أو أكثر من الصحابة .

[وإن يروا آية يعرضوا] إخبار عن حال كفّار قريش إن يروا آية من آيات الله

وهي معجزة لمحمّد صلى الله عليه وآله و دليل على صدق نبوّته يعرضوا عن التأمّل فيها ليقفوا على حقيقتها فيؤمنوا [ويقولوا] هذا [سحر مستمرّ] مطّرد دائم يأتي به محمّد صلى الله عليه وآله كسائر أنواع السحر. والاستمرار بمعنى الاطّراد أي تبع بعضه بعضاً وهو يدلّ على أنّهم رأوا قبل انشقاق القمر آيات اُخرى مترادفة حتّى يقولوا ذلك و فيه تأييد وقوع الانشقاق لا أنّه سينشقّ يوم القيامة كما قاله بعض . و يجوز مستمرّ بالكسر من المرّة والقوّة أي سحر ذوقوّة شديدة يعلو كلّ سحر وقيل : معناه مستمرّ أي ذاهب يزول ولا يبقى من المرور .

[وكذّبوا] بالنبيّ [واتّبعوا أهواءهم] الّتي زيّنها الشيطان لهم من ردّ الحقّ بعد ظهوره أوكذّبوا الآية الّتي هي الانشقاق وقالوا : سحر أعيننا والقمر بحاله ولم يصبه شيء. [وكلّ أمر مستقرّ] أي وكلّ ما وعدالله به كائن في وقته و حاصل لامحالة فالخير يستقرّ بأهله والشرّ بأهله أو أنّ المعنى كلّ أمر من خير و شرّ مستقرّ ثابت حتّى يجازي به صاحبه إمّا في الجنّة أوفي النار .

[ولقد جاءهم من الأنباء] أي وبالله لقد جاءهم يعني أهل مكّة في القرآن من الأخبار النافعة ولا يقال لخبر في الأصل : نبأ حتّى يكون ذا فائدة عظيمة يحصل به علم أو غلبة ظنّ أي أتاهم في القرآن أنباء القرون الخالية و أحوال الآخرة وما وصف من عذاب الكفّار [مافيه مزدجر] أي ازدجار أو موضع ازدجار وتاء الافتعال يقلب دالاً للتناسب في المخرج يقال : زجره أي نهاه عن السوء و وعظه غير أنّ افتعل أبلغ في المعنى من فعل وأيضاً الزجر طرد بصوت ثمّ استعمل في الطرد تارة وفي الصوت تارة فحينئذ قوله : « مزدجر » أي فيه طرد ومنع عن ارتكاب المآثم .

[حكمة بالغة] لاخلل فيها وقد بلغت الغاية في الإنذار والموعظة و هو بدل من ما أوخبر لمحذوف والحكمة بالكسر العدل والعلم والحكم والنبوّة والقرآن وإصابة الحقّ بالعلم و إذا وصف القرآن بالحكيم فلتضمّنه الحكمة و هي علميّة و عمليّة والقرآن حاولهما [فماتغني النذر] ومفعول تغني محذوف أي لم تغن النذر شيئاً إذا كذّبوا وماتنفعهم لتكذيبهم و فيه إشارة إلى عدم انتفاع النفوس المتمرّدة بإنذار منذر الروح [فتولّ عنهم] والفاء للسببيّة أي بسبب أنّ الإنذار لايؤثّر فيهم أعرض عنهم إلى أن تؤمر بقتالهم وانتظر

عقوبتهم [يوم يدع الداع] أصله يدعو الداعي لمّا حذف الواو يدعو من التلفّظ لاجتماع الساكنين حذفت في الخطّ أيضاً اتّباعاً للّفظ واُسقطت الياء من الداعي للاكتفاء بالكسرة تخفيفاً و يوم منصوب بيخرجون والداعي إسرافيل ينفخ في الصور قائماً على صخرة بيت المقدس ويدعو الأموات وينادي : أيّتها العظام البالية واللحوم المتمزّقة والشعور المتفرّقة إنّ الله يأمركنّ أن تجتمعن لفصل القضاء . و قيل : إنّ إسرافيل ينفخ و جبرئيل يدعو و ينادي بذلك و قال بعضهم : هو مجاز كالأمر في قوله : « كن فيكون » فحينئذ الدعاء في البعث مثل كن في التكوين و يكون الدعاء عبارة عن مشيّة والأصحّ بقاؤه على حقيقته .

[إلى شيء نكر] أي منكر غير معتاد بل أمر فظيع لم يروا مثله ، قرىء بضمّتين وقرىء بسكون الكاف و كلاهما بمعنى المنكر ينكره النفوس وهو هول يوم القيامة ومنه منكر و نكير لأنّه لم يعهد عند الميّت مثلها .

[خشّعاً أبصارهم] حال من فاعل « يخرجون » أي خاشعة أبصارهم و ذليلة خاضعة عند رؤية العذاب و إنّما وصف الأبصار بالخشوع لأنّ ذلّة الذليل وعزّة العزيز تتبيّن و تظهر في العين [يخرجون من الأجداث] أي القبور حال كونهم ذليلين [كأنّهم جراد منتشر] في الكثرة والتموّج والتفرّق في الأقطار .

[مهطعين إلى الداع] أي مسرعين إلى جهة الداعي مادّين أعناقهم إليه ناظرين إليه لايقلعون بأبصارهم يقال : هطع الرجل إذا أقبل ببصره على الشيء لايقلع عنه وأهطع إذا مدّ عنقه وأهطع في عدوه إذا أسرع .

[يقول الكافرون] استيناف وقع جواباً عمّا نشأ من وصف اليوم بالأهوال كأنّه قيل : فما ذا يكون حينئذ فقيل في الجواب: يقول الكافرون [هذا يوم عسر] أي صعب شديد علينا فيمكثون بعد الخروج من القبور واقفين أربعين سنة يقولون : أرحنا من هذا أو إلى النار ثمّ يؤمرون بالحساب وفي إسناد القول المذكور إلى الكفّار تلويح بأنّ المؤمنين ليسوا في تلك المرتبة من الشدّة بل ذلك اليوم يسير لهم ببركة إيمانهم و أعمالهم بل المطهّرون الّذين ما تدنّست بواطنهم بالشبهة المضلّة ولا ظواهرهم أيضاً بالمخالفات الشرعيّة آمنون .

[كذّبت قبلهم قوم نوح] أي فعل التكذيب قبل قومك قوم نوح تسلية للرسول [فكذّبوا عبدنا] نوحاً تفسير لذلك التكذيب المبهم مثل قوله[1]: «ونادى نوح ربّه فقال ربّ» فالمكذّب والمقامان واحد والفاء تفصيليّة تفسيريّة تعقيبيّة في الذكر فإنّ التفصيل يعقّب الإجمال وفي ذكره بعنوان العبوديّة مع الإضافة إلى نون العظمة تفخيم لنوح عليه السلام ورفع لحاله و زيادة تشنيع لمكذّبيه و إشارة إلى أنّه لاشيء أشرف من العبوديّة.

[وقالوا] في حقّه [مجنون] قد غطي على عقله [وازدجر] أي وزجر بالشتم والرمي بالقبيح وتوعّد بالقتل ومنع عن التبليغ بأنواع الأذيّة وقيل: المعنى أنّ وازدجر من جملة ماقالوه أي هو مجنون وقد ازدجرته الجنّ وتخبّطته وأفسدته وذهبت بلبّه.

[فدعا ربّه] أي لمّا زجروا نوحاً عن الدعوة ومنعوه أشدّ المنع و بلّغ مدّة التبليغ وكمل إلى تسعمائة وخمسين سنة دعا ربّه [أنّي مغلوب] أي بأنّي مغلوب من جهة قومي و مالي قدرة على الانتقام منهم [فانتصر] فانتقم لي منهم وذلك بعد تقرّر يأسه منهم فقد روي أنّ الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتّى يخرّ مغشيّاً فيفيق و يقول: اللهمّ اغفر لقومي فإنّهم لايعلمون فلمّا أذن الله له في الدعاء للإهلاك دعا فأُجيب كما قال في الصافّات: «و لقد نادانا نوح فلنعم المجيبون»[2].

ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر (١١) و فجرنا الارض عيونا فالتقى الماء على امر قد قدر (١٢) وحملناه على ذات الواح و دسر (١٣) تجرى باعيننا لمن كان كفر (١٤) ولقد تركناها آية فهل من مدكر (١٥) وكيف كان عذابى ونذر (١٦) و لقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (١٧) كذبت عاد فكيف كان عذابى و نذر (١٨) انا ارسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر (١٩) تنزع الناس كانهم أعجاز نخل منقعر (٢٠) فكيف كان عذابى ونذر (٢١) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٢٢).

ثمّ بيّن سبحانه إجابته لدعاء نوح فقال:

[ففتحنا أبواب السماء] ههنا حذف تقديره فاستجبنا لنوح دعاءه فأجرينا الماء من السماء كجريانه إذا فتح عنه باب كان مانعاً له و ذلك من صنع الله الّذي لايقدر عليه

(١) هود: ٤٥ (٢) الصافات: ٧٥.

سواء [بماء منهمر] الهمر صبّ الدمع والماء ؛ همره يهمره صبّه و انهمر انسكب و سال و المعنى بماء كثير منصبّ لم ينقطع أربعين يوماً و كان مثل الثلج بياضاً و برداً و الباء للملابسة .

[وفجّرنا الأرض عيوناً] أي شققنا الأرض بالماء عيوناً حتّى جرى الماء على وجه الأرض قيل : وكان ماء الأرض مثل الحميم حرارة وأصله:وفجّرناعيون الأرض،فعبّر عن المفعوليّة إلى التمييزقضاءً لحقّ المقام من المبالغة .

[فالتقى الماء] أي ماء السماء وماء الأرض وارتفع على أعلى جبل في الأرض مائتين ذراعاً [على أمر قدقدر] على حال قد قدّره الله أوعلى حالة قدّرت وهو أنّ قدر ما أنزل الله من السماء على قدرما اُخرج من الأرض أوالمعنى على أمر قدّره الله في اللوح المحفوظ و هو هلاك قوم نوح وإنّما لم يثنّ ولم يقل : فالتقى الماءان لأنّه اسم الجنس يقع على القليل والكثير .

[و حملناه على ذات ألواح] أي حملنا نوحاً على سفينة ذات ألواح مركّبة جمع بعضها إلى بعض وألواحها خشباتها الّتي صنعت منها واللوح كلّ صحيفة عريضة [ودسر] جمع دسار وهو الدفع الشديد بقهر سمّي به المسمار لأنّه يدسر به منفذه و يدفع بالدقّ .

[تجري بأعيننا] أي تجري السفينة و تسير بمرءى منّا و محفوظة بحفظنا و منه قولهم للمودّع : عين الله عليك [جزاء لمن كان كفر] أي فعلنا بهم مافعلنا من إغراقهم جزاء لمن جحد نبوّته و كفر بالله .

[ولقد تركناها آية فهل من مدّكر] قيل : الضمير راجع إلى الفعلة وهي الغرق وقيل : راجع إلى السفينة أبقاها الله دهراً طويلاً بباقردى من بلاد الجزيرة و في تفسير أبي الليث إنّ تلك السفينه كانت باقية على الجبل الجودي قريباً من خروج النبيّ صلى الله عليه وآله ثمّ اضمحلّت ألا ترى أنّ مقام إبراهيم مع كونه حجراً صلداً لم يبق أثره بكثرة مسح الأيدي ثمّ لم يبق نفسه على ماهو الأصحّ والمعروف بالمقام الآن هو مقام ذلك المقام و قيل : المراد من قوله : « وتركناها » أي جنس السفينة صارت عبرة وأنّ الناس لم يعرفوا قبل ذلك سفينة واتّخذوا السفن بعد ذلك في البحر فكذلك كانت آية للناس .

قال بعضهم : لم يكن في الدنيا قبل الطوفان إلّا البحر المحيط و ذلك أنّ الله أمر الأرض بعد الطوفان فابتلعت ماءها وبقي ماء السماء لم تبلعه الأرض فهذه البحور على وجه الأرض منها وأمّا البحر المحيط فغير ذلك بل هو جزر عن الأرض حين خلق الله الأرض من زبده وإليه الإشارة بقوله : « وكان عرشه على الماء » وبالجملة وكان نوح نجّاراً فجاء جبرئيل وعلّمه صنعة السفينة « فهل من مدّكر » أصله مدتكر اُدغمت الدال في التاء ثمّ قلبت دالاً مشدّدة .

[فكيف كان عذابي ونذر] استفهام تعجيب وتعظيم على كيفيّة هائلة لايحيط بها الوصف والنذر جمع نذير أصله نذيري حذفت الياء واكتفي بالكسرة .

[و لقد يسّرنا القرآن] أي و بالله لقد سهّلنا القرآن لقومك بأن أنزلناه على لغتهم كما قال : « فإنّما يسّرناه بلسانك » [للذكر] بأن وشّحناه بأنواع العبر والمواعظ وعن الحسن عن النبيّ ﷺ لولاقول الله : «ولقد يسّرنا القرآن للذكر» لما أطاقت الإنس أن يتكلّم به [فهل من مدّكر] إنكارونفي للمتّعظ .

[كذّبت عاد] بالرسول الّذي بعثه الله إليهم وهو هود فاستحقّوا الهلاك فأهلكهم .

[فكيف كان عذابي] لهم [ونذر] أي وإنذاري .

ثمّ بيّن كيفيّة إهلاكهم فقال : [إنّا أرسلنا عليهم ريحاً صرصراً] أي شديدة الهبوب وقيل : المراد من الصرّ وهو البردأومن صرّ الباب و القلم أي شديدة الصوت وهي ريح الدبور وتقدّم تفصيله [في يوم نحس] النحس ضدّ السعد أي شؤوم [مستمرّ] صفة ليوم أونحس أي استمرّ شؤمه عليهم واتّصل عذابهم في الدنيا حتّى اتّصل بالعقبى وروى العيّاشيّ عن أبي جعفر أنّه كان في يوم الأربعاء آخر الشهر لاتدور و يمكن أن يكون المراد من اليوم الحين وابتداء ذاك يوم الأربعاء .

[تنزع الناس] أي ريحاً تقلع الناس روي أنّهم دخلواالشعاب والحفر و تمسّك بعضهم ببعض فنزعتهم الريح وصرعتهم موتى أو ينزع أرواحهم من أجسادهم دامت عليهم سبع ليالي وثمانية أيّام كيلا ينجو منهم أحد ممّن في كهف أوسرب فأهلكت من كان ظاهراً و مستتراً بالاقتلاع و الهدم أوالجوع والعطش [كأنّهم أعجاز نخل منقعر] عجز الإنسان

مؤخره والنخل اسم جنس يفرق بين جمعه وواحده بالتاء ، والمنعقر المنقلع عن أصله قيل : شبّهوا بأعجاز النخل وهي أُصولها بلا فروع لأنّ الريح كانت تقلع رؤوسهم فتبقى أجساداً وجثثاً بلا رؤوس .

قال أبو الليث : صرعتهم و كبّتهم على وجوههم كأنّهم أُصول نخل منقلعة من الأرض فشبّههم لطولهم بالنخل الساقط قال مقاتل : كان طول كلّ واحد منهم اثني عشر ذراعاً و قال الكلبيّ : كان طول كلّ واحد منهم سبعين ذراعاً فاستهزءوا حين ذكر لهم الريح فخرجوا إلى الفضاء وضربوا بأرجلهم وغيّبوا في الأرض إلى قريب من الركبة فقالوا : قل للريح حتّى ترفعنا فجاءت الريح وجعلت ترفع كلّ اثنين وتضرب أحدهما بالآخر بعد ما ترفعهما في الهواء ثمّ تلقيهما في الأرض ثمّ رمت بالرمل والتراب عليهم .

[فكيف كان عذابي ونذر * ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر] مرّ تفسيرها .

كذبت ثمود بالنذر (٢٣) فقالوا ابشرا واحداً منا نتبعه انا اذا لفى ضلال وسعر (٢٤) .

[كذّبت ثمود بالنذر] أي الأنذار الّتي سمعوها من صالح أو بالرسل فإنّ تكذيب أحدهم تكذيب للكلّ للاتّفاق على الأُصول [فقالوا أبشراً منّا] أي من جنسنا وانتصاب بشر بفعل يفسّره ما بعده [واحداً] أي منفرداً لاتبع له أو واحداً من آحادهم لامن أشرافهم [نتّبعه] في أمره [إنّا إذاً لفي ضلال وسعر] أي تقدير اتّباعنا له وهو منفرد ونحن أُمّة ، في الغواية عن الحقّ والصواب وجنون ، يقال : ناقة مسعورة إذا كان بها جنون وأصله التهاب الشيء .

ءالقى الذكر عليه من بيننا بل هو كذاب أشر (٢٥) سيعلمون غدا من الكذب الاشر (٢٦) انا مرسلوا الناقة فتنة لهم فارتقبهم و اصطبر (٢٧) ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر (٢٨) فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر (٢٩) فكيف كان عذابى و نذر (٣٠) انا ارسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر (٣١) ولقد يسرنا القرءان للذكر فهل من مدكر (٣٢).

[ءأُلقي الذكر] بقيّة من كلام القوم أي ءأُلقي الكتاب والوحي [عليه من بيننا] و

فينا من هو أحقّ بذلك والاستفهام للإنكار [بل كذّاب أشر] شديد الكذب فيما يقوله بطر متكبّر يريد أن يتعظّم علينا بالنبوّة [سيعلمون غداً من الكذّاب الأشر] و هذا وعيدلهم سيعلمون يوم القيامة إذا نزل بهم العذاب أهوالكذّاب أم هم في تكذيبه فذكر مثل لفظهم مبالغةً في توبيخهم وإنّما قال : « غداً » على وجه التقرّب على عادة الناس كما يقال : إنّ مع اليوم غداً .

[إنّا مرسلو الناقة فتنة لهم] باعثو الناقة بإنشائها على ماطلبوها معجزة لصالح واختباراً لهم إذ بها يتميّز المثاب من المعاقب [فارتقبهم] أي انتظر ياصالح فيهم أمرالله [واصطبر] على ما يصيبك من الأذى حتّى يأتي أمرالله .

[ونبّئهم أنّ الماء قسمة بينهم] يوم للناقة ويوم لهم [كلّ شرب محتضر] أي كلّ نصيب من الماء يحضره أهله لايحضر آخر معه ففي يوم الناقة يحضر الناقة وفي يومهم يحضرونه وحضر واحتضر بمعنى واحد وإنّما قال : « قسمة بينهم » تغليباً لمن يعقل .

[فنادوا صاحبهم] و هو قدار بن سالف بضمّ القاف وكان قصيراً شريراً أزرق أشقر أحمر يلقّب بأُحيمر ثمود [فتعاطى فعقر] مجاز عن الاجتراء والتعاطي تناول الشيء بتكلّف والعقر ضرب القوائم أي فاجترأ صاحبهم قدار على تعاطي الأمر العظيم فأحدث العقر بالناقة ومعنى « نادوا صاحبهم » أي نبّهوا قدار على مجيء الناقة وقربها من مكمنه .

[فكيف كان عذابي ونذر] مرّ تفسيره [إنّا أرسلنا عليهم صيحة واحدة] هي صيحة جبرئيل جزاء الوفاق لفعلهم فإنّهم صاروا سبباً لصيحة الولد بقتل أُمّه [فكانوا كهشيم المحتظر] أي فصاروا لأجل تلك الصيحة بعد أن كانوا في نضارة عيش ودعة كاليابس المكسّر من الشجر وغيره وأصله جمع الشيء في حظيرة والمحتظر بكسر الظاء الّذي يجمع و يعمل الحظيرة قال الجوهريّ : الحظيرة الّتي تعمل للإبل من الشجر لتقيها البرد و الريح .

[ولقد يسّرنا القرآن للذكر فهل من مدّكر] مرّ تفسيره . ونعم المذكّر القرآن لكن لصالح النفس لالثمود النفس :

وما ينفع الأصل من هاشم * إذا كانت النفس من باهلة

و هي قبيلة تعرف بالدناءة و حقيقة النفس واحدة غير متعدّدة لكن بحسب توارد الصفات المختلفة عليها تسمّى بالأسماء المختلفة فإذا توجّهت إلى الحقّ توجّهاً تسمّى بالمطمئنّة وإذا توجّهت إلى الطبيعة البشريّة توجّهاً كلّيّاً تسمّى بالأمّارة وإذا توجّهت إلى الحقّ تارة وإلى الطبيعة اُخرى تسمّى اللوّامة .

كذبت قوم لوط بالنذر (٣٣) انا ارسلنا عليهم حاصباً الا آل لوط نجيناهم بسحر (٣٤) نعمة من عندنا كذلك نجزى من شكر (٣٥) ولقد أنذرهم بطشتنا فتماروا بالنذر (٣٦) ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم فذوقوا عذابى ونذر (٣٧) ولقد صبحهم بكرة عذاب مستقر (٣٨) فذوقوا عذابى ونذر (٣٩) ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر (٤٠) ولقد جاء آل فرعون النذر (٤١) كذبوا بآياتنا كلها فاخذناهم أخذ عزيز مقتدر (٤٢) .

[كذّبت قوم لوط] بالإنذار أوبالمنذرين وهم الرسل ومن كذّب نبيّاً فقد كذّب بالأنبياء [إنّا أرسلنا عليهم حاصباً] ريحاً حصبتهم ورمتهم بالحجارة و الحصباء ، يريد ما حصبوا من الحجارة في الريح قال الفرزدق :

مستقبلين شمال الشام تضربنا * بحاصب كنديف القطن منشوراً

ثمّ استثنى آل لوط ، خلصناهم بسحر من ذلك العذاب من الأسحار وهو السدس الأخير من الليل أو السحر وقت اختلاط ظلام آخر الليل بصفاء النهار و الاستثناء منقطع لأنّه مستثنى من الضمير في عليهم ولايدخل فيهم آل لوط [نعمة من عندنا] أنعمنا إنعاماً منّا [كذلك] مثل ذلك الجزاء [نجزي من شكر] نعمتنا بالإيمان و الطاعة من المؤمنين .

[ولقد أنذرهم بطشتنا] أنذر لوط عليه السلام أخذتنا الشديدة بالعذاب [فتماروا] فكذّبوا [بالنذر] متشاكّين وأصله تماريوا على وزن تفاعلوا .

[ولقد راودوه عن ضيفه] والمراودة أن تنازع غيرك في الإرادة فترود غير ما يرودہ لأنّهم أرادوا من لوط تمكينهم من أضيافه وهم الملائكة في صورة الشبّان ومعهم جبرئيل وقصدوا الفجور بهم ظنّاً منهم أنّهم بشر .

[فطمسنا أعينهم] والطمس المحو واستيصال أثر الشيء أي مسحناها و سوّيناها كسائر الوجه بحيث لم يرلها شقّ روي أنّهم لمّا دخلوا دار لوط عنوة صفقهم جبرئيل بجناحه فتركتهم يتردّدون لايهتدون إلى الباب حتّى أخرجهم لوط والصفق الضرب الّذي ليس له صوت .

[فذوقوا] قلنا لهم على ألسنة الملائكة : ذوقوا [عذابي ونذر] والطمس من جملة ما أنذروه [ولقد صبّحهم بكرة] أي جاءهم وقت الصبح [عذاب] الخسف والحجارة[مستقرّ] يستقرّ بهم ويثبت لايفارقهم حتّى يفضي بهم إلى النار عذاب دائم متّصل بعذاب القيامة لأنّهم ينتقلون إلى البرزخ الموصول بالقيامة كما أشار إلى هذا المعنى قوله ﷺ : من مات قامت قيامته .

[ولقد يسّرنا القرآن للذّكر فهل من مدّكر] مرّ مافيه من التفسير .

[ولقد جاء آل فرعون النذر] أي و بالله لقد جاءهم الإنذارت من جهة موسى و هارون [كذّبوا بآياتنا كلّها] يعني الآيات التسع وهي اليد والعصا والطوفان والجراد والقمّل والضفادع والدم وحلّ عقدة من لسانه وانفلاق البحر .

[فأخذناهم] بالعذاب عند التكذيب [أخذ عزيز] لايغالب [مقتدر] ولا يعجزه شيء والعذاب هو الإغراق في بحر القلزم أو النيل ولعلّ سرّ العذاب بالغرق أنّ فرعون كفر نعمة وجود موسى حيث و صل فرعون إلى تلك النعمة بسبب الماء الّذي ساقه إليه في تابوته فلم يشكر لانعمة الماء ولانعمة موسى فانقلب النعمة نقمة فأهلكه بالماء .

قوله : أكفاركم خير من اولئكم ام لكم براءة في الزبر (٤٣) ام يقولون نحن جميع منتصر (٤٤) سيهزم الجمع و يولون الدبر (٤٥) بل الساعة موعدهم والساعة أدهى و أمر (٤٦) ان المجرمين في ضلال و سعر (٤٧) يوم يسحبون في النار على وجوههم مس سقر (٤٨) انا كل شيء خلقناه بقدر (٤٩) وما امرنا الا واحدة كلمح بالبصر (٥٠) ولقد اهلكنا أشياعكم فهل من مدكر (٥١) وكل شيء فعلوه في الزبر (٥٢) وكل صغير وكبير مستطر (٥٣) ان المتقين في جنات و نهر (٥٤) في مقعد صدق عند مليك مقتدر (٥٥) .

[أكفّاركم] يامعشر العرب [خيرٌ] عندالله قوّة وشدّة [من أُولئكم] المعدودين من قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون و أصابهم ما أصابهم مع كونهم أقوى منكم عدّةً وعدداً فهل تطمعون أن لايصيبكم مثل ذلك [أم لكم براءة في الزبر] إضراب أي بل ألكم براءة وأمن من عذاب الله بمقابلة كفركم نازلة لكم في الكتب السماويّة فلذلك تصرّون على كفركم وتأمنون بتلك البراءة .

[أم يقولون] جهلاً منهم : [نحن جميع منتصر] والالتفات للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب أي بل أيقولون واثقين بشوكتهم نحن اُولوحزم وأمرنا مجتمع لانرام ولانضام ومتناصرين ينصر بعضنا بعضاً على أن يكون افتعل بمعنى تفعّل مثل اختصم والإفراد في منتصر باعتبار لفظ جميع قال أبوجهل ـ وقد ركب فرساً كميتاً وقد حلف أنّه يقتل محمّداً ﷺ ـ: وننتصر اليوم من محمّد وأصحابه . وجرّ رأسه إلى رسول الله ابن مسعود .

[سيهزم الجمع ويولّون الدبر] ردّ وإبطال لقولهم أي سيهزم جمع قريش البتّة و يولّون الأدبار والإفراد في الدبر إرادة الجنس أي ينصرفون عن الحرب منهزمين وينصر الله رسوله والمؤمنين وقد كان ذلك يوم بدر قال ابن عبّاس : بين نزول هذه الآية وبدر سبع سنين فالآية على هذا مكّيّة .

[بل الساعة موعدهم] أي ليس هذا تمام عقوبتهم بل القيامة موعد أصل عذابهم وهذا العذاب القليل من طلائعه [والساعة أدهى] والقيامة أعظم داهية و أقصى غاية من الفظاعة والداهية الأمر الّذي لايهتدي إلى الخلاص منه [وأمرّ] وأشدّ مرارةً كما أنّ نار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نارها .

[إنّ المجرمين] أي المشركين والكافرين من الأوّلين والآخرين [في ضلال وسعر أي في هلاك و نيران مسعرة ملتهبة أي في هلاك و ضلال عن الحقّ في الدنيا و نيران في الآخرة .

[يوم يسحبون] أي يوم القيامة يجرّون في نارجهنّم على وجوههم يقال لهم :

[ذوقوامسّ سقر] على لحنهم ولذلك لم يصرف أواسم لطبقتها الخامسة من سقرته النار إذا غيّرته والمسّ كاللمس وهو إدراك ظاهر البشرة أي قاسوا حرّها و ألمها فإنّ مسّها سبب للتألّم بها .

[إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر] من الأشياء وهو منصوب بفعل يفسّره ما بعده ، خلقناه بقدر متعيّن اقتضته الحكمة الّتي عليها يدور أمر التكوين فقدر بمعنى التقدير وهو تسوية صورته وشكله وصفاته أوالمعنى خلقناه مقدّراً مكتوباً في اللوح قبل وقوعه فحينئذ المراد تقديره في علمه الأزليّ قضاءً فالقضاء وجود جميع المخلوقات في اللوح و القدر وجودها في الأعيان بعد حصول شرائطها والتعبير عن الخلق متعلّق بالوجود الظاهريّ في الوقت المعيّن وفي الحديث كتب الله مقادير الخلق كلّه قبل أن يخلق السماوات والأرض خمسين ألف سنة وعرشه على الماء .

[وما أمرنا] لشيء نريد تكوينه [إلّا واحدة] لا تثنّى سريعة التكوين يعبّر بالكلمة أي كن لأنّه تعالى تكلّم بكن و المراد إرادة من كن الإرادة المحضة [كلمح بالبصر] اللمح لمعان البرق وسرعة النظر وحاصل المعنى أنّ قضاءه في الخلق أسرع من لمح البصر .

[ولقد أهلكنا أشياعكم فهل من مدّكر] أي أشباهكم في الكفر من الأُمم جمع شيعة وهو من يتقوّى به من الإنسان وأنصاره وأتباعه ويقع على الواحد والاثنين والجمع والمذكّر والمؤنّث [فهل من مدّكر] متّعظ يتّعظ بذلك فيخاف .

[وكلّ شيء فعلوه في الزبر] من الكفر و المعاصي مكتوب على التفصيل في ديوان الحفظة جمع زبور بمعنى الكتاب فهو بمعنى مذبور كالكتاب بمعنى المكتوب [وكلّ صغير وكبير] من الأعمال [مستطر] ومسطور في الكتاب بتفاصيله يقال : استطره أي كتبه ، روي أنّ النبيّ ﷺ ضرب لصغائر الذنوب مثلاً فقال : إنّما محقّرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض و حضر جميع القوم فانطلق كلّ واحد منهم بحطب فجعل الرجل يجيء بالعود والآخر بالعود حتّى جمعوا سواداً وأجّجوا ناراً فشووا خبزهم و لحمهم وإنّ

الذنب الصغير يجتمع على صاحبه فيهلكه إلّا أن يغفرالله له. اتّقوا صغائر الذنوب ومحقّراتها فإنّ لها من الله طالباً ولقد أحسن من قال :

خلّ الذنوب صغيرها و كبيرها ذاك التقى

و اصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرنّ صغيرة إنّ الجبال من الحصى

[إنّ المتّقين] من المعاصي [في جنّات] أي بساتين عظيمة الشأن [و نهر] أي أنهار الماء والخمر والعسل واللبن والإفراد للاكتفاء باسم الجنس مراعاة للفواصل [في مقعد صدق] خبر بعد خبر والصدق بمعنى الجودة أي في مكان مرضيّ ومجلس حقّ و سالم من الكدورات [عند مليك مقتدر] المراد من العنديّة قرب المكانة لاقرب المكان و المسافة و المليك أبلغ من المالك والتنكير للتعظيم قال الصادق عليه السلام : مدح الله المكان بالصدق فلا يقعد فيه إلّا أهل الصدق وهو المكان الّذي يصدق الله فيه وعده لأوليائه .

روي وهذه الرواية من طرق العامّة ، روى صالح بن حيّان عن عبدالله بن بريدة أنّه صلى الله عليه وآله قال في هذه الآية : إنّ أهل الجنّة يدخلون كلّ يوم مرّتين على الجبّار تعالى فيقرءون عليه القرآن وقد جلس كلّ امرىء مجلسه الّذي له ومجلسي على منابر الدرّ و الياقوت والزمرّد والذهب والفضّة بأعمالهم فلم تقرّ أعينهم بشيء قطّ كما تقرّ أعينهم بذلك ثمّ ينصرفون إلى رحالهم ناعمين قريرة أعينهم إلى مثلها من الغد .

اقول : ومن المعلوم أنّ المراد بالدخول عليه تعالى دخول القرب و المكانة والشرف في موضع مخصوص في الجنّة وليس المراد أنّه تعالى متحيّز في مكان من الجنّة و هؤلاء يدخلون عليه تعالى شأنه أن يكون متحيّزاً في مجلس و مكان و هذا معنى قوله عليه السلام : الفقراء جلساء الله و معلوم أنّ مقصد الصدق لايقعد فيه إلّا الصادقين ولابدّ أن يكون صادقاً في قوله في الدنيا وفعله فيصون اللسان عن الكذب الّذي هو أقبح الذنوب .

قال صلى الله عليه وآله : التجّار هم الفجّار فقيل : أليس الله قد أحلّ البيع ؟ قال : نعم ولكنّهم يحلفون فيأثمون ويحدّثون فيكذبون قال صلى الله عليه وآله : الكذب ينقص الرزق. في الحديث: أربع من كنّ فيه فهو منافق وإن

صام وصلّى وزعم أنّه مسلم : إذا حدّث كذب وإذا وعد
أخلف وإذا ائتمن خان وإذا خاصم فجر، وأمّا الصدق
في فعله بأن يصون حاله عمّا ينقصه ويفسد عمله
غير خالص لله ولابدّ أن يكون عزمه مستمرّة
على دوام الطاعة . نسأل الله أن يرزقنا
الصدق والكرامة إنّه حميد مجيد .
تمّت السورة

نجز الجزء العاشر من الكتاب وقد فسّر فيه
ثلاث عشرة سورة وهي . الشورى ، الزخرف ،
الدخان ، الجاثية ، الأحقاف ، محمّد ،
الفتح ، الحجرات ، ق ، الذاريات ،
الطور ، النجم ، القمر .
ولله الحمد